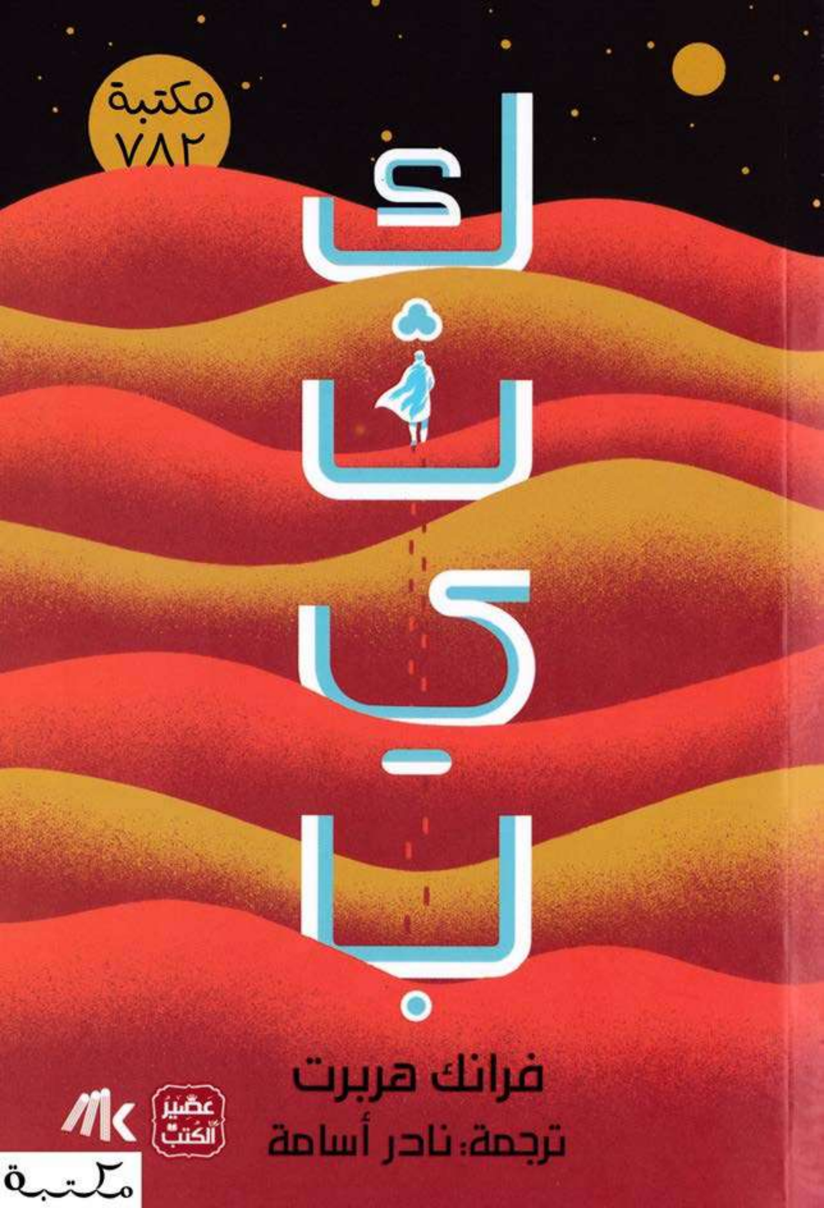

مكتبة
٧٨٢
كثيب
فرانك هربرت
عصير الكتب
ترجمة: نادر أسامة
مكتبة



كثيب

كثيب

فرانك هربرت

ترجمة: نادر أسامة

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الالكتروني:

www. kalemat.com

دار عصير الكتب

مصر 2021



ردمك: 978-9921-730-74-6

كثيب

فرانك هربرت

مكتبة | 782
سُر مَن قرأ

ترجمة:

نادر أسامة

2021

kalemat



إلى من تتخطَّى جهودهم نطاق الأفكار وتطول العالم المادي،
إلى علماء بيئة الأراضي الجافة أينما كانوا ووقتما كانوا،
أُهدي ثمرة هذا الجهد المبذول في التنبُّؤ، بكل تواضعٍ وإعجاب.



المحتويـــات

توطئةٌ لا بُدَّ منها

(عن التعامل مع الكلمات العربية الواردة في النصِّ الأصلي)

تُعدُّ رواية «كثيب» -التي نُشرت أوَّل مرَّة عام 1965- واحدةً من أهم ملاحم الخيال العلمي التي تمخَّضت عنها قريحة مؤلِّف في القرن العشرين، وقد نجحت في اجتياز اختبار الزَّمن بنجاحٍ تام. كما أنها رُبَّما تكون المثال الأبرز على تضفير الموروث الثقافيِّ العربي/ الإسلامي في الأدب الغربي. في عالمه الخيالي، استخدم فرانك هربرت -الذي يبدو أنه تأثَّر تأثُّرًا كبيرًا بالثقافات الإسلامية- عددًا غير قليل من الألفاظ المشتقَّة والمأخوذة والمحرَّفة عن اللغة العربية. صحيح أن استعمل بعضًا من هذه الألفاظ في غير محلِّها، وحمَّلها بمعانٍ بعيدة تمامًا عن معناها الأصلي، إلَّا أن هذا لا يشير بالضرورة إلى عدم إلمامه بمعاني الألفاظ التي استخدمها، بل من الممكن ردّه إلى الرخصة الإبداعية التي تمنح المؤلِّف حق تطويع الكلمات والألفاظ والأسماء كما يشاء لإثراء عالمه الخيالي.

لذا، وحتَّى لا تتوه الكلمات العربية التي أوردها المؤلِّف في النص الأصلي بين آلاف الكلمات العربية الأخرى التي تُكوِّن النص المترجم القابع بين يديك (ما قد يفقده جزءًا مهمًّا من مذاقه الخاص) ارتأيت وضع نجمة صغيرة -بلا هامش- أعلى اللفظ عند ظهوره لأوَّل مرَّة. حين تصادف هذه النجوم في أثناء القراءة، اعلم أن «الكلمة العربية» التي تقرأها وردت كذلك في النصِّ الأصلي، أو أنها كلمة مُحرَّفة النطق رُدَّت إلى نطقها العربي. وأنصحك وقتها بالرجوع إلى المسرد الوارد في نهاية الكتاب

لتذوُّق النطق الغربي المُحرَّف للكلمة، لما في ذلك من إثراء لتجربة القراءة.

ومن ناحيةٍ أخرى، لم أحبِّذ ردَّ بعض الكلمات إلى أصولها العربية، وآثرتُ الإبقاء عليها كما هي بالنطق والرَّسم المحرَّفين، ففي النهاية هذه رواية تدور أحداثها بعد نحو 20 ألف سنة من عصرنا، بعد أن استوطن البشر عددًا غير محدَّدٍ من الكواكب المنتشرة في المجرَّة، وفي هذا سببٌ أكثر من كافٍ لتحريف ألفاظ أيِّ لغة. الكلمات التي فضَّلت الإبقاء عليها مُحرَّفةً ستجدها أيضًا في المسرد، لكنِّني لن أُميِّزها بنجمة في النص، لأنها في هذه الحالة مثلها مثل أيِّ لفظ غريب آخر ابتكره المؤلِّف أو اشتقَّه من جذور لغاتٍ أخرى غير العربية.

أيضًا يُرجى عند مراجعة المسرد ملاحظة أن بعض التفسيرات التي أوردتها فيه بين القوسين المعكوفين [..] ليست قاطعةً أو نهائيةً، فالأمر برمَّته مجرَّد جهد قد يصيب أو يُخطئ، ومحاولة لاستقراء التشابه بين الألفاظ المستخدمة وجذورها العربية. القول الفصل في هذا الأمر لفرانك هربرت نفسه، وبما أنه رحل عن عالمنا دون إماطة اللثام عن عنه أو شرحه بنفسه، فلن نستطيع أن نعرف أبدًا على وجه اليقين ما كانت تعنيه كل كلمة في ذهنه.

شيءٌ آخر أنصح به هو محاولة إلقاء نظرة سريعة على المسرد الذي أورده فرانك هربرت لتفسير عالمه قبل القراءة، لأخذ فكرةً عامَّة عن المصطلحات الغريبة الكثيرة الواردة في الرواية. أو على الأقل الرجوع إليه في كلِّ مرَّة تصادف فيها مصطلحًا جديدًا يصعب فهمه من السياق، ففي هذا تسهيل كبير لعملية هضم واستيعاب النَّصِّ، وإزالة لبعض الغموض الذي قد يستشعره من يخطو بقدميه في عالم «كثيب» الثري المتشابك للمرَّة الأولى.

الكتاب الأوَّل

كثيب

البداية هي أنسب وقت يتحقَّق فيه المرء من صحَّة موازينه. هذه حقيقة تعرفها كل أخت من أخوات البِني چيسيرِت. لذا عند الشروع في دراسة حياة المؤدِّب*، احرص أوَّلًا على تحديد زمنه الصحيح: وُلِد في العام 57 من حُكم الإمبراطور الپاديشاه شادام الرَّابع. وكن أشدَّ حرصًا وأنت تحدِّد مكانه الصحيح: كوكب أرَّاكس. لا تخدعنَّك حقيقة أنه وُلِد على كوكب كلادان، حيث عاش أوَّل خمسة عشر عامًا من حياته. فأرَّاكس، ذلك الكوكب المعروف باسم كثيب، سيُعرف بأنه موطنه إلى الأبد.

من كتاب «دليل المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

في الأسبوع الذي سبق الرَّحيل إلى أرَّاكس -عندما بلغت فوضى الاستعدادت الأخيرة حدًّا لا يُحتمل- جاءت حيزبون شمطاء لزيارة أُمِّ الصبيِّ پول.

كانت الليلة دافئة في قلعة كلادان، وقد تشبَّعت كومة الحجارة العتيقة التي ظلَّت مقرَّ آل آتريدس طوال ستة وعشرين جيلًا بتلك الرطوبة النديَّة التي تكتسبها كل عام قبل تغيُّر الطَّقس.

دخلت المرأة العجوز من الباب الجانبي المُفضي إلى غرفة پول في نهاية الممرِّ المقبَّب، وسُمِح لها بأن تتأمَّله بُرهةً وهو مستلقٍ في الفراش.

على الضوء الخافت المنبعث من المصباح المعلَّق في الهواء بالقرب من الأرض، رأى الصبيُّ المستيقظ خيالًا أنثويًا ضخمًا عند بابه، يقف متقدِّمًا بخطوة عن أُمِّه. كانت هيئة المرأة العجوز تشبه



السَّاحرات، بشعرها المُلبَّد المتشابك كخيوط العنكبوت، وملامحها المستترة في ظلال غطاء الرأس، وعينيها المتلألئتين كالجواهر.

سألت العجوز: «أليس ضئيل الجسد بالنسبة إلى أقرانه يا جيسيكا؟». كان صوتها رنَّانًا فيه زحير، كأنه أوتار آلة باليست غير مضبوطة.

أجابت أم بول بحسِّها الأوبرالي الناعم: «يشتهر آل آتريدس بتأخُّر نموِّهم يا سيدتي الموقَّرة».

زحرت العجوز: «هكذا سمعت، هكذا سمعت. لكنه بلغ الخامسة عشرة؟».

- «أجل أيَّتها الموقَّرة».

قالت المرأة العجوز: «إنه مُستيقظ ويستمع إلينا»، ثم تمتمت إلى نفسها ضاحكةً: «الوغد الصغير الماكر»، قبل أن تستدرك: «لكن المُلكَ يتطلَّبُ مكرًا، وإن كان هو حقًّا الكويزاتس هاديراك المُنتظر فـ... حسنًا...».

بين الظلال التي تكتنف فراشه، ظلَّ بول مضيِّقًا عينيه فاتحًا إيَّاهما بالكاد. شعر بأن عيني العجوز البيضاويَّتين اللَّامعتين كعيني طيرٍ كاسر تتَّسعان وتتوهَّجان وهما تحدِّقان إليه.

قالت العجوز: «نم جيِّدًا أيُّها الوغد الصغير الماكر، فغدًا ستحتاج إلى كل قواك الذهنية والبدنية وأنت تواجه الجوم جَبار».

ثم أنهت عبارتها وغادرت وهي تدفع أُمَّه أمامها إلى الخارج، وأغلقت الباب برطمة قوية.

استلقى بول في فراشه متسائلًا: *ماذا تكون الجوم جَبار؟*

على الرغم من هذا الوقت الحرج الذي يسوده التغيير، تظلُّ المرأة العجوز هي أغرب شيء رآه.

أيَّتها الموقَّرة.

وما هذه الطريقة المهينة التي خاطبت بها أُمَّه چيسيكا كأنها تخاطب خادمة شقيَّة، لا امرأة في مكانتها: سيِّدة من البِني چيسيرِت، وخليلة الدوق، وأم ولي عهد الدوق؟

تساءل الصبي: *هل الجوم چَبار شيءٌ له علاقة بأرَّاكس علىَّ معرفته قبل ذهابنا إلى هناك؟*

ثم راح يَلُوكُ وقع كلماتها الغريبة في فمه: جوم چَبار... *كويزاتس هاديراك.*

لقد وجد نفسه مضطرًا إلى تعلُّم أمور كثيرة في الآونة الأخيرة. سيكون أرَّاكس مكانًا مختلفًا جذريًا عن كلادان، وكم المعارف الجديدة جعلت عقل پول محمومًا بالتفكير.

أرَّاكس.. كثيب.. كوكب الصَّحراء.

لقد شرح له ظفير حوَّاط -كبير المفتالين الذي يعمل تحت إمرة والده- طبيعة الأمر: يحكم آل هاركونن، أعداؤهم الألدَّاء، كوكب أرَّاكس منذ ثمانين عامًا، ويبسطون سيطرتهم على الكوكب، بموجب عقد شبه إقطاعي مع شركة تشوم، للتنقيب عن المِزَاج.. الاسپايس المُعمِّر. الآن سيرحل آل هاركونن وسيحلُّ محلَّهم آل آتريدس بعقد إقطاعي احتكاري كامل، وهذا انتصار واضح للدوق ليتو. لكن هذا التحوُّل ينطوي على مخاطر مهلكة، هكذا أخبره حوَّاط، إذ إن الدوق ليتو يحظى بشعبية كبيرة بين النبلاء في مجلس اللاندسراد.

«يثير الرجل المحبوب غيرة الأقوياء»، هكذا قال حوَّاط.

أرَّاكس.. كثيب.. كوكب الصَّحراء.

غاب پول في النوم ليحلم بغار في صحاري أرَّاكس، وبأناس صامتين يتحرَّكون من حوله في ضوءٍ خافت منبعث من كرات

إنارة طافية. كان المكان مهيبًا وأشبه بكتدرائية، وسمع فيه صوت تقاطر ماءٍ خافت، قطرة تلو القطرة تلو القطرة.

حتَّى وهو في الحلم، كان پول يعلم أنه سيتذكَّره عند استيقاظه، فلطالما تذكَّر الأحلام التي كانت تنبُّؤات.

تلاشى الحلم.

استيقظ پول ليجد نفسه في فراشه الدافئ.. وراح يفكِّر ويفكِّر. إن عالمه هنا في قلعة كلادان، الذي لا لهوٌ ولا لعبٌ ولا رفاقٌ من سنِّه فيه، رُبَّما لا يستحق الحزن عند الوداع. لقد ألمح له مُعلِّمه يُوي أن نظام فارفلوشس التعليمي غير مُطبَّق بصرامة على كوكب أرَّاكس؛ الكوكب الذي يُؤوي قومًا يجوبون أطراف الصَّحراء من دون قائد* أو باشار يحكمهم: شعب الرمال المعروفون باسم الفرمِن، الذين لم ينجح أيُّ إحصاءٍ رسمي أجرته الإمبراطورية في حصر أعدادهم.

أرَّاكس.. كثيب.. كوكب الصَّحراء.

شعر پول بالتوتُّر ينمو في صدره، فقرَّر ممارسة أحد التدريبات العقلية الجسدية التي علَّمته إياها أمُّه. أخذ ثلاثة أنفاس سريعة، فأثارت ردود الفعل المطلوبة: دخل في حالة من الوعي الأسمى. تركَّز إدراكه، وتجنَّب التشتُّت المجبول عليه الوعي، واتَّسع شريانه الأورطي، وتشبَّع دمه بالأكسچين، وتدفَّق سريعًا إلى المناطق المُجهدة في جسده. كانت حالة خاصة يصبح المرء فيها واعيًا بمحض إرادته. *لا ينال المرء حرية استدامة الغذاء بالغريزة وحدها*، فالوعي الحيواني يعجز عن إدراك ما وراء اللحظة الرَّاهنة، ولا يفهم فكرة أن الفرائس قد تنقرض. الحيوانات تستهلك ولا تُنتِج. الملذَّات الحيوانية أسيرة الحواس الخمس، ولا تعرف الإدراك

الحسّي. يحتاج الإنسان إلى شبكة من المعلومات الأساسية يستطيع من خلالها رؤية كونه، وتركيز الإدراك الحسّي الإرادي ينسج هذه الشبكة. تتدفّق السلامة البدنية مع الدم وتسري مع الأعصاب وفقًا لإدراك أعمق احتياجات الخلايا. كل الأشياء والخلايا والكائنات فانية، وتشتهي استمرار تدفُّق الحياة فيها.

مرَّة تلو الأخرى تلو الأخرى، دار الدرسُ داخل وعي پول.

استشعر بول ضوء الفجر الأصفر الذي لمس حافَّة نافذته من خلال جفنيه المُغلقين، ثم فتحهما وراح يصغي إلى ضجيج الحركة والنشاط اللذين دبَّا في القلعة وهو يتأمَّل زخارف عوارض سقف غرفة نومه المألوفة.

انفتح باب الرواق وأطلَّت أُمُّه منه، بشعرها البرونزي القاتم المعقود بشريط أسود أعلى رأسها. كان وجهها البيضاوي خاليًا من التعبير، وعيناها الخضراوان تحدِّقان إليه بجدّية.

قالت: «أنت مستيقظ. هل نمت جيِّدًا؟».

- «أجل».

تأمَّل الفتى عودها الطويل الرشيق، ولاحظ التوتُّر البادي في كتفيها وهي تنتقي له ملابسه من رفوف الخِزانة. رُبَّما شخصٌ غيره لم يكن سيلاحظ توتُّر جسدها، لكنها درَّبته على نهج البِني جيسيرِت، وهو ما يعني قدرة فائقة على ملاحظة أدقِّ التفاصيل. استدارت إليه حاملةً سُترة شبه رسمية يزيِّن صقر آل آتريدس الأحمر جيب صدرها.

قالت له: «ارتدِ ملابسك سريعًا، الأمُّ الموقَّرة تنتظر».

قال پول: «لقد حلمت بها. من هي؟».

- «كانت معلِّمتي في مدرسة البِني چيسيرِت. الآن هي عرَّافة الحقيقة في بلاط الإمبراطور، ويا پول...»، ثم تردَّدت قليلًا قبل أن تضيف: «عليك أن تخبرها بأمر أحلامك».

- «سأفعل. أهي السبب في أننا حصلنا على أرَّاكس؟».

- «نحن لم نحصل على أرَّاكس»، قالتها چيسيكا ونفضت الغبار عن أحد البناطيل، وعلَّقته مع السُترة على مشجب الملابس بجوار الفراش. «لا تدع الأمَّ الموقَّرة تنتظر طويلًا».

اعتدل پول جالسًا، واحتضن ركبتيه، وسأل: «ما الجوم چَبار؟».

مرَّة أخرى كشف له التدريب الذي تلقَّاه على يديها تردُّدها غير البادي تقريبًا، لحظة خاطفة خانتها فيها أعصابها جعلته يستشعر خوفها.

اتَّجهت چيسيكا إلى النافذة، وفتحت الستائر على اتِّساعها، وسرحت ناظرةً إلى جبل سيوبي، متجاوزةً ببصرها البساتين المحيطة بالنهر.

قالت: «ستعرف ما الجوم چَبار قريبًا جدًّا».

لاحظ پول اختلاج الخوف في صوتها، وتعجَّب من الأمر. استطردت چيسيكا دون أن تلتفت إليه: «الأمُّ الموقَّرة تنتظرك في غرفتي الصباحية. أسرع أرجوك».

***

جلست الأمُّ الموقَّرة جايس هيلين موهيم على كُرسيٍّ مُزدان بالنقوش تراقب اقتراب الأم وابنها، وإلى جانبيها نافذتان مطلَّتان على انعراجة النهر الجنوبية ومزارع آل آتريدس الخضراء، لكن الأمَّ الموقَّرة لم تعر انتباهها إلى المشهد. كانت متعكِّرة المزاج هذا الصباح وتثقلها سنون عمرها. أرجعت الأمر إلى عناء السفر في

الفضاء واضطرارها إلى التعامل مع أعضاء نقابة الفضاء البغيضين وأساليبهم السرّية. لكنها أمام مهمَّة تتطلَّب اهتمامًا شخصيًا منها بصفتها إحدى أخوات البِني چيسيرِت المبصرات. حتَّى من تتولَّى منصب عرَّافة الحقيقة في بلاط الإمبراطور الپاديشاه لا يمكنها التهرُّب من مسؤولية كهذه عندما تسمع نداء الواجب.

فكَّرت الأمُّ الموقَّرة: *اللعنة على چيسيكا! ليتها أنجبت لنا فتاة كما أُمِرَت أن تفعل!*

توقَّفت چيسيكا على بُعد ثلاث خطوات من الكُرسيِّ، وثنت ركبتيها بخفَّة، ومرَّرت يدها اليسرى على امتداد تنُّورتها بلطف في تحيَّة احترام. انحنى پول انحناءة مقتضبة علَّمه إياها مُعلِّم الرقص، تلك الانحناءة التي تُستخدم عند «عدم التأكُّد من مكانة الشخص الذي أمامك».

لم يغب مدلول تحيَّة پول عن ذهن الأمِّ الموقَّرة، فقالت: «إنه صبيٌّ حذرٌ يا چيسيكا».

وضعت چيسيكا يدها على كتف پول، وشدَّت عليه. لثانية، نبض الخوف في راحة يدها، ثم استعادت السيطرة على نفسها. «هكذا تعلَّم يا سيِّدتي».

تساءل پول: *ممَّ تخاف؟*

تفحَّصت العجوز پول بنظرة خاطفة: وجهه بيضاويّ كوجه چيسيكا، لكن عظامه قويَّة. شعره أسودٌ فاحم كشعر الدوق لكن يحمل جبين جدِّه لأمِّه الذي لا يُمكن التصريح باسمه. أما ذلك الأنف الرفيع الأشم، والعينان الخضراوان حادَّتا النَّظرة فورثها من جدِّه لأبيه، الدوق الكبير الراحل.

فكَّرت الأمُّ الموقَّرة: *كان رجلًا يقدِّر قوَّةَ الشجاعة، حتَّى في الموت.*

ثم قالت: «التعليم شيءٌ، ومعدن الشخص شيءٌ آخر. سنرى». رمت العينان المُسِنَّتان نظرة حازمة سريعة إلى چيسيكا، ثم أردفت المرأة: «اتركينا بمفردنا. اذهبي ومارسي التأمُّل، هذا أمر».

أنزلت چيسيكا يدها من فوق كتف پول وقالت: «سيِّدتي الموقَّرة، أنا...»

- «چيسيكا، تعرفين أنه لا بُدَّ من فعل ذلك».

رفع پول بصره إلى أمِّه شاعرًا بالحيرة.

اعتدلت چيسيكا في وقفتها وقالت: «أجل.. بالتأكيد».

عاد پول ينظر إلى الأمِّ الموقَّرة. حثَّه التأدُّب وخشية أمِّه الواضحة من هذه العجوز على التصرُّف بحذر، لكنه شعر بتحفُّظٍ غاضب بسبب الخوف الذي استشعره يُشعُّ من أمِّه.

أخذت چيسيكا نفسًا عميقًا وقالت: «پول، هذا الاختبار الذي أنت على وشك خوضه... مهمٌّ لي».

رفع بصره نحوها متسائلًا: «اختبار؟».

قالت چيسيكا: «تذكَّر أنك ابن دوق».

ثم استدارت وخرجت من الغرفة وتنُّورتها تختلج بالحفيف، وأغلقت الباب خلفها بقوَّة.

واجه پول المرأة العجوز مسيطرًا على غضبه: «كيف تُصرَف الليدي چيسيكا هكذا كما لو كانت خادمة؟».

شاع شبح ابتسامة في زوايا الفمِ المجعَّد، وقالت المرأة: «كانت الليدي چيسيكا خادمتي في المدرسة بالفعل لأربع عشرة سنة»،

ثم أردفت بإيماءة: «وكانت خادمة جيِّدة أيضًا. **الآن، اقترب**».

جلده الأمر كالسوط، ووجد پول نفسه يطيعها مسلوب الإرادة ويقترب. مفكِّرًا: *إنها تستخدم (الصَّوت) معي*. ثم توقَّف عند ركبتيها بإشارة منها.

سألته: «أترى هذا؟»، وأخرجت من طيَّات عباءتها مكعَّبًا معدنيًّا أخضر سُمكَهُ نحو خمسة عشر سنتيمترًا. أدارته فرأى پول أن أحد جوانبه مفتوحًا، كفم أسود حضوره مخيف مبهم. لم يخترق الضوء ذلك السَّواد المفتوح.

قالت العجوز: «ضع يدك اليمنى في الصندوق».

سرى الخوف في أوصال پول، وبدأ يتراجع، لكن العجوز قالت سائلةً: «أهكذا تُطيع والدتك؟».

رفع ناظريه فالتقى بعيني الطير الكاسر اللامعتين.

ببطء، وبعجزٍ أمام الإكراه الذي لا يُقاوم، دسَّ پول يده في فتحة الصندوق. في البداية أحس ببرودة عندما طوَّق السَّواد يده، ثم استشعر المعدن الأملس على أصابعه وشعر بوخزٍ كأن يده أصابها خدرٌ.

شاعت نظرة مفترسة في ملامح العجوز، قبل أن ترفع يدها اليمنى عن الصندوق وتضعها قِيد شعرة من عنق پول. لمح الصبيُّ بريقًا معدنيًّا بطرف عينه، وبدأ يلتفت نحوه.

صاحت فيه: «توقَّف!».

إنها تستخدم (الصَّوت) مرَّة أخرى! أعاد انتباهه إلى وجهها.

قالت له: «إنني أُسلِّط الجوم جَبار على عُنُقك. الجوم جَبار، العدو المتسلِّط! إنها إبرة على طرفها قطرة سُمٍّ. آها! إيَّاك أن تسحب يدك وإلا سيصيبك السُّمُّ».

حاول پول ابتلاع ريقه فمنعه جفاف حلقه. لم يستطع إبعاد نظره عن الوجه المجعَّد العجوز، والعينين المتلألئتين، واللثة الشاحبة المحيطة بالأسنان الفضِّية التي تومض كلَّما تحدَّثت.

قالت: «لا بُدَّ من أن ابن الدوق على دراية بالسُّموم. إنها موضة العصر، أليس كذلك؟ مِسكي الذي يُسمِّم شرابك، وأوماس الذي يُسمِّم طعامك. السُّموم السريعة، والسُّموم البطيئة، وما بينهما. إليك سُمٌّ جديد اليوم: الجوم جَبار. إنه لا يقتل سوى الحيوانات».

تغلَّبت كبرياء پول على خوفه، وسألها: «أتجرُئين على قول إن ابن الدوق حيوان؟».

قالت: «دعنا نقول إنني ألمِّح إلى أنك قد تكون إنسانًا»، ثم صاحت: «اثبت! أُحذِّرك من محاولة التملُّص. صحيح أنني عجوز، لكن يدي قادرة على غرس هذه الإبرة في عنقك قبل أن يرتدَّ إليك طرفك».

همس الصبي: «من أنت؟ كيف أقنعت أمِّي أن تتركني بمفردي معك؟ هل أنت من آل هاركونن؟».

- «الهراكنة؟ حاشا وكلَّا! والآن، التزم الصَّمت!».

لمست إصبعٌ جافةٌ عُنُق پول، لكنه قمع الدافع الغريزي الذي طالبه بالقفز مبتعدًا.

قالت: «جميل. لقد اجتزت الاختبار الأوَّل. الآن إليك ما تبقَّى منه: إذا سحبت يدك من الصندوق ستموت. هذه هي القاعدة الوحيدة. أبقِ يدك في الصندوق وستعيش، اسحبها وستموت».

أخذ پول نفسًا عميقًا لتهدئة روعه، وقال: «إذا رفعت صوتي بالنداء سيحيط بك الحرس في ثوانٍ معدودة، وسيردونك قتيلًا».

- «ثق بأن الحرس لن يتخطَّوا أُمَّك التي تقف خارج الباب.

لقد اجتازت أُمُّك هذا الاختبار، والآن حان دورك. كن فخورًا، فنادرًا ما يخوض الأطفال الذكور هذا الاختبار».

قلل الفضول خوف پول إلى مستوى يمكن التحكم فيه، واستشعر صدقًا لا يُنكر في نبرة المرأة العجوز. إن كانت أُمُّه تقف حارسة على الباب... إن كان هذا اختبارًا حقًّا -أو أيًا كان- فهو يعلم أنه متورِّطٌ فيه، وأنه أسير تلك اليد المُسلَّطة على عنقه: الجوم جَبار. تذكَّر پول تعويذة درء الخوف التي علَّمته إياها أُمُّه ضمن طقوس البِني چيسيرِت.

«يجب ألَّا أخاف. الخوف قاتل. الخوف مِيتةٌ صُغرى تُهلك قبل الأوان. سأواجه خوفي. سأسمح له بتجاوزي والمرور من خلالي. وحين يمرُّ، سأرنو بعين البصيرة لأرى مسلكه. وحيث مضى الخوف لن يبقى شيء، لن يبقى سواي».

شعر بالطمأنينة تعود إليه، وقال: «فلنَنتَهِ من هذا أيَّتها العجوز».

صاحت المرأة: «عجوز! حقًّا إنك شجاع، ولا يمكن إنكار ذلك. حسنًا، سنرى يا فتى»، ثم انحنت مقتربة خافضةً صوتها، وهمست في أُذُنه: «ستشعر بألم كاسح يصطلي يدك التي في الصندوق، ولكن! اسحب يدك وسألمس عنقك بالجوم جَبار. سيكون الموت سريعًا كضربة السيَّاف. اسحب يدك وستنال منك الجوم جَبار. مفهوم؟».

- «ماذا في الصندوق؟».

- «الألم».

شعر پول بالخدر يتزايد في يده، فزمَّ شفتيه بقوَّة، وتساءل: *كيف يُعقل أن يكون هذا اختبارًا؟*

بدأ الخدر يتحوَّل إلى حكَّة.

قالت العجوز: «هل سمعت عن الحيوانات التي تقضم إحدى قوائمها للإفلات من شراك الصيَّادين؟ تلك حيلةٌ حيوانية، أمَّا الإنسان فسيبقى في الشرك متحمِّلًا الألم، متظاهرًا بالموت، أملًا في قتل الصيَّاد والتخلُّص من تهديده لبني جنسه».

تحوَّلت الحكَّة إلى حُرقة خفيفة.

سألها پول: «لِمَ تفعلين ذلك؟».

- «لتحديد إذا أنت إنسان أم لا. التزم الصَّمت».

مع تزايد الشعور بالاحتراق في يده، ضمَّ پول يده اليسرى في قبضة. تزايد الألم ببطء: سخونة من فوق سخونة من فوق سخونة، سعيرٌ بعضه فوق بعض. شعر بأظافر يده الحرة تنغرز في راحتها، وحاول ثني أصابع يده التي تكتوي بالنار، لكنه لم يقوَ على تحريكها.

همس: «هذا مؤلم».

- «صمتًا!».

انتشر الألم نابضًا في ذراعه. تفصَّد جبينه بالعرق. كل نسيجٍ في جسده يصرخ به لسحب يده من هذا التجويف الكاوي، لكن... الجوم جَبار. من دون أن يُدير رأسه، حاول تحريك عينيه لرؤية تلك الإبرة الرهيبة المُسلَّطة على عنقه. أدرك أنه يلهث، وحاول تهدئة أنفاسه المتقطِّعة لكن دون جدوى.

يا للألم!

تلاشى كل شيءٍ من حوله، باستثناء تلك اليد التي تصلى العذاب، ووجه العجوز المُلاصق الذي يرمقه.

كانت شفتاه شديدتي الجفاف حتَّى أنه وجد صعوبة في فتحهما.

الألم الحارق! يا للألم الحارق!

شعر بأن جلد يده ينكمش ويتجعَّد من الاكتواء، وبأن لحمها ينضج ويتساقط، تاركًا خلفه عظامًا عاريةً متفحِّمة.

ثم توقَّف كل شيء!

توقَّف الألم كما لو أن زرًا قد ضُغِط.

شعر پول بذراعه اليمنى ترتجف، وبالعرق يُحمِّم جسده.

«هذا يكفي»، هكذا تمتمت المرأة العجوز، ثم أضافت: «وا عجباه! لم تصمد فتاةٌ إلى هذا الحد من قبل. يبدو أنني كنت أتمنَّى لك الفشل». ثم تراجعت مُبعدة الجوم جَبار عن عنقه. «أخرِج يدك من الصندوق وانظر إليها أيُّها البشري الصغير».

قاوم پول رجفة مُوجعة سرت في أوصاله، وحدَّق إلى الفراغ المظلم الذي بدا كأنه يكتنف يده بمحض إرادتها. لجَّمت ذكرى الألم حركته، وأخبره المنطق بأنه سيُخرج من الصندوق كتلة شائهة متفحِّمة.

أمرته العجوز بحدَّة: «افعلها!».

انتزع يده من الصندوق بسرعة، وتأمَّلها مذهولًا. كانت سليمة من غير سوء، لم يخلِّف العذاب أثرًا فيها. رفع يده إلى وجهه، وقلَّبها محرِّكًا أصابعه.

قالت له: «هذا يُدعى الإيلام بتحريض الأعصاب، فليس من الحكمة تشويه من نتوسَّم في بشريَّتهم خيرًا. يُوجد من هم مستعدُّون للتضحية بالغالي والنفيس لمعرفة سرِّ هذا الصندوق»، ثم أنهت عبارتها ودسَّته بين طيَّات عباءتها.

قال: «لكن الألم...».

ردَّت باستخفاف: «مُجرَّد ألم. يمكن للإنسان تسخير أيِّ عصبٍ في جسده».

شعر پول بألم في يده اليسرى، فأرخى قبضته المضمومة، ورأى أربع علاماتٍ دامية حيث جرحت أظافره راحة يده. أنزل يده إلى جانبه، ورمق المرأة العجوز: «هل فعلت هذا بأُمّي ذات يوم؟».

سألته: «أسبق لك أن نخلت رمالًا من غربال؟».

صدم السؤال المباغت عقله وأذكى وعيه. *رمال من غربال.* أومأ مجيبًا.

- «نحن معشر البِني چيسيرِت نغربل الناس لاصطفاء البشر من بينهم».

رفع پول يده اليمنى مستعيدًا ذكرى الألم. «وهذا كل ما يتطلّبه الأمر، الألم؟».

- «لقد راقبتك وأنت تتألّم يا فتى. الألم ليس إلا محور الاختبار. لا بُدَّ أن أُمّك قد حدَّثتك عن أساليبنا في المراقبة والرصد، فأنا أرى آثار تعليمها فيك. يمكن تلخيص اختبارنا في شقّين: المحنة والمراقبة».

ميَّز پول نبرة الصدق في صوتها، فقال: «هذا صحيح!».

حدَّجته ببصرها. *لقد استشعر الحقيقة! هل يمكن أن يكون هو المنشود؟ هل يمكن أن يكون هو المنشود حقًا؟* لكنها سرعان ما أخمدت حماستها، وذكّرت نفسها: *«الأمل يؤثّر في المُشاهدة».*

قالت له: «تستطيع تمييز الصدق في كلام الناس».

- «أجل».

ميَّزت العجوز في صوته نبرة اقتناع بقدرته ناتجة عن تجارب سابقة متكرِّرة، فقالت: «رُبَّما أنت الكويزاتس هاديراك بالفعل.

اجلس هنا يا أخي الصغير، عند قدميَّ».

- «أُفضِّل الوقوف».

- «لقد جلست أُمُّك عند قدمي ذات يوم».

- «أنا لستُ أُمّي».

- «أنت تكن شيئًا من الكُره لنا، أليس كذلك؟»، قالتها ونظرت باتِّجاه الباب وصاحت: «چيسيكا!».

انفتح الباب على مصراعيه ووقفت چيسيكا تُحدِّق إلى الغرفة بعينين جامدتين، ثم ذاب الجمود من عينيها حين رأت پول، وتمكَّنت من رسم ابتسامة باهتة على ثغرها.

سألتها العجوز: «هل توقَّفت عن كُرهي قط يا چيسيكا؟».

قالت چيسيكا: «أنا أحبك وأكرهك في الوقت نفسه. الكُره نابع من آلام عليَّ ألا أنساها أبدًا. أما الحب فـ...».

قالت العجوز مُقاطعة: «لم أرغب إلَّا في سماع ما أعرف»، لكن كان في صوتها لين: «بإمكانك الدخول الآن، لكن التزمي الصَّمت. أغلقي هذا الباب وتأكَّدي من أن أحدًا لن يقاطعنا».

خطت چيسيكا إلى داخل الغرفة، وأغلقت الباب خلفها واستندت بظهرها إليه، وفكَّرت: *ابني نجا. لقد نجا، وهذا يعني أنه... بشري. كنت واثقة بذلك... لكنه... نجا. الآن أستطيع الاستمرار في الحياة*. شعرت بصلابة الباب وراء ظهرها. كان كل شيء في الغرفة حاضرًا، يملأ حواسَّها.

ابني نجا.

نظر پول إلى أُمِّه. *إنها لم تكذب*. كان يرغب في الانفراد بنفسه والتفكير بعمق في تلك التجربة، لكنه كان يعرف أنه لا يستطيع المغادرة قبل أن يؤذن له.

لقد صار للعجوز سُلطة عليه.

كلتاهما لم تكذب. لقد اجتازت أُمُّه هذا الاختبار، لا بُدَّ إذًا أن غايةً رهيبةً مَرجُوَّةٌ منه، لأن الألم والخوف كانا رهيبين. كان يعرف سمات الغايات الرهيبة. إنها تتجاوز جميع العقبات، وتسير ضد كل الاحتمالات، وتحمل داخلها بذور حتميتها الخاصة. شعر پول أنه أُصيب بعدوى غاية رهيبة، لكنه لم يكن يعرف بعد ماهيتها.

قالت العجوز: «يومًا ما يا فتى، أنت أيضًا قد تضطر إلى الوقوف خارج باب كهذا. يتطلَّب الأمر بأسًا لفعله».

نظر پول إلى اليد التي ذاقت العذاب، ثم رفع بصره نحو الأُمِّ الموقَّرة. كان لصوتها نبرةٌ تختلف عن أيِّ صوت آخر سبق أن مرَّ عليه. كان لإيجاز كلماتها وقعٌ وصدًى، وكان بها حِدَّةٌ. شعر بأن أيَّ سؤال قد يطرحه عليها سيُقابل بإجابه ستُخرجه من عالم التجربة البشرية المادي إلى شيءٍ أعظم.

سألها: «لماذا تبحثين بين الأشخاص عن البشر؟».

– «لتحريرك».

– «تحريري؟».

– «قديمًا، ترك الناس مهمَّة التفكير للآلات، على أمل أن يحرِّر ذلك البشرية، لكن هذا سمح لأُناس آخرين يملكون الآلات باستعبادهم».

تمتم پول مقتبسًا: «لا تصنعوا آلاتٍ تُحاكي العقل البشري».

قالت: «اقتباس مباشر من الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي وحقبة الجهاد البطلري. لكن كان يجدر بالإنجيل البرتقالي قول: "لا تصنعوا آلاتٍ تنتحل صفات العقل الآدمي". هل تدبَّرت أساليب المِنتات الذي يعمل لديكم؟».

- «تعلَّمت على يدِ ظفير حوَّاط».

قالت: «الثورة الكُبرى سلبت البشرية العُكَّاز الذي تتَّكئ عليه، وأجبرت العقول الآدمية على التطوُّر، فظهرت مدارس لشحذ المواهب البشرية وتدريبها».

- «مدارس البِني چيسيرِت؟».

أومأت قائلة: «من بين تلك المدارس العتيقة نجت منظَّمتان رئيستان: البِني چيسيرِت ونقابة الفضاء. لا تركِّز النقابة إلَّا على الرياضيات البحتة تقريبًا، أو هكذا نظن، أمَّا البِني چيسيرِت فتضطَّلع بمهام أخرى».

قال: «السياسَة».

صاحت المرأة العجوز: «وا عجباه!»، ووجَّهت نظرة حادَّة إلى چيسيكا.

قالت چيسيكا: «لم أخبره بشيء أيَّتها الموقَّرة».

أعادت الأُمُّ الموقَّرة اهتمامها إلى پول، وقالت: «لقد أصبت بناءً على أدلة قليلة جدًّا. السياسة بالفعل. مدرسة البِني چيسيرِت الأصلية كانت تديرها جماعة رأت الحاجة إلى خيط من الاستمرارية في الشؤون الإنسانية، هذه الجماعة رأت أن تلك الاستمرارية لن تحدث دون فصل ذوي النزعة الإنسانية عن ذوي النزعة الحيوانية، لأغراض تحسين النسل».

فجأة، فقدت كلمات المرأة العجوز وقعها المؤثِّر في أُذُني پول، وشعر فيها بإهانة لما سمَّته أُمُّه فيه بـ«غريزة الصواب». لم يكن ما ضايقه هو كذب الأُمِّ الموقَّرة عليه، فمن الواضح أنها تؤمن بما قالت، بل كان شيئًا أعمق، شيئًا مرتبطًا بتلك الغاية الرهيبة.

قال لها: «لكن أُمِّي أخبرتني بأن أخوات كثيرات في مدارس البِني چيسيرِت لا يعرفن شيئًا عن أسلافهن».

قالت: «الأنساب محفوظة جيِّدًا في سجلَّاتنا. أُمُّك تعلم أنها إما من نسل البِني چيسيرِت وإما أن نسبها كان مقبولًا في حدِّ ذاته».

- «لماذا إذًا لا يمكن لها أن تعرف من والديها؟».

- «بعضهن يعرفن، وكثيرات لا يعرفن. على سبيل المثال، قد نرغب في أن تتناسل مع قريب لها من الدرجة الأولى لتعزيز إحدى الصفات الوراثية السائدة في عائلتها. لدينا من الأسباب الكثير».

مرَّة أخرى شعر پول بإهانة لصوابه، فقال: «تحمِّلن أنفسكن أمرًا جللًا».

رمقته الأُمُّ الموقَّرة وتساءلت متعجِّبة: *أهذا الذي أستشعره في صوته انتقاد؟* ثم قالت: «نحمل عِبئًا ثقيلًا».

شعر پول بأنه يتجاوز شيئًا فشيئًا صدمة الاختبار، فوجَّه لها نظرة فاحصة وقال: «أنت تقولين إنني رُبَّما أكون... الكويزاتس هاداريك. ماذا يعني ذلك؟ أهو اختبار آخر كالجوم چَبار، ولكن بشري؟».

قالت چيسيكا: «پول، يجب ألَّا تتحدَّث بهذه النبرة مع...».

قاطعتها العجوز قائلة: «سأتعامل مع الأمر يا چيسيكا. قل لي يا فتى، أتعرف شيئًا عن عقار كشف الحقيقة؟».

رد پول: «أخبرتني أُمِّي بأنه عقار يؤخذ لتحسين قدرة المرء على تمييز الحق من الباطل».

- «هل سبق لك أن شَهِدت نشوة الحقيقة؟».

هزَّ رأسه نافيًا: «كلا».

قالت: «العقار خطِرٌ، لكنه يمنح نظرة ثاقبة. عندما تشحذ عرَّافة الحقيقة قدرتها بالعقار، تستطيع التجوُّل في أماكن كثيرة في ذاكرتها، في ذاكرتها الجسدية. نحن نستطلع كثيرًا من دروب الماضي، لكننا مقيَّدات بالدروب الأنثوية فحسب»، وشاع في صوتها نبرة حزن وهي تقول: «ومع ذلك، ثمَّة مكان لا تستطيع أيٌّ كاشفة حقيقة رؤيته. مكان مروِّع ننفر منه. تقول النبوءة إن رجلًا سيأتي يومًا ما وستشحذ هبة العقار عين بصيرته. هذا الرجل سينظر إلى حيث لا نستطيع النظر، وسيرى دروب كلٍّ من الماضي الأنثوي والذكوري».

- «وهل هذا هو الكويزاتس هاداريك الذي تقولين عليه؟».

- «أجل، صاحب الخطوة، من يستطيع أن يكون في أكثر من مكان في الآن ذاته: الكويزاتس هاداريك. رجالٌ كثيرون جرَّبوا العقار، كثيرون جدًّا، لكن أحدًا منهم لم ينجح».

- «جميعهم حاول وفشل».

هزَّت العجوز رأسها قائلة: «أوه، كلا. جميعهم حاول ومات».

إن محاولة فهم حياة المؤدِّب من دون فهم الهراكنة، خصومه اللدودين، أشبه بمحاولة رؤية الحق دون معرفة الباطل، أشبه بمحاولة رؤية النور دون معرفة الظلام: أمرٌ يتعذّر فعله.

من كتاب «دليل المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

على حاملٍ حُرٍّ بجوار أحد حوائط الغرفة العديمة النوافذ، قبع مُجسَّمٌ كروي لكوكبٍ بارز التضاريس، نصفه متوارٍ في الظلال، يدور بفعل الزخم الناتج عن دفع يدٍ سمينة تتلألأ الخواتم فيها. وعلى الحوائط الأخرى، تناثرت رقعٌ من مخطوطاتٍ متعدِّدة الألوان وكتب مرئية وأشرطة وبكرات. كان الضوء الساطع في الغرفة يأتي من كرات ذهبية تطفو في حقول طاقة معلّقة قابلة للتحريك.

في منتصف الغرفة، تأرَّض مكتبٌ بيضاوي سطحه وردي بلون اليشم مصنوع من خشب الإلاكة المتحجِّر، تحيط به مقاعد مُعلَّقة مضادة للجاذبية، يحتل شخصان اثنين منها: أحدهما شاب مستدير الوجه، داكن الشعر، متجهِّم العينين، سنُّه نحو ستة عشر عامًا. أما الآخر فرجلٌ نحيفٌ قصيرٌ ذو وجهٍ مخنَّث.

كان الرَّجل والشاب يحدِّقان إلى مُجسَّم الكوكب، وإلى الرجل المتواري في الظلال الذي يديره.

جاءت قهقهة خفيضة من جهة المُجسَّم، ودمدم صوتٌ عميق من بين ثناياها قائلاً: «ها هي يا پايتر، أكبر مصيدة في التاريخ، والدوق الغافل يتَّجه نحو فكَّيها. أليس هذا أروع شيءٍ فعلته، أنا البارون ڤلاديمير هاركونن؟».

قال الرجل: «من غير ريب أيُّها البارون». كان صوته ناعمًا وفيه رنَّة موسيقية عذبة.

نزلت اليد السمينة على مُجسَّم الكوكب وأوقفت دورانه، وهنا استطاعت الأعين في الغرفة التركيز على الكرة الثَّابتة وتبيُّن أنها من المُجسَّمات التي تُصنع لهواة جمع المقتنيات من الأثرياء، أو لحُكَّام الكواكب في الإمبراطورية، وبدا واضحًا من تفاصيلها الدقيقة أنها إمبراطورية الصنع. كانت خطوطُ الطول ودوائر العرض عليها مصنوعة من أسلاك بلاتينية أدق من الشعر، أمَّا القُطبان الجليديان فكانا ألماستين بلون الحليب من أجود أنواع الألماس.

تحرَّكت اليدُ السمينة متتبِّعة التفاصيل على سطح الكُرة، ودمدم صاحب الصَّوت العميق قائلًا: «أدعوك للنظر والمعاينة من كثب يا بايتر، وأنت أيضًا يا عزيزي فيد راوثا: هذه التموُّجات الرائعة التي تمتد من 60 درجة شمالًا إلى 70 درجة جنوبًا. أتلاحظان ألوانها؟ ألا تذكِّركما بحلوى الكراميل؟ لا وُجود لزُرقة البحيرات أو الأنهار أو البحار الصافية في أيِّ مكان. وهذان القُطبان الأبيضان الجميلان، كم هما صغيران! هل يمكن لأيِّ شخصٍ ألَّا يتعرَّف هذا المكان؟ إن أرَّاكس لكوكبٌ فريد حقًّا! ساحة رائعة لتحقيق انتصارٍ فريد».

لمست ابتسامة خفيفة شفتي بايتر وهو يقول: «وتخيَّل يا بارون أن الإمبراطور الباديشاه يظنُّ أنه منح الدوق كوكب الاسبايس الذي تحكمه. كم هذا مؤثِّر!».

تمتم البارون: «هذا كلام سخيف لا معنى له تقوله لتشويش الفتى فيد راوثا، لكن لا داعي لتشويش ابن أخي بمثل هذا الكلام الفارغ».

تململ الفتى مُتجهّم الوجه في مقعده، وفرد بيده تجعيدة في الزيّ الأسود الضيّق الذي يرتديه. كان يجلس منتصبًا عندما سمع نقرًا مهذّبًا على الباب في الحائط الذي خلفه. قام پايتر من مقعده وسار إلى الباب، وفتح فرجة صغيرة منه تكفي لاستلام رسالة ملفوفة في أُسطُوانة، ثم أغلق الباب، وفض الرسالة وتفحّص فحواها. فلتت منه ضحكة خافتة، ثم تبعتها أخرى.

سأله البارون: «ما الأمر؟».

- «لقد أرسل الأحمق ردًا علينا أيُّها البارون».

تساءل البارون: «ومتى فوَّت أحد آل آتريدس فرصة القيام بلفتة طيّبة؟ حسنًا، ماذا يقول؟».

- «إنه غير مهذّب البتّة أيُّها البارون، يخاطبك باسمك المجرّد "هاركونن"، بلا ألقاب ولا حتّى "سموّك" أو "عزيزي"».

دمدم البارون: «إنه اسم جيّد»، ثم فضح صوته نفاد صبره وهو يردف: «ما الذي يقوله العزيز ليتو؟».

- «يقول: "عرض الاجتماع الذي قدّمته مرفوض. غدرك معروف للجميع، وقد لُدغت منه مرارًا"».

سأل البارون: «ثم؟».

- «يقول: "لا يزال لفن الكانلي معجبون في الإمبراطورية". ثم ذيّل الرسالة بتوقيعه: "ليتو آتريدس، دوق أرّاكس"»، قالها پايتر وبدأ يضحك بصوتٍ عالٍ: «دوق أرّاكس! يا إلهي! يا لها من نكتة تُميت من الضحك!».

قال البارون: «صه يا پايتر»، فتوقّف الرجل عن الضحك كأنما بضغطة زر. ثم غمغم البارون متسائلًا: «الكانلي، هه؟ الثأر

المقنَّن، أليس كذلك؟ لقد قصد استخدام الكلمة القديمة العريقة للتأكُّد من أنني أعلم أنه يعينها».

قال بايتر: «لقد أبديت حسن نية وقدَّمت بادرة صُلح يا سيِّدي، وبهذا تكون اتَّبعت التقاليد».

قال البارون: «أنت ثرثار جدًا بالنسبة إلى مِنتات»، ثم فكَّر: *يجب أن أتخلَّص منه قريبًا، لقد عاش أطول من اللازم ولم يعد مفيدًا تقريبًا*. حدَّق البارون عبر الغرفة إلى المِنتات كبير المغتالين الذي يعمل تحت إمرته، ورأى الملمح الأبرز الذي يلحظه كل من يراه للمرَّة الأولى: العينين الضيِّقتين المدلهمتين بدرجات متداخلة من الزُرقة بعضها في بعض، العينين اللتين لا بياض فيهما.

طرأت ابتسامة على وجه بايتر، وكانت أشبه بقناع مخيف أسفل تلك العينين الغائرتين. «لكن أيُّها البارون! لم أكن أعلم أن الثأر يمكن أن يكون بمثل هذا الجمال. الخطة الموضوعة تنطوي على أروع أشكال الغدر. أن يُخدع ليتو ويقبل أن يكون حاكمًا على كثيب بدلًا من كلادان، وألَّا يكون أمامه بديل آخر لأن الإمبراطور أمر بذلك، لهو دهاءٌ وكيدٌ عظيم!».

قال البارون بنبرة باردة: «الكلام يندلق من فمك يا بايتر».

- «لأنني سعيد يا سيِّدي البارون. في حين أن شعورك... يشوبه غيرة».

- «بايتر!».

- «أجل أيُّها البارون! ألا تأسف لأنك لم تستطع أن تحيك هذه الخطة النميرة بمفردك؟».

- «يومًا ما سآمر بخنقك يا بايتر».

- «لا شك في هذا أيُّها البارون! بعض الناس إذا وجد البديل نكر الجميل، أليس كذلك؟».

- «هل كنت تمضغ حشيشة الڤيريت أو السِموتا يا پايتر؟».

قال پايتر: «كلمة الحق بلا خوف تُدهش البارون»، والتوت قسمات وجهه إلى ما يشُبه قناعًا كاريكاتوريًا عابسًا، وأردف: «لعلمك أيُّها البارون، بصفتي مِنتاتًا، فأنا أعلم متى ستُرسل من سيقتلني، وأنت لن تفعلها ما دمت مفيدًا. التعجيل بقتلي سيكون خسارة كبيرة لك، وأنا ما زلت مفيدًا. أعرف الحكمة التي تعلَّمتها من كوكب كثيب: إيَّاك وإهدار الموارد. أليس كذلك يا بارون؟».

واصل البارون تحديقه إلى پايتر.

تململ فيد راوثا في جلسته، وفكَّر: *يا لهذين الأحمقين المتشاحنين دومًا. لا يستطيع عمِّي الحديث إلى مِنتاته دون جدال. أيظنَّان أنه ليس لدي ما أفعله سوى الاستماع إلى جدالهما؟*

قال البارون: «فيد، لقد طلبت منك الاستماع والتعلُّم حين دعوتك إلى هنا. هل تتعلَّم شيئًا؟».

ردَّ فيد بصوتٍ حرص على أن يكون خنوعًا: «أجل يا عمي».

قال البارون: «أحيانًا أتعجَّب من أمر پايتر. أنا لا ألجأ إلى العنف إلَّا للضرورة، أمَّا هو.. فأقسم أنه يستمتع به. عن نفسي، أشعر بالشفقة تجاه الدوق ليتو. سيتحرَّك الدكتور يُوي ضده قريبًا، وستكون هذه نهاية آل آتريدس عن بكرة أبيهم. لكن بالتأكيد ليتو سيعرف اليد التي حرَّكت الطبيب المطيع.. وهذه المعرفة ستكون شيئًا فظيعًا».

سأل بايتر: «لماذا إذًا لم تطلب من الطبيب أن يطعنه بخنچل بين ضلوعه بهدوء وكفاءة؟ أنت تتحدَّث عن الشفقة، لكنك...».

قال البارون: «يجب أن يعلم الدوق أنني من تسبَّب في هلاكه، ويجب أن تعلم الأسر النبيلة الأخرى الأمر كذلك. ستشُل المعرفة تفكيرهم لبرهة، وسأكسب وقتًا للمناورة وتوطيد نفسي. الضرورة جليَّة، لكن ليس عليَّ أن أحبها».

قال بايتر ساخرًا: «وقتًا للمناورة. إن عينَ الإمبراطور مسلَّطة عليك بالفعل يا بارون. أنت تتصرَّف بجرأة كبيرة. يومًا ما سيرسل الإمبراطور فيلقًا أو اثنين من جنوده السَّاردوكار إلى هنا، إلى جيدي پرايم، عندها ستكون هذه نهاية البارون ڤلاديمير هاركونن».

سأله البارون: «تود أن ترى ذلك يا بايتر، أليس كذلك؟ ستستمتع برؤية كتائب السَّاردوكار تنهب مُدُني وتنهب هذه القلعة. ستستمتع بذلك حقًّا».

همس بايتر: «وهل يحتاج البارون إلى مثل هذا السؤال؟».

قال البارون: «كان يجب أن تكون باشارًا عسكريًّا، فأنت مولع بالقتل والدماء. أظن أنني تسرَّعت كثيرًا في وعودي لك بغنائم أرَّاكس».

سار بايتر خمس خطوات غريبة رشيقة في الغرفة، وتوقَّف خلف فيد راوثا مباشرةً. كان الهواء في الغرفة ثابتًا مشحونًا بالتوتُّر، ونظر الفتى إلى أعلى نحو بايتر بعبوسٍ قلق.

قال بايتر: «لا تعبث مع بايتر أيُّها البارون. لقد وعدتَّني بالليدي چيسيكا. لقد وهبتها لي».

سأل البارون: «مقابل ماذا يا بايتر؟ مقابل الألم؟».

ظلَّ بايتر يحملق إليه، مسترسلًا في الصَّمت.

حرَّك فيد راوثا مقعده المعلّق في الهواء جانبًا وقال: «هل عليَّ البقاء يا عمّي؟ لقد قلت إنك...».

قال البارون: «عزيزي فيد راوثا ينفد صبره»، وبدأ يتحرَّك بين الظلال المحيطة بالُمجسَّم. «صبرًا يا فيد»، ثم أعاد انتباهه إلى المِنتات وقال: «ماذا عن ابن الدوق يا عزيزي پايتر؟ الصبيُّ پول».

غمغم پايتر: «سيقع في المصيدة كذلك أيُّها البارون».

قال البارون: «ليس هذا ما قصدت. ألا تذكر أنك توقَّعت أن ساحرة البِني جيسيرِت ستنجب ابنةً للدوق؟ كنت مخطئًا يا مِنتات، أليس كذلك؟».

قال پايتر: «معظم الوقت أُصيب أيُّها البارون»، وللمرَّة الأولى شاب صوته نبرة خوف: «عليك أن تعترف لي بهذا، فأنا نادرًا ما أُخطئ. وأنت نفسك تعرف أن هؤلاء البِني جيسيرِت يحملن إناثًا في الغالب. حتى قرينة الإمبراطور لم تلد سوى إناث».

تنحنح فيد راوثا: «عمّي، لقد قلت إنه سيكون هناك شيء مهم ينبغي لي أن...».

قال البارون: «استمع إلى ابن أخي. إنه يطمع إلى الحُكم من بعدي، لكنه يعجز عن التحكُّم في نفسه». تحرَّك البارون بجانب مُجسَّم الكوكب، كظل بين الظلال. «حسنًا يا فيد راوثا هاركونن، لقد استدعيتك إلى هنا أملًا في تعليمك بعض الحكمة. هل انتبهت إلى كلام مِنتاتنا المخلص؟ يجب أن تكون قد تعلمت شيئًا من جدالنا».

- «لكن يا عمّي...».

- «إنه مِنتات شديد البراعة، ألا توافقني الرأي يا فيد؟».

- «أجل، ولكن...».

- «نعم، اعتراضك في محلِّه! لكنه يستهلك الكثير من الاسپايس.. يتناوله كالحلوى. انظر إلى عينيه! يبدو كأنه أحد أفراد الطبقة الأرّاكسية العاملة. إن پايتر لكُفء، لكنه لا يزال رهيفًا وعرضة للانفعالات العاطفية. إن پايتر لكُفء، لكنه غير معصوم من الخطأ».

تكلَّم پايتر بنبرة خفيضة حرون: «أدعوتني إلى هنا للنيل من كفاءتي يا بارون؟».

- «النيل من كفاءتك؟ أنت تعرفني جيِّدًا يا پايتر. كل ما أريده هو أن يدرك ابن أخي أوجه قصور ومحدودية المِنتات».

سأله پايتر: «هل بدأت تدريب بديلٍ لي بالفعل؟».

- «بديلٌ لك؟ لماذا يا پايتر؟ أين سأجد مِنتاتًا آخر يتمتَّع بمكرك وضغينتك؟».

- «في نفس المكان الذي وجدتني فيه أيُّها البارون».

قال البارون متأمِّلًا: «رُبَّما ينبغي لي فعل ذلك، فأنت تبدو غير مستقر بعض الشيء مؤخرًا. ويا لكم الاسپايس الذي تأكله!».

- «أملذَّاتي باهظة الثمن يا بارون؟ ألك اعتراضٌ عليها؟».

- «عزيزي پايتر، ملذَّاتك هي ما يربطك بي. كيف لي أن أعترض عليها؟ كل ما أبغاه أن يعرف ابن أخي هذا عنك».

قال پايتر: «أنا فقرة للعرض إذًا، أتريدني أن أرقص؟ أتريدني أن أستعرض وظائفي المختلفة لحضرة العظيم فيد راوث...».

قال البارون: «بالضبط، أنت فقرة للعرض، التزم الصَّمت الآن»، ثم نظر إلى فيد راوثا، ولاحظ أن شفتي ابن أخيه الممتلئتين المكتنزتين -السمة الچينية المميِّزة لنسل الهراكنة- قد التوتا

الآن بعض الشيء طربًا. «هذا مِنتات يا فيد، تدرَّب وتكيَّف لأداء واجبات محدَّدة. ومع ذلك، يجب عدم إغفال حقيقة أنه ما زال حبيسًا في جسدٍ بشري. هذا عيبٌ خطِرٌ. أحيانًا أخال أن الأسلاف كانوا على حق باعتمادهم على الآلات الذكية».

زمجر پايتر: «تلك الآلات كانت مجرَّد ألعاب أطفال مقارنةً بنا. حتَّى أنت أيُّها البارون كنت ستتفوَّق عليها».

قال البارون: «رُبَّما، حسنًا...»، ثم أخذ نفسًا عميقًا وتجشَّأ: «الآن يا پايتر، أوجز لابن أخي الملامح البارزة لحملتنا ضد آل آتريدس. أدِّ وظيفتك المِنتاتية إذا سمحت».

- «لقد حذَّرتك أيُّها البارون ألا تأتمن شخصًا صغير السنِّ بهذه المعلومات، فمن مُعاينتي لـ...».

قاطعه البارون: «لست أنت من يقرِّر. لقد أعطيتك أمرًا يا مِنتات. أدِّ إحدى وظائفك المختلفة».

قال پايتر: «فليكن»، ثم اعتدل في وقفته، وانتصب في وضعٍ غريب يكتنفه شموخ بدا كأنه قناعٌ آخر يغطِّي جسده بالكامل هذه المرَّة. «في غضون أيَّام قليلة حسب التقويم القياسي الموحَّد، ستصعد عائلة الدوق ليتو بكامل حاشيتها إلى متن إحدى السفن التابعة لنقابة الفضاء، وستنزلهم النقابة في مدينة أراكين بدلًا من مدينة قرطاج عاصمة حكمنا. ظفير حوَّاط، مِنتات الدوق ليتو، سيكون قد استنتج -بشكل صائب- أن أراكين أسهل في الدفاع عنها».

قال البارون: «استمع بعناية يا فيد. لاحظ الخطط ضمن الخطط ضمن الخطط».

أومأ فيد راوثا مفكّرًا: *هذا أكثر ممَّا كنت أتمنَّى. الوحش العجوز يطلعني على بعض الأسرار أخيرًا. لا بُدَّ أنه يرغب حقًّا في أن أكون وارثه.*

قال پايتر: «هناك انحرافات عِدَّة محتملة. يميل توقُّعي إلى أن آل آتريدس سيذهبون إلى أرَّاكس بالفعل، ومع ذلك، يجب ألا نتجاهل احتمال تعاقد الدوق مع النقابة لإنزاله في مكانٍ آمن خارج النظام. آخرون في ظروف مشابهة أصبحوا عائلاتٍ مارقة، وأخذوا أسلحتهم ودروعهم الذرِّية وهربوا إلى مناطق نائية بعيدة عن نفوذ الإمبراطورية».

قال البارون: «الدوق رجلٌ يمنعه اعتزازه عن فعل ذلك».

قال پايتر: «هذا احتمالٌ قائم، لكن النتيجة النهائية بالنسبة إلينا لن تختلف».

زمجر البارون: «بل ستختلف! يجب أن يموت وينقطع نسله».

قال پايتر: «هذا هو الاحتمال الأكبر. ثمَّة استعدادات بعينها تشير إلى احتمالية تمرُّد إحدى العائلات، والدوق لا يبدو أنه يقوم بأيٍّ منها».

تنهَّد البارون في ارتياح: «حسنًا، واصل استعراض الخطة يا پايتر».

قال پايتر: «في مدينة أراكين، سيشغل الدوق وعائلته دار الإقامة التي كان يشغلها في الآونة الأخيرة الكونت فنرينج والليدي زوجته».

قهقه البارون: «سفير المهرِّبين».

سأل راوثا: «سفير ماذا؟».

ردَّ بايتر: «عمُّك يلقي النكات. إنه ينعت الكونت فنرينج بسفير المهرِّبين، في تلميحٍ إلى اهتمام الإمبراطور بعمليات التهريب على كوكب أرَّاكس».

رمق فيد راوثا عمَّه بنظرة حائرة.

- «لماذا؟».

ردَّ البارون بحدَّة: «لا تكن غبيًا يا فيد. ما دامت أعمال النقابة لا تخضع لسيطرة الإمبراطورية، كيف ستمضي الأمور خلاف ذلك؟ كيف يمكن للجواسيس والقتلة التحرُّك؟».

تكوَّر فم فيد راوثا في آهة فهم عديمة الصَّوت: «أوه!».

واصل بايتر: «لقد رتَّبنا لتنفيذ عمليات إلهاء في دار الإقامة. ستُجرى محاولة لاغتيال وارث الدوق آتريدس، وهي محاولة قد تنجح».

دمدم البارون: «بايتر، لقد أكَّدت أن...».

قاطعه بايتر: «أكدت أن الحوادث ستقع، لذا يجب أن تبدو محاولة الاغتيال مقنعة».

قال البارون: «أجل، لكن الفتى يتمتَّع بجسدٍ جميل يافع. بالتأكيد قد يكون أكثر خطورة من أبيه، خصوصًا مع تدريب أمِّه السَّاحرة له. تلك الملعونة! حسنًا، أكمل يا بايتر من فضلك».

قال بايتر: «سيستنتج حوَّاط أننا زرعنا عميلًا بينهم، والمشتبه فيه الأوَّل سيكون الدكتور يُوي، عميلنا بالفعل. لكن حوَّاط أجرى تحرِّياته عنه مسبقًا، وعرف أن طبيبنا تخرَّج في كلِّية سوك، وتلقَّى تهيئة عقلية إمبراطورية، ومن مثله يؤتمنون على خدمة الإمبراطور نفسه. تُجرى التهيئة العقلية الإمبراطورية بحرصٍ وعناية كبيرين، ويقال إن التهيئة النهائية لا يُمكن إزالتها دون قتل

مـن خضـع لهـا. لكـن كمـا قـال أحدهـم يومًـا مـا، يسـتطيع المـرء تحريك كوكبٍ كامل باستخدام الرافعة المناسبة، وقـد عثرنـا علـى الرافعـة المناسـبة لتحريـك الطبيـب».

سـأل فيـد راوثـا: «كيـف؟». أثـار الموضـوع شـغف الفتـى بشـدَّة، فالجميـع يعلـم أن اختـراق التهيئـة العقليـة الإمبراطوريـة مسـتحيل!

قال البارون: «رُبَّما في وقتٍ آخر. أكمل يا پايتر».

أكمـل پايتـر: «بـدلًا مـن يُـوي، سـنضع فـي طريـق حـوَّاط مشـتبهًا فيهـا مثيـرة للاهتمـام. جـرأة تلـك المشـتبه فيهـا فـي حـدٍّ ذاتهـا سـتجعلها محـط اهتمـام حـوَّاط».

سـأل فيد راوثا: «تقول هي؟».

قال البارون: «الليدي چيسيكا بشحمها ولحمها».

سـأل پايتـر: «أوليسـت فكـرةً عظيمـةً؟ سـيمتلأ عقـل حـوَّاط بهـذا الاحتمـال إلـى درجـة ستشـوِّش علـى قدراتـه المِنتاتيـة وتضعفهـا، ولرُبَّمـا حتَّـى حـاول قتلهـا»، ثم قطـب جبينـه وأردف: «لكننـي لا أظـن أنـه سـيكون قـادرًا علـى تنفيـذ ذلـك».

سأل البارون: «بل لا تريده أن يفعل ذلك، صح؟».

قـال پايتـر: «لا تشـتِّتني. فـي أثنـاء انشـغال حـوَّاط بالليـدي چيسـيكا، سـنصرف انتباهـه أكثـر بإحـداث قلاقـل وانتفاضـات فـي مـدن الحاميـات العسـكرية وغيرهـا، لكننـا سـنخمدها بعـد ذلـك. يجب أن يشـعر الـدوق بأنـه اكتسـب قـدرًا مـن الأمـان. وعندمـا تحيـن اللحظـة المناسـبة، سـنعطي أمـرًا ليُـوي بالتحـرُّك، وسـنهبط بقوَّاتنـا الرئيسـة... آه...».

قال البارون: «أكمل، أخبره بكل شيء».

- «سـنتحرَّك بدعـمٍ مـن فيلقـي سـاردوكار متنكِّريـن فـي زيٍّ حاشـية آل هاركونـن».

صاح فيد راوثا لاهثًا: «ساردوكار!»، وراح يتخيَّل القوَّات الإمبراطورية التي تبثُّ الفزع والرهبة في القلوب، أولئك القتلة العديمي الرحمة، أشاوس الإمبراطور البادیشاه المتعصِّبين.

قال البارون: «أترى إلى أيِّ مدى أثق بك يا فيد؟ يجب ألَّا تخرج كلمة ممَّا يُقال هنا إلى أيٍّ من العائلات النبيلة الأخرى، وإلا قد يتَّحد مجلس اللاندسراد ويقف في وجه العائلة الإمبراطورية وتعمُّ الفوضى».

قال پايتر: «الفكرة هنا كالآتي: اكتسب آل هاركونن أفضلية منذ أن أخذوا على عاتقهم القيام بأعمال الإمبراطور القذرة. إنها أفضلية محفوفة بالمخاطر بلا شك، لكن إن استُخدمت بحرص ستجلب على آل هاركونن ثروة عظيمة لا تُضاهيها ثروة عائلة نبيلة أخرى في الإمبراطورية».

قال البارون: «لن تصدِّق حجم الثروة التي على المحك يا فيد، لن ترد حتَّى في أقصى خيالاتك جموحًا. باديٍ ذي بدء، سنحصل على مقعد دائم في مجلس إدارة شركة تشوم».

أومأ فيد راوثا متفهِّمًا. الثروة هي المُراد، وشركة تشوم هي مفتاح الحصول على تلك الثروة. كل عائلة نبيلة تنهل من خزائن الشركة كل ما تستطيع بالسُّلطة التي يخوِّلها لها مقعدها في مجلس الإدارة. عضوية مجلس إدارة شركة تشوم هي المقياس الحقيقي للنفوذ السياسي في الإمبراطورية، وهو يتغيَّر بتغيُّر الأصوات داخل مجلس اللاندسراد الذي يشكِّل جبهة موزانة في وجه الإمبراطور وأنصاره.

قال پايتر: «قد يحاول الدوق ليتو الفرار إلى حثالة الفرمِن الذين يعيشون بامتداد حافة الصَّحراء، أو قد يحاول إرسال

أسرته إلى هذا الملاذ الوهمي. لكن هذا الطريق مسدود بأحد عملاء جلالة الإمبراطور، عالم البيئات الكوكبية. رُبَّما تتذكَّره، اسمه كاينز».

قال البارون: «فيد يتذكَّره، أكمل».

قال بايتر: «أنت عاجز عن السيطرة على لعابك يا بارون».

زأر البارون: «أكمل. هذا أمر!».

هزَّ بايتر كتفيه وقال: «إن سارت الأمور كما خُطِّط لها، فخلال سنة واحدة ستحوز عائلة هاركونن وكالة إقطاعية على أرَّاكس من الباطن ستمكِّنها من الاستحواذ عليه. سيدير عمُّك تلك الوكالة وسيكون له حق التوزيع منها، وسيحكم نائبه الشخصي كوكب أرَّاكس».

قال فيد راوثا: «وهذا يعني مزيدًا من الأرباح».

قال البارون: «بالتأكيد»، ثم فكَّر: *هذا هو العدل، فنحن من روَّضنا كوكب أرَّاكس وأحكمنا قبضتنا عليه بالكامل، باستثناء قِلَّة من الفرمن الأنغال المختبئين في أطراف الصَّحراء، وبعض المهرِّبين سهلي الانقياد المرتبطين بالكوكب بشدَّة مثل العمَّال المحلِّيين.*

قال بايتر: «ولسوف تعلم العائلات النبيلة أن البارون دمَّر آل آتريدس، أجل سيعلمون».

تنفَّس البارون قائلًا: «سيعلمون».

قال بايتر: «أجمل ما في الأمر أن الدوق كذلك سيعلم، إنه حتَّى يعلم الآن، ويستشعر المكيدة بالفعل».

قال البارون وفي صوته مسحة من الحزن: «صحيح أن الدوق يعلم، لا مفر من أن يعلم.. ولعمري هذا مؤسف».

تحرَّك البارون بعيدًا عن مُجسَّم كوكب أرَّاكس، ومع خروجه من بين الظلال، ارتسمت أبعاد جسده الضخم سافر البدانة. من

أسـفل ثنايـا ردائـه الداكـن، بـرزت انتفاخـات طفيفـة تكشـف أن كل هـذه الدهـون محمولـة جزئيًـا بنظـام تعليـق مضـاد للجاذبيـة مشـدودًا بحـزام إلـى جسـده. رُبَّمـا كان وزنـه مئتـي كيلوجـرام، لكـن قدميـه لا تحمـلان إلَّا خمسـين كيلوجرامًـا منهـا.

تلمَّـظ البـارون قائـلًا: «أنـا جائـع»، وفـرك شـفتيه الغليظتيـن بيـدٍ مكتـزة تملؤهـا الخواتـم، ونظـر إلـى فيـد راوثـا بعينيـن غائرتيـن فـي طبقـاتٍ مـن الدهـن، ثـم أردف: «أبلـغ الخـدم بـأن يُعـدُّوا لنـا الطعـام يـا عزيـزي، سـنأكل قبـل أن نخلـد إلـى الفـراش».



«على الأُمّ الموقَّرة أن تجمع بين غواية العشيقات وشموخ الآلهة العذراوات، وأن تحافظ دومًا على شعرة غير مقطوعة بين الصفتين ما دام ماء الشباب يسري في جسدها. لأنه حين يذهب الشباب ويذبل الجمال، ستجد أن هذه الشعرة قد تحوَّلت إلى حبل مجدول من المكر والدَّهاء». هكذا تحدَّثت القدِّيسة عالية* حاملة السكِّين.

من كتاب «المؤدِّب: شروح السيرة العائلية» للأميرة إيرولان.

سألت الأُمُّ الموقَّرة: «حسنًا يا چيسيكا، بم ستسوِّغين فِعلتك؟».

كانت شمس يوم اجتياز پول الاختبار العصيب قد أوشكت على الغروب عن قلعة كلادان، وكانت المرأتان بمفرديهما في غرفة چيسيكا الصباحية، في حين ما جلس پول ينتظر في حجرة التأمُّل المجاورة العازلة للصوت.

وقفت چيسيكا في مواجهة النوافذ الجنوبية ترمق ألوان المساء البادية عبر المرج والنهر لكن دون أن تراها، وسمعت سؤال الأُمّ الموقَّرة لكن دون أن تسمعه.

تذكَّرت اختبارًا عصيبًا آخر حدث منذ سنوات كثيرة. في ذلك اليوم، كانت لا تزال فتاة نحيلة برونزية الشعر، جسدها مُعذَّبٌ برياح البلوغ، تخطو داخلة مكتب الأُمّ الموقَّرة جايس هيلين موهيم مشرفة مدرسة البِني چيسيرِت العُليا على كوكب والاك 9. نظرت چيسيكا إلى أسفل متأمِّلةً يدها اليمنى، وثنت أصابعها متذكِّرةً الألم، متذكِّرةً الرعب، متذكِّرةً الغضب.

ثم همست لنفسها: «يا لپول المسكين!».

– «وجَّهتُ إليكِ سؤالًا يا چيسيكا!». كان صوت المرأة العجوز حادًا.. آمرًا.

«ماذا؟ آ...»، صرفت چيسيكا الماضي عن انتباهها، وواجهت الأُمَّ الموقَّرة التي كانت تجلس وظهرها إلى الجدار الحجري الذي يتوسَّط النافذتين الغربيتين. «ماذا تريدين مني أن أقول؟».

– «ماذا أُريد منكِ أن تقولي؟ ماذا أُريد منكِ أن تقولي؟»، هكذا ردَّدت العجوز بنبرة ساخرة قاسية.

انفجرت چيسيكا عالمةً أنها تُساق إلى هذا الغضب عن عمد: «أنجبت ولدًا، ما الجريمة في ذلك؟».

– «أُمِرت بإنجاب فتيات فحسب لآل آتريديز».

قالت چيسيكا مستعطفة: «كان يرغب في صبيٍّ بشدَّة».

– «وأنت أخذتك العِزَّة وظننتِ أنك ستلدين الكويزاتس هاديراك!».

رفعت چيسيكا أنفها بشمم وقالت: «لمست الاحتمال».

صاحت العجوز: «لم تفكِّري إلَّا في رغبة دوقك في ابن، ورغباته لا قيمة لها. كان بالإمكان تزويج ابنة آل آتريديز بوارث آل هاركونن وإغلاق الدائرة، لكنك بفعلتك هذه عقَّدتِ الأمور إلى درجة ميؤوسٍ منها، والآن قد نفقد كلا السلالتين».

قالت چيسيكا متحدِّية نظرة العينين المُسنَّتين الثَّاقبة: «لا أحد معصوم من الخطأ، حتَّى أنتِ».

مرَّت هنيهة صمت، ثم غمغمت العجوز في النهاية: «ما حدث حدث».

قالت چيسيكا: «تعهَّدت ألا أندم على قراري أبدًا».

ردَّت الأُمُّ الموقَّرة بسخرية: «لا ندم! يا للنبل! سنرى معدنك

الحقيقي حين تصبحين هاربة، وتُرصد جائزة لمن يأتي برأسك، وتتقلب كل الأيادي ضدَّك ساعيةً لقتلك وقتل ابنك».

شحب وجه چيسيكا وهمست: «ألا يُوجد بديلٌ آخر؟».

- «بديلٌ آخر؟ أهذا سؤال تسأله امرأة من البِني چيسيرِت؟»

- «لا أطلب سوى لمحة من المستقبل الذي تبصرينه ببصيرتك النَّافذة».

- «أبصر في المستقبل ما أبصرته في الماضي. تعرفين جيِّدًا النمط الذي يحكم شؤوننا يا چيسيكا. العرق البشري يعي أنه يحمل بذور فنائه بداخله، ويخشى ركود صفاته الوراثية، لذا تجري الرغبة في خلط سلالات الچينات بشكل عشوائي غريزة في عروقنا مجرى الدم. ما الإمبراطورية وشركة تشوم وكل العائلات الكبيرة إلا قطع حُطامٍ في طريق الطوفان».

تمتمت چيسيكا: «ظننت أن تشوم قرَّرت بالفعل كيف ستعيد تقسيم غنائم أرَّاكس».

قالت العجوز: «تشوم ليست إلَّا مؤشِّر اتِّجاه الريح في هذا العصر. الإمبراطور وأصدقاؤه يسيطرون الآن على 59.56% من أصوات مجلس إدارة تشوم. قطعًا هم يشمُّون رائحة الأرباح، وستزداد نسبة هذه الأصوات على الأرجح عندما يشتمُّ آخرون شذا تلك الأرباح. هكذا يخبرنا التاريخ يا فتاة».

قالت چيسيكا: «كأن ما كان ينقصني الآن هو درسٌ في التاريخ».

- «لا تتظارفي يا فتاة! أنت تعرفين كما أعرف طبيعة القوى المحيطة بنا. لحضارتنا ثلاثة أضلع: البلاط الإمبراطوري من ناحية، وائتلاف العائلات الكبيرة المُمثَّل في مجلس اللاندسراد

من الناحية الأخرى، وبينهما تقبع النقابة باحتكارها اللعين للسفر في الفضاء. في عالم السياسة، يُعدُّ الهيكل ثلاثي القوائم أقل الأنظمة السياسية استقرارًا. هذا الوضع سيِّئ إلى درجة كافية من دون التعقيدات الإضافية التي تفرضها ثقافة التجارة الإقطاعية السائدة التي تدير ظهرها لمعظم العلوم».

قالت چيسيكا بمرارة لاذعة: «قطع حطام في طريق الطوفان. هذه القطعة هي الدوق ليتو، وتلك ابنه، وتلك...».

- «صه يا فتاة. لقد دخلت اللعبة وأنت تعلمين مدى صعوبة السير على حدِّ الموسى».

اقتبست چيسيكا القول المأثور: «"أنا من بنات البِني چيسيرِت، وُجِدتُ في الحياة لأخدم"».

قالت العجوز: «بالضبط. وكل ما نستطيع تمنِّيه الآن هو منع هذا الأمر من الاستفحال كي لا يحرقنا جميعًا، وأن ننقذ قدر ما نستطيع من السلالات المهمة».

أغلقت چيسيكا عينيها، وشعرت بالدموع تحتشد وتضغط جفنيها. قاومت بشدَّة ارتجافها الداخلي، وارتعاشها الخارجي، وأنفاسها المتقطِّعة، ونبضها غير المنتظم، وتعرُّق كفَّيها. وفي النهاية قالت: «سأدفع ثمن غلطتي».

- «وابنك سيدفع الثمن معك».

- «سأحميه قدر استطاعتي».

صاحت العجوز: «تحمينه! ألا تعرفين الضَّعف الذي تورِّثه الحماية؟! بالغي في حماية ابنك يا چيسيكا، وسيشب رخوًا بلا عزم كافٍ لتحقيق أيِّ أمرٍ جلل».

أدارت چيسيكا وجهها بعيدًا، ونظرت من النافذة إلى الظلام الذي يوطِّد نفسه في الخارج: «أهو حقًّا بهذا السوء، هذا الكوكب أرَّاكس؟».

- «إنه سيِّئ بما يكفي، لكن ليس كله سيِّئًا. لقد زارته بعثات المبشِّرات الحاميات قديمًا ومهَّدته إلى حد ما»، قالتها الأمُّ الموقَّرة ونهضت واقفة على قدميها، وفردت طيَّة في ردائها، ثم أردفت: «استدعي الصبيَّ. يجب أن أغادر قريبًا».

- «هل أنت مضطرة إلى الرحيل؟».

لان صوت العجوز وهي تقول: «چيسيكا يا عزيزتي، أتمنَّى لو أستطيع أن أكون مكانك وأتحمَّل معاناتك بدلًا منك، لكن كلًّا منَّا يجب أن تصنع قدرها الخاص».

- «أعلم ذلك».

- «أنا أحبُّك مثلما أُحبُّ بناتي، لكنني لا أستطيع أن أسمح لذلك بالتعارض مع واجبي».

- «أدرك ذلك.. للضرورة أحكامها».

- «كلنا نعلم ماذا فعلتِ يا چيسيكا، ولماذا فعلتِه. لكن الإخلاص يُحتِّم عليَّ مصارحتك بأن فُرصة أن يكون طفلك هو الشخص المنشود الذي تسعى خلفه البِني چيسيرِت ضئيلة، لذا لا تفرطي في التفاؤل».

نفضت چيسيكا دموعًا احتشدت في ركنيِّ عينيها في هزَّةٍ غاضبةٍ، وقالت: «جعلتِني أشعر كأنني فتاة صغيرة من جديد، أقرأ درسي الأول»، ثم أجبرت الكلمات على الخروج من فمها: «"يجب ألا يخضع البشر للحيوانات"»، ثم هزَّ جسدها نشيجٌ جاف، وفي صوتٍ خفيض همست: «كنتُ أشعر بوحدة شديدة».

قالت العجوز: «علينا أن ندرج اختبارًا للوحدة ضمن اختباراتنا، فكثيرًا ما يشعر البشر بالوحدة. الآن استدعي الصبيَّ، لقد مرَّ

بيوم طويل ومخيف لكنه أخذ وقته في التفكير والتذكُّر، ولا بُدَّ لي من طرح الأسئلة الأخرى حول طبيعة أحلامه».

أومأت جيسيكا، واتَّجهت إلى باب غرفة التأمُّل وفتحته وقالت: «پول، تعال الآن من فضلك».

تقدَّم پول ببطءٍ عنيد، محدِّقًا إلى أُمِّه كأنها غريبةٌ عنه. كان الحذر يملأ عينيه حين نظر إلى الأُمِّ الموقَّرة، لكنه أومأ لها هذه المرَّة بالطريقة التي يفعلها المرء مع من هم في مقامه.

قالت العجوز: «أيُّها الشاب، لنعد إلى الحديث عن أحلامك».

- «ما الذي تريدين معرفته؟».

- «هل تحلم كل ليلة؟».

- «أضغاث أحلام لا تستحق التذكُّر. أتذكَّر جميع أحلامي، لكن بعضها يستحق وبعضها لا».

- «وكيف تعرف الفارق؟».

- «أعرفه وكفى».

ألقت العجوز نظرة سريعة إلى جيسيكا، ثم عادت إلى پول.

- «بم حلمت البارحة؟ هل كان حُلمًا يستحقُّ التذكُّر؟».

أغلق پول عينيه، وقال بشرود: «أجل. حلمتُ بكهفٍ كبير.. وبماء.. وبفتاة هناك. فتاة نحيلة جدًّا ذات عينين واسعتين. كانت عيناها زرقاوين بالكامل لا بياض فيهما. تحدَّثتُ إليها وحدَّثتها عنك، قلت لها إنني قابلت الأُمَّ الموقَّرة على كالادان». أنهى پول كلامه وفتح عينيه.

- «هل حكيت لتلك الفتاة الغريبة عن رؤيتي اليوم؟».

فكَّر پول قبل أن يُجيب ثم قال: «أجل. قلت للفتاة إنك جئتِ ودمغتِني بالغرابة».

- «دمغتك بالغرابة»، قالتها المرأة وأخذت نفسًا عميقًا، ومن جديد رمقت چيسيكا بنظرة سريعة قبل أن تعيد اهتمامها إلى پول. «كن صادقًا معي يا پول، هل كثيرًا ما تحلم بأشياء تتحقَّق بعدها كما حلمت بها بالضبط؟».

- «أجل، وقد سبق لي أن حلمت بتلك الفتاة».

- «حقًّا؟ أهي فتاة تعرفها؟».

- «سوف أعرفها».

- «حدِّثني عنها».

مرَّة أخرى أغلق پول عينيه، ثم قال: «رأيتنا في مكانٍ ضيِّق تحيط بنا الصخور. كان الظلام قد حلَّ تقريبًا، لكن الجوَّ ما زال حارًّا، وكنت أرى رمالًا ممتدَّةً من فرجة بين الصخور. كنا... ننتظر شيئًا... ننتظر ذهابي للقاء بعض الناس. كانت خائفة وتحاول حجب خوفها عني، أما أنا فكنت متحمِّسًا. ثم سمعت صوتها يقول لي: "حدِّثني عن الماء على كوكبك.. أصول*"».

فتح پول عينيه، وتساءل قائلًا: «أليس هذا غريبًا؟ كوكبي اسمه كالادان، لم أسمع من قبل عن كوكب اسمه أصول».

حثَّته چيسيكا قائلة: «ألهذا الحُلم بقيَّة؟».

قال پول: «أجل، لكن من الممكن أنها كانت تقصدني أنا باسم أصول. لقد خطرت لي هذه الفكرة للتوِّ»، ومن جديد أغلق عينيه وواصل: «طلبت منِّي أن أحكي لها عن الماء، فأخذتُ يدها في يدي، وأخبرتها بأنني سألقي عليها قصيدة. ألقيت عليها القصيدة بالفعل، لكن كان عليَّ أن أشرح لها معاني بعض الكلمات، كالشاطئ والموج وأعشاب البحر وطيور النورس».

سألته الأمُّ الموقَّرة: «أيُّ قصيدةٍ ألقيت؟».

فتح پول عينيه وقال: «واحدة من قصائد جيرني هاليك الغنائية التي يلقيها في أوقات الحزن».

من خلف پول، بدأت چيسيكا في الإلقاء:

«أتذكَّر الدُخان المالح
المتصاعد من نارٍ أوقدناها على الشاطئ،
وظلالًا تحت أشجار الصنوبر
راسخةً بلا حراك.
أتذكَّر طيورَ نورسٍ جاثمة عند حافة المرج
مستقرَّةً في أماكنها.. وضَّاءةً..
محض بياض فوق خضار.
ثم من بين أشجار الصنوبر أتت ريح،
فمالت لها الظلال،
وفردت النوارس أجنحتها وحلَّقت
لتملأ السماء بصياحها.
ها أنا أسمع الريح تهب عبر شاطئنا،
وعبر الموج،
فأدرك أن نارنا أحرقت أعشاب البحر».

قال پول: «هذه هي القصيدة».

حملقت العجوز هنيهةً إلى وجهه، ثم قالت: «أيُّها الشاب، بصفتي واحدة من مشرفات البِني چيسيرِت العُلى فأنا أسعى للعثور على الكويزاتس هاديراك، الذكر الذي يمكن أن يصير واحدًا منَّا. أُمُّك ترى فيك هذا الاحتمال، لكنها تبصر بقلب الأمِّ. أنا أيضًا أرى هذا الاحتمال، لكنه مجرَّد احتمال، لا أكثر ولا أقل».

ثـم أنهـت عبارتهـا وصمتـت، وشـعر پـول أنهـا تريـده أن يتحـدَّث، لكنـه ظلَّ كتومًـا منتظـرًا مبادرتهـا.

في النهاية قالت: «كما شئت. أنت بئرٌ عميقة، أعترف لك بهذا».

سـألها: «أبإمكاني المغادرة الآن؟».

سـألته چيسيكا: «ألا تريـد سـماع ما فـي جعبـة الأُمِّ الموقَّـرة عـن الكويزاتـس هاديـراك؟».

- «لقد قالت إن كل من حاولوا سلك هذا الدرب ماتوا».

قالت الأُمُّ الموقَّرة: «لكننـي أسـتطيع مسـاعدتك ببعض التلميحات عن أسـباب فشـلهم».

فكَّـر پـول: *إنهـا تتحـدَّث عـن تلميحـات، إذًا هـي لا تعـرف شـيئًا حـقَّ المعرفـة*. ثـم قـال: «ألمحـي إذًا».

قالـت: «تحسـبني شـمطاء لعينـة لا أفقـه شـيئًا، أليـس كذلـك؟»، وابتسـمت بسـخرية فتقاطعـت التجاعيـد وتداخلـت فـي الوجـه العجـوز، ثـم أردفـت قائلـة: «حسـنًا: "مـن يخضـع يحكُـم"».

دهـش پـول ممَّـا قالـت. إنهـا تتحـدَّث عـن أشـياء مُسـلَّمٌ بهـا، وتستخدم التضاد في المعنـى لإبـرازه. أتظـنُّ أن أُمَّـه لـم تعلِّمـه شـيئًا علـى الإطـلاق؟

سـألها: «أتعدِّين هـذا تلميحًا؟».

قالـت العجـوز: «لسـنا هنـا للتلاعـب بالكلمـات أو الجـدال حـول معناهـا. شـجرة الصفصـاف تخضـع للريـح، وتنمـو بانحنائهـا لـه، إلـى أن يأتـي اليـوم وتصيـر الصفصافـة شـجرًا كثيـرًا وتشـكِّل جـدارًا فـي وجـه الريـح. هـذه هـي غايـة الصفصـاف».

حـدَّق پـول إليهـا. هزَّتـه كلمـة «غايـة» حيـن لفظتهـا، وذكَّرتـه مـن جديـد بالغايـة الرهيبـة. استشـعر الصبـيُّ غضبًـا مفاجئًـا نحوهـا: *يا*

لها من ساحرةٍ شمطاء سخيفة تتفوّه بالتّراهات.

قال لها: «أنت تظنين أنني قد أكون هذا الكويزاتس هاديراك، وتتحدَّثين عنّي كثيرًا، لكنك لم تقولي شيئًا واحدًا عمَّا يمكن فعله لإعانة أبي. لقد سمعتك تتكلَّمين مع أُمّي، تتكلَّمين معها كأن أبي قد مات، لكنه لم يمت بعد!».

زمجرت العجوز: «لو كان في وسعنا فعل شيءٍ له، لكنَّا فعلناه. رُبَّما نستطيع إنقاذك أنت، صحيح أن هذا غير مؤكَّد، لكنه ممكن. أما بخصوص والدك، فلا شيء يمكن فعله. عندما تتعلَّم تقبُّل هذه الحقيقة ستكون قد تعلَّمت درسًا حقيقيًا من دروس البِني چيسيرِت».

لاحظ پول كيف هزَّت الكلمات أُمَّه، وصوَّب نظرة نارية إلى المرأة العجوز. كيف تجرؤ أن تقول هذا عن أبيه؟ ما هذه الثقة التي تتحدَّث بها؟ راح عقله يغلي من الغيظ.

نظرت الأُمُّ الموقَّرة إلى چيسيكا: «أرى أنك درَّبتِه على نهجنا، لاحظت دلائل على ذلك. لو كنت مكانك لفعلت الأمر نفسه دون أن أخشى لومة لائم».

أومأت چيسيكا.

قالت العجوز: «الآن، أحذِّرك من عدم اتِّباع ترتيب التدريب المعتاد. تتطلَّب سلامته الشخصية أن يتقن استخدام "الصَّوت" أوَّلًا. إن مستواه جيِّد، لكن كلينا تعرف أنه يحتاج إلى ما هو أكثر بكثير لإتقانه، وأنه في أمسّ الحاجة إلى ذلك».

قالتها وخطت مقتربة من پول، وحدَّقت إليه: «وداعًا أيُّها البشري الصغير. أرجو أن تنجو. لكن إن لم تنج، سننجح في مسعانا من بعدك».

ثم نظرت إلى چيسيكا من جديد، ومرَّت بينهما لحظة تفاهم

مشترك. انسحبت العجوز خارجة من الغرفة تجرجر ثوبها خلفها دون إلقاء نظرة أخرى إلى الوراء، وانمحت الغُرفة بمن فيها من تفكيرها بمجرَّد خروجها.

لكن چيسيكا استطاعت أن تلمح وجه الأُمِّ الموقَّرة وهي تنعطف مبتعدة، ورأت دموعًا تبلِّل وجنتيها اليابستين. أوجلت الدموع قلبها أكثر من أيِّ كلمة أو إشارة أخرى تبادلتها معها هذا اليوم.



> لرُبَّما قرأتم أن المؤدِّب لم يحظ برفاقٍ من سنِّه على كلادان، إذ كان في ذلك مخاطرة كبيرة. لكن المؤدِّب حظي بصحبة مجموعة من المعلِّمين الرائعين. مثل جيرني هاليك، التروبادور[1] المحارب، الذي ستدندن بعض أغانيه وأنت تقرأ هذا الكتاب. وظفير حوَّاط، المِنتات العجوز كبير المقاتلين الذي يبثُّ الرعب في القلوب كافَّةً، بما فيها قلب الإمبراطور الباديشاه ذاته. ودانكن آيداهو، خبير فنون النزال، نجيب مدرسة آل جِناز، أسياد السيوف. والدكتور ولينجتون يُوي، الاسمُ الأسود المُلوَّثُ بالخيانة، عظيم الحُجَّةُ في المعرفة. والليدي جيسيكا، من درَّبت ابنها على نهج البِني جيسيرِت. وبالتأكيد الدوق ليتو ذاته، الذي غفلت الأذهان عن حميد خصاله الأبوية منذ زمنٍ بعيد.
>
> من كتاب «سيرة المؤدِّب للأطفال» للأميرة إيرولان.

انسلَّ ظفير حوَّاط إلى غرفة التدريب في قلعة كلادان وأغلق الباب برفق من خلفه. وقف الرجل في مكانه لحظة، مُثقلًا بالشيخوخة والإرهاق وعصف السنين، شاعرًا بنبض الألم الممض في ساقه اليسرى حيث قُطعت ذات مرَّة إبَّان عمله في خدمة الدوق الكبير الراحل.

جال في خاطره: *خدمت ثلاثة أجيال منهم حتَّى الآن.*

(1) مطرب شاعر.

أجال حوَّاط بصره في الغرفة الكبيرة التي تخترقها أشعة شمس الظهيرة من كوَّات السقف، ورأى الصبيَّ جالسًا وظهره إلى الباب، عاكفًا على أوراقٍ وخرائط تتناثر أمامه على طاولة تأخذ شكل حرف L.

كم مرَّة يجب أن أذكِّر هذا الفتى ألَّا يجلس معطيًا ظهره إلى الباب؟ هكذا فكَّر حوَّاط ثم تنحنح.

ظلَّ پول منكفِئًا على أوراقه.

مرَّت غيمة من فوق كوَّات السقف فأعتم ظلُّها المكان. تنحنح حوَّاط مجدَّدًا.

اعتدل پول في جلسته وقال دون أن يلتفت: «أعلم، أجلس وظهري إلى الباب».

كتم حوَّاط ابتسامته، وقطع الغرفة بخطوات واسعة.

رفع پول نظره إلى الرجل المُسنِّ أشيب الرأس الذي توقَّف عند زاوية الطاولة. كانت عينا حوَّاط لُجَّتين من اليقظة في وجهٍ أسمر متغضِّن تنتشر فيه التجاعيد.

قال پول: «ميَّزت وقع خطواتك في الرواق، وسمعتك وأنت تفتح الباب».

- «الأصوات التي تصدر عنِّي يُمكن تقليدها».

- «سأعرف الفرق».

فكَّر حوَّاط: *قد يكون ذلك في استطاعته بالفعل. لقد منحته أُمُّه السَّاحرة تدريبًا مكثَّفًا من دون شك. تُرى ما رأي طائفتها العزيزة فيه؟ رُبَّما أرسلن مُشرفتهن العجوز إلى هنا لشدِّ أُذن عزيزتنا چيسيكا وإعادتها إلى صوابها.*

سحب حوَّاط مقعدًا قبالة پول وجلس مواجهًا الباب. فعلها بجِدَّة وعن قصد، ثم أرجع ظهره إلى الوراء وأمعن في النظر إلى الغرفة. اعتراه شعور بأنها تبدو مكانًا غريبًا بعد نقل أغلب لوازمها إلى أرَّاكس. بقيت طاولة التدريب، وكذلك مرآة المبارزة بمناشيرها البلَّورية العاكسة غير المُفعَّلة، وإلى جوارها دمية التدريب المرقَّعة المحشوَّة التي تبدو كجندي مُشاة قديم عصفت به الحروب وشوَّهته.

فكَّر حوَّاط: *هذا أنا*.

سأله پول: «فيم تُفكِّر يا ظفير؟».

نظر حوَّاط إلى الصبيِّ وقال: «أُفكِّر في أننا سنغادر هذا المكان قريبًا، وقد لا نراه مرَّةً أخرى».

- «أيُحزنك هذا؟».

- «يُحزنني؟ هُراء! ما الحُزن إلَّا فراق الأصدقاء، أما الأماكن فمجرَّد أماكن»، قالها ورمق الخرائط المتناثرة على الطاولة، ثم أردف: «وأرَّاكس مجرَّد مكان آخر».

- «أرسلك أبي لاختباري، أليس كذلك؟».

قطب حوَّاط جبينه متعجِّبًا. يتمتَّع الفتى بفراسة حقيقية. ثم هز رأسه بالإيجاب وقال: «كنت تريده أن يأتي بنفسه، لكن لا بُدَّ أنك تعلم مدى انشغاله. سيأتي لاحقًا».

- «كنت أقرأ عن عواصف أرَّاكس».

- «عواصف أرَّاكس، جميل».

- «يُقال إنها شديدة».

- «وصفها بالشديدة يبخسها قدرها. تستفحل تلك العواصف تدريجيًا عبر ستَّة أو سبعة آلاف كيلومترٍ من الأراضي المسطَّحة،

متغذّيةً على أيِّ شيءٍ يزيدها زخمًا: تأثير كوريوليس، عاصفة أخرى، أيّ ظاهرة تحتوي ولو على حفنة من الطاقة. أحيانًا تصل سُرعتها إلى سبعمئة كيلومترٍ في الساعة، وتكون مُحمَّلةً بكل شيءٍ جرفته في طريقها: رمال، غبار، أيّ شيء. تلك العواصف قادرة على تجريد العظام من اللحم، ونخر العظام إلى رميم».

- «لماذا لا يملكون تقنيّات تحكُّم في الطقس؟».

- «لأرّاكس مشكلاته الخاصه. التكاليف هناك أعلى، فضلًا عن معوّقات الصيانة وما شابه، كما أن النقابة تطلب ثمنًا باهظًا نظير التحكُّم في الطقس بالأقمار الصناعية، وعائلة أبيك ليست من العائلات الثرية الكبيرة يا فتى، أنت تعرف ذلك».

- «هل سبق أن رأيت الفرمِن؟».

فكَّر حوَّاط: *عقل الفتى اليوم زوبعة لا تهدأ ولا تتوقَّف.*

قال: «رُبَّما أكون رأيت بعضهم، فلا توجد فروق كبيرة تميِّزهم عن سكَّان الأخاديد والأحواض. جميعهم يرتدون أرديةً فضفاضة طويلة، ورائحتهم لا تُطاق في الأماكن المغلقة بسبب ارتدائهم تلك البذلات التي تعيد تدوير مياه الجسم التي يسمُّونها "بذلات التقطير"».

ابتلع پول ريقه وقد انتبه فجأةً إلى رطوبة فمه، وتذكَّر حُلم الظَّمأ الذي سبق أن راوده. هزَّته الحاجة الماسَّة التي تحتِّم على أولئك الناس إعادة تدوير رطوبة أجسادهم، وأصابته بشيء من الوحشة، وقال: الماء عزيزٌ هناك».

أومأ حوَّاط مؤمِّنًا على عبارته، وفكَّر: *يبدو أنني نجحت في توضيح أهمية التعامل مع هذا الكوكب كعدو له. من الجنون الذهاب إلى هناك دون هذا الحذر اليقظ في أذهاننا.*

رفع پول عينيه إلى الكوَّة، مُدركًا أن السَّماء بدأت تُمطر، ولاحظ البلل الذي راح ينتشر على الزجاج المتحوِّل الرمادي، وهمس: «ماء».

قال حوَّاط: «على أرَّاكس ستتعلَّم أن يكون الماء أولى أولويَّاتك. بصفتك ابن الدوق فلن يعوزك الماء أبدًا، لكنك سترى بصمة العطش حولك في كل مكان».

بلَّل پول شفتيه بلسانه مُفكِّرًا في ذلك اليوم الذي مضى عليه أسبوع، والاختبار العصيب الذي خاضه مع الأُمِّ الموقَّرة. لقد ذكرت هي الأخرى شيئًا عن القحط.

لقد قالت له: «ستُعاين السهول الجنائزية القاحلة، والفيفاء الخالية الجدباء، والأراضي القفر التي لا يسكنها غير ديدان الرمال العملاقة ولا ينبت فيها غير الاسپايس. ستلطِّخ محيطَ عينيك بالسواد مخافة وهج الشمس، وسيكون المأوى في نظرك هو التجويف الذي يقيك هول الريح ويحجبك عن الأنظار. ستجوب الفيافي على قدميك، من دون ثوبتر أو مركبة أو مطية».

رغم ثقل ما قالته، استشعر پول من نبرتها الرتيبة المرتعشة وجلًا أكثر من كلماتها نفسها.

قالت له: «عندما تعيش على أرَّاكس، الخلاء الذي لا شيء فيه، سيصير قمراه صديقيك، وشمسه عدوٌّ لك».

وقتها شعر پول بأُمِّه تقترب منه تاركةً موقعها عند الباب، ثم نظرت إلى الأُمِّ الموقَّرة وسألتها: «ألا ترين بارقة أمل في الأُفق يا سيِّدتي؟».

- «لا أمل للأب».

هكذا قالت العجوز وأشارت إلى چيسيكا كي تصمت، وخفضت عينيها إلى پول وأردفت: «احفر ما سأقول في ذاكرتك يا فتى: يقوم العالم -أيُّ عالمٍ- على أربعة أعمدة..»، ثم رفعت أربع أصابع يابسة بارزة المفاصل وراحت تعدِّد: «تعاليم الحكماء، وعدل العظماء، ودعوات الصالحين، وشوكة الشجعان.. لكن كل هذه الأمور لا يغدو لها قيمة...»، وضمَّت أصابعها في قبضة وهي تنهي عبارتها، «... من دون حاكم يفقه فن الحُكم. اجعل هذه الدراية سُنَّة تفكيرك!».

ها قد مضى أسبوع على يوم لقائه الأُمَّ الموقَّرة، والآن فقط بدأ يتبدَّى له معنى ما ظهر من كلامها وما بطن. الآن وهو جالس في غرفة التدريب مع ظفير حوَّاط، شعر پول بوخزة خوفٍ حادَّة. لمح پول العبوس الحائر البادي على وجه المِنتات.

سأله حوَّاط: «أين شردت هذه المرَّة؟».

- «هل قابلت الأُمَّ الموقَّرة؟».

- «تلك السَّاحرة عرَّافة الحقيقة من بلاط الإمبراطور؟ أجل قابلتها»، قالها حوَّاط واتَّقدت عيناه بالاهتمام.

قال بول: «إنها...»، ثم تردَّد، ووجد نفسه عاجزًا عن إخبار حوَّاط بأمر الاختبار، كأن حائلًا يمنعه من البوح بما يجيش في صدره.

- «أجل؟ ماذا عنها؟».

أخذ پول نفسين عميقين وقال: «قالت لي شيئًا». ثم أغلق عينيه، مستدعيًا إلى ذهنه الكلمات الصحيحة، وعندما تكلَّم -ودون وعيٍ منه- تلحَّف صوته بصوت المرأة العجوز: «أنت يا پول آتريديز، يا سليل الملوك، يا ابن الدوق، يجب أن تتعلَّم كيف

تحكم، وهذا أمرٌ أخفق أسلافك في تعلُّمه»، ثم فتح پول عينيه وأردف: «أغضبني كلامها فأخبرتها أن أبي يحكم كوكبًا برمَّته، فردَّت قائلةً "إنه يخسره". قلت لها إنه سيحصل على كوكبٍ أكثر ثراءً بدلًا منه، فردَّت قائلةً "سيخسره كذلك". لحظتها أردت أن أركض إلى أبي وأحذِّره، لكنها قالت لي إنه حُذِّر بالفعل. قالت إنك حذَّرته، وإن أُمِّي حذَّرته، فضلًا عن آخرين».

غمغم حوَّاط: «هذا صحيح تمامًا».

سأله پول في غيظ: «لماذا نحن ذاهبون إذًا؟».

- «لأن الإمبراطور أمر بذلك، ولأنه ثمَّة أمل رغم أنف تلك الجاسوسة السَّاحرة. أخبرني يا پول، بأيِّ شيءٍ آخر نضح إناء الحكمة العتيق هذا؟».

اختلس پول نظرة إلى يده اليمنى المشدودة في قبضة تحت الطاولة، وببطء أرغم عضلاته على الاسترخاء وهو يُفكِّر: *لقد تركت بصمةً ما عليَّ، كيف؟*

قال پول: «سألتني أن أخبرها ما معنى أن يحكم المرء، فقلت لها إن معناه أن يكون الآمر الناهي، فردَّت قائلة إن عليَّ نسيان بعض ممَّا تعلَّمت».

فكَّر حوَّاط: *لم تكذب في ذلك*، وأومأ برأسه إلى پول كي يُكمل.

- «قالت إن على الحاكم أن يتعلَّم فنون الإقناع لا الإخضاع، قالت إنه يجب أن يقدِّم أفضل قهوة ليجتذب خيرة الرجال للالتفاف حوله».

سأله حوَّاط: «وكيف تحسب أن والدك استطاع اجتذاب رجالٍ مثل دانكن وجيرني؟».

هـزَّ بـول كتفيـه وقـال: «ثـم قالـت إن علـى الحاكـم أن يُحيـط بمفـردات عَالَمـه، تلك التـي تختلـف باختـلاف الكوكـب. فظننـت أنهـا تشـير إلـى أنهـم لا يتحدَّثـون الجلاكيـة علـى أرَّاكس، لكنهـا قالـت إن الأمـر لا علاقـة لـه باللغـة المنطوقـة. قالـت إنهـا تقصـد مُفـردات الجمـادات والأحيـاء، اللغـة التـي لا تُسـمع بـالأُذُن وحدهـا، فقلـت لهـا إن هـذا مـا يدعـوه الدكتـور يُـوي بـ"لغـز الحيـاة"».

فهقه حوَّاط وقال: «وماذا كان ردُّها؟».

- «أظنهـا غضبـت. قالـت إن لغـز الحيـاة ليـس مسـألة تتطلَّـب حـلًا، لكنـه واقـع نعايشـه. هنـا، اقتبسـت قانـون المِنتـات الأوَّل وتلوتـه عليهـا: "الظواهـر لا تُفهـم باعتراضهـا، بل ينبغـي للفهـم التحـرُّك مـع تدفُّق الظاهـرة، عليـه مسـايرتها والتماشـي معهـا"، وبـدا أن هـذا نـال رضاهـا».

فكَّـر حـوَّاط: *يبـدو أنـه بـدأ يتجـاوز مـا مـرَّ بـه، لكـن تلـك السَّـاحرة الشـمطاء أرعبتـه حقًّـا. لِـمَ فعلـت ذلـك؟*

قال بول: «ظفير، هل سيكون أرَّاكس بالسوء الذي ذَكَرْتَهُ؟».

قـال حـوَّاط مجبـرًا نفسـه علـى الابتسـام: «لا شـيء يمكـن أن يكـون بهـذا السـوء. خـذ الفرمِـن علـى سـبيل المثـال، أهـل الصَّحـراء المارقيـن. مـن تحليلـي لتعدادهـم التقريبـي المبدئـي، أنـا متيقّـن مـن أن أعدادهـم أكبـر بكثيـر جـدًا ممَّـا يظنُّـه البـلاط الإمبراطـوري. هنـاك شـعبٌ كامـل يعيـش علـى الكوكـب يـا فتـى، شـعب كبيـر...»، قالهـا حـوَّاط وقـرَّب إصبعـه مـن إحـدى عينيـه وواصـل: «وهـم يكرهـون الهراكنـة مـن شُـغُف قلوبهـم. إيَّـاك أن تتفـوَّه بكلمـة ممَّـا أقـول يـا فتـى، أنـا أطلعـك علـى الأمـر فحسـب لأننـي ظهيـر أبيـك».

قال پول: «أخبرني أبي عن سالوسا سوكانداس. إنه يبدو لي أشبه بأرَّاكس يا ظفير. رُبَّما ليس بمثل سوئه، لكنه يشبهه جدًا».

قال حوَّاط: «لا نعلم الكثير عن حال سالوسا سوكانداس اليوم، فقط نعرف كيف كان الكوكب منذ زمن بعيد، وبشكلٍ عام. لكن في ضوء معلوماتنا عنه، فأنت محقٌّ».

- «هل سيساعدنا الفرمن؟».

قال حوَّاط: «هذا احتمالٌ قائم»، ثم نهض وأردف: «سأغادر اليوم إلى أرَّاكس. في هذه الأثناء، اعتنِ بنفسك، لأجل خاطر شيخٍ مُسنٍّ يحبك، اتفقنا؟ عندما تأتي إلى هذه الغرفة كن مُطيعًا واجلس في مواجهة الباب. ولا أعني بهذا أنني أشك في وجود خطرٍ يهدِّد حياتك في القلعة، ما هي إلَّا عادة أريدك أن تكتسبها».

قام پول كذلك، ودار حول الطاولة قائلًا: «سترحل اليوم؟».

- «أجل، وأنت ستتبعني غدًا. سيكون لقاؤنا القادم على أرض كوكبك الجديد»، قالها حوَّاط وأمسك پول من ذراعه اليمنى وشدَّد عليه: «حافظ على يدك التي تحمل السلاح حُرَّة دومًا، وعلى درعك مشحون بكامل طاقته، اتفقنا؟»، ثم ترك ذراعه، وربَّت على كتفه واستدار متَّجهًا إلى الباب بخطوات واسعة.

صاح پول: «ظفير!».

توقَّف حوَّاط عند عتبة الباب والتفت.

قال پول: «لا تجلس وظهرك لأيِّ باب».

شاعت ابتسامة في تجاعيد وجه الرجل المُسنِّ، وقال: «لك ما طلبت يا فتى، اطمئن»، ثم غادر وأغلق الباب برفق خلفه.

جلس پول حيث كان حوَّاط، وراح ينظِّم أوراقه مُفكِّرًا: *آخر يوم لي هنا*. ثم تفقَّد الغرفة. *سنغادر غدًا*. فجأة بدت فكرة الرحيل

أكثر واقعية ممَّا كانت عليه من قبل، وتذكَّر شيئًا آخر قالته العجوز عن كيف أن العالم، أيَّ عالم، هو حاصل جمع عناصر كثيرة: الناس، والأرض، والأحياء، والأقمار، والبحار، والشموس. المُحصِّلة المجهولة التي تُسمَّى «الطبيعة»، مجموع مُبهم ما إن تفهم حاضره يتغيَّر، ووجد نفسه يتساءل: *وما الحاضر؟*

انفتح الباب المواجه لپول بضربة قدمٍ عنيفة، ودخل منه رجلٌ قبيح ينوء بثقل الأسلحة التي يحملها.

صاح پول: «ما هذا يا جيرني هاليك، هل أنت مدرِّب الأسلحة الجديد؟».

ركل هاليك الباب بكعبه مغلقًا إيَّاه وقال: «كنت تُفضِّل لو جئت للعب واللهو، أعرف ذلك»، ثم تفحَّص أرجاء الغرفة من حوله، ولاحظ أن رجال حوَّاط سبقوه وفتَّشوها بالفعل وتأكَّدوا من سلامتها على وارث الدوق. كانت العلامات الشيفرية الخفية في كل مكان.

راقب پول الرجل القبيح وهو يتحرَّك صوب طاولة التدريب بحمولة الأسلحة، ولمح الباليسِت ذات الأوتار التسعة المعلَّقة على كتفه، وريشة العزف المتعدِّدة السنون التي تتخلَّل الأوتار بالقرب من لوحة الأصابع.

ألقى هاليك الأسلحة على طاولة التدريب وبدأ يرتِّبها: سيوف المبارزة، المخارز، الخناجل، الصواعق البطيئة المقذوفات، أحزمة دروع الطاقة. وحين التفت هاليك مبتسمًا عبر الغرفة، التوت النُدبة التي خلَّفها سوط الإنكفاين على عظام فكِّه السُفلي.

قال هاليك: «من غير صباح الخير حتَّى أيُّها العفريت الصغير؟

وأيُّ شوكةٍ مؤذية تلك نخست بها حوَّاط العجوز يا ولد؟ لقد مرَّ بي مهرولاً في الرواق كرجلٍ ذاهب إلى جنازة أحد أعدائه».

ابتسم پول. من بين جميع رجال أبيه، كان جيرني هاليك هو الأقرب إلى قلبه. كان يألف حالات الرجل المزاجية ومزاحه الشيطاني، ويُعدُّه صديقًا حقيقيًا لا مُجرَّد مقاتل أجير.

أنزل هاليك الباليسِت من كتفه، وبدأ يضبط أوتارها وهو يقول: «إن لم يكن لديك رغبة في الكلام، فلا تتكلَّم».

نهض پول وتقدَّم عبر الغرفة وهو يصيح: «ما هذا يا جيرني، أتستعد للعزف في وقت القتال؟».

قال هاليك: «إنه يوم الإساءة إلى جميع شيوخك إذًا»، وضرب وترًا على آلته الموسيقية، وأومأ بعدها معلنًا رضاه.

سأل پول: «أين دانكن آيداهو؟ أليس هو من يُفترض أن يدرِّبني على الأسلحة؟».

قال هاليك: «غادر دانكن لقيادة الموجة الثانية المتَّجهة إلى أرَّاكس. لم يتبق لك غير جيرني المسكين، الذي فرغ من القتال ويتوق إلى عزف بعض الموسيقى»، ثم أنهى عبارته وضرب وترًا آخر، وشنَّف أُذُنيه من رنته، وابتسم. «وقد قرَّر المجلس الذي عقدناه أن مهاراتك القتالية سيِّئة، لذا رأينا أنه من الأفضل تعليمك حرفة الموسيقى، كي لا تضيع حياتك بكاملها هباءً».

قال پول: «غنِّ لي شيئًا إذًا، كي أتعلَّم أن أفعل عكسه».

ضحك جيرني: «آه ها هاه!»، ثم بدأ يدندن أغنية «الفتيات الجلاكيات»، وراحت ريشته المتعدِّدة السنون تتحرَّك برشاقة وخفَّة على الأوتار:

آهٍ من الفتيات الجلاكيات
يَبغين مقابل اللآلئ
والأرَّاكيسيَّات مقابل الماء!
أمَّا إن كنت تشتهي حسناوات
متأجِّجات كالنيران
فعليك بغادات كلادان!

قال بول: «لا بأس بذلك لمثل هذه اليد الخشنة في العزف، لكن إن سمعتك أُمِّي تُغنِّي مثل هذه الأغاني الفاحشة في القلعة، فستقطع أُذُنيك وتزيِّن بهما الجدار الخارجي».

أمسك جيرني أُذُنه اليسرى وقال: «بئس الزينة، لقد تورَّمتا من استراق السمع من ثقوب المفاتيح لعزفِ صبيٍّ صغير وهو يتمرَّن على إتقان بعض المقطوعات الغريبة على الباليسِت».

قال بول: «يبدو أنك نسيت شعور الاستيقاظ على ملمس الرمال في فراشك»، ثم سحب حزام درع طاقة من الطاولة، وربطه سريعًا حول خصره. «إنه القتال إذًا!».

اتَّسعت عينا جيرني في دهشة مصطنعة: «إذًا يدك الآثمة هي الفاعلة! دافع عن نفسك جيِّدًا اليوم يا سيِّدي الشاب، ها أنا أقولها لك صريحة، دافع عن نفسك...»، ثم التقط سيفًا وشقَّ به الهواء وهو يردف: «... لقد خرج الشيطان من الجحيم سعيًا للانتقام!».

التقط بول سيف المبارزة الآخر، وثناه بيده من طرفه، ووقف في وضع الاستعداد مُقدِّمًا ساقًا عن الأخرى مصطنعًا الجدِّية، في تقليدٍ هزلي للدكتور يُوي.

هزج بول محاكيًا: «أيُّ أحمق أرسله أبي لتدريبي على الأسلحة.

لقد نسي جيرني هاليك الأخرق الدرس الأوَّل في قتال رجلٍ مسلَّح ومُدرَّع». ضغط پول زر تشغيل الدرع الذي عند خصره، وشعر بجلد نصف جسده العلوي يقشعر نتيجة مجال طاقة الدرع الدفاعي المحيط به، واكتسبت الأصوات الخارجية الطابع المُشوَّش المألوف عند استخدام الدروع. قال پول: «في القتال بالدروع، يتحرَّك المرء بسرعة في الدفاع وببطء في الهجوم. هدف الهجوم الوحيد هو خداع الخصم لتزل قدمه عن ثبوتها ويصير هدفًا سهلًا أمام هجومٍ ماكر. يصدُّ الدرع الضربات السريعة، لكن نقطة ضعفه أنه يسمح بمرور طعنة خنجل يدفعها المهاجم ببطء!». طوَّح پول سيفه في هجوم سريع خادع، ثم سحبه إلى الوراء ليطعن به طعنة بطيئة موقوتة بحيث تخترق مجال طاقة الدرع.

راقب هاليك المناورة، ومال جانبًا في اللحظة الأخيرة متفاديًا النصل الثُّلم المتَّجه إلى صدره، وصاح: «استخدام مثالي للسرعة، لكنك تركت المجال مفتوحًا أمام هجمة مضادة بنصلٍ منسل».

تراجع پول متكدِّرًا، وتوقَّف التدريب.

قال هاليك: «رُبَّما يجب أن أضربك على مؤخِّرتك جزاء هذا الإهمال»، والتقط خنجلًا من الطاولة ورفعه عاليًا. «مثل هذا الشيء في يد الخصم قادر على إراقة دمائك! أنت تلميذ نجيب لم أر مثله، لكنني حذَّرتك من قبل ألَّا تسمح لشخص في يده سلاح أن يقترب منك، حتَّى في أثناء اللعب».

قال پول: «أظن أن مزاجي ليس رائقًا للقتال اليوم».

بانت نبرة هاليك الغاضبة حتَّى عبر مجال طاقة الدرع: «مزاجك؟ ما علاقة المزاج بالأمر؟ المرء يقاتل عند الضرورة،

مهما كان مزاجه! المزاج الذي تتحدَّث عنه يكون لأمور الماشية أو لممارسة الحب أو للعزف على الباليسِت، لا للقتال!».

- «أنا آسف يا جيرني».

- «لست آسفًا بما يكفي».

فعَّل هاليك درعه، وانحنى رافعًا سيفه عاليًا في يده اليمنى، ومدَّ يده اليسرى بالخنچل. «الآن من الأفضل أن تدافع عن نفسك بحق!». ثم قفز جانبًا عاليًا، واندفع إلى الأمام في هجوم شرس.

تراجع پول متفاديًا ضرباته، وشعر بطقطقة الطاقة حيث تلامست حواف الدرعين وتنافرت، وأحسَّ بوخز الكهرباء على جلده في مواضع الاحتكاك. *ما خطب جيرني؟ إنه لا يصطنع هذا!* هكذا سأل نفسه. حرَّك پول يده اليسرى، وأسقط مِخرزه من غمد معصمه إلى راحة يده.

زأر هاليك: «ترى أنك في حاجة إلى نصلٍ إضافي، أليس كذلك؟».

تساءل پول: *أهذا غدر؟ بالتأكيد ليس جيرني!*

في أرجاء الغرفة تقاتلا.. هجومًا وصدًّا، كرًّا وفرًّا، إقبالًا وإدبارًا. بدأ الهواء المحصور بين فقّاعتي درعيهما يفسد من فرط اللهاث، فلم ينجح التبادل الغازي البطيء الذي يحدث عن حواف مجال الدرع في تجديده بسرعة كافية. ومع كل تصادم جديد، ازدادت رائحة الأوزون. استمرَّ پول في التراجع، لكنه وجَّه تقهقره نحو طاولة التدريب. راح يُفكِّر: *إن استطعت إجباره على الانعطاف من جوار الطاولة، سأريه خُدعة. هيَّا يا جيرني، خطوة أخرى.*

أخذ جيرني الخطوة المطلوبة.

انحنى بول متفاديًا ضربة منخفضة، واستدار ليرى سيف هاليك محشورًا في حافة الطاولة. راوغ بول بجسده إلى الجانب مطوِّحًا سيفه عاليًا، وباليد الأخرى دفع مخرزه ببطء على مستوى نحر هاليك، وأوقف النصل على قيد أُنمُلة من وريده الوداجي.

همس بول: «أهذا ما تريد؟».

قال جيرني لاهثًا: «انظر إلى الأسفل يا فتى».

فعل بول كما قال، ورأى طرف خنجل هاليك يكاد يلمس ما بين فخذيه من تحت حافة الطاولة.

قال هاليك: «لن يمت أحدنا من دون الآخر. لكنني أعترف أنك قاتلت بشكل أفضل تحت الضغط. يبدو أنك استعدت مزاجك»، وابتسم ابتسامة وحشية التوت لها نُدبة سوط الإنكفاين بطول فكِّه.

قال بول: «ما تلك الضراوة التي هاجمتني بها؟ هل كنت ستسفك دمي بالفعل؟».

سحب هاليك خنجله، واعتدل في وقفته قائلًا: «إن كنت شعرت بأنك تقاتل بتراخ، لتركت على جسدك نُدبة قبيحة لن تنساها. لن أسمح لتلميذي المفضَّل أن يسقط صريعًا على يد أوَّل صعلوك هاركونني يصادفه».

أبطل بول عمل درعه، وانحنى على الطاولة ملتقطًا أنفاسه. «كنت سأستحقُّها يا جيرني، لكنك كنت ستواجه غضبة أبي إن أذيتني، وأنا لن أرضى أن تُعاقب على تقصيري أنا».

قال هاليك: «إخفاقك يُعدُّ تقصيرًا مني كذلك. ولا تقلق من أن تُصاب بنُدبة أو اثنتين في تدريبك. أنت محظوظ لندرة إصابتك. أما بخصوص أبيك الدوق، فهو لن يعاقبني إلا إذا فشلت في

أن أصنع منك مقاتلًا لا يُشقّ له غبار. كنت سأفشل حقًا إن لم أشرح لك مغالطة المزاج التي طرأت عليك فجأة».

اعتدل پول في وقفته، ودسَّ مخرزه في غمده.

قال هاليك: «ما نفعله هنا ليس لهوًا بالضبط».

أومأ پول متفهمًا، لكنه دهش من الجدّية والرصانة غير المعهودة في سلوك هاليك. حدَّق الصبيُّ إلى نُدبة الإنكفاين بنجرية اللون على فك الرجل، متذكِّرًا كيف أُصيب بها على يد رابان الوحش في إحدى حُفر العبيد على كوكب جيدي پرايم، وشعر بالخزي لأنه شك في هاليك ولو لوهلة. أدرك پول في تلك اللحظة أن ألمًا شديدًا صاحب نُدبة هاليك، رُبَّما كالألم الذي أوقعته به الأُمُّ الموقَّرة، ثم نبذ هذه الفكرة المرجفة التي تزعزعه كلَّما تذكَّرها.

قال پول: «يبدو أنني كنت أميل إلى بعض اللهو اليوم، فقد صارت الأمور هنا جادَّة جدًا مؤخَّرًا».

أشاح هاليك بوجهه ليداري مشاعره، شاعرًا بحرقة في عينيه. ثمَّة ألم يأبى مفارقته كأنه مقروح، بقايا ماضٍ ضائع استأصل الزمن معظمه.

فكَّر هاليك: *سرعان ما سيُضطرُّ هذا الصبيُّ إلى ارتداء عباءة الرجولة، سرعان ما سيتعيَّن عليه تقبُّل أعباء النضج وما يفرضه من مخاطر. سيبلغُ أشُدَّه قبل الأوان، وسيُدرك السنَّ التي إذ بلغها المرء حُسبت عليه أنفاسه. سيعلم أن الاختيارات التي يتَّخذها قد تقتله، وأن أفعاله قد تؤثِّر في الآخرين بأسوأ طريقة ممكنة.*

تكلَّم هاليك دون أن يواجهه: «استشعرت رغبتك في اللهو اليوم يا فتى، ولكم وددت لو جاريتك فيها. لكن لم يعد ما نفعله

لعبًا ولهوًا. غدًا سنغادر إلى أرّاكس، وأرّاكس واقعٌ قاسٍ، وكذلك الهراكنة».

لمس پول جبهته بنصل سيفه المرفوع.

استدار هاليك ولاحظ تحيَّة السلاح، فردَّ عليها بإيماءة من رأسه، ثم أشار إلى دمية التدريب وقال: «الآن، سنعمل على تحسين مهاراتك في التوقيت. أمتعني برؤيتك وأنت تتغلَّب على هذا الشيء الخبيث. سأتحكَّم فيها من مكاني هذا حيث أرى ساحة المبارزة بوضوح وأراقب جميع تحرُّكاتك. كن حذرًا، سأستخدم مناورات دفاع جديدة اليوم. هذا تحذير لن يمنحك إيَّاه خصم حقيقي».

شبَّ پول على أطراف أصابعه وأرخى عضلاته. كان مُغتمًّا من أن حياته صارت ملأى بالتغيُّرات السريعة. اقترب من الدُمية، وضغط الزر على صدرها بطرف سيفه فشعر بمجال طاقة الدرع المفعَّل يجبر نصله على الارتداد.

صاح هاليك: «وضع الاستعداد... هيَّا!»، ثم بادرت الدُمية بالهجوم.

فعَّل پول درعه، وبدأ يتفادى الضربات ويردها.

راقبه هاليك وهو يتحكَّم في مفاتيح تحريك الدُمية، وشعر بأن عقله قد انشطر إلى نصفين: نصف يقظ منتبه إلى مجريات القتال التدريبي، والنصف الآخر شارد يطن كذبابة.

أنا شجرة فاكهة مثمرة حسنة التدريب، ملأى بمشاعر ومهارات مصقولة جيِّدًا حُفرت حفرًا في، ولكن ثمراتها الدانية تنتظر شخصًا آخر ليقطفها.

ولسببٍ ما تذكَّر أخته الصغيرة، وارتسم وجهها الشبيه بوجوه الجنِّيات بوضوح في مُخيِّلته. لكنها ماتت منذ زمنٍ في بيت بغاء مخصَّص لإمتاع جنود آل هاركونن. كانت تُحبُّ زهور البنفسج، أم لعلها الأقحوانات؟ لم يستطع التذكُّر، وشعر بالضيق من عدم قدرته على التذكُّر.

صدَّ پول ضربة بطيئة من الدُمية، وهوى بيده اليسرى في هجمة مضادة على النصل.

يا للشيطان الصغير الماكر! هكذا فكَّر هاليك وهو يركِّز على حركات يد پول السريعة المتشابكة. *لقد كان يتدرَّب ويذاكر بمفرده. ليس هذا أسلوب دانكن في النزال، وبالتأكيد ليس شيئًا علَّمته إيَّاه.*

زادت هذه الأفكار من حزن هاليك، وقال لنفسه: *لقد أُصبت بعدوى المزاج.* ثم راح يتساءل إن كان التفكير في الغد يؤرِّق پول، إن كان النوم يجافيه وهو يُنصت إلى خفقان قلبه في وسادته ليلًا.

وتمتم لنفسه: «إن كانت الأُمنيات أسماكًا، لألقى الجميع الشباك».

كان هذا مَثَلًا سمعه من أُمِّه، وكثيرًا ما كان يستخدمه عندما يشعر بقتامة الغد تطبق على روحه. بعدها فكَّر في غرابة أخذ مثل هذا المَثَل إلى كوكب لم يعرف البحار أو الأسماك من قبل.

يُـوي ويلنجتـون (10082 - 10191): طبيـب بشـري تخـرَّج فـي كلّيـة سـوك الطبّيـة عـام 10112 بالتقويـم القياسـي الموحَّـد. الزوجـة: وانـا ماركـوس، مـن طائفـة البِنـي چيسيرِت (10092 - ?10186). يذكـره التاريـخ -فـي المقـام الأوَّل- بأنـه خائـن الـدوق ليتـو آتريديـز (انظـر: قائمـة المراجـع، الملحـق السـابع: التهيئـة العقليـة الإمبراطوريـة والخيانـة).

من «قاموس المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

على الرغم من أنه سمع دخول الدكتور يُوي إلى غرفة التدريب، وميَّز وقع خطوات الرجل الرصينة الواثقة، ظلَّ پول مُمدَّدًا على طاولة التمرين ووجهه إلى أسفل كما تركه المُدلِّك. كان يشعر باسترخاء لذيذ بعد التدريب الذي خاضه مع جيرني هاليك.

قال يُوي بصوتٍ حاد عالي النبرة: «تبدو مرتاحًا».

رفع پول رأسه ولمح الرجل الطويل العود النحيل كالعصا يقف على بُعد خطواتٍ منه، ولاحظ ثيابه السوداء المجعَّدة، ورأسه المربَّع الكبير، وشفتيه الأرجوانيتين الداكنتين، وشاربه المتدلِّي، ووشم الماسة التهيئة العقلية الإمبراطورية على جبهته، وشعره الأسود الطويل المعقوص بطوقٍ فضِّي المتدلِّي على كتفه اليسرى.

قال يُوي: «سيسعدك سماع أنه ليس لدينا وقت اليوم للدروس المعتادة، فوالدك سينضم إلينا بعد قليل».

اعتدل پول جالسًا.

- «لكنني جهَّزت لك عارض كُتُب فيلمية يضم دروسًا عِدَّة لتحمله معك في أثناء الرحلة إلى أرَّاكس».

- «أوه».

بدأ پول يرتدي ملابسه وقد تحمَّس لخبر قدوم أبيه، إذ كانا لم يمضيا وقتًا كافيًا معًا منذ أن أمر الإمبراطور بانتقال حُكم إقطاعية أرَّاكس لهم.

تخطَّاه يُوي وقصد الطاولة وهو يُفكِّر: *يا للخسارة! يا لها من خسارة مُحزنة*. ثم ذكَّر نفسه: *يجب ألَّا اتردَّد. يتحتَّم عليَّ فعل ما سأفعل لضمان ألَّا تتأذى عزيزتي وانا أكثر من ذلك على يد وحوش الهراكنة عديمي الرحمة*.

انضم إليه پول عند الطاولة وهو يزرِّر سُترته.

- «ماذا سأدرس في أثناء الرحلة إلى أرَّاكس؟».

- «أشكال الحيَّة الأرضية التي تعيش على أرَّاكس. تقول الأبحاث إن الكوكب فتح ذراعيه لإيواء أشكال حياة أرضية معيَّنة. لا أدري كيف حدث هذا. بعد أن نصل إلى وجهتنا سأبحث عن الدكتور كاينز، عالم البيئات الكوكبية، وسأعرض عليه المساعدة في البحث».

قالها يُوي ثم فكَّر: *ما هذا الذي أقول؟ أنا أنافق حتَّى نفسي*.

سأله پول: «هل ستتضمَّن الدروس معلومات عن الفرمِن؟».

- «الفرمِن؟»، قالها يُوي ونقر بأصابعه على الطاولة، ثم أدرك أن پول لاحظ حركته العصبية فسحب يده.

قال پول: «ربَّما لديك بعض المعلومات عن سُكَّان أرَّاكس».

قال يُوي: «أجل، بالتأكيد. ينقسم سُكَّان الكوكب إلى قسمين: الفرمِن، وسكَّان الأخاديد والأحواض والوهاد. سمعت إن بعضهم يتزوَّج ببعض أحيانًا، إذ تُفضِّل نساء قُرى الوهاد والأحواض أزواجًا فرمِنيين، ويُفضِّل رجالهن الزوجات الفرمِنيات. لديهم مثلٌ يقول: "الرُّقي منبته المُدن، والحكمة منبعها الصَّحراء"».

- «ألديك صورٌ لهم؟».

- «سأرى ما يمكنني فعله في هذا الشأن. السّمة الأبرز فيهم بلا شك هي أعينهم. إنها زرقاء بالكامل، لا بياض فيها».

- «أهي طفرة وراثية؟».

- «كلا، هذا نتيجة تشبُّع دمائهم بالمِزَاج».

- «لا بُدَّ أن الفرمِن شجعان لكونهم يعيشون على أطراف تلك الصَّحراء».

قال يُوي: «بكل ما تحمله كلمة شجاعة من معنى. إنهم يُألِّفون القصائد لخناجرهم، ونساؤهم شرسات مثل الرجال، حتَّى أطفالهم عنيفون وخطرون. لا أظن أنه سيُسمح لك بمخالطتهم».

أطال پول النظر إلى يُوي وقد وجد في هذه الكلمات الزهيدة عن طبيعة الفرمِن قوَّة استحوذت على انتباهه بالكامل.

يا لهم من قوم يكسبهم المرء حلفاء!

سأل پول: «وماذا عن الديدان؟».

- «ماذا؟».

- «أودُّ دراسة المزيد عن ديدان الرمال».

- «آها، بالتأكيد. لدي كتاب مرئي عن عيِّنة صغيرة منها اقتُنصت في المناطق الشمالية لا يتعدَّى طولها 110 أمتار وقطرها 22 مترًا. شهودٌ موثوق بهم أبلغوا عن ديدان يزيد طولها على أربعمئة متر، وثمَّة أدلَّة على وجود ديدان أكبر حجمًا».

نظر پول إلى الخريطة مخروطية الإسقاط التي تُظهر قطاعات أرَّاكس الشمالية المترامية على الطاولة أسفله. «حزام الصَّحراء والمناطق القطبية الجنوبية مُعلَّمة بأنها غير صالحة للسُكنى. أهذا بسبب الديدان؟».

- «والعواصف».

- «ولكن أيّ مكان يمكن تسخيره وجعله صالحًا للسُّكنى».

قال يُوي: «إن كان ذلك سيعود بالنفع اقتصاديًا. أرّاكس مملوء بالمخاطر المُكلِّفة»، ثم تحسَّس شاربه المتدلّي وأردف: «سيأتي والدك قريبًا. لدي هديّةٌ لك قبل أن أغادر، شيءٌ وجدته مصادفةً وأنا أحزم أمتعتي»، ثم وضع على الطاولة بينهما كتابًا أسود، مستطيلًا، أصغر من ظفر إبهام پول.

نظر پول إليه، ولاحظ يُوي كيف أن الصبيَّ لم يمدَّ يده للإمساك به وفكّر: كم هو حذر!

- «هذه نسخة قديمة جدًا من الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي صُنعت خِصِّيصَى لمُسافري الفضاء. ليس هذا كتابًا مرئيًا، بل كتاب حقيقي مطبوع على ورقٍ مصنوع من خيوط نانويّة، ومزوّد بعدسة تكبير خاصة ونظام شحن كهروستاتي»، قالها والتقطه مواصلًا الشرح: «تحافظ الشحنة على الكتاب مغلقًا، وتضغط صفحاته بين غلافيه المزوّدين بقفل زنبركي. إذا ضُغطت الحافة هكذا، تتنافر الصفحات التي اخترتها ويُفتح الكتاب».

- «إنه صغير جدًا».

- «لكنه يضم بين دفّتيه ثمانمئة صفحة. اضغط الحافة هنا، وستقلب الشُحنة الصفحة وأنت تقرأ. إيّاك أن تلمس الصفحات نفسها بأصابعك، فنسيج الخيوط رقيق جدًا».

أغلق يُوي الكتاب، وناوله إلى پول قائلًا: «جرِّبه».

راقب يُوي پول وهو يجرِّب ضبط الصفحات، وفكّر: *ها أنا أُسكِّن ضميري بإهدائه كتاب دين قبل أن أغدر به، كي أستطيع أن أقول لنفسي إنه ذهب إلى حيث لا أستطيع الذهاب.*

قال پول: «لا بُدَّ أنه صُنع قبل ظهور الكُتُب المرئية».

- «إنه قديم جدًا. لنبقيه سرًّا بيننا، اتفقنا؟ قد يُعدُّه أبواك أقيم من أن يُترك في يد صبيٍّ صغير مثلك».

قالها وفكَّر: *إذا علمت أمُّه به فقطعًا ستشكُّ في دوافعي.*

أغلق پول الكتاب وأمسكه في يده وقال: «حسنًا... إن كان بهذه القيمة...».

قاطعه يُوي: «طاوع هوى رجلٍ مُسنٍّ، لقد مُنحت إيَّاه وأنا صغير جدًا». ثم فكَّر: يجب *أن أستحوذ على عقله، وأن أُغذِّي طمعه.* «افتحه على سفر الكلمة*، الآية 467، التي تبدأ بعبارة "ومن الماء كل شيءٍ حيٌّ". على حافة الغلاف حزٌّ طفيف يُعلِّم الموضع».

تحسَّس پول الغلاف، ولاحظ وجود حزَّين، أحدهما أصغر من الآخر. ضغط الحزَّ الصغير ففُتح الكتاب على راحة يده، وانزلقت العدسة المُكبِّرة إلى الموضع المختار.

قال يُوي: «اقرأ بصوتٍ عالٍ».

بلَّل پول شفتيه بلسانه وبدأ يتلو: «"فكِّر في الأصمِّ الذي لا يدرك معنى الصَّوت، ثم تأمَّل، ألا يمكن أن نكون جميعًا صمًّا بطريقة أو بأخرى؟ أيُّ حواس نفتقر إليها تُعجزنا عن رؤية وسماع عوالم أخرى مُحيطة بنا؟ ماذا يحيط بنا ولا نستطيع...».

صاح يُوي: «توقَّف!».

قطع پول قراءته، وحدَّق إليه في دهشة.

أغلق يُوي عينيه وجاهد لاستعادة رباطة جأشه. *أيُّ شرٍّ جعل الكتاب يُفتح على آية حبيبتي وانا المُفضَّلة؟* ثم فتح عينيه ورأى پول يحملق إليه.

سأله پول: «أثمَّة خطب؟».

قـال يُـوي: «معـذرة، كانـت هـذه... الفقـرة المُفضَّلـة... لزوجتـي الراحلة. إنهـا ليسـت الفقـرة التـي قصـدت لـك أن تقرأهـا. إنهـا تُعيـد إلـيَّ ذكريـات... مؤلمـة».

- «على الغلاف حزّان».

فكَّر يُوي: *لا شـك أن وانـا علَّمـت فقرتهـا المُفضَّلـة. إن أصابعـه أكثـر حساسـية مـن أصابعـي فتلمَّس علامتهـا. لقـد كان حادثًـا غيـر مقصـود.*

قـال يُـوي: «ستجد الكتـاب مثيـرًا للاهتمـام. إن بـه مـن الحقائـق التاريخيـة الكثيـر، بالإضافـة إلـى فلسـفة أخلاقيـة نافعـة».

تأمَّل پول الكتـاب الصغيـر المفتـوح فـي راحـة يـده ودهـش كـم هـو ضئيـل! لكنـه علـى الرغـم مـن هـذا يضـمُّ بيـن دفَّتيـه غموضًـا كبيـرًا. شـيءٌ مـا حـدث لـه وهـو يقـرأ منـه، شـيء حـرَّك فيـه غايتـه الرهيبـة.

قـال يُـوي: «سـيأتي والـدك فـي أيِّ لحظـة. أخـفِ الكتـاب واقـرأ منـه فـي وقـت فراغـك».

لمـس پـول الحافـة كمـا بيَّـن لـه يُـوي فانغلـق الكتـاب ودسَّـه فـي جيـب سُـترته. عندمـا صـاح بـه يُـوي منـذ لحظـات خشـي پـول أن يطالبـه باسـتعادة الكتـاب.

قـال پول متحدِّثًـا بجدِّيـة: «أشـكرك علـى هديَّتـك يـا دكتـور يُـوي. سـيكون هـذا سِـرَّنا الصغيـر. إن كانـت هنـاك خدمـة أسـتطيع تقديمها لـك كهديَّـة فـي المقابل، فأرجـو ألَّا تتـردَّد فـي سـؤالي».

قال يُوي: «لا شيء ينقصني».

ثـم راح يُفكِّـر: *لمـاذا أتلـذَّذ بتعذيـب نفسـي وتعذيـب هـذا الفتـى المسـكين، علـى الرغـم مـن أنـه لا يعـرف ذلـك؟ أوَّاه! اللعنـة علـى أولئـك الهراكنـة الوحـوش! لِـمَ اختاروني أنـا لتنفيـذ فعلتهـم الشـنيعة؟*

ما المدخل المناسب لدراسة شخصية والد المؤدِّب؟
إن الدوق ليتو آتريديز رجلٌ لا مثيل لحنانه، وقارس البرودة في الآن ذاته. على أن حقائق كثيرة تُمهِّد الطريق أمام سبر أغوار هذا الدوق: حُبُّه الدائم لليدي زوجته ربيبة البِني جيسيرِت، والأحلام الكبيرة التي ينشدها لابنه، وإخلاص رجاله له. تتأمَّله فتأسى على النبيل الذي وقع في شراك القدر، على الوحيد المهجور الذي طُمس نوره بسطوع مجد ابنه. وعلى الرغم من هذا، نجد أنفسنا نتساءل: وماذا يكون الابن إن لم يكن امتدادًا لأبيه؟

من كتاب «المؤدِّب: شروح السيرة العائلية» للأميرة إيرولان.

شاهد پول أباه يدخل غرفة التدريب، ورأى حرسه الشخصي يتَّخذون مواقعهم في الخارج وأغلق واحدٌ منهم الباب. وكالعادة حيثما وُجِد، استشعر پول حضور أبيه الطاغي الذي يملأ الحواس في المكان.

كان الدوق طويل القامة ذا بشرة زيتونية، لوجهه الرفيع زوايا حادَّة تلطِّفها -إلى حدٍّ ما- عيناه الرماديتان العميقتان. كان يرتدي بِزَّة العمل السوداء المزدانة بشعار صقرٍ أحمر على الصدر، ويشدُّ خصره الضيق حزام الدرع الفضِّي الذي يعلوه الصدأ من كثرة الاستخدام.

قال الدوق: «أتجتهد في الاستذكار يا بُنيّ؟».

ثم عبر الغرفة إلى الطاولة، وألقى نظرة سريعة إلى الأورق المتناثرة عليها، وأجال عينيه في الغرفة قبل أن يعود إلى پول. بدا الدوق مُرهقًا، وينوء بحمل إخفاء كلله وإجهاده.

فكَّر الدوق: يجب أن أستغل كل فرصة في أثناء سفرنا إلى أرَّاكس للراحة، فلن أجد الراحة هناك.

قال پول: «ليس بالقدر الكافي، فكل شيء...»، لكنه لم يُكمل عبارته، واكتفى بهزِّ كتفيه.

- «أعرف ما تريد أن تقول. على أيِّ حال، سنرحل غدًا. سيكون من الجيد الاستقرار في موطننا الجديد وإلقاء كل هذه الفوضى وراء ظهورنا».

أومأ پول، وفجأة باغتته ذكرى كلمات الأُمِّ الموقَّرة: «... *لا أمل للأب*».

سأل پول: «أبي، هل سيكون أرَّاكس خطرًا كما يقول الجميع؟».

أرغم الدوق نفسه على التلويح بإيماءة لا مُبالية، وجلس إلى رُكن الطاولة وابتسم. راح عقله يفيض بأجزاء من مختلف الخطب التشجيعية التي يستخدمها لتبديد أبخرة الخوف من أذهان رجاله قبل المعارك، لكن الكلام تجمَّد على لسانه قبل أن ينطقه، تصدُّه فكرة واحدة:

لن أخدع ابني.

ووجد نفسه يعترف: «سيكون خطرًا».

قال پول: «أخبرني حوَّاط أن لدينا خُطَّة للتعامل مع الفرمِن»، وفي قرارة نفسه تساءل: *لِمَ لا أخبره بما قالته المرأة العجوز؟ هل ألجمت لساني؟*

لاحظ الدوق الضيق البادي في صوت ابنه، فقال: «كالعادة ينصب اهتمام حوَّاط على الفرص الكبيرة، لكن الأمر ينطوي على ما هو أكثر. أنا مثلًا أضع نُصب عيني على "الائتلاف المجرِّي لأقطاب التجارة الأشراف"، أو شركة تشوم. عندما أعطانا جلالة

الإمبراطور السيادة على كوكب أرَّاكس، بات مضطَرًا إلى منحنا مقعدًا إداريًا في شركة تشوم.. وفي هذا مكاسب خفية كثيرة».

قال پول: «تتحكَّم تشوم في الاسپايس».

قال الدوق: «وأرَّاكس بما فيه من اسپايس سيكون هو الباب الذي سننفذ منه إلى تشوم، وفي تشوم مآرب أخرى غير المِزَاج».

وجد پول نفسه يقول فجأة من دون تفكير: «هل حذَّرتك الأمُّ الموَّقرة؟»، ثم ضمَّ قبضتيه شاعرًا بالعرق الذي جعل راحتيه زلقتين من المجهود اللاواعي الذي بذله لتوجيه هذا السؤال.

قال الدوق: «أخبرني حوَّاط أنها أخافتك بتحذيراتها من أرَّاكس. لا تدع مخاوف النساء تشتِّت تفكيرك، فلا توجد امرأة تريد أن يتعرَّض أحباؤها للخطر. يدُ أُمِّك هي المحرِّكة لتلك التحذيرات. خذ تصرُّفها كعلامة على حُبِّها لنا».

- «أهي على علم بأمر الفرمِن؟».

- «أجل، وما هو أكثر بكثير».

- «مثل ماذا؟».

فكَّر الدوق: *قد تكون الحقيقة أسوأ ممَّا يتخيَّل، ولكن حتَّى أخطر الحقائق قد تكون ذات قيمة إذا تدرَّب المرء على التعامل معها. وإن كان في تهذيب النَّشء شيءٌ لم يسلم منه ابني، فهو التعامل مع الحقائق الخطِرة. لكن يجب ترك هذه الأمور لتختمر، فهو ما زال يافعًا.*

قال الدوق: «منتجات قليلة جدًّا تفلت قبضة شركة تشوم، فهي تعمل في تجارة الأخشاب، والحمير، والخيول، والأبقار، والحطب، والروث، وأسماك القرش، وشعر الحيتان. باختصار، كل ما هو معتاد وكل ما هو غريب. حتَّى أُرزنا البُندي الرخيص الذي نزرعه

هنا على كلادان لم يفلت منها. إنها تتاجر في كل سلعة تستطيع سفن النقابة نقلها، بما فيها مشغولات كوكب عِكاظ الفنِّية، وآلات كوكبيّ ريشيس وإيكس. لكن لا شيء في كل ذلك يعلو على المِزَاج، الذي تستطيع بحفنة زهيدة منه شراء منزل على كوكب تيوبايل. المِزَاج مادة لا تُصنَّع، بل لا بُدَّ من استخراجها من صحاري أرَّاكس. إنه خامٌ فريد له خصائص مضادة للشيخوخة بالفعل».

- «والآن صرنا نتحكَّم فيه؟».

- «إلى حدٍّ ما. لكن الشيء المهم هو أن نضع في حُسباننا جميع العائلات النبيلة التي تعتمد على أرباحه. فكِّر في كل تلك الأرباح الهائلة الآتية من مصدر واحد، الاسپايس، وتخيَّل ما يُمكن أن يحدث إذا تسبَّب أمرٌ طارئ في انخفاض معدَّل إنتاجه».

قال پول: «كل من كدَّس مخزونًا من المِزَاج سيحقِّق أرباحًا طائلة، وسيجد الآخرون أنفسهم في العراء».

سمح الدوق لنفسه بلحظة من الرضا المثقل بالهمِّ وهو يتأمَّل ابنه ويتدبَّر رجاحة تلك الملاحظة، ثم أومأ: «يخزِّن الهراكنة الاسپايس منذ أكثر من عشرين عامًا».

- «إذًا فهم يعتزمون عرقلة إنتاجه كي يقع اللوم عليك».

قال الدوق: «إنهم يريدون أن يصبح لقب آل آتريديز مكروهًا. فكِّر في نبلاء مجلس اللاندسراد الذين ينظرون إليَّ بقدرٍ معيَّنٍ من الزعامة، وفي الناطقين غير الرسميين بأسمائهم، وتخيَّل ماذا ستكون ردَّة فعلهم إذا صرت مسؤولًا عن انخفاضٍ حاد في دخلهم. عندها سيقولون اللعنة على المعاهدة الكبرى! المصلحة في المقام الأوَّل. لن يسمح المرء لشخصٍ بأن يُفقره»، ثم التوت

شفتا الدوق في ابتسامة قاسية وأردف: «حينها سيغضُّون الطرف عن أيِّ شيءٍ يحدث لي».

- «حتَّى لو هُوجمنا بالأسلحة الذرِّية؟».

- «لن يصل الأمر إلى هذا الحدِّ، ولن يخترق الهراكنة المعاهدة بشكل صريح، لكن توقَّع كل ما دون ذلك. قد يلجؤون حتَّى إلى تعفير المحاصيل أو تسميم التربة».

- «لماذا نتَّجه إلى هذا الشرك إذًا؟».

قطب الدوق جبينه وقال لابنه: «لأن معرفة مكان الشرك هي أوَّل خطوة في تفاديه يا پول. الأمر أشبه بالقتال الفردي يا بُني، لكن على نطاق أكبر، مكرٌ محبوكٌ في مكرٍ محبوكٍ في مكرٍ، هكذا بلا نهاية، ومهمَّتنا هي فك الخيوط وتتبُّعها. بمعرفتنا أن الهراكنه يكدِّسون المِزَاج، علينا أن نسأل: ومن أيضًا يكدِّسه؟ هكذا نحصل على قائمة بأعدائنا».

- «ومن أيضًا يكدِّسه؟».

- «بعض العائلات التي كنا نعلم بعداوتها لنا، وآخرين كنا نظنُّهم حلفاء. لكن يجب ألَّا نشغل بالنا بأولاء وأولئك في الوقت الحالي، لأن شخصًا آخر أكثر أهمية في الصورة: إمبراطورنا الباديشاه المحبوب».

حاول پول أن يبتلع ريقه لكن جفاف حلقه المفاجئ منعه.

- «ألا يمكنك أن تعقد اجتماعًا لمجلس اللاندسراد، وتكشف...».

- «ونجعل أعداءنا يعلمون أننا نعرف أيَّ يدٍ تحمل الخنجر؟ كلا يا پول، نحن نرى تلك اليد الآن، لكن من يدري إلى أيِّ يدٍ سينتقل

الخنجـر بعـد ذلـك؟ إذا طرحنـا الأمـر علـى مجلـس اللاندسـراد، فلـن يـؤدي ذلـك إلا إلـى خلـق حالـة مـن البلبلـة الكبيـرة، وسـينكر الإمبراطـور التهمـة، وعندهـا مـن ذا الـذي سيجرؤ علـى تكذيبـه؟ كل مـا سنكسـبه هـو القليـل مـن الوقـت، وفـي المقابـل سـنخاطر بوقـوع فوضـى عارمـة، ولـن نعـرف مـن أيـن سـتأتي الضربـة التاليـة».

- «قد تبدأ جميع العائلات في تكديس الاسبايس».

- «أعداؤنا لهم السبق الآن، وبات من الصعب اللحاق بهم».

قال پول: «تواطؤ الإمبراطور يعني تواطؤ السَّاردوكار».

قـال الـدوق: «بـلا شـك، سـيتنكَّرون فـي زي الهراكنـة، لكنهـم سـيظلُّون جنـود الإمبراطـور المخلصيـن».

- «كيف يمكن أن يساعدنا الفرمِن في مواجهة السَّاردوكار؟».

- «هل حدَّثك حوَّاط عن كوكب سالوسا سوكانداس؟».

- «السجن الإمبراطوري؟ كلا».

- «مـاذا لـو كان أكثـر مـن مجـرَّد سـجنٍ كوكبـي يـا پـول؟ ثمَّة سـؤال لـم يُطـرح مُطلقًـا عـن قـوَّات السَّـاردوكار الإمبراطوريـين: مـن أيـن يأتـون؟».

- «تقصد أنهم يأتون من الكوكب السجن؟».

- «لا بُدَّ لهم من مكانٍ يأتون منه».

- «لكـن مـاذا عـن التجنيـد الإلزامـي الـذي يفرضـه الإمبراطـور علـى...».

- «هـذا مـا دُفعنـا إلـى تصديقـه، أنهـم مجـرَّد جنـود الإمبراطـور الذيـن تلقّـوا تدريبًـا فائقًـا منـذ نعومـة أظافرهـم. مـن حيـنٍ لآخـر نسـمع كلامًـا هامسًـا عـن كـوادر التدريـب الإمبراطوريـة، لكـن يظـل

ميزان حضارتنا كما هو لا يختل: قوّات عائلات اللاندسراد النبيلة العسكرية في كفَّة، وقوّات السردوكار والمجنّدون الداعمون لهم في الكفَّة الأخرى. ضع خطًّا تحت "الداعمون لهم" يا پول. ما السَّاردوكار إلَّا ساردوكار».

- «لكن كل التقارير تقول إن سالوسا سوكانداس كوكبٌ جحيمي!».

- «بلا شك. لكنك إن أردت تنشئة رجالٍ أقوياء قساة شرسين، فما الظروف البيئية التي ستعرّضهم لها؟».

- «كيف يكسب المرء ولاء رجال كأولئك؟».

- «تُوجد طرائق مجرَّبة: اللعب على أوتارٍ نفسية معيَّنة، كتغذية إحساسهم بالتفوُّق، ودغدغة مشاعرهم بفكرة الميثاق السِّري الذي يربطهم، وإنماء مفهوم روح المعاناة المشتركة فيما بينهم. ليس من الصعب تحقيق الأمر، وقد سبق أن نجح تحقيقه مرَّات كثيرة على كواكب كثيرة».

أومأ پول متفهّمًا وهو يركّز اهتمامه على وجه أبيه، شاعرًا أن أمرًا مهمًّا على وشك أن يُقال.

قال الدوق: «خُذ أرّاكس على سبيل المثال، عندما تخرج من المدن والحاميات تجد نفسك في بيئة معادية رهيبة لا تختلف عن سالوسا سوكانداس».

اتَّسعت عينا پول. «الفرمِن!».

- «أرى أن أولئك القوم قد يشكّلون نواة قوَّات صلبة تضاهي قوَّة وخطورة السَّاردوكار. صحيح أن استقطابهم في السرِّ سيتطلَّب منَّا صبرًا وأناةً، وتسليحهم بشكلٍ جيّد سيتطلَّب ثروةً.. لكنهم موجودون، والثروة المتمثِّلة في الاسپايس موجودة كذلك.

أظن أنك فهمت الآن لماذا سنذهب إلى أرّاكس على الرغم من علمنا بالشرك المنصوب لنا».

- «ألا يعرف آل هاركونن بوجود الفرمِن؟».

- «الهراكنة يحتقرون الفرمِن، ويصطادونهم من أجل الترفيه، ولم يكلِّفوا أنفسهم حتَّى عناء إجراء إحصاء دقيق لأعدادهم. سياسة تعامل الهراكنة مع سكَّان الكواكب التي يحكمونها تتلخَّص في إنفاق أقل قدر من المال للحفاظ عليهم من الانقراض».

لمعت الخيوط المعدنية في شعار الصقر الذي يزيِّن صدر الدوق عندما غيَّر وضعه، وقال: «أفهمت؟».

قال پول: «إذًا نحن نتفاوض مع الفرمِن في الوقت الحالي».

قال الدوق: «لقد أرسلت بعثة بقيادة دانكن آيداهو. إن دانكن رجلٌ أشم لا يعرف الرحمة، لكنه مغرم بالحقيقة. أظن أن الفرمِن سيعجبون به. إن حالفنا الحظ، قد يكوِّنون رأيهم عنَّا وفقًا له، دانكن الخلوق».

قال پول: «دانكن الخلوق، وجيرني الشجاع».

قال الدوق: «أحسنت انتقاء اللقب».

وجد پول نفسه يفكِّر: جيرني *واحد من الذين قالت الأمُّ الموقَّرة إن العوالم تُشيَّد على أكتافهم: «... شوكة الشجعان».*

قال الدوق: «أخبرني جيرني بأنك أبليت حسنًا في تدريب الأسلحة اليوم».

- «ليس هذا ما قاله لي».

ضحك الدوق بصوتٍ عالٍ وقال: «إنه ممَّن يضنُّون بالثناء، لكنه قال إنك تتمتَّع بإدراك دقيق -حسب تعبيره- للفرق بين سنِّ النصل وحدِّه».

- «يقول جيرني إنه لا فنَّ في القتل بسنِّ النصل، وإن القتل الحق يكون بالحدِّ».

قال الدوق مزمجرًا وقد شعر بانزعاج من حديث ابنه عن القتل: «جيرني رجلٌ شاعري. أتمنَّى ألَّا تضطر إلى القتل، لكن إن استدعت الضرورة، فلتفعلها كيفما استطعت، بالسنِّ أو الحدِّ»، ثم أنهى عبارته ورفع بصره إلى كوَّات السقف التي كان المطر ينقرها بزخَّاته.

عندما رأى پول اتِّجاه نظرة أبيه، فكَّر في السماوات النديَّة في الخارج، الظاهرة التي يستحيل مشاهدتها على أرَّاكس، وقاد تفكيره في السماوات إلى التفكير في الفضاء الخارجي، فسأل: «هل سُفُن النقابة ضخمة حقًّا؟».

رنا الدوق إليه، وقال: «إنها أوَّل مرَّة ستغادر فيها الكوكب. أجل سُفُنهم كبيرة. سننتقل على متن هايلاينر لأن الرحلة طويلة. الهايلاينرات كبيرة حقًّا. أسطول فرقاطاتنا ومركباتنا كله لن يشغل سوى ركنٍ صغيرٍ بها. سنكون مجرَّد جزء صغير من حمولة السفينة».

- «ولن يُسمح لنا بمغادرة فرقاطاتنا؟».

- «هذا جزء من السعر الذي يُدفع مقابل تأمين النقابة. يمكن أن تَركن سُفنٌ هاركوننية إلى جوارنا ولن يكون لدينا ما نخشاه منها، فالهراكنة أذكى من تعريض امتيازات النقل الممنوحة لهم للخطر».

- «سأرقب شاشتنا لأحاول رؤية أحد ملَّاحي النقابة».

- «أرح نفسك، لن تراهم. حتَّى وكلائهم لم يروا منهم أحدًا. تغار النقابة على خصوصيتها بقدر ما تغار على احتكارها، فلا ترتكب شيئًا يعرِّض امتيازات النقل الممنوحة لنا للخطر يا پول».

- «أتظن أنهم يختبئون لأنهم تحوَّروا ولم يعودوا.. يشبهون

البشـر؟».

هـزَّ الـدوق كتفيـه وقـال: «مـن يعـرف؟ إنـه لغـز لا يشـغلنا حلُّـه، فلدينـا مسـائل أكثـر إلحاحًـا، مـن ضمنهـا أنـت».

- «أنـا؟».

- «أُمُّـك أرادت أن أكـون الشـخص الـذي ينقـل إليـك الخبـر يـا بُنـي. مـن الواضـح أنـك تتمتَّـع بقـدرات مِنتـات».

حـدَّق پـول إلـى والـده، وانعقـد لسـانه للحظـة، ثـم قـال: «قـدرات مِنتـات؟ أنـا؟ لكننـي...».

- «حوَّاط يؤيِّد ذلك. إنها الحقيقة يا بُني».

- «لكننـي كنـت أعتقـد أن تدريـب المِنتـات يجـب أن يبـدأ منـذ المهـد، وأنـه لا يجـوز إخبـار المتـدرِّب كـي لا يعيـق ذلـك...»، ثـم بتـر عبارتـه بغتـةً، إذ وجـد كل التفاصيـل والمواقـف التـي مـرَّ بهـا فـي حياتـه قـد تركَّـزت فـي عمليـة حسـابية عقليـة واحـدة. ثـم مـرَّت لحظـة، قـال پـول بعدهـا: «الآن فقـط أدركـت».

قـال الـدوق: «يأتـي يومٌ علـى المِنتـات المرتقـب يـدرك فيـه حقيقـة مـا خضـع لـه، رُبَّمـا بعـد انتهـاء تهيئتـه، حينهـا يكـون عليـه اختيـار إذا مـا كان سيسـتمر فـي التدريـب أم سـيتخلَّى عنـه. ينجـح البعـض فـي مواصلـة الطريـق، بينمـا يعجـز آخـرون. وحـده المِنتـات المرتقـب هـو الـذي يسـتطيع تحديـد ذلـك بنفسـه».

حـكَّ پـول ذقنـه مفكِّـرًا فـي كل التدريـب الخـاص الـذي تلقَّـاه مـن حـوَّاط ومـن أُمِّـه: فنـون الاسـتذكار، وتركيـز الوعـي، والسـيطرة علـى العضـلات، وشـحذ الحـواس، ودراسـة اللغـات، وتمييـز الفـروق الدقيقـة بيـن الأصـوات. احتشـدت كل تلـك الأشـياء بغتـةً فـي ذهنـه بـاذرةً فيـه بـذرة وعـي جديـدٍ تمامًـا.

قال أبوه: «في أحد الأيَّام ستصير دوقًا يا بُني، والدوق المِنتات لهو رجلٌ مهيب الجانب. هل أنت قادر على اتّخاذ قرارٍ الآن، أم تحتاج إلى مزيدٍ من الوقت؟».

أجاب پول من دون أدنى تردُّد: «سأواصل التدريب».

غمغم الدوق: «مهيب الجانب بالفعل»، ولاحظ پول ابتسامة الفخر التي تتلاعب على ثغر أبيه، لكنَّها صدمته، إذ شدَّت ملامح وجه أبيه الناحل حتَّى بدت تفاصيل جمجمته. فكَّر پول: *لعلَّ الغاية الرهيبة هي أن يكون المرء مِنتاتًا.*

لكن حتَّى مع تركيزه على هذا الفكرة، وجد أن وعيه الجديد ينكرها.

مـع انتقـال الليـدي چيسـيكا إلـى كوكـب أرَّاكس، حقَّق برنامج البِني چيسـيرِت لزرع الخرافات والأسـاطير في العوالـم البدائيـة عـن طريـق المبشِّـرات الحاميـات كامل أهدافـه لـم ينقـص منهـا شـيئًا. لطالمـا كانـت الحكمـة مـن زرع مختلـف كواكـب الكـون المعـروف بنبـوءات مصمَّمـة لحمايـة نسـاء البِنـي چيسـيرِت موضـع تقديـر، لكنَّ أحدًا لـم يشـهد مـن قبـل حالـة فريـدة حـدث فيهـا تـزاوجٌ مثالـي بيـن الشـخص والتجهيـز كهـذه. لقـد استشـرت النبـوءات الأسـطورية فـي أرَّاكـس وتغلغلـت حتَّـى تشـرَّبتها الثقافـة وطالـت المُسـمَّيات نفسـها (على سـبيل المثـال: أُمٌّ موقَّـرة، وكانتـو ورسـپوندو، ومعظـم ألفـاظ شـريعة* نبـوءات پانوپليـا). ومـن المسـلَّم بـه عمومًـا الآن أن قـدرات الليـدي چيسـيكا الكامنـة قـد اُستُهين بهـا بدرجـة فادحـة.

من كتاب «الأزمة الأرَّاكسية: دراسة تحليلية» للأميرة إيرولان.
(أرشيف البِني چيسيرِت السرِّي: ملف رقم AR-81088587)

في كل مكان حول الليدي چيسـيكا، تكدَّسـت أكوام المتاع المغلَّف فـي زوايـا بهـو قصـر أراكيـن العظيـم، وتراكمـت عشـرات الصناديـق والخزائن والحاويـات والحقائـب فـي المسـاحات المفتوحـة منـه، وقـد بـدأ إفـراغ بعضهـا بالفعـل. ترامـى إلـى مسـمعي چيسـيكا جلبـة عُمَّـال شـحن مكوك النقابـة وهـم ينزلـون حمولـة أخـرى عنـد المدخـل.

وقفـت چيسـيكا فـي منتصـف البهـو، واسـتدارت ببـطء، ناظـرةً إلـى أعلـى متفقِّـدةً المنحوتـات المظلَّلـة والزوايـا المظلمـة والنوافـذ

الغائرة في الجدار. ذكَّرتها الردهة العملاقة العتيقة الطراز بقاعة اجتماعات الأخوات في مدرسة البِني چيسيرِت. لكن قاعة مدرستها كان لها طابعٌ حميميٌّ، عكس الجدران الحجرية الكئيبة هنا.

فكَّرت چيسيكا أن المعماري الذي شيَّد هذا المكان لا بُدَّ من أنه استحضر روح عصورٍ تاريخية موغلة في القِدم ليخرج بهذه الجدران القوطية والستائر الداكنة. كان السقف المقوَّس المقبَّب يعلو رأسها بارتفاع طابقين، ومدعومًا بعوارض خشبية عملاقة كانت واثقة بأنها شُحنت إلى أرَّاكس عبر الفضاء بكُلفة هائلة. لا تنمو أشجار بهذا الحجم على أيِّ كوكب من كواكب هذا المجموعة النجمية.. إلا لو كانت العوارض من الخشب المُقلَّد.

ولم تكن تظن ذلك.

كان هذا القصر مقرَّ الحكومة في أيَّام الإمبراطورية القديمة. في ذلك الوقت، لم تكن التكاليف تهمُّهم. كان ذلك قبل قدوم الهراكنة وتشييد مدينتهم الكبرى الجديدة في قرطاج، المدينة المبهرجة النحاسية التي تبعد نحو مئتي كيلومترٍ إلى الشمال الشرقي عبر إقليم الأرض الوعرة. كان ليتو حكيمًا لاختيار هذا المكان كي يكون مقرَّ حُكمه، فلمدينة أراكين اسمٌ رنَّانٌ، يوحي بالعراقة والأصالة. كما أنها مدينة أصغر وأسهل في تطهيرها والدفاع عنها.

سمعت چيسيكا مجدَّدًا جلبة العُمَّال وهم ينزلون حمولة الصناديق في مدخل القصر، وتنهَّدت.

على أحد الصناديق إلى يمينها، ارتكزت لوحة والد الدوق، تتدلَّى منها خيوط التغليف كأنها زينة مهترئة، وكان بعضٌ

منها ما زال في قبضة چيسيكا اليسرى. بجانب اللوحة قبع رأس ثورٍ أسود مثبَّتٌ على لوحٍ مصقول. بدا الرأس كجزيرة مظلمة في بحرٍ من لفائف ورق الحشو الأبيض. كان اللوح ممدَّدًا باستواء على الأرض، وكمام الثور اللامع موجَّهًا إلى السقف، كما لو كان الوحش على وشك الخوار متحدِّيًا أصداء تلك القاعة الفارغة.

تساءلت چيسيكا عن الدافع الخفي الذي جعلها تفضُّ هاتين القطعتين أوَّلًا: الرأس واللوحة. كانت تعلم أن لتصرُّفها دلالة رمزية. لم تشعر بمثل هذا الخوف والتردُّد وعدم الثقة بالنفس منذ ذلك اليوم الذي ابتاعها فيه رجال الدوق من المدرسة.

الرأس واللوحة.

زادت القطعتان من شعورها بالارتباك. سرت رعدة في جسدها، فألقت نظرة خاطفة إلى شقوق النوافذ الضيِّقة العالية. كان الوقت لا يزال في بداية الظهيرة، لكن عند هذا الارتفاع شمالًا بدت السماء سوداء وباردة، وأعتم بكثير من سماوات كلادان الزرقاء الدافئة. آلمتها وخزة حنين إلى الوطن.

ما أبعد كلادان.

- «ها قد وصلنا!».

كان هذا صوت الدوق ليتو.

استدارت چيسيكا فرأته قادمًا بخطوات واسعة من الممرِّ المقوَّس المؤدِّي إلى قاعة الطعام. كانت بزَّته السوداء المزدانة بشعار صقرٍ أحمر على الصدر تبدو رثَّة ومغبَّرة.

قال الدوق: «ظننت أنك ضللتِ طريقك في هذا المكان البغيض».

قالت چيسيكا: «إنه منزلٌ مُوحش»، ثم تأمَّلت قامته الفارعة،

وذكَّرتها بشرته السمراء بأشجار الزيتون، وانعكاس أشعة الشمس الذهبية على المياه الزرقاء. كانت عيناه رماديتين كرماد الفحم، لكن وجهَه حادٌّ كوجه طيرٍ جارح: رفيع ومملوء بالزوايا والأسطح الحادَّة.

قبض صدرها خوف مفاجئ منه. لقد تحوَّل إلى شخصٍ عنيفٍ آمر منذ أن قرَّر الرضوخ لأمر الإمبراطور.

قالت: «المدينة برمَّتها تبدو مُوحشة».

وافقها قائلًا: «إنها حامية صغيرة قذرة مغبَّرة، لكننا سنغيِّرها»، ثم جال ببصره في أرجاء القاعة وأردف: «هذه من الغرف العامة المخصَّصة للمناسبات الرسمية. لقد ألقيت نظرة سريعة إلى بعض الغرف العائلية في الجناح الجنوبي، وهي أجمل بكثير»، ثم اقترب خطوة منها، ولمس ذراعها، وراح يتأمَّل شموخها بإعجاب.

ومرَّةً أخرى وجد نفسه يتساءل عن أصلها غير المعروف، وأسلافها المجهولين: رُبَّما هي من نسل أُسرة منشقَّة؟ أو سليلة فرعٍ ملكيٍّ نُفيَ في الأرض؟ إنها تليق بالمُلك أكثر من ذرِّية الإمبراطور نفسها.

استدارت جيسيكا تحت وطأة نظراته، فبدا له جانب وجهها، وأدرك ليتو أن لا ملمح بعينه فيه هو مصدر جمالها. تأمَّل وجهها البيضاوي الذي يعلوه غطاء من الشعر البرونزي المصقول، وعينيها الخضراوين الصافيتين كسماء كلادان في الصباح، وأنفها الدقيق، وفمها الواسع السخيّ، وعودها الجميل الرهيف الطويل، الذي غلبت نحافته انحناءته.

تذكَّر أن زميلاتها الأخوات في بيت الطالبات في المدرسة كان ينعتونها بالنحيلة، هكذا أخبره رجاله الذين ابتاعوها، لكن هذا الوصف غير دقيق ومُبالغ في تبسيطه. لقد أعادت جيسيكا

الجمال الملوكي إلى نسل آل آتريديز، وكم كان سعيدًا أن پول أخذ ملامحه منها.

سألها: «أين پول؟».

- «في مكانٍ ما في القصر يتلقَّى دروسه مع يُوي».

قال: «سمعت صوت يُوي في الجناح الجنوبي، لكن لم يكن لديَّ وقتٌ لتفقُّد المكان، أظنهما هناك»، ثم ألقى نظرة إليها بطرف عينه، وقال متردِّدًا: «جئت إلى هنا لأعلِّق مفتاح قلعة كلادان في قاعة الطعام فحسب».

حبست چيسيكا أنفاسها، ومنعت نفسها من مد يد العون له وتأييده. إن تعليق المفتاح لفعلٌ حاسم، ويعني أن هذه الدار صارت مستقرًا ومقامًا. لكن لم يكن هذا هو الوقت ولا المكان المناسب للتهوين والمواساة. قالت له: «رأيت رايتنا فوق المنزل عندما دخلنا».

رمق الدوق صورة والده بنظرة خاطفة وقال: «أين كنت ستعلِّقين هذه؟».

- «في مكانٍ ما هنا».

- «كلَّا!»، قالها بنبرة قاطعة وحاسمة أكَّدت لها أن النقاش سيكون عديم الجدوى، لكنها تستطيع استخدام حِيَلها وكيدها لإقناعه. ومع ذلك، رأت أن تحاول معه أوَّلًا، ولو لتذكير نفسها بأنها لن تخدعه.

قالت له: «مولاي، لو أنك فقط...».

- «جوابي لن يتغيَّر. إنني أنصاع لرغباتك بشكل مخزٍ في معظم الأمور، لكن ليس في هذا الأمر. لقد جئت لتوِّي من قاعة الطعام حيث وجدت...».

- «مولاي! أرجوك».

قال الدوق: «أنت تخيّريني بين شهيّتك واعتزازي بأجدادي يا عزيزتي. سيعلّقان في قاعة الطعام».

تنهّدت مستسلمة: «كما تشاء يا مولاي».

- «يمكنك العودة إلى عادتك في تناول الطعام في جناحك متى سنحت الفرصة. لا أنتظر منك الحضور إلى قاعة الطعام إلّا في المناسبات الرسمية».

- «أشكرك يا مولاي».

- «لا داعي للحديث معي بجفاء وبطريقة رسمية هكذا! كوني ممتنّة لعدم زواجي بك يا عزيزتي، وإلّا لحتّم عليك الواجب مشاركتي المائدة في كل وجبة».

حافظت چيسيكا على وجهها جامدًا بلا تعبير، وأومأت.

قال الدوق: «وضع حوّاط كشّاف سموم على مائدة الطعام، ويُوجد واحد آخر متنقّل في غرفتك».

قالت: «توقّعت هذا الخلاف بيننا إذًا».

- «أنا أفكّر أيضًا في راحتك يا عزيزتي. لقد عيّنت بعض الخدم. إنهم من السكّان المحلّيين، لكن حوّاط تحرّى عنهم جميعًا. إنهم من الفرمِن، وسيؤدّون الفرض إلى أن تفرغ حاشيتنا من مهامها الأخرى».

- «هل يمكن حقًا الوثوق بأيّ شخص من هذا المكان؟».

- «سأثق بأيّ شخص يكره الهراكنة. ربّما حتّى سترغبين في الاحتفاظ بمدبّرة المنزل الأساسية، ميپس الشادوت، بعد انتهاء هذه الفترة الانتقالية».

قالت چيسيكا: «الشادوات، أهذا لقبٌ فرمِني؟».

- «قيل لي إنه يعني "الغارفة من البشر"، وهذا معنى له دلالات مهمَّة هنا. قد لا تبدو لك كالخادمات، رغم أن حوَّاط يمتدحها كثيرًا بناءً على التقرير الذي قدَّمه دانكن. كلاهما مقتنع بأنها ترغب في خدمتنا، وترغب في خدمتك أنت بالتحديد».

- «خدمتي أنا؟».

قال لها: «تناهى إلى علم الفرمِن أنك من البِني جيسيرِت. لديهم أساطير هنا عن البِني جيسيرت».

فكَّرت جيسيكا: *هذا من عمل المبشِّرات الحاميات، لا كوكب يفلت منهن.*

سألته جيسيكا: «أهذا يعني أن دانكن نجح في مهمَّته؟ هل سيصبح الفرمِن حلفاء لنا؟».

أجابها الدوق: «لا شيء مؤكَّد بعد. يرى دانكن أنهم يرغبون في مراقبتنا بعناية لبعض الوقت، لكنهم وعدوا بالتوقف عن مداهمة القرى النائية التابعة لنا خلال مدَّة الهدنة. هذا مكسب أهم ممَّا يبدو. أخبرني حوَّاط بأن الفرمِن كانوا شوكة عميقة في حلق الهراكنة، وقد حرص الهراكنة على ألا يشيع سرُّ مقدار ما تعرَّضوا له من خسائر على أيديهم، فلو علم الإمبراطور بقلَّة حيلتهم أمام الفرمِن، لكان له تصرُّف آخر».

قالت جيسيكا مُفكِّرةً وقد عادت إلى موضوع ميبس الشادوات: «هممم، مدبِّرة منزل من الفرمِن، هذا يعني أن عينيها زرقاوان بالكامل».

قال لها: «لا تدعي مظهر هؤلاء القوم يخدعك، فهم يتمتَّعون بقوَّةٍ وبأسٍ، وفي عروقهم حيويَّة وصحَّة. أظن أنهم سيكونون كل ما نحتاج إليه».

قالت له: «إنها مقامرة كبيرة».

قال: «كفانا جدالًا في هذا الأمر».

أجبرت نفسها على الابتسام، وقالت: «نحن ملتزمون بالمواصلة، لا شك في ذلك». ثم لجأت إلى روتين تهدئة سريع: نفسان عميقان، واستحضار ذهني، ثم قالت بعده: «حين أبدأ توزيع الغرف، أتحب أن أحجز لك غرفة معيَّنة؟».

ابتسم الدوق وقال: «حسنًا، ننتقل إلى توزيع الغرف: احرصي على وجود غرفة مكتب مساحتها كبيرة بجوار جناح نومي. الأعمال الورقية هنا ستكون أكثر ممَّا كانت عليه في كلادان. وغرفة للحرس بالتأكيد، هذا كل شيء. لا تشغلي بالك بأمن المنزل، لقد أدَّى رجال حوَّاط عملهم وأمَّنوه على أكمل وجه».

- «أنا متأكِّدة من ذلك».

نظر الدوق إلى ساعة معصمه: «قد تلاحظين أن جميع ساعاتنا ضُبطت حسب توقيت مدينة أراكين المحلِّي. لقد عيَّنت تقنيًا للاعتناء بالأمر، سيأتي بعد قليل». ثم أزاح خصلة من الشعر سقطت على جبهتها وأردف: «عليَّ العودة إلى المهبط الآن. المكُّوك الثاني على وشك الوصول في أيِّ لحظة وعلى متنه طاقمنا الاحتياطي».

- «ألا يُمكن لحوَّاط استقبالهم بدلًا منك يا مولاي؟ تبدو منهكًا بشدَّة».

- «ظفير الطيِّب أكثر انشغالًا منِّي. تعلمين أن هذا الكوكب موبوء بالدسائس الهاركونية. أيضًا يجب أن أحاول إقناع بعض صائدي الاسبايس المتمرِّسين بعدم المغادرة. تعلمين أنهم يملكون حق الموافقة أو رفض الاستمرار في العمل مع تغيير حاكم

الإقطاعيـة، وعالـم البيئـات الكوكبيـة هـذا -الـذي عيَّنـه الإمبراطـور قاضيًا للفتـرة الانتقاليـة- لا يُمكـن شـراؤه، وقـد سـمح لهـم بالاختيار. نتوقَّـع مغـادرة ثمانمئـة يـدٍ عاملـةٍ خبيـرةٍ الكوكـب علـى متـن مكُّوك نقـل الاسـپايس، وثمَّـة سـفينة شـحن تابعـة للنقابـة تنتظرهـم».

- «مولاي...»، قالتها ثم بترت عبارتها فجأة، متردِّدةً.

- «نعم؟».

لـن تفلـح أيُّ محاولـة لإقناعـه بالكفِّ عـن مسـاعيه لجعـل هـذا الكوكـب آمنًـا لنـا، وأنـا لـن امـارس ألاعيبـي عليـه.

سـألته: «متى تريد تناول العشاء؟».

فكَّـر الـدوق: *ليـس هـذا مـا كانـت علـى وشـك أن تقولـه. آهٍ يـا عزيزتـي جيسـيكا، آهٍ لـو كنَّـا فـي مـكانٍ آخـر، فـي أيِّ مـكانٍ آخـر بعيدًا عن هـذا الكوكـب الرهيـب.. وحدنـا.. أنـا وأنـت فحسـب.. دون اكتـراثٍ بالعالـم.*

قـال لهـا: «سـأتناول الطعـام فـي مطعـم الضُّبَّـاط فـي الميـدان. لا تتوقَّعـي قدومـي إلَّا متأخِّـرًا جدًّا. آه، بالمناسـبة، سـأرسـل حارسًـا لاصطحـاب پـول، أريـده أن يحضـر اجتمـاع وضـع الاسـتراتيچية».

ثـم تنحنـح كأنـه سـيضيف أمـرًا آخـر، لكنـه اسـتدار فجـأةً وأسـرع الخُطـى فـي اتِّجـاه المدخـل، حيـث يواصـل الرجـال إنـزال حمولـة الصناديق، ثـم ترامـى إلـى أذنيهـا صوتـه مـن هنـاك، آمـرًا متعجرفًـا، كمـا يتحـدَّث دائمًـا مـع الخـدم وهـو فـي عجلـة مـن أمـره: «الليـدي جيسيكا فـي القاعـة الكبـرى، انضمِّـي إليهـا فـي الحـال!».

وسـمعت البوَّابة الخارجية تُصفع بعنف.

استدارت جيسـيكا لتواجـه لوحـة والـد ليتـو، التـي رسـمها الفنَّـان الشـهير آلبـي للـدوق الراحـل في منتصـف عمـره، والتـي تُظهـره فـي

زيِّ مصارع ثيران، مع حرملة حمراء أرجوانية ملقاة على ذراعه اليسرى. بدا وجهه شابًا، بالكاد أكبر من وجه ليتو الآن، ويتمتَّع بذات الملامح الصقرية ونفس النظرة الرمادية. ضمَّت چيسيكا قبضتيها إلى جانبيها، ونظرت شزرًا إلى اللوحة، وهمست:

- «تبًا لك! تبًا لك! تبًا لك».

- «بم تأمرين يا نبيلة المنبت؟».

كان الصوت صوتَ امرأة، رقيقًا وتريًا.

استدارت چيسيكا فوجدت امرأةً كَمبَرَةً، شيباء الرأس، ترتدي ثوبًا فضفاضًا بُنِّي اللون شنيع المظهر من ثياب الرقيق. بدت المرأة يابسة وتعاني الجفاف مثل جميع الغوغاء الذين هلَّلوا لهم على طول الطريق من المهبط صباح وصولهم. فكَّرت چيسيكا أن كل من رأته من أهل هذا الكوكب يبدو كالبرقوق المجفَّف ويعاني سوء تغذية. لكن ليتو قال إن فيهم بأسًا وحيوية، وبالطبع لا داعي لذكر أن عينيّ المرأة كانتا لجَّتين زرقاوين عميقتين قاتمتين، لا بياض فيهما، وتحملان من السرِّية والغموض ما أجبر چيسيكا على عدم إطالة النظر.

حيَّتها المرأة بهزَّة رأسٍ متحفِّظة، وقالت: «يدعونني ميبس الشادوات يا نبيلة المنبت. ما أوامرك؟».

قالت چيسيكا: «ناديني بـ"سيِّدتي"، فلستُ نبيلة المنبت. أنا خليلة الدوق ليتو الملازمة له».

ردَّت المرأة بنفس الإيماءة المتحفِّظة الغريبة، ثم رفعت بصرها نحو چيسيكا وسألت بمكر: «تُوجد زوجة إذًا؟».

- «كلَّا، لا الآن ولا في أيِّ وقت مضى. أنا.. رفيقة الدوق الوحيدة، وأُمُّ وارثه».

في أثناء ردِّها، ضحكت چيسيكا في قرارة نفسها على الفخر الذي يبطِّن كلماتها، وسألت نفسها: *ماذا قال القدِّيس اوجستين؟ «عندما يأمر العقل الجسد يطيعه، لكن حين يأمر العقل نفسه يواجه مقاومة». أجل، أنا أواجه مزيدًا من المقاومة مؤخَّرًا. أحتاج إلى الاختلاء بنفسي بعض الوقت.*

تناهى إلى مسمعيها نداءٌ غريبٌ متكرِّر آتٍ من الشارع المتاخم للمنزل: «سو، سو، سوق*! سو سو سوق!»، ثم: «إخوتي*! إخوتي!»، ومن جديد: «سو سو سوق!».

سألت چيسيكا: «ما هذا النداء؟ سمعته مرَّات عِدَّة ونحن نجوب الطرقات بالمركبة الأرضية هذا الصباح».

– «إنه بائع ماء يا سيِّدتي. لا تشغلي بالك بأمثاله. الخزان هنا يسع خمسين ألف لتر ماء، وهو ممتلئ على الدوام»، ثم نظرت المرأة إلى ثوبها وقالت: «كيف تظن سيِّدتي أنني لا أرتدي بذلة تقطير هنا؟»، ثم ضحكت بخشونة: «وها أنا ما زلت حيَّة!».

أرادت چيسيكا أن تطرح أسئلةً كثيرةً على هذه المرأة الفرمنية وتحصل منها على معلومات لإرشادها في هذا العالم، لكنها تردَّدت، فترتيب الفوضى التي تعم القلعة مسألة أهم الآن. ومع ذلك، أزعجتها فكرة أن الماء يُعدُّ علامة أساسية على الثراء هنا.

قالت چيسيكا: «أخبرني زوجي عن لقبك، وميَّزت الكلمة. إنها كلمة قديمة جدًّا».

سألتها ميپس: «تتحدَّثين الألسن العتيقة إذًا؟»، وانتظرت إجابتها بحِدَّة غريبة.

قالت چيسيكا: «الألسن هي أوَّل ما تتعلَّمه فتيات البِني چيسيرت. أتحدَّث البوتاني چيب والتشاكوبسا وكل لغات الصيد».

أومأت ميپس في رضا: «تمامًا كما تقول الأساطير».

وتعجَّبت چيسيكا من نفسها: *لِمَ أُساير هذه الأوهام؟*

لكن أساليب البِني چيسيرِت كانت ماكرة ومغرية باستخدامها.

واصلت چيسيكا: «إنني خبيرة في تعاليم الظلام وسُبُل الأُمّ العظيمة»، وقرأت في سحنة ميپس وأفعالها تعابير دقيقة تفضح ما يختلج في داخلها، فقالت بلغة تشاكوبسا: «ميسيسز بريچيا، أندرال تيرا بيرا! ترادا سيك بوسكاكري ميسيسز بيراكري...».

تراجعت ميپس خطوة إلى الوراء، وبدا أنها مستعدَّة للفرار.

قالت چيسيكا: «أنا أعرف الكثير. أعرف أنك أنجبت أطفالًا، وأنك فقدت أحبَّاءً، وأنك مختبئة خوفًا، وأنك ارتكبت أفعالًا عنيفة في الماضي، وأنك سترتكبين أفعالًا عنيفة في المستقبل. أنا أعرف الكثير من الأشياء».

في صوتٍ خفيض، قالت ميپس: «لم أقصد أيَّ إهانة يا سيِّدتي».

قالت چيسيكا: «أنت تتحدَّثين عن الأساطير وتبحثين عن إجابات. لكن احذري الإجابات التي قد تجدينها. أعرف أنك جئت مستعدة للعنف، بسلاح تخفينه في صدريتك».

- «سيِّدتي، أنا ...».

قالت چيسيكا: «هناك احتمال ضئيل أن تتمكَّني من إراقة دمائي، لكن إن نجحت في ذلك فستتسبَّبين في خرابٍ أكثر ممَّا يرد في أعتى مخاوفك. بعض المصائر أسوأ من الموت، ويمكن أن تصيب شعوبًا بكاملها».

توسَّلت ميپس إليها وهي على وشك أن تخر على ركبتيها من الرعب: «سيِّدتي! ما السلاح إلَّا هديةٌ مُرسلةٌ إليك، إن تبيَّن أنك المنتظرة بالفعل».

قالت چيسيكا: «ووسيلة لموتي إن تبيَّن العكس»، ثم انتظرت في حالة الاسترخاء الظاهري التي تجعل متدرِّبات البِني چيسيرِت مرعبات في القتال.

فكَّرت چيسيكا: *لنرى الآن إلى أيِّ كفَّةٍ سيميل قرارها.*

ببطء، مدَّت ميپس يدها في فتحة ثوبها، وأخرجت منه غمدًا قاتمًا يبرز منه مقبضٌ أسود منحوت فيه مواضع أصابع عميقة. ثم أمسكت المقبض في يدٍ والغمد في اليد الأخرى، وسحبت منه نصلًا أبيض حليبي اللون ورفعته عاليًا. كان النصل ذا حدَّين كالخنچل، وطوله نحو عشرين سنتيمترًا.

سألت ميپس: «أتعرفين ما هذا يا سيِّدتي؟».

عرفت چيسيكا أنه لا يمكن أن يكون إلا شيئًا واحدًا فقط، سكِّين أرَّاكس العاجية الأسطورية، النصل الذي لم يغادر الكوكب قط، والذي نال شهرته عن طريق الشائعات والقيل والقال.

قالت لها: «إنها سكِّينٌ عاجيةٌ».

قالت ميپس: «لا تستخفِّي بالاسم، أتعرفين معناه؟».

فكَّرت چيسيكا: *هذا سؤالٌ مقصود ولم يُلقَ على عواهنه. لقد قبلت هذه المرأة الفرمنية العمل في خدمتي لطرح هذا السؤال بالتحديد، وجوابي يمكن أن يُعجِّل بالعُنف أو... بماذا يا تُرى؟ إنها تنتظر مني إجابة عن معنى لفظة سكِّين. لقب ميپس في لغة تشاكوبسا هو «شادوات»، والسكِّين في لغة تشاكوبسا تعني «صانعة الموت». لقد بدأت تتململ. يجب أن أُجيب الآن. التأخُّر في الجواب لا يقل خطورةً عن الجواب الخاطئ.*

قالت چيسيكا: «إنها صانعة...».

ناحت ميبس: «إهيـــــــي!». حمل صوتها من الحزن قدر ما حمل من الانتشاء، وأخذ جسدها يرتجف بقوَّة راح معها نصل السكِّين يعكس ومضات متلألئة في أرجاء الغرفة.

حافظت چيسيكا على اتِّزانها، وانتظرت في وقار. كانت تنوي أن تقول إن السكِّين تعني صانعة الموت، ثم تضيف الكلمة القديمة بعدها، لكن كل حواسِّها حذَّرتها الآن من المواصلة، وساعدها في ذلك تدريب الوعي العميق على كشف المعاني الكامنة خلف أبسط الحركات العضلية الذي تلقَّته.

الكلمة التي جنَّت جنونها هي... صانعة.

صانعة؟ أجل، صانعة.

ومع ذلك، ظلَّت ميبس رافعة السكِّين كما لو كانت مستعدَّة لاستخدامه.

قالت چيسيكا: «أظننتِ أنني لن أعرف الصَّانعة، أنا المحيطة بأسرار الأُمِّ العظيمة؟».

أنزلت ميبس السكِّين وقالت: «سيِّدتي، عندما يعيش المرء مدةً طويلةً في كنف نبوءة، تكون لحظة التكشُّف صادمة».

فكَّرت چيسيكا في النبوءة، وفي الشريعة*، وفي كل نبوءات پانوپليا التي بذرتها واحدة من مُبشِّرات البِني چيسيرِت الحاميات في أرض هذا الكوكب منذ قرون خلت. لقد رحلت تلك الأخت بلا شك منذ زمن بعيد، لكنها نجحت في مسعاها، وزرعت الأساطير الوقائية الحامية في أذهان هؤلاء القوم تحسُّبًا ليومٍ تحتاج فيه إحدى أخوات البِني چيسيرِت إليها.

وها قد أتى هذا اليوم.

أعادت ميپس السكّين إلى غمدها وقالت: «هذا من النِصال غير المستقرَّة يا سيّدتي، لذا أبقيه إلى جوارك، إذ سيبدأ في التحلُّل إن انقضى عليه أسبوع بعيدًا عن جسدك. هذه سنٌّ من أسنان شَيٍ هولود، وهي لك ما دُمتِ حيَّة».

مدَّت چيسيكا يدها اليمنى وقالت مُقامِرةً: «ميپس، لقد أعدت النصل إلى غمده دون سفك دم».

شهقت ميپس وأسقطت السكّين بالغمد في يد چيسيكا، وشقَّت صدريتها البنّية وهي تنتحب:

- «أريقي ماء حياتي!».

أخرجت چيسيكا السكّين من غمدها. ما أشدَّ لمعانها! ثم وجَّهت الطرف نحو ميپس، ورأت خوفًا يفوق الموت يستحوذ على المرأة. تساءلت چيسيكا: *هل الطرف مسموم؟* ثم أبعدت الطرف وشقَّت بحافة النصل جرحًا سطحيًا فوق صدر ميپس الأيسر. خرج من الجرح دمٌ غليظ وتخثَّر على الفور. *يا له من تخثُّر فائق السُرعة! أهي طفرة للحفاظ على الرطوبة؟* هكذا فكَّرت چيسيكا.

ثم أغمدت النصل وقالت: «زرِّري ثوبك يا ميپس».

أطاعتها ميپس وهي ترتعش، ورمقتها العينان اللتان بلا بياض، ثم غمغمت المرأة: «أنت أملنا، أنت المنتظرة».

جاء صوت تفريغ حمولة آخر من المدخل. بسرعة، أمسكت ميپس بالسكّين المغمد وأخفته في صدرية چيسيكا، وفحَّت كالأفعى: «من يرى السكّين لا بُدَّ من تطهيره أو ذبحه، أنت تعرفين هذا يا سيّدتي!».

فكَّرت چيسيكا: *صرت أعرفه الآن.*

غادر عمَّال الشحن دون التطفُّل على البهو العظيم.

استعادت ميپس رباطة جأشها وقالت: «إذا رأى غير الأطهار السكّين العاجية لا يُسمح لهم بمغادرة أرّاكس أحياء. لا تنسي هذا يا سيّدتي، فقد صِرت مُؤتمنةً على سكّينٍ عاجية»، ثم أخذت نفسًا عميقًا وأضافت: «لا بُدَّ للأمر من أن يأخذ مجراه، ولا ينبغي استعجاله». ثم نظرت إلى الصناديق والمتاع المكدَّس حولهما وقالت: «والكثير من العمل ينتظر إلى أن يحين الوقت».

تردَّدت چيسيكا. *«لا بُدَّ للأمر من أن يأخذ مجراه»*، هذا اقتباس مباشر من مخزون تعاويذ المبشِّرات الحاميات الخاص بفكرة: *مجيء الأم الموقرة لتحريركم*.

فكَّرت چيسيكا: *لكنني لست أُمًّا موقَّرة*، ثم استطرد تفكيرها: *بحقِّ الأُمِّ العظيمة! لقد زرعوا تلك الأسطورة هنا! أيُّ مكانٍ بشعٍ هذا!*

سألت ميپس بنبرة عملية: «بم تريديني أن أبدأ يا سيِّدتي؟».

دفعت الفريزة چيسيكا إلى أن تتجاوب معها بمثل نبرتها العادية، فأجابت: «صورة الدوق الراحل التي هناك، يجب أن تُعلَّق على أحد جدران قاعة الطعام، وعلى الحائط المقابل يجب أن يُعلَّق رأس الثور».

اتَّجهت ميپس إلى رأس الثور وقالت: «يا لعظمة الحيوان الذي حمل مثل هذا الراس!»، ثم توقَّفت قبل أن تضيف مستفسرة: «يجب أن أنظِّفها أوَّلًا، أليس كذلك يا سيِّدتي؟».

- «كلَّا».

- «لكن الوحل يلوِّث القرنين».

- «هذا ليس وحلًا يا ميپس، إنها دماء والد دوقنا. لقد رُشَّ على قرني هذه البهيمة مثبِّتًا لونيًا شفَّافًا بعد ساعات قليلة من قتلها الدوق القديم».

وقفت ميپس وصاحت في دهشة: «آها، الآن فهمت!».

قالت چيسيكا: «إنها مجرَّد دماء، دماء قديمة بالأحرى. استعيني بأحد الخدم لتعليق هذين الشيئين البغيضين، فهما ثقيلان».

سألتها ميپس: «أظننت أن الدماء أزعجتني؟ أنا من الصَّحراء وقد رأيت دماءً كثيرة تسيل».

قالت چيسيكا: «هذا واضح».

قالت ميپس: «بعضها دمائي أنا، وقد سال منها أكثر من تلك التي تسبَّب فيها خدشك الصغير».

- «أكنت تفضِّلين لو تعمَّقت أكثر؟».

- «أوه، كلَّا! ماء الجسم شحيح بما يكفي ونفقد منه الكثير في الهواء. لقد فعلت الصواب».

لاحظت چيسيكا كلماتها وتعبيراتها، وأدركت المعاني الضمنية الأعمق في قولها: «ماء الجسم». ومرة أخرى شعرت بضيقٍ في صدرها من أهمية الماء على أرَّاكس.

سألتها ميپس: «على أيِّ جانبي قاعة الطعام أُعلِّق هاتين التحفتين يا سيِّدتي؟».

فكَّرت چيسيكا: *هذه المرأة عملية دائمًا وأبدًا*. ثم قالت: «اتَّخذي القرار بنفسك يا ميپس، الأمر سواء».

- «أمرك يا سيِّدتي»، قالتها ميپس وتوقَّفت، وبدأت تزيل الأغلفة والخيوط عن الرأس، ثم قالت بصوتٍ طفولي: «أنت قاتل الدوق القديم، أليس كذلك؟».

سألتها چيسيكا: «أتريدينني أن أستدعي حمَّالًا لمساعدتك؟».

- «سأتدبَّر الأمر يا سيِّدتي».

فكَّرت چيسيكا: *حتمًا ستتدبَّر الأمر، هذه هو المميَّز في هذه المخلوقة الفرمِنية: القدرة على التدبُّر.*

شعرت چيسيكا ببرودة غمد السكِّين العاجية أسفل صدريتها، وفكَّرت في سلسلة مكائد البِني چيسيرِت الطويلة التي صنعت لنفسها حلقة أخرى هنا. بفضل هذا التخطيط، استطاعت أن تنجو من أزمة قاتلة. قالت ميپس: «لا ينبغي استعجال الأمر». ومع ذلك، شعرت چيسيكا بأنهم اندفعوا إلى هذا المكان بتهوُّرٍ شديد يُنذر بشرٍّ ملأ عقلها بهواجس لن تفلح في تبديدها كل تحضيرات المبشِّرات الحاميات، ولا كل الفحص الدقيق الذي أجراه حوَّاط لكومة الصخور هذه.

قالت چيسيكا: «حين تنتهين من تعليقهما، اشرعي في إفراغ الصناديق. أحد رجال الشحن الموجودين في المدخل معه جميع المفاتيح ويعرف مكان وضع كل شيء. خذي منه القائمة والمفاتيح، وإذا كان لديك أيُّ أسئلةٍ سأكون في الجناح الجنوبي».

قالت ميپس: «أمرك يا سيِّدتي».

استدارت چيسيكا مبتعدةً وهي تفكِّر: *رُبَّما يكون حوَّاط قد أعلن أن الدار آمنة، لكن هنالك خطبًا ما في المكان. أستطيع الشعور به.*

سيطرت على چيسيكا حالة مُلِحَّة لرؤية ابنها. بدأت السير نحو المدخل المقوَّس الذي يفتح على الممرِّ المؤدِّي إلى قاعة الطعام والأجنحة العائلية، وراحت تسرع من خطاها حتى كادت تجري.

من خلفها، توقَّفت ميپس للحظة عن إزالة التغليف الذي يلفُّ رأس الثور، ورنت إلى ظهرها المُبتعد وهي تتمتم: «لا شكَّ في أنها المنتظرة.. يا للمسكينة».

تـردّد الجوقـة فـي الأغنيـة: «يُـوي! يُـوي! يُـوي! ألـف موتـة لـم تكـن تكفـي يُـوي!».
من كتاب «سيرة المؤدِّب للأطفال» للأميرة إيرولان.

كان البـاب مواربًا، فدخلـت چيسيكا منـه إلـى غرفـة ذات حوائـط صفـراء. إلـى يسـارها، كانـت هنـاك أريكـة منخفضـة مـن الجلـد الأسـود، وخزانتـا كُتُـبٍ فارغتيـن، وقـارورة مـاء معلَّقـة تراكـم التـراب علـى جوانبهـا المنتفخـة. وإلـى يمينهـا، وقفـت خزانتـا كُتُـبٍ أُخريـان علـى جانبـي بـابٍ آخـر، ومكتـب مـن كلادان، وثلاثـة مقاعـد. وأمامهـا مباشـرةً، كان الدكتـور يُـوي يقـف عنـد النوافـذ معطيًـا ظهـره لهـا، مشـدودًا إلـى المشـهد الخارجـي.

خطت چيسيكا خطوة أخرى بصمت داخل الغرفة.

لاحظـت أن معطـف يُـوي كان مجعَّدًا، تلطِّخـه بقعـة بيضـاء قـرب المرفـق الأيسـر كمـا لـو كان قـد اتَّكأ علـى طباشـير. بـدا مـن الخلـف كأنـه عصـا بـلا لحـم عليهـا ثيـاب سـوداء واسـعة، كدُميـة ماريونيـت معلَّقـة بخيـوط تنتظـر أن يشُـدَّ خيوطهـا محـرِّك الدُمـى. وحـده رأسـه المربَّـع الكبيـر الـذي يتدلَّـى منـه شـعر طويـل أبنوسـي معقـوص علـى كتفـه بطـوق سـوك الفضِّـي بـدا حيًّـا وهـو يتحـرَّك ببطـء متابعًـا حركـةً مـا فـي الخـارج.

جالـت چيسـيكا ببصرهـا الغرفـة مـرَّة أخـرى ولـم تلمـح أثـرًا لابنهـا، لكنهـا كانـت تعـرف أن البـاب المُغلق إلـى يمينهـا يفضـي إلـى غرفـة نـوم صغيـرة قـال پـول إنهـا تـروق إليـه.

قالت: «مساء الخير يا دكتور يُوي، أين پول؟».

أومأ برأسه كما لو كان يشير إلى شيءٍ وراء النافذة، وتحدَّث بشرود دون أن يلتفت إليها: «تملَّك الإرهاق من ابنك يا چيسيكا، فأرسلته إلى الغرفة المجاورة للراحة».

ثم شدَّ قامته فجأة، واستدار سريعًا ما جعل شاربه المتدلِّي يتحرَّك فوق شفتيه الأرجوانيتين: «اعذريني يا سيِّدتي! كان عقلي شاردًا جدًّا، لم أقصد رفع الكُلفة».

ابتسمت چيسيكا، ورفعت كفَّها اليمنى، وقد خشيت للحظة أن يركع أمامها. «لا عليك يا ويلنجتون».

- «أن أناديك باسمك المجرَّد هكذا لو... أنا ...».

قالت چيسيكا: «يعرف أحدنا الآخر منذ ستَّة أعوام يا يُوي. لقد تأخَّرنا كثيرًا في التخلِّي عن الرسميَّات حين نكون على انفراد».

رسم يُوي ابتسامة صفراء على شفتيه، وفكَّر: *أظن أنني نجحت. ستُرجع الآن أن أيَّ تصرُّف غريب غير معتاد يصدر عني إلى الإحراج. لن تبحث عن أسبابٍ أعمق وهي تعتقد أنها تعرف الإجابة بالفعل.*

قال لها: «أخشى أنني كنت منغمسًا في أفكاري. كلَّما أشعر بالأسف على حالك، أجدني أفكِّر فيك بصفتك چيسيكا فحسب».

- «الأسف على حالي؟ لِمَ؟».

هزَّ يُوي كتفيه. منذ زمنٍ بعيد أدرك أن چيسيكا لم تكن موهوبة في كشف الكذب مثل زوجته الحبيبة وانا. ومع ذلك، كان يستخدم الحقيقة دائمًا مع چيسيكا كلَّما أمكن ذلك، فهذا أسلم السبل.

- «لقد شاهدت هذا المكان يا سيِّدتـ... يا چيسيكا». تلعثم يُوي في نطق الاسم، ثم واصل: «إنه قاحل تمامًا مقارنةً بكلادان. وما أغرب هؤلاء القوم! النساء اللاتي مررنا بهن ونحن في طريقنا

هنا كُنَّ ينتحبن أسفل خمرهن، وينظرن إلينا بطريقة مريبة».
طوت چيسيكا ذراعيها على صدرها، محتضنةً نفسها، وأحسَّت بالسكِّين العاجية في صدريتها، النصل المصنوع من سنٍّ إحدى ديدان الرمال، إذا كانت التقارير صحيحة، وقالت: «هذا فقط لأننا غرباء عنهم، وللغرباء عادات مختلفة، وهم لم يعرفوا طوال حياتهم سوى الهراكنة»، ثم تجاوزته ببصرها وأطلَّت إلى ما خارج النافذة وسألته: «إلام كنت تحدِّق في الخارج؟».
عاد إلى النافذة وقال: «إلى القوم».
عبرت چيسيكا الغرفة ووقفت إلى جواره، ونظرت يسارًا إلى واجهة المنزل حيث يتركَّز انتباه يُوي. هناك، اصطفَّت عشرون نخلة في محيط من التربة الجرداء النظيفة، يفصلها سياج عن الطريق الذي يمشي فيه مارَّة يرتدون ثيابًا طويلة. لاحظت چيسيكا وميضًا خافتًا في الهواء يفصلها عن الناس، درع المنزل، وواصلت دراسة الحشد المار متسائلةً لماذا يلفتون انتباه يُوي.
ثم تبدَّى لها النمط المتكرِّر، فوضعت يدها على ذقنها مفكِّرة. إنها الطريقة التي ينظر بها الناس إلى النخيل! رأت چيسيكا الحسد في أعينهم، وبعض الكره.. بل حتَّى نفحة من الأمل. لم يمرَّ شخصٌ دون أن يلقي نظرة خاطفة -بملامح جامدة- على تلك النخلات.
سألها يُوي: «أتعلمين فيم يُفكِّرون؟».
سألته: «أتدَّعي القدرة على قراءة الأفكار؟».
قال لها: «تلك العقول، إنها تنظر إلى النخيل وتفكِّر: "هذه تساوي مئة منَّا". هذا ما يفكِّرون فيه».
التفتت إليه بعبوسٍ حائر وسألت: «لماذا؟».

قال لها: «هذا نخيل تمر. تحتاج التمرة الواحدة إلى أربعين لترًا من المياه يوميًا، ويحتاج الإنسان إلى ثمانية فقط. إذًا النخلة الواحدة تساوي خمسة أشخاص. وبما أنها عشرون نخلة، فهي تساوي مئة شخص».

- «لكن بعضهم ينظر إلى الأشجار بأمل».

- «يأملون أن تُساقِط عليهم بعض الرطب، لكن ليس هذا موسم الإثمار».

قالت له: «إننا ننظر إلى هذا المكان بعين ناقدة أكثر من اللازم. أرى أن فيه من الأمل قدر ما فيه من الخطر. الاسپايس قد يجعلنا أثرياء، وبالثروة نستطيع تحويل هذا الكوكب إلى أيِّ شيءٍ نريد».

ثم ضحكت على نفسها بصمت وفكَّرت: *من أحاول أن أقنع؟* ثم فلتت منها ضحكة جافَّة لا مرح فيها وهي تقول: «لكن لا يُمكن شراء الأمان».

أعرض يُوي مبتعدًا ليُخفي وجهه عنها. *آه لو كنت أستطيع كُره هؤلاء الناس بدلًا من حُبِّي لهم!* كانت چيسيكا تُشبه زوجته وأنا من نواحٍ كثيرة، وفي كثير من تصرُّفاتها. لكن قسوة تلك الفكر لم تزده إلَّا صلابةً وتصميمًا على تحقيق هدفه. إن أساليب الهراكنة وحشية وملتوية. قد لا تكون وانا ميِّتة. عليه أن يتأكَّد.

سألته چيسيكا: «لا تقلق علينا يا ويلنجتون. فهذه مشكلتنا، لا مشكلتك».

رمش يُوي بعينيه ليداري دموعه، وتنهَّد مفكِّرًا: *تظن أنني قلِقٌ عليها! وأنا كذلك بلا شك. لكنني يجب أن أكون قد أنجزت مُراد هذا البارون الأسود قبل أن أقف أمامه، وحينذاك أغتنم الفرصة*

الوحيدة لأضرب ضربتي وهو في أضعف حالاته.. في لحظة شماتته!

سألته: «أتظن أن پول سيقلق لو ألقيت نظرة إليه؟».

- «كلّا البتّة. لقد أعطيته مهدّئًا».

سألته: «هل يتكيّف مع التغيُّرات على ما يرام؟».

- «أجل، ما عدا بعض الإرهاق الزائد. إنه متحمّس، لكن أيُّ فتى في مثل سنّه لن يتحمَّس في ظروفٍ كهذي؟»، ثم اتَّجه إلى الباب وفتحه: «إنه هنا».

تبعته چيسيكا، وأطلَّت برأسها في الغرفة المعتمة.

كان پول ممدَّدًا على سرير سفرٍ ضيِّق، إحدى ذراعيه مندسَّة تحت غطاء خفيف، والأخرى ملقاة خلف رأسه. غزلت الستائر المضلَّعة المعلَّقة على النافذة المجاورة للسرير نسيجًا من الظلال على وجهه وبطَّانيته.

رمقت چيسيكا ابنها، وتأمَّلت وجهه البيضاوي الذي يشبه وجهها كثيرًا، والشعر الأشعث الأسود بلون الفحم الذي ورثه من الدوق. أخفت رموشه الطويلة عينيه الخضراوين الليمونيَّتين. ابتسمت چيسيكا وبدأت مخاوفها تتبدَّد، واستحوذت اللمسات الوراثية البادية في سيماء ابنها على تفكيرها: چيناتها التي في عينيه وملامح وجهه، وچينات أبيه الحادة التي تنبت بين تلك الملامح كما ينبت الرُّشد من رحم الطفولة.

فكرت في ملامح الصبيِّ باعتبارها خليطًا رائعًا من أنماطٍ عشوائية: خلاصة صُدفٍ لا حصر لها اجتمعت في هذا الوعاء. جعلتها الفكرة ترغب في الركوع إلى جوار السرير وتضمُّ ابنها بين ذراعيها، لكنها أحجمت لوجود يُوي وتراجعت مغلقة الباب برفق.

كان يُوي قد عاد إلى النافذة، غير قادر على تحمُّل رؤية الطريقة التي تحدّق بها چيسيكا إلى ابنها، وتساءل في نفسه: *لِم لم تُجب لي وأنا أطفالاً؟ أعلم بصفتي طبيبًا أنه لم يكن يُوجد مانع طبِّي. هل كان يُوجد سبب يخص البِني چيسيرِت؟ هل تلقَّت تعليمات لتحقيق غرض آخر؟ وماذا يمكن أن يكون هذا الغرض؟ لقد أحبَّتني بالتأكيد.*

للمرَّة الأولى، فكَّر يُوي في احتمال أنه رُبَّما يكون جزءًا من مخطَّط أكثر تعقيدًا والتواءً ممَّا يمكن أن يستوعبه عقله.

وقفت چيسيكا إلى جواره وقالت: «ينام الصغار نومًا هانئًا ملء جفونهم».

ردَّ برتابة آلية: «ليت الكبار ينالون مثل هذه الراحة».

- «صدقت».

غمغم يُوي: «متى نفقدها؟».

رمقته سريعًا وقد لاحظت نبرته الغريبة، لكن عقلها كان ما زال مشغولًا ببول، يفكّر في الصعوبات الجديدة التي ستواجه تدريبه هنا، وفي شكل حياته الذي اختلف أيَّما اختلاف عمَّا خطَّطا له قديمًا.

ردَّت قائلة: «إننا نفقد شيئًا بالفعل في منتصف الطريق».

ثم نظرت إلى منحدرٍ محدودب مكسوٍّ بشجيرات خضراء رمادية تزروها الرياح، أوراقها مغبَّرة وأغصانها جافَّة حادَّة كالمخالب. كانت السماء الشديدة الإعتام تخيِّم فوق المنحدر كوصمة، ونور شمس أرَّاكس الأبيض الحليبي يصبغ المشهد بصبغة فضِّية، نور له لون السكِّين العاجية المُخفاة في صدريتها نفسه.

قالت: «السماء مظلمة جدًا».

ردَّ عليها: «يرجع هذا جزئيًا إلى نقص الرطوبة».

صاحت قائلة: «أينما نظرت هنا يصدمك شُحُّ الماء!».

قال لها: «إنه أقدس أسرار أرّاكس».

- «لِمَ الماء شديد الندرة هنا؟ الكوكب فيه صخور بركانية، ومصادر طاقة عِدَّة، وجليد قطبي. يقولون إنه يتعذَّر حفر الآبار في الصَّحراء، فالعواصف وأمواج الرمال تُدمِّر المعدات أسرع مما يمكن تركيبها، هذا إن لم تدمِّرها الديدان أوَّلًا. على أيِّ حال، لم يُعثر على أثرٍ للماء في الصحراء المفتوحة، لكن اللغز يا ولينجتون، اللغز الحقيقي هو الآبار التي حُفرت ها هنا في الأودية والأحواض. هل قرأت عنها؟».

أجابها: «مجرَّد نضيض ماء، يجفُّ بعدها تمامًا».

- «لكن هذا لغز يا ولينجتون. يظهر الماء في البئر، ثم سرعان ما تجفُّ ولا يُرى أثرٌ للماء فيها. ويتكرَّر الأمر في حفرة قريبة أخرى: مجرَّد نضيض، يجفُّ بعده الماء. ألم يعتر أحدًا الفضول إزاء هذا؟».

قال لها: «الأمر مثير للفضول بالفعل. أتشتبهين في سببٍ عضوي وراء الظاهرة؟ وإن كان الأمر كذلك، ألم يكن من المفترض أن يظهر في العيِّنات المأخوذة من التربة؟».

- «ما الذي سيظهر؟ متعضِّية نباتية أو حيوانية غريبة؟ ومن سيستطيع تمييزها؟»، قالتها چيسيكا وعادت تتأمَّل المنحدر، ثم أردفت: «الماء ينقطع، وهذا يشير إلى أن شيئًا ما يسدُّه. هذا هو اشتباهي».

قال لها: «رُبَّما السبب معروف بالفعل. لقد حجب الهراكنة

الكثير من مصادر المعلومات الخاصَّة بأرَّاكس، رُبَّما لديهم سبب لإخفاء الأمر».

سألته: «أيُّ سبب؟ وخذ عندك أيضًا مسألة الرطوبة الجوِّية. أينعم هي قليلة، لكنها موجودة. إنها مصدر الماء الرئيس هنا، ويحصلون عليها باستخلاصها بمصايد الرياح والمكثِّفات. من أين تأتي؟».

- «رُبَّما من جليد القطبين؟».

- «الهواء البارد لا يحمل إلا نسبة قليلة من الرطوبة يا ولينجتون. ثمَّة أمور مستترة خلف ستار الهراكنة في حاجة إلى تحقيقٍ دقيق، وليست جميعها تتعلَّق بشكل مباشر بالاسپايس».

قال لها: «نحن بالفعل خلف ستار الهراكنة، رُبَّما...»، ثم بتر عبارته ملاحظًا الطريقة الحادَّة التي رمقته بها فجأة، وقال: «أثمَّة مشكلة؟».

قالت له: «الطريقة التي لفظت بها اسم الهراكنة. صوت الدوق نفسه لا يحمل هذا القدر من المقت المسموم وهو ينطق الاسم البغيض. لم أكن أعرف أن لديك أسبابًا شخصية تدفعك لكرههم يا ولينجتون».

بحقِّ الأُمِّ العظيمة! هكذا فكَّر. *لقد أثرت شكوكها! الآن يجب أن أستخدم كل حيلة علَّمتني إيَّاها حبيبتي وانا. الحل الوحيد هو قول الحقيقة قدر استطاعتي.*

قال لها: «ألم تعرفي أن زوجتي، حبيبتي وانا...»، انحشرت غصَّة مريرة في حلقه، فهزَّ كتفيه عاجزًا عن مواصلة الكلام، ثم قال بصعوبة: «إنهم...». تأبى الكلمات مغادرة فمه. شعر بالذعر، وأغلق عينيه بقوَّة شاعرًا بألمٍ قابض يعتصر صدره، حتَّى لمست يدٌ حانية ذراعه برفق.

قالت چيسيكا: «سامحني، لم أقصد أن أفتح جرحًا قديمًا». وفكَّرت: *الحيوانات! إن زوجته من البِني چيسيرِت، كل الدلائل تشير إلى ذلك. ومن الواضح أن الهراكنة قتلوها. إنه ضحية مسكينة أخرى يربطها بآل آتريديز رباط الكراهية.*

قال لها: «معذرة، لا أستطيع الكلام عن الأمر». ثم فتح عينيه مسلِّمًا نفسه لمشاعر الحزن الداخلية. على الأقل ما قاله كان حقيقة.

تأمَّلت چيسيكا ملامحه، ولاحظت الوجنتين حادَّتي الزوايا، والعينين الداكنتين اللامعتين كالترتر والمسحوبتين كاللوز، وبشرته الدهنية، وشاربه الرفيع المتدلّي كإطار منحنٍ حول شفتين أُرجوانيتين وذقنٍ ضيِّقٍ. أدركت چيسيكا أن تجاعيد وجنتيه وجبينه هي ندوب حفرها الحزن بقدر ما رسمها الزمن، فتملَّكها عطفٌ كبير نحوه.

قالت له: «ولينجتون، يؤسفني أننا أحضرناك إلى هذا المكان الخطر».

قال لها: «جئت بإرادتي». هذه أيضًا حقيقة.

- «لكن الكوكب برمَّته شركٌ نصبه الهراكنة، وأنت تعلم ذلك».

قال لها: «الإيقاع بالدوق ليتو يتطلَّب ما هو أكثر من شرك». هذه أيضًا حقيقة.

قالت: «ربَّما يجدر بي الوثوق أكثر بقدراته. إنه ماكر وداهية في التخطيط».

قال: «لقد اقتُلعنا من جذورنا، لهذا نحن مرتبكون».

قالت: «وما أسهل قتل النبات عندما يُقتلع من جذوره، خاصة إذ زُرِع في تربةٍ معادية».

- «هل نحن على يقين من أن التربةَ معادية؟».

ردَّت: «لقد نشبت أعمال شغب على الماء حين عرف الناس عدد الأشخاص الذين سيضيفهم الدوق إلى تعداد السكَّان، ولم تتوقَّف إلا عندما تيقَّن الناس أننا سنشيِّد مصايد رياح ومكثِّفات جديدة لتطوير الشبكة وتخفيف العبء عليها».

قال يُوي: «الماء هنا محدود. يعرف الناس أنه إذا جاء المزيد لشرب كمِّية محدودة من الماء، فسيرتفع السعر وسيموت الأشد فقرًا. لكن الدوق حلَّ هذا الأمر. أعمال الشغب لا تعني بالضرورة استمرار العداوة ضده».

قالت: «وماذا عن الحرس المنتشرين في كل مكان؟ والدروع التي ترى مجالاتها المُشوِّشة أينما نظرت؟ لم نعش بهذه الطريقة على كلادان».

قال لها: «امنحي هذا الكوكب فرصة».

لكن چيسيكا واصلت تحديقها البارد عبر النافذة، ثم قالت: «أشتمُّ رائحة الموت في هذا المكان. حوَّاط أرسل كتائب وأفواجًا من التعزيزات المسبقة إلى هنا. هؤلاء الحرَّاس في الخارج رجاله، وعمَّال الشحن كذلك رجاله، كما جرت عمليات سحب غير مفسَّرة لمبالغ كبيرة من خِزانة المال، وهذه المبالغ لا تعني إلَّا شيئًا واحدًا فقط: رُشًى لأشخاص في مناصب مرموقة». ثم هزَّت رأسها وأضافت: «حيثما ينزل حوَّاط يؤمُّه الموت، ويمشي في أثره الخداع».

- «أنت تفترين عليه».

- «أفتري عليه؟ كلَّا. أنا أمدحه. لا أمل لنا الآن سوى الموت والخداع، لكنني لن أخدع نفسي بشأن أساليب ظفير».

قال لها: «عليك أن... تشغلي نفسك. لا تمنحي نفسك وقتًا

لمثل هـذا التشـاؤم...».

- «أشغل نفسـي! الا تعلم ما يستنزف معظم وقتـي يا ولينجتون؟ إننـي سـكرتيرة الـدوق. أنـا مشـغولة إلـى درجـة أننـي أتعلَّـم فـي كل يـوم أن أخشى أشـياء جديـدة.. أشـياء لا يشـك هـو نفسـه فـي أننـي أعرفها»، ثم ضغطت شفتيها وتحدَّثت همسًا: «أحيانًا أتساءل إن كان تدريبي على إدارة أعمال البِنـي جيسيرِت قد أسهم في اختيـاره لـي».

- «مـاذا تعنيـن؟»، قالهـا يُوي وقـد أخذتـه النبـرة السـاخرة الباديـة فـي صوتهـا، والمـرارة التـي لـم يسـبق لهـا إظهارهـا أمامـه.

سـألته: «فـي رأيك يـا ولينجتـون، هـل تحظـى السـكرتيرة المشـيقة بأمـان أكبـر مـن غيرهـا؟».

- «هـذه فكرة لا تليق بك يا جيسيكا».

كان عفويًـا فـي توبيخـه لهـا، إذ لـم يكـن ثمَّـة شـك فـي شـعور الـدوق نحـو خليلتـه، فـكل مـا علـى المـرء فعلـه لمعرفتـه هـو مراقبتـه وهـو يتتبَّعهـا بعينيـه.

تنهَّدت قائلة: «معك حق، إنها لا تليق بي».

واحتضنـت نفسـها مـن جديـد، ضاغطـة السـكِّين العاجيـة المغمدة إلـى صدرهـا، وهـي تُفكِّـر فـي المهمَّـة غيـر المكتملـة التـي يمثِّلهـا النصـل.

قالـت: «سـتراق دمـاءٌ كثيـرة قريبًـا. لـن يرتـاح الهراكنـة إلَّا وهـم جُثـثٌ هامـدة، أو بالقضـاء علـى الـدوق. لـن ينسـى البـارون أن ليتـو تربطـه صلـة دم بالعائلـة الإمبراطوريـة، حتَّـى وإن كانـت صلـة بعيـدة، فـي حيـن أن مناصـب الهراكنـة خرجـت مـن جعبـة الأربـاح التـي حقَّقوهـا مـن شـركة تشـوم، أمَّـا السُّـمُّ الزعـاف الـذي يُسـمِّم عقلـه بالفعل هـو حقيقـة أن أحـد أسـلاف آل آتريديـز كان السبب فـي نفـي

واحد من الهراكنة بتهمة الجبن بعد معركة كورين».

غمغم يُوي: «العداوة القديمة». وللحظة شعر بلمسة الكراهية الحارقة. لقد أوقعته العداوة القديمة في شباكها، وتسبَّبت في قتل زوجته وانا، أو الأسوأ.. تركتها أسيرةً براثن الهراكنة، يذيقونها العذاب حتَّى يتم زوجها عملهم. لقد أوقعته العداوة القديمة في شباكها، وهذه العائلة جزء من هذا المستنقع السَّام. المفارقة أن كل هذا الموات أتى ليزدهر هنا على كوكب أرَّاكس، المصدر الوحيد في الكون للمزَاج، مُطيل العمر، واهب الصحة.

قالت له: «فيم تُفكِّر؟».

- «أُفكِّر في أن سعر الاسپايس في السوق بلغ 620 ألف سولاري لكل ديكاجرام الآن. ثروة كهذه قادرة على ابتياع أشياء كثيرة».

- «أمسَّك الجشع أنت أيضًا يا ولينجتون؟».

- «ليس الجشع ما مسَّني».

- «ماذا إذًا؟».

هزَّ كتفيه وقال: «الخيبة»، ثم نظر إليها: «أتتذكَّرين أوَّل مرَّة تذوَّقتِ فيها الاسپايس؟».

- «كان مذاقه كالقرفة».

قال: «لكنها كانت لحظة لا تتكرَّر أبدًا. الاسپايس كالحياة، يمنح تجربة جديدة في كل مرَّة. يعتقد البعض أن الاسپايس يحفِّز ردة فعل مذاقية مكتسبة. عندما يدرك الجسم أن مادةً مُفيدةً له يجعلها مصدر مُتعة ونشوة لمتعاطيها. وهو أيضًا كالحياة، لا يمكن تخليقه أو صنعه».

قالت: «أعتقد أنه كان من الحكمة أن نهرب إلى كوكبٍ بعيد

عـن قبضــة الإمبـراطوريــة».

لاحـظ يُـوي أنهـا لـم تكـن تنصـت إليـه، وتأمَّـل كلماتهـا متسـائلًا: *لِمَ لـم تحملـه علـى فعـل ذلـك؟ إنهـا قـادرة علـى جعـل الـدوق ينفّـذ أيّمـا تريـد.*

سـارع يُـوي بالـكلام لأنـه وجـد سـؤالًا صادقًـا يطرحـه ويغيّـر بـه الموضـوع: «هـل سـتعدّينها جـرأة منـي يـا... چيسـيكا لـو سـألتك سـؤالًا شـخصيًا؟».

مالـت چيسـيكا بجسـدها إلـى حافّـة النافـذة شـاعرة بوخـزة قلـق لا يمكـن تفسـيرها: «بالطبـع لا، فأنـت... صديقـي».

- «لِمَ لم ترغمي الدوق على الزواج بك؟».

رفعـت چيسـيكا رأسـها وحدَّجتـه بعينيهـا: «أرغمـه علـى الـزواج بـي؟ لكـن...».

قال: «ما كان يجب أن أسأل».

هـزَّت كتفيهـا وقالـت: «لا بـأس. يُوجـد سـببٌ سياسـيٌّ قـوي لهـذا، فمـا دام الـدوق غيـر متـزوج، فسـيظلُّ الأمـل يحـدو بعـض العائـلات الكبيـرة فـي التحالـف معـه عـن طريـق المصاهـرة، كمـا أن...»، ثـم تنهَّـدت قبـل أن تضيـف: «... كمـا أن حـثّ النـاس، وإرغامهـم علـى تنفيـذ رغباتـك، يكسـباك نظـرة هازئـة مسـتخفّة بالبشـرية تحـط مـن شـأن كل مـا تطولـه. إن أرغمتـه علـى الـزواج بـي، لـن يكـون هـذا فعـلًا نابعًـا مـن إرادتـه الحـرَّة».

غمغـم يُـوي: «هـذا مـا كانـت سـتقوله حبيبتـي وانـا». وكان هـذا قـولًا صادقًـا كذلـك. ووضـع يُـوي يـده علـى فمـه، وابتلـع ريقـه بصعوبـة. إنـه يـكاد أن يجاهـر معترفًـا بـدوره السـري.

تحدَّثـت چيسـيكا مُبـدِّدةً اللحظـة: «إلـى جانـب ذلـك يـا ولينجتـون،

فللدوق شخصيتان مختلفتان بالكامل. إحداهما ساحرة ومازحة ومعطاءة ورقيقة وفيها كل ما قد ترغب فيه امرأة من صفات. هذا الرجل أُحبُّه. أمَّا الأخرى فباردة وفظَّة وآمرة وأنانية ومؤذية وموجعة كرياح الشتاء. هذا هو الرجل الذي شكَّل صفاته أبوه»، ثم التوت قسماتها من المقت وهي تقول: «يا ليته قد مات قبل أن يُولد الدوق!».

خيَّمت عليهما لحظة صمت أنصتا فيها إلى الهواء الخارج من فتحات التهوية وهو يداعب الستائر.

في النهاية، أخذت چيسيكا نفسًا عميقًا وقالت: «ليتو محقٌّ، هذه الغرف أجمل من تلك التي في أقسام المنزل الأخرى»، ثم التفتت وتفقَّدت الغرفة، وأردفت: «إذا سمحت لي يا ولينجتون، سألقي نظرة أخرى إلى هذا الجناح قبل أن أُعيِّن لكلٍ غرفته».

أومأ قائلًا: «بالتأكيد»، وفكَّر: *آهٍ لو كانت هناك طريقةٌ لتحاشي ذلك الأمر الذي لا بُدَّ لي من فعله.*

أنزلت چيسيكا ذراعيها من فوق حافَّة النافذة، وسارت إلى الباب المفضي إلى الرواق ووقفت هناك لحظة مترددة، ثم خرجت وهي تفكِّر: *طوال حديثنا كان يخفي شيئًا ما، يكتِّم شيئًا في صدره، كي لا يجرح مشاعري بلا شك. إنه رجلٌ طيِّب.* لكنها تردَّدت مرةً أخرى، وكادت تعود لمواجهة يُوي واستخراج مكنون صدره. *لكن هذا سيسبِّب له إحراجًا، وستخيفه معرفة أنه تسهل عليَّ تعريته وقراءة ما يدور في عقله. عليَّ أن أضع ثقة أكبر بأصدقائي.*



لاحـظ الكثيـرون السـرعة التـي تعلَّم بهـا المـؤدّب ضـرورات الحيـاة علـى أرّاكس، وبـلا شـك، نعلـم نحـن -معشـر البِنـي جيسيرِت- الأسـباب الكامنـة خلف هـذه السـرعة. أمـا للآخريـن فنقـول لهـم إن المـؤدّب تعلـم بسـرعة لأن أوّل تدريـبٍ تلقّـاه كان فـي كيفيـة التعلُّـم، وأن درسـه الأوّل كان أن يثـق ثقـةً تامـةً بقدراتـه علـى التعلُّم. يُصدم المرء من عدد البشـر الذين لا يؤمنـون بقدرتهـم علـى التعلُّـم، فضـلًا عـن عـدد الأشـخاص الذيـن يعتقـدون أن فـي التعلُّـم صعوبـة. كان المـؤدّب يعلـم أن دروسَ الحيـاة صناديـقُ مغلقـةٌ، مفاتيحهـا التجـارب.

من كتاب «إنسانية المؤدّب» للأميرة إيرولان.

استلقى پول على سـريره متظاهـرًا بالنـوم. لـم يجـد صعوبـة فـي إخفـاء القـرص المنـوّم الـذي أعطـاه إيـاه الدكتـور يُـوي فـي راحـة يـده والتظاهـر ببلعـه. كتـم پـول ضحكتـه. حتّـى أُمّـه صدّقـت أنـه نائـم. أراد أن يقفـز مـن رقدتـه ويطلـب إذنهـا للخـروج وتفقُّـد المنـزل، لكنـه أدرك أنهـا سـترفض. لـم تسـتقر الأمـور بعـد. كلّا، هكـذا أفضـل.

إن اِنسـللتُ خارجًـا دون إذن، فأنـا لـم أعـصِ الأوامـر. كمـا أننـي لـن ابـرح محيـط المنـزل الآمـن.

سـمع أُمَّـه ويُـوي يتحدَّثـان فـي الغرفـة المجـاورة، لكـن كلامهمـا لـم يكـن واضحًـا. إنهمـا يتحدَّثـان عـن الاسـپايس والهراكنـة، ووتيـرة الحديـث تحـدُّ وتليـن.

تأمَّل پول إطار السرير المُزدان بنقوش غائرة، المثبت إلى الجدار كحلية لإخفاء أزرار التحكُّم في منافع الغرفة. كان محفورًا على خشبه سمكة تقفز فوق خطوط أمواج بُنِّية سميكة. كان يعلم أنه لو ضغط عين السمكة ستُضاء مصابيح الغرفة الطافية في الهواء، وأن تحريك إحدى الموجات يتحكَّم في تهوية الغرفة، في حين تحريك موجة أخرى يغيِّر درجة حرارتها.

بهدوء، اعتدل پول جالسًا في السرير. إلى يساره، انتصبت مكتبة مرتفعة مستندةً إلى الجدار. كان يمكن إزاحتها جانبًا لتكشف عن خِزانة متعدِّدة الأدراج. أما مقبض باب الرواق فكان على هيئة ذراع الدَّفع في طائرات الأورنيثوبتر.

بدا الأمر كما لو أن الغرفة صُمِّمت لإغرائه.

الغرفة وهذا الكوكب.

تذكَّر پول عنوان الكتاب المرئي الذي عرضه يُوي عليه: «أرَّاكس: محطَّة تجارب النباتات الصحراوية التابعة لجلالة الإمبراطور». كان كتابًا مرئيًا قديمًا، يعود إلى عصر ما قبل اكتشاف الاسپايس. توالت أسماء النباتات على عقل پول، كل اسم مصحوبًا بصورة طُبعت على ذهنه عن طريق نبضات الكتاب التذكيرية: *الساجوار، الدمسنيسة الدغلية، نخيل التمر، زهرة غندور الرمال، زهرة الربيع المسائية، صبار البرميل، شجيرة البخور، والشجرة الدخانية، حشيشة الشحم... الثعلب القزم، صقر الصَّحراء، فأر الكنغر.*

أسماء وصور كثيرة، أسماء وصور تعود إلى ماضي البشرية على الأرض، وكثير من النباتات التي تعرضها لم يعد موجودًا في أيِّ مكان آخر في الكون إلَّا هنا على أرَّاكس.

أمورٌ كثيرة عليه الإحاطة بها: الاسپايس مثلًا.

وديدان الرمال.

انغلق بابٌ في الغرفة الأخرى، وسمع پول وقع خطوات أُمِّه المبتعدة في الرواق. كان يعلم أن الدكتور يُوي سينتقي كتابًا ليقرأه ولن يبرح الغرفة المجاورة.

حان وقت الاستكشاف.

انزلق پول من السرير واتَّجه إلى باب المكتبة الذي يفتح على خزانة الملابس، ثم توقَّف واستدار عندما سمع صوتًا من خلفه. رأى الصبيُّ إطار السرير المنحوت يُطوى لأسفل فوق البقعة التي كان نائمًا فيها. تجمَّد پول في مكانه، وهذا الجمود أنقذ حياته.

من فتحة وراء إطار السرير انسلَّت «صيَّادة متعقِّبة» لا يزيد طولها على خمسة سنتيمترات. ميَّزها پول على الفور، إذ كان هذا سلاح اغتيال شائع يعرفه كل أطفال العائلات النبيلة في سنٍّ مبكرة: شظية معدنية فتَّاكة يتحكَّم فيها شخصٌ متوارٍ في مكان قريب، وهي قادرة على رصد أدنى حركة، ومن ثم اختراق جسد الشخص، والمرور في قنواته العصبية ممزِّقة إيَّاها، حتَّى تصل إلى أقرب عضو حيوي.

ارتفعت المتعقِّبة في الهواء، وراحت تُفتِّش الغرفة جيئةً وذهابًا.

ومضت المعلومات التي يعرفها پول عن نقاط ضعف الصيَّادت المتعقِّبات بشكل خاطف في عقله: في المساحات الضيِّقة، يُشوِّه مجال الآلة المضاد للجاذبية الموجودات فتعجز عن تحديد الهدف، ويضطر المُشغِّل إلى الاعتماد على حركة الهدف لتحديده. يمكن لدرع الطاقة أن يبطئ الصيَّادة، ما يُتيح وقتًا لتدميرها، لكن

بول كان قد خلع درعه وتركه على الفراش. تستطيع بنادق الليز نسف الصيَّادة، لكن بنادق الليزر باهظة الثمن وصيانتها معقَّدة، كما أن خطر حدوث انفجار عند لحظة تلامس شعاع الليزر مع مجال طاقة درعٍ ساخن قائمٌ دائمًا. لهذا تعتمد فلسفة آل آتريديز القتالية على دروعهم ودهائهم.

أمسك بول جسده في حالة تخشُّب شبه كامل، عالمًا أنه لن ينجو من هذا الخطر إلَّا بذكائه.

ارتفعت الصيَّادة المتعقِّبة نصف مترٍ آخر في الهواء، وتموَّجت في أشعة الضوء المارَّة عبر فرجات ستائر النافذة، وراحت تجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا كحيوانٍ مفترس.

فكَّر بول: *علَيَّ أن أحاول الإمساك بها. ستكون زلقة من أسفل بسبب المجال المضاد للجاذبية، لذا يجب أن أحكم عليها قبضتي.*

هبطت الآلة نصف متر، واتَّجهت يسارًا، ودارت حول السرير وهي تُصدر طنينًا خافتًا.

تساءل بول: *من يتحكَّم في هذا الشيء؟ يجب أن يكون المُشغِّل قريبًا. بإمكاني مناداة يُوي، لكنها ستغتاله في اللحظة التي سيفتح فيها الباب.*

أصدر باب الرواق من خلفه صريرًا، وسمع طرقًا عليه، ثم فُتح.

انطلقت الصيَّادة المتعقِّبة كالسهم من جوار رأسه متَّجهة صوب الحركة.

مدَّ بول يده اليمنى بسرعة خاطفة إلى أعلى، وأنزلها قابضًا على الآلة الفتَّاكة. راحت المتعقِّبة تطنُّ وتتلوَّى في يده المضمومة، لكن عضلاته قبضت عليها باستماتة، ثم التفت الصبيُّ بسرعة

وضرب مقدِّمة الشيء بعنف على لوحة الباب المعدنية، وشعر بتحطُّم عين المتعقِّبة في يده، ثم همدت حركتها.

لكنه لم يفلتها، من باب التأكد.

رفع پول بصره فالتقى عيني ميپس الشادوات المتَّسعتين التامَّتي الزُّرقة.

قالت له: «لقد أرسل والدك في طلبك، والحرس ينتظرونك في الرواق لمرافقتك».

أومأ پول وعقله وناظريه يركِّزان على هذه المرأة الغريبة المتدثِّرة بثوبٍ واسع من ثياب الرقيق البُنِّية، التي راحت تحملق الآن إلى الشيء الذي يمسكه في يده.

قالت له: «لقد سمعت عن هذه الأشياء. كانت ستقتلني، أليس كذلك؟».

اضطر پول إلى ابتلاع ريقه قبل أن يجيب: «كنت أنا هدفها».

- «لكنها كانت آتية من أجلي».

- «لأنك كنت تتحرَّكين». ثم سأل نفسه: *من هذه المرأة؟*

قالت: «إذًا أنت أنقذت حياتي».

- «أنقذت حياتينا».

قالت: «يبدو لي أنه كان بإمكانك تركها تنال منِّي وتهرب».

سألها: «من أنتِ؟».

- «أنا ميپس الشادوات، مدبِّرة المنزل».

- «كيف عرفت مكاني؟».

- «أخبرتني أُمُّك. قابلتها عند الدرج المؤدِّي إلى غرفة العجائب في نهاية الرواق»، ثم أشارت إلى اليمين وأردفت: «ما زال رجال والدك في انتظارك».

فكَّر پول: *هؤلاء رجال حوَّاط. يجب أن نعثر على مُشغِّل هذه الآلة.*

قال: «اذهبي إلى رجال أبي وأخبريهم بأنني أمسكت بصيَّادة متعقِّبة في المنزل وأن عليهم الانتشار والبحث على مُشغِّلها. أخبريهم بأن يغلقوا جميع مداخل ومخارج المنزل، وهم سيعرفون ما عليهم فعله. لا بُدَّ أن المُشغِّل دخيلٌ اندس بيننا، وسيسهل إيجاده».

ثم تساءل: *أيمكن أن تكون هذه المخلوقة هي الفاعلة؟* لكنه كان يعلم استحالة ذلك، فالمتعقِّبة كانت تعمل عندما دخلت.

قالت ميپس: «قبل أن أنفِّذ ما طلبت، لا بُدَّ أن أصفِّي ما بيننا أوَّلًا. لقد وضعت عبءَ ماء عليَّ، ولا أعلم إن كنت أستطيع حمله. لكننا معشر الفرمِن نسدِّد ديوننا، سواء أكانت ديونًا سوداء أم بيضاء. نحن نعلم بوجود خائن بين صفوفكم. لا نعرف من هو بالتحديد، لكننا على يقين من ذلك. رُبَّما هو صاحب اليد التي وجَّهت مخترقة اللحم تلك».

استوعب پول كلماتها في صمت: *تقول خائن!* وقبل أن يتفوَّه بشيء، استدارت المرأة الغريبة وهرعت عائدة من حيث أتت.

فكَّر في أن يستدعيها مرَّة أخرى، لكن شيئًا في سلوكها أخبره بأنها ستستاء من ذلك. لقد أخبرته بما تعرف، وهي الآن ذاهبة لتنفيذ أمره. سيَعجُّ المنزل برجال حوَّاط في غضون دقيقة واحدة.

انتقل عقل پول للتفكير في أجزاء أخرى من تلك المحادثة الغريبة: غرفة *العجائب*. ثم نظر إلى اليسار حيث أشارت: *نحن معشر الفرمِن*. إذًا هي من الفرمِن. توقَّف پول للحظة ليحفظ

أنماط تقاسيم وجهها في ذاكرته: ملامح وجهها البُنِّية الداكنة المجعَّدة كالبرقوق المجفَّف، وعينيها المشبَّعتين بزرقة بعضها فوق بعض، بلا أيِّ بياض. ثم ربط الاسم بالوجه: *ميبس الشادوات*.

استدار پول في الغرفة وهو ما زال قابضًا على المتعقِّبة محطَّمةً في يده، واتَّجه إلى سريره والتقط حزام الدرع من فوقه بيده اليسرى، وربطه حول خصره وهو يركض نحو الرواق وعبره بعدها. لقد قالت إن أُمَّه في مكان هنا، قرب الدرج... في *غرفة العجائب*.

علام اتّكأت الليدي چيسيكا في وقت المحنة؟ قد تعينك حكمة البِني چيسيرِت التالية على الفهم إن تأمَّلتها جيِّدًا: «الطريقُ الذي يُسلك بحذافيره إلى نهايته لا يؤدي إلى أيِّ مكانٍ. يكفي تسلُّق جزء صغير من الجبل للتيقُّن من أنه جبل، فمن قِمَّة الجبل لا يُرى الجبل».

من كتاب «المؤدِّب: شروح السيرة العائلية» للأميرة إيرولان.

في كِفاء الجناح الجنوبي، وجدت چيسيكا دَرَجًا لولبيًّا معدنيًّا يصعد إلى بابٍ بيضاوي. ألقت نظرة سريعة خلفها إلى الرواق، ثم رفعت رأسها نحو الباب.

وتساءلت متعجِّبةً: *باب بيضاوي؟ يا له من تصميم غريب لمنزل.*

عبر النوافذ أسفل الدَرَج اللولبي، رأت چيسيكا شمس أرَّاكس البيضاء العظيمة الغاربة. امتدَّت الظلال الطويلة بطول الرواق. أعادت چيسيكا انتباهها إلى الدَرَج، ولاحظت -في أشعة الشمس المائلة- آثار ترابٍ جاف بين تفاريج قضبان الدرجات المعدنية. وضعت چيسيكا يدها على الدرابزين، وبدأت الصعود. شعرت ببرودة المُتَّكأ تحت كفها المنزلقة، ثم توقفت عند الباب ورأت أنه بلا مقبض، لكنها لاحظت في موضع المقبض تجويفًا بسيطًا.

قالت لنفسها: *بالتأكيد ليس هذا «قفل راحة يد»، فتلك الأقفال يجب أن تأخذ شكل كفِّ الشخص والخطوط المحفورة عليها*. لكنه بدا كأنه قفل راحة يدٍ، وثمَّة أساليب مجرِّية تعلَّمتها في المدرسة لفتح أيِّ قفل راحة يد. اختلست چيسيكا نظرة سريعة إلى الوراء

لتطمئن أن أحدًا لا يراقبها، ووضعت كفَّها على تجويف الباب، ضاغطة بأرق لمسة ممكنة لتزيِّف خطوط اليد، ثم أدارت رسغها مرَّة، فثانية، ومسحت بكفِّها السطح الأملس بحركة ملتوية.

شعرت بتكَّة فتح القفل.

لكنها سمعت خطوات مسرعة في الرواق أسفلها، فرفعت يدها عن الباب، والتفتت لترى ميبس تقترب من الدَرَج.

قالت ميبس: «في القاعة الكبرى رجال يقولون إن الدوق أرسلهم لاصطحاب السيِّد الصغير پول. إنهم يضعون شعار الدوقية، وقد تعرَّفهم الحارس»، ثم ألقت نظرة سريعة إلى الباب، وعادت بعدها إلى چيسيكا.

فكَّرت چيسيكا: *إنها امرأة حذرة. هذه علامة جيدة.*

قالت چيسيكا: «إنه في الغرفة الخامسة في نهاية الرواق، غرفة النوم الصغيرة. إن لم تستطيعي إيقاظه، استدعي الدكتور يُوي من الحجرة المجاورة، فقد يحتاج پول إلى حقنة لإيقاظه من تأثير المنوِّم».

مرَّة أخرى، حدَّجت ميبس الباب البيضاوي بنظرها، وشعرت چيسيكا أنها لاحظت اشمئزازًا في تعبير وجهها. لكن قبل أن تستفسر عن الباب وما يخفيه، استدارت ميبس مبتعدةً، تهرول عبر الرواق.

فكَّرت چيسيكا: *لقد أمَّن حوَّاط هذا المكان جيِّدًا. لا يمكن للباب أن يخفي خلفه أيَّ شيءٍ فظيع.*

دفعت چيسيكا الباب، ففُتِح إلى الداخل على حجرة صغيرة، على جدارها المقابل بابٌ بيضاويٌّ آخر مزوَّد بمقبض دائري.

فكَّرت چيسيكا: *باب عازل!* ثم لمحت على أرض الغرفة الصغيرة عصا ساقطة تحمل ختم حوَّاط الشخصي. *لقد أُبقي على الباب الخارجي مفتوحًا بالعصا، ورُبَّما أسقطها أحدهم بالخطأ غير مدرك أنه يُغلق بقفل راحة اليد.*

خطت چيسيكا من فوق العتبة ودخلت إلى المقصورة الصغيرة.

سألت نفسها: *من يضع بابًا عازلًا في منزل؟* وفجأة تخيَّلت مخلوقاتٍ غريبة معزولة في مناخٍ خاص.

مناخ خاص!

هذا منطقيٌّ على أرَّاكس، الكوكب الذي تحتاج فيه النباتات الأكثر تحمُّلًا للجفاف المجلوبة من عوالم أخرى إلى ريٍّ مستمرٍّ.

بدأ الباب خلفها يتحرَّك منغلقًا، فأدركته چيسيكا وأبقت عليه مفتوحًا بالعصا التي تركها حوَّاط، ثم واجهت الباب الداخلي المُغلق بالعجلة، ولاحظت نقشًا باهتًا محفورًا في المعدن فوق المقبض. ميَّزت چيسيكا الكلمات المكتوبة، التي كانت باللغة الچلاكية، فقرأت: «أيُّها الداخل! ستجد هنا عيِّنات بديعة من صنيعة الرَّب، فقف أمامها في تواضع، وتعلَّم أن تذوب حُبًّا في كمال الصديق الأعلى».

مالت چيسيكا بوزنها على العجلة فدارت إلى اليسار وانفتح الباب الداخلي. لمست نسمة هواء خفيفة خدَّيها وداعبت شعرها. شعرت باختلاف في نوعية الهواء، وبرائحة عطرية قوية. فتحت الباب على اتِّساعه، وأطلَّت منه برأسها فرأت كساءً أخضر يانعًا تغمره أشعة شمسٍ صفراء. سألت نفسها: *شمسٌ صفراء، كيف؟* ثم فهمت: *يستخدمون فلاتر ضوئية.*

خطت من فوق العتبة وأُغلق الباب وراءها.

تنفَّست الهواء العليل وقالت: «هذا مشتل زجاجي لنباتات كوكب رطب».

في كل مكانٍ حولها، تناثرت الأشجار المشذَّبة وأُصُص النباتات. ميَّزت نبات الميموسا، والسفرجل المزهر، والسونداجي، والبِلنيسنتا الخضراء المزهرة، والأكارسو المخطَّط بالأبيض والأخضر، وأحواض الورود..

حتَّى الورود!

انحنت جيسيكا لتستنشق عبير زهرة وردية عملاقة، ثم اعتدلت لتتفقَّد الغرفة.

سمعت ضجيجًا رتيبًا استحوذ على اهتمامها.

أزاحت جيسيكا أيكة من الأوراق المتشابكة بيديها، ونظرت من بينها إلى مركز المقصورة، حيث انتصبت نافورة صغيرة منخفضة لها حواف دائرية مُثلَّمة. أما الضجيج الرتيب فكان صوت قوس الماء الذي يفور إلى أعلى قبل أن يسقط مجلجلًا في طستٍ معدني.

أدخلت جيسيكا نفسها في حالة وجيزة لتصفية ذهنها، ثم بدأت تفحص محيط المقصورة بشكلٍ منهجي. كانت مساحتها نحو عشرة أمتار مربعة، ومع الأخذ في الاعتبار مكانها أعلى نهاية الرواق، ومن الاختلافات الطفيفة الواضحة في تصميمها، خمَّنت جيسيكا أنها أُضيفت إلى سطح هذا الجناح بعد مدة طويلة من اكتمال المبنى الأصلي.

توقَّفت عند طرف المقصورة الجنوبي أمام الزجاج الملوَّن العريض، ونظرت حولها. لم تُترك مساحة شاغرة في الغرفة إلا

وُملِئت بالنباتاتٍ الغريبة المجلوبة من مناخ رطب. سمعت چيسيكا حفيفًا آتيًا من وسط الشجيرات فتحفَّزت، ثم لمحت آلية سِرفوك أوتوماتية بسيطة تبرز منها أنابيب وأذرع خراطيم. ارتفعت إحدى الأذرع ورشَّت رذاذًا رطبًا خفيفًا بلَّل وجنتيها، ثم تراجعت الذراع فنظرت چيسيكا إلى ما سقته: كانت شجرة سرخس.

الماء في كل مكان في هذه المقصورة، على كوكبٍ يُعدُّ الماء فيه إكسير الحياة. راعاها إهدار الماء بهذا الشكل إلى درجة زعزت سكونها الداخلي.

نظرت إلى الخارج نحو الشمس الصفراء المنخفضة في الأفق المتعرِّج الذي يعلو المنحدرات التي تشكِّل جزءًا من تكوين الصخور الهائل المعروف باسم الجدار الحامي. فكَّرت چيسيكا: *إنهم يستخدمون الفلاتر الضوئية لتحويل ضوء الشمس الأبيض إلى شيءٍ أنعم وأكثر أُلفة. من الذي شيَّد هذا المكان؟ أهو ليتو؟ لن أتعجَّب إن أراد مفاجأتي بمثل هذه الهدية، لكن لم يكن ثمَّة وقت لذلك، فقد كان مشغولًا بمسائل أكثر جدِّية.*

وتذكَّرت التقرير الذي أفاد بأن منازل كثيرة على أرَّاكس مزوَّدة بأبواب ونوافذ عازلة للحفاظ على الرطوبة الداخلية واستعادتها. قال ليتو إن تجاهل هذا المنزل لمثل هذه الاحتياطات مُتعمَّد، للدلالة على سلطة وثروة قاطنيه، وإن أبوابه ونوافذه كانت مُعدَّة فقط لصدِّ الغبار المنتشر في كل مكان.

لكن هذه الغرفة تجسِّد شيئًا أهم بكثير من مجرَّد غياب عوازل الرطوبة عن الأبواب الخارجية، إذ قدَّرت أن مقصورة المسرَّات هذه تستهلك ماءً يكفي لسدِّ حاجة ألف شخص على أرَّاكس، وربَّما أكثر.

سارت چيسيكا بطول النافذة، مستمرَّةً في تفحُّص المقصورة، واكتشفت وجود سطح معدنيٍّ بارتفاع طاولة بجانب النافورة، ولمحت عليه مفكِّرةً بيضاء وقلمًا تحجبهما جزئيًا ورقة شجر مروحيَّة الشكل. اتَّجهت إلى الطاولة، ولاحظت العلامة التي تركها حوَّاط عليها، وشرعت في قراءة الرسالة المكتوبة في المفكِّرة:

إلى الليدي چيسيكا،

عسى أن يكون هذا المكان قرَّة عينٍ لكِ كما كان لي. أرجو أن تسمحي للغرفة بتذكيرك بالدرس الذي علَّمتنا إيَّاه نفس المعلِّمات: قُرب المرء ممَّا تشتهيه نفسه، يغريه بالانغماس فيه. وفي هذا الدرب يكمن الخطر.

أطيب تمنِّياتي،

الليدي مارجو فنرينج.

هزَّت چيسيكا رأسها وقد تذكَّرت أن ليتو ذكر وكيل الإمبراطور السابق الذي كان يقطن هذا المنزل، الكونت فنرينج. أمَّا الرسالة المخفاة بين السطور فتتطلَّب اهتمامًا فوريًا منها، فهي مُصاغة بطريقة كي تخبرها بأن الكاتبة أخت أخرى من أخوات البِني چيسيرِت. ثم عبرت خاطرة مريرة في ذهن چيسيكا: *الكونت تزوَّج بخليلته*. لكن حتَّى مع مرور هذه الخاطرة في ذهنها، كانت منحنية على الرسالة تبحث عن الفحوى الكامن بين سطورها. لا بُدَّ أنه موجود. تحتوي الرسالة المقروءة على عبارة رمزية يتعيَّن على كل أخت من البِني چيسيرِت تمريرها لأخت أخرى عندما تستدعي الظروف، إن لم يمنعها عن ذلك أمر من المدرسة: «في هذا الدرب يكمن الخطر».

تحسَّست چيسيكا المفكِّرة من الخلف، وفركت سطحها بأصابعها باحثة عن نقاطٍ بارزة، لكنها لم تعثر على شيء. تلمَّست حواف المفكِّرة بأصابعها الحسَّاسة، لا شيء. شعرت بضرورة مُلحَّة چيسيكا لإعادة المفكِّرة حيث وجدتها، ففعلت ذلك في عجالةٍ.

أفي وضعها على السطح دليل؟ هكذا تساءلت.

لكن حوَّاط تفقَّد هذه الغرفة وبالتأكيد حرَّكها من مكانها. نظرت إلى ورقة الشجر التي تعلو المفكِّرة. *الورقة!* مرَّرت إصبعها أسفل سطح الورقة، وبطول حافَّتها وساقها، فوجدت ما تبحث عنه! استشعرت أصابعها النقاط البارزة الدقيقة، ومرَّت عليها قارئةً الفقرة الوحيدة:

«كلٌّ من خليلك الدوق وابنك في خطرٍ محدق. لقد صُمِّمت إحدى غُرف النوم لجذب انتباه ابنك، وقد ملأها "الهاء" بفخاخ مميتة يسهل اكتشافها، لكن واحدًا منها فقط مختلف وقد يتعذَّر كشفه». كبحت چيسيكا الرغبة الجامحة في الإسراع بالعودة إلى پول، فلا بُدَّ من استيعاب الرسالة الكاملة. جرت أصابعها على النقاط: «لا أعرف طبيعة التهديد، لكنه يتعلَّق بالسرير. أما الخطر الذي يهدد خليلك الدوق فيتضمن خيانة أحد الضُبَّاط أو المرافقين الموثوق بهم. يخطِّط "الهاء" بأن يُقدِّموكِ هديَّة إلى أحد عملائهم. حسب علمي، هذا المشتل آمن. سامحيني لأنني لا أستطيع البوح بالمزيد. مصادري قليلة لأن زوجي الكونت غير متواطئ مع "الهاء"». كَتبتُ هذا في عجالة، ميم فاء».

أفلتت چيسيكا الورقة وركضت عائدة إلى پول. في تلك اللحظة، انفتح الباب العازل بقوَّة، ووثب عبره پول وهو يمسك بشيءٍ في

قبضته اليمنى، ثم صفعه خلفه. رأى أُمَّه، فاندفع صوبها مخترقًا الأوراق الكثيفة، وألقى نظرة سريعة إلى النافورة، ثم مدَّ يده بالشيء الذي يقبضه في يده تحت شلَّال الماء الصغير.

- «پول! ما هذا؟»، قالتها چيسيكا وهي تمسكه من كتفه وتحدِّق إلى يده.

تكلَّم الصبيُّ بعفوية كأن الأمر غير مهم، لكنها شعرت بالمجهود الذي يبذله للسيطرة على نبرته: «صيَّادة متعقِّبة. أمسكت بها في غرفتي وحطَّمت مقدِّمتها، لكنني أريد التأكُّد من تعطُّلها. الماء سيفسد دائرتها الكهربائية».

قالت آمرة: «اغمرها بالكامل».

أطاع أمرها.

في النهاية قالت: «اسحب يدك واتركها في الماء».

أخرج پول يده، ونفض عنها الماء دون أن يرفع عينيه عن قطعة المعدن الهامدة الراقدة في قاع النافورة. قطعت چيسيكا ساق أحد النباتات، ونخست به الشظية الفتَّاكة.

كانت هامدة.

ألقت چيسيكا ساق النبات في الماء، ونظرت إلى پول.

كانت عيناه تتفحَّصان الغرفة بنظرة ثاقبة بأسلوب ميَّزته الأمُّ: هذا أسلوب البني چيسيرِت.

قال لها: «يمكن إخفاء أيِّ شيء في هذا المكان».

قالت: «عندي أسباب تدفعني للاعتقاد أنه آمن».

- «كان من المفترض أن تكون غرفتي آمنة كذلك. حوَّاط قال...».

ذكَّرته چيسيكا: «إنها صيَّادة متعقِّبة. هذا يعني أن شخصًا يتحكَّم فيها من داخل المنزل، وبما أن إشارات التحكُّم في المتعقِّبة

محدودة النطاق، فقد تكون نُشِّطت بعدما أنهى حوَّاط فحصه».

لكنها فكَّرت في فحوى الرسالة المتروكة على ورقة الشجرة: «... *خيانة أحد الضُبَّاط أو المرافقين الموثوق بهم». كلا، ليس حوَّاط. أوه، يستحيل أن يكون حوَّاط.*

قال لها: «رجال حوَّاط يفتِّشون المنزل الآن. كادت المتعقِّبة أن تفتك بتلك المرأة العجوز التي جاءت لإيقاظي».

قالت چيسيكا وقد تذكَّرت لقاءها عند الدَرَج: «اسمها ميپس الشادوات، لقد أرسل أبوك في طلبك كي...».

قال پول: «يمكن لهذا أن ينتظر. لماذا تظنين أن هذه الحجرة آمنة؟».

أشارت إلى الرسالة، وشرحت له أمرها.

استرخى جسده قليلًا.

لكن چيسيكا ظلَّت متوتِّرة، وفكَّرت: *صيَّادة متعقِّبة! بحق الأُم الرحيمة!* ثم استجمعت كل ما تلقَّته من تدريب لكبح نوبة من الارتعاش الهستيري.

قال پول بطريقة عملية: «هذا من فعل الهراكنة. علينا أن ندمِّرهم».

ثم سمعا طرقًا على الباب المقصورة. كان ذلك الطرق السري المتَّفق عليه بين جماعة حوَّاط.

صاح پول: «ادخل».

فُتح الباب وأطلَّ منه رجلٌ طويل يرتدي زيَّ آل آتريديز الموحَّد ويحمل شارة حوَّاط على قبَّعته. قال الرجل: «ها أنت ذا يا سيِّدي. قالت مدبِّرة المنزل إنك ستكون هنا»، ثم أجال ناظريه في الغرفة وأردف: «وجدنا جثوة من الحجارة في القبو، وأمسكنا بالرجل

المختبئ فيها. كان يحمل جهاز التحكُّم في المتعقِّبة».

قالت چيسيكا: «أريد المشاركة في استجوابه».

- «معذرة يا سيِّدتي. لقد أوسعناه ضربًا عندما أمسكنا به. لقد مات».

سألته: «أليس من شيء للتعرُّف على هويَّته؟».

- «لم نجد شيئًا بعد يا سيِّدتي».

سأله پول: «أهو من مواطني أرَّاكس؟».

هزَّت چيسيكا رأسها معجبةً بحذاقة السؤال.

قال الرجل: «ملامحه محليَّة، ويبدو من مظهره أنه وُضِع في هذه الجثوة منذ أكثر من شهر، وأُمِر بأن ينتظر قدومنا. كانت الحجارة والملاط اللتان خرج منهما إلى القبو سليمتين عندما فتشنا المكان أمس. أراهن بسمعتي على ما أقول».

قالت چيسيكا: «لا أحد يُشكِّك في دقَّة عملك».

- «أنا أشكِّك فيها يا سيِّدتي. كان علينا استخدام المجسات الصَّوتية».

قال پول: «أفترض أن هذا ما تفعلونه الآن».

- «أجل يا سيِّدي».

- «أرسل لوالدي إفادة بأننا سنتأخَّر».

- «في الحال يا سيِّدي»، ثم نظر إلى چيسيكا بارتباك وأردف: «أوامر حوَّاط أن يُوضع السيِّد الصغير تحت حراسة مشدَّدة في مكانٍ آمن في مثل هذه الظروف»، ومن جديد، تفحَّصت عيناه في الغرفة: «ما وضع هذا المكان؟».

قالت: «لدي أسباب تدفعني للاعتقاد أنه آمن. فحصه حوَّاط، ومن بعده أنا».

- «إذًا سأضع حارسًا على الباب يا سيِّدتي إلى أن ننتهي من فحص المنزل مرَّة أخرى»، قالها وانحنى، ولمس قبَّعته محيِّيًا پول، ثم غادر المقصورة وأغلق الباب وراءه.

كسر پول الصَّمت الذي خيَّم فجأة قائلًا: «أيجدر بنا فحص المنزل بأنفسنا لاحقًا؟ قد تلتقط عيناك ما تعجز عنه أعين الآخرين».

قالت: «هذا الجناح هو المكان الوحيد الذي لم أفحصه، أرجأته للنهاية لأن...».

قاطعها منهيًا الجملة بالنيابة عنها: «لأن حوَّاط أولاه اهتمامه الشخصي».

حدَّجته بنظرة سريعة متسائلة: «أتشك بحوَّاط؟».

- «كلَّا، لكنه كبر في السنِّ، ويجهد نفسه فوق طاقته. بإمكاننا إزاحة بعض العبء عن كاهله».

قالت: «لن يكون ذلك إلَّا مصدرَ خزيٍ له، وسيتسبَّب في إضعاف كفاءته. لن تتمكَّن حشرة ضالة من دخول هذا الجناح بعدما سيسمع بالأمر. سيشعر بالعار لأنه...».

قال لها: «علينا أن نتَّخذ تدابيرنا الخاصة».

قالت: «لقد خدم حوَّاط ثلاثة أجيال من آل آتريديز بشرف، ويستحق كل الاحترام والثقة التي يمكننا أن نضعها فيه.. أضعافًا مضاعفة».

قال پول: «عندما يغضب أبي منك يقول "بِني چيسيرِت" من تحت أسنانه، كأنها سُبَّة».

- «وما الذي يُغضب والدك مني؟».

- «مجادلتك له».

- «أنت لست أباك يا پول».

فكّر پول: يجب *أن أخبرها بما قالته ميپس عن وجود خائنٍ بيننا. سينهشها القلق، لكن ما باليد حيلة.*

سألته چيسيكا: «ماذا تخفي عني يا پول؟ هذا ليس من طبعك».

هزَّ پول كتفيه، وروى لها النقاش الذي دار مع ميپس.

فكَّرت چيسيكا في الرسالة التي على ورقة الشجرة، ثم حسمت قرارها فجأة وعرضت الورقة على پول وأخبرته بفحواها.

قال پول: «يجب أن يعلم والدي بهذا الأمر في الحال، سأكتبها بلغة الشيفرة وأرسلها في برقية».

قالت چيسيكا: «كلَّا، تمهَّل حتَّى تنفرد به شخصيًا وتخبره. يجب الاحتياط كي لا يعلم بشأنها إلَّا أقل القليل».

- «أتعنين أنه لا ينبغي لنا الوثوق بأحد؟».

قالت: «ثمَّة احتمال آخر. رُبَّما قُصد لهذه الرسالة أن تقع في أيدينا. من أرسل إلينا هذه الرسالة قد يكون مؤمنًا بصحَّتها، ولكن قد يكون كل الغرض منها أن تصل إلينا».

ظلَّت ملامح وجه پول متكدِّرةً وجامدةً، ثم قال: «لبثِّ الفتنة والشكوك بين صفوفنا، لإضعاف شوكتنا».

قالت له: «عليك أن تخبر أباك على انفراد، وتحذِّره من هذا الاحتمال».

- «فهمت».

استدارت لتواجه الزجاج المفلتر العريض، وحدَّقت باتِّجاه

الجنوب الغربي حيث شمس أرّاكس الغاربة التي بدت ككرة مصفرَّة دانية على المنحدرات.

استدار پول معها وقال: «أنا مثلك لا أظن أنه حوَّاط. هل من الممكن أن يكون يُوي؟».

قالت چيسيكا: «يُوي ليس ضابطًا ولا مرافقًا، كما أؤكِّد لك أنه يمقت الهراكنة من شغاف قلبه مثلنا».

وجَّه پول اهتمامه إلى المنحدرات، وفكَّر: *ولا يمكن أن يكون جيرني.. أو دانكن. أيمكن أن يكون أحد الضُبَّاط الأدنى رُتبة؟ مستحيل، فكلهم من عائلات موالية لنا منذ أجيال، ولأسبابٍ وجيهة.*

فركت چيسيكا جبينها شاعرةً بالتعب. الخطر في كل مكانٍ هنا. تأمَّلت المشهد المصبوغ بصبغة الزجاج الصفراء. وراء الأراضي الدوقية، امتدَّت ساحة تخزين واسعة مُحاطة بسياجٍ عالٍ، تتراص فيها صفوف من صوامع الاسپايس، ومن حولها أبراج حراسة مشيَّدة على قوائم مرتفعة كأنها عناكب متحفِّزة. استطاعت أن ترى ما لا يقل عن عشرين صومعة تخزين تمتدُّ حتَّى منحدرات الجدار الحامي: صومعة تلو الأخرى، بامتداد منطقة الحوض الصحراوي.

ببطء، غابت الشمس المصفرَّة وراء الأفق، وأطلَّت النجوم على المشهد. رأت نجمًا ساطعًا قريبًا جدًّا من خط الأفق يرتجف ضوءه متلألئًا بإيقاع واضح ودقيق: ومضة.. ومضة.. ومضة.. ومضة.. ومضة...

تململ پول إلى جوارها مع ازدياد عتمة الغرفة في ضوء الغسق الشاحب.

لكن چيسيكا ركَّزت على ذلك النجم الوحيد الساطع، ولاحظت أنه منخفضٌ جدًا إلى درجة تشير إلى أن ضوءه قادمٌ من بين منحدرات الجدار الحامي.

إنها إشارة! أحدهم يرسل إشارة!

حاولت أن تقرأ الرسالة، لكنها لم تكن مشفَّرة بأيٍّ شيفرة تعلَّمتها.

امتلأ السهل أسفل المنحدرات بأضواءٍ أخرى: أضواء صفراء صغيرة متناثرة في الظلام الأزرق. إلى يسار تلك الأضواء الصغيرة، بدأ ضوءٌ يومض بقوَّة ردًا على الضوء الآتي من الجرف: بريق، فلمعان، فومضة!

ثم اختفى.

وعلى الفور اختفى وميض النجم الكاذب من الجرف.

ملأتها تلك الإشارات بالهواجس.

سألت چيسيكا نفسها: *لِمَ يستخدمون الأضواء لتبادل الإشارات عبر الحوض؟ لِمَ لا يستخدمون شبكة الاتصالات؟*

كان الجواب واضحًا: الاتِّصالات الآن خاضعة لرقابة عملاء الدوق ليتو، لذا الإشارات الضوئية لا يمكن أن تعني إلَّا شيئًا واحدًا فقط: إنها رسائل متبادلة بين أعدائه، بين عملاء الهراكنة.

سمعا نقرًا على الباب من خلفهما، وجاءهما صوت أحد رجال حوَّاط يقول: «كل شيء آمن يا سيِّدي ويا سيِّدتي. حان وقت إيصال السيِّد الصغير إلى والده».

> يُقال إن الدوق ليتو غض الطَّرف عن مخاطر أرَّاكس بمحض إرادته، وإنه سار بتؤدة إلى الهاوية غير مبالٍ. لكن أليس من الأحرى بنا قول إنه عاش أغلب حياته في كنف مخاطر محدقة، إلى درجة قد يكون أساء معها التقدير حين ازدادت حِدَّة الخطر؟ أو رُبَّما يكون قد ضحَّى بنفسه عامدًا كي يعيش ابنه حياةً أفضل؟ فجميع الدلائل تشير إلى أن الدوق لم يكن رجلًا يسهل خداعه.
>
> من كتاب «المؤدِّب: شروح السيرة العائلية» للأميرة إيرولان.

مال الدوق ليتو آتريديز إلى حاجز شرفة برج المراقبة في الميناء الفضائي الرَّابض خارج حدود مدينة أراكين. كان قمر أرَّاكس الأوَّل معلَّقًا في سماء الليل كعملة فِضِّية فوق الأُفُق الجنوبي. أسفله، وعبر الضباب الغباري، تألَّقت قمم منحدرات الجدار الحامي الحادَّة البيضاء كأنها مكسوَّة بطبقة من كريمة السكَّر. وإلى اليسار، توهَّجت أضواء مدينة أراكين عبر الضباب بألوانٍ صفراء.. وبيضاء.. وزرقاء.

كانَ ليتو يفكِّر في المنشورات الممهورة بتوقيعه التي وُزِّعت في جميع الأماكن المكتظَّة بالسكان على الكوكب، والتي تقول: «سلَّمني إمبراطورنا الباديشاه المعظَّم مقاليد حُكم هذا الكوكب، وكلَّفني بإنهاء النزاعات كافَّةً».

لمس الدوق في صيغة المنشور الرسمية شيئًا من الوحشة. *من سينخدع بهذا التقيُّد السخيف بالشرعية؟ بالتأكيد ليس الفرمِن، ولا العائلات الصغيرة التي تتحكَّم في التجارة الداخلية*

على أرّاكس.. تلك الطفيليّات التي يدين كل فردٍ منها تقريبًا بالولاء للهراكنة.

لقد حاولوا قتل ابني!

كان من الصعب كبح جماح الغضب الذي يشتعل بداخله.

شاهد ليتو ضوء مصابيح مركبة أرضية تقترب من ميدان الهبوط قادمة من أراكين. تمنّى أن تكون حاملة الحرس والجنود التي ستُحضر پول إليه. كان التأخير مقلقًا، لكنه كان يعلم أنه بسبب حيطة وحذر الضّابط الذي يعمل تحت إمرة حوّاط.

لقد حاولوا قتل ابني!

هزّ رأسه لنفض الأفكار المُحنِقة عنه، وعاد ببصره إلى أرض المهبط التي تنتشر خمس من فرقاطاته على أطرافها كأنها مراكز حراسة متراصة.

تأخيرٌ حذر أفضل من...

ذكّر ليتو نفسه بأن الضّابط المرافق لابنه مشهودٌ له بالكفاءة، وفي طريقه إلى الترقّي. *لطالما كان مخلصًا تمامًا*.

«إمبراطورنا الپاديشاه المعظّم...».

آهٍ لو رأى أهل هذا الحامية البائسة الملاحظة الشخصية التي تركها الإمبراطور لـ«دوقه النبيل»، وقرؤوا تلميحاته التي تزدري الرجال والنساء الملثّمين: «... ولكن ما الذي قد يتوقّعه المرء من برابرة همجيين أقصى أمانيهم هي العيش خارج نطاق الأمان المنظّم الذي يوفّره نظام فارفلوشس الطبقي؟».

شعر الدوق في هذه اللحظة أن أعز أمانيه هو القضاء على جميع الفروق الطبقية وعدم التفكير مرة أخرى في مثل هذا النظام الطّاحن. رفع بصره إلى السماء ونظر عبر الغبار إلى

بريق النجوم الثابت، وفكَّر: *حول احد تلك الأضواء الصغيرة يدور كلادان... لكنني لن ارى وطني مرَّةً اخرى.* باغتته وخزة حنين إلى كلادان، لكنه لم يشعر بأنها نابعة من صدره، بل كأنها قطعت طريقها قادمة إليه من كلادان. لم يستطع حمل نفسه على الشعور بأن هذا الكوكب القاحل الجاف وطنه، وشك في أنه قد يشعر بذلك يومًا.

ثم فكَّر: *عليَّ إخفاء مشاعري حرصًا على مصلحة الصبيّ. إن قُدِّر أن يكون له وطنٌ، فبالتاكيد سيكون هذا. رُبَّما ارى في أرّاكس جحيمًا أُلقيت فيه قبل موتي، لكن لا بُدَّ له أن يجد هنا ما يشجِّعه ويلهمه. حتمًا يُوجد شيء.*

اعترته موجة من الرثاء للنفس، لكنه احتقرها ونبذها على الفور، فمرَّت من خلاله دون أن تمسَّه بسوء، ولسببٍ ما وجد نفسه يتذكَّر بيتي قصيدة كثيرًا ما كان جيرني يردِّدهما:

«تتذوَّق رئتاي هواء الزمن

الهابّ على بحارٍ من رمال...».

حسنًا، سيجد جيرني كثيرًا من بحار الرمال هنا، هكذا فكَّر الدوق. الأراضي القاحلة الواقعة خلف تلك المنحدرات التي يكسو القمر قممها بضيائه محض صحراء، لا شيء فيها سوى صخورٍ وعرةٍ وكثبان ورياح محمَّلة بالغبار. يهماء جرداء مجهولة، تتناثر بؤر الفرمِن مبعثرةً على أطرافها، ورُبَّما في عمقها أيضًا. إن كان من شيءٍ سيؤمِّن مستقبل آل آتريديز، فهم الفرمِن.

هذا بفرض أن الهراكنة لم ينجحوا بالفعل في إصابة الفرمِن بعدوى مخطَّطاتهم السامَّة.

لقد حاولوا قتل ابني!

سـرى رنيـنٌ معدنـي عـالٍ فـي أوصـال البـرج، ارتـجَّ لـه حاجـز الشـرفة الـذي يتَّكـئ عليـه. سـقطت سـدائل الوقايـة مـن وهـج وقـود الصواريـخ المحتـرق وحجبـت عنـه الرؤيـة.

فكَّـر الـدوق: *المكُّـوك قـادم. حـان وقـت النـزول وبـدء العمـل.* استدار إلـى السُـلَّم خلفـه، وبدأ يهبطـه متَّجهًا إلى غرفـة الاجتماعات الكبيـرة وهـو يحـاول الحفـاظ علـى هدوئـه وتعابيـر وجهـه للقـاء المرتقـب.

لقد حاولوا قتل ابنـي!

وحيـن وصـل إلـى الغرفـة ذات القبَّـة الصفـراء كان الرجـال يتوافـدون بالفعـل مـن المهبـط، يحملـون حقائبهـم الفضائيـة علـى أكتافهـم، ويعربـدون ويصيحـون كأنهـم طـلَّاب عائديـن مـن إجـازة.

- «يـا هيـاه! أتشـعر بهـذا الثقـل تحـت قدميـك؟ إنهـا الجاذبيـة يـا رجـل!»، «كـم تبلـغ قـوَّة جاذبيـة هـذا الكوكـب؟ أشـعر بأننـي ثقيـل»، «تسـعة أعشـار الجاذبيـة القياسـية».

امتلأت الغرفة الكبيرة بالهرج والصياح المتبادل.

- «هـل رأيـت هـذا المـكان اللعيـن فـي أثنـاء هبوطنـا؟ أيـن كل تلـك المغانـم التـي يُفتـرض أن يحتـوي عليهـا؟»، «أخذهـا الهراكنـة معهـم!»، «أحتـاج إلـى حمَّـامٍ دافـئ وفـراشٍ وثيـر»، «ألـم تسـمع بعـد أيُّهـا الأحمـق؟ لا يُوجـد مـاء هنـا. ستمسـح مؤخِّـرتك بالرمـال»، «صـه! أغلـق فمـك! الـدوق هنـا!».

خطـا الـدوق إلـى الحجـرة مـن مكانـه عنـد المدخـل، فعـمَّ الصَّمـت الغرفـة فـي الحـال.

هـرول جيرنـي هاليك مخترقًا الحشـد حامـلًا حقيبتـه علـى كتفـه، ممسـكًا بعنق الباليسِـت ذات الأوتـار التسـعة فـي اليـد الأخـرى. كانـت أصابـع يديـه طويلـة وإبهامـاه كبيـران، لكنهـا جميعًـا ماهـرة رشـيقة فـي حركاتهـا، وقـادرة علـى اسـتخراج أعـذب الألحـان طـرًّا من الباليسِـت.

راقـب الـدوق هاليـك قبيـح المظهـر بنظـرة إعجـاب، ملاحظًـا عينيـه الحادَّتيـن كشـظايا الزجـاج التـي يلتمـع فيهمـا ذكاءٌ وحشـي. هـا هـو رجـلٌ عـاش حياتـه خـارج نظـام فارفلوشـس الطبقـي، ورغـم ذلـك يطيـع كل قواعـده. بِـمَ وصفـه بـول؟ «جيرنـي *الشـجاع*».

كان شـعر جيرنـي الأشـقر الناعـم ينتشـر علـى البقـع الصلعـاء فـي رأسـه، وعلـى فمـه الواسـع ارتسـمت ابتسـامةٌ لطيفـةٌ بـدت معهـا نُدبـة سـوط الإنكفايـن التـي تقطـع فكّـه كأن لهـا حياتهـا الخاصَّـة. كان فـي مظهـره العفـوي الواثـق مـا يُوحـي بالكفـاءة والمهـارة. اقتـرب هاليـك مـن الـدوق وانحنـى.

ردَّ ليتـو التحيَّـة: «جيرنـي».

أشـار جيرنـي بيـده الممسـكة بالباليسِـت إلـى الرجـال فـي الغرفـة: «سيِّـدي، هـذه هـي الدفعـة الأخيـرة. كنـت أفضِّـل القـدوم مـع الموجـة الأولـى لكـن...».

قـال الـدوق: «لا تقلـق، تركـت لـك بعـض الهراكنـة. تعـال يـا جيرنـي، أريـد التحـدُّث معـك».

- «رهـن إشـارتك يـا سيِّـدي».

انتقـلا إلـى خلـوة بجانـب آلـة ميـاه كهربائيـة، ريثمـا راح الرجـال يهرجـون فـي الغرفـة الكبيـرة بـلا هـوادة. أسـقط هاليـك الحقيبـة عـن كتفـه فـي أحـد الأركان، وظـلَّ ممسـكًا بالباليسِـت.

سـأله الـدوق: «كـم رجـلًا مـن رجالـك تسـتطيع تركـه لحـوَّاط؟».

- «أظفير في ورطة يا سيِّدي؟».

- «لم يفقد سوى رجلين، لكن رجاله الذين سبقونا قدَّموا لنا معلومات وافية عن شبكة الهراكنة هنا. لو تحرَّكنا سريعًا قد نستطيع توفير بعض الاستقرار الأمني، ما سيمنحنا المتنفَّس الذي نريد. إنه يحتاج إلى أكبر عدد ممكن من الرجال الذين تستطيع الاستغناء عنهم، رجال لن يحجموا عن المشاركة في بعض العراك بالسكِّين».

قال هاليك: «سأعطيه ثلاثمئة من أفضل رجالي. إلى أين أرسلهم؟».

- «إلى البوَّابة الرئيسة، وكيله ينتظرهم هناك».

- «هل أرسلهم على الفور يا مولاي؟».

- «بعد قليل. لدينا مشكلة أخرى يجب معالجتها أوَّلًا. سيختلق قائدنا الميداني ذريعةً ما للإبقاء على المكوك هنا حتَّى الفجر. الهايلاينر التابعة للنقابة التي جئنا على متنها ستمضي إلى حال سبيلها، أمَّا المكُوك فمن المفترض أن يلتحم بسفينة شحن على متنها حمولة من الاسپايس».

- «الاسپايس الذي نملكه يا مولاي؟».

- «هو بعينه يا جيرني. لكن المكُوك سيحمل على متنه أيضًا بعض صائدي الاسپايس من النظام القديم. لقد اختاروا المغادرة مع تغيير الإقطاعية، وقد سمح لهم قاضي الفترة الانتقالية بذلك. هؤلاء عمَّال ذوو قيمة يا جيرني، نحو ثمانمئة منهم. يجب أن تستميل بعض هؤلاء الرجال وتقنعهم بالانضمام إلينا قبل مغادرة المكُوك».

- «ما مدى قوَّة الإقناع التي تريد استخدامها يا مولاي؟».

- «أريد تعاونهم الطوعي يا جيرني. يمتلك هؤلاء الرجال الخبرة والمهارات التي نحتاج إليها، ومغادرتهم تشير إلى أنهم ليسوا جزءًا من آلة الهراكنة. يعتقد حوَّاط أن بعض العملاء قد يكونون مُندَّسين في المجموعة، لكن حوَّاط رجلٌ كثير الارتياب، يرى قتلةً تحت كل حجر».

- «على مدار تاريخه، قلب حوَّاط أحجارًا كثيرة وأخرج مصائب من تحتها يا سيِّدي».

- «ومع ذلك أخفق في اكتشاف بعضها، لكنني أرى أن زرع خلايا نائمة في هذه الزمرة المغادرة أمرٌ يفوق ذكاء الهراكنة».

- «رُبَّما يا سيِّدي. أين أولئك الرجال؟».

- «في غرفة الانتظار في الطابق السفلي. أقترح أن تهبط وتعزف لهم مقطوعة أو اثنتين لتلطيف الجو أوَّلًا، ثم تبدأ الضغط. اعرض على المؤهَّلين منهم مناصب قيادية، وعلى الجميع زيادة في الأجر بنسبة عشرين بالمئة على ما كانوا يتقاضونه من الهراكنة».

- «عشرون بالمئة فحسب يا مولاي؟ لقد اطلعت على جداول الأجور التي يدفعها الهراكنة. هؤلاء الرجال جيوبهم ممتلئة بمكافأة نهاية الخدمة، وفي قلوبهم نزعة وشهوة للسفر والتجوال، لا أظن أن عشرين بالمئة ستكون حافزًا كافيًا لإقناعهم بالبقاء يا سيِّدي».

قال ليتو بنفاد صبر: «تصرَّف وفقًا لما تراه مناسبًا مع بعض الحالات. فقط تذكر أن الخزانة لها قعر، وتمسَّك بنسبة العشرين بالمئة قدر استطاعتك. نحتاج إلى عرَّافي الطقس وسائقي مركبات الاسبايس ورجال الكثبان خصوصًا، ممَّن لديهم خبرة ميدانية في الصَّحراء».

- «فهمت يا سيِّدي. "وسيأتون جميعًا للبطش، برؤوسٍ مرفوعة في شموخ كالرياح، وسيجمعون سبيًا كالرمال"[1]».

قال الدوق: «اقتباس مؤثِّر في محلِّه. اترك فريقك تحت قيادة أحد الضُبَّاط، واطلب منه أن يعطيهم تدريبًا قصيرًا على انضباط الماء، ثم بيِّت الرجال الليلة في الثكنات المجاورة للساحة. سيرشدهم إليها عُمَّال المهبط. ولا تنس رجال حوَّاط».

- «ثلاثمئة من أفضل رجالي يا مولاي»، قالها هاليك ثم التقط حقيبته الفضائية وأردف متسائلًا: «أين أجدك لأقدِّم تقريري إليك عند الانتهاء من مهامي؟»

- «اتَّخذت قاعة الاجتماعات في الطابق العلوي من البرج مقرًّا لي. سنعقد اجتماعاتنا هناك. أريد وضع خطَّة انتشار كوكبية جديدة تتقدَّمها الفرق المدرَّعة».

همَّ هاليك بالمغادرة لكنه توقَّف فجأة، وحدَّق إلى ليتو: «هل تتوقَّع مثل هذا النوع من القلاقل يا مولاي؟ ظننت أن قاضي الفترة الانتقالية يشرف على الأمور».

قال الدوق: «أتوقَّع حربًا مفتوحة وأخرى سرِّية. دماءٌ كثيرة ستُراق هنا قبل أن يستقر لنا الحُكم».

قال هاليك مستشهدًا: "فيصير الماء الذي تأخذه من النهر دمًا على اليابسة"[2]».

تنهَّد الدوق وقال: «سارع بالعودة يا جيرني».

قال: «سمعًا وطاعة يا سيِّدي»، وتموَّجت نُدبة السوط مع ابتسامته وهو يضيف: «"اشهدوا، ها أنا كالحمار البرِّي في

---

(1) اقتباس من سفر حبقوق، الإصحاح الأوَّل، آية 9 (بتصرُّف).

(2) اقتباس من سفر الخروج، الإصحاح الرَّابع، آية 9.

الصَّحراء، أخرج إلى عملي"[1]»، ثم استدار وأسرع إلى مركز الغرفة حيث يتجمَّع الرجال، وتوقَّف ليعطي أوامره، ثم اخترق صفوفهم مغادرًا.

هزَّ ليتو رأسه في إعزاز. إن هاليك لدهشة مُستمرَّة تمشي على قدمين. رأسه مملوء بالأغنيات والاقتباسات والعبارات المنمَّقة، وقلبه قلب قاتل حين يتعلَّق الأمر بالهراكنة.

في النهاية، سار ليتو إلى المصعد بتؤدة وهو يردُّ تحيَّات الجنود بحركة عابرة من يده. ثم تعرَّف على جندي الشؤون المعنوية وتوقَّف ليعطيه رسالة ليمرِّرها إلى الرجال بالطرق المعتادة: فمنهم من أحضروا نساءهم معهم ويريدون التأكُّد من سلامتهن وسهولة الوصول إليهن، أما الآخرون فسيُسرُّون لمعرفة أن عدد النساء هنا أكثر من الرجال.

ربَّت الدوق على كتف رجل الشؤون المعنوية، في إشارة إلى أن للرسالة أولوية قصوى ويجب تمريرها على الفور، ثم واصل طريقه عابرًا الغرفة وهو يُومئ ويبتسم ويتبادل المزاح مع الرجال.

فكَّر الدوق: *على القائد أن يبدو واثقًا دائمًا. يضع الجنود كل ثقتهم في قائدهم في الوقت الذي تملأ قلبه الشكوك ولا يُظهر منها شيئًا.*

تنفس ليتو الصعداء عندما ابتلعه المصعد، واستدار ليواجه بوَّابته غير المبالية التي لا تثقله بشيء.

لقد حاولوا قتل ابني!

(1) اقتباس من سفر أيُّوب، الإصحاح الرَّابع والعشرون، آية 5 (بتصرُّف).

فوق مدخل ميناء أراكين الفضائي عبارة منقوشة بخطٍّ خشن، كأنها حُفرت بأداة رديئة. على مدار حياته، اقتبس المؤدِّب هذه العبارة مرَّات عِدَّة، وقد رآها للمرَّة الأولى في أوَّل ليلة له على أرَّاكس، بعدما استُدعِيَ إلى مقرِّ قيادة الدوقية للمشاركة في أوَّل اجتماع عقده والده لضُبَّاط أركان مجلسه العسكري. الكلمات المنقوشة كانت رجاءً موجَّهًا لمن يغادر أرَّاكس، لكن كان لها وقعًا كئيبًا في نفس الصبيِّ الذي نجا لتوِّه من الموت. تقول العبارة: «يا من لمست قدر معاناتنا هنا، لا تنسانا من صالح دعائك».

من كتاب «دليل المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

قال الدوق: «إن فكرة الحرب برمَّتها مخاطرة محسوبة. لكن عندما يُحدِق الخطر بأسرتك، لا يعود للحسابات أهمِّية أمام الاعتبارات الأخرى».

كان يعلم أنه لا يسيطر على غضبة كما ينبغي له، فاستدار، راح يذرع طاولة الاجتماعات الطويلة ذهابًا وإيابًا.

كان الدوق وبول وحدهما في غرفة اجتماعات الميناء الفضائي. كانت الغرفة خالية إلا من طاولةٍ طويلة، تحيط بها مقاعد قديمة الطراز بثلاث أرجل، وخريطة لوحية، ومسلاط ضوئي في أحد الأركان. جلس بول إلى الطاولة بالقرب من الخريطة. كان قد أخبر والده بتفاصيل حادثة الصيَّادة المتعقِّبة، وقال له إن التهديد مصدره خائن بين صفوفهم.

توقَّف الدوق في مقابلة پول، وضرب الطاولة بقبضته قائلًا: «حوَّاط أخبرني أن المنزل آمن!».

تكلَّم پول بتردُّد: «كنت غاضبًا مثلك.. في البداية، وألقيت اللوم على حوَّاط. لكن التهديد جاء من خارج المنزل، وكان بسيطًا وذكيًا ومباشرًا، وكان سينجح لولا التدريب الذي تلقَّيته على يدك وعلى أيدي آخرين كُثُر.. منهم حوَّاط».

سأله الدوق مستهجنًا: «أتدافع عنه؟».

- «أجل».

- «إنه يشيخ. هذا يكفي، عليه أن...».

قال پول: «إنه حكيم ولديه خبرة طويلة. كم خطأً تتذكَّر لحوَّاط؟»

قال الدوق: «أنا الذي يجب أن أدافع عنه، لا أنت».

ابتسم پول.

جلس ليتو إلى رأس الطاولة، ووضع يده فوق يد ابنه وقال: «لقد.. نضجت مؤخَّرًا يا بُني»، ثم رفع يده: «وهذا يسعدني». ثم رسم ابتسامة مماثلة لابتسامة پول: «حوَّاط سيعاقب نفسه بنفسه على هذا الأمر. سيصب من الغضب على نفسه ما يفوق أيَّ غضبٍ قد يصبُّه كلانا عليه».

نظر پول إلى النوافذ المعتمة وراء الخريطة اللوحية، وحملق في سواد الليل. انعكست أضواء الغرفة على درابزين الشرفة في الخارج، ولاحظ حركة هناك، ثم أدرك أنه أحد الحرَّاس في زيِّ آل آتريديز الرسمي. أعاد پول بصره إلى الجدار الأبيض خلف أبيه، ثم خفضه رامقًا سطح الطاولة اللامع، ومنه إلى يديه المضمومتين في قبضتين عليه.

انفتح الباب المقابل للدوق بقوَّة، ودخل منه حوَّاط، وقد بدت عليه علامات السن والإجهاد أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. أسرع المِنتات الخُطى بطول الطاولة، وتوقَّف في وضع انتباه أمام ليتو.

قال حوَّاط وهو ينظر إلى نقطة فوق رأس ليتو: «مولاي، علمت لتوِّي أنني خذلتك، وصار من الضروري الآن أن أقدِّم استقا...».

قاطعه الدوق وهو يشير إلى المقعد المقابل لپول: «اجلس وكفَّ عن تصرُّفات الحمقى. إذا كنت ارتكبت خطأً، فهو المبالغة في تقدير ذكاء الهراكنة. لم تتفتَّق عقولهم البدائية إلا على حيلة بدائية، ونحن لم نضع في حسباننا الحيل البدائية. لقد بذل ابني جهدًا كبيرًا لإقناعي أن نجاته من هذا الموقف تعود بنسبة كبيرة إلى التدريب الذي تلقَّاه على يديك، وفي هذا أنت لم تخذلني!». أنهى الدوق كلامه وخبط على المقعد الخالي مكرِّرًا: «قلت لك اجلس!».

غاص حوَّاط في المقعد: «لكن...».

قال الدوق: «لا أريد سماع المزيد. لقد مرَّ الحادث على خير، ولدينا الآن أعمال أهم. أين البقية؟».

- «طلبت منهم الانتظار في الخارج لحين...».

- «استدعيهم».

نظر حوَّاط في عيني ليتو وقال: «سيِّدي أنا...».

قال الدوق: «أعرف من هم أصدقائي الحقيقيون يا ظفير. استدع الرجال».

ابتلع حوَّاط ريقه وقال: «في الحال يا مولاي»، ثم استدار بالمقعد، ونادى باتِّجاه الباب المفتوح: «جيرني، أدخلهم». قاد هاليك طابور الرجال إلى الغرفة. كانت الجدِّية بادية في ملامح

ضُبّاط الأركان الصارمة، بينما انتشرت حالة من الحماس بين المساعدين والخبراء الأصغر. تعالت أصوات جر المقاعد في الغرفة في أثناء ما كان الرجال يجلسون، وانبعثت من الطاولة رائحة خافتة لمادة الرَّاشاج المُنبِّهة.

قال الدوق: «تُوجد قهوة لمن يريدها».

ثم أمعن في رجاله مفكِّرًا: *إنه فريقٌ جيِّد. يمكن للمرء أن يرضى بأقل من ذلك بكثير في هذا النوع من الحروب.* انتظر ليتو ريثما تُجلب القهوة من الغرفة المجاورة وتُقدَّم، ولاحظ التعب البادي على بعض الوجوه. في النهاية، وضع قناع الحزم الهادئ على وجهه، ونهض لافتًا انتباههم بنقرة من إصبعه على الطاولة.

قال: «حسنًا أيُّها السَّادة، يبدو أن حضارتنا قد سقطت في بئر التناحر إلى درجة لا نستطيع معها تنفيذ أمرٍ إمبراطوريٍّ بسيط من دون أن تطفو إلى السطح العادات القديمة».

ضجَّت الطاولة بقهقهاتٍ جافة، فأدرك پول أن والده قال العبارة المناسبة تمامًا بالنبرة المناسبة تمامًا لرفع الروح المعنوية وتحسين المزاج العام. حتَّى نبرة الإرهاق في صوته كانت مناسبة.

قال الدوق: «أرى أنه من الأفضل في البداية أن نعرف من ظفير إن كان لديه أيُّ شيءٍ يضيفه إلى تقريره عن الفرمِن. ظفير؟».

رفع حوَّاط بصره عن الأوراق وقال: «أريد التحدُّث بالتفصيل عن بعض المسائل الاقتصادية بعد تقديم تقريري العام يا سيِّدي، لكن بإمكاني القول الآن إن الفرمِن هم بالفعل الحلفاء الذين نحتاج إليهم. إنهم يراقبون تصرُّفاتنا في الوقت الحالي ليعرفوا ما إن كان بإمكانهم الوثوق بنا، لكنهم يتعاملون معنا بانفتاح وصراحة. لقد أرسلوا لنا هديَّة: مجموعة من بذلات التقطير التي يصنعونها، وخرائط لبعض

المناطق الصحراوية المحيطة بالنقاط الحصينة التي تركها الهراكنة»، ثم ألقى نظرة إلى التقرير وأردف: «ساعدتنا تقاريرهم الاستخبارية بصورة ملحوظة في تعاملنا مع قاضي الفترة الانتقالية، وثبت أنه يمكن الاعتماد عليها تمامًا. بالإضافة إلى أنهم أرسلوا إلينا أيضًا بعض الأغراض الثانوية الأخرى: جواهر لليدي جيسيكا، وخمر ممزوج بالاسبايس، وبعض الحلوى، وإمدادات طبية. يعكف رجالي الآن على فحص أغراض كثيرة، ويبدو أن الأمر لا ينطوي على مكيدة من أيِّ نوع».

سأل رجل من طرف الطاولة الآخر: «أنت معجب بهؤلاء القوم، أليس كذلك يا ظفير؟».

أدار حوَّاط وجهه للسائل وأجاب: «دانكن آيداهو يقول إنهم جديرون بالإعجاب».

ألقى پول نظرة سريعة إلى والده، ثم عاد ببصره إلى حوَّاط، وغامر بطرح سؤال: «هل حصلت على أيِّ معلومات جديدة عن أعداد الفرمن؟».

نظر حوَّاط إلى پول وقال: «استنادًا إلى كمِّيات الطعام المستهلك وبعض الأدلة الأخرى، يقدِّر آيداهو أن المجمَّع الكهفي الذي زاره يأوي نحو عشرة آلاف شخص في المجمل. يقول قائدهم إنه يحكم سييتشًا يضم ألفي مجمرة فحم. لدينا أسباب تجعلنا نعتقد بوجود عدد كبير جدًا من هذه المجتمعات، وجميعها تدين بالولاء لشخص يُدعى لييِّت».

قال ليتو: «هذه معلومة جديدة».

- «قد يكون هذا خطأً مني يا مولاي، فثمَّة ما يُشير إلى أن لييِّت هذا إلهٌ محلِّي يعبدونه».

تنحنح رجلٌ آخر عبر الطاولة وسأل: «أصحيح أنهم يتعاملون مع المهرِّبين؟».

- «في أثناء وجود آيداهو هناك، غادرت قافلة مهرِّبين تحمل حمولةً كبيرةً من الاسبايس من السييتش. كان معهم قطيع دواب يستخدمونه في نقل الحمولة، وأشاروا إلى أنهم بصدد رحلة تستغرق ثمانية عشر يومًا».

قال الدوق: «من الواضح أن المهربين استغلّوا فترة الاضطرابات الجارية وضاعفوا عدد عملياتهم، وهذا أمر يستلزم منا المراقبة بعناية. لا ينبغي لنا أن نقلق أكثر من اللازم بشأن الفرقاطات غير المرخَّصة التي تعمل خارج الكوكب، فهذا يحدث دائمًا، لكن يجب ألَّا نجعلهم خارج نطاق مراقبتنا بالكامل، فهذا ليس في صالحنا».

سأله حوَّاط: «ألديك خطَّة يا سيِّدي؟».

نظر الدوق إلى هاليك وقال: «جيرني، أريدك أن تترأَّس وفدًا، هيئةً من الممثلين الدبلوماسيين إن جاز التعبير، وتذهب للقاء رجال الأعمال الحالمين هؤلاء. أخبرهم أنني سأغضُّ الطرف عن عملياتهم ما داموا سيدفعون ضريبة العُشر للدوقية. تقرير حوَّاط يقول إن الرُّشى التي يدفعونها لإتمام عملياتهم، والمرتزقة الذين يستأجرونهم لحمايتها، تكلِّفهم أربعة أضعاف هذا المبلغ».

سأل هاليك: «ماذا لو شمَّ الإمبراطور خبرًا بالأمر؟ إنه شديد الحرص على أرباحه من تشوم يا سيِّدي».

ابتسم ليتو وقال: «سنجمع ضريبة العُشر باسم شادام الرابع، وسنخصم قيمتها قانونيًا من تكلفة الجباية التي ندفعها له، وسلِّم لي وقتها على الهراكنة! بهذا سنقضي على مزيد من الأثرياء المحلِّيين الفاسدين الذين امتلأت بطونهم بالسُّحت في ظلِّ نظام الهراكنة. لا مزيد من الكسب غير المشروع!».

تلاعبت ابتسامة على ثغر هاليك وقال: «ضربة موفّقة تحت الحزام يا مولاي. كم أود أن أرى وجه البارون حين يعلم بالأمر».

التفت الدوق إلى حوّاط وقال: «ظفير، هل حصلت على دفاتر الحسابات التي قلت إن بإمكانك شراؤها؟».

- «أجل يا مولاي. إنها تُراجع بدقّة الآن، لكنني تصفّحتها سريعًا، وأستطيع تقديم تقدير مبدئي عنها».

- «هات ما عندك».

- «أرباح الهراكنة من هذا الكوكب تصل إلى 10 مليارات سولاري كل 330 يومًا قياسيًا».

ففرت الأفواه في صمت حول الطاولة. حتّى المساعدون الشباب الذين كانوا قد بدؤوا يشعرون ببعض الملل اعتدلوا في جلساتهم وتبادلوا نظراتٍ مشدوهة.

تمتم هاليك: «"وسيستخرجون خيرات البحار والكنوز المطمورة في الرمال"[1]».

قال ليتو: «كما ترون يا سادة، هل بينكم ساذج ما زال يظن أن الهراكنة حزموا أمتعتهم ورحلوا بهدوء فقط لأن الإمبراطور أمر بذلك؟».

اهتزت معظم الرؤوس نافيةً، وسرت الهمهمات تصدّق على كلامه.

قال ليتو: «سنضطر إلى استلاب المغانم بحدّ السيف»، ثم التفت إلى حوّاط قائلًا: «وأرى أن هذا مدخلٌ جيّد للاستماع إلى تقريرك عن المعدات. أخبرنا كم زحّافة رمال وحصّادة عملاقة ومصنع اسپايس ومعدّة دعم تركوا لنا؟».

---

(1) سفر التثنية، الإصحاح الثّالث والثلاثون، آية 19 (بتصرُّف)

قال حوَّاط: «تركوا خلفهم عتادًا كاملًا، كما ورد في قوائم الجرد الإمبراطورية التي راجعها قاضي الفترة الانتقالية يا مولاي»، ثم أشار إلى أحد المساعدين كي يمرِّر له ملفًا، وفتح الملف على الطاولة أمامه، وبدأ يقول: «لكن القوائم لم تذكر أن عدد الزحّافات القابلة للتشغيل أقل من النصف، وأن ثلثها تقريبًا فقط لها حاملات جوّية لنقلها إلى مواقع الاسپايس في الصَّحراء، وأن كل ما تركه لنا الهراكنة خردة على وشك التعطُّل والتفكُّك. سنكون محظوظين إن نجحنا في تشغيل نصف المعدَّات، وسنكون أكثر حظًّا إن ظل ربعها يعمل بعد ستة أشهر من الآن».

قال ليتو: «كما توقَّعنا. ما الإحصاء الدقيق للمعدَّات الأساسية؟».

راجع حوَّاط ملفَّه وقال: «نحو 930 مصنع حصد جاهز للإرسال إلى العمل في غضون أيَّام، ونحو 6250 طائرة أورنيثوبتر استطلاعية لعمليات المسح والمراقبة الجوِّية، أما الحاملات الجوِّية فأقل قليلًا من الألف».

تساءل هاليك: «ألن يكون من الأرخص استئناف المفاوضات مع النقابة للحصول على تصريح بوضع فرقاطة في مدار حول الكوكب واستخدامها قمرًا صناعيًا لرصد الطقس؟».

نظر الدوق إلى حوَّاط: «هل من جديد بهذا الشأن يا ظفير؟».

قال حوَّاط: «علينا أن نلجأ إلى طرائق أخرى في الوقت الحالي. وكيل النقابة لم يكن يجري معنا مفاوضات حقيقية، بل كان يوضح لي فحسب -من مِئات إلى آخر- أن السِّعر المطلوب بعيد عن متناول أيدينا، وأنه سيظل كذلك بغض

النظر عن العرض الذي سنقدّمه. علينا أن نعرف السبب وراء ذلك قبل أن نفاتحه مجددًا في الأمر».

استدار أحد مساعدي هاليك الجالسين عند طرف الطاولة بمقعده وصاح: «لا عدالة في هذا!».

نظر الدوق إلى الرجل وقال: «عدالة؟ ومن طلب العدالة؟ نحن نصنع عدالتنا بأيدينا هنا على أرّاكس، وإمّا أن نربح وإمّا أن نموت. هل أنت نادم على انضمامك إلى صفوفنا يا سيّدي؟».

رمق الرجل الدوق هنيهة، ثم قال: «لا يا سيّدي. أينما تولّي وجهك سأتبعك. اغفر لي انفعالي، لكن...»، وهزّ كتفيه: «... تمرُّ علينا جميعًا أوقات نشعر فيها بالمرارة».

قال الدوق: «أتفهّم المرارة، لكن دعنا لا نلعن العدالة ما دمنا نمتلك الأسلحة وحرية استخدامها. هل يكتم أيٌّ من بقيّتكم مرارةً في صدره؟ إن كان الأمر كذلك، فنفّثوا عنها. هذا اجتماع ودّي يمكن لأيِّ رجلٍ فيه أن يقول رأيه بأريحية».

تململ هاليك في جلسته وقال: «أظن أن ما يقضّ مضجعي يا سيّدي هو عدم وجود متطوّعين من العائلات الكبيرة الأخرى معنا. إنهم يلقّبونك بـ"ليتو العادل" ويتعهّدون بصداقة أبدية ما دامت لا تكلّفهم شيئًا في المقابل».

قال الدوق: «إنهم لا يعرفون بعد من سيفوز بهذه الحرب. معظم العائلات كوّنت ثرواتها بتجنُّب المجازفات قدر الإمكان، ولا يمكن للمرء أن يلومهم على هذا، لكن يمكنه احتقارهم»، ثم نظر إلى حوّاط وعاد إلى الموضوع: «كنّا نتحدّث عن المعدّات. هلّا تعرض بعض الأمثلة لتعريف الرجال بهذه الآلات؟».

أومأ حوّاط وأشار إلى أحد المساعدين ليشغّل المسلاط.

ظهر مجسّم سوليدو ثلاثي الأبعاد على سطح الطاولة يمد

عن الدوق نحو ثلث المسافة من المسلاط. قام بعض الرجال الأبعد من مقاعدهم لإلقاء نظرة أوضح على المجسَّم.

مال بول إلى الأمام، محدِّقًا إلى الآلة. بالمقارنة بالنماذج البشرية الضئيلة المعروضة إلى جوارها، كان طول الآلة نحو مئة وعشرين مترًا وعرضها نحو أربعين مترًا. كان هيكلها طويلًا يشبه الحشرات بشكل عام، وتتحرَّك على زوجين من الجنازير العريضة المستقلَّة.

قال حوَّاط: «هذه حصَّادة عملاقة. اخترنا واحدة في حالة جيِّدة لنعرضها عليكم، لكن تُوجد واحدة أخرى من طراز قديم لها جرَّار جاءت مع الرعيل الأوَّل من علماء البيئة الإمبراطوريين وما زالت تعمل حتَّى الآن، وإن كنت لا أعلم كيف أو السبب في ذلك».

قال أحد الضُبَّاط المعاونين: «إن كنت تقصد "ماريا العجوز"، فهذه مكانها في متحف. أظن أن الهراكنة أبقوا عليها كنوع من العقاب بالعمل، كتهديد مسلَّط على أعناق عمَّالهم. كن مطيعًا وإلَّا ستُحال للعمل مع طاقم "ماريا العجوز"».

ضجَّت الطاولة بالضحك.

لم ينخرط بول في نوبة الضحك، وركَّز اهتمامه على المجسَّم وعلى السؤال الذي شغل عقله. أشار بإصبعه إلى الصورة ثلاثية الأبعاد المعلَّقة فوق الطاولة، وقال: «ظفير، أتوجد ديدان رملية كبيرة بما يكفي لابتلاع هذه الآلة؟».

هبط صمتٌ مفاجئ على الطاولة، وهمس الدوق بسُبَّة من تحت أسنانه، ثم فكَّر: *كلَّا، عليهم مواجهة الحقائق هنا*.

قال حوَّاط: «تعيش في أعماق الصَّحراء ديدان قادرة على ابتلاع هذا المصنع دفعة واحدة، أمَّا هنا بالقرب من الجدار الحامي -حيث تُجرى أغلب عمليات استخراج الاسپايس- فتعيش ديدان كثيرة قادرة على إخراج هذا المصنع من الخدمة، والتهامه على مهل».

سأل پول: «لم لا نحيط الآلات بدروع طاقة؟».

قال حوَّاط: «وفقًا لتقرير آيداهو، فإن استخدام الدروع في الصَّحراء عملٌ محفوف بالمخاطر. تفعيل الدرع البشري العادي يجتذب كل الديدان الموجودة على بُعد مئات الأمتار. يبدو أن طاقة الدروع تثير فيها هياجًا، وتدخلها في نوبة افتراسٍ مسعور. عرفنا هذا من الفرمِن، ولا نرى ما يدعو للشكِّ في ذلك. لم يرَ آيداهو أيَّ دليل على وُجود دروعٍ في السييتش».

سأل پول: «لا شيء بتاتًا؟».

قال حوَّاط: «سيكون من الصعب جدًا إخفاء هذا النوع من الأشياء بين عِدَّة آلاف من الأشخاص. يتمتَّع آيداهو بصلاحيات تجوُّل في أرجاء السييتش جميعها، وهو لم ير أيَّ دروع أو مؤشِّرات على استخدامها».

قال الدوق: «هذا أمرٌ محيِّر».

قال حوَّاط: «لا شكَّ أن الهراكنة استخدموا الكثير من الدروع هنا، ففي كل قرية من قُرى الحاميات مستودعات تصليح تابعة لهم، كما تظهر في دفاترهم بنود إنفاق باهظة على قطع غيار الدروع».

سأل پول: «هل يمكن أن يكون لدى الفرمِن طريقة ما لإبطال عمل الدروع؟».

قال حوَّاط: «احتمال ضعيف. صحيح أن هذا ممكن نظريًا، فمن المفترض أن تعريض الدرع لطاقة كهربائية هائلة -تعادل استهلاك مقاطعة برمّتها- سينجح في تعطيله، لكن أحدًا لم يجرِّب فعل ذلك من قبل».

قال هاليك: «كنا سنسمع بهذا الأمر، فالمهربون على علاقة وثيقة بالفرمِن، وكانوا سيحصلون على مثل هذا الجهاز إن كان متاحًا، وهؤلاء ما كانوا سيمانعون تسويقه خارج الكوكب».

قال ليتو: «لا أحب أن يُترَك سؤال بهذه الأهمية دون إجابة. ظفير، أريدك أن تعطي أولوية قصوى لبحث هذه المسألة».

- «نعمل على ذلك بالفعل يا سيِّدي»، ثم تنحنح قائلًا: «آه، في الحقيقة آيداهو ذكر أمرًا. قال إن المرء لا يمكن أن يُخطئ موقف الفرمِن من دروع الطاقة، قال إنهم يجدونها مسلِّية غالبًا».

قطب الدوق جبينه، ثم قال: «لنعد إلى ما كنَّا نناقشه، معدَّات التنقيب عن الاسپايس».

أشار حوَّاط لمساعده بالانتقال إلى الصورة التالية.

اختفى مجسَّم مصنع الحصد وحلَّ محلَّه مجسَّمٌ آخر يعرض آلة مجنَّحة تقزِّم إلى جوارها مجسَّمات الأفراد المحيطين بها. قال حوَّاط: «هذه حاملة جوِّية. إنها في الأساس ثوبتر كبيرة الحجم، ووظيفتها الوحيدة توصيل المصنع إلى الميدان وإنزاله فوق الرمال الغنية بالاسپايس، ثم انتشال المصنع عندما تظهر إحدى الديدان، وهي تظهر دائمًا. عملية حصد الاسپايس يمكن تلخيصها كالآتي: إنزال سريع، ثم مغادرة بأكبر كمٍّ ممكن من الاسپايس».

قال الدوق: «ولهذا هي متماشية تمامًا مع أخلاق الهراكنة».

ضجَّت الغرفة بضحكٍ مفاجئ وصاخب جدًّا.

حلَّ مجسَّم أورنيثوبتر محل نموذج الحاملة الجوِّية في بؤرة الإسقاط.

قال حوَّاط: «هذا هو الطراز الشائع من الثوبترات، لكن أحيانًا يُضاف إليها تعديلات مختلفة لمنحها نطاق طيران أوسع. تُبذل عناية كبيرة في عزل أجزاء الثوبترات الحسَّاسة لحمايتها من الرمال والغبار، لكن واحدة فقط من كل ثلاثين تكون مزوَّدة بدرع طاقة، والتخلُّص من مولِّدات طاقة الدروع يكون غالبًا لتخفيف الوزن لتحقيق نطاق طيران أوسع».

تمتم الدوق: «لا أرتاح إلى غياب التركيز على الدروع هذا»، وفكَّر: *أهذا هو سرُّ الهراكنة؟ أيعني هذا أننا لن نتمكَّن من الهروب على متن فرقاطات محميَّة بدروع إذا انقلب كل شيءٍ ضدَّنا؟* هزَّ ليتو رأسه بحدَّة لينفض عنه هذه الأفكار، ثم قال: «لننتقل إلى التقديرات العملية. ما حجم الأرباح المتوقَّعة؟».

قلب حوَّاط ورقتين في مفكِّرته وقال: «بعد تقييم الإصلاحات والمعدَّات القابلة للتشغيل، توصَّلنا إلى تقدير أوَّلي لتكاليف التشغيل، مع الأخذ في الاعتبار العمر الإنتاجي وقيمة إهلاك الأصول، للحفاظ على هامش أمانٍ مُرضٍ»، ثم أغلق المِنتات عينيه في إغشاءة جزئية، وبدأ يحسب: «في ظلِّ حكومة الهراكنة، بلغت تكاليف الصيانة والأجور 14 بالمئة من إجمالي الدخل. سنكون محظوظين لو استطعنا جعلها 30 بالمئة في البداية. ومع مراعاة عاملي إعادة الاستثمار والنمو، بالإضافة إلى التكاليف العسكرية والنسبة التي ستأخذها شركة تشوم، سيهبط هامش ربحنا إلى 6 أو 7 بالمئة، إلى أن نتمكَّن من استبدال المعدَّات المستهلكة. بعد ذلك يُفترض أننا سنكون قادرين على رفعه إلى معدَّله الطبيعي، أي

إلـى نحـو 12 أو 15 بالمئـة». أنهـى حوَّاط كلامـه ثـم فتـح عينيـه وقـال: «إلا إن كان مـولاي يرغـب فـي تبنّـي أسـاليب الهراكنـة».

قـال الـدوق: «نحن نهـدف إلـى إنشـاء قاعـدة كوكبيـة وطيـدة ودائمـة، علينـا أن نضمـن سـعادة نسـبة كبيـرة مـن السـكَّان، وبالـذَّات الفرمِـن».

وافقه حوَّاط: «وبذات الذَّات الفرمِن».

قـال الـدوق: «تفوُّقنـا علـى كلادان اعتمـد علـى القـوَّة البحريـة والجويـة، أمَّـا هنـا فعلينـا أن نطـوِّر سـلاحًا أحـب أن أُسـمِّيه: قـوَّة الصَّحـراء. قـد يشـمل هـذا السـلاح القـوَّة الجويـة، وقـد لا يشـملها. أود أن أذكِّركـم بافتقـار الثوبتـرات إلـى دروع الطاقـة»، ثـم هـزَّ رأسـه قبـل أن يضيـف: «اعتمـد الهراكنـة علـى معـدَّل تدويـرٍ وظيفـيٍّ مرتفـع، ومـا انفكُّـوا عـن استقطـاب أفـرادٍ جـدد مـن كواكـب أُخـرى لاسـتبدال موظَّفيهـم الرئيسـين. لكننـا لـن نجـرؤ علـى فعـل ذلـك، ففـي كل دفعـة موظَّفيـن جـدد سـيندسُّ لنـا عمـلاء محرِّضـون».

قـال حـوَّاط: «علينـا إذًا أن نرضـى بأربـاح أقـل بكثيـر وبمحصـول أقـل. سيقـل إنتاجنـا فـي الموسـمين الأوَّليـن بمقـادر ثلـث عن متوسـط إنتـاج الهراكنـة».

قـال الـدوق: «لا جديـد تحـت الشـمس، كمـا توقَّعنـا بالضبـط. علينـا أن نوطِّـد علاقتنـا بالفرمِـن سـريعًا. أريـد أن يكـون لدينـا خمـس كتائـب جنـود مـن الفرمِـن قبـل موعـد أوَّل مراجعـة ماليـة لدفاترنـا سـتجريها شـركة تشـوم».

قال حوَّاط: «لكنها ليست مهلة زمنية كافية يا سيِّدي».

– «كمـا تعلـم، ليـس أمامنـا متَّسـعٌ مـن الوقـت، ففـي أوَّل فرصـة سـيباغتوننا بصحبـة قـوَّات من السَّـاردوكار متنكِّرين فـي زيِّ الهراكنة. مـا تقديـرك لعـدد الجنـود الذيـن سيشـحنونهم إلـى هنـا يـا ظفيـر؟».

- «أربع أو خمس كتائب في المجمل يا سيِّدي، ليس أكثر من ذلك، فرسوم نقل الجنود التي تحصِّلها النقابة باهظة».

- «إذًا خمس كتائب من الفرمِن بالإضافة إلى قوَّاتنا ستكون كافية. إذا نجحنا في أسر بعض من قوَّات السَّاردوكار وعرضهم أمام مجلس اللاندسراد ستختلف الأمور جذريًا، سواء حقَّقنا أرباحًا أم لم نحقِّق».

- «سنبذل قصارى جهدنا يا سيِّدي».

نقل پول بصره بين أبيه وحوَّاط، واتَّضح له فجأة كم صار المنتات طاعنًا في السنِّ، وكيف أن هذا الشيخ الهَرِم قد خدم ثلاثة أجيال من آل آتريديز. *إنه في أرذل العمر*. تبدَّى له ذلك من بريق عينيه البُنِّيتين الغائم، ومن وجنتيه المجعَّدتين التي لفحتها شموسٌ غريبة، ومن انحناءة كتفيه المستديرة، ومن شفتيه الرفيعتين اللتين أورثهما شراب السافو بقعًا بلون التوت.

فكَّر پول: *أمورٌ كثيرة مرهونة برجلٍ واحد في أرذل العمر*.

قال الدوق: «نحن الآن في منتصف حرب اغتيالات، لكنها لم تبلغ ذروتها بعد. ظفير، ما آخر مستجدَّات الوضع مع شبكة الهراكنة؟».

- «قضينا على مئتين وتسعة وخمسين من أهم رجالهم يا مولاي. لم يتبق إلَّا ثلاث خلايا تابعة لهم، ولا أظن أن عدد أفرادها يزيد على مئة شخص في المجمل».

قال الدوق: «ما قضيت عليهم من طُفيليَّات الهراكنة، أكانوا من أصحاب ثروات؟».

- «أغلبهم كانوا ميسوري الحال يا مولاي، من طبقة رجال الأعمال».

قال الدوق: «أريدك أن تزوِّر بيانات مُبايعة ممهورة بتوقيعات كل واحد منهم، وأرسِل نسخًا منها إلى قاضي الفترة الانتقالية.

سندَّعي أنهم خانوا العهد وسنأخذ الإجراءات القانونية ضدَّهم. صادر ممتلكاتهم، واسلب أموالهم، وشرِّد عائلاتهم، وجرِّدهم من كل شيء. واحرص على إرسال نسبة العشرة بالمئة إلى التاج الإمبراطوري. كل شيء يجب أن يكون قانونيًا».

ابتسم ظفير فكشف عن أسنانٍ مُبقَّعة ببقعٍ حمراء خلف شفتيه القرمزيَّتين: «حركةٌ تليق بجدِّك يا مولاي. يُخجلني أنني لم أفكِّر فيها قبلك».

من مكانه عند طرف الطاولة لاحظ هاليك العبوس العميق البادي على وجه پول فقطب حاجبيه، أما الآخرون فكانوا يبتسمون ويهزُّون رؤوسهم في تأييد.

فكَّر پول: *هذا قرارٌ يجانبه الصواب، وسيجعل الآخرين يقاتلون بقوَّة أكبر لأنه لن يكون لديهم ما يكسبونه باستسلامهم.*

كان يعلم أن كل شيءٍ مباح وفقًا لأعراف ثأر الكانلي، لكن مثل هذه الخطوة قد تهلكهم حتَّى لو جلبت النصر إليهم.

قال هاليك مقتبسًا: «"لقد كنت غريبًا في أرض غريبة"».

رمقه پول بإمعان وقد تعرَّف على الاقتباس من الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي، وتساءل: *هل يأمل جيرني كذلك في إنهاء المؤامرات المخادعة؟*

لمح الدوق الظلام في الخارج، ثم عاد ينظر إلى هاليك: «جيرني، كم من عمَّال الرمال أقنعت بالبقاء معنا؟».

– «مئتان وثمانية وستُّون رجلًا يا سيِّدي. أظن أن علينا أن نرضى بهم ونعتبر أنفسنا محظوظين، فكلُّهم يعملون في تخصُّصات مفيدة».

«فقط؟»، ثم زمَّ الدوق شفتيه وقال: «حسنًا، أذع خبرًا إلى...».

قاطعته جلبة آتية من عند الباب، فرفع بصره ورأى دانكن آيداهو يتجاوز الحارسين الواقفين هناك، ويسرع الخُطى بامتداد الطاولة، ثم ينحني على أُذُنه. أشار له ليتو بالاعتدال وقال: «تكلَّم على الملأ يا دانكن، فكما ترى هذا اجتماع الفريق الاستراتيجي».

تأمَّل پول آيداهو، ملاحظًا رشاقة القطط في حركته، وردود أفعاله السريعة التي جعلته مُعلِّم سلاح تصعب محاكاته. استدار وجه آيداهو الأسمر المستدير نحو پول، ولم يرَ پول في العينين الغائرتين أثرَ ابتهاج لوجوده، لكن پول ميَّز قناع الهدوء الذي يُخفي به حماسته العارمة.

أجال آيداهو النظر في الرجال الجالسين حول الطاولة، ثم قال: «قضينا على قوَّة من مرتزقة الهراكنة متنكِّرين في زيِّ الفرمِن. لقد أرسل لنا الفرمِن أنفسهم ساعيًا يحذِّرنا من المجموعة الزائفة، لكننا في أثناء الهجوم اكتشفنا أن الهراكنة نصبوا كمينًا لساعي الفرمِن، وأثخنوه بجراح بالغة، وقد مات الرجل ونحن ننقله إلى هنا ليعالجه أطبَّاؤنا. رأيت بنفسي مدى سوء حالة الرجل وتوقَّفت لمساعدته قدر استطاعتي، لقد باغتته في أثناء ما كان يحاول رمي شيءٍ ما بعيدًا»، ثم نظر آيداهو إلى ليتو وأردف: «كانت سكِّينًا يا مولاي، سكِّينًا لم ترَ عيناك مثلها من قبل».

سأل أحد الرجال: «سكِّين عاجيَّة؟».

قال آيداهو: «هي بلا شك، بيضاء كالحليب وتشع بنورٍ من تلقاء نفسها»، ثم أدخل يده في غلالته وأخرج منها غمدًا يبرز منه مقبضٌ أسود.

- «اترك هذا النصل في غمده!».

جاء الصَّوت الرنَّان النافذ من عند الباب المفتوح في نهاية الغرفة لاويًا جميع الأعناق إليه.

عند الباب، وقف رجلٌ طويل في ثوبٍ مُحكم، يمنعه من الدخول سيفا الحارسين المشهران في وجهه. كان الثوب بُنِّيًّا فاتحًا ويغطِّي جسد الرجل بالكامل، باستثناء فتحة في غطاء الرأس، واللثام الأسود الذي تطل منه عينان زرقاوان بالكامل، لا أثر لبياض فيهما.

همس آيداهو لليتو: «دعه يدخل».

قال الدوق: «أدخل هذا الرجل».

تردَّد الحارسان، ثم خفضا سيفيهما.

دخل الرجل الغرفة، ووقف قبالة الدوق.

قال آيداهو: «هذا ستيلجار، زعيم السييتش الذي زرته، وقائد الفرقة التي حذَّرتنا من المجموعة الزائفة».

قال ليتو: «مرحبًا بك يا سيِّدي، ولِم لا نخرج النصل من غمده؟».

رمق ستيلجار آيداهو وقال: «أنت قد اتَّبعت عادات الطهارة والشرف بين ظهرينا، ولهذا أسمح لك برؤية نصل الرجل الذي صادقته»، ثم أجال عينيه في الغرفة وأردف: «لكنني لا أعرف هؤلاء. أتريدهم أن يُدنِّسوا سلاحًا شريفًا؟».

قال الدوق: «أنا الدوق ليتو. هل تسمح لي برؤية النصل؟».

قال ستيلجار: «سأسمح لك بنيل شرف إخراج النصل من غمده». تعالت همهمات الاحتجاج في الغرفة، فرفع الرجل يدًا ناحلة ذات عروقٍ داكنة وأردف: «أذكِّركم بأن هذا نصل رجلٍ كان صديقًا لكم».

في صمت الانتظار، تفرّس پول في ملامح الرجل، مستشعرًا هالة السُّلطة التي تشعُّ منه. كان زعيمًا بحق، زعيمًا فرمِنيًا.

تمتم رجلٌ يجلس قُبالة پول في منتصف الطاولة: «من يكون هذا كي يخبرنا بحقوقنا على أرّاكس؟».

قال الرجل الفرمِني: «يُقال إن الدوق ليتو آتريديز يستمد شرعية حُكمه من رضا رعاياه، لذا يجب أن تعلم تقاليدنا هنا: كل من يرى السكّين العاجية تقع مسؤولية معيَّنة على عاتقه»، ورمى آيداهو بنظرة قاتمة وأردف: «من يراه يصير مننا، ولا يحق له مغادرة أرّاكس من دون رضانا».

بدأ هاليك وبعض الرجال ينهضون من مقاعدهم وعلى وجوههم تعابير غضب، وقال هاليك: «الدوق ليتو هو من يُقرِّر...».

قال ليتو بنبرةٍ فيها من الحِلم ما كبح جماحهم: «لحظة من فضلكم»، وفكّر: يجب *ألّا يخرج الوضع عن السيطرة*. ثم وجَّه كلامه إلى الفرمِني: «سيِّدي، أنا أجل وأحترم كرامة أيِّ رجُلٍ يحترم كرامتي. إنني مدينٌ لك بالفعل، وأنا أسدِّد ديني دائمًا. إن كانت تقاليدكم تُحتِّم أن تظل هذه السكّين مغمدةً، فستظلُّ مغمدةً، بأمرٍ منّي. وإن كان في أعرافكم أيُّ طريقةٍ أخرى نستطيع بها تكريم بها الرجل الذي مات في خدمتنا، فما عليك إلّا أن تذكرها».

حدَّق الفرمِني إلى الدوق، ثم حسر لثامه عن وجهه، كاشفًا عن أنفٍ رفيع وفم غليظ الشفتين تحيط به لحية سوداء لامعة، ثم انحنى فوق الطاولة، وبصق على سطحها المصقول.

هبَّ الرجال واقفين في هياجٍ، لكن صوت آيداهو تردَّد هادرًا في أنحاء الغرفة: «في أماكنكم!».

ثم قال وسط الصَّمت المشحون المفاجئ الذي غشي الغرفة: «نشكرك يا ستيلجار على هديَّة ماء جسدك، ونتقبَّلها عن طيب خاطر، بنفس النيَّة التي مُنحت بها»، وبصق آيداهو على الطاولة أمام الدوق.

ثم مال إلى الدوق وهمس له: «تذكَّر يا سيِّدي ندرة وقيمة الماء هنا. هذا تعبير عن الاحترام».

غاص ليتو في مقعده مجدَّدًا، والتقت عيناه بعيني پول، ولاحظ ابتسامة ابنه الشاحبة، وأحسَّ بحدَّة التوتُّر تنسحب مع استيعاب الرجال الأمر.

قال آيداهو: «إنه يطلب مني التطوُّع للعمل تحت إمرته يا سيِّدي».

سأل ليتو: «هل يقبل أن تكون مُزدوج الولاء؟».

- «أتريدني أن أذهب معه يا سيِّدي؟».

- «أريدك أن تتَّخذ قرارك بنفسك في هذا الشأن»، قالها ليتو عاجزًا عن إخفاء نبرة الإلحاح في صوته.

تفرَّس آيداهو في وجه الفرمني، ثم سأل: «هل تقبل بي تحت هذه الشروط يا ستيلجار؟ ستأتي أوقات يجب أن أعود فيها إلى خدمة دوقي».

قال ستيلجار: «أنت محارب بارع وقد فعلت ما في وسعك لإنقاذ صديقنا»، ثم نظر إلى ليتو: «ليكن الأمر كالآتي: هذا الرجل المسمَّى آيداهو سيحتفظ بالسكِّين العاجية التي يحملها كدلالة على ولائه لنا. لا بُدَّ من تطهيره بالطبع، ومُراعاة الطقوس، لكن هذا أمرٌ يسير. سيكون فردًا من الفرمِن وجنديَّ آل آتريديز في الوقت نفسه. تُوجد سابقة مماثلة، فلييت يخدم سيِّدين».

سأل ليتو: «دانكن؟».

قال آيداهو: «واع للأمر يا سيِّدي».

قال ليتو: «إذن اتَّفقنا».

قال ستيلجار: «ماؤك أصبح لنا يا دانكن آيداهو، أما جثمان صديقنا فسيبقى مع الدوق. ماؤه ملك آل آتريديز. هذا رباطٌ بيننا».

تنهَّد ليتو في ارتياح، والتقت عيناه بعيني المِنتات العجوز. أومأ حوَّاط في رضا، وتهلَّلت أساريره.

قال ستيلجار: «سأنتظر في الأسفل ريثما يودِّع آيداهو أصدقاءه. كان اسم صديقنا الميِّت تورِوك. تذكَّروا الاسم عندما يحين وقت تسريح روحه. أنتم أصدقاء تورِوك».

همَّ ستيلجار بالاستدارة ليغادر.

سأله ليتو: «ألن تبقى معنا بعض الوقت؟».

استدار إليه الفرمِني وهو يعيد اللثام إلى مكانه بحركة عابرة، ويضبط شيئًا ما أسفله. لمح پول ما يبدو كأنه أنبوب رفيع قبل أن يستقرَّ اللثام على وجه الرجل.

سأل الفرمِني: «هل من سببٍ يدعو للبقاء؟».

قال الدوق: «نطمع في شرف مجالستك».

قال الفرمِني: «الشرف يستدعي أن أكون في مكان آخر الآن»، ثم ألقى نظرةً أخرى إلى آيداهو، واستدار عابرًا من بين حارسَيّ الباب بخطوات واسعة.

قال ليتو: «لو أن باقي الفرمِن مثله، سيخدم بعضنا بعضًا على الوجه الأمثل».

تكلَّم آيداهو بصوتٍ جافٍ: «إنه عيِّنة جيِّدة يا سيِّدي».

- «هل تفهم طبيعةَ مهمَّتك يا دانكن؟».

- «أنا سفيرك إلى فرمِن يا سيِّدي».

- «الكثير يعتمد عليك يا دانكن. سنحتاج إلى خمس كتائب على الأقل من أولئك القوم قبل أن تباغتنا قوَّات السَّاردوكار».

قال آيداهو: «سيتطلَّب ذلك بعض الجهد يا سيِّدي، فالفرمِن قومٌ مستقلّون جدًا»، وتردَّد قليلًا قبل أن يضيف: «وهناك شيءٌ آخر يا سيِّدي. أحد المرتزقة الذين داهمناهم كان يحاول أخذ هذا النصل من صديقنا الفرمِني الميِّت، هذا المرتزق قال إن الهراكنة وضعوا مكافأة قدرها مليون سولاري لأيِّ شخص سيحضر سكينًا عاجية واحدة».

ارتفع ذقن ليتو إلى أعلى في حركة دهشة واضحة: «لماذا يريدون أحد هذه النصال بهذا القدر؟».

- «تُصنع هذه السكاكين من أسنان ديدان الرمال، وهي علامة على الفرمِن يا سيِّدي. بحيازتها يستطيع أيُّ رجلٍ أزرق العينين أن يندس وسط أيِّ سييتش على الكوكب. كانوا سيشكُّون في أمري لولا أنهم يعرفونني. أنا لا أُشبه الفرمِن، ولكن...».

قال الدوق: «پايتر دي ڤريس».

قال حوَّاط: «إنه رجلٌ ماكر كالشياطين يا سيِّدي».

دسَّ آيداهو السكِّين المغمدة أسفل غلالته.

قال الدوق: «احرس تلك السكِّين جيِّدًا».

- «لا تقلق يا سيِّدي»، قالها وربَّت على جهاز الإرسال والاستقبال في عُدَّة حزامه وأردف: «سأقدِّم تقريرًا في أقرب وقت ممكن. ظفير معه رمز الاتصال بي، استخدموا لغة المعارك»، ثم أدَّى التحيَّة العسكرية، ودار على عقبيه، وأسرع في أثر الفرمِني.

سمع الجلوس وقع خطواته القوي يبتعد عبر الممر.

تبادل ليتو وحوَّاط نظرة تفاهم مشترك، وابتسما.

قال هاليك: «أمامنا عمل كثير يا سيِّدي».

قال ليتو: «وأنا عطَّلتكم عن عملكم».

قال حوَّاط: «لدي التقرير الخاص بقواعد طلائع الاستيطان. هل أؤجِّله إلى وقت لاحق يا سيِّدي؟».

- «هل سيستغرق وقتًا طويلًا؟».

- «ليس إن أوجزته. يُقال بين الفرمِن إن أكثر من مئتين من قواعد طلائع الاستيطان هذه شُيِّدت على أرَّاكس إبَّان الفترة التي كان فيها محطَّة تجارب للنباتات الصحراوية. من المفترض أنها جميعًا مهجورة الآن، لكن بعض التقارير تقول إنها أُغلقت بإحكام قبل هجرها».

سأل الدوق: «أتحتوي على مُعدَّات؟».

- «أجل، وفقًا للتقارير التي أبلغني بها دانكن».

سأل هاليك: «أين مواقعها؟».

قال حوَّاط: «إجابة هذا السؤال دومًا هي: لييت وحده يعلم».

تمتم ليتو: «الرَّب وحده يعلم».

قال حوَّاط: «رُبَّما ليس هذا هو المقصود يا سيِّدي، لقد سمعت ستيلجار بنفسك وهو يستخدم الاسم. أمن المحتمل أنه كان يشير إلى شخصٍ حقيقي؟».

ذكر هاليك: «قال إن المذكور يخدم سيِّدين. يبدو كأنه اقتباس ديني».

قال الدوق: «وأنت أعلم بهذه المسائل»، فابتسم هاليك.

قال ليتو: «ماذا عن قاضي الفترة الانتقالية، هذا المدعو كاينز، عالم البيئة الإمبراطوري.. ألا يعرف أماكن تلك القواعد؟».

قال حوَّاط محذِّرًا: «سيِّدي، هذا المدعو كاينز يمثِّل الإمبراطور».

قال ليتو: «وهو بعيد جدًا عن الإمبراطور الآن. أريد وضع يدي على تلك القواعد. ستكون مُحمَّلة بمواد يمكن انتشالها واستخدامها في إصلاح معدَّاتنا».

قال حوَّاط: «سيِّدي! تلك القواعد لا تزال -من الناحية القانونية- تابعة لجلالة الإمبراطور».

قال الدوق: «الطقس هنا قاسٍ وقادر على تدمير أيِّ شيء. يمكننا دومًا إلقاء اللوم على الطقس. اعثر على هذا المدعو كاينز واعرف منه إن كانت القواعد موجودة على الأقل».

قال حوَّاط: «من الخطر الاستيلاء عليها. دنكان كان واضحًا بهذا الشأن: هذه القواعد أو فكرة وجودها لها أهمِّية كبيرة لدى الفرمِن، وقد ينفرون منا إذا استولينا عليها».

نظر پول في وجوه الرجال من حوله، ورأى حِدَّة الطريقة التي يتابعون بها كل كلمة تُقال. بدوا منزعجين بشدة من موقف أبيه.

قال پول بصوتٍ خفيض: «استمع إلى رأيه يا أبي، معه حق».

قال حوَّاط: «مولاي، هذه القواعد قد توفِّر لنا مواد ستساعدنا على إصلاح كل قطعة من المعدَّات المتروكة لنا، لكنها بعيدة المنال لأسبابٍ استراتيچية، ومن التسرُّع أن نتحرَّك دون مزيدٍ من المعلومات. هذا المدعو كاينز يستمد سلطته التحكيمية من البلاط الإمبراطوري، يجب ألَّا ننسى هذا، كما أن الفرمِن يذعنون لرأيه».

قال الدوق: «حاول استدراجه بلطف إذًا. أود أن أعرف فقط إن كانت هذه القواعد موجودة أم لا».

- «كما تشاء يا مولاي»، قالها حوَّاط وعاد بظهره إلى الوراء، خافضًا عينيه.

قال الدوق: «حسنًا يا رجال، كلنا يعلم ما نحن بصدده: العمل الشاق الذي تدرَّبنا عليه، والذي نتمتَّع ببعض الخبرة فيه. جميعنا يعلم ما ينتظرنا من مكاسب، كما أن البدائل واضحة بالقدر الكافي. كلٌّ يعلم مهامه».

ثم نظر إلى جيرني وقال: «اجعل الاعتناء بموضوع المهرِّبين على رأس أولوياتك يا جيرني».

قال هاليك: «"سأذهب إلى المتمرِّدين الذين يسكنون الرمضاء"[1]».

قال الدوق: «يومًا ما لن يجد هذا الرجل اقتباسًا يسعفه، وسيبدو كرجلٍ عارٍ».

ضجَّت الغرفة بضحكات الرجال، لكن پول ميَّز الافتعال فيها.

التفت الدوق إلى حوَّاط وقال: «أنشئ مركز قيادة آخر للاستخبارات والاتصالات في هذا الطابق يا ظفير، وعندما تنتهي منه أريد إلقاء نظرة عليه».

نهض حوَّاط، وأجال بصره في الغرفة كمن يبحث عن دعم من أحد. ثم استدار مبتعدًا، وقاد موكب الرجال خارج الغرفة. تحرَّك الآخرون على عجل، تاركين المقاعد مبعثرة خلفهم، واحتشدوا في تجمُّعات صغيرة مرتبكة.

اختُتمت الجلسة بالحيرة والارتباك، هكذا فكَّر پول وهو يرمق ظهور آخر الرجال المغادرين. في السابق، دائمًا ما انتهت اجتماعات المجلس والرؤية واضحة كالشمس، أما هذا الاجتماع فبدا كأنه اضمحلَّ تدريجيًا بعدما تركته نقائصه نخرًا.. وفوق

(1) المزمور الثامن والستون، الآية 6 (بتصرُّف).

ذلك انتهى بجدال.

للمرَّة الأولى، سمح پول لنفسه التفكير في احتمالية الهزيمة، لكنه لم يفكِّر فيها بسبب الخوف أو بسبب التحذيرات كالتي قالتها له الأمُّ الموقَّرة، وإنما بسبب تقييمه الشخصي للوضع.

فكَّر پول: *ابي في موقفٍ لا يُحسد عليه. الأمور لا تسير معنا على ما يرام على الإطلاق.*

وماذا عن حوَّاط؟ تذكَّر پول كيف تصرَّف المِنتات العجوز خلال الاجتماع: تردُّده غير الملحوظ، وعلامات الاضطراب البادية عليه.

شيءٌ ما يثير قلق حوَّاط بشدَّة.

قال الدوق: «من الأفضل أن تمكث بقيَّة الليلة هنا يا بُني، فالفجر أوشك على البزوغ. سأخطر أُمَّك بأنك ستبيت هنا»، ثم نهض على قدميه، ببطء وتيبُّس. «ما رأيك أن تضمَّ هذه المقاعد وتتمدَّد عليها لتنال قسطًا من الراحة».

- «لا أشعر بالتعب يا سيِّدي».

- «حسنًا، كما تشاء».

قالها الدوق وعقد يديه وراء ظهره، وبدأ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا.

فكَّر پول: *إنه يتصرَّف كحيوانٍ محبوس في قفص.*

سأله پول: «هل ستناقش احتمالية وجود خائن مع حوَّاط؟».

توقَّف الدوق قبالة ابنه، وتحدَّث وهو يواجه النوافذ المعتمة: «لقد ناقشنا الاحتمالية مرات عِدَّة».

قال پول: «بدت المرأة العجوز واثقة جدًّا ممَّا تقول، والرسالة

التي وجدتها أُمِّي...».

قاطعه الدوق: «لقد اتَّخذنا التدابير اللازمة»، ثم تفحَّص أرجاء الغرفة، ولاحظ پول نظرة الفريسة المذعورة في عيني والده. «ابق هنا، أريد مناقشة بعض الشؤون الخاصة بمراكز القيادة مع ظفير». ثم استدار، وخرج مسرعًا من الغرفة محيِّيًا الحارسين باقتضاب.

حملق پول إلى البقعة التي شغلها والده منذ لحظات. كانت خالية حتَّى قبل أن يغادر الغرفة.

ثم تذكَّر تحذير العجوز: « ... لا أمل للأب».

في اليوم الذي جاب فيه ركب المؤدِّب وأسرته شوارع أراكين للمرَّة الأولى، تذكَّر بعض المارَّة من الشعب على جانبي الطريق النبوءة والأساطير، وغامروا بالصياح: «المهدي!*»، لكن صيحاتهم كانت أقرب إلى سؤال منها إلى تصريح، لأنهم إلى تلك اللحظة لم يكن في وسعهم غير تمنِّي أن يكون هو ذلك المُنتظر الذي حكت عنه النبوءة: لسان الغيب*، الصَّوت الآتي من عالم آخر. أيضًا انصبَّ اهتمامهم على الأُمّ، بعد أن بلغهم أنها من البِني جيسيرِت، وكان من البديهي في نظرهم أن تكون هي كذلك لسان غيبٍ آخر.

من كتاب «دليل المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

عثر الدوق على ظفير حوَّاط جالسًا بمفرده في الغرفة الجانبية التي دلَّه الحارس عليها. ترامى إلى سمعه أصوات الرجال الذين يركِّبون معدات الاتصالات في الغرفة المجاورة، لكن هذه الغرفة كانت هادئةً إلى حد ما. نظر الدوق حوله في حين ما نهض حوَّاط من خلف الطاولة المزدحمة بالأوراق. كانت حوائط الغرفة الصغيرة خضراء، وتضم بالإضافة إلى الطاولة ثلاثة مقاعد مضادة للجاذبية نُزعت عنها حروف «الهاء» -شعار الهراكنة- على عجالة، تاركة خلفها بقعة غامقة مشوَّهة.

قال حوَّاط: «المقاعد مُستلبة لكنها آمنة. أين پول يا سيِّدي؟».

- «تركته في غرفة الاجتماعات. أريده أن ينال بعض الراحة دون أن يشغل وجودي عقله».

أومأ حوَّاط، واتَّجه إلى باب الغرفة المجاورة وأغلقه، كاتمًا ضجيج تركيب الأجهزة وأصوات الشرر الكهربائي.

قال ليتو: «ظفير، مخزون الاسپايس الإمبراطوري والهاركونني يشغلان بالي».

- «ماذا تقصد يا مولاي؟».

زمَّ الدوق شفتيه وقال: «تلك المخازن ليست منيعة ضد التدمير»، ثم رفع يده مقاطعًا عندما همَّ حوَّاط بالكلام: «تجاهل مخزون الإمبراطور، لن نمسَّه، لكن إذا فقد الهراكنة ما كنزوه سيشمت فيهم سرًا. ومن ناحية أخرى، هل يمكن للبارون الاحتجاج على تدمير شيءٍ لا يستطيع الاعتراف بامتلاكه صراحةً؟».

هزَّ حوَّاط رأسه وقال: «عدد الرجال قليل للاستغناء عن بعضهم يا مولاي».

- «أوكل الأمر إلى بعض رجال آيداهو، رُبَّما بمشاركة بعض الفرمِن، فقد يستمتعون برحلة إلى كوكب آخر. غارة على جيدي پرايم، مثل هذا الهجوم المُشتِّت له منافع تكتيكية يا ظفير».

- «كما تأمر يا مولاي»، قالها حوَّاط واستدار، ولاحظ الدوق العصبية البادية على الرجل العجوز، وفكَّر: *رُبَّما يشكُّ في أنني لا أثق به. يجب أن يعرف أن لدي تقاريري الخاصة عن الخونة. حسنًا، من الأفضل أن أبدِّد مخاوفه في الحال.*

قال الدوق: «ظفير، نظرًا إلى أنك من القلائل الذين أثق بهم ثقةً عمياء، أودُّ مناقشة مسألة أخرى معك. كلانا يحتاط بشدَّة ويعلم أن علينا الحفاظ على مراقبة مستمرة لمنع أيِّ خونة من التسلُّل إلى قواتنا، لكن جاءني تقريران جديدان بهذا الشأن».

استدار حوَّاط، وحدَّق إليه.

كرَّر ليتو على مسمعه القصص التي حكاها له پول، لكن بدلًا من أن تستفزَّ فيه تركيزه المِنتاتي، زادت التقارير من اضطراب حوَّاط.

تفرَّس ليتو في ملامح الرجل العجوز لوهلة، ثم قال في النهاية: «أنت تكتم شيئًا عني يا صديقي القديم، كان لا بُدَّ لي الانتباه إلى ذلك عندما لاحظت توتُّرك الشديد في أثناء اجتماع طاقم العمل. ما الأمر الجلل الذي لم تستطع البوح به أمام كامل أعضاء الاجتماع؟».

زمَّ حوَّاط شفتيه المبقَّعتين بشراب السافو بقوَّة حتَّى صارتا كخطٍّ مستقيم تتشعَّب منه تجاعيد صغيرة، وظلَّتا في حالة التيبُّس المتجمِّد هذه وهو يقول: «مولاي، لا أدري كيف أتطرق إلى هذا الأمر».

قال الدوق: «يا ظفير، ما في جسدينا موضع إلا ويحمل ندبة جناها أحدنا في ذوده عن الآخر. تعلم جيِّدًا أنك تستطيع مُفاتحتي في أيِّ موضوع».

ظلَّ حوَّاط يحدِّق إليه وهو يفكِّر: *هذا هو ما أحبه فيه. هذا هو الرجل الشريف الذي يستحق كامل ولائي وخدمتي، وها أنا مضطرٌّ إلى إيذائه بما سأقول.*

سأل الدوق: «حسنًا؟».

هزَّ حوَّاط كتفيه: «إنها قصاصة من رسالة أخذناها من جاسوس هاركونني. الرسالة كانت موجَّهة إلى عميلٍ اسمه پاردي. لدينا أسباب تجعلنا نعتقد أن پاردي هذا كان أحد أهم عملاء شبكة جواسيس الهراكنة هنا. هذه الرسالة حمَّالة أوجه، قد يكون لها عواقب خطِرة أو لا عواقب على الإطلاق».

- «وما الفحوى الحسَّاس الذي تنطوي عليه تلك الرسالة؟».

- «إنها قصاصة من رسالة يا مولاي. غير تامة. كانت على فيلم ميركوني مرفق به كبسولة التدمير الذاتي المعتادة. نجحنا في إيقاف عمل الحمض قبل أن يمحو كل شيء، ولم يتبق سوى قصاصة. ومع ذلك، فإن هذه القصاصة تحمل إيحاءات خطِرة».

- «مثل؟».

فرك حوَّاط شفتيه وقال: «إنها تقول: "... يتو لن يشك أبدًا، وحين تأتيه الضربة من يدٍ حبيبةٍ، ستكون الصدمة وحدها كفيلة بتدميره". الرسالة كانت مختومة بختم البارون نفسه، وقد تحقَّقت من صحَّته».

قال الدوق وقد اكتنفت صوته برودة فجأة: «يتَّضح لي علام تنصب شكوكك».

قال حوَّاط: «أقطع ذراعيَّ قبل أن أتسبب في أذًى لك يا مولاي. ماذا لو...».

قال ليتو شاعرًا بالغضب ينهش صدره: «الليدي چيسيكا. ألا تستطيع انتزاع الحقائق من پاردي هذا؟».

- «للأسف لم يكن پاردي في عداد الأحياء عندما اعترضنا الجاسوس، أما الأخير فأنا متيقِّن من أنه لا يعلم فحوى ما يحمله».

- «فهمت».

هزَّ ليتو رأسه مفكِّرًا: *يا لها من دسيسة ماكرة. هذا محض افتراء وتدليس، فأنا أعرف امرأتي.*

- «مولاي، ماذا لو...».

جأر الدوق: «لا! قطعًا في الأمر خطأ...».

- «لا يمكننا تجاهل الأمر فحسب يا مولاي».

- «إنها معي منذ ستة عشر عامًا! وقد أُتيحت أمامها فرصٌ لا حصر لها كي... أنت بنفسك تحقَّقت من المدرسة ومن المرأة!».

قال حوَّاط بمرارة: «من المعروف الآن أن بعض الأشياء تفوتني».

- «أقول لك إن هذا مستحيل! يريد الهراكنة تدمير سلالة آل آتريديز بالكامل، وهذا يشمل بول، وقد حاولوا ذلك بالفعل. أيُعقل أن تتآمر امرأة ضد ابنها؟».

- «رُبَّما لم تتآمر معهم ضد ابنها، وأن تكون محاولة البارحة خدعة ذكية».

- «لم تكن خدعة».

- «سيِّدي، من المفترض أنها لا تعرف أبويها، لكن ماذا لو أنها تعرف؟ ماذا لو كانت يتيمة، وأن من تسبَّب في يُتمها مثلًا أحد آل آتريديز؟».

- «كانت ستغتالني منذ زمن طويل. ستدسُّ السُمَّ في شرابي، أو ستطعنني بخنجر في أثناء نومي.. فمن غيرها لديه فرصة أفضل؟».

- «الهراكنة عازمون على تدميرك بالكامل يا مولاي، وهدفهم ليس القتل فحسب. في قواعد الكانلي فروقٌ دقيقةٌ بين المسمَّيات. قد يكون هذا انتقامًا بارعًا لم يُر مثله من قبل».

تهدَّلت كتفا الدوق وانحنتا إلى الأمام، وأغلق عينيه وقد بدا متعبًا وعجوزًا. *مستحيل، لقد فتحت المرأة قلبها لي.*

سأل الدوق: «أيُّ طريقة أفضل لتدميري من زرع الشك في المرأة التي أحبها؟».

- «فكّرت في هذا التفسير، ولكن...».

فتح الدوق عينيه، وحملق إلى حوّاط مفكّرًا: *فليظلّ متشكّكًا، الشكّ من اختصاصه لا اختصاصي. رُبّما لو أبديت التصديق، سيدركه الإهمال وتغيب عنه اليقظة.*

همس الدوق: «ماذا تقترح؟».

- «في الوقت الحالي، مراقبتها باستمرار يا مولاي. يجب أن تظلّ تحت المراقبة طوال الوقت، وسأحرص على أن يجري الأمر بصورة غير ملحوظة. أرى أن آيداهو سيكون الخيار المثالي للمهمّة. رُبّما في غضون أسبوع أو نحو ذلك نستطيع أن نستدعيه. ثمّة شاب كنا ندرّبه من جنود آيداهو، وقد يكون مثاليًا لإرساله إلى الفرمِن كبديل عنه، إنه موهوب في الشؤون الدبلوماسية».

- «لا تعرّض علاقتنا مع الفرمِن للخطر».

- «قطعًا لا يا مولاي».

- «وماذا عن پول؟».

- «رُبّما يجب تحذير الدكتور يُوي».

استدار ليتو معطيًا حوّاط ظهره وقال: «سأترك لك القرار».

- «سأتصرّف بحذر يا مولاي».

فكّر ليتو: *على الأقل أستطيع الاتّكال على ذلك*، ثم قال: «سأتمشّى قليلًا. سأكون في محيط المكان إن احتجتني. يستطيع الحارس أن...».

- «قبل أن تذهب يا مولاي، لدي مقطع فيلمي أريدك أن تطّلع عليه. إنه التحليل المبدئي لديانة الفرمِن. طلبت مني تقديم تقرير عن ذلك لو تتذكّر».

توقَّف الدوق وقال دون أن يستدير: «ألا يمكن أن ينتظر؟».

- «بالتأكيد يا مولاي، لكنك طلبت معرفة الكلمة التي كانوا يصيحون بها: "المهدي!". كانوا يوجِّهونها إلى السيِّد الصغير عندما ...».

- «إلى پول؟».

- «أجل يا مولاي. عندهم أسطورة هنا، أو نبوءة، أن قائدًا سيأتيهم، وسيكون ابنًا لامرأة من البِني جيسيرِت، وسيقودهم إلى الحرية الحقيقية. إنها قصَّة تتبع نمط أساطير المسيح المألوفة».

- «وهم يظنُّون أن پول هو هذا... هذا الـ...».

- «هذا ما يأملون يا مولاي»، قالها حوَّاط وهو يمدُّ يده بكبسولة المقطع الفيلمي.

أخذها الدوق ودسَّها في جيبه: «سألقي نظرة إليها لاحقًا».

- «بالتأكيد يا سيِّدي».

- «أمَّا الآن فأنا بحاجة إلى وقتٍ.. لأفكِّر».

- «أجل يا سيِّدي».

أخذ الدوق نفسًا عميقًا وزفره متنهِّدًا، وأسرع خارجًا من الباب، ثم انعطف إلى اليمين في نهاية الممرِّ، وبدأ يمشي على مهلٍ عاقدًا يديه خلف ظهره تاركًا ساقيه تقودانه دون هدي. قطع ممرَّاتٍ وسلالم، ومرَّ بشُرُفاتٍ وأروقة.. وفي كلٍّ منها قدَّم له الرجالُ التحيَّة وتنحَّوا جانبًا مفسحين له الطريق.

بعد مدَّة عاد إلى غرفة الاجتماعات. وجدها مظلمة ووجد پول نائمًا فوق الطاولة يغطِّيه ثوبٌ ألقاه عليه أحد الحرس، ويتَّخذ من حقيبة صغيرة وسادةً لرأسه. قطع الدوق الغرفة بخفَّة

متَّجهًا إلى الشرفة المطلَّة على ساحة المهبط. اتَّخذ حارس كان يقف في زاوية الشرفة وضع انتباه صارم عندما تعرَّف الدوق في الأضواء الخافتة الآتية من الساحة، فتمتم له الدوق: «استرح»، ثم مال مستندًا إلى حديد الدرابزين البارد.

كان يعمَّ الحوض الصحراوي ذلك الصَّمت الشامل الذي يسبق الفجر. رفع الدوق بصره إلى أعلى، ورأى النجوم فوق رأسه كشال مزيَّن بالترتر على خلفية زرقاء داكنة. أطلَّ قمر الليل الثاني -منخفضًا في الأُفُق الجنوبي- عبر طبقة ضباب غباري رقيقة، ونظر إليه متشكِّكًا بنورٍ ساخر.

وفي أثناء ما كان الدوق يتأمَّل المشهد، غاب القمر وراء منحدرات الجدار الحامي، مضفيًا عليها رداءً من الثلج بنوره الفضِّي، وفي حِدَّة الظلام المفاجئ الذي حلَّ، اعترت ليتو قشعريرة مفاجئة، وسرى الغضب في أوصاله.

وفكَّر: *هذه آخر مرَّة سأسمح فيها للهراكنة بأن يعرقلوني ويلاحقوني ويطاردوني. ما هم إلا أكوام روثٍ بعقولٍ قروية بليدة. هنا سأنصب دفاعاتي وسأصمد صمودي الأخير*. ثم فكَّر بمسحة من الحزن: *يجب أن أحكم بالعين والمخلب: كالصقر بين الطيور الأدنى*. ثم بلا وعي منه، مسح على شعار الصقر الذي يزيِّن صدر غلالته.

من الشرق، تبيَّن وسط عتمة الليل خيطٌ رماديٌّ مضيء، سرعان ما أضحى بريقًا كبريق أصداف البحر أغشى معه ضوء النجوم. ثم بزغت يدُ الفجر الطويلة، وراحت تقرع الأجراس موقظةً النيام وهي تمضي بين شظايا الأفق المتصدِّع.

فتنه المشهد السَّاحر وأخذ بلُبِّه. *تتفرَّد بعض الأشياء برُواءٍ*

منقطع النَّظير، هكذا فكَّر.

لم يتخيَّل وجود شيء هنا يستطيع مضاهاة جمال هذا الأُفُق الأحمر المتشقِّق، وبهاء تلك المنحدرات الأرجوانية المشوية بصفرة. رأى خلف ساحة المهبط -حيث كانت قطرات ندى الليل تمنح قبلة الحياة لبذور نباتات أرَّاكس- بركًا موحلةً بها أزهار حمراء، يخترقها دربٌ واضح من زهور البنفسج، كأنه آثار أقدام عملاقة.

قال الحارس: «إنه صباحٌ جميل يا سيِّدي».

- «إنه كذلك».

ثم أومأ مفكِّرًا: *قد يجد المرء في هذا الكوكب ما يستحق التعلُّق به، وقد يَحسُن مستقرًا ومقامًا لابني*. ثم رأى أشخاصًا يتَّجهون نحو برك الأزهار ويكسحونها بأدوات غريبة تشبه المناجل: هؤلاء جامعو الندى. الماء شحيحٌ هنا إلى درجة أن الندى نفسه يجب أن يُجمع.

فكَّر الدوق: *وقد يسوء مستقرًا ومقامًا*.

رُبَّما لا تُوجد لحظة أفظع في حياة المرء من تلك التي يكتشف فيها أن والده مجرَّد إنسان، من لحمٍ ودم.

منْ كتاب «أحاديث المؤدِّب المجمَّعة» للأميرة إيرولان.

قال الدوق: «پول، سأفعل أمرًا بغيضًا، لكنني مضطرٌّ إليه». كان يقف إلى جوار كشَّاف السُّموم الذي أُحضِر إلى غرفة الاجتماعات لفحص إفطارهم. كانت مجسَّات استشعار الجهاز مرتخية على المائدة، فبدا لپول كأنه حشرة غريبة ماتت منذ لحظات. انصب اهتمام الدوق على ساحة المهبط وراء النوافذ، وسحابة الغبار المتصاعدة منها إلى عنان سماء الصباح.

كان أمام پول شاشة تعرض مقطعًا فيلميًا قصيرًا عن شعائر الفرمِن الدينية، جمعه أحد الخبراء الذين يعملون تحت إمرة حوَّاط، ووجد پول نفسه منزعجًا من الإشارات والإحالات إليه في المقطع.

«المهدي!».

«لسان الغيب».

أغلق پول عينيه وتذكَّر صيحات الجموع. *هذا إذًا ما يأملون أن أكونه*، هكذا فكَّر. ثم تذكَّر ما قالته الأُمُّ العجوز الموقَّرة: الكويزاتس هاديراك. أعادت إليه الذكرى شعوره السابق بالغاية الرهيبة، وأضفت على هذا العالم الغريب أحاسيس أُلفة لم يفهمها.

ردَّد الدوق: «أمرٌ بغيض».

- «ماذا تقصد يا سيِّدي؟».

استدار ليتو ونظر إلى ابنه: «يظن الهراكنة أنهم قادرون على خداعي وزعزعة ثقتي بأُمِّك، لكنهم لا يعرفون أنني سأشك في نفسي قبل أن أشك فيها».

- «لا أفهم يا سيِّدي».

عاد ليتو ينظر عبر النوافذ. كانت الشمس البيضاء قد احتلَّت موقعها في الربع الأوَّل من السماء، وأنار ضوءها اللبني سُحب الغبار التي تتسرَّب عبر أخاديد صخور الجدار الحامي العميقة.

شرح الدوق لبول أمر الرسالة الغامضة على مهلٍ وبتأنٍّ كي يستطيع السيطرة على غضبه.

قال بول: «ولم لا يفقدك هؤلاء الحمقى ثقتك بي كذلك».

قال الدوق: «يجب أن يعتقدوا أنهم نجحوا في خداعي، وأنني أبله والتقطت الطُعم. يجب أن يبدو الأمر حقيقيًا، حتَّى أُمُّك يجب ألَّا تعلم به».

- «لكن لماذا يا سيِّدي؟».

- «أريد أن تكون ردَّة فعل أُمِّك طبيعية. أعرف أنها بارعة في التمثيل، لكن أمورًا مهمة كثيرة على المحكِّ هنا. آمل أن أكشف الخائن، لذا يجب أن أبدو كأنني خُدِعت وبلعت الطُعم بالكامل. يجب أن تتأذَّى أُمُّك بهذه الطريقة كي لا تعاني أذًى أكبر بعد ذلك».

- «لماذا تخبرني بالأمر يا أبي؟ ألا تخشى أن يزلَّ لساني وأُفشي السرَّ».

قال الدوق: «لن يلتفتوا إليك في هذا الأمر، لكن يجب أن تحافظ على السرِّ»، ثم اتَّجه إلى النوافذ، وتحدَّث دون أن يستدير: «بهذه الطريقة، ستتمكَّن من إخبارها بالحقيقة إن أصابني مكروه،

وستعلمها أنني لم أشك فيها ولو للحظة. يُهِمُّني أن تعلم أمك ذلك».

لاحظ پول فكرة الموت في كلمات أبيه، فقال سريعًا: «لن يصيبك مكروه يا سيِّدي، الـ...».

- «صمتًا يا بُني».

حملق پول إلى ظهر والده، ورأى الإرهاق باديًا في إنحناءة رقبته، في ارتخاءة كتفيه، في حركاته البطيئة.

- «أنت منهك يا أبي».

وافقه الدوق: «أجل أنا منهك، لكنني منهك معنويًا. رُبَّما أدركني التدهور الكئيب الذي أحاق بنبلاء العائلات الكُبرى أخيرًا. لكم كنا قومًا أقوياء في السابق».

قال پول في انفعالة غضب سريعة: «عائلتنا لم تتدهور!».

- «أحقًا؟».

استدار الدوق مواجهًا ابنه، كاشفًا عن الهالات السوداء أسفل عينيه، والتواءة فم ساخرة: «كان يجب أن أتزوَّج بأُمِّك وأجعلها دوقتي. لكن بقائي عازبًا يمنح بعض الأُسر النبيلة الأخرى الأمل في التحالف معي بتزويجي إحدى بناتهم»، ثم هزَّ كتفيه: «لذا، آثرت...».

- «لقد شرحت لي أُمِّي الأمر».

قال الدوق: «لا شيء يُكسب القائد ولاء رجاله أكثر من الشجاعة والإقدام. لذلك أُحيط نفسي بهالة من الشجاعة».

قال پول محتجًا: «أنت قائدٌ محنَّك، وحاكمٌ رشيد. الرجال يحبُّونك ويتبعونك عن طيب خاطر».

قال الدوق: «أمتلك فريقًا من أفضل فرق الدعاية والإعلام»،

ثم استدار ثانيةً ناظرًا إلى منطقة الحوض الصحراوي. «المكاسب المحتملة المتاحة أمامنا هنا تفوق كل ما تظنه الإمبراطورية، ومع ذلك أشعر أحيانًا بأنه من الأفضل لنا أن نهرب وننجو بحياتنا، أن ننشق. أحيانًا أتمنَّى أن تختفي هويَّتنا ونذوب مجدَّدًا بين الناس، ونعود أقل عرضة للـ...».

- «أبي!».

قال الدوق: «معذرة، أنا منهك بالفعل. أتعلم أننا نستخدم بقايا الاسبايس موادَّ خام، وأننا نملك بالفعل مصنعًا لتصنيع المادة الفيلمية؟».

- «سيِّدي؟».

قال الدوق موضِّحًا: «يجب ألا تنقصنا المادَّة الفيلمية، وإلا كيف سنغرق القرى والمُدن بالمعلومات التي نريد لها أن تنتشر؟ يجب تذكير الناس دائمًا بمدى نجاح حُكمي، وإلَّا كيف سيعرفون إذا لم نخبرهم؟».

قال پول: «يجب أن تنال بعض الراحة».

واجه الدوق ابنه مجدَّدًا وقال: «يتمتَّع أرَّاكس بمزية أخرى كدت أغفل عن ذكرها. الاسپايس موجود في كل شيءٍ على هذا الكوكب. يتنفَّسه الناس في الهواء ويأكلونه في الطعام. نما إلى علمي أن هذا يُكسب مناعة طبيعية ضد مجموعة من أكثر السُّموم الواردة في دليل المغتالين شيوعًا. أيضًا الحاجة الدائمة إلى ترشيد استهلاك كل قطرة ماء تضع عمليات الإنتاج الغذائي كلها تحت إشراف صارم ورقابة مشدَّدة: بما في ذلك مزارع الخمائر، والمزروعات المائية، والأسمدة الكيماوية، وكل شيء. باختصار، مثلما لا نستطيع القضاء على أعداد كبيرة من السكَّان باستخدام

السُّموم، لا يُمكن مهاجمتنا بالطريقة نفسها أيضًا. أرَّاكس يهذِّبنا ويجعلنا أحسن خُلُقًا».

همَّ پول بالكلام، لكن الدوق قاطعة: «أحتاج إلى من أستطيع البوح أمامه بهذا الكلام يا بُني». ثم تنهَّد، وعاد ينظر إلى الأرض القاحلة التي اختفت منها الأزهار، بعد أن داسها جامعو الندى، وجفَّت تحت أشعة شمس الصباح.

قال الدوق: «على كلادان، حكمنا بالقوَّة الجوِّية والقوَّة البحرية، أما هنا فعلينا الاستعاضة عنهما بقوَّة الصَّحراء. هذا هو ميراثك يا پول. ماذا سيحدث لك إذا أصابني مكروه؟ لن تكون مجرَّد فرد في عائلة مُنشقَّة، بل عضو في عُصبة هاربة مطاردة».

بحث پول عن أيِّ كلام يقوله، لكنه لم يجد ما يُقال. لم يسبق له أن رأى والده بهذا القنوط.

قال الدوق: «في سبيل إحكام قبضتنا على أرَّاكس، يواجه المرء قرارات قد تكلِّفه احترامه لذاته»، ثم أشار إلى راية آل آتريديز المتدلِّية من سارية في الخارج عند حافة ساحة المهبط بلونيها الأخضر والأسود، وأردف: «قد يأتي يوم تتحوَّل فيه هذه الراية المشرَّفة إلى رمز شر».

ابتلع پول غصَّة عالقة في حلقه الجاف. كانت كلمات والده تحمل عبثيةً وخيبةً وشعورًا بالقدرية جعلت الصبيَّ يشعر بفراغٍ موحش في صدره.

أخرج الدوق قرصًا لتخفيف الإرهاق من جيبه، وابتلعه دون ماء، ثم قال: «القوَّة والخوف من أهم أدوات الحكم. يجب أن أصدر أمرًا لمعلِّميك للتركيز معك على أساليب حرب العصابات. في هذا المقطع الفيلمي يطلقون عليك "المهدي"، و"لسان الغيب".

يبدو أنك الملاذ الأخير في نظرهم، رُبَّما تستطيع استغلال هذا لمصلحتك في المستقبل».

حدَّق پول إلى والده، ولاحظ أن كتفيه بدأتا تشتدَّان تدريجيًّا من أثر الدواء، لكنه تذكَّر كلماته المملوءة بالخوف والشكِّ.

تمتم الدوق: «لماذا تأخَّر عالم البيئة هذا؟ لقد أكَّدت على ظفير أن يحضره مبكِّرًا».

فـي أحـد الأيّـام، أمسـكني أبـي الإمبراطـور الباديشـاه من يـدي، فلمسـت لحظتهـا الانزعـاج الـذي يعتمـل فـي صـدره بفضـل الأسـاليب التـي تعلّمتهـا مـن أُمّـي. قادنـي أبـي عبـر قاعـة الصـور، إلـى أن وقفنـا أمـام صـورة «ذات مُجسَّـدة» للـدوق ليتـو آتريديـز. لاحظـت الشـبه الكبيـر بيـن أبـي والرجـل الـذي فـي الصـورة: كلاهمـا ذو وجـهٍ نحيـل مليـح، بملامـح حـادة تهيمـن عليهـا عينـان باردتـان. قـال أبـي: «آهٍ يـا ابنتـي الأميـرة، كـم تمنَّيـت لـو كنـت أكبـر سـنًا عندمـا قـرَّر هـذا الرجـل اختيـار امـرأة لتكون إلـى جـواره». كان أبـي وقتهـا فـي الحاديـة والسـبعين مـن عمـره، ولـم يبـدُ أكبـر سـنًا مـن الرجـل الـذي فـي الصـورة، وكنـت أنـا فـي الرابعـة عشـرة، ومـع ذلـك أتذكّـر أننـي اسـتنتجت لحظتهـا أن والـدي كان يتمنَّـى سـرًا لـو أن الـدوق كان ابنًـا لـه، وأنـه كان يكـره كل الضـرورات السياسـية التـي جعلـت منهمـا عدوَّيـن.

من كتاب «في بيت أبي» للأميرة إيرولان.

اللقـاء الأوَّل بيـن الدكتـور كاينـز وآل آتريديـز الذيـن أُمـر بخيانتهـم تركـه مهـزوزًا. لطالمـا كان يفتخـر بكونـه عالمًـا لا يـرى فـي الأسـاطير إلّا قصصًـا تحمـل دلالات مثيـرة للاهتمـام تشـير إلـى الجـذور الثقافيـة، لكـن هـذا الصبـيَّ يطابـق وصـف النبـوءة القديمـة بدقَّـة. إنـه يمتلـك «العيـن الفضوليـة»، ويتحلّـى بـ«الصـدق الأصيـل».

بالطبـع، تركـت النبـوءة بعـض الأمـور مبهمـة وعرضـة للتأويـل، مثـل إذا مـا كانـت الإلهـة الأُمُّ سـتحضر المسـيح معهـا إلـى الكوكـب

أم أنها ستلده هنا. ومع ذلك، كان هناك تطابقٌ غريب بين النبوءة وشخوصها. حدث اللقاء في منتصف النهار خارج المبنى الإداري الملحق بساحة مهبط أراكين. في الجوار، جثمت طائرة أورنيثوبتر لا تحمل أيَّ شعار كحشرة ناعسة يصدر عنها ذلك الطنين الخافت المميِّز لوضع الاستعداد، وإلى جوارها وقف أحد حرَّاس آل آتريديز شاهرًا سيفه، محاطًا بمجال درع طاقة يشوِّه الهواء من حوله بعض الشَّيء.

رمق كاينز باستهزاء نمط التشوية الناتج عن درع الطاقة، وفكَّر: *يحمل أرَّاكس مفاجأة لهم بهذا الشأن!*

رفع عالم البيئة يده، مشيرًا لحارسه الفرمني بالمكوث في مكانه، ثم أسرع الخُطى إلى مدخل المبنى الذي بدا كفجوة سوداء وسط الصخور المغلَّفة بالبلاستيك، وفكَّر: *هذا البناء المتراص مكشوف تمامًا، أيُّ كهفٍ في الصَّحراء أنسب منه بكثير.*

لفتت انتباهه حركة في المدخل فتوقَّف، وأخذ لحظة كي يعيد هندام ثوبه ويضبط أدوات بذلة التقطير على كتفه اليسرى.

انفتحت بوَّابة المدخل على مصراعيها، وخرج منها حرسٌ مدجَّجون بمختلف الأسلحة: سيوف ودروع وصواعق، ثم ظهر من خلفهم رجلٌ طويل، أسمر اللون وداكن الشعر بملامح صقرية، يرتدي جُبَّة* على صدرها شعار آل آتريديز. كان يرتديها بطريقة تكشف عن عدم اعتياده هذا النوع من الملابس، إذ تشبَّث طرف الجُبَّة بساق بذلة التقطير التي يرتديها أسفلها من جانب، ولم تكن تتأرجح بحرِّية مع خطواته الواسعة.

إلى جوار الرجل سار شابٌ له نفس الشعر الدَّاكن لكن وجهه أكثر استدارة. بدا جسد الصبيِّ ضئيلًا على سنِّه الذي كان كاينز

يعرف أنها خمسة عشر عامًا، لكن أمارات القيادة كانت بادية على جسده اليافع، وأحاطت به هالة من الاتِّزان والثِّقة بالنفس، كما لو كان يرى ويدرك أشياء من حوله لا يراها الآخرون. وكان يرتدي نفس طراز جُبَّة والده، لكن بطريقة عفوية تجعل من يراه يظنُّ أنه اعتاد ارتداءها منذ نعومة أظافره.

النبوءة قالت: «*سيكون المهدي على علم بأشياء يعجز الآخرون عن رؤيتها*».

هزَّ كاينز رأسه، وقال لنفسه: *ما هم إلا بشر*.

برفقتهما سار رجلٌ يرتدي مثلهما ملابس الصَّحراء، وتعرَّفه كاينز: هذا جيرني هاليك. أخذ كاينز نفسًا عميقًا لقمع استيائه من هاليك، الذي كان التقاه من قبل وأطلعه على آداب معاملة الدوق وولي عهد الدوق.

«*في وسعك مخاطبة الدوق بـ"مولاي" و"سيِّدي". استخدام لقب "نبيل المنبت" جائز أيضًا، لكنه يقتصر عادةً على المناسبات الرسمية. يمكن مخاطبة الابن بلقب "السيِّد الصغير" أو "مولاي". الدوق رجلٌ متساهل الطبع، لكنه لا يحبُّ رفع الكُلفة*».

فكَّر كاينز وهو يراقب اقتراب المجموعة: *قريبًا سيعرفون من هو سيِّد أرَّاكس الحقيقي. ألم يخضعوني لاستجواب ذلك المِنتات نصف ليلة أمس؟ ألا يتوقَّعون مني أن أرشدهم في عملية تفتيش على استخراج الاسپايس؟ حسنًا*.

لم يفت على كاينز مغزى أسئلة حوَّاط. إنهم يريدون العثور على القواعد الإمبراطورية، التي يبدو أنهم عرفوا بأمرها من آيداهو.

قال كاينز في قرارة نفسه: *سآمر ستيلجار بإرسال رأس آيداهو إلى هذا الدوق*.

أصبحت المجموعة التي يتصدَّرها الدوق على بعد خطوات منه الآن، تسحق أقدامهم التي تنتعل بيادات الصَّحراء الرمال أسفلها.

انحنى كاينز قائلًا: «مولاي الدوق».

مع اقترابه، تفحَّص الدوق هيئة الرجل الواقف بمفرده إلى جوار الأورنيثوبتر: كان طويلًا، رفيعًا، يرتدي ثوبًا فضفاضًا وبذلة تقطير، وينتعل في قدميه بيادة صحراء. كانت قلنسوة الرجل مُلقاة خلفًا، ويتدلَّى لثامها إلى الجانب كاشفًا عن لحيةٍ مشعَّثة وشعرٍ طويل أصفر بلون الرمال. أما العينان المطلَّتان من أسفل حاجبيه الكثَّين فكانتا بتلك الزُّرقة العميقة التي لا أثر لبياض فيها، وتحيط بمحجريها بقايا هالاتٍ.

قال الدوق: «أنت عالم البيئة».

ردَّ كاينز: «نفضِّل هنا اللقب القديم يا مولاي. عالم البيئات الكوكبية».

قال الدوق: «كما تحب»، ثم نظر إلى پول وأردف: «يا بُني، هذا هو قاضي الفترة الانتقالية، حكم النزاع، الرجل الذي عُيِّن ليتأكَّد من اتِّباع الأعراف وتطبيق القوانين في أثناء انتقال سلطة هذه الإقطاعية إلينا»، ثم رمق كاينز بنظرة سريعة وقال: «وهذا ابني».

قال كاينز: «مولاي».

سأله پول: «هل أنت من الفرمن؟».

ابتسم كاينز: «أنا فرد مُرحَّبٌ به في السييتش وفي القُرى يا سيدي الصغير. لكنني في خدمة جلالة الإمبراطور، أنا عالم البيئات الكوكبية الإمبراطوري».

أومأ پول متفهِّمًا، معجبًا بهالة القوَّة المحيطة بالرجل. كان هاليك قد لفت نظر پول إلى كاينز مسبقًا من إحدى نوافذ

المبنى الإداري العلوية قائلًا: «إنه الرجل الواقف هناك مع الحرس الفرمني، الذي يتحرَّك الآن باتِّجاه الأورنيثوبتر».

وكان بول قد تفحَّص كاينز لمدَّة وجيزة عبر النظَّارة المعظِّمة، ملاحظًا فمه المزموم المستقيم، وجبهته العريضة، في أثناء ما راح هاليك يهمس في أذنه: «إنه رجل غريب الطباع، يتكلَّم بطريقة دقيقة وحادَّة كشفرة الموسى، مقتضبة لا لغو فيها».

وقتها علَّق الدوق من خلفهما: «كديدن العلماء».

أما الآن وهو يقف على بعد خطوات قليلة من الرجل، استشعر بول قوَّة حضور كاينز، وتأثير شخصيته الكاسح. بدا كأن دماءً ملكيةً تجري في عروق الرجل، كأنه وُلِد ليأمُر فيُطاع.

قال الدوق: «يجب علينا أن نشكرك لأنك أمددتنا ببذلات التقطير، وتلك الأردية».

قال كاينز: «آمل أن يكون مقاسها قد جاء مناسبًا يا مولاي. إنها من صنع الفرمِن، وهي أقرب ما يمكن للمقاسات التي أعطاني إياها رجلك هاليك».

قال الدوق: «تعجَّبت عندما قلت إنك لن تستطيع أخذنا في رحلة إلى الصَّحراء ما لم نرتدِ هذه السرابيل، ففي مقدورنا حمل الكثير من الماء، كما أننا لا ننوي قضاء وقتٍ طويلٍ هناك، وسيصحبنا غطاء تأمين جوِّي، تلك الطائرات التي تراها فوق رؤوسنا. من غير المرجَّح أن نضطر إلى الهبوط».

حدَّق كاينز إليه متأمِّلًا بشرته الغنية بالماء، ورد ببرود: «على أرَّاكس لا يتحدَّث المرء عن المرجَّحات، فقط عن الاحتمالات».

احتدَّ هاليك قائلًا: «يجب مخاطبة الدوق بمولاي أو بسيِّدي!».

رفع ليتو يده إلى هاليك بالإشارة الخاصة المتَّفق عليها للكفّ عن الكلام، وقال: «ما زالت أعرافنا جديدة هنا يا هاليك، علينا التساهل بعض الشيء».

- «كما ترى يا مولاي».

قال ليتو: «نحن مدينون لك يا دكتور كاينز، لن ننسى لك إمدادنا بهذه البذلات ومراعاتك مصلحتنا».

دون سابق تفكير، استدعى پول إلى ذهنه اقتباسًا من الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي، وقال: «"الهدية نعمة من المانح"».

رنَّت الكلمات في الهواء الساكن. وثب الحرس الفرمِني الذين تركهم كاينز في ظل المبنى الإداري جالسين القرفصاء من أماكنهم، وراحوا يتمتمون في انفعالٍ واضح، وصاح أحدهم بصوتٍ مسموع: «لسان الغيب!»

استدار كاينز، ورفع يده إلى الحرس في إشارة مقتضبة حازمة، مشيرًا لهم بالابتعاد. تراجع الحرس متذمِّرين فيما بينهم، وعادوا إلى أماكنهم حول المبنى.

قال ليتو: «هذا مثير للاهتمام».

وجَّه كاينز نظرة صارمة إلى الدوق وپول، وقال: «معظم سكان الصَّحراء هنا يؤمنون بالخرافات. لا يشغلنَّكما أمرهم، فلا خطر منهم». لكنه تذكَّر كلمات الأسطورة: *«بالكلمات المقدَّسة سيستقبلونكم، وستكون هداياكم في نظرهم نعمة»*.

فجأة تبلور في عقل ليتو تقييمه لكاينز (الذي اعتمد جزئيًا على تقرير حوَّاط الشفهي الموجز الذي وصفه بأنه حذر ومملوء بالشكوك): كان الرجل فرمِنيًا. جاء كاينز مصحوبًا بحرسٍ فرمِني،

وهو ما يعني ببساطة أن الفرمِن رُبَّما يختبرون حريتهم الجديدة في دخول المناطق الحضرية. لكن الحرس يبدو حرسًا شرفيًا. كما أن كاينز يبدو من أسلوبه أنه رجلٌ ذو كبرياء، معتاد على الحرِّية، لا يصون لسانه وأفعاله سوى حيطته. لقد كان سؤال پول السابق مباشرًا وفي صلب الأمر.

لقد صار كاينز واحدًا من الفرمِن.

سأل هاليك: «ألا يجب أن نتحرَّك يا سيِّدي؟».

أومأ الدوق قائلًا: «سأقود الثوبتر الخاصة بي. يمكن لكاينز أن يصحبني في المقدِّمة لتوجيهي. اجلس أنت وپول في المقاعد الخلفية».

قال كاينز: «لحظة من فضلك. بعد إذن مولاي، يجب أن أتحقَّق من سلامة بذلاتيكما».

همَّ الدوق بالتحدُّث، لكن كاينز أصر: «إنني أهتم بسلامتي الشخصية بقدر ما أهتم بسلامتيكما يا سيِّدي، فأنا أعلم جيِّدًا أيَّ عُنُقٍ سيطير إذا أصابكما مكروهٌ وأنتما في رعايتي».

قطب الدوق جبينه مفكِّرًا: *يا لحساسية الموقف! إذا رفضت، قد يشعر بالإهانة، وقد يكون هذا رجلًا ذا قيمة لا تُقدَّر بثمن. ومع ذلك، كيف أسمح له بتجاوز درعي ولمسي وأنا لا أعرف إلَّا أقل القليل عنه؟*

تسارعت الأفكار في عقله، وأعقبها قرارٌ فوري. قال الدوق: «نحن رهن تصرُّفك»، ثم خطا إلى الأمام، وفتح عباءته، ورأى هاليك يقف على مشطيّ قدميه مستنفرًا وعلى أهبَّة الاستعداد، لكنه لم يبرح مكانه. قال الدوق: «سيسعدني أن أسمع شرحًا لطريقة عمل البذلة من شخصٍ يألفها جيِّدًا، إذا تكرَّمت».

قال كاينز: «بالتأكيد»، وهو يتحسَّس من تحت العباءة بحثًا

عن موانع تسرُّب الكتفين. وبدأ يشرح وهو يتفقَّد البذلة: «البذلة مصنوعة من طبقات رقيقة تحيط بالجسم كالشطيرة، تعمل كمرشِّح عالي الكفاءة وكنظام تبادل حراري»، ثم ضبط موانع تسرُّب الكتفين. «الطبقة الملامسة للجلد مساميّة، يمرُّ العرق من خلالها بعد أن يكون قد برَّد الجسم، وهي عملية تشبه التبخُّر الطبيعي». شد كاينز رباط الصدر وأردف: «تشتمل الطبقتان التاليتان على خيوط للتبادل الحراري ومرسِّبات للملح. هكذا يُستعاد الملح».

أشار كاينز إلى الدوق فرفع ذراعيه، وقال: «مدهش جدًا».

قال كاينز: «تنفَّس بعمق».

أطاعه الدوق.

تفحَّص كاينز سدَّادات الإبط، وضبط إحداها وهو يقول: «حركة الجسم، بالأخص التنفُّس وبعض العمليات الأسموزية، توفِّر قوَّة الضغ المطلوبة». ثم أرخى منطقة الصدر بعض الشيء. «يُخزَّن الماء المُعاد تدويره في جيوب التجميع، ومنها يمكنك شفط الماء عبر هذا الأنبوب المعلَّق في المشبك قرب عنقك».

لوى الدوق ذقنه إلى الداخل وإلى أسفل لينظر إلى طرف الأنبوب، وقال: «عملي ومريح. تصميم هندسي جيِّد».

ركع كاينز على ركبته ليتفحَّص سدَّادات الساقين، وواصل شرحه: «تُجرى معالجة البول والبراز في حشوة الفخذ»، قالها وقام واقفًا، وتحسَّس الجزء المحيط بالعُنُق، ورفع سديلة منفصلة به. «في الصَّحراء المفتوحة ستضع هذا المرشِّح على وجهك، وستدخل هذا الأنبوب في فتحتي الأنف وستحكم غلقه بهاتين السدَّادتين لضمان عدم حدوث تسريب. ستتنفَّس عبر مرشِّح الفم، وتزفر عبر أنبوب الأنف. مع بذلة فرمنية بحالة جيِّدة، لن

تفقد أكثر من ملء كشتبان من الرطوبة في اليوم، حتَّى لو علقت في نطاق العِرق* العظيم».

ردَّد الدوق: «ملء كشتبان في اليوم».

ضغط كاينز بإصبعه على حشوة غطاء الجبهة وقال: «قد تشعر بحكَّة خفيفة، أرجو أن تخبرني إذا أزعجتك. أستطيع أن أشدها لتكون أكثر إحكامًا».

قال الدوق: «أشكرك»، وراح يحرِّك كتفيه في البذلة في أثناء ما تراجع كاينز خطورة إلى إلى الخلف. شعر ليتو بأنها صارت أكثر إحكامًا وراحةً، ولا تسبب حكَّة مزعجة.

التفت كاينز إلى پول وقال: «لنلقي نظرة إليك الآن يا فتى».

فكَّر الدوق: *إنه رجل صالح ولكن عليه أن يتعلَّم مخاطبتنا بشكلٍ لائق.*

وقف پول مستسلمًا فيما راح كاينز يتفقَّد بذلته. كان قد شعر بإحساس غريب عند ارتدائه هذه البذلة المجعّدة ذات السطح الأملس. في عقله الواعي كان متيقّنًا تمام التيقُّن من أنه لم يرتدِ بذلة تقطير من قبل. ومع ذلك، فإن كل حركة فعلها وهو يضبط ألسنتها اللاصقة تحت توجيهات جيرني عديم الخبرة بدت طبيعية وفطرية. وعندما شد منطقة الصدر للحصول على أقصى قدر من الضخ من حركة التنفُّس، كان يعرف ماذا يفعل ولماذا يفعله. وعندما أحكم شد نطاق العنق وألسنة الجبين، كان يعلم أن ذلك لمنع البثور التي تنتج عن الاحتكاك.

اعتدل كاينز وخطا إلى الوراء وقد بدا على وجهه تعبير حائر.

سأله: «هل ارتديت بذلة تقطير من قبل؟».

- «هذه أوَّل مرَّة».

- «هل ضبطها أحدٌ لك؟».

- «كلا».

- «بيادتك الصحراوية محكمة الربط من عند الكاحلين، من أخبرك أن تفعل هذا؟».

- «بدت أنها.. الطريقة الصحيحة».

- «هي كذلك بكل تأكيد».

حكَّ كاينز ذقنه مفكِّرًا فيما ذكرته الأسطورة: *«ولسوف يعلم عاداتكم كأنه نشأ عليها»*.

قال الدوق: «إننا نضيِّع الوقت»، ثم أشار إلى الثوبتر المنتظرة وتقدَّمت المجموعة إليها، مجيبًا تحيَّة الحارس العسكرية بإيماءة من رأسه. صعد على متن الطائرة، وربط حزام الأمان، وفحص الأجهزة وأدوات التحكُّم. أصدرت المركبة صريرًا مع صعود الآخرين على متنها.

ربط كاينز حزام الأمان، وقد لفت نظره فخامة بطانة المركبة المريحة من الداخل، وراح يتأمَّل البذخ البادي في تنجيد المقاعد الناعم ذي اللون الفستقي، والمعدَّات البرَّاقة، وإحساس الهواء النقي المفسول في رئتيه عندما أُغلقت الأبواب ودبَّت الحياة في مراوح التهوية.

يا للترف! هكذا فكَّر.

قال هاليك: «الكل جاهز يا سيِّدي».

غذَّى ليتو الأجنحة بالطاقة، وشعر بها تتحرَّك إلى أعلى وأسفل: مرَّة، وثانية. ثم صاروا يحلِّقون على ارتفاع عشرة أمتار في الهواء، والأجنحة ترفرف بإحكام وقوَّة، فيما تدفعهم المحرِّكات النفَّاثة إلى أعلى في صعودٍ حادٍ وصاخب.

قال كاينز: «سنتَّجه إلى الجنوب الشرقي من فوق الجدار الحامي، صوب المكان الذي طلبت من مشرف الرمال -مدير العمليات التابع لكم- أن يركِّز معدَّاته».

- «عُلِم».

مال الدوق بالثوبتر نحو طائرات الحراسة الجوِّية، فاتَّخذت المركبات الأخرى مواقع التأمين المعهودة، وانطلق السرب نحو الجنوب الشرقي.

قال الدوق: «يشي تصميم وتصنيع هذه البذلات بدرجة عالية من الاحترافية».

قال كاينز: «يومًا ما قد أصحبك في جولة عبر أحد مصانع السييتشات».

قال الدوق: «سيكون هذا مثيرًا. لاحظت أيضًا أن البذلات تُصنَّع في بعض مدن الحاميات».

قال كاينز: «إنها نسخ مقلَّدة رديئة الجودة. أيُّ رجل يحترم جسده يرتدي بذلة من صنع الفرمِن».

- «وتقول إن هذه تجعل خسارة الماء تعادل ملء كشتبان في اليوم؟».

قال كاينز: «إذا ارتُديت بطريقة صحيحة، مع إحكام غطاء الجبهة وكل السدَّادات، سيكون فقد الماء الأكبر من خلال راحتي يديك. بالطبع يمكنك ارتداء قفَّازي البذلة إذا كنت لا تستخدم يديك في عمل ضروري، ولكن معظم الفرمِن في الصَّحراء المفتوحة يفركون أيديهم بعصارة أوراق شجيرة الكريوزوت الزيتية، فهو يمنع التعرُّق».

نظر الدوق إلى أسفل نحو منحدرات الجدار الحامي المتصدِّعة،

ورأى الشقوق المحفورة في الصخور المعذَّبة: الجلاميد الصفراء البنِّية التي تقطعها خطوط صدعية سوداء التي بدت كأنها هوت من السماء وتُركت محطَّمة حيث سقطت. ثم عبروا حوضًا ضحلًا تحدُّه بوضوح رمالٌ رمادية وتنتشر من حوله قادمة من مخرج وادٍ ضيِّق إلى الجنوب. كانت أخاديد الرمال تتشعَّب كالشرايين عبر الحوض، دلتا جافة مُحاطة بصخور داكنة.

استرخى كاينز في مقعده مفكِّرًا في الجسدين العامرين بالمياه الذين استشعرهما أسفل بذلتي التقطير. كانا يرتديان حزامي درعي طاقة أسفل عباءتهما، وويتمنطقان بصواعق بطيئة السهام عند خصريهما، ويعلِّقان جهازي إرسال للطوارئ في حجم عملتين معدنيَّتين من سلسلتين حول عنقيهما. كلٌّ من الدوق وابنه يحمل خنجرًا في غمدٍ على معصمه، وقد بدا الغمدين باليين من كثرة الاستعمال. رأى كاينز في هؤلاء القوم مزيجًا غريبًا أثار دهشته من النعومة والقوَّة المسلَّحة. رأى فيهم اتِّزانًا يختلف تمامًا عمَّا عهده في الهراكنة.

سأل ليتو: «عندما ستقدِّم تقريرك إلى الإمبراطور عن تغيير الحكومة هنا، هل ستقول إننا راعينا الأعراف واتَّبعنا القوانين؟»، ثم رمق كاينز بنظرة خاطفة، قبل أن يعود للتركيز على المسار.

قال كاينز: «الهراكنة غادروا، وأنتم أتيتم».

سأله ليتو: «وهل سار الأمر كما ينبغي أن يسير؟».

بدا توتُّر لحظي في انقباض إحدى عضلات فك كاينز، ثم قال: «بصفتي عالم بيئة كوكبي وقاضي فترة انتقالية، فأنا لا أخضع إلا لسلطة الإمبراطور مباشرةً.. يا مولاي».

ابتسم الدوق بشكس وقال: «لكن كلينا يعرف حقيقة الأوضاع».

- «أذكرك بأن جلالته يدعم عملي هنا».

- «حقًا؟ وما عملك هنا بالضبط؟».

مرَّت لحظة صمت قصيرة فكَّر فيها پول: *إنه يضغط على هذا المدعو كاينز أكثر من اللازم*. نظر پول إلى هاليك، لكن المحارب المطرب كان يحملق سارحًا في الأراضي القاحلة.

قال كاينز بتحفُّظ: «أنت -قطعًا- تلمِّح إلى واجباتي بصفتي عالم بيئة كوكبي».

- «بلا شك».

- «يتعلَّق عملي في المقام الأوَّل بدراسة أحياء ونباتات الأراضي الجافة، وببعض الدراسات الچيولوچية أيضًا، كالحفر في باطن الأرض وإجراء التجارب. لا يمكن للمرء أن يفرغ من دراسة كوكب برمَّته».

- «وهل تدرس الاسپايس كذلك؟».

التفت كاينز إلي الدوق، ولاحظ پول الصرامة البادية على جانب وجهه: «هذا سؤال فضولي يا سيِّدي».

- «لا تنس يا كاينز أنني الحاكم على هذه الإقطاعية الآن، وأساليبي تختلف عن أساليب الهراكنة. لا أمانع إن كنت تدرس الاسپايس، ما دمت سأطَّلع على ما تكتشفه»، قالها الدوق وألقى نظرة إلى عالم البيئات الكوكبية ثم أردف: «لم يكن الهراكنة يشجِّعون دراسة الاسپايس، أليس كذلك؟».

بادله كاينز التحديق دون أن يجيب.

قال الدوق: «يمكنك التحدُّث بوضوح بلا خوف على حياتك».

- «البلاط الإمبراطوري بعيد جدًّا بالفعل»، هكذا تمتم كاينز، ثم فكَّر: *ماذا يتوقَّع هذا الغازي الغض بالمياه؟ أيظن أنني أحمق بما يكفي للانضمام إلى صفِّه؟*

ضحك الدوق دون أن يرفع عينه عن المسار، ثم قال: «أستشعر بعض المرارة في صوتك يا سيِّدي. أنت ترى أننا نزلنا على هذا الكوكب بعصابتنا من القتلة المُروَّضين، وأننا نتوقَّع منك أن تدرك على الفور أننا مختلفون عن الهراكنة، أليس كذلك؟».

قال كاينز: «لقد رأيت المنشورات التي أغرقتم بها السييتشات والقرى. أحبُّوا الدوق الصالح! إن قوَّاتك الـ...»

صاح هاليك مقاطعًا: «هذا يكفي!»، وقد أبعد انتباهه عن النافذة ومال إلى الأمام متحفِّزًا.

وضع پول يده على ذراع هاليك.

قال الدوق: «على رسلك يا جيرني! هذا الرجل عاش طويلًا تحت حكم الهراكنة».

تراجع هاليك في مقعده، وقال: «حسنًا».

قال كاينز: «رجلك حوَّاط حاذق، لكن ما أراد انتزاعه مني كان واضحًا تمامًا».

سأله الدوق: «هل ستفتح لنا هذه القواعد إذًا؟».

قال كاينز باقتضاب: «إنها ملك جلالة الإمبراطور».

- «لكنها مهجورة وغير مستخدمة».

- «قد تُستخدم».

- «هل يؤيِّد جلالته هذا الرأي؟».

رمى كاينز الدوق بنظرة حادة: «يمكن تحويل أرَّاكس إلى جنَّة عدن إذا كفَّ حكَّامه عن التهافت على الاسپايس».

فكَّر الدوق: *لم يجب عن سؤالي*، ثم قال: «وكيف يمكن أن يصير الكوكب جنَّة دون مال؟».

سـأله كاينـز: «ومـا نفـع المـال إن لـم يبتـاع الخدمـات التـي يحتـاج المـرء إليهـا؟».

فكَّـر الـدوق: *يـا للهـراء!*، وقـال: «سـنناقش هـذا فـي وقـتٍ لاحـق. أظـن أننـا نقتـرب مـن حافَّـة الجـدار الحامـي، هـل أحافـظ علـى نفـس المسـار؟».

تمتم كاينز: «نفس المسار».

نظـر پـول عبـر النافـذة. أسـفلهم، بـدأت سـفوح المنحـدرات المتشـقِّقة تتحـوَّل تدريجيًّـا إلـى أراضٍ وعـرة ومسـطَّحات صخريـة حـادَّة كالسـكاكين. وخلفهـا، امتـدَّت علـى مرمـى البصـر طيَّـات هلاليـة تلـو أخـرى مـن الكثبـان الرمليـة، تتخلَّلهـا بقـعٌ داكنـة متفرِّقـة، ولطخـات باهتـة هنـا وهنـاك، تـدل علـى وجـود تكوينـات چيولوچيـة أخـرى غيـر الرمـال. قـد تكـون نتـوءات صخريـة، ولكـن عبـر تموُّجـات الهـواء السـاخن، لـم يسـتطع پـول التأكُّـد.

سأل پول: «أتوجد نباتات هنا في الأسفل؟».

قـال كاينـز: «تُوجـد بعـض النباتـات، يحتـوي النطـاق الإحيائـي لخطـوط العـرض هـذه علـى مـا نسـمِّيه سـارقات الميـاه الصغيـرة، وهـي نباتـات تكيَّفـت علـى مداهمـة بعضهـا بعضًـا لاقتنـاص الرطوبـة مـن الجـو، والتهـام بقايـا قطـرات النـدى. بعـض المناطـق فـي الصَّحـراء تمـوج بأشـكال الحيـاة، لكنهـا جميعًـا تعلَّمـت كيـف تنجـو فـي ظـل هـذه الظـروف القاسـية. إذا حـدث وعلقـت فـي هـذه المنطقـة مـن الصَّحـراء، إمـا أن تحاكـي أسـاليب هـذه الكائنـات وإمـا سـتموت».

سـأل پـول: «أتعنـي سـرقة الميـاه بعضنـا مـن بعـض؟». أغضبتـه الفكـرة، وخانـت نبـرة صوتـه مكنـون صـدره.

قال كاينز: «هذا يحدث أحيانًا، لكن لم يكن ذلك ما أعنيه بالضبط. ما عنيته أن مناخي يتطلَّب أسلوب تعامل خاص مع المياه. عليك أن تظل واعيًا للماء في جميع الأوقات، لا يغفل عن بالك. لا تهدر أيَّ شيء يحتوي على الماء».

فكَّر الدوق: «... *مناخي!*».

قال كاينز: «انحرف بمقدار درجتين تجاه الجنوب يا مولاي، فثمَّة عاصفة قادمة من الغرب».

أومأ الدوق، إذ كان قد لاحظ بالفعل سحابة الغبار الداكنة التي بدأت تتصاعد. مال الدوق بالثوبتر، ولاحظ انعكاس اللون البرتقالي الغائم على أجنحة الطائرات المرافقة وهي تستدير لمواكبته، الناتج عن انكسار الضوء بفعل الغبار.

قال كاينز: «سينأى هذا بنا عن حافة العاصفة».

قال پول: «تبدو هذه الرمال خطِرة إذا حلَّقنا فيها. أهي قادرة حقًا على قطع أقوى المعادن؟».

قال كاينز: «ما تراه على هذا الارتفاع ليس رملًا، بل غبار. الخطورة تكمن في انعدام الرؤية، والاضطرابات الجوِّية، وانسداد فتحات التهوية».

سأله پول: «هل سنشاهد اليوم عملية تنقيب فعلية عن الاسپايس؟».

قال كاينز: «احتمال كبير».

تراجع پول في مقعده. لقد استخدم الأسئلة وتركيز الوعي لتحقيق ما تُسمِّيه أُمُّه «تسجيل ملف» الشخص. لقد صار مُلمًّا بسمات كاينز الآن: نبرة صوته، وكل تفاصيل ملامحه وحركاته وسكناته. تلك الطيَّة الغريبة في كم الرجل الأيسر تشي بوجود

سكين مخفي في غمد الذراع، وفي خصره أيضًا انبعاجات غريبة. يُقال إن رجال الصَّحراء يلفُّون خواصرهم بوشاح يستخدمونه نطاقًا يدسُّون فيه حاجيات صغيرة. رُبَّما هذه الانبعاجات سببها هذا النطاق، فهي قطعًا ليست ناتجة عن حزام درع مخفي. أيضًا ثمَّة دبوس نحاسي محفور عليه شكل أرنب يشبك رداء كاينز قرب العنق، ودبوس آخر أصغر عليه شكل مشابه معلَّق في جانب القلنسوة التي يلقيها وراء كتفيه.

استدار هاليك في المقعد المجاور إلى پول، ومدَّ يده إلى الحاوية الخلفية والتقط الباليسِت. نظر كاينز حوله عندما بدأ هاليك يضبط آلته الموسيقية، ثم أعاد انتباهه إلى المسار.

سأل هاليك: «ماذا تحب أن تسمع يا سيِّدي الصغير؟».

قال پول: «فاجئني يا جيرني».

مال هاليك وقرَّب أُذُنه من اللوحة الصَّوتية، وضرب على الأوتار وغنَّى بعذوبة:

«أكل آباؤنا المنَّ في الصَّحراء،

في الأراضي اللافحة حيث تهتاج الزوابع.

أنقذنا يا ربَّنا من هذه الغبراء!

أنقذنا، إنا نعوذ بك، أنقذنا

من أرض العطش الجدباء».

نظر كاينز إلى الدوق وقال: «سمعت أنك تتنقَّل برفقة حرس خفيف يا مولاي، هل جميعهم رجال متعدِّدو المواهب هكذا؟».

ضحك الدوق: «أتعني جيرني؟ جيرني فريدٌ من نوعه. أحب أن يرافقني لعينيه الثاقبتين. هاتان عينا صقر لا يفوتهما شيءٌ».

قطب عالم البيئات الكوكبية جبينه.

تدخَّل هاليك قائلًا دون أن يترهَّل إيقاع لحنه:

«لأنني كبومة الصَّحراء!

حقًا أقول! كبومة الصَّحراء أنا».

مدَّ الدوق يده إلى لوحة الأجهزة والتقط ميكروفونًا، وضغط زرَّه وقال:

- «من القائد إلى الحامية جيما. جسم طائر في اتِّجاه عقرب الساعة التاسعة، القطاع ب، أتتعرَّف هويَّته؟».

قال كاينز: «إنه مجرَّد طائر»، ثم أضاف: «تتمتَّع بنظر لثاقب».

صدرت طقطقة من السمَّاعة في اللوحة، ثم: «هنا الحامية جيما. فُحص الجسم بعناية بعد تكبير كامل لمجال الرؤية. إنه طائر كبير».

نظر پول إلى الاتِّجاه المذكور، ورأى نقطة بعيدة، نقطة تتحرَّك حركة متقطِّعة، وأدرك إلى أيِّ مدى والده يقظ، وكيف أن كل حاسة من حواسه مشحوذة بالكامل.

قال الدوق: «لم أكن أعرف أن طيورًا بهذا الحجم تعيش في هذا العمق في الصَّحراء».

قال كاينز: «إنه عُقاب على الأرجح. مخلوقات كثيرة تكيَّفت على الحياة في هذا الكوكب».

حلَّقت الأورنيثوبتر فوق أرض صخرية جرداء. نظر پول من ارتفاع ألفي متر ورأى الظلال المتعرِّجة التي تلقيها طائرتهم والطائرات المرافقة. بدت الأرض أسفلهم مسطَّحة، لكن تعاريج الظلال وشت بغير ذلك.

سأل الدوق: «هل سبق أن عاد أحدهم سيرًا من الصَّحراء؟».

توقَّف هاليك عن العزف، ومال إلى الأمام ليسمع الجواب.

قال كاينز: «ليس من أعماق الصَّحراء. بعض الرجال عادوا من النطاق الثاني مرَّات عِدَّة، وهؤلاء نجوا بعبور المناطق الصخرية التي نادرًا ما تقصدها الديدان».

جذبت نبرة صوت كاينز اهتمام پول، وانتبهت حاسَّته الإدراكية كما دُرِّبت أن تفعل.

قال الدوق: «آها، الديدان. يجب أن أرى واحدة لاحقًا».

قال كاينز: «قد ترى واحدة اليوم، فأينما وُجد الاسپايس وُجدت الديدان».

سأل هاليك: «دائمًا؟».

- «دائمًا».

قال الدوق: «أتوجد علاقة بين الديدان والاسپايس؟».

التفت كاينز نحوه فلاحظ پول شفتي الرجل المزمومتين، ثم قال: «إنها تدافع عن الرمال الغنية بالاسپايس، فلكل دودة منطقة نفوذ. أما بخصوص الاسپايس، فمن يعرف؟ عينات الديدان التي فحصناها تجعلنا نشتبه في حدوث عمليات تبادل كيميائي معقدة داخل أجسادها، فقد وجدنا آثار حمض الهيدروكلوريك في عروقها، وأحماض أخرى أكثر تعقيدًا في أماكن أخرى من أجسادها. سأطلعك على دراستي عن هذا الموضوع».

سأل الدوق: «وهل لا تفلح دروع الطاقة في صدِّها؟».

قال كاينز ساخرًا: «دروع الطاقة! فقط فعِّل درع طاقة داخل إحدى مناطق الديدان وسينتهي أمرك. تتجاهل الديدان مناطق النفوذ عند تشغيل الدرع، وتأتي من كل فجٍّ عميق لمهاجمته. لم

يسبق أن نجا رجلٌ يضع درعًا من هجومٍ كهذا».

- «وكيف تُصاد الديدان إذًا؟».

قال كاينز: «الطريقة الوحيدة المعروفة لقتل الدودة والحفاظ عليها سليمة تكون بتوجيه صدمة كهربائية عالية الجهد إلى كل حلقة من الحلقات المكوِّنة لجسدها. يمكن شلُّ حركة الدودة وتدميرها بالمتفجرات، لكن كل قطاع حلقي له حياة مستقلة. باستثناء الأسلحة الذرِّية، لا أعرف متفجِّرات أخرى قادرة على تدمير دودة كبيرة بشكل كامل. إن أجسامها شديدة الصلابة».

سأل پول: «لِمَ لم يُبذل جهدٌ للقضاء عليها وإبادتها جميعًا؟».

قال كاينز: «هذا مكلِّف جدًا. المساحة المطلوب تغطيتها شاسعة».

تراجع پول إلى الركن الذي يحتلُّه. لقد أخبره حسُّه الكاشف للكذب، ووعيه بنبرات الصَّوت، بأن كاينز يكذب، ويتفوَّه بأنصاف حقائق فحسب. ووجد نفسه يُفكِّر: *إن كانت هناك علاقة بين الاسپايس والديدان، فإبادة الديدان ستبيد الاسپايس كذلك.*

قال الدوق: «قريبًا لن يُضطر أحدٌ للعودة من الصَّحراء سيرًا. كل ما على المرء فعله هو تفعيل أجهزة البثِّ الصغيرة هذه المعلَّقة في أعناقنا، وستكون النجدة في الطريق. قريبًا سيرتدي كل عامل من عُمَّالنا جهازًا كهذا، فنحن بصدد إنشاء خدمة إنقاذ خاصة».

قال كاينز: «خطوة تستحق الإشادة».

قال الدوق: «نبرتك تقول إنك لا تتَّفق».

- «لا أتَّفق؟ بالتأكيد أتَّفق، لكنها بلا نفع حقيقي. الكهرباء الساكنة الناتجة عن العواصف الرملية تحجب الكثير من الإشارات

وتُفسد دوائر أجهزة البثّ. لقد سبق تجربتها هنا. إن أرّاكس لكوكبٌ قاسٍ على المُعدّات. ومن ناحيةٍ أخرى، إذا طاردتك إحدى الديدان فلن يكون أمامك الكثير من الوقت. في أغلب الأحيان لا يكون أمامك أكثر من خمس عشرة أو عشرين دقيقة».

سأل الدوق: «وبم تنصح؟».

- «هل تطلب نصيحتي؟».

- «أجل، بصفتك عالم بيئات كوكبية».

- «وهل ستتبع نصيحتي؟».

- «إن وجدتها منطقية».

- «حسنًا يا سيِّدي، لا تسافر وحدك أبدًا».

حوَّل الدوق انتباهه عن أجهزة التحكُّم، وقال: «أهذا كل ما لديك؟».

- «هذا كل ما لديَّ. لا تسافر وحدك أبدًا».

سأل هاليك: «لكن ماذا لو انفصلت عن مجموعتك وأُجبرت على الهبوط بسبب عاصفة؟ ألا يُوجد ما يُمكن فعله حينها؟».

قال كاينز: «هذا سؤال عام جدًا».

سأل پول: «ماذا ستفعل أنت حينها؟».

استدار كاينز وحدَّج الصبيَّ بنظرة حادَّة، ثم أعاد انتباهه إلى الدوق: «أوَّل شيء سأتأكَّد من سلامة بذلة التقطير. إذا كنت خارج مناطق نفوذ الديدان أو في منطقة صخرية، سألزم مركبتي. أما إذا كنت في منطقة رمال مفتوحة، سأبتعد عن المركبة بأسرع ما يمكن. ألف متر تقريبًا ستكون كافية، ثم سأختبئ تحت ردائي. ستلتهم الدودة المركبة، لكنها قد لا تلاحظ وجودي».

سأله هاليك: «وماذا بعد؟».

هزَّ كاينز كتفيه وقال: «سأنتظر حتَّى ترحل الدودة».

سأله پول: «هذا كل شيء؟».

قال كاينز: «بعد رحيل الدودة، يمكن للمرء البدء في السير، لكن عليه السير بنعومة، وتفادي الرمل الطبلي، وأحواض المدِّ والجذر الغبارية، والتوجُّه إلى أقرب منطقة صخرية. يُوجد الكثير من هذه المناطق. إذا فعلت ذلك، رُبَّما تتمكَّن من الخروج حيًّا».

سأل هاليك: «الرمل الطبلي؟».

قال كاينز: «إنها حالة من انضغاط الرمال. أقل خطوة تجعل الرمل يقرع كالطبل، ودائمًا ما يجذب ذلك الديدان».

سأل الدوق: «وماذا عن حوض المدِّ والجذر الغباري؟».

- «بعض المنخفضات في الصَّحراء امتلأت بالغبار على مدار قرون، وبعضها واسع جدًّا إلى درجة أنه يحتوي على تياراتٍ ومدٍّ وجزر. هذه الأحواض ستبتلع الغافل الذي يدخلها».

تراجع هاليك في مقعده، واستأنف الضرب على أوتار الباليسِت، في هذه اللحظة كان يغنِّي:

«هنا تتصيَّد الوحوش البرِّية في الصَّحراء،

هنا تتربَّص لمرور الأبرياء.

أوه، إيَّاك وإغضاب آلهة اليهماء،

إلا إن كنت تبحث عن ضريحٍ مهجور.

مخاطر الـ...»

ثم بتر هاليك غناءه بغتةً، ومال إلى الأمام قائلًا: «سحابة غبار أمامنا يا سيِّدي».

- «أراها يا جيرني».

قال كاينز: «هذا ما نبحث عنه».

شبَّ بول في مقعده لينظر إلى الأمام، ورأى غيمة صفراء تعلو سطح الصَّحراء على ارتفاعٍ منخفض وتبعد نحو ثلاثين كيلومترًا.

قال كاينز: «إنها إحدى مجارف الرمال التابعة لك. إنها على السطح، وهذا يعني أنها فوق أرض غنيَّة بالاسپايس. السحابة تتكوَّن من رمالٍ مطرودة بالهواء، بعد فصل الاسپايس عنها بالطرد المركزي، ولا تشبهها سحابة أخرى».

قال الدوق: «هناك طائرة تحلِّق فوقها».

قال كاينز: «أرى اثنتين، ثلاث، أربع حوَّامات مراقبة. إنها تراقب المحيط بحثًا عن إحدى علامات الديدان».

سأل الدوق: «علامات الديدان؟».

– «إنه المصطلح الذي نطلقه على الموجة الرملية المتحرِّكة باتِّجاه زحَّافة الرمال. أيضًا تُوجد مجسات زلزالية منشورة على السطح، فأحيانًا تتحرَّك الديدان على مسافة عميقة في باطن الأرض، ما لا يُسبِّب موجة في الرمال»، قالها كاينز وأدار بصره في السماء، ثم أردف: «يُفترض أن تكون هناك حاملة جوِّية في الجوار، لكنني لا أراها».

قال هاليك: «الديدان تأتي دائمًا، أليس كذلك؟».

– «دائمًا».

مال بول إلى الأمام، ولمس كتف كاينز وسأله: «ما مساحة منطقة النفوذ التي تحرسها كل دودة؟».

قطب كاينز جبينه. لا ينفك الفتى عن طرح أسئلة أكبر من سنِّه.

– «يعتمد الأمر على حجم الدودة».

سأل الدوق: «إلى أيِّ مدى تتراوح المساحة بالتقريب؟».

- «الديدان الكبيرة قد تفرض نفوذها على ثلاثمئة أو أربعمئة كيلومترٍ مربَّع. أما الصغيرة...»، قطع كاينز عبارته حين ضغط الدوق المكابح النفَّاثة، ما أدّى إلى طرح المركبة إلى الأمام مع تباطؤ دوران مراوح الذيل قبل توقُّفها. استطالت ألواح الأجنحة المعدنية ورفرفت محتضنة الهواء. تحوّلت المركبة إلى ثوبتر كاملة، فمال الدوق بها محافظًا على إيقاع رفرفة الأجنحة وهو يشير بيده اليسرى إلى الشرق خلف زحَّافة الرمال.

- «أهذه من علامات الديدان؟».

مال كاينز نحو الدوق كي ينظر إلى حيث يشير، فيما تكدَّس كلٌّ من پول وهاليك وهما ينظران إلى الاتّجاه نفسه. لاحظ پول أن الطائرات المرافقة تجاوزتهم بسبب المناورة المباغتة، لكنها كانت تعود أدراجها الآن. كانت زحَّافة الرمال قابعة أمامهم، لا تزال على بُعد نحو ثلاثة كيلومترات.

حيث أشار الدوق، امتدَّت الكثبان الهلالية حتَّى الأفق، ناشرةً ظلالًا متموِّجة على مرمى البصر... وكان يجري عبرها، في خطٍّ مستقيم، انبعاج ممدود كأنه جبلٌ متحرِّك: حدبة في الرمال ذكَّرت پول بالطريقة التي تثير بها سمكة كبيرة اضطرابًا في صفحة الماء حين تسبح تحت سطحه مباشرةً.

قال كاينز: «إنها دودة كبيرة». ثم اعتدل في مقعده، والتقط الميكروفون من لوحة الأجهزة، وضغط زر تغيير التردُّد، وبدأ يتحدَّث فيه وهو يختلس النظر إلى الخريطة المعلَّقة فوق رؤوسهم:

«إلى الزحَّافة في الموقع دلتا أچاكس ناينر. تحذير: علامة على وجود دودة. إلى الزحَّافة في الموقع دلتا أچاكس ناينر.

تحذير: علامة على وجود دودة. يُرجى تأكيد الاستلام». أنهى كاينز كلامه وانتظر.

صدرت طقطقة استاتيكية من السمَّاعة، ثم جاء صوتٌ يقول: «من المتَّصل بدلتا أجاكس ناينر؟ حوِّل».

قال هاليك: «يتصرَّفون بهدوء شديد».

قال كاينز عبر الميكروفون: «نحن رحلة جوِّية غير مدرجة على الجدول، شمال شرق موقعك، على بُعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا. الدودة تتَّجه إلى موقعكم، وقت الوصول المتوقَّع خمس وعشرون دقيقة».

جاء صوتٌ آخر عبر السمَّاعة يقول: «هنا حوَّامة المراقبة المركزية، نؤكِّد الرؤية. استعد لتلقِّي تصحيح زمن الوصول». مرَّت لحظة صمت، ثم: «الوصول في أقل من ستة وعشرين دقيقة. تقديركم كان دقيقًا جدًّا. من يطير على متن تلك الرحلة غير المسجَّلة؟ حوِّل».

فكَّ هاليك حزام الأمان، واندفع إلى الأمام بين كاينز والدوق قائلًا: «هل هذا تردُّد العمل المعتاد يا كاينز؟».

- «أجل، لماذا؟».

- «ومن أيضًا يستمع إليه؟».

- «لا أحد غير أطقم العمل في المنطقة، هذا يحدُّ من تداخل الإشارات».

مرَّة أخرى صدرت طقطقة من السمَّاعة، ثم: «هنا دلتا أجاكس ناينر، من الذي سيحصل على مكافأة هذا الاكتشاف؟».

نظر هاليك إلى الدوق في حيرة.

قال كاينز: «تُخصَّص مكافأة لمن يعطي أول تحذير من الدودة،

تُحسب بناء على حجم حمولة الاسپايس. إنهم يريدون معرفة...».

قال هاليك: «أخبرهم بهوية أوَّل من رصد الدودة».

أومأ الدوق موافقًا.

تردَّد كاينز لحظة، ثم رفع الميكروفون إلى فمه وقال: «صاحب الاكتشاف هو الدوق ليتو آتريديز. أكرِّر، الدوق ليتو آتريديز، حوِّل».

جاء الصَّوت من السمَّاعة غير واضح، تشوَّش عليه دفقة من الكهرباء الاستاتيكية: «عُلم، وشكرًا لك».

أمره هاليك: «الآن، قل لهم أن يقسِّموا المكافأة فيما بينهم. أخبرهم إنها رغبة الدوق».

أخذ كاينز نفسًا عميقًا ثم قال: «الدوق يوصي بتقسيم المكافأة على أفراد طاقمك. هل تسمعني؟ حوِّل».

قال الصَّوت من السمَّاعة: «عُلم، وشكرًا لك».

قال الدوق: «نسيت أن أخبرك أن جيرني أيضًا موهوب جدًّا في أمور العلاقات العامَّة».

التفت كاينز ووجَّه نظرة عابسة حائرة إلى هاليك.

قال هاليك: «هذا سيجعل الرجال يعرفون أن دوقهم يهتم بسلامتهم، وسيُشاع الخبر. كما أن الأمر أُذيع عبر تردُّد موجة العمل، فمن غير المحتمل أن يكون أحد عملاء الهراكنة قد التقطه». ثم نظر إلى الخارج نحو الحراسة الجوِّية وأردف: «كما أننا برفقة قوَّة جوِّية لا يُستهان بها. كانت مخاطرة محسوبة».

مال الدوق بالمركبة متَّجهًا نحو سحابة الغبار المنبعثة من زحَّافة الرمال، وقال: «ماذا سيحدث الآن؟».

قال كاينز: «في مكانٍ ما قريب تحوم حاملة جوِّية، ستأتي وتحمل الزحَّافة بعيدًا».

سأل هاليك: «ماذا لو أصاب الحاملة عطب؟».

قال كاينز: «ستُفقد المعدّات. اقترب من زحّافة الرمال يا مولاي، ستجد المشهد مثيرًا».

قطب الدوق جبينه، وانصب اهتمامه على أجهزة التحكُّم مع اقترابهم من الهواء المضطرب الذي يعلو الزحّافة.

نظر پول إلى أسفل ورأى الرمل الذي ما زال الوحش المعدني البلاستيكي يقذفه. بدت زحّافة الرمال أشبه بخنفسة برونزية زرقاء تخرج منها أذرع كثيرة تنتهي بجنازير عريضة. رأى پول خرطومًا عملاقًا ينتهي بقمع مقلوب مغروس في الرمال الداكنة أمام الزحّافة.

قال كاينز: «من لون التربة يبدو أن الرمال غنيَّة جدًا بالاسپايس. سيواصلون العمل حتَّى آخر دقيقة».

ضخَّ الدوق مزيدًا من الوقود في الأجنحة، وصلَّبها هابطًا بالثوبتر بحِدَّة إلى ارتفاع منخفض، ثم وراح يحوم حول الزحّافة. نظر إلى اليمين واليسار ورأى طائرات التأمين الجوِّي المرافقة تحوم فوقه في دائرة محافظة على ارتفاعها.

تأمَّل پول السحابة الصفراء التي تخرج من فتحات أنابيب الزحّافة، ثم رنا ببصره نحو الصَّحراء المترامية مراقبًا مسار الدودة المقتربة.

سأل هاليك: «أليس من المفترض أن نسمع اتِّصالهم بالحاملة الجوِّية».

قال كاينز: «عادةً ما يستخدمون موجة أخرى للتواصل مع الطائرة».

سأل الدوق: «ألم يكن ينبغي تخصيص حاملتين متأهِّبتين

لكل زحَّافة رمال؟ من المفترض أن الزحَّافة تحمل ستة وعشرين رجلًا، فضلًا عن تكلفتها هي نفسها».

قال كاينز: «ليس لديك ما يكفي من المـ...».

لكنه بتر عبارته فجأة مع ارتفاع صوتٍ غاضب من سمَّاعة الاتِّصال: «هل رأى أحدكم الطائرة؟ القائد لا يجيب؟».

فرقعت السمَّاعة بضجيج مشوَّش، قبل أن تقطعه بغتةً إشارة أخرى متداخلة، ثم عم الصَّمت، وقال الصَّوت الأوَّل: «قدِّموا تقاريركم كلٌّ على حدة! حوِّل!».

- «هنا حوَّامة المراقبة المركزية، آخر مرَّة رأيت فيها الحاملة كانت تحلِّق على ارتفاع عالٍ وتحوم في اتِّجاه الشمال الغربي. أما الآن فلا أراها، حوِّل».

- «حوَّامة المراقبة 1: ليست في مجال الرؤية، حوِّل».

- «حوَّامة المراقبة 2: ليست في مجال الرؤية، حوِّل».

- «حوَّامة المراقبة 3: ليست في مجال الرؤية، حوِّل».

عمَّ الصَّمت.

نظر الدوق إلى أسفل حيث كان ظلُّ مركبته يعبر لتوِّه فوق الزحَّافة، وقال: «حوَّامات المراقبة أربع لا غير، أليس كذلك؟»

قال كاينز: «صحيح».

قال الدوق: «سربنا مكوَّن من خمس مركبات، وكلّها أكبر حجمًا. يمكننا حمل 3 رجال إضافيين في كل مركبة، وتستطيع كل حوَّامة من حوَّامات المراقبة حمل رجلين إضافيين على الأكثر».

أجرى پول عملية حسابية سريعة في ذهنه، وقال: «هكذا سيتبقَّى ثلاث رجال».

صاح الدوق غاضبًا: «لِمَ لم تُخصَّص حاملتان لكل زحَّافة؟».

قال كاينز: «ليس لديك ما يكفي من المعدَّات الإضافية».

- «هذا سببٌ أدعى لحماية ما لدينا!».

سأل هاليك: «تُرى أين ذهبت تلك الحاملة؟».

قال كاينز: «رُبَّما تكون اضطُرَّت إلى الهبوط في مكان ما بعيدًا عن الأنظار».

التقط الدوق الميكروفون، وتوقَّفت إصبعه فوق زر التحدُّث، وسأل: «كيف يمكن لحاملة جوِّية كاملة أن تغيب عن أنظارهم؟».

قال كاينز: «لأن اهتمامهم ينصب على الأرض، بحثًا عن علامات الديدان».

ضغط الدوق الزر، وتحدَّث عبر الميكروفون: «الدوق ليتو يتحدَّث. سنهبط لإجلاء طاقم عمل الزحَّافة دلتا أجاكس ناينر. على جميع الحوَّامات الامتثال للأمر. ستهبط الحوَّامات على الجانب الشرقي، ونحن سنأخذ الجانب الغربي، حوِّل»، وأنهى كلامه ثم ضغط زرَّ التحوُّل إلى تردُّد قيادة سربه، وكرَّر الأمر لطائرات التأمين الجوي المرافقة، قبل أن يعيد الميكروفون إلى كاينز.

عاد كاينز إلى تردُّد العمل، فخرج صوتٌ صاخب من السمَّاعة: «... حمولة اسپايس كاملة تقريبًا! أكرِّر، لدينا حمولة كاملة تقريبًا! لا يمكننا ترك ذلك لدودة لعينة! حوِّل».

جأر الدوق في غضب: «سُحقًا للاسپايس!»، ثم اختطف الميكرفون مجدَّدًا وقال: «يمكننا دومًا الحصول على مزيد من الاسپايس. لدينا مقاعد تسعكم باستثناء ثلاثة. أجروا قرعة أو قرِّروا بأي طريقة من سيأتي. لكنكم ستنفِّذون ما أقول، هذا أمر!»، قالها وصفع الميكروفون بقوَّة إلى يد كاينز وغمغم «آسف» عندما هزَّ الأخير أصابعه من الألم.

سأل پول: «كم تبقّى من الوقت؟».

قال كاينز: «تسع دقائق».

قال الدوق: «محرّك هذه المركبة أقوى من محرّكات المركبات الأخرى. إذا أقلعنا بالنفّاثات وبالأجنحة مفرودةً ثلاثة أرباع امتدادها، نستطيع حمل رجلٍ إضافي».

قال كاينز: «تلك الرمال ناعمة».

قال هاليك: «الإقلاع بالنفّاثات مع حمولة أربع رجال إضافية قد تكسر الأجنحة يا سيّدي».

قال الدوق: «ليس مع هذه الطائرة».

ثم سحب عصا التحكُّم إلى الخلف فانزلقت الثوبتر إلى جوار الزحّافة، ومع ضمٍّ الأجنحة إلى أعلى، وقفت الثوبتر بعد انزلاقها على بُعد عشرين مترًا من المصنع.

كانت الزحّافة صامتة الآن، بعد أن توقّفت عن العمل ولم تعد تقذف الرمال من فتحات الأنابيب، فقط ظلَّ يصدر منها دمدمة ميكانيكية خافتة، صارت أوضح عندما فتح الدوق بابه. على الفور، هجمت رائحة القرفة على أنوفهم. كانت ثقيلة ونفّاذة.

انزلقت إحدى حوّامات المراقبة هابطةً فوق الرمال على الجانب الآخر من الزحّافة بصوت رفرفة مرتفع، وسرعان ما هبطت طائرات الحراسة المرافقة للدوق إلى جواره.

عندما نظر پول إلى المصنع، لاحظ كيف يقزِّم حجمه الهائل كل الثوبترات إلى جواره، التي بدت كما لو كانت بعوضًا إلى جوار خنفسة محاربة.

قال الدوق: «جيرني، اخلع مع پول المقاعد الخلفية وتخلّصا منها»، ثم يدويًا، ضبط امتداد الأجنحة إلى ثلاثة أرباع الطول،

وعدَّل زواياها، وفحص أذرع التحكُّم النفَّاثات. «لماذا لم يخرجوا من تلك الآلة بحق الشيطان؟».

قال كاينز: «يأملون أن تظهر الحاملة. ما زال أمامهم بضع دقائق»، ثم نظر بعيدًا باتِّجاه الشرق.

التفت الجميع ونظروا في الاتِّجاه نفسه. لم يلمحوا أثرًا للدودة، لكن الهواء بدا مشحونًا بتوتُّر شديد.

التقط الدوق الميكروفون، وانتقل إلى تردُّد القيادة قائلًا: «فليتخلَّص اثنان منكم من مولِّدات دروع الطاقة، ستتمكَّنون من حمل رجلٍ إضافي بهذه الطريقة. لن نترك أي رجل خلفنا لهذا الوحش».

ثم عاد إلى تردُّد موجة العمل، وصاح: «حسنًا، أنتم يا من داخل دلتا أجاكس ناينر! اخرجوا حالًا! هذا أمر مباشر من دوقكم! اخرجوا على وجه السرعة وإلا مزَّقت هذه الزحَّافة ببنادق الليزر».

فُتحت كُوَّة بالقرب من مقدِّمة المصنع، وأخرى من المؤخِّرة، وثالثة من الأعلى. تدافع الرجال خارجين من الكوَّات، متعثِّرين ومتدحرجين نحو الرمال. كان آخر الخارجين رجلٌ طويل يرتدي جلباب عملٍ مرقَّع، وقد قفز أوَّلًا إلى أحد الجنازير، ومنه إلى الرمال.

علَّق الدوق الميكروفون على لوحة الأجهزة، ووقف متأرجحًا على عتبة المركبة، وصاح: «رجلان في كل حوَّامة».

بدأ الرجل ذو الجلباب المرقَّع في جمع رجال طاقمه في أزواج، ودفعهم نحو المركبة المنتظرة على الجانب الآخر.

صاح الدوق: «ليأت أربعة منكم إلى هنا! وأربعة آخرون إلى تلك المركبة في الخلف!»، وأشار بإصبعه إلى إحدى طائرات

الحراسة الرابضة خلفه مباشرةً، التي كان الحرس يجاهدون لإخراج مولّد درع الطاقة منها. «وأربعة في تلك المركبة هناك!»، وأشار إلى طائرة الحراسة الأخرى التي تخلّص طاقمها من مولّد درعها. «وثلاثة في كلٍ من الطائرات الأخرى! اركضوا يا كلاب الرمال!».

انتهى الرجل الطويل من عدّ رجاله، وجاء يهرول عبر الرمال، يتبعه ثلاثة من رفاقه.

قال كاينز: «أسمع صوت الدودة، لكنني لا أراها».

عندها سمع الآخرون الصَّوت: صوت كشطٍ خشن، بعيد لكنه يزداد قوَّة.

تمتم الدوق: «طريقة فوضوية لعينة للعمل».

بدأت الطائرات ترفرف بأجنحها مثيرةً الغبار من حولهم. ذكَّر المشهد الدوق بشيءٍ حدث معه ذات مرَّة في غابات كوكبه: خروجه المفاجئ إلى مساحة خالية من الأشجار، ورؤيته لآكلات جيفٍ تحلّق مبتعدةً عن جثَّة ثورٍ بري.

هرول عمَّال الاسبايس نحو الثوبتر وتجمَّعوا عند أحد جانبيها، وبدؤوا يتسلَّقون خلف الدوق، وراح هاليك يسحبهم إلى الخلف وهو يصيح: «إلى الدخال يا شباب! أسرعوا!».

انحشر پول في الركن إلى جوار رجلٍ متعرّق، واشتم في عرقه رائحة الخوف، ورأى أن بذلتي تقطير اثنين من الرجال تفتقر إلى الإحكام من عند الرقبة. سجَّل المعلومة في ذاكرته لاتّخاذ إجراء بشأنها مستقبلًا. على والده أن يأمر العمَّال بالتزام الانضباط في ارتداء بذلات التقطير، فالرجال يصبحون مهملين إذا لم يراقب المرء مثل هذه الأمور.

قال آخر الصاعدين إلى المؤخِّرة: «الدودة تكاد تكون أسفلنا! أقلِع على الفور!».

انزلق الدوق إلى مقعده عابسًا وقال: «لا يزال أمامنا نحو ثلاث دقائق وفقًا لتقدير زمن الوصول الأصلي. أليس كذلك يا كاينز؟». ثم أغلق الباب، وتأكَّد من إحكامه.

قال كاينز: «بلى يا سيِّدي»، وفكَّر: *هذا الدوق رابط الجأش.*

قال هاليك: «كل شيء على ما يرام في الخلف يا مولاي».

أومأ الدوق وهو يراقب آخر طائرة حراسة تقلع بسلام، وضبط مفتاح الإشعال، وألقى نظرة أخيرة إلى الأجنحة والأدوات، ثم ضغط زر إشعال النفَّاثات.

مع انطلاق الثوبتر، غاص الدوق وكاينز في مقعديهما، وانضغطت المجموعة المتكدِّسة في الخلف. راقب كاينز الروية والثقة التي يتحكَّم فيها الدوق في الطائرة. كانت الثوبتر تحلِّق في الجو بالكامل الآن. فحص الدوق معدَّاته، وألقى نظرة إلى اليمين واليسار على أجنحة طائرته.

قال هاليك: «إنها ثقيلة جدًا يا سيِّدي».

قال الدوق: «الحمل في نطاق الوزن المسموح به، هل كنت تعتقد أنني سأخاطر بهذه الحمولة يا جيرني؟».

ابتسم هاليك قائلًا: «لم أشك لثانية يا مولاي».

مال الدوق بطائرته في منحنى واسع مريح، محلِّقًا فوق زحَّافة الرمال.

حدَّق پول المحشور في الركن بالقرب من النافذة إلى الآلة العملاقة الهامدة على الرمال في الأسفل. كان مسار الدودة قد

اختفى على بعد أربعمئة متر من الزحَّافة، والآن بدا أن اضطرابًا يشيع في الرمال المحيطة بالمصنع.

قال كاينز: «الدودة الآن أسفل الزحَّافة، أنتم على وشك أن تشهدوا شيئًا لم يشهده إلا قليلًا».

الآن، راح الغبار المتطاير يتجمَّع في غيمة فوق الرمال المحيطة بالزحَّافة، وبدأت الماكينة الضخمة الانزلاق نحو اليمين، في الوقت الذي بدأت فيه دوَّامة رملية هائلة تتكوَّن في البقعة التي إلى يمين الزحَّافة وتكتسب زخمًا. ازدادت سرعة دوران دوَّامة الرمال أكثر فأكثر، وملأ الرمل والغبار الهواء على مسافة مئات الأمتار.

وعندها رأوها!

انبثقت حفرة واسعة من بين الرمال، وانعكست أشعة الشمس على سنونٍ بيضاء داخلها. قدَّر پول أن قطر الحفرة يصل إلى ضعف طول الزحَّافة على الأقل، وراقب الماكينة وهي تغوص في تلك الفتحة وسط موجة عاتية من الغبار والرمال. ثم بدأت الحفرة تتراجع، إلى أن اختفت كما ظهرت.

تمتم رجلٌ إلى جوار پول: «بحق الآلهة، يا له من وحش!».

قال آخر متذمِّرًا: «لقد التهمت كل ما جمعناه من اسپايس لعين!».

قال الدوق: «شخصٌ ما سيدفع ثمن هذا، أعدكم بذلك».

استشعر پول في نبرة صوت والده الجافة غضبًا عميقًا، ووجد أنه يشاركه شعوره. هذه خسارة فادحة!

وفي الصَّمت الذي تلى ذلك، سمعوا جميعًا همهمة كاينز.

كان يقول: «بوركت الصَّانعة وماؤها. بورك مجيئها ورحيلها.

عسى أن يطهّر مرورها الأرض، وعسى أن تحفظ العالم لقومها».

سأل الدوق: «ما هذا الذي تقوله؟».

ظل كاينز صامتًا.

نظر پول إلى الرجال المحتشدين حوله، ورأى كيف يحملقون إلى مؤخّرة رأس كاينز بخوف. همس أحدهم: «لييت».

استدار كاينز إليه مكفهرًا، فانكمش الرجل في خزي إلى الوراء.

بدأ رجلٌ آخر يسعل سعالًا جافًا خشنًا، وفي النهاية لفظ لاهثًا: «اللعنة على حفرة الجحيم هذه!».

قال الرجل الطويل الذي كان آخر الخارجين من زحّافة الرمال: «لا تتكلّم كثيرًا يا كوس، ستُزيد سعالك سوءًا»، ثم تحرّك بين الرجال إلى أن استطاع النظر عبرهم إلى مؤخّرة رأس الدوق وقال: «أنت الدوق ليتو لا ريب. نحن مدينون لك بحياتنا. كنا قد تقبّلنا الموت، إلى أن أتيت».

غمغم هاليك: «اصمت يا رجل، ودع الدوق يقود المركبة».

نظر پول إلى هاليك. هو كذلك لاحظ تجاعيد الاحتقان البادية على زاوية فكّ أبيه. على المرء التزام الصّمت التام عندما يكون الدوق غاضبًا.

بدأ ليتو يخرج بالثوبتر من الدائرة التي تحوم فيها برفق، وتوقّف عندما رأى حركة جديدة على الرمال. كانت الدودة قد انسحبت عائدة إلى الأعماق، والآن -بالقرب من البقعة التي كانت الزحّافة تحتلّها- رأوا شخصين يتحرّكان شمالًا بعيدًا عن منخفض الرمال. بدت حركتهما غريبة. كانا ينزلقان على سطح الرمال تقريبًا، ويثيران أقل قدر من الغبار يدل على مسارهما.

قال الدوق بصوتٍ عالٍ: «من هذان اللذان في الأسفل؟».

قال رجل الكثبان الطويل: «شابان كانا يتسكّعان معنا».

- «لماذا لم يذكر أحدٌ شيئًا عنهما؟».

قال رجل الكثبان: «هما اللذان خاطرا بالمجيء يا سيِّدي».

قال كاينز: «سيِّدي، هؤلاء الرجال يدركون أنه لا يمكن فعل شيء لمساعدة أيِّ شخصٍ يُحاصر في إحدى مناطق نفوذ الديدان».

صاح الدوق: «سنرسل طائرة من القاعدة لنجدتهما فور عودتنا!».

قال كاينز: «كما تشاء يا مولاي، لكن على الأرجح لن تجد الطائرة من تنجده عندما تصل إلى هنا».

قال الدوق: «سنرسل الطائرة في كل الأحوال».

قال پول: «لقد كانا قريبين من مكان ظهور الدودة، كيف تمكّنا من النجاة؟».

قال كاينز: «تتقوَّض حواف الحفرة وتنهار إلى الداخل، هذا يجعل المسافات خادعة».

تجرَّأ هاليك بقول: «أنت تهدر الوقود بالبقاء هنا يا سيِّدي».

- «معك حق يا جيرني».

التفَّ الدوق بالطائرة ووجَّهها صوب الجدار الحامي. هبطت طائرات التأمين الجوِّي من مركز الدائرة التي تحوم حولها، وأخذت مواقعها أعلى طائرة الدوق وإلى جانبيها.

فكَّر پول في ما قاله كاينز ورجل الكثبان، واستشعر في كلامهما أنصاف حقائق، ومحض أكاذيب. كان الرجلان ينزلقان على سطح الرمال بثقة شديدة، ويتحرَّكان في خطواتٍ واضح أنها

محسوبة بدقّة كي لا تغري الدودة بالعودة من الأعماق.

فكّر پول: *لا بُدَّ أنهما من الفرمِن! فمن غيرهم يتحرّك بتلك الثقة على الرمال؟ من غيرهم لا يخشى المرء عليهم شيئًا، لأنهم ليسوا في خطرٍ من الأساس؟ هذان الرجلان يألفان أساليب النجاة هنا! ويعرفان كيف يخدعان الدودة!*

سأل پول: «ما الذي كان يفعله رجلان من الفرمِن على متن تلك الزحّافة؟».

استدار كاينز نحوه.

التفت رجل الكثبان الطويل ورمق پول بعينين متّسعتين من الدهشة، لجّتين مشبّعتين بزُرقة بعضها فوق بعض، لا أثر لبياضٍ فيهما، وقال: «من هذا الفتى؟».

تحرَّك هاليك وحشر نفسه بين الرجل وپول، وقال: «هذا پول آتريديز، ولي عهد الدوق».

سأل الرجل: «ولماذا يدّعي أن رجلين من الفرمِن كانا على متن زحّافتنا؟».

قال پول: «ينطبق الوصف عليهما».

قال كاينز بنبرة ساخرة: «الفرمِن لا يعرفون بمجرّد النظر إليهم!»، ثم رمق رجل الكثبان وسأله: «أنت، من هذان الرجلان؟».

قال رجل الكثبان: «صديقان لأحد الرجال، مجرّد رجلين من أهل القرية أرادا مشاهدة الرمال الغنية بالاسپايس».

اعتدل كاينز في مقعده وتمتم: «ويقول عنهما فرمِن!».

لكنه في الآن ذاته تذكّر كلمات الأسطورة: *«سيكشف لسان الغيب ببصيرته كل الأكاذيب»*.

قال رجل الكثبان: «إنهما في عداد الموتى على الأرجح يا سيِّدي الصغير، يجب ألَّا نذكرهما بسوء».

لكن پول ميَّز الباطل في صوتيهما، واستشعر الخطر الذي جعل هاليك يتحرَّك بشكلٍ غريزي لحمايته ويحشر نفسه بينهما.

قال پول متهكِّمًا ولكن بنبرة جافَّة: «يا لها من مِيتةٍ شنيعةٍ في مكانٍ مريع!».

قال كاينز دون أن يستدير: «عندما يكتب الرب على نفسٍ أن تموت في أرضٍ معيَّنة، فهو يأمرها بتوجيه صاحبها إلى مكان حتفه».

حدَّج ليتو كاينز بنظرة صارمة.

لكن بينما راح كاينز يبادله تحديجه، وجد نفسه منزعجًا من حقيقة لاحظها هنا: *هذا الدوق اهتمَّ بسلامة رجاله أكثر من اهتمامه بالاسپايس، وخاطر بحياته وحياة ابنه لإنقاذ الرجال. لقد تقبَّل خسارة زحَّافة الاسپايس بصدر رحب، فيما أثار الخطر الذي يهدِّد حياة الرجال عارم غضبه. قائدٌ كهذا سيحظى بولاءٍ أعمى من رجاله، وسيكون من الصعب هزيمته.*

وهكذا، ورغمًا عن إرادته وعن كل أحكامه السابقة، اعترف كاينز لنفسه: *يعجبني هذا الدوق!*

الانتفاخ بالعظمة ليس إلَّا شعورًا مؤقَّتًا سريع الزوال، فهو يعتمد جزئيًا على مخيِّلات البشر وميلها إلى نسج الأساطير. لهذا، لا بُدَّ للشخص الذي يُوصف بالعظمة من أن يُقدِّر أبعاد الأسطورة التي نُسجت حوله، وأن يعكس للناس الصفات التي أسبغوها عليه. كما لا بُدَّ له من التمتُّع بحسٍ ساخرٍ قوي، فلا شيء غيره سينأى به عن أوهامه وينجيه من الإيمان بها. وحده الحسُّ الساخر سيمكِّنه من التجوُّل بأمان في جنبات نفسه بلا خوفٍ من أن تُزلَّ قدمه، ومن دونه، حتَّى أدنى درجات الشعور بالعظمة ستكون كفيلة بتدمير حياة الإنسان.

من كتاب «أحاديث المؤدِّب المجمَّعة» للأميرة إيرولان.

في قاعة الطعام في قصر أراكين العظيم، أُضيئت المصابيح الطافية في الهواء لتبديد العتمة المبكِّرة، وألقت وهجًا أصفر على رأس الثور الأسود بقرنيه الداميين، وكذلك على لوحة الدوق القديم الزيتية التي عكست الضوء ببريقٍ داكن.

تحت هاتين التميمتين، سطع بياض مفرش المائدة الناصع، تؤطِّره انعكاسات الآنية الفضِّية التي رُصَّت بعناية دقيقة بطول المنضدة الكبيرة. بدت الأطقم المنتظرة بجوار أكوابٍ كريستالية كأرخبيل من الجزر في محيط، كلٌّ منها منضَّد قبالة كرسيٍّ خشبيٍّ ثقيل. أُبقيت الثُريَّا المركزية العريقة المتدلِّية فوق المائدة غير مضاءة، تمتدُّ سلسلتها إلى أعلى متوارية في ظلال السقف، حيث خُبِّئت آلية كشَّاف السُّموم.

مـن مكانـه عنـد المدخـل حيـث وقـف يتفقّـد الترتيبـات، فكّـر الـدوق فـي كشّـاف السُّـموم، ومـا يحملـه مـن دلالـة فـي مجتمعـه.

إنـه نمـوذج مثالـي علـى النَّمـط الـذي يسـود حياتنـا. بإمكانـك معرفـة الكثيـر عنَّـا مـن مفـردات لغتنـا، مـن الكلمـات الدقيقـة المحـدَّدة التـي نصف بها أساليب القتل الغادر المختلفة. هـل سـيحاول أحدهـم الليلـة دسَّ الشـاومركي فـي شـرابنا؟ أم هـل سيسـتخدم شـوماس، سُـمَّ الطعـام؟

هزَّ الدوق رأسه نافضًا عنه تلك الأفكار.

إلـى جـوار كل طبـق وُضـع إبريـق ميـاه. قـدَّر الـدوق أن علـى المائـدة مـاءً يكفـي لإبقـاء عائلـة أرَّاكسـية فقيـرة علـى قيـد الحيـاة لأكثـر مـن عـام.

كان علـى جانبـي المدخـل الـذي يقـف عنـده حوضـا اغتسـال واسـعان مكسـوَّان ببـلاط مزخـرف باللَّونيـن الأصفـر والأخضـر، معلَّقٌ إلـى جـوار كلٍّ منهمـا رفٌّ رُصَّـت عليه مجموعـة مـن مناشـف الأيـدي. أوضحـت مدبـرة المنـزل أن العـادة جـرت علـى أن يغمـس الضيـوف أيديهـم فـي الحـوض بشـكل احتفالـي عنـد الدخـول، ثـم يدلقـون أكوابًا عِـدَّة مـن المـاء علـى الأرض، ويجفِّفـون أيديهـم بالمناشـف، ثـم يلقـون المناشـف فـي البركـة المتناميـة عنـد عتبـة البـاب. بعـد العشـاء، يحتشـد المتسـوِّلون فـي الخـارج للحصـول علـى المـاء المعصـور مـن المناشـف المبلَّلـة.

فكَّـر الـدوق: *مثـال نموذجـي علـى مـدَّة حُكـم الهراكنـة، الـذي يتعمَّـد فعـل كل إهانـة يمكـن توجيههـا إلـى النفـس البشـرية.* أخـذ الـدوق نفسًـا عميقًـا مستشـعرًا الغضـب يعتصـر بطنـه، وتمتـم: «هـذه العـادة سـتتوقَّف الآن!».

رأى إحـدى الخادمـات العجائـز المجعَّـدات التـي أوصـت بهـن مدبِّـرة المنـزل تحـوم حـول مدخـل المطبـخ علـى الجهـة المقابلـة.

أشار لها الدوق بيده كي تأتي، فتحرَّكت المرأة خارجة من الظلال، وهرولت حول الطاولة في اتِّجاهه، فلاحظ وجهها اليابس الذي تغزوه التجاعيد، والعينين الزرقاوين بالكامل التي لا يشوبها بياض.

- «أمر مولاي؟». قالتها المرأة مُحافظة على جبهتها محنيَّة وعينيها في الأرض.

أشار لها: «أريد إزالة هذين الحوضين وهذه المناشف».

رفعت المرأة عينيها، وبفمٍ فاغر من الدهشة قالت: «ولكن، يا نبيل المنبت...».

صاح فيها: «أعرف ما جرت عليه العادة! خذي هذين الحوضين إلى باب القصر، وفي أثناء ما نأكل وحتَّى ننتهي، أعطوا كل متسول يسأل كوبًا كاملًا من الماء، مفهوم؟».

بدى على وجهها المجعَّد مشاعر متضاربة: ارتباك، وغضب...

فجأة أدرك ليتو أنها لا بُدَّ قد خطَّطت لبيع الماء المعصور من المناشف المداسة بالأقدام، لتغتصب حفنة عملات نقدية من البؤساء الذين جاؤوا إلى الباب يسألون الماء. رُبَّما كانت هذه أيضًا عادة.

تجهَّم وجهه وقال هادرًا: «سأضع حارسًا عند الباب ليتأكَّد من تنفيذ أوامري بالحرف!».

ثم استدار على عقبيه، وعاد بخطًى واسعة عبر الممر المؤدِّي إلى القاعة الكبرى. دارت الذكريات في عقله كأنها تمتمات عجائز شمطاوات هُتم. تذكَّر البحار والأمواج، تذكَّر أيَّامًا زاخرة بالأعشاب لا الرمال، وفصول صيفٍ مذهله مرَّت سريعًا كأوراق شجر حملتها العاصفة معها.

كلها ذهبت بلا رجعة.

فكَّر الدوق: *إنني أشيخ. لقد شعرت بدبيب الموت البارد، وبسبب ماذا؟ بسبب جشع امرأة عجوز!*

في القاعة الكبرى، كانت الليدي جيسيكا تتوسَّط مجموعة مختلطة واقفة أمام المدفأة التي يفرقع الحطب فيها وتلقي منها ألسنة اللهب وميضًا برتقاليًا على المجوهرات وشرائط الزينة والأقمشة الباهظة الثمن. تعرف الدوق في المجموعة على صانع بذلات تقطير من قرطاج، ومورِّد أجهزة إلكترونية، ومتعهِّد مياه يقع قصره الصيفي بالقرب من مصنعه في القطب الجليدي، وممثِّل لبنك النقابة (ذاك الطويل الذي يقف منعزلًا)، وتاجر قطع غيار معدَّات التنقيب عن الاسپايس، وامرأة نحيفة حادَّة الملامح يقال إن شركتها التي تقدِّم خدمة مرافقات للزائرين من الكواكب الأخرى تعمل كغطاء لمختلف عمليات التهريب والتجسُّس والابتزاز.

بدت معظم النساء في القاعة من نفس الطين: مبهرجات، متباهيات، يغلِّفن أنفسهن بمزيج غريب من الاشتهاء وبُعد المنال.

حتَّى لو لم تكن المضيفة، كانت جيسيكا ستهيمن على المجموعة بحضورها، هكذا فكَّر. لم تكن تتقلَّد بأيِّ جواهر، واختارت ارتداء ألوانٍ دافئة: فستانٍ طويل يكاد لونه يماثل إحدى درجات اللهب، وشريطٍ بنِّي بلون أديم الأرض تعقص به شعرها البرونزي.

أدرك أنها تعمَّدت فعل ذلك لتوبيخه بشكل مهذَّب، تأنيبًا له لبرودته معها مؤخَّرًا. كانت تدرك جيِّدًا أنه يحب رؤيتها في هذه الألوان. كان يرى في خليط الألوان الدافئة انعكاسًا لجوهرها.

في مكانٍ قريب، نائيًا بنفسه عن المجموعة، وقف دانكن آيداهو في زيٍّ رسميٍّ متألِّق، ووجهه قناعٌ جامد من الملامح يصعب قراءته، وشعره الأسود المجعَّد مُمشَّطٌ بعناية. كان حوَّاط قد استدعاه من وسط الفرمِن وأعطاه أوامرَ جديدة: *«الإبقاء على الليدي چيسيكا تحت المراقبة المستمرة بحجَّة حراستها»*.

أدار الدوق عينيه في الغرفة.

ها هو پول يقف في الركن محاطًا بمجموعة مداهنة من أبناء أثرياء أراكين، وإلى جوارهم ولكن بمعزل، يقف ثلاث ضُبَّاط من قوَّات الحرس المنزلي في تحفُّظ. تفرَّس الدوق في وجوه الشابات خصوصًا. لا بُدَّ أن ولي عهد الدوقية صيدٌ ثمين في نظرهن. لكن پول كان يعاملهن جميعًا بتحفُّظ النبلاء.

فكَّر الدوق: كم *سيليق به لقب الدوق!* ثم أدرك راجفًا أن هذه خاطرة أخرى متعلِّقة بالموت.

لمح پول والده يقف عند المدخل فتحاشى النظر إليه. ثم نظر حوله إلى تجمُّعات الضيوف، إلى الأيادي المرصَّعة بالجواهر الممسكة بالمشروبات (وإلى عمليات الفحص الخفيَّة التي تجريها كشَّافات سموم صغيرة عن بعد). رؤية كل هذه الوجوه الثرثارة، أشعرت پول بنفورٍ مفاجئ منها. إنها أقنعة رخيصة مغلقة على أفكارٍ متقيِّحة. مجرَّد أصوات تهذر بكلامٍ فارغ لملء الفراغ الموحش الذي ينهش كل صدر.

فكَّر پول: *أنا في مزاجٍ سيِّئ*، وتساءل ما سيكون تعليق جيرني عن ذلك.

كان يدرك السبب في تعكير مزاجه، فهو لم يرغب في حضور هذه المناسبة، لكن والده كان حازمًا في إصراره. «لديك مكانة

ومركز يجب أن تحافظ عليهما. لقد كبرت بما يكفي لحضور تلك المناسبات الرسمية. لقد صرت رجلًا تقريبًا».

شاهد پول والده يترك المدخل ويخطو إلى القاعة جائلًا فيها بعينيه، ثم اتَّجه إلى المجموعة الملتفَّة حول الليدي چيسيكا. مع اقتراب ليتو من المجموعة، كان متعهِّد المياه يسأل: «أحقًّا سيضع الدوق أقمارًا صناعية للتحكُّم في الطقس؟».

قال الدوق من خلف الرجل: «لم نشطح بخططنا إلى هذا الحدِّ بعد يا سيِّدي».

استدار الرجل كاشفًا عن وجهٍ مستدر ليِّن تشوبه سُمرة داكنة: «آها، إنه الدوق. كنا نفتقدك».

نظر ليتو إلى چيسيكا وقال: «كان عليَّ الانتهاء من أمرٍ ما»، ثم أعاد اهتمامه إلى متعهِّد المياه، وشرح له ما أمر به بخصوص حوضي الغسل، ثم أضاف: «هذه العادة القديمة ستنتهي الآن».

سأل الرجل: «أهذا أمر دوقي يا مولاي؟».

قال الدوق: «سأترك هذا... آه... لضميرك». ثم استدار ولمح كاينز يقترب من المجموعة.

قالت إحدى النساء: «أظن أن هذا كرمًا كبيرًا، إعطاء الماء لـ...»، لكن شخصًا أوقفها عن إكمال عبارتها.

نظر الدوق إلى كاينز، ولاحظ أن عالم البيئات الكوكبية يرتدي زيًّا رسميًّا بنِّيًّا داكنًا قديم الطراز، تزيِّن كتفيه شرائط موظَّفي حكومة الإمبراطور، ويعلِّق في ياقة سترته رتبة ذهبية صغيرة تأخذ شكل دمعة.

سأل متعهد المياه بنبرة غاضبة: «هل يقصد الدوق التلميح بانتقاد عاداتنا؟».

قال ليتو: «هذه العادة لم تعد موجودة». ثم أومأ إلى كاينز محيِّيًا، ولاحظ العبوس على وجه چيسيكا، وفكَّر:

العبوس لا يليق بها، لكنه سيدعم شائعات وجود خلاف بيننا.

قال متعهِّد المياه: «إذا سمح الدوق لي، أود الاستفسار أكثر بخصوص العادات».

سمع ليتو نبرة مداهنة مفاجئة في صوت الرجل، ولاحظ الصَّمت المترقِّب الذي عمَّ المجموعة، والطريقة التي بدأت بها الرؤوس في الغرفة تدور نحوهم.

سألت چيسيكا: «ألم يحن الوقت لتناول العشاء؟».

قال ليتو: «لكن ضيفنا ما زال لديه بعض الأسئلة»، ثم ثبَّت نظره على متعهِّد المياه، متفرِّسًا في وجهه المستدير وعينيه الواسعتين وشفتيه الغليظتين، وتذكَّر تقرير حوَّاط: «... أمَّا المدعو لينجار بيوط، متعهِّد المياه، فرجل يجب مراقبته بحرص.. تذكَّر الاسم جيِّدًا. اعتاد الهراكنة استخدامه، لكنهم لم ينجحوا في التحكُّم فيه بالكامل».

قال بيوط: «إن أعراف المياه مثيرة للاهتمام جدًّا»، ثم شاعت ابتسامه في وجهه وأردف: «لدي فضول لمعرفة ماذا تنوي فعله بشأن المشتل الملحق بهذا المنزل. هل تنوي الاستمرار في التباهي به أمام الناس.. يا سيِّدي؟».

كتم ليتو غضبه وظلَّ يحدِّق إلى الرجل. تسابقت الأفكار في عقله. إنه يتمتَّع بجرأة كبيرة ليتحدَّاه في قصره الدوقي، خاصة أنهم حصلوا على توقيع بيوط على مبايعته وتعهُّده بالولاء. كما أن سلوكه يدل على أنه يعي جيِّدًا حجم نفوذه الشخصي ومقدار تأثيره، فالماء هنا قوَّة لا يُستهان بها بلا شك، خاصَّةً إذا كانت مرافق المياه

-على سبيل المثال- مُلغَّمة، وفي انتظار إشارة منه لتفجيرها. هذا الرجل قادر على إتيان شيءٍ من هذا القبيل. تدمير مرافق المياه قد يؤدِّي إلى تدمير أرَّاكس، ورُبَّما تكون هذه هي ورقة الضغط التي كان هذا المدعو بيوط يستخدمها مع الهراكنة.

قالت چيسيكا: «مولاي الدوق وأنا لدينا خططٌ أخرى بخصوص المشتل»، ثم ابتسمت إلى ليتو وواصلت: «نحن ننوي الاحتفاظ به بالتأكيد، ولكن كأمانة لشعب أرَّاكس، فنحن نحلم أن يتغيَّر مناخ أرَّاكس يومًا ما بما يسمح لزراعة مثل هذه النباتات في أيِّ مكان في العراء».

فكَّر ليتو: *بوركت روحها! فليأتِ متعهِّدنا المائي الهُمام بردٍّ على ذلك إن استطاع.*

قال الدوق: «إن اهتمامك بالمياه وبالتحكُّم في الطقس واضح، لكنني أنصحك بتوسيع نشاط عملك! فيومًا ما لن يكون الماء سلعة ثمينة على أرَّاكس».

وفكَّر: *يجب أن يضاعف حوَّاط جهوده في اختراق منظَّمة بيوط هذا، ويجب أن نبدأ في بناء مرافق مياه احتياطية على الفور. لن أسمح لرجلٍ أيًا كان بوضع سيف على عنقي واستخدام ورقة ضغط ضدِّي.*

أومأ بيوط والابتسامة لا تزال على وجهه: «هذا حلمٌ محمود يا مولاي»، ثم انسحب خطوة إلى الخلف.

استرعى التعبير الذي يعلو وجه كاينز اهتمام ليتو. كان الرجل يُحمق في چيسيكا مشدوهًا على غير عادته، كأنه رجل واقع في الحب.. أو تنتابه نشوة دينية.

طفت كلمات النبوءة على عقل كاينز في النهاية: «*وسوف يشاركونكم أغلى أحلامكم*»، فوجد نفسه يسأل چيسيكا مباشرةً: «هل ستجلبين لنا مختصر الطريق؟».

قال متعهِّد المياه: «آه، الدكتور كاينز. لا بُدَّ أنك عُدت لتوِّك من تسكُّعك مع رعاع الفرمِن، يا له من كرمٍ زائد منك».

رمى كاينز بيوط بنظرة باردة يصعب فهم مغزاها: «يُقال في الصَّحراء إن حيازة الماء بكميَّاتٍ كبيرة تجعل المرء يتصرَّف بنزقٍ قاتل».

قال بيوط: «لديهم أقاويل غريبة كثيرة في الصَّحراء»، لكن نبرة صوته خانته وفضحت اضطرابه.

اقتربت چيسيكا من ليتو ودسَّت يدها تحت ذراعه لتحظى بلحظة لتهدئة نفسها. لقد قال كاينز: «... مختصر الطريق»، وهذا المصطلح يُترجم في اللغة القديمة إلى «الكويزاتس هاديراك». يبدو أن سؤال عالم البيئات الكوكبية الغريب قد مر دون أن يلاحظه أحد، والآن كان كاينز ينحني إلى إحدى النساء المرافقات، وينصت إلى همسها الفانج.

فكَّرت چيسيكا: *هل زرعت مبشِّراتنا الحاميات أسطورة الكويزاتس هاديراك هنا أيضًا؟* أيقظت الفكرة فيها الأمل الخفي الذي تُكنُّه لپول. *قد يكون هو الكويزاتس هاديراك بالفعل.. حقًا قد يكون!*

كان ممثِّل بنك النقابة قد انخرط في حديث مع متعهِّد المياه، وقد علا صوت بيوط فوق همهمة المحادثات التي تجدَّدت: «كثيرون سعوا لتغيير أرَّاكس».

لاحظ الدوق كيف اخترقت الكلمات مسمعي كاينز، وجعلته ينتفض مبتعدًا عن المرأة التي يغازلها.

في الصَّمت المفاجئ الذي خيَّم على المكان، تنحنح أحد رجال الحرس المنزلي المتنكِّرين في زيِّ الخدم من خلف ليتو وقال: «العشاء جاهز يا مولاي».

وجَّه الدوق نظرة متسائلة نحو چيسيكا.

قالت: «جرت العادة هنا أن يسير المضيف والمضيفة خلف ضيوفهما إلى المائدة، هل سنغيِّر هذه العادة أيضًا يا مولاي؟».

رد عليها ببرود: «تبدو عادة محمودة، سنتركها على حالها في الوقت الحالي».

وفكَّر: *يجب الحفاظ على خدعة أنني أشك في خيانتها*، وراح يرمق طابور الضيوف المارين أمامه. *تُرى من بينكم يصدِّق هذه الكذبة؟*

تعجَّبت چيسيكا من سبب معاملته الجافَّة كما فعلت كثيرًا الأسبوع الماضي، وفكَّرت: *إنه يتصرَّف كرجلٍ يتصارع مع نفسه. أهذا لأنني سارعت بإعداد حفل العشاء هذا؟ لكنه يعرف مدى أهمية انخراط ضُبَّاطنا ورجالنا مع السكَّان المحلِّيين على صعيد اجتماعي، فنحن بمنزلة أب وأم بديلين لهم جميعًا، ولا شيء يؤكِّد هذه الحقيقة أكثر من هذا النوع من المشاركة الاجتماعية.*

تأمَّل ليتو مرور طابور الضيوف من أمامه، وتذكَّر ما قاله ظفير حوَّاط عندما علم بأمر إقامة هذه المناسبة: «*أعترض بشدَّة يا مولاي!*».

ارتسمت ابتسامةٌ مريرةٌ على فم الدوق. ثارت ثورته وقتها، وعندما ظلَّ الدوق مُصرًّا على حضور العشاء، هز حوَّاط رأسه قائلًا: «ينتابني شعورٌ سيِّئ حيال هذا يا مولاي. الأمور على

أرّاكس تتحرّك بسلاسة وسُرعة أكثر ممّا يجب. ليس هذا من شيم الهراكنة، ليس من شيمهم على الإطلاق».

عبر پول من جوار والده برفقة شابّة أطول منه قليلًا، ورماه بنظرة ساخطة وهو يومئ برأسه على شيءٍ قالته الفتاة.

مالت چيسيكا إلى أُذُن الدوق وقالت: «والدها يصنع بذلات التقطير. قيل لي إن الحمقى فقط هم من يغامرون بالتوغّل في الصّحراء مرتدين بذلات هذا الرجل».

سأل الدوق: «من هذا الرجل صاحب النُدبة الذي يتقدّم پول؟ لم أتعرّف عليه».

همست: «إنه إضافة متأخّرة إلى قائمة المدعوّين. جيرني هو من رتّب إرسال دعوة إليه، إنه أحد المهرّبين».

- «جيرني يُرتّب من نفسه؟».

- «بناءً على طلبي. مرّرت الأمر على حوّاط ووافق، رغم أنني شعرت بأنه كان متصلّب الرأي قليلًا. المُهرّب يُدعى تُويك، أسمر تُويك. إنه ذو نفوذ بين المهرّبين. الجميع هنا يعرفه، وعائلات كثيرة استضافته على العشاء».

- «ولِمَ هو هنا؟».

قالت: «كل الحاضرين سيسألون نفس السؤال. سيزرع تُويك الشك والريبة بمجرّد حضوره. كما سيكون أيضًا بمثابة بيان للجميع بأنك لن تتساهل مع عدم تنفيذ أوامرك ضد الكسب غير المشروع، وأن المهرّبين سيدعمونك في هذا. كانت هذه هي النقطة التي أثارت إعجاب حوّاط».

- «لست واثقًا من أنها تثير إعجابي أنا». ثم هزّ رأسه محيّيًا زوجين مارّين، ولاحظ أنه لم يتبق سوى حفنة من ضيوفهما يجب أن يسبقونهما. «لِمَ لم توجّهي دعوة إلى بعض الفرمِن؟».

قالت: «كاينز موجود».

قال: «صحيح، كاينز موجود. هل رتّبت لي أيَّ مفاجآت صغيرة أخرى؟»، ثم تأبَّط ذراعها وقادها للسير خلف الموكب.

قالت: «كل الترتيبات الأخرى عادية جدًا».

وفكَّرت: *ألا ترى يا عزيزي أن هذا المهرب يتحكَّم في سفن سريعة، ويمكن رشوته؟ يجب أن يكون لدينا مخرج طوارئ، باب خلفي للهروب من أرّاكس في حال أن خذلتنا جميع الأمور الأخرى هنا.*

مع دخولهما قاعة الطعام، تركت ذراعه، وسمحت له بأن يجلسها. بعدها، أسرع الخطى إلى طرف المائدة الآخر، حيث كان أحد الخدم ينتظره ممسكًا بالكرسي. بدأ الضيوف الجلوس فضجَّت القاعة بأصوات جر المقاعد وحفيف الملابس والأقمشة، لكن الدوق ظلَّ واقفًا. ثم أعطى إشارة بيده، فتراجع جنود الحرس المنزلي المتنكرين في زي الخدم من حول الطاولة، ووقفوا منتبهين.

خيَّم صمتٌ مزعج على الغرفة.

عبرت چيسيكا المائدة الطويلة بنظرها، ورأت ارتعاشة خافتة في ركن فم ليتو، ولاحظت الغضب المحتقن في وجنتيه، فسألت نفسها: *ما الذي أغضبه؟ بالتأكيد ليست دعوتي للمهرِّب.*

قال ليتو: «شكَّك البعض في قراري بتغيير عادة أحواض الغسل. هذه طريقتي في إخباركم أن أشياء كثيرة ستتغيَّر».

خيَّم صمتٌ مُحرج على المائدة.

فكَّرت چيسيكا: *يظنُّون أنه ثمل.*

أمسك ليتو بإبريق الماء الموضوع أمامه، وحمله عاليًا لينعكس عليه ضوء المصابيح الطافية في الهواء، وقال: «بصفتي أحد فرسان الإمبراطورية، سأشارككم نخبًا».

أمسك الآخرون أباريقهم وأعينهم معلَّقة على الدوق. وفي لحظة السكون المُفاجئ هذه، انجرف أحد المصابيح الطافية في الهواء قليلًا بفعل نسمة شاردة هبَّت من ردهة مطبخ التقديم، فتراقصت الظلال على ملامح وجه الدوق الشبيه بالصقر.

وصاح الدوق: «هأنذا هنا، وقد أتيت لأبقى!».

تحرَّكت بعض الأيدي بالأباريق نحو الشفاه، لكنها توقَّفت مع بقاء الدوق رافعًا ذراعه.

- «نخبي سيكون أحد الأقوال المأثورة المحبَّبة جدًّا إلى قلوب آل آتريديز: "العمل يجلب الازدهار! والفرص متاحة للجميع!"».

ثم رشف الماء.

انضم إليه الآخرون وهم يتبادلون نظراتٍ متسائلة.

صاح الدوق: «جيرني!».

من فجوة في الجدار في طرف القاعة الذي يقف فيه ليتو، جاء صوت هاليك: «هنا يا مولاي».

- «اعزف لنا شيئًا يا جيرني».

من الفجوة خرج لحنٌ رشيق على أوتار الباليسِت، وبدأ الخدم وضع الأطباق على المائدة بإشارة من يد ليتو. تنوَّعت الأصناف ما بين الأرنب الصحراوي المشوي بصوص السيبيدا، ووصفة الأبلوماج السيريانية، والتشوكا المقدَّمة تحت الزجاج، والقهوة المخلوطة بالمِزاج (ما جعل رائحة القرفة القوية تفوح عبر المائدة)، وطبق الإوز الأصلي المقدَّم مع نبيذ كلاداني فوَّار.

لكن الدوق ظلَّ واقفًا.

جلس الضيوف منتظرين، وانتباههم مشتَّت بين الأطباق الموضوعة أمامهم والدوق الواقف، ثم قال ليتو: «في العصور

القديمة، كان من واجب المضيف أن يرفّه عن ضيوفه بمواهبه الخاصة»، ابيضت مفاصل أصابعه لغياب الدماء عنها من شدَّة ضغطه على إبريق المياه. «لكنني لا أستطيع الغناء، لهذا أهديكم كلمات أغنية جيرني. اعتبروها نخبًا آخر، نخب كل من فقدوا أرواحهم لنصل إلى ما نحن فيه».

شاعت حركة مضطربة حول المائدة.

خفضت چيسيكا بصرها، ونظرت إلى الجالسين بالقرب منها: متعهِّد المياه مستدير الوجه الذي يجلس إلى جوار امرأته، وممثِّل بنك النقابة المتجهِّم الشاحب (الذي بدا كأنه فزاعة لا حياة فيها وهو يُحدِّق إلى ليتو)، وتُويك الفظ ذو النُدبة، الذي جلس خافضًا عينيه التامَّتي الزرقة.

بدأ الدوق يرتِّل: «انظروا يا أصدقاء إلى جنودٍ ولَّوا منذ زمن، لقوا مصيرهم مثقلين بالآلام والدولارات، أرواحهم ترتدي ياقاتنا الفضِّية. انظروا يا أصدقاء إلى جنودٍ ولَّوا منذ زمن، وصار كلٌّ منهم نقطة في الزمن، بلا ادِّعاء أو نفاق، تاركين خلفهم إغواء الثروة. انظروا يا أصدقاء إلى جنودٍ ولَّوا منذ زمن، فعندما يأتي أجلنا ونغادر العالم بابتسامة النهاية، سنترك خلفنا إغواء الثروة».

خفض الدوق صوته بالتدريج في العبارة الأخيرة، وجرع جرعة كبيرة من إبريق الماء، وأنزله بعنف على المائدة، فاندلق بعض الماء من حافَّته على المفرش.

شرب الآخرون في صمتٍ مُحرج.

مرَّة أخرى، رفع الدوق إبريق المياه، وهذه المرة أفرغ نصفه المملوء على الأرض، مدركًا أن الجالسين حول المائدة سيضطرون إلى فعل الشيء نفسه.

كانت چيسيكا أوَّل من حذا حذوه.

مرَّت لحظة صمت تجمَّد الآخرون فيها، قبل أن يبدؤوا إفراغ أباريقهم على الأرض. لاحظت چيسيكا كيف يدرس پول -الجالس إلى جوار والده- ردود الفعل من حوله، ووجدت نفسها أيضًا مفتونة بما كشف عنه سلوك ضيوفها، خاصةً النساء منهم. هذا ماء نظيف صالح للشرب، وليس ماء غسل تشرَّبته منشفة. بدت عدم الرغبة في التخلص منه واضحة في الأيدي المرتعشة، وردود الفعل المتأخِّرة، والضحك العصبي، ثم في الامتثال القسري الواجب. أسقطت إحدى النساء إبريقها، وأشاحت بوجهها بعيدًا في حين ما استعاده رفيقها.

ولكن كاينز كان أكثر من أثار اهتمامها.

تردَّد عالم البيئات الكوكبية، ثم أفرغ إبريقه في حاوية مُخفاة تحت سترتهن، وابتسم إلى چيسيكا عندما لاحظ أنها تراقبه، ورفع الإبريق الفارغ إليها في نخبٍ صامت، وهو يبدو مُحرجًا تمامًا ممَّا فعل.

كانت موسيقى هاليك ما زالت تنساب في أرجاء القاعة، لكنها لم تعد عذبة شجية، بل صارت مرحة وحيوية كأنه يحاول تغيير الحالة المزاجية.

قال الدوق: «فليبدأ العشاء»، ثم غاص في مقعده.

فكَّرت چيسيكا: *إنه غاضب ومتذبذب. لقد أصابته خسارة هذا المصنع بضيقٍ أكبر مما ينبغي. لا بُدَّ أن غضبه ينطوي على ما هو أكثر من تلك الخسارة، فهو يتصرَّف كرجلٍ يائس.* ثم رفعت شوكتها، آملة أن تخفي حركتها المرارة المفاجئة التي شعرت بها. *ولِم العجب؟ إنه يائس بالفعل.*

ببطء في البداية، ثم بنشاطٍ متزايد، بدأ الضيوف يتناولون الطعام. أثنى صانع بذلات التقطير على چيسيكا على الطاهي والنبيذ.

قالت له: «أحضرنا كليهما معنا من كلادان».

قال وهو يتذوَّق طبق التشوكا: «رائع! ببساطة رائع! وليس به أدنى نكهة مزاج. لقد سئمت من مذاق الاسپايس في كل شيء».

نظر ممثِّل بنك النقابة عبر المائدة نحو كاينز، وقال: «بلغني يا دكتور كاينز أن زحَّافة رمال أخرى فُقدت في هجوم دودة».

قال الدوق: «يبدو أن الأخبار تنتقل سريعًا».

قال المصرفي: «الخبر صحيح إذًا؟»، محوِّلًا انتباهه إلى ليتو.

رد الدوق بقوَّة: «قطعًا صحيح! لقد اختفت الحاملة الجوِّية اللعينة كأنها لم تكن. ليس من المفترض لشيء بهذا الحجم أن يختفي!».

قال كاينز: «عندما جاءت الدودة، لم يكن هناك شيء لحمل الزحَّافة بعيدًا».

كرَّر الدوق: «وهو ما ليس من المفترض حدوثه!».

سأل المصرفي: «ولم يشاهد أحد الحاملة الجوِّية وهي ترحل؟».

قال كاينز: «عادةً ما يبقي المراقبون أعينهم على الرمال، فمهمَّتهم في المقام الأوَّل هي اكتشاف علامات الديدان. طاقم الحاملة الجوِّية عادةً ما يتكوَّن من أربعة رجال: طيارين ورحَّالين مرافقين. فإن كان أحدهم أو اثنان منهم يتلقَّيان الرُّشى من أعداق الدوق، فـ...».

قاطعه المصرفي قائلًا: «آها، فهمت. وهل ستطعن في هذا الأمر بصفتك قاضي الفترة الانتقالية؟».

قـال كاينـز: «يجـب أن أفكـر فـي موقفـي بعنايـة، وبالتأكيـد لـن أناقشـه فـي أثنـاء وليمـة طعـام»، ثـم فكَّـر: *يـا لهـذا الهيـكل العظمـي الشـاحب مـن ماكـر! إنـه يعلـم جيِّدًا أن هـذا هـو نـوع المخالفـة التـي طُلـب منـي تجاهلهـا.*

ابتسم المصرفي، وأعاد انتباهه إلى طبق طعامه.

جلسـت چيسـيكا تتذكَّـر أحـد الـدروس التـي تلقَّتهـا فـي مدرسـة البِنـي چيسـيرِت. كان الـدرس يتكلَّـم عـن التجسُّـس والتجسُّـس المضـاد. كانـت الأُمُّ الموقَّـرة التـي تلقـي الـدرس ممتلئـة الجسـم بشوشـة الوجـه، يتعـارض المـرح فـي صوتهـا بشـكل غريـب مـع موضـوع الـدرس.

مـا يجـب ملاحظتـه حـول أي مدرسـة تجسُّـس و/أو مدرسـة لمكافحـة التجسُّـس هـو نمـط رد الفعـل الأساسـي المماثـل لجميـع خرِّيجيهـا. فـأيُّ تخصُّـص مغلـق يتـرك بصمتـه ونمطـه علـى طلَّابـه، وهـذا النمـط يكـون قابـلًا للتحليـل والتنبُّـؤ.

الآن، سـتجدن أن أنمـاط التحفيـز متشـابهة بيـن جميـع عمـلاء التجسـس. هـذا يعنـي أن بعـض الدوافـع سـتكون متشـابهة علـى الرغـم مـن اختـلاف المـدارس أو تعـارض الأهـداف. أوَّلًا، سـتدرسـن طريقـة فصـل هـذا العنصـر -أي الدوافـع- لإجـراء تحليلكـن، وسـيكون هـذا فـي البدايـة مـن خـلال طرائـق الاسـتجواب التـي سـتكشـف لكـن عـن الميـل الداخلـي للمحققيـن وانتمـاءاتهـم، وبعدهـا عـن طريـق الملاحظـة الدقيقـة للتوجُّهـات الفكريـة اللغويـة لمـن يخضعـون للتحليـل. سـتجدن أنـه مـن السـهل تحديـد جـذور المرجعيـة اللغويـة للأشـخاص قيـد الدراسـة، وهـذا بالطبـع مـن خـلال نبـرة الصَّـوت ونمـط الكـلام.

الآن، وبينما هي جالسة إلى المائدة مع ابنها ودوقها وضيوفهم، وسماعها لكلام ممثّل بنك النقابة، شعرت چيسيكا بقشعريرة إدراك مفاجئة: هذا الرجل أحد جواسيس الهراكنة. كلامه يحمل نمط أهل كوكب جيدي پرايم. صحيح أنه يخفيه بمهارة، لكنه مُعرًّى أمام وعيها المتدرِّب كأنه يعلن عن نفسه.

سألت چيسيكا نفسها: *أهذا يعني أن النقابة نفسها انحازت ضد آل آتريديز؟* راعتها الفكرة واعتصرت قلبها، فأخفت مشاعرها وطلبت إحضار صنف طعام جديد، دون أن تكفَّ عن الإصغاء إلى الرجل مُنتظرة منه ما سيفضح ما يضمره.

قالت لنفسها: *سيغيِّر الحديث إلى موضوع آخر يبدو بريئًا، ولكن بإيحاءات مشؤومة. هذا هو نمطه.*

ابتلع المصرفي طعامه، وأخذ رشفه من النبيذ، وابتسم على شيءٍ قالته له المرأة التي تجلس إلى يمينه. بدا للحظة كأنه ينصت إلى رجلٍ يشرح للدوق أن نباتات أرّاكس الأصلية ليس بها أشواك.

قال المصرفي موجِّهًا كلامه إلى چيسيكا: «أستمتع بمشاهدة تحليق الطيور في سماء أرّاكس. كل طيورنا بطبيعة الحالة آكلة جيف، وكثير منها تعيش دون مياه، بعد أن صارت تشرب الدم».

التَوت ملامح ابنة صانع بذلات التقطير -الجالسة على الطرف الآخر من الطاولة بين پول وأبيه- وشاعت تكشيرة في وجهها الجميل وهي تقول: «أوه يا سو سو، دائمًا ما تتفوَّه بأكثر الأشياء إثارة للاشمئزاز».

ابتسم المصرفي موضِّحًا: «ينادونني سو سو لأنني المستشار المالي لاتِّحاد باعة الماء الجائلين»، وعندما لاحظ أن چيسيكا

تواصل تحديقها إليه دون فهم، أضاف: «لأن باعة الماء يرفعون عقيرتهم صائحين: "سو سو سوق!"»، ثم قلّد الصّوت بدقّة متناهية جعلت كثير من الجالسين حول المائدة يضحكون.

سمعت چيسيكا نبرة صوته المتبجِّحة، لكنها أكثر ما لفت انتباهها أن الشابة تحدَّثت في الوقت المناسب، كأنها تمثيلية، وقدَّمت العذر للمصرفي كي يقول ما قاله. نظرت چيسيكا إلى لينجار بيوط. كان قطب المياه عابسًا، موجِّهًا انتباهه إلى عشائه، ففهمت چيسيكا أن المصرفي كان يقصد بكلامه: «*أنا أيضًا أتحكَّم في مصدر النفوذ الأعظم على أرّاكس: الماء*».

كان پول قد ميَّز الزيف في صوت الضيف، ورأى أن والدته كانت تتابع المحادثة بانتباه البِني چيسيرِت. بدافعٍ غريزي، قرَّر پول استدراجه وإطالة النقاش، وسأل موجِّهًا حديثه إلى المصرفي: «هل تعني يا سيِّدي أن تلك الطيور تأكل من بني جنسها؟».

قال المصرفي: «هذا سؤال غريب أيُّها السيِّد الصغير. لم أقل إلَّا أن الطيور تشرب الدماء، ليس بالضرورة أن تكون دماء أفراد من نوعها، أليس كذلك؟».

قال پول: «لم يكن سؤالًا غريبًا»، فميَّزت چيسيكا في صوته الهجوم السريع اللاذع الذي درَّبته عليه. «يعرف معظم المتعلِّمين أن أخطر منافسة محتملة لأيِّ كائنٍ حيٍّ حديث السن قد تأتي من أفراد نوعه»، ثم عن عمد غرس شوكته في طبق الضيف ملتقطًا قطعة طعام، وأكلها. «فهم يتغذُّون من نفس الطعام، ولديهم الاحتياجات الأساسية نفسها».

اعتدل المصرفي في جلسته، ونظر إلى الدوق متجهِّمًا.

قال الدوق مبتسمًا: «لا تقع في خطأ اعتبار ابني طفلًا».

جالت چيسيكا بنظرها حول الطاولة، ولاحظت أن بيوط تهلَّلت أساريره، وأن كلًّا من كاينز والمهرِّب تُويك يبتسم.

قال كاينز: «هذا قانون في علم البيئة، ويبدو أن السيِّد الصغير يفهمه جيِّدًا. الصراع بين الكائنات الحيَّة لهو صراع على مصادر الطاقة المتوفِّرة في النظام البيئي، والدم مصدر جيِّد للطاقة».

وضع المصرفي شوكته، وقال بصوتٍ غاضب: «يُقال إن حثالة الفرمِن يشربون دماء موتاهم».

هزَّ كاينز رأسه بهدوء وتكلَّم كمن يلقي محاضرة: «ليس الدماء يا سيِّدي، بل كلّ ماء المرء يؤول في النهاية إلى قومه، أي قبيلته. إنها ضرورة حياتية تتعلَّمها عندما تعيش على تخوم "الفلاة الكبرى". كل الماء ثمين هناك، وسبعون بالمئة من وزن الجسم البشري ماء، وقطعًا الميِّت لم يعد بحاجة إلى تلك المياه».

وضع المصرفي كلتا يديه على المنضدة بجانب طبقه، وظنَّت چيسيكا أنه سيدفع كرسيه إلى خلف ويغادر غاضبًا

نظر كاينز إلى چيسيكا وقال: «اعذريني يا مولاتي للاستفاضة في مثل هذا الموضوع القبيح على المائدة، ولكنك كنت تسمعين معلومات مضلِّلة، وكان لا بُدَّ من إيضاحها».

قال المصرفي بنبرة فظَّة: «لقد اختلطت بالفرمِن مدَّة طويلة حتَّى فقدت كل حسٍّ سليم».

نظر إليه كاينز بهدوء، متدبِّرًا انفعالات وجهه الشاحب المرتجف: «أتتحدَّاني يا سيِّدي؟».

تجمَّد المصرفي في مكانه، ثم ابتلع ريقه، وقال بتصنُّع: «بالطبع لا. لن أهين مضيفنا ومضيفتنا بمثل هذا السلوك».

ميَّزت چيسيكا الخوف في صوت الرجل، ورأته في وجهه، واستشعرته في أنفاسه، ولمسته في الوريد النَّابض في صدغه. كان الرجل مرعوبًا من كاينز!

قال كاينز: «مضيفنا ومضيفتنا قادران تمامًا على التقرير بنفسيهما عندما يتعرضان للإهانة. إنهما شجاعان ويدركان جيِّدًا مبدأ الدفاع عن الشرف. نستطيع جميعًا أن نشهد على جسارتهما بحقيقة أنهما هنا.. الآن.. على أرَّاكس».

لاحظت چيسيكا أن ليتو مستمتع بالأمر، بينما لم يكن معظم الآخرين كذلك. جلس الضيوف حول المائدة يخفون أيديهم أسفل المائدة كأنهم متأهِّبين للفرار. باستثناء بيوط، الذي كان يبتسم بصفاقة في وجه المصرفي إمعانًا في زعزعته، والمهرِّب تُويك، الذي بدا كأنه يراقب كاينز منتظرًا إشارته. رأت چيسيكا أن پول يرمق كاينز بإعجاب.

قال كاينز: «ما قولك؟».

غمغم المصرفي في صوتٍ خفيض: «لم أقصد أيَّ إهانة، وإن شعرت بإهانة من كلامي، فأرجو أن تقبل اعتذاري».

قال كاينز: «اعتذارك مقبول بما أنك قدَّمته عن طيب خاطر». ثم ابتسم إلى چيسيكا، وواصل تناول طعامه كأن شيئًا لم يحدث.

لاحظت چيسيكا أن المهرِّب استرخى كذلك، فسجلَّت الملاحظة في ذهنها: لقد أظهر الرجل أنه على أتمِّ الاستعداد للوثوب في أيِّ لحظة لمؤازرة كاينز. من الواضح أن بين كاينز وتُويك عهدٌ ما.

عبث ليتو بشوكته، وراح يتأمَّل كاينز. يشير سلوك عالم البيئات الكوكبية إلى أن موقفه تجاه آل آتريديز قد تغيَّر، فقد بدا الرجل أكثر جفاءً في رحلتهم إلى الصَّحراء.

أشارت چيسيكا إلى إحضار صنف آخر من الطعام ومن الشراب. جلب الخدم أطباق ألسنة الأرانب البرية، التي تقدَّم مع النبيذ الأحمر وصوص خميرة الفطر.

ببطء، استؤنفت محادثات العشاء، لكن چيسيكا استشعرت التوتُّر الذي يغلِّفها واتِّسامها بالحساسية، ورأت أن المصرفي يأكل طعامه في صمتٍ متجهِّم، وخطر لها: *كان كاينز سيقتله دون ذرَّة تردُّد*. أدركت أن كاينز يتعامل مع مسألة القتل بعفوية. إنه لا يبالي بالقتل البتَّة، وخمنت أن هذه صفة من صفات الفرمِن.

التفتت چيسيكا إلى صانع بذلات التقطير الجالس إلى يسارها وقالت: «أجد نفسي مشدوهة باستمرار من أهمِّية الماء على أرَّاكس».

وافقها الرجل قائلًا: «إنه فائق الأهمِّية. ما الذي في هذا الطبق؟ إنه شهي».

قالت له: «ألسنة الأرانب البرِّية المطبوخة في صلصة خاصة. إنها أكلة عتيقة».

قال الرجل: «يجب أن أحصل على الوصفة».

أومأت چيسيكا: «سأتأكَّد من حصولك عليها».

نظر كاينز إلى چيسيكا وقال: «عادةً ما يستهين الوافدون الجدد إلى أرَّاكس بأهمِّية الماء هنا. كما ترين، نحن نتعامل هنا مع قانون الحد الأدنى».

سمعت في صوته نبرة اختبار، فقالت: «آها، تقصد مبدأ اعتماد نمو النباتات على العنصر الأقل توفُّرًا في البيئة، ما يجعل أقل الظروف المواتية هو المتحكِّم في معدَّل النمو بطبيعة الحال».

قال كاينز: «من النادر أن يجد المرء أحد أفراد العائلات النبيلة على دراية بالمشكلات البيئية لأحد الكواكب. الماء هو

العنصـر الأقـل توفُّـرًا للحيـاة وبالتالـي هـو أقـل الظـروف مواتيـة، وتذكَّـري أن النمـو فـي حـدِّ ذاتـه يمكـن أن تنتـج عنـه ظـروفٌ غيـر مواتيـة مـا لـم يُجـر التعامـل معـه بحـذر شـديد».

استشـعرت چيسـيكا رسـالة خفيـة فـي كلمـات كاينـز، لكنهـا لـم تفهـم فحواهـا. كرَّرت مـن بعـده: «النمـو»، ثـم سـألت: «هـل تعنـي أن أرَّاكس يمكـن أن يتمتَّـع بـدورة مياه منتظمـة قـادرة على دعـم الحيـاة البشـرية فـي ظـل ظـروف أكثـر ملاءمـة؟».

صاح قطب الماء قائلًا: «مستحيل!».

أدارت چيسيكا انتباهها إلى بيوط وقالت: «مستحيل؟».

قـال: «مسـتحيل علـى أرَّاكـس. لا تنصتـي إلـى هـذا الحالـم. كل الأدلَّـة المعمليـة تقـول عكـس كلامـه».

نظـر كاينـز باتجِّـاه بيوط، ولاحظت چيسـيكا أن النقاشـات الأخرى الدائـرة حـول المائـدة قـد توقَّفـت، وركَّـز المدعـوون اهتمامهـم على هـذا الجـدال الجديـد.

قـال كاينـز: «تميـل الأدلَّـة المعمليـة إلـى إعمائنـا عـن حقيقـة بسـيطة جدًا، هـذه الحقيقـة تقـول: إننـا نتعامـل هنـا مـع أمـور نشـأت -ومـا زالـت قائمـة- فـي العـراء حيـث تعيـش النباتـات والحيوانـات حياتهـا الطبيعيـة».

قال بيوط ساخرًا: «طبيعية! لا شيء على أرَّاكس طبيعي!».

قـال كاينـز: «العكـس هـو الصحيـح. بالإمـكان خلـق أنظمـة منسـجمة مكتفيـة بذاتهـا علـى هـذا الكوكـب، كل مـا عليـك هـو فهـم حـدود مـوارده والضغـوط الواقعـة عليـه».

قال بيوط: «لن يحدث هذا أبدًا».

بغتةً، أدرك الدوق اللحظة التي تغيَّر فيها سلوك كاينز: إنها اللحظة التي تحدَّثت چيسيكا فيها عن الإبقاء على مشتل النباتات كأمانة لشعب أرَّاكس.

سأل ليتو: «ما الذي يتطلبه إنشاء نظامٍ مكتفٍ ذاتيًا يا دكتور كاينز؟».

قال كاينز: «إذا استطعنا جعل ثلاثة بالمئة من الحياة النباتية على أرَّاكس تبدأ تكوين مركبات الكربون في هيئة موادّ غذائية، سنكون قد بدأنا دورة حياة النظام المنشود».

سأل الدوق: «والماء هو العقبة الوحيدة؟»، واستشعر حماسة كاينز، ووجد أنه قد التقط عدواها.

قال كاينز: «عقبة الماء تطغى على المشكلات الأخرى. يحتوي هذا الكوكب على الكثير من الأكسچين دون ما يصاحبه من ظواهر معتادة، كانتشار الحياة النباتية، وكوجود مصادر كبيرة لغاز ثاني أكسيد الكربون الحُر الناتجة عن ظواهر مثل البراكين. أيضًا تحدث عمليات تبادل كيميائية غير عادية على مساحات كبيرة هنا».

سأل الدوق: «ألديك مشاريع تجريبية؟».

قال كاينز: «لقد أمضينا وقتًا طويلًا لتحقيق ما يُدعى بتأثير تانسلي: إجراء تجارب ضيِّقة النطاق في معامل محدودة، وهي تجارب بإمكاني استخدامها نواةً لعملي والبناء على النتائج التي توصَّلت إليها».

قال بيوط: «لا يُوجد ماءٌ كافٍ، هذا كل شيء».

قال كاينز مبتسمًا: «السيِّد بيوط خبير في أمور الماء»، ثم عاد إلى عشائه.

أشـار الـدوق بحـدَّة بيـده اليمنـى، وصـاح: «كلّا! أريـد جوابًـا! هـل يُوجـد مـاءٌ كافٍ يـا دكتـور كاينـز؟».

ظلَّ كاينز يحدِّق إلى طبقه.

راقبـت چيسـيكا انفعـالات وجهـه وفكَّـرت: *إنـه بـارع فـي إخفـاء مشـاعره*، لكنهـا كانـت قـد درسـته جيِّـدًا، وقـد قـرأت فـي ملامحـه أنـه نـادمٌ علـى مـا بـاح بـه مـن كلام.

قال الدوق بنبرة آمرة: «أيوجد ماءٌ كافٍ؟!».

قال كاينز: «آه... رُبَّما».

فكَّرت چيسيكا: *إنه يتظاهر بعدم اليقين!*

بحسِّـه الأعمـق الكاشـف للحقيقـة، أدرك پول الدافـع الكامـن وراء ذلك، واضطـر إلـى استخدام كل ما تلقَّـاه مـن تدريـب للسيطرة على نفسـه وإخفـاء حماسـته. *يُوجـد مـا يكفـي مـن المـاء بالفعـل! لكـن كاينـز لا يُريـد لتلـك الحقيقـة أن تُعـرف.*

قـال بيـوط: «لـدى عالمنـا البيئـي الهمـام أحـلامٌ مثيـرة. إنـه يشـارك الفرمِـن أحلامهـم بالنبـوءات والأنبيـاء».

تعالـت ضحـكات مكتومـة مـن أماكن متفرِّقة حـول المائدة، حدَّدتها چيسـيكا بدقَّـة: المهـرِّب، وابنـة صانـع بـذلات التقطيـر، ودانكـن آيداهـو، والمـرأة التـي تديـر شـركة خدمـات مرافقـات غامضـة.

وفكَّـرت: *التوتُّـرات موزَّعـة بشـكل غريـب الليلـة، وأمـورٌ كثيـرة لسـت علـى علـمٍ بهـا. علـيَّ تجنيـد مصـادر معلومـات جديـدة.*

نقـل الـدوق بصـره مـن كاينـز إلـى بيـوط إلـى چيسـيكا، وتملَّكـه شـعورٌ غريـب بالخـذلان، كأن شـيئًا هامًّـا حـدث أمامـه ولـم يفهمـه. فـي النهايـة غمغـم: «رُبَّمـا».

قال كاينز سريعًا: «رُبَّما علينا مناقشة الأمر في وقتٍ آخر يا مولاي، فثمَّة الكثير من الـ...».

بتر عالم البيئات الكوكبية عبارته مع دخول حارس آتريديزي بالزيِّ الرسمي يهرول عبر باب الخدمة متجاوزًا الحارس ومسرعًا نحو الدوق. انحنى الرجل، وهمس شيئًا في أُذُن ليتو.

ميَّزت چيسيكا علامة جند حوَّاط على قبَّعته، فحاولت نفض القلق عنها بتوجيه حديثها إلى رفيقة صانع بذلات التقطير، وهي امرأة تشبه الدمية: ضئيلة الجسد، وداكنة الشعر، وعيناها مسحوبتان قليلًا.

قالت چيسيكا: «لم تلمسي شيئًا من عشائك يا عزيزتي، أتريدين أن أطلب لك طبقًا معيَّنًا؟».

نظرت المرأة إلى صانع بذلات التقطير قبل أن تُجيب، ثم قالت: «لست جائعة».

بغتةً، نهض الدوق واقفًا إلى جوار جنديه، وقال بنبرة آمرة جافَّة: «ليبق الجميع في مقاعدهم. اعذروني فقد طرأ أمرٌ يتطلَّب تدخُّلي الشخصي»، ثم تنحَّى جانبًا، وأضاف: «پول، تولَّ منصب المضيف من بعدي من فضلك».

وقف پول راغبًا في أن يسأل والده عن سبب مغادرته، لكنه عَلِم أن عليه معالجة الموقف بسلوك رفيع، فاتَّجه إلى مقعد والده وجلس عليه.

استدار الدوق إلى الفرجة التي يجلس فيها هاليك وقال: «جيرني، تعال وخذ مكان پول على المائدة من فضلك، فلا يجب أن نترك مقعدًا شاغرًا هنا، وعندما ينتهي العشاء، قد أحتاج منك إلى أن تصحب پول إلى مبنى القيادة في ساحة المهبط. انتظر اتِّصالي».

خرج هاليك من الفرجة مرتديًا زيَّه الرسمي، وبدت كتلته الدميمة في غير محلّها مع كل البذخ والتأنّق الذي في القاعة. أسند الباليسِت إلى الجدار، وسار إلى المقعد الذي كان پول يحتلَّه، وجلس عليه.

قال الدوق: «لا داعي للقلق، لكن يجب أن أطلب منكم ألَّا يغادر أحد حتَّى يقول الحرس المنزلي أن الوضع آمن. ستكونون في أمانٍ تام ما برحتم في المنزل. سنتخلَّص من هذه المشكلة الصغيرة سريعًا جدًّا».

التقط پول كلمات الشيفرة في رسالة والده: (حرس - آمن - أمان - سريعًا). إنها مشكلة تتعلَّق بالأمن، لا بأعمال عنف. لاحظ أن أُمَّه قرأت نفس الرسالة في كلماته، فشعر كلاهما بالارتياح.

أومأ الدوق باقتضاب إلى ضيوفه، واستدار مغادرًا القاعة في خطواتٍ عريضة عبر باب الخدمة، يتبعه جنديه.

قال پول: «واصلوا تناول العشاء من فضلكم، أظنُّ أن الدكتور كاينز كان يناقش موضوع المياه».

سأل كاينز: «هلَّا ناقشناه في وقتٍ لاحق؟».

قال پول: «بكل سرور».

لاحظت چيسيكا -بكل فخر- رفعة ووقار ابنها، وشعوره الناضج بالثقة.

التقط المصرفي إبريق المياه الموضوع أمامه، وأشار به باتجاه بيوط: «ليس بيننا من يتفوَّق على السيِّد لينجار بيوط في حُسن العبارة وفصاحة اللسان، حتَّى أن المرء قد يظن أنه كان يطمح إلى بلوغ رتبة كبار النبلاء. هيَّا يا سيِّد بيوط، قدِّم لنا

نخبًا. رُبَّما يكون لديك بعض الحكمة يمكن تعليمها للصبيّ الذي يجب أن يُعامل كرجل».

ضمَّت چيسيكا راحة يدها اليمنى في قبضة أسفل المائدة، ورأت هاليك يُمرِّر إشارة يدٍ خفيَّة إلى آيداهو، ولاحظت كيف تحرَّك أفراد قوَّات الحرس المنزلي بطول الجدران إلى مواقع حراسة مشدَّدة.

ألقى بيوط نظرةً سامَّةً إلى المصرفي.

رمى پول هاليك بنظرة سريعة، مراعيًا المواقع الدفاعية التي اتَّخذها حرَّاسه، ثم حدَّق إلى وجه المصرفي حتَّى خفض الرجل إبريق المياه، فقال پول بعدها: «ذات مرَّة على كلادان، رأيت جثة صيَّاد سمك غريق بعد انتشالها».

- «غريق؟». كانت هذه ابنة صانع بذلات التقطير.

تردَّد پول قليلًا ثم قال: «أجل. أي غُمر تحت الماء حتَّى مات.. غرقًا».

تمتمت: «يا لها من طريقة غير مألوفة للموت».

ابتسم پول ابتسامةً باهتةً، ثم أعاد انتباهه إلى المصرفي وقال: «المثير للاهتمام في أمر هذا الرجل كانت الجروح على كتفيه، التي تسبَّب فيها حذاء صيَّاد آخر ثقيل. هذا الصياد كان واحدًا من عِدَّة صيادين على قارب -وهو مركب للانتقال في الماء- وقد غرق القارب بهم وغاص أسفل المياه. قال صيَّاد آخر ساعد في انتشال الجثَّة أنه رأى مثل هذه الجروح التي على كتفي الرجل مرَّات كثيرة، وأنها تعني أن صيَّادًا آخر كان يغرق حاول الوقوف على أكتاف هذا الرجل المسكين في محاولة يائسة منه للوصول إلى السطح.. للوصول إلى للهواء».

سأل المصرفي: «وما المثير في الاهتمام في ذلك؟».

- «المثير للاهتمام هو الملاحظة التي أبداها أبي في ذلك الوقت. لقد قال إنه من الممكن فهم الرجل الذي يتسلَّق كتفيك لينجو بنفسه من الغرق، لكن لا يمكن فهم من يفعل ذلك في قاعات الاستقبال»، وسكت پول برهة كافية كي يستوعب المصرفي ما يرمي إليه، ثم أردف: «وأحب أنا أن أضيف، لكن لا يمكن فهم من يفعل ذلك على موائد العشاء».

خيَّم على الغرفة صمتٌ مفاجئ.

فكَّرت جيسيكا: *كان هذا تصرُّفًا طائشًا، فمكانة هذا المصرفي قد تكون كافية لتحدِّي ابني*. لاحظت أن آيداهو متأهِّبًا للتحرُّك الفوري، وأن حرس المنزل في حالة استنفار، وأن عيني جيرني هاليك مثبَّتتين على الرجال المقابلين له.

- «هاه هاه هاااااه». كان هذا هو المهرِّب تُويك، الذي ألقى رأسه إلى الوراء وراح يضحك دون تحفُّظ.

ارتسمت ابتسامات عصبية صفراء على بعض الوجوه حول المائدة.

أما ابتسامة بيوط فكانت عريضة، وحشية.

دفع المصرفي كرسيه إلى الخلف وهو ينظر شزرًا إلى پول.

قال كاينز: «على من يستفز أحد آل آتريديز إدراك مغبَّة ما يفعل».

سأل المصرفي بغضب: «وهل من عادة آل آتريديز إهانة ضيوفهم؟».

قبل أن يتمكَّن پول من الإجابة، مالت جيسيكا إلى الأمام وقالت: «سيِّدي!»، ثم فكَّرت: *يجب أن نعرف أيَّ لُعبة يمارسها عميل الهراكنة هذا؟ أهو هنا لجر پول إلى تحدٍّ؟ هل يتلقَّى مساعدةً من أحد؟*

سألته چيسيكا: «ابني يعرض ثوبًا على الملأ، فتأتي أنت وتزعم أنه مفصَّل على مقاسك؟ يا له من أمر غريب!».

وانسلَّت يدها متحسِّسةً السكِّين العاجية التي لفَّت غمدها على ربلة ساقها.

استدار المصرفي موجِّهًا نظرته المستشيطة غضبًا نحو چيسيكا، ورأت أن پول عاد بكرسيه إلى الوراء ليحرِّر نفسه استعدادًا للقتال، وهو يصب تركيزه على الكلمة السرِّية: ثوب أي *«استعد لعمل عنيف»*.

وجه كاينز نظرة فضولية إلى چيسيكا، وأعطى إشارة يد خفيَّة إلى تُويك.

قفز المهرِّب واقفًا على قدميه، ورفع إبريقه قائلًا: «سأعطيكم أنا نخبًا. إلى الشاب پول آتريديز، الفتى *بمظهره*، الرجل بأفعاله».

سألت چيسيكا نفسها: *لماذا يتدخَّلان؟*

كان المصرفي يحملق الآن إلى كاينز، ولاحظت چيسيكا الرعب يعود ويعتلي ملامح وجه العميل.

بدأ الناس يستجيبون من كل مكان حول المائدة.

فكَّرت چيسيكا: *حيث يقود كاينز، يتبعه الناس. لقد أظهر لنا أنه ينحاز إلى جانب پول، ولكن تُرى ما سر نفوذه؟ ليس من المعقول أن ذلك لكونه قاضي الفترة الانتقالية، فتلك وظيفة مؤقَّتة، وبالتأكيد ليس لأنه موظَّف حكومي.*

أبعدت چيسيكا يدها عن مقبض السكِّين العاجية، ورفعت إبريقها نحو كاينز، الذي ردَّ تحيَّتها بالمثل.

وحدهما پول والمصرفي (*سو سو! يا له من لقب أبله!* هكذا فكَّرت) ظلَّا فارغي اليدين. لم يبعد المصرفي انتباهه المنصب على كاينز، أما پول فكان يحملق إلى طبقه.

ويفكِّر: *كنت أتعامل مع الموقف على نحوٍ صحيح، لِمَ تدخَّلوا؟* ثم استرق النظر إلى الضيوف الذكور الجالسين بالقرب منه. *أستعد لعمل عنيف؟ ممَّن؟ بالتأكيد ليس من هذا المصرفي.*

تقلقل هاليك في جلسته، وتحدَّث دون أن يخاطب أحدًا على وجه الخصوص، موجِّهًا كلامه إلى الجدار الواقع خلف رؤوس الضيوف المقابلين له: «في مجتمعنا، ليس من المفترض أن نكون سريعي الامتعاض، فكثيرًا ما يكون ذلك سلوكًا انتحاريًا»، ثم نظر إلى ابنة صانع بذلات التقطير الجالسة إلى جواره وأردف: «ألا تظنين ذلك يا آنستي؟».

قالت الفتاة: «أوه، أجل، أظن ذلك بالفعل. هناك الكثير من العنف، وهذا يشعرني بالغثيان. في كثير من الأحيان لا تكون الإهانة مقصودة، ومع ذلك يموت الناس. هذا لا يُعقل».

قال هاليك: «بالفعل لا يُعقل».

لاحظت چيسيكا الأداء المتقن الذي أدَّت به الفتاة دورها، وأدركت: *هذه الأنثى الصغيرة ذات العقل الفارغ ليست مجرَّد أنثى صغيرة ذات عقلٍ فارغ.* ثم أدركت طبيعة الخطر البادي أمامها، وفهمت أن هاليك قد اكتشفه أيضًا. لقد خطَّطوا لإغراء پول بالجنس. شعرت چيسيكا بالارتياح، فلا بُدَّ أن ابنها كان أوَّل من لاحظ الأمر، فلم يكن تدريبه ليغفل عن تلك المناورة الواضحة.

وجَّه كاينز حديثه إلى المصرفي قائلًا: «ألم يحن وقت تقديم اعتذار آخر؟».

استدار المصرفي إلى چيسيكا وعلى وجهه ابتسامة سقيمة، وقال: «مولاتي، أخشى أنني قد أفرطت في تناول النبيذ. أنت تقدِّمين خمرًا قويًا على المائدة، وأنا لست معتادًا على ذلك».

سمعت چيسيكا النبرة السَّامة التي يحملها صوته، وردَّت بعذوبة: «عندما يلتقي الغرباء، يجب التماس العذر وترك مساحة واسعة للتفهُّم بسبب الاختلافات في العادات والتقاليد».

قال الرجل: «أشكرك يا مولاتي».

مالت رفيقة صانع بذلات التقطير الداكنة الشعر نحو چيسيكا، وقالت: «قال الدوق إننا سنكون بمأمنٍ هنا، آمل ألَّا يعني ذلك وقوع المزيد من القتال في الخارج».

فكَّرت چيسيكا: *لقد طُلب منها توجيه المحادثة إلى هذا الطريق.*

قالت چيسيكا: «الأمر لا يستجوب القلق على الأرجح، لكن تفاصيل كثيرة تتطلَّب اهتمام الدوق الشخصي في هذه الأوقات. فما دامت العداوة مستمرَّة بين آل آتريديز وآل هاركونن، علينا توخِّي أقصى درجات الحذر. الدوق أقسم على ثأر الكانلي، وهذا يعني أنه لن يترك عميلًا هاركونَّيًا حيًّا على أرَّاكس»، ثم رمت ممثِّل بنك النقابة بنظرة وأضافت: «والمعاهدات بطبيعة الحال تدعمه في هذا»، ثم نقلت انتباهها إلى كاينز وأردفت متسائلة: «أليس كذلك يا دكتور كاينز؟».

قال كاينز: «بلا شك».

جذب صانع بذلات التقطير رفيقته إلى الخلف برفق، فنظرت إليه ثم قالت: «أظن أنني سآكل شيئًا الآن. أرغب في تذوُّق طبق الطيور الذي قدَّمتِه سابقًا».

أشارت چيسيكا إلى الخادم لتلبية طلبها، وعادت إلى المصرفي: «وأنت يا سيِّدي، لقد كنت تتحدَّث سابقًا عن الطيور وعاداتها. أجد الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام في أرَّاكس.

أخبرني، أين يعيش هذا النوع؟ وهل يتوغَّل الصيَّادون في أعماق الصَّحراء؟».

قال: «أوه، كلَّا يا سيِّدتي. لا يُعرف إلَّا أقل القليل عن قلب الصَّحراء، ولا شيء معروف تقريبًا عن المناطق الجنوبية».

قال كاينز: «تقول إحدى الروايات إن المناطق الجنوبية تحوي كميَّات هائلة من الاسپايس، لكنني أظن أن الأمر محض خيال نُسج لترديده في الأغنيات. يغامر صيَّادو الاسپايس الجريئون باختراق حدود الحزام المركزي في بعض الأحيان، لكن هذا أمر شديد الخطورة، فالملاحة هناك غير دقيقة، والعواصف تهب باستمرار. تزداد الخسائر بشكل كبير كلما ابتعدت العمليات عن قواعد الجدار الحامي. لم يثبت التوغُّل جنوبًا أنه مُربح اقتصاديًا، لكن رُبَّما لو كنا نملك قمر تحكُّم في الطقس...».

رفع بيوط بصره عن طبقه، وتحدَّث بفمٍ مملوء بالطعام: «يُقال إن الفرمِن يجوبون الصحاري هناك، وإنهم يرتحلون إلى أيِّ مكان باحثين عن مناقع ماء وآبار رشف، حتَّى في خطوط العرض الجنوبية».

سألت چيسيكا: «مناقع وآبار؟».

ردَّ كاينز سريعًا: «مجرَّد شائعات جامحة يا مولاتي. هذه الأشياء معروفة على الكواكب الأخرى، ولكن ليس على أرَّاكس. المنقع هو مكان يتسرَّب فيه الماء إلى السطح، أو قريبًا من السطح بما يكفي، ما يسمح للعثور عليه بالحفر وفقًا لعلامات معينة. أما بئر الرشف فهي شكل من أشكال المناقع يُسحب الماء منها باستخدام قصبة. هذا ما يُقال».

فكَّرت چيسيكا: *في حديثه خداع.*

وتساءل پول: *لماذا* يكذب؟

قالت چيسيكا: «كم هذا مثيرٌ للاهتمام!»، وفكَّرت: *«هذا ما يُقال»! ما أغرب أسلوب الكلام المستخدم هنا. فقط لو يعرفون ما يكشفه عن اعتمادهم على الخرافات.*

قال پول: «سمعت أن لديكم مقولة تقول: "الرُّقي منبته المُدن، والحكمة منبعها الصَّحراء"».

قال كاينز: «الأقوال كثيرة على أرَّاكس».

قبل أن تتمكَّن چيسيكا من صوغ سؤال جديد، انحنى أحد الخدم وسلَّمها ملاحظة، ففتحتها لترى خط يد الدوق وعلامات شيفرة متناثرة، فقرأتها سريعًا.

ثم قالت: «ستُسرُّون جميعًا عندما تعلموا أن دوقنا يرسل إليكم تطميناته. المسألة التي تطلَّبت حضوره سُوِّت. لقد عثروا على الحاملة الجوِّية المفقودة. أحد عملاء الهراكنة كان ضمن الطاقم وتغلَّب على الآخرين وقاد الطائرة إلى إحدى قواعد المهربين، على أمل بيعها هناك. وقد سُلِّم كلٌّ من الرجل والآلة لقوَّاتنا». ثم هزَّت رأسها لتُويك.

فبادلها تُويك الإيماءة.

طوت چيسيكا الورقة ودسَّتها في كُمِّ فستانها.

قال المصرفي: «أنا سعيد أن الأمر لم يتطوَّر إلى معركة، فالناس لديهم آمال كبيرة أن يجلب آل آتريديز السلام والازدهار».

قال بيوط: «لا سيِّما الازدهار».

سألت چيسيكا الحضور: «هلَّا نتناول التحلية الآن؟ لقد طلبت من الطاهي أن يُعدَّ لنا حلوى كلادانية: أرز البُنجي بصوص الدولسا».

قال صانع بذلات التقطير: «يبدو لذيذًا، هل أستطيع الحصول على الوصفة؟».

قالت چيسيكا: «تستطيع الحصول على أيٍّ وصفةٍ تُحب»، وسجَّلت الرجل في ذهنها كي تذكره لحوَّاط لاحقًا، فقد كان صانع بذلات التقطير هذا وصوليًا، جبانًا، يمكن شراؤه.

استؤنفت الدردشات من حولها: «يا له من قماشٍ جميل...»، «سيصنع لي عُقدًا يبرز بهاء الجوهرة...»، «سنحاول زيادة الإنتاج في رُبع السنة القادم...».

حدَّقت چيسيكا إلى طبقها وهي تُفكِّر في الجزء المشفَّر من رسالة ليتو: *لقد حاول الهراكنة تهريب شُحنة بنادق ليزر إلى الكوكب، لكننا أمسكنا بهم. هذا يعني أنهم رُبَّما نجحوا في إدخال شُحنات أخرى، وهذا يعني أنهم لا يأبهون لدروع الطاقة. اتَّخذي الاحتياطات المناسبة.*

ركَّزت چيسيكا ذهنها على بنادق الليز، وتعجَّبت. يستطيع شعاع الليزر الأبيض الحارق اختراق أيِّ مادَّة معروفة، بشرط ألا تكون هذه المادَّة محاطة بدرع طاقة. لماذا لا يبدو أن الهراكنة يأبهون لحقيقة أن ردَّة فعل الدرع عند التقاء الشعاع به تُفجِّر الاثنان معًا؟ لطالما كانت انفجارات دروع الطاقة وبنادق الليزر متغيِّرات تابعة خطِرة غير مأمونة الجانب، فقد يكون الانفجار أقوى من الأسلحة الذرِّية، وقد يقتل حامل البندقية وهدفه المحمي بالدرع فحسب.

ملأتها المجاهيل المحيطة بها بقلقٍ بالغ.

قال پول: «لم أشك قط في أننا سنجد الحاملة الجوِّية، فما أن يتحرَّك أبي لحل مُشكلة، فهو يَحُلُّها. هذه حقيقة بدأ الهراكنة يدركونها».

فكَّرت چيسيكا: *إنه يتفاخر، ويجب ألَّا يتفاخر. لا يحقُّ لشخصٍ سيبيت الليلة في غرفة تحت سطح الأرض تحسُّبًا لوقوع هجومٍ ببنادق الليزر أن يتفاخر.*

لا مناص من أن ندفع ثمن عنف أسلافنا.

من كتاب «أحاديث المؤدِّب المجمَّعة» للأميرة إيرولان.

سمعت چيسيكا الجلبة الآتية من القاعة الكبرى، فأضاءت المصباح المجاور للفراش. لم تكن قد ضبطت ساعتها على التوقيت المحلِّي بدقَّة بعد، فكان عليها أن تطرح 21 دقيقة لتقرِّر أنها الثانية صباحًا.

كانت الجلبة صاخبة وعشوائية.

تساءلت: *أهذا هجوم الهراكنة؟*

انسلَّت مغادرة الفراش، وتفحَّصت شاشات المراقبة لترى مواقع أفراد أسرتها. أظهرت الشاشة أن پول نائم في غرفة القبو العميقة التي حوَّلوها على عجل إلى غرفة نوم له. من الواضح أن الضجَّة لم تبلغ مهجعه. لم يكن الدوق في غرفته، وفراشه مُرتَّب لم يُمس. أما زال في مبنى القيادة في ساحة المهبط.

لم يكونوا قد وضعوا كاميرات مراقبة على واجهة المنزل بعد.

وقفت چيسيكا في منتصف غرفتها، منصتة.

سمعت شخصًا يصيح بكلام غير واضح، وآخر ينادي الدكتور يُوي. التقطت چيسيكا رداءً ووضعته على كتفيها، ودسَّت قدميها في نعلين، وربطت السكِّين العاجية حول ساقها.

مرَّة أخرى، صاح الصَّوت مناديًا الدكتور يُوي.

ربطت چيسيكا حزام الرداء حول خصرها، وخطت خارجة إلى الرواق، ثم صدمتها خاطرة: *ماذا لو أصاب ليتو مكروه؟*

راحت چيسيكا تركض وتركض، وبدا الرواق كأنه يمتدُّ ويستطيل إلى الأبد تحت قدميها، ثم انعطفت عبر المدخل المقبَّب في نهاية

الـرواق، واندفعـت عابـرة قاعـة الطعـام، وقطعـت الممـر المـؤدّي إلـى القاعـة الكبـرى، حيـث وجـدت الإضـاءة تغمـر المـكان، والمصابيـح الجداريـة المضـادَّة للجاذبيـة تتوهّـج بكامـل طاقتهـا.

بالقـرب مـن المدخل الأمامـي، رأت رجليـن مـن الحـرس المنزلـي يمسـكان بدانكـن آيداهـو مُدلّـى الـرأس بينهمـا، وقـد خيَّـم علـى المشـهد صمـتٌ ثقيـل مفاجـئ.

تحـدَّث أحـد الحارسـين إلـى آيداهـو بنبـرة اتِّهـام: «أرأيـت مـاذا فعلـت؟ لقـد أيقظـت الليـدي چيسـيكا».

كانـت السـتائر الكبيـرة تنتفـخ بالهـواء مـن خلـف الرجليـن، مـا يعنـي أن البـاب الأمامـي تُـرك مفتوحًـا. لـم يكـن فـي المـكان أثـرٌ للدوق أو ليُوي، وكانت ميپس واقفـةً في أحـد الأركان في ثوبٍ بُنّـيٍّ طويل حوافّـه مهترئـة ترمق آيداهـو ببـرود، وقـد انتعلت فـي قدميها بيـادة صحـراء أربطتهـا مفكوكـة.

غمغـم آيداهـو: «إذًا فجريمتـي أننـي أيقظت الليـدي چيسيكا»، ثم رفـع وجهـه إلـى السـقف وجـأر: «أنـا الـذي أدميـتُ سـيفي لأوّل مـرَّة علـى كوكـب جرومـان!».

فكَّرت چيسيكا: *بحقِّ الأم العظيمة! إنه ثمل!*

كان العبوس يرتسـم على وجـه آيداهـو الأسـمر المسـتدير، وكان شـعره ملبَّدًا بالوحل كوبـر ماعـزٍ أسود، وقـد تمزَّقـت سـترته كاشـفةً عـن جـزء كبيـر مـن القميـص الـذي كان يرتديـه فـي حفـل العشـاء.

عبرت چيسيكا القاعة نحوه.

حيَّاهـا أحـد الحارسـين برأسـه دون أن يفلـت قبضتـه عـن دانكـن، وقـال: «لـم نعـرف مـاذا نفعـل بـه يـا سـيِّدتي. كان يثيـر جلبـةً فـي الخـارج ويرفـض الدخـول، وخُفنـا أن يأتـي بعـض السـكّان المحلّيـين

ويشاهدونه في هذه الحالة، فهذا غير لائق على الإطلاق وقد يسيء إلى سمعتنا».

سألت چيسيكا: «أين كان؟».

- «كان يرافق واحدة من الشابَّات اللاتي حضرن العشاء إلى منزلها يا سيِّدتي، بأوامر من حوَّاط».

- «أيُّ شابةٍ كانت؟».

- «واحدة من باغيات خدمة المرافقة، أنت تفهمين يا سيِّدتي»، ثم ألقى نظرة سريعة إلى ميپس، وخفض صوته وهو يردف: «دائمًا ما يُكلَّف آيداهو بمراقبة السيِّدات».

فكَّرت چيسيكا: *ومن لا يمانعن. لكن لماذا هو مخمور؟* قطبت جبينها، واستدارت إلى ميپس قائلة: «أحضري شرابًا منبِّهًا يا ميپس، شيئًا فيه كافيين، رُبَّما تبقَّت لدينا بعض القهوة المخلوطة بالاسپايس».

هزَّت ميپس كتفيها واتَّجهت إلى المطبخ، وبيادتها الصحراوية المفكوكة الأربطة تضرب الأرض الحجرية في غير اتِّساق.

طوَّح آيداهو رأسه غير المتَّزن ونظر إلى چيسيكا بزاوية مائلة مغمغمًا بلسانٍ مُعوَجٍّ: «أكثر من ثالثمئة رجل قتلت في خدمة الدوق. أريد معرفت لمذا أتيت إلى هدا المكان؟ لا يمكن العيش تحت الأرض هنا. لا يمكن العيش فوق الأرض هنا. أيُّ مكانٍ هدا، ها؟».

صدر صوتٌ من جانب القاعة وجذب انتباه چيسيكا، فاستدارت ورأت يُوي يتقدَّم نحوهم وعدَّته الطبية تتأرجح في يده اليسرى. كان يرتدي كامل ثيابه، ويبدو شاحبًا ومرهقًا، ووشم الألماسة بارزًا بوضوح على جبهته.

صاح آيداهو: «الطبيب الطيِّب! من تكون يا دوك؟ رجل الإسعافات والوصفات؟»، ثم استدار مترنِّحًا إلى چيسيكا وقال: «أجعل من نسفي أضحوكة، أليس كذلك؟».

قطبت چيسيكا جبينها وظلَّت صامتة، وتساءلت: *ما الذي دفع آيداهو إلى أن يثمل؟ أم هل جرى تخديره؟*

قال آيداهو وهو يحاول الاعتدال واقفًا: «جرعت الكثير من البيرة الممزوجة بالاسپايس».

عادت ميپس بكوبٍ ساخن يتصاعد منه البخار، ثم توقَّفت متردِّدة خلف يُوي ونظرت إلى چيسيكا، التي هزَّت رأسها نافية.

وضع يُوي عدَّته الطبيَّة على الأرض، وأومأ محيِّيًا چيسيكا وهو يقول: «البيرة الممزوجة بالاسپايس، هه؟».

قال آيداهو: «أفضل شارب لعين توذَّقته في حياتي»، وهو يحاول لفت الانتباه إليه: «أدميتُ سيفي لأوَّل مرَّة على كوكب جرومان! قتلت أحد الهكارنة... الهراكنة... قتلته من أجل الدوق».

استدار يُوي ونظر إلى الكوب الذي تحمله ميپس.

قال: «ماذا في الكوب؟».

قالت چيسيكا: «كافيين».

أخذ يُوي الكوب، وحمله إلى آيداهو، وقال: «اشرب هذا أيُّها الشاب».

- «لا أغرب في شُرب شيءٍ آخر».

- «قلت اشرب!».

مال رأس آيداهو مترنِّحًا نحو يُوي، وتعثَّر خطوة إلى الأمام ساحبًا الحارسين معه: «سئمت من إرضاء هدا الكون المبراطوري يا دوك. سنفعل الأومور على طريكتي هذه المرَّة».

قال يُوي: «حسنًا، لكن بعد أن تشرب هذا. إنه مجرَّد كافيين».

- «إنه عديم النفع ككل سيء في هذا المكان! الشمس العينة شديدة الستوع! كل سيء لونه غريب، كل سيء إما خاطئ وإما ...».

قال يُوي: «حسنًا، نحن في الليل الآن»، ثم قال بعقلانية: «كن فتًى مطيعًا واشرب هذا، سيشعرك بتحسُّن».

- «لا هاريد أن أسعر بتحشن».

قالت چيسيكا: «لن نجادله طوال الليل»، وفكَّرت: *حالته هذه تستدعي العلاج بالصدمة*.

قال يُوي: «لا داعي لبقائك يا مولاتي، أستطيع الاعتناء بالأمر».

هزَّت چيسيكا رأسها رافضة، وأخذت خطوة إلى الأمام، وصفعت آيداهو على وجهه.

تعثَّر آيداهو خلفًا، وحدَّجها بنظرة نارية.

قالت: «هذا سلوكٌ غير لائق في منزل دوقك»، واختطفت الكوب من يد يُوي فاندلق بعضًا من محتواه، ثم دفعت به إلى آيداهو صائحةً: «اشرب هذا الآن! إنه أمر!».

اعتدل آيداهو في وقفته، متجهِّمًا في وجهها، ثم قال ببطء ضاغطًا على مقاطع كل كلمة: «لا أتلقَّى أوامري من جاسوسة هاركوننية لعينة».

تجمَّد يُوي في مكانه، ثم استدار مواجهًا چيسيكا.

كان وجهها شاحبًا، لكنها كانت تومئ في فهمٍ وقد اتَّضح لها كل شيء. استطاعت الآن ترجمة المعاني المضمَرة المبتورة التي سمعتها في كلمات وأفعال من حولها في الأيام القليلة الماضية، ووجدت أن غضبًا عارمًا لا يمكن احتواؤه يسيطر عليها. لجأت إلى أعمق تدريبات البِني چيسيرِت التي تلقَّتها كي تهدِّئ ضربات

قلبها وتُسهّل تنفُّسها، وعلى الرغم من ذلك ظلَّت تشعر بنار الاستشاطة تسري في أوصالها.

دائمًا ما يُكلَّف آيداهو بمراقبة السيِّدات.

رمت يُوي بنظرة نارية، فخفض الطبيب بصره متحاشيًا عينيها.

سألته: «أكنت تعرف هذا؟».

- «قد... سمعت بعض الشَّائعات يا مولاتي، لكنني لم أرغب في زيادة أعبائك».

صاحت آمرة: «حوَّاط! أريد أن يمثل ظفير حوَّاط بين يديَّ حالًا!».

- «ولكن يا مولاتي...».

- «قلت حالًا!».

وفكَّرت: *لا أحد غير حوَّاط وراء ذلك. مثل هذا الشك لا يمكن أن يأتي من مصدرٍ آخر دون أن يُقابل بتجاهلٍ فوري.*

هزَّ آيداهو رأسه، وتمتم ماضغًا الكلام: «تقيَّأت ما شربت بالكامل».

حملقت چيسيكا إلى الكوب الذي تحمله في يدها، ثم ألقت محتوياته بغتةً في وجه آيداهو، وقالت آمرة: «احبساه في واحدة من غرف الضيوف في الجناح الشرقي، واتركاه ينام حتَّى يفيق!».

رمقها الحارسان في استياء، وتجرَّأ أحدهم بقول: «رُبَّما من الأفضل أن نأخذه إلى مكان آخر يا مولاتي، يمكننا...».

صاحت چيسيكا: «يُفترض به أن يكون هنا! لديه وظيفة ليؤدِّيها هنا!»، ثم امتلأ صوتها بالمرارة وهي تقول: «إنه بارعٌ جدًا في مراقبة السيِّدات».

ابتلع الحارس ريقه.

سألت چيسيكا: «أتعرف أين الدوق الآن؟».

- «إنه في مقرِّ القيادة يا مولاتي».

- «وهل حوَّاط معه؟».

- «حوَّاط في المدينة يا مولاتي».

قالت له: «اذهب واجلب لي حوَّاط في الحال، سأكون في غرفة جلوسي عندما يأتي».

- «ولكن يا مولاتي...».

قالت: «سأتَّصل بالدوق إذا استدعى الأمر، وآمل ألَّا يستدعي، فأنا لا أريد إزعاجه بأمرٍ كهذا».

- «حسنًا يا مولاتي».

دفعت چيسيكا الكوب الفارغ إلى يد ميبس، ورأت النظرة المتسائلة في العينين الزرقاوين بالكامل، وقالت: «يمكنك العودة إلى فراشك يا ميبس».

- «هل أنت متأكِّدة من أنك لن تحتاجي إليَّ؟».

ابتسمت چيسيكا ابتسامة كالحة وقالت: «أجل متأكِّدة».

قال يُوي: «رُبَّما يمكن تأجيل الأمر ليوم غدٍ، أستطيع إعطاءك مهدِّئًا...».

قاطعته قائلة: «عُد إلى غرفتك ودعني أتعامل مع الأمر بطريقتي»، ثم ربَّتت على ذراعه لتخفِّف من حِدَّة نبرتها الآمرة وقالت: «إنها الطريقة الوحيدة».

ثم استدارت -مرفوعة الرأس- وأسرعت الخطى متَّجهةً إلى جناحها عبر ممرَّات المنزل التي تحدُّها جدرانٌ باردة. وصلت إلى باب غرفتها، وفتحته بقوَّة، واندفعت إلى الداخل وصفعته

خلفها. وقفت چيسيكا في منتصف الغرفة تحدِّق بنظرة نارية إلى نوافذ غرفة الجلوس المؤمَّنة بدرع طاقة. *هل يمكن أن يكون حوَّاط هو الشخص الذي اشتراه الهراكنة؟ سنرى ذلك.*

قطعت چيسيكا الغرفة متَّجهةً إلى المقعد الوثير القديم الطراز ذي الغطاء المطرَّزة من جلد الشلاح، وحرَّكته إلى موضع في مواجهة الباب. فجأة تذكَّرت السكِّين العاجية المربوطة إلى ساقها في غمدها. فكَّت رباط الغمد عن ساقها، وربطته حول ذراعها، ثم اختبرت سرعة إخراج السكِّين منه. مرَّة أخرى، جالت ببصرها في الغرفة متذكِّرةً موضع كل شيءٍ بدقَّة، تحسُّبًا لأيِّ طارئ: الأريكة في الركن، والكراسي مستقيمة الظهر المصطفَّة بطول الحائط، والطاولتين القصيرتين، وآلة القانون المثبَّتة على حامل إلى جوار باب غرفة نومها.

كانت المصابيح الطافية في الهواء تشع بلونٍورديٍّ فاتح، فخفضت من شدَّة إضاءتها، وجلست على المقعد الوثير، وتحسَّست تنجيده بيدها، معجبةً بطابع الفخامة الملكية التي يضفيها على هذا الموقف.

ثم أسرع ممَّا توقَّعت، سمعت طرقًا على الباب، دخل بعده حوَّاط بأمرٍ منها.

راقبته دون أن تبرح مكانها على المقعد، ولاحظت حركته المفعمة بالنشاط التي تعزِّزها العقاقير التي يتعاطاها، لكنها لاحظت الإعياء الكامن خلفها. كانت عينا حوَّاط المسنَّتان تلتمعان، وبدت بشرته المجعَّدة صفراء باهتة في إضاءة الغرفة، وعلى كُمِّ ذراعه التي يستخدم بها السكِّين انتشرت بقعة رطبة كبيرة.

اشتمَّت رائحة دماء منبعثة منها.

أشارت چيسيكا بيدها إلى أحد الكراسي المستقيمة الظهر وقالت: «اسحب هذا الكرسي واجلس أمامي».

انحنى حوَّاط في احترام، وأطاع أمرها وهو يفكِّر: *تبًا لآيداهو، هذا السكِّير الأحمق!* ثم تفرَّس في ملامح وجه چيسيكا متسائلاً كيف يمكنه إنقاذ هذا الموقف.

قالت چيسيكا: «ألم يحن الوقت لتصفية الأجواء بيننا؟».

- «ما الذي يزعج مولاتي؟»، قالها حوَّاط وهو يسند يديه على ركبتيه.

صاحت في وجهه: «لا تمارس دور الأبله معي! إن لم يكن يُوي قد أخبرك عن سبب استدعائي لك، فلا بُدَّ أن أحد جواسيسك المنتشرين في منزلي قد فعل. لنكن صريحين على الأقل».

- «كما ترغب مولاتي».

قالت: «أريدك أوَّلًا أن تجيبني عن سؤال واحد: هل أنت عميلٌ للهراكنة؟».

قام حوَّاط من مقعده نصف قيام بوجهٍ محتقن بالغضب: «أتجرُئين على إهانتي؟».

قالت: «اجلس، لقد أهنتني كذلك».

ببطء، غاص حوَّاط في مقعده.

وعندما قرأت چيسيكا الأمارات البادية على هذا الوجه الذي تألفه جيِّدًا، تنفَّست الصعداء. *حوَّاط ليس الخائن.*

قالت: «الآن بعد أن عرفت أنك ما زلت مخلصًا للدوق، أنا مستعدة لكي أغفر إهانتك لي».

- «وهل حدث ما يستحق الغفران؟».

عبست چيسيكا وتساءلت: هل أكشف له ورقتي الرابحة؟ هل أخبره عن ابنة الدوق التي أحملها في أحشائي منذ أسابيع قليلة؟ كلَّا، ليتو نفسه لا يعلم، فعلمه بالأمر سيزيد الأمور تعقيدًا، وسيشتِّت انتباهه في وقتٍ نحتاج فيه إلى القتال من أجل بقائنا. كلَّا، لم يحن الوقت بعد لاستخدام هذه الورقة.

قالت له: «يمكن لإحدى عرَّافات الحقيقة أن تحل هذا الموقف، لكن لسوء الحظ ليس بيننا عرَّافة حقيقة مرخَّصة من المجلس الأعلى».

- «كما تقولين، ليس بيننا عرَّافة حقيقة».

سألته: «أيوجد خائن بيننا؟ لقد درست حاشيتنا بدقَّة فائقة، تُرى من يمكن أن يكون؟ بالتأكيد ليس جيرني، ولا دانكن. والضُبَّاط الذين يعملون تحت إمرتهم ليسوا في مناصب استراتيچية تستدعي النظر في أمرهم. وأنت لست الخائن يا ظفير، ولا يمكن أن يكون پول، وأعلم جيِّدًا أنه ليس أنا. هل هو الدكتور يُوي إذًا؟ هل أستدعيه للاستجواب للكشف عن انتمائه؟».

قال حوَّاط: «تعلمين أن هذا لن يفضي إلى شيء. لقد خضع لتهيئة عقلية في الكليَّة العليا. هذا أمر أنا متأكِّدٌ منه تمامًا».

قالت چيسيكا: «فضلًا عن أن زوجته كانت من البِني چيسيرِت، وقد ذبحها الهراكنة».

قال حوَّاط: «هذا ما حدث لها إذًا، لم أكن أعرف».

- «ألم تسمع نبرة الكره في صوته حين ينطق اسم الهراكنة؟».

قال حوَّاط: «تعلمين أن أُذُني لا تلتقط هذه الأشياء».

سألته: «ما الذي أثار هذه الشكوك الخسيسة حولي؟».

قطب حوَّاط جبينه: «مولاتي تضع خادمها في موقفٍ عصيب.

إن ولائـي الأوَّل للدوق».

قالت: «وأنا مستعدَّة لأن أصفح عن الكثير بسبب هذا الولاء».

- «مضطـر إلـى أن أسـأل مجـدَّدًا: وهـل حـدث مـا يسـتحق الصفـح؟».

- «إنه طريق مسدود إذًا؟».

هزَّ كتفيه في لا مُبالة.

قالـت: «حسـنًا، دعنـا نناقـش شيئًا آخـر لبعـض الوقـت. دانكـن آيداهـو، المقاتـل البـارع الـذي لا يُشـق لـه غبـار، مـن تثيـر قدراتـه فـي الحراسـة والمراقبـة إعجـاب الجميـع، هـذه الليلـة، أفـرط فـي احتسـاء البيـرة الممزوجـة بالاسـبايس. سـمعت تقاريـر تفيـد بـأن هـذا المزيـج أذهـب عقـول رجـال آخريـن مـن حاشـيتنا. هـل هـذا صحيـح؟».

- «التقارير تقاريرك يا مولاتي».

- «بالفعـل. ألا تـرى أن هـذا الإفـراط فـي الشـراب علامـة مَرَضِيـة يـا ظفيـر؟».

- «مولاتي تتحدَّث بالألغاز».

صاحـت فيـه: «اسـتخدم قدراتـك المِنتاتيـة للفهـم! مـا مشـكلة دانكـن والرجـال الآخريـن؟ سـأوجزها أنـا لـك فـي كلمـاتٍ ثـلاث: ليـس لديهـم وطـن».

نقر بإصبعه على الأرض وقال: «لديهم أرَّاكس، هذا وطنهم الآن».

- «أرَّاكـس أرض غريبـة مجهولـة! لقـد اقتلعناهـم مـن وطنهـم كالادان، وصـاروا الآن بـلا وطـن، ويخشـون أن يخذلهـم الـدوق».

قـال بصرامـة: «إذا صـدر كلام كهـذا مـن أحـد الرجـال، فلسـوف يتلقَّـى...».

- «أوه، كُفَّ عن هـذا يـا ظفيـر. هـل مـن الانهزام أو الخيانة أن يُشخِّص الطبيـب المـرض بشـكل صحيـح؟ هدفـي الوحيد هو عـلاج المرض».

- «يكلِّفني الدوق بمسؤولية مثل هذه الأمور».

قالت: «لكنك تدرك أن لدي شيء من الاهتمام الفطري بشأن تطوُّر هذا المرض، ورُبَّما توافقني الرأي أنني أتمتَّع ببعض القدرات للتصدِّي لمثل هذه الأمور».

وتساءلت: *هل ينبغي لي أن أصدمه؟ إنه في حاجة إلى صدمةٍ تفيقه، إلى شيءٍ يكسر روتينه.*

قال حوَّاط: «قلقك قد يكون له تفسيرات عِدَّة»، وهزَّ كتفيه.

- «إذًا أنت أصدرت حكمك ضدِّي بالفعل؟».

- «قطعًا لا يا سيِّدتي، لكن لا ىمكنني المجازفة، خاصةً ونحن في هذا الوضع».

قالت: «لقد مرَّ الخطر الذي هدَّد حياة ابني في هذا المنزل من تحت أنفك، أخبرني من جازف بذلك؟».

اسودَّ وجهه وقال: «لقد قدَّمت استقالتي للدوق».

- «هل قدَّمت استقالتك لي، أو لپول؟».

لم يعد يحاول إخفاء غضبه الآن، وبدا واضحًا في أنفاسه المتسارعة، وفي توسُّع منخريه، وفي تحديقه الثابت. رأت چيسيكا نبض الوريد المنتفخ في صدغه.

قال ضاغطًا على كلماته: «أنا رجل الدوق».

قالت: «لا يُوجد خائن. التهديد مصدره شيء آخر. رُبَّما له علاقة ببنادق الليزر، رُبَّما سيخاطرون بزرع بعض البنادق المزوَّدة بآليات موقوتة لاستهداف دروع المنزل، رُبَّما سيـ...».

سألها: «ومن في مقدوره أن يعرف بعد الانفجار إن كان الانفجار ذرِّيًا أم لا؟ كلَّا يا مولاتي، لن يخاطروا بارتكاب أيِّ حماقة غير قانونية، فالإشعاع أثره يبقى، وهذا دليل يصعب محوه. كلَّا، لن

يخاطروا بخرق أغلب الأعراف والقوانين. لا بُدَّ من وجود خائن».

قالت ساخرة: «تقول إنك رجل الدوق، هل ستدمِّره في محاولة لإنقاذه؟».

أخذ حوَّاط نفسًا عميقًا وقال: «إذا اتَّضح أنك بريئة، سأقدِّم لك أشد اعتذارتي أسفًا ومذلَّةً».

قالت له: «انظر إلى حالك يا ظفير. يعيش البشر في أحسن حال عندما يكون لكلٍّ منهم مكانه الخاص، حين يعرف كل منهم مكانته في المنظومة من حوله. إذا دمّرت المكانة، سيتدمَّر الشخص. وأنا وأنت يا ظفير -من بين كل الأشخاص الذين يحبُّون الدوق- كلانا في أمثل مكان ليدمِّر أحدنا الآخر. أليس في مقدوري أن أهمس بشكوك عنك في أُذُن الدوق ليلًا؟ تُرى متى سيكون أكثر عُرضة للتأثُّر بهذه الهمسات يا ظفير؟ هل أحتاج إلى توضيح أكثر من ذلك؟».

قال مزمجرًا: «أتهدِّدينني؟».

- «كلَّا، أنا فقط أوضِّح لك أن شخصًا ما يستخدم منظومتنا الحياتية ضدَّنا، ويهاجمنا من خلالها. وهو شخص ذكي وشيطاني. أقترح إحباط هذا الهجوم عن طريق إعادة ترتيب منظومتنا بما لا يدع فجوات تدخل منها مثل هذه النصال الغادرة».

- «أتتَّهمينني بأنني أهمس بشكوك لا أساس لها من الصحَّة؟».

- «أجل، لا أساس لها».

- «وأنك ستردِّين بهمساتك الخاصة؟».

- «أنت من تحيا حياةً قوامها الهمس والشكوك يا ظفير، لا أنا».

- «أتشكِّكين في قدراتي إذًا؟».

تنهَّدت قائلة: «ظفير، أريدك أن تختبر بنفسك تورُّطك العاطفي في الأمر. الإنسان العادي مجرَّد حيوان لا يعرف المنطق، لذا فإن إسقاطاتك المنطقية على كل الشؤون غير طبيعية، لكن يُسمح باستمرارها لأنها مُفيدة. بصفتك مِنتاتًا، فأنت تجسيدٌ للمنطق. ومع ذلك، فإن الحلول التي تطرحها للمشكلات لهي في حقيقة الأمر مفاهيم تُسقطها خارج ذاتك، حيث تُدرس وتُمحَّص وتُفحص من جميع الجوانب».

سألها دون أن يحاول إخفاء نبرة الازدراء في صوته: «أتظنين أنك ستعلِّمينني مهنتي الآن؟».

قالت له: «كل ما هو خارج ذاتك تستطيع رؤيته وتطبيق منطقك عليه. ولكن من السِّمات البشرية أننا حين نواجه مشكلات شخصية، نجد أنها أصعب في إخضاعها للتفكير المنطقي، لذا تُزلُّ أقدامنا ونلقي اللوم على كل شيء، ما عدا الشيء المتأصِّل الذي ينهشنا من الداخل».

تحدَّث بصوتٍ خشن: «أنت تتعمَّدين محاولة تقويض ثقتي بنفسي كمنتات، ولو أنني رأيت أيَّ رجلٍ آخر من رجالنا يحاول تخريب أيِّ سلاح آخر في ترسانتنا، لما تردَّدت في فضحه وتدميره».

قالت: «لا من مِنتات بارع لا يراعي هامش الخطأ في حساباته».

- «لم أدَّعِ العصمة قط!».

- «إذًا كرِّس نفسك لدراسة الأعراض التي لاحظها كلانا: حالات السُّكر بين الرجال، والمشاجرات، والشائعات الجامحة التي يتبادلونها حول أرَّاكس، وتجاهلهم أبسط الـ...».

قاطعها قائلًا: «إنهم يعانون الفراغ والخمول، لا أكثر. لا تحاولي تشتيت انتباهي بجعل مسألة بسيطة تبدو غامضة».

حدَّقت چيسيكا إليه، وفكَّرت في رجال الدوق الذين لا ينفكُّون عن قرع أحزانهم وكروبهم في الثكنات بعضها ببعض، حتَّى تكاد تشمُّ رائحة الشرر.

فكَّرت چيسيكا: *لقد صاروا مثل الرجال الذين تحكي عنهم أسطورة عصر ما قبل نقابة الفضاء، رجال السفينة الضائعة «أمپوليروس» الباحثة عن النجوم، الذين أضناهم وأنهكهم حمل السلاح.. الرجال الباحثين دومًا .. المتأهِّبين دومًا .. غير المستعدِّين دائمًا وأبدًا.*

سألته: «لِمَ لم تستغل قدراتي في خدمتك للدوق من قبل؟ أتخشى أن أنافسك على منصبك؟».

صوَّب إليها نظرة نارية، وتطاير الشرر من العينين المُسنَّتين وهو يقول: «أعرف بعضًا من الأمور التي يدرِّبنكن عليها يا معشر...»، ثم بتر عبارته متجهِّمًا.

قالت: «أكمل، قلها.. ساحرات البِني چيسيرِت».

قال: «أعرف بعضًا من التدريب الحقيقي الذي تلقَّيتِه، فقد رأيت آثاره في پول، ولا يخدعنِّي ما تقوله مدارسكن للجمهور: أنكن وُجِدتُّن لتخدمن فحسب».

فكَّرت چيسيكا: *يجب أن تكون الصدمة قوية، وقد صار جاهزًا لها تقريبًا.*

قالت: «أراك تستمع إليَّ باحترام في المجلس، ومع ذلك نادرًا ما تصغى إلى نصيحتي، لماذا؟».

قال لها: «لأنني لا أثق بدوافع البِني چيسيرِت. قد تظنين أنك قادرة على سبر أغوار البشر، قد تظنين أنك قادرة على إجبار البشر أن يفعلوا ما يحلو...».

صاحت غاضبة: «ظفير، أيُّها الأحمق المسكين!».

اكفهر وجه حوَّاط، ودفع نفسه إلى الخلف في مقعده.

قالت له: «مهما كانت الشائعات التي سمعتَها عن مدارسنا، فالحقيقة أكبر بكثير. إن كنت أرغب في تدمير الدوق، أو تدميرك، أو تدمير أيِّ شخص آخر في طريقي، فلن تستطيع إيقافي».

وفكَّرت: *لماذا أسمح للكبرياء بانتزاع مثل هذه الكلمات من فمي؟ هذه ليست الطريقة التي تدرَّبت عليها. هذه ليست الطريقة التي يجب أن أصدمه بها.*

دسَّ حوَّاط يده أسفل غلالته حيث يحتفظ بقاذفة سهام مسمومة صغيرة، وفكَّر: *إنها لا ترتدي أيَّ نوع من الدروع، فهل ما تفعله مجرَّد تفاخر متبجِّح؟ بإمكاني أن أرديها قتيلة الآن.. لكن، آه، ستكون العواقب مريرة إن كنت مخطئًا.*

لاحظت چيسيكا حركة يده تجاه جيبه، فقالت: «لندعو ألا يكون العنف ضروريًا بيننا».

وافقها قائلًا: «دعاء وجيه».

قالت: «في غضون ذلك، يواصل المرض انتشاره بيننا. عليَّ أن أسألك مجدَّدًا: أليس من الأعقل افتراض أن الهراكنة زرعوا هذا الشك لتأليب كلٍّ منا على الآخر؟».

قال: «يبدو أننا عدنا إلى الطريق المسدود».

تنهَّدت مفكِّرةً: *إنه جاهز تقريبًا لتلقِّي الصدمة.*

ثم قالت: «الدوق وأنا في منزلة أب وأم لقومنا، والمكانة التي...».

قاطعها حوَّاط: «إنه لم يتزوَّج بك».

أجبرت نفسها على البقاء هادئة، وفكَّرت: *هجومٌ مضاد فعَّال.*

قالت: «لكنه لن يتزوَّج بأخرى ما دُمت حيَّة. وكما كنت أقول، نحن في منزلة أبوين. إذا أراد الهراكنة اختراق منظومة حياتنا الطبيعية وتقويضها، إذا أرادوا تمزيقنا وتشتيتنا وإرباكنا، فأيُّ هدف سيكون الأكثر إغراءً لهم؟».

فهم حوَّاط ما ترمي إليه، فانعقد حاجبه في عبوس منخفض.

سألته: «الدوق؟ إنه هدف جذاب بلا شك، لكن لا أحد يحظى بحراسة أفضل منه، رُبَّما باستثناء پول. أنا؟ بالتأكيد سأشكِّل مصدر إغراء لهم، لكن لا بُدَّ أنهم يعرفون جيِّدًا أن نساء البِني چيسيرِت ليست أهدافًا سهلة. لكن هناك هدف أفضل، هدف تخلق له واجباته بالضرورة نقطة عمياء كبيرة. شخص يتنفَّس الشك مع الهواء، شخص يبني حياته كلها على تتبُّع الغمز واللمز»، ثم رفعت يدها موجِّهة إصبع الاتِّهام إليه قائلةً: «أنت!».

همَّ حوَّاط بالقفز من مقعده كالملسوع.

لكنها صرخت في وجهه: «لم آذن لك بالانصراف يا ظفير!».

كاد المِنتات العجوز أن يسقط على المقعد بعد أن خانته عضلاته بالكامل.

ابتسمت چيسيكا دون مرح قائلةً: «الآن تعرف شيئًا عن التدريب الحقيقي الذي تلقَّيناه».

حاول حوَّاط ابتلاع ريقه لكن منعه جفاف حلقه. كان أمرها ملكيًا قاطعًا، ونُطق بنبرة سلبت إرادته بالكامل وأعجزته عن المقاومة. لقد أطاعها جسده قبل أن يُفكِّر في الأمر. ما كان لشيء أن يكبح ردَّة فعله: لا المنطق ولا ثورة غضب.. لا شيء على الإطلاق. نجاحها في ما فعلت ينم عن معرفة حسَّاسة وحميمة بالشخص المأمور، عن سيطرة تامَّة عليه لم يكن يحلم بأنها ممكنة.

قالت له: «سبق أن أخبرتك بأن علينا أن نكون متفاهمين. ما قصدته أن عليك أنت فهمي، فأنا أفهمك بالفعل. وها أنا أكررها عليك، ولاؤك للدوق هو كل ما يضمن لك سلامتك معي».

حدَّق حوَّاط إليها، وبلَّل شفتيه بلسانه.

قالت: «لو كنت أرغب في دمية، لجعلت الدوق يتزوَّج بي، ولرُبَّما ظن أنه فعلها بمحض إرادته».

نكَّس حوَّاط رأسه، ورفع عينيه ناظرًا إليها عبر رموشه القليلة المتناثرة. لم يمنعه عن استدعاء الحارس إلَّا سيطرته الصارمة على نفسه.. وخوفه من أن هذه المرأة لن تسمح له. اقشعر جلده عندما تذكَّر كيف تحكَّمت فيه. في لحظة الوهن تلك، كان بإمكانها أن تستلَّ سلاحًا وتقتله!

وتساءل: *هل كل إنسان لديه هذه البقعة العمياء؟ هل يمكن أن يُؤمر أيٌّ منا بفعل شيء دون أن يستطيع المقاومة؟ من يستطيع إيقاف شخص بمثل هذه القوة؟* زلزلته الفكرة.

قالت: «ما رأيته لتوِّك هو مجرَّد لمحة ممَّا يخفيه جراب البِني جيسيرِت.. قِلَّة رأوها وظلُّوا على قيد الحياة. ما فعلته كان أمرًا سهلًا نسبيًا، فأنت لم تر بعد ترسانة قدراتي الكاملة. فكِّر في هذا».

سألها: «لماذا إذًا لا أراكِ في الخارج تدمِّرين أعداء الدوق؟».

سألته: «وماذا كنت تريدني أن أدمِّر؟ أترغب في أن أجعل دوقنا ضعيفًا، متَّكِئًا على عصاي إلى الأبد؟».

- «ولكن، بمثل هذه القوَّة...».

قالت له: «القوَّة سلاحٌ ذو حدَّين يا ظفير. لا شكَّ في أنك تفكِّر الآن: "ما أسهل عليها التحكُّم في سلاحٍ بشري وإطلاقه ليصيب العدو في مقتل". هذا صحيح يا ظفير، وبإمكاني إصابتك أنت أيضًا في مقتل بالمثل. ولكن، ما الذي سأحقِّقه بذلك؟ لو فعلت كثيرات منا هذا، نحن معشر البِني چيسيرِت، ألن تُثار الشكوك حول طائفتنا برمَّتها؟ نحن لا نريد ذلك يا ظفير، لا نريد تدمير أنفسنا»، ثم أضافت وهي تومئ: «فما وُجِدنا في الحياة إلا لنخدم بالفعل».

قال: «لا أستطيع إجابتك، أنت تعرفين ذلك».

قالت: «لن تخبر أحدًا بما جرى هنا. أنا أعرفك جيِّدًا يا ظفير».

قال الرجل العجوز: «مولاتي...»، وحاول مجدَّدًا ابتلاع ريقه لكن جفاف حلقه منعه.

وفكَّر: *إنها تتمتَّع بقوى هائلة حقًا، ولكن ألا يجعلها ذلك منها أداة أخطر في يد الهراكنة؟*

قالت: «يمكن لأصدقاء الدوق تدميره بالسرعة نفسها التي قد يدمِّره بها أعداؤه. أنا الآن واثقة بأنك ستتتبَّع مصدر هذا الشك وتزيله».

قال: «إذا ثبت أنه لا أساس له من الصحَّة».

قالت ساخرة: «إذا!».

كرَّر مؤكِّدًا: «إذا».

- «أنت عنيد».

قال: «بل حذر، ومدرك تمامًا لهامش الخطأ».

- «سأطرح عليك سؤالًا آخر إذًا: ماذا يعني لك وقوفك أمام شخص آخر، مقيَّدًا وعاجزًا تحت رحمته، وهذا الآخر يسلِّط سيفًا على رقبتك، لكنه يكفُّ يده عن قتلك، بل ويحرِّرك من قيودك ويمنحك السيف لتستخدمه كما تريد؟».

ثم قامت من مقعدها، وأدارت له ظهرها، وقالت: «تستطيع الانصراف الآن يا ظفير».

نهض المِنتات العجوز متردِّدًا، وتسلَّلت يده إلى السلاح الفتَّاك تحت غلالته، وقد تذكَّر ما حدث لوالد الدوق (الذي كان شجاعًا بغض النظر عن نقائصه الأخرى) في ذلك اليوم البعيد في حلبة مصارعة الثيران: كان الوحش الأسود الضَّاري يقف مشلولًا ومشوَّشًا في الحلبة، وقد انحنى رأسه، في حين ما أدار الدوق القديم ظهره لقرنيه وألقى حرملة زيِّه بزهوٍ على ذراعه، ووقف يتلقَّى الهتافات التي تمطره من المدرَّجات.

فكَّر حوَّاط: *أنا الثور وهي مصارع الثيران*. ثم سحب يده بعيدًا عن السلاح، ونظر إلى العَرَق الزلق اللامع على راحة يده الفارغة.

وقتها أدرك أنه لن ينسى أبدًا هذا اللحظة، ولن يفقد شعوره بالإعجاب الفائق بالليدي چيسيكا، مهما كشفت الحقائق في النهاية.

استدار حوَّاط بصمت، وغادر الغرفة.

أبعدت چيسيكا بصرها عن انعكاسها البادي في النوافذ، والتفتت محدِّقةً إلى الباب المغلق.

ثم همست: «الآن سنرى بعض الحركة في المياه الراكدة».

هل تصارِع الكوابيس؟
هل تتخطّفك الظلال؟
هل تسير كما النائم؟
ها قد مضى الوقت..
وسُرقت منك حياتك..
وأضعت العمر في العبث..
ورُحت ضحيَّة حماقاتك.

مرثيَّة لچيميس ڤيلت على السهل الجنائزي.
من كتاب «أغاني المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

وقف ليتو في بهو منزله يقرأ مذكِّرةً على ضوء مصباح وحيدٍ خافت طافٍ في الهواء. ما زال أمام الفجر بضع ساعات، وهو يشعر بالتعب. سلَّم رسولٌ من الفرمِن هذه المذكِّرة إلى حارس البوَّابة منذ لحظات، في وقت عودة الدوق من مقرِّ القيادة.

كانت الورقة تقول: «خيط دخان نهارًا، وعمود نار ليلًا».

ولم تكن مذيَّلة بتوقيع.

تساءل الدوق: *ما معنى هذا الكلام؟*

كان الرسول قد رحل دون انتظار إجابة وقبل استجوابه. غاب في الليل كما لو كان طيف دخان.

دسَّ ليتو الورقة في جيب غلالته، متذكِّرًا أن يعرضها على حوَّاط لاحقًا. ثم أبعد خصلة شعرٍ عن جبهته، وأخذ نفسًا عميقًا وزفره متنهِّدًا. كان مفعول الحبوبِ المنشِّطة قد بدأ يزول. لقد مرَّ يومان طويلان منذ حفل العشاء، وأطول من ذلك منذ أن نام. وعلاوة على كل المشكلات العسكرية التي يُواجهها، كانت هناك

تلك الجلسة المقلقة مع حوَّاط التي عرض فيها تقرير لقائه چيسيكا.

تساءل ليتو: *هل أُوقظ چيسيكا؟ لا يُوجد سبب لممارسة لعبة السرِّية معها بعد الآن. أم أنه يُوجد؟ ألا تبًا وسحقًا لذلك المدعو دانكن آيداهو!*

هزَّ ليتو رأسه. *كلَّا، ليس دانكن السبب، لقد أخطأت بعدم ثقتي في چيسيكا من البداية. لا بُدَّ لي من تصحيح هذا الخطأ، قبل وقوع مزيد من الضرر.*

أشعره القرار ببعض التحسُّن، فأسرع بمغادرة البهو، وقطع القاعة الكبرى، وراح يسير عبر الممرَّات المؤدِّية إلى الجناح العائلي.

عند المنعطف الذي تتفرَّع فيه الممرَّات إلى منطقة الخدمات، توقَّف ليتو وقد سمع أنينًا غريبًا آتيًا من مكان ما في نهاية ممرٍّ الخدمة. وضع ليتو يده اليسرى على زرِّ تفعيل درعه، والتقط الخنچل بيمينه. منحه السكِّين شعورًا بالطمأنينة بعد أن أسرى هذا الأنين الغريب بالقشعريرة في أوصاله. تحرَّك الدوق برفق عبر ممرِّ الخدمة وهو يلعن الإضاءة غير الكافية. كانت المصابيح الطافية من الحجم الصغير، يبعد الواحد منها عن الآخر ثمانية أمتار، وقد ضُبطت جميعها على أدنى مستوى إضاءة.. وما تبقَّى من الضوء امتصَّته الجدران الحجرية القاتمة.

أمامه، رأى بقعة ضوء باهتة على الأرض وسط العتمة.

تردَّد ليتو وكاد يُفعِّل طاقة درعه، لكنه أحجم لأن ذلك سيحدُّ من حركته، ومن سمعه كذلك.. ولأن شحنة بنادق الليزر التي أمسكوها ملأته بالشكوك.

بصمت، سار باتِّجاه بقعة الضوء الرمادية، ورأى أن لها هيئة بشرية، ثم أدرك أنه رجل ممدَّدٌ على وجهه فوق الأرض الحجرية. قلبه ليتو على ظهره بقدمه، ثم انحنى فوقه مشهرًا سكِّينه في

الضوء الخافت ليرى وجهه. إنه المهرِّب تُويك، وعلى صدره بقعة دماء رطبة. كانت العينان الميّتتان تحدّقان إلى الفراغ. لمس ليتو بقعة الدم فوجدها دافئة.

وسأل نفسه: *كيف يُعقل أن يموت هذا الرجل هنا؟ من قتله؟*

كان صوت الأنين أعلى في هذا المكان، وترامى إلى أذنيه من نهاية الممرِّ الجانبي المؤدِّي إلى الغرفة المركزية حيث ركَّبوا مولِّد درع المنزل الرئيس.

بيدٍ على زر الحزام، وأخرى تُشهر الخنجل، طاف الدوق حول الجثَّة وانسلَّ بخفَّة قاطعًا الممرِّ، ثم أطلَّ برأسه من عند الزاوية لينظر إلى غرفة مولد الدرع.

على بُعد خطوات منه، استلقت هيئة بشرية رمادية أخرى على الأرضية، وأدرك ليتو على الفور أنها مصدر الأنين. زحف الجسد نحوه ببطء مؤلم، وهو يلهث ويغمغم.

هدَّأ ليتو من روعه المفاجئ، وانطلق قاطعًا الممرَّ، وجثم إلى جوار الشخص الزاحف. كانت هذه ميپس، مدبِّرة المنزل الفرمِنية، وقد تناثر الشعر حول وجهها وتبعثرت ملابسها. وبطول جانبها، لمعت بقعة داكنة باهتة اللون. لمس ليتو كتفها فاتَّكأت على مرفقيها، ورفعت رأسها إلى أعلى لتنظر إليه بعينين تحدِّقان إلى فراغ أسود.

قالت مُنازعةً: «أنت... قتل... الحارس... أرسلت... لتُويك... هرب... مولاتي... أنت... أنت... هنا... لا... هنا».

تحسَّس ليتو وريدها الصدغي بحثًا عن النبض، فلم يجده. ثم نظر إلى بقعة الدماء. *لقد طُعنت في ظهرها. تُرى من طعنها؟ تسارعت أفكاره. هل قصدت بكلامها أن شخصًا قتل أحد*

الحرس؟ وماذا عن تُويك، هل أرسلت جيسيكا في طلبه؟ لماذا؟

همَّ بالاعتدال واقفًا، لكن حاسَّته السَّادسة حذَّرته. مدَّ يده بسرعة إلى زرِّ الدرع، لكن كان الأوان قد فات. أصاب ذراعه وخزٌ مخدِّر، وشعر بألم. نظر فرأى سهمًا يبرز من كُمِّه، وأحسَّ بالشلل يسري منتشرًا من موضع السهم إلى أعلى ذراعه. تطلَّب الأمر منه جهدًا مؤلمًا كي يرفع رأسه وينظر إلى نهاية الممر.

كان يُوي يقف عند باب حجرة المولِّدات المفتوح، ينعكس على وجهه الضوء الأصفر المنبعث من مصباح متوهِّج مضاد للجاذبية يعلو الباب. كانت الغرفة خلفه غارقة في صمتٍ تام. لم يكن للمولِّدات صوت.

فكَّر ليتو: *يُوي! لقد خرَّب مولِّدات دروع المنزل! صرنا بلا حماية!*

بدأ يُوي يسير نحوه معيدًا قاذفة السهام إلى جيبه.

وجد ليتو أنه لا يزال قادرًا على الكلام، فقال لاهثًا: «يُوي! كيف؟».

ثم وصل الشلل إلى ساقيه فتداعى ساقطًا على الأرض، وأسند ظهره إلى الجدار الحجري.

كان وجه يُوي يحمل لمسة من الحزن وهو ينحني فوق ليتو، ويلمس جبهته. شعر الدوق بلمسته، لكنها كانت بعيدة، وباهتة.

قال يُوي: «المخدِّر الذي على السهم انتقائي في ما يصيب. تستطيع التحدُّث، لكنني لا أنصحك بذلك». ثم ألقى نظرة سريعة إلى نهاية الممرِّ، قبل أن ينحني مجدَّدًا على ليتو وينزع السهم من ذراعه ويلقيه جانبًا. بدا صوت رنين السهم على الحجارة خافتًا وبعيدًا في أُذُني الدوق.

وفكَّر: *لا يُمكن أن يكون يُوي الخائن! إنه خاضع للتهيئة العقلية!*

همس ليتو: «كيف؟».

- «أنا آسف يا دوقي العزيز، لكن الضرورات تبيح المحظورات»، ثم لمس وشم الألماسة الذي يزيّن جبهته وأردف: «عن نفسي، أجد غرابةً شديدةً في الأمر، ومخالفةً لضميري المتّقد، لكنني أرغب في قتل رجلٍ بعينه. حقًّا أرغب في ذلك، ولن يوقفني شيءٌ».

ثم خفض عينيه إلى الدوق وأردف: «أوه، أنا لا أقصدك أنت يا دوقي العزيز، بل البارون هاركونن. كم أرغب في قتل البارون».

- «البار... هون هار...».

- «لا ترهق نفسك بالحديث يا دوقي المسكين، فلم يتبقَّ أمامك الكثير من الوقت. أتذكُر ذلك الضِّرس الصناعي التي زرعته في فمك بعدما تعثّرت في ناركال. يجب استبدال هذا الضِّرس. بعد لحظات ستفقد الوعي وسأستبدل ذلك الضِّرس»، ثم فتح يده، وحدَّق إلى شيءٍ فيها، وأردف: «هذه نسخة طبق الأصل منه، يأخذ مركزها شكل العصب تمامًا. سيفلت من أجهزة الكشف المعتادة، وحتّى أشعة المسح السريع. ولكن إذا عضضت على نواجذك بقوّة سيتفتّت الغلاف، ثم حين تزفر أنفاسك بحدّة، ستملأ الهواء من حولك بغاز سام فتّاك».

حدَّق ليتو في وجه يُوي، ورأى الجنون يلتمع في مقلتي الرجل، والعرق يتفصّد من جبينه ويسيل إلى ذقنه.

قال يُوي: «ستموت على أيِّ حال يا دوقي المسكين، لكنك ستكون قريبًا من البارون قبل أن تموت. سيصدّق أنك مخدَّر تمامًا إلى درجةٍ تعيقك عن بذل أيِّ جهدٍ في محاولة مستميتة

لمهاجمته، وبالفعل ستكون مخدَّرًا ومقيَّدًا. لكن الهجوم يمكن أن يأتي بأغرب الأساليب. وأنت ستتذكَّر الضِّرس جيِّدًا.. الضِّرس يا ليتو آتريديز.. تذكَّر الضِّرس».

انحنى الطبيب المُسنّ أكثر فأكثر حتَّى احتلَّ وجهه وشاربه المتدلي مجال رؤية ليتو المتلاشي.

غمغم يُوي: «الضِّرس».

همس ليتو: «لماذا؟».

ركع يُوي على ركبته بجوار الدوق، واعترف: «عقدت مع البارون صفقة تليق بشيطان*، وعليَّ التأكُّد من أنه التزم بالنصف الخاص به. سأعرف حين أراه، سأتأكَّد حين أنظر إلى عينيه، لكنه لن يُسمح لي بالدخول إلى حضرته بلا ثمن. وأنت الثمن الذي يجب دفعه أيُّها الدوق المسكين. وحين أراه سأعرف، فقد علَّمتني عزيزتي وانا المسكينة أشياء كثيرة، أحدها هو استشفاف الحقيقة في الأوقات العصيبة. لا أستطيع فعل ذلك دائمًا، لكنني حين أرى البارون.. سأعرف».

حاول ليتو النظر إلى الضِّرس القابع في يد يُوي شاعرًا أنه في كابوس لا يمكن أن يكون واقعًا.

التَوت شفتا يُوي في تكشيرة متجهِّمة، وواصل: «لن أستطيع الاقتراب من البارون بشكلٍ كافٍ، وإلا لفعلت الأمر بنفسي. كلَّا، سيبقونني على مسافة آمنة منه. أمَّا أنت... آه، أنت! ستكون أنت سلاحي الذي أضرب به! سيرغب البارون في الاقتراب منك.. للتشفِّي فيك.. للشماتة منك.. للتباهي بانتصاره».

وجد ليتو نفسه مشدوهًا -منوَّمًا تقريبًا- وهو يحملق إلى عضلة تلتوي على يسار فكّ يُوي كلَّما تكلَّم الرجل.

انحنى يُوي مقتربًا منه أكثر: «وأنت أيُّها الدوق الطيِّب، يا دوقي الغالي العزيز، يجب أن تتذكَّر هذا الضِّرس»، ثم أمسكه بسبَّابته وإبهامه ورفعه في وجهه، وأردف: «سيكون كل ما تبقَّى لك».

تمتمت شفتي ليتو بلا صوت، ثم جاهد قائلًا: «أرفض».

- «أوه، يجب ألَّا ترفض، لأنني مقابل هذه الخدمة الصغيرة، سأفعل شيئًا من أجلك. سأنقذ ابنك وامرأتك. لا أحد يستطيع إنقاذهما سواي. أستطيع نقلهما إلى مكان لا يستطيع الهراكنة الوصول إليهما فيه».

همس ليتو: «كيف... ستنقذ... هما؟».

- «بجعل الأمر يبدو كأنهما ماتا، بإخفائهما بين قوم يشهرون سكاكينهم كلَّما سمعوا اسم الهراكنة، أناس يمقتون الهراكنة إلى درجة أنهم يحرقون كرسيًا لو جلس عليه أحد الهراكنة، ويطهِّرون الأرض بالملح لو مشى عليها أحد الهراكنة»، ثم لمس فك ليتو وسأله: «هل تشعر بأيِّ إحساس في فكِّك؟».

وجد الدوق أنه غير قادر على الإجابة، وشعر بأنه ينجرف بعيدًا وهو يرى يد يُوي ترتفع وبها خاتم الدوقية.

قال يُوي: «لأجل بول. ستفقد وعيك الآن. وداعًا أيُّها الدوق المسكين، عندما نلتقي في المرة القادمة لن يكون لدينا وقت للمحادثة».

انتشر خدرٌ بارد عبر فكِّ ليتو، ومنه إلى وجنتيه، وراح الرواق الذي تكتنفه الظلال ينكمش بالتدريج ويتحوَّل إلى نقطة صغيرة مركزها شفتا يُوي الأرجوانيتان.

بينما ظلَّ يُوي يفحُّ كالحيَّة: «تذكَّر الضِّرس! الضِّرس!».

ينبغي أن يصير السُّخط علمًا يُدرَّس، فالناس في حاجة إلى الاستبداد وإلى الأوقات العصيبة لتقوية عضلاتهم النفسية.

من كتاب «أحاديث المؤدِّب المجمَّعة» للأميرة إيرولان.

استيقظت چيسيكا في الظلام متوجِّسة خيفةً من السكون المحيط بها. لم تفهم لماذا يعتري الوهن بدنها وعقلها بهذا الشكل. كان جلدها مقشعرًا من الخوف ويؤلم أعصابها، وفكَّرت أن تعتدل جالسة وتضيء النور، لكن هاجسًا ما صدَّها عن قرارها. شعرت في فمها... بشعور غريب.

طق.. طق.. طق.. طق!

سمعت الصَّوت المكتوم، لكنها تتمكَّن من تحديد اتِّجاهه في الظلام. كان في كل مكان حولها.

طالت اللحظات التي قبعتها متململةً، وراح حفيف حركاتها يوخزها كالإبر.

بدأت تشعر بجسدها، وبالقيود على معصميها وكاحليها، وبالكمامة التي تسدُّ فمها. كانت مستلقاة على جانبها، ويداها معقودتان خلف ظهرها. حاولت فكَّ القيود، لكنها أدركت أنها مصنوعة من حبال كريمسكل، وأنها ستضيق أكثر إذا جذبتها.

ثم تذكَّرت!

لقد استشعرت حركةً غريبةً في ظلام حجرة نومها، ثم نزلت خرقة مبلَّلة لاذعة الرائحة على وجهها وغطَّت فمها بالكامل، وشعرت بأيادٍ تمسكها وتقيِّدها. عندها شهقت ساحبةً نفسًا واحدًا فقط، وشعرت بالمادَّة المخدِّرة في الخرقة المبلَّلة، ثم

انحسر وعيها وغرقت في ظلام أسود مرعب.

فكَّرت چيسيكا: *ها قد أتت اللَّحظة التي طالما خشيتها. كم كان من السهل هزيمة امرأة من البنِي چيسيرِت. كل ما تطلبه الأمر هو الخيانة. كان حوَّاط محقًّا.*

أجبرت نفسها على ألَّا تشد وثاقها.

وفكَّرت: *هذه ليست غرفة نومي، لقد أخذوني إلى مكانٍ آخر.*

استجمعت سكينتها الداخلية، وراحت تهدِّئ من روعها.

انتبهت إلى صنان رائحة عرقها، واشتمَّت فيه جزيئات الخوف.

سألت نفسها: *أين پول؟ ماذا فعلوا بابني؟!*

تحلِّي بالهدوء.

أرغمت نفسها على الهدوء، مستخدمةً الأساليب العتيقة.

لكن الذعر ظلَّ ملازمًا لها.

ليتو؟ أين أنت يا ليتو؟

شعرت بالظلمة تنقشع. بدأ الأمر بظلال مختلطة، ثم اتَّضحت الأبعاد وصارت أشواكًا جديدة تُوخز وعيها. ضوءٌ أبيض، خطٌّ طولي ظاهر من أسفل الباب.

أنا على الأرض!

ثمَّة أشخاص يسيرون. استشعرت ذلك من خلال الأرض.

اعتصرت چيسيكا ذعرها في محاولة لتقليصه. *علَيَّ أن أظلَّ هادئة، ومنتبهة، ومستعدَّة، فرُبَّما لن تتاح أمامي إلَّا فرصةٌ واحدةٌ.*

ومجدَّدًا، أجبرت نفسها على استعادة هدوئها الداخلي.

انتظمت ضربات قلبها المضطَّربة، وأعادت إليها شعورها بالوقت. بدأت تعدُّ عكسيًا. لقد فقدت الوعي منذ نحو السَّاعة. أغلقت عينيها، وركَّزت جُلَّ انتباهها على الخطوات المقتربة.

أربعة أشخاص.

استطاعت تمييز الفروق في خطواتهم.

عليَّ التظاهر بأنني ما زلت فاقدة الوعي، هكذا فكَّرت، ثم أرخت جسدها على الأرض الباردة، واختبرت استعداد جسدها. سمعت بابًا يُفتح، واستشعرت ازدياد الضوء عبر جفنيها المغلقين.

اقتربت قدمان منها، ووقف شخص فوقها.

دمدم صوتٌ عميق قائلًا: «أنت مستيقظة، لا تتظاهري بالعكس».

فتحت چيسيكا عينيها.

كان الواقف فوقها البارون ڤلاديمير هاركونن. نظرت چيسيكا حولها وأدركت أنها في غرفة القبو حيث كان پول ينام، ورأت سريره الفارغ في أحد الأركان. كان الحرس قد أحضروا مصابيح مضادَّة للجاذبية ووزَّعوها بالقرب من الباب المفتوح. أذى ضوء ساطع آتٍ من الردهة خلف الباب عينيها.

رفعت رأسها ناظرةً إلى البارون الذي يرتدي حرملة صفراء تبرز من تحتها مضادات الجاذبية التي تعينه على حمل وزنه. كان خدَّاه الممتلئان أشبه بخدود الملائكة الأطفال في الصور والمنحوتات القديمة، ويبرزان كهضبتين من تحت عينين فاحمتي السواد كأعين العناكب.

دمدم صوت البارون: «حسبنا جرعة المخدِّر جيِّدًا، وعرفنا بالضبط اللحظة التي ستفيقين فيها».

تساءلت: *كيف تسنَّى لهم ذلك؟ يتعيَّن عليهم معرفة وزني بدقَّة، ومعدَّل أيضي، و... يُوي!*

قال البارون: «من المؤسف أننا مضطرُّون إلى الإبقاء عليك مكمَّمةً. كنا سنتبادل حوارًا شائقًا تمامًا».

فكَّرت چيسيكا: *لا يمكن أن يكون الخائن شخصًا غير يُوي. ولكن كيف؟*

ألقى البارون نظرة خلفه إلى الباب، وقال: «تعال يا پايتر».

لم تكن قد رأت من قبل الرجل الذي دخل الغرفة ووقف إلى جوار البارون، لكن وجهه كان مألوفًا. هذا هو *پايتر دي ڤريس، المِنتات القاتل*. تأمَّلت چيسيكا ملامحه الشبيهة بالصقر، وزُرقة الحبر في عينيه التي تشير إلى أنه من مواليد أرّاكس، لكن تفاصيل معيَّنة في وقفته وحركته أخبرتها بأنه ليس كذلك، كما أن بشرته بدت غنيَّة جدًّا بالماء. كان طويلًا ونحيلًا، وبه شيء يُوحي بالخنوثة.

قال البارون: «من المؤسف أنه لا نستطيع إجراء محادثتنا يا عزيزتي الليدي چيسيكا. لكنني على علم بقدراتك»، ثم رمق المِنتات متسائلًا: «أليس هذا صحيحًا يا پايتر؟».

قال الرجل: «تمامًا كما تقول يا بارون».

كان صوته رخيمًا جليديًّا اقشعر له جلدها، وسرت له رعدة في عمودها الفقري. لم يكن قد سبق لها أن سمعت صوتًا بهذه البرودة، وفي أُذُني امرأة مثلها تدرَّبت على أساليب البِني چيسيرِت، كان الصَّوت يصرخ: *قاتل!*

قال البارون: «لديَّ مفاجأة لپايتر، فهو يظن أنه جاء إلى هنا ليحصل على مكافأته: أنت يا ليدي چيسيكا. لكني أرغب في إثبات أمرٍ ما: أنه لا يريدك حقًّا».

سأل پايتر: «هل تعبث معي أيُّها البارون؟»، وابتسم.

عندما رأت تلك الابتسامة، تعجَّبت چيسيكا كيف أن البارون لم يثب مدافعًا عن نفسه من هذا المدعو پايتر. ثم صحَّحت لنفسها. البارون لا يستطيع قراءة ما وراء تلك الابتسامة، فهو لم يتلقَّ التدريب الذي تلقَّته.

قال البارون: «يُعدُّ پايتر ساذجًا تمامًا من نواحٍ كثيرة. إنه يأبى الاعتراف لنفسه بحقيقة إلى أيِّ مدى أنت مخلوقةٌ فتَّاكة يا ليدي چيسيكا. أستطيع أن أثبت له بشكل عملي، لكنها ستكون مخاطرة حمقاء». ابتسم البارون إلى پايتر الذي بدت على وجهه علامات الانتظار. «أعرف ما الذي يريده پايتر حقًّا. پايتر يريد النفوذ».

قال پايتر وقد فقد صوته الرخيم بعضًا من برودته: «وعدتني أن أحصل عليها!».

سمعت چيسيكا في نبرات الرجل دلالات عمَّا يجيش في صدره، فسرت رعدة في جسدها، وتساءلت: *كيف استطاع البارون تحويل هذا المِنتات إلى مثل هذا الوحش؟*

قال البارون: «سأعطيك خيارًا يا پايتر».

- «أيّ خيارٍ؟».

فرقع البارون بأصابعٍ ممتلئة وقال: «إما أن تحصل على هذه المرأة وتُنفى من الإمبراطورية، وإما أن تحكم دوقية آل آتريديز على أرَّاكس بما تراه مناسبًا، باسمي ونائبًا عنِّي».

راقبت چيسيكا عيني البارون العنكبوتيتين وهما تتفرَّسان في پايتر.

ثم قال البارون: «سيكون لك كل امتيازات الدوق هنا، لكن من دون اللقب».

أهذا يعني أن حبيبي ليتو مات؟ هكذا سألت چيسيكا نفسها وهي تسمع النحيب الصَّامت المتردِّد في جنبات عقلها.

أبقى البارون انتباهه على المِنتات وهو يقول: «افهم نفسك يا بايتر. أنت تريدها لأنها كانت امرأة دوق، لأنها رمزٌ للنفوذ، لأنها جميلة ونافعة ومدرَّبة بشكل رائع على أداء دورها. لكنني أحدِّثك عن حُكم دوقية برمَّتها! وهذا أكثر من مجرَّد رمز، إنها حقيقة ملموسة، وبامتلاكك لها، يمكنك التمتُّع بنساء كثيرات.. وما هو أكثر».

- «لا تمزح مع بايتر».

استدار البارون بتلك الخفَّة الراقصة التي تمنحه إيَّاها مضادَّات الجاذبية، وقال: «أمزح معك؟ أنا؟ تذكَّر أنني أيضًا سأتخلَّى عن الغلام. ألم تسمع ما قاله الخائن عن التدريب الذي تلقَّاه؟ هذا الشبل من تلك اللبؤة، كلاهما مميت وفتَّاك»، وأنهى البارون عبارته بابتسامة، ثم أضاف: «يجب أن أغادر الآن. سأستدعي الحارس الذي احتفظت به لتلك اللحظة. إنه أصمٌّ كالحجارة. ستكون أوامره أن يوصلك إلى أوَّل محطَّة من رحلتك إلى المنفى، وسيُخضع هذه المرأة بالقوَّة إذا رأى أنها تتحكَّم بك، كما لن يسمح لك بفكِّ كمامتها إلى أن ترحلا عن أرَّاكس. أما إذا اخترت البقاء، فلديه أوامر أخرى».

قال بايتر: «لست مُضطَّرًا إلى المغادرة، لقد اتَّخذت قراري».

ضحك البارون: «آها! هذا القرار السريع لا يعني إلَّا شيئًا واحدًا».

قال بايتر: «سآخذ حُكم الدوقية».

فكَّرت چيسيكا: *ألا يرى بايتر أن البارون يخدعه؟ وكيف له أن يرى؟ إنه مجرَّد مِنتات مريض.*

نظر البارون إلى چيسيكا، وقال: «أليس من الرائع أنني أعرف بايتر جيِّدًا؟ لقد راهنت رئيس أركاني أن هذا سيكون اختيار بايتر.

هـاه! حسـنًا، سـأغادر الآن. هـذا أفضـل كثيـرًا. أجـل، أفضـل كثيـرًا. أنـت تتفهَّميـن موقفـي يـا ليـدي چيسـيكا، أليـس كذلـك؟ أنـا لا أحمـل لـك ضغينـة شـخصية. إنهـا ضـرورة يفرضهـا الوضـع. هكـذا أفضـل. أجـل. وأنـا لـم أعـط أمـرًا مباشـرًا بالقضـاء عليـك، لـذا عندمـا أُسـأل عـن الأمـر، سـأدفع التهمـة عـن نفسـي بكل صـدق».

قال پايتر: «ستترك الأمر لي إذًا؟».

قـال البـارون: «الحـارس الـذي سـأرسـله إليـك سـينفذ أوامـرك. سـأترك لـك الأمـر بالكامـل»، ثـم حـدَّق إلـى پايتـر وأضـاف: «أجـل، لـن تلطِّـخ دماؤهـا يـديَّ. القـرار قـرارك. لا أريـد معرفـة شـيء عـن الأمـر. ستنتظر حتَّـى أرحـل قبـل أن تفعـل مـا عليـك فعلـه. حسـنًا الآن... آه، أجـل، أجـل.. هـذا جميـل».

فكَّـرت چيسـيكا: *إنـه يخشـى الخضـوع لاسـتجواب مـن إحـدى كاشـفات الحقيقـة، ولكـن ممَّـن منهـن؟ بالتأكيـد الأُمّ الموقَّـرة جايس هيليـن موهيـم! وإن كان يعلـم أنـه حتمًـا مواجـهٌ أسئلتها، فـلا بُـدَّ أن الإمبراطـور متـورِّط فـي هـذا الانقـلاب. آهٍ يـا حبيبـي ليتـو المسـكين.*

ألقـى البـارون نظـرة أخيـرة إلـى چيسـيكا، ثـم اسـتدار وخـرج مـن البـاب. تبعتـه چيسـيكا بعينيهـا وهـي تفكِّـر: *هـذا هـو الخصـم القـوي الـذي حـذَّرت منـه الأُمّ الموقَّـرة.*

دخـل جنديَّـان هاركوننيـان، وتبعهمـا ثالـث وجهـه مملـوء بالنـدوب، ووقـف عنـد المدخـل ممسـكًا ببندقيـة ليـزر.

هـذا هـو الأصـمّ، هكـذا فكَّـرت چيسـيكا وهـي تفحـص ذا الوجـه المملـوء بالنـدوب: *يعـرف البـارون أنـني قـادرة علـى اسـتخدام (الصَّـوت) مـع أيِّ رجـلٍ آخـر.*

نظر ذو الندوب إلى بايتر: «الصبيُّ معنا على محفَّة بالخارج، أوامرك؟».

تحدَّث بايتر إلى چيسيكا: «فكَّرت في إخضاعك عن طريق تهديد حياة ابنك، لكنني بدأت أرى أن ذلك لن ينجح. لقد سمحت لعاطفتي بالتأثير في تفكيري، وهذه سياسية لا تليق بمِنتات».

ثم نظر إلى الجنديين، واستدار ليستطيع الأصمُّ قراءة شفتيه: «خذوهما إلى الصَّحراء كما اقترح الخائن بخصوص الصبيِّ، فخطَّته جيِّدة. ستمحي الديدان كل أثرٍ لهما. يجب ألَّا يُعثر على جثَّتيهما».

سأل ذو الندوب: «ألا تريد الإشراف على التخلُّص منهما بنفسك؟».

فكَّرت چيسيكا: *إنه يقرأ الشفاه!*

قال بايتر: «سأحذو حذو البارون. خذوهما حيث قال الخائن».

سمعت چيسيكا نبرة المِنتات الجافَّة، وسيطرته على انفعالاته، ففكَّرت: *هو أيضًا يخشى عرَّافة الحقيقة.*

هزَّ بايتر كتفيه، واتَّجه إلى الباب ثم توقَّف عنده لحظةً متردِّدًا. ظنَّت چيسيكا أنه قد يستدير ليلقي نظرة أخيرة عليها، لكنه أكمل طريقه وغادر دون أن يلتفت.

قال كثير الندوب: «عن نفسي، لن أحب مواجهة عرَّافة الحقيقة تلك بعد عمل الليلة».

قال أحد الجنديين الآخرين: «من المستبعد أن تقابل تلك السَّاحرة العجوز»، ثم دار حول رأس چيسيكا وانحنى فوقها: «لن ننهي عملنا بالوقوف والثرثرة هكذا، ارفع قدميها و...».

سأل ذو الندوب: «لِم لا نقتلهما هنا؟».

قال الأوّل: «سنحدث فوضى كبيرة، إلّا إذا كنت تريد خنقهما. عن نفسي، أحب العمل النظيف المباشر. لنلقيهما في الصّحراء كما قال الخائن، ونجرحهما جرحًا أو اثنين، ثم نتركهما للديدان. لن نحتاج إلى التنظيف بعد ذلك».

قال ذو الندوب: «أجل، معك حق».

استمعت جيسيكا إليهم، وراقبت أنماطهم وسجّلتها، لكن الكمامة كانت تعيقها عن استخدام (الصّوت)، فضلًا عن وجود ذلك الأصمّ.

دسَّ ذو الندوب بندقية الليزر في جرابها، وأمسك جيسيكا من قدميها. رفعها الاثنان كأنها شوال قمح، وعبرا بجسدها من الباب وألقوها فوق محفّة طافية في الهواء بمضادّات الجاذبية فوقها جسدٌ آخر مقيّد. في اللحظة التي قلباها وألقيا بجسدها فوق المحفّة رأت وجه رفيقها: إنه پول! كان مقيّدًا، لكن فمه ليس مكمَّمًا. كان وجهه يبعد ما لا يزيد على عشرة سنتيمترات من وجهها، وعيناه مغمضتان، ويتنفّس بانتظام.

تساءلت: *أهو مخدَّر؟*

حمل الجنديّان المحفّة، ففتح پول عينيه بمقدار ضئيل، وحدّق إليها عبر شقّين مظلمين.

تمنّت في عقلها: *الحارس الأصمّ! يجب ألّا يستخدم الصّوت!*

أغلق پول عينيه.

كان يمارس التنفُّس الإدراكي، مصفّيًا ذهنه، مصغيًا إلى آسريه. هذا الأصمُّ يشكّل عائقًا، لكن پول سيطر على قنوطه. أبقاه أسلوب التهدئة الذهنية البِني جيسيرِتي الذي تعلّمه من أُمِّه في حالة تأهب، مستعدًا لاقتناص أيِّ فرصة.

تفحَّص پول وجه أُمِّه محافظًا على عينيه ضيِّقتين. بدت له سليمة من غير سوء، لكنها مكمَّمة.

تعجَّب كيف استطاعوا أسرها. لقد وقع هو في الأسر بحيلة سهلة. أعطاه يُوي كبسولة دواء قبل خلوده إلى الفراش، واستيقظ ليجد نفسه مقيَّدًا إلى هذه المحفَّة. رُبَّما اتَّبعوا معها أسلوبًا مماثلًا. المنطق يقول إن يُوي هو الخائن، لكنه لم يطلق حكمه النهائي بعد. الأمر غير مفهوم ويناقي العقل: فكيف لطبيب متخرِّج في كلِّية سوك أن يخون؟

مالت المحفَّة قليلًا مع مناورة جنديا الهراكنة بها لإخراجها عبر أحد المداخل إلى ليلٍ مزدانٍ بالنجوم. احتكَّت إحدى مضادات الجاذبية بجانب المدخل، ثم أدرك -من وقع أقدامهم- أنهم يسيرون بهما فوق الرمال. لاح من فوقهما جناح ثوبتر حاجبًا النجوم، واستقرَّت المحفَّة على الأرض.

اعتادت عينا پول الضوء الخافت، وأدرك أن الجندي الأصمَّ هو من فتح باب الثوبتر، ونظر إلى الداخل حيث ينير الضوء الأخضر الكئيب لوحة العدَّادات.

سأل الجندي: «أهذه الثوبتر التي يُفترض أن نستخدمها؟»، ثم استدار ليراقب شفاه رفيقيه.

قال الآخر: «إنها الثوبتر التي قال الخائن إنها عُيِّنت للعمل في الصَّحراء».

أومأ ذو الندوب وقال: «لكنها من النوع الصغير المخصَّص لأغراض الاتِّصال، ولا تتَّسع إلَّا لهما ولاثنين منا».

قال حامل المحفَّة: «يكفي اثنان»، ثم اقترب منه مظهرًا شفتيه ليقرأهما: «يمكننا تولِّي الأمر من هنا يا كينت».

قال ذو الندوب: «أمرني البارون أن أتحقَّق ممَّا سيحدث لهما».
قال جندي آخر من وراء حامل المحفَّة: «ممَّ تقلق؟»
قال الأصمُّ: «إنها ساحرة من ساحرات البِني چيسيرِت، لديهن قدرات خارقة».

قال حامل المحفَّة وهو: «إنها واحدة منهن إذًا؟ فهمت ما تقصد»، وضمَّ يده في قبضة جوار أذنه.

شخر الجندي الذي خلفه ساخرًا: «ستكون طعامًا للديدان بعد قليل، فلا تظن أن ساحرات البِني چيسيرِت يملكن سلطة على الديدان العملاقة. أليس كذلك يا تشيجو؟».

قال حامل المحفَّة: «أينعم»، ثم استدار إلى المحفَّة، وأمسك چيسيكا من كتفيها. «هيا يا كينت، بإمكانك مرافقتي إذا كنت تريد التأكُّد بنفسك ممَّا سيصيبهما».

قال ذو الندوب: «تسرُّني دعوتك يا تشيجو، هذا لطفٌ منك».

شعرت چيسيكا بجسدها يُرفع، وبظلِّ الجناح يدور على خلفية النجوم. دفعاها إلى مؤخِّرة الثوبتر، وفحصا ألياف الكريمسكل التي تقيِّدها، ثم شدَّا جسدها بحزام أمان. حُشِر پول إلى جوارها، وشدَّا حزام الأمان عليه بإحكام، ولاحظت أن قيوده مجرَّد حبال عادية.

أخذ ذو الندوب -هذا الذي ينادونه كينت- مكانه في المقدِّمة، أمَّا حامل المحفَّة -المدعو تشيجو- فدار حول الطائرة وأخذ المقعد الأمامي الآخر. ربّت تشيجو على كتف رفيقه وقال: «لِم لا تدير مقعدك وتبقي عينيك عليهما؟».

قال كينت: «متأكِّد من أنك تعرف الطريق؟»، ونظر إلى شفتيه.
- «لقد استمعت إلى الخائن مثلك تمامًا».

أدار كينت مقعده، ورأت چيسيكا وميض النجوم يلتمع على بندقية الليزر التي في يده. بدأت معالم كابينة الثوبتر تتّضح مع اعتياد عيني چيسيكا الإضاءة المنخفضة، لكن وجه الحارس المشوَّه ظل معتمًا. اختبرت چيسيكا حزام مقعدها، فوجدته واسعًا. استشعرت شيئًا من الخشونة في الحزام عند ذراعها اليسرى، وأدركت أنه متآكل تمامًا وشبه ممزَّق، ويمكن قطعه بحركة سريعة واحدة.

فتساءلت: *هل جهَّز شخصٌ هذه الثوبتر لنا كي نستطيع الهروب؟ من يكون؟* ثم أبعدت قدمها المقيَّدة عن قدم پول ببطء.

قال ذو الندوب: «من المؤسف أن تموت امرأة جميلة كهذه. هل سبق أن ذقت واحدة من نبيلات المنبت؟»، واستدار لينظر إلى الطيَّار.

قال الطيَّار: «ليست كل نساء البِني چيسيرِت نبيلات، لكن كلّهن يبدون كذلك».

فكَّرت چيسيكا: *إنه يراني بوضوح*. رفعت قدميها المقيَّدتين على المقعد، وثنت جسدها في وضعٍ مثير مثبِّتةً عينيها على ذي الندوب.

قال كينت: «يا لها من حسناء فائقة الجمال»، وبلَّل شفتيه بلسانه وأردف: «أمرٌ موسف بالفعل»، ثم نظر إلى تشيجو.

سأل الطيَّار: «هل تفكِّر في ما أظن أنك تفكِّر فيه؟».

قال الحارس: «من سيعرف؟ ثم...»، ثم هزَّ كتفيه: «كل ما في الأمر أنني لم أذق واحدة من نبيلات المنبت، وقد لا أحظى بفرصة كهذه مرَّة أخرى».

قال پول محززًا أسنانه: «لو لمست أمّي بيدك...»، وحدّق شزرًا إلى ذي الندوب.

ضحك الطيّار: «مرحى! الجرو ينبح! لكنه لا يعض».

فكّرت چيسيكا: *طبقة صوت پول حادّة جدًا. ومع ذلك، قد ينجح.*

حلقت بهم الطائرة في صمت.

يا للأحمقين المسكينين، هكذا فكّرت چيسيكا وهي تتفحّص حرّاسها وتعيد النظر في كلمات البارون: *سيُعدمان ما إن يُبلغا عن نجاح مهمّتهما، فلن يرغب البارون في ترك شهود.*

مالت الثوبتر فوق منحدرات الجدار الحامي الجنوبية، ورأت چيسيكا أسفلهم بحرًا من الرمال يستحم في ضوء القمر.

قال الطيّار: «ابتعدنا مسافة كافية. الخائن قال ألقوهما على الرمال في أيّ مكان بالقرب من الجدار الحامي». ثم غاص بالطائرة بحدّة متّجهًا صوب الكثبان الرملية، ثم رفع مقدّمتها بقوّة مع اقترابه من سطح الصّحراء.

رأت چيسيكا پول يتنفّس بذلك الانتظام الإيقاعي المميّز لتمرين التهدئة. أغلق عينيه، ثم فتحهما. رمقته چيسيكا عاجزةً عن مساعدته، وفكّرت: *إنه لم يتقن استخدام (الصّوت) بعد، وإذا أخفق...*

حطّت الثوبتر على الرمال بترنّح ناعم. نظرت چيسيكا خلفها، شمالًا باتّجاه الجدار الحامي، ورأت ظلّ جناحي طائرة يستقر بعيدًا عن مجال الرؤية.

فكّرت: *شخصٌ ما يتبعنا! ولكن من؟* ثم: *لا بُدّ أنهم أولئك الذين عيّنهم البارون لمراقبة هذين، كما لا أستبعد أن يكون قد عيّن أيضًا مراقبين للمراقبين.*

أطفأ تشيجو محرِّكات الطائرة، فخيَّم الصَّمت على الكابينة.

أدارت چيسيكا رأسها. عبر النافذة، ومن خلف ذي الندوب، استطاعت أن ترى ضوءَ قمرٍ خافت يبزغ فوق الأُفُق، وحافَّةً صخريةً فضِّيةً ناتئةً في الصَّحراء، نحتت جوانبها الرياح الخشنة المحمَّلة بالرمال.

تنحنح پول.

قال الطيَّار: «ماذا الآن يا كينت؟».

- «لا أعرف يا تشيجو».

التفت تشيجو وقال: «آها، انظر»، ومدَّ يده إلى تنُّورة چيسيكا.

أمره پول قائلًا: «انزع كمامتها!».

شعرت چيسيكا بالكلمات تطوف في الهواء. نبرة الرنين في صوته ممتازة: قاطعة، وحادَّة تمامًا. لو استخدم طبقة صوت أقل انخفاضًا لكان أفضل، لكنها لا تزال ضمن نطاق طيف هذا الرجل، وقادرة على التأثير فيه.

نقل تشيجو يده إلى الرباط الذي يكمِّم فم چيسيكا، وشدَّ عقدة الكمامة.

أمره كينت: «توقَّف!».

قال تشيجو: «أغلق فمك، فيداها مقيَّدتان».

فكَّ تشيجو العقدة فسقط الرباط، والتمعت عيناه وهو يتفحَّص چيسيكا.

وضع كينت يده على ذراع الطيَّار وقال: «اسمع يا تشيجو، لا داعي لـ...».

لوت چيسيكا عنقها، وبصقت الكمامة، وجعلت نبرة صوتها منخفضة وحميمية وهي تقول: «لا داعي للقتال من أجلي أيُّها السيِّدان!»، وفي الوقت نفسه، تأوَّدت أكثر لإغراء كينت.

رأتهما يتوتَّران، وعلمت أنهما في هذه اللحظة كانا مقتنعين بضرورة التنافس عليها. لم يتطلَّب خلافهما سببًا آخر، فقد كانا يتقاتلان عليها في ذهنيهما بالفعل.

أبقت وجهها مرفوعًا في إضاءة المعدَّات لتتأكَّد من أن كينت قادر على قراءة شفتيها، وقالت: «يجب ألَّا تختلفا!». ابتعد أحدهما عن الآخر وراح يتفحَّصه بحذر. فسألتهما: «أتستحق امرأة القتال عليها؟».

بنطقها تلك الكلمات، وبوجودها بينهما، جعلت نفسها جديرة بالقتال عليها إلى درجة لا تُقاوم.

زمَّ پول شفتيه بإحكام، مجبرًا نفسه على البقاء صامتًا. لقد أُتيحت له فرصة استخدام (الصَّوت) مرَّة. الآن كل شيء يعتمد على أُمِّه التي تفوقه خبرة بمراحل.

قال كثير الندوب: «أجل، لا داعي للقتال على...».

ثم اندفعت يده منقضَّة على عنق الطيَّار، لكن هجمته قوبلت بجسم معدني جرح ذراعه، وفي الحركة نفسها، انغرس الجسم في صدر كينت.

تأوَّه ذو الندوب، وتراخى جسده إلى الخلف مائلًا إلى الباب.

قال تشيجو: «أحسبتني أبله لا يعرف هذه الخدعة!»، ثم سحب يده كاشفًا عن السكِّين التي تعكس ضوء القمر.

ثم أردف وهو ينحني فوق پول: «والآن دور الجرو».

تمتمت چيسيكا: «لا داعي لذلك».

تردَّد تشيجو.

قالت له: «سأكون متعاونة معك إذا تركت الصبيَّ ومنحته فرصة»، والتَوت شفتاها في ابتسامة ساخرة. «إن احتمال نجاته

ضئيل جدًّا على تلك الرمال، ولكن إن منحته الفرصة...»، وابتسمت: «فسأكافئك جيِّدًا».

تلفَّت تشيجو حوله يمينًا ويسارًا، ثم أعاد انتباهه إلى چيسيكا، وقال: «لقد سمعت ما يمكن أن يحدث للمرء في هذه الصَّحراء، قد يكون الموت بالسكِّين أرحم له».

ترجَّته چيسيكا: «وهل ما أطلبه كثيرًا؟».

تمتم تشيجو: «أنت تحاولين خداعي».

قالت چيسيكا: «لا أريد رؤية ابني يموت، هل في هذا خدعة؟».

تراجع تشيجو إلى الخلف، ودفع مقبض الباب بمرفقه، ثم أمسك پول، وجرَّه من مقعده ودفعه حتَّى صار نصف جسده خارج الباب، ووضع السكِّين على عُنُقه قائلًا: «ماذا ستفعل أيُّها الجرو إذا قطعت قيودك؟».

قالت چيسيكا: «سيفرُّ من هنا على الفور ويتَّجه إلى تلك الصخور».

سأل تشيجو: «أهذا ما ستفعله أيُّها الجرو؟».

بدا صوت پول نكدًا كما ينبغي وهو يقول: «أجل».

تحرَّكت السكِّين إلى أسفل، وقطعت قيود ساقيه. شعر پول بيد الرجل تدفعه على ظهره لتلقيه على الرمال، فتظاهر بالتعثُّر على هيكل الباب واستخدمه ركيزةً، واستدار كأنما يمنع نفسه من السقوط، ثم ضرب بقدمه اليسرى بمنتهى القوَّة.

أصاب إصبع القدم الموضع بدقَّة بفضل سنوات تدريبه الطويلة، كأن كل ما تلقَّاه من تدريب تركَّز في هذه اللحظة. تعاونت كل عضلات جسده تقريبًا لتوجيه الضربة. أصاب طرف إصبع قدمه الجزء اللين من بطن تشيجو، أسفل عظمة القص

مباشـرة، ثـم اندفـع إلـى أعلـى بقـوة رهيبـة مـن فـوق الكبـد وعبـر الحجـاب الحاجـز سـاحقًا بطيـن الرجـل الأيمـن.

صـرخ الرَّجل صرخـة واحـدة متحشـرجة، وتهـاوى إلـى الخلـف بين المقاعـد. أمَّـا پول، غيـر القـادر علـى اسـتخدام يديـه، واصـل سـقوطه إلـى الرمـال، وهبـط فوقهـا متدحرجًـا لامتصـاص الصدمـة، ثـم نهـض واقفًـا علـى قدميـه بحركـة واحـدة، ووثـب مندفعًـا إلـى الكابينـة، وعثـر علـى السكِّين وأمسكها بيـن أسـنانه ليسـاعد أُمَّـه علـى قطـع قيودهـا، ومـا إن قطعتهـا أخـذت منـه السـكِّين وحـرَّرت يديـه.

قالـت: «كنـت سـأتعامل معـه وسـأجعله يفـكّ قيـودي، لـم يكـن ثمَّـة داعٍ لهـذه المخاطـرة الحمقـاء».

قال: «رأيت فرصة سانحة، فاقتنصتها».

سـمعت نبـرة تحكُّـم صـارم فـي صوتـه، فغيَّـرت الموضـوع: «شـعار عائلـة يُـوي منقـوش علـى سـقف هـذه الكابينـة».

نظر پول إلى أعلى ورأى الرمز المتمعِّج.

قالـت: «لنخـرج ونفحـص هـذه الطائـرة. تُوجـد صُـرَّة تحـت مقعـد الطيَّـار، رأيتهـا عندمـا دخلنـا».

- «أهي قُنبلة؟».

- «لا أظن. في الأمر شيء غريب».

وثـب پول إلـى الخـارج على الرمال، وتبعته جيسيكا. ثم اسـتدارت، ومـدَّت يدهـا أسـفل المقعـد لتأخـذ الصُّـرَّة الغريبـة، فـرأت قدمـي تشـيجو فـي وجههـا، وشـعرت بـأن الصُّـرَّة مبللـة وهـي تلتقطهـا، قبـل أن تـدرك أنهـا دمـاء الطيَّـار.

خطـر لهـا: *هـذا إهـدار للسـوائل*، ثـم أدركت أنهـا فكـرة أرَّاكسـية.

نظـر پـول حولهمـا، ورأى المنحـدر الصخـري يبـرز مـن سـطح

الصَّحراء كجزيرة تبرز من البحر، ومن خلفه الحواجز الصخرية التي نحتتها الرياح. التفت إلى الوراء في اللحظة التي أخرجت فيها أُمُّه الصُّرة من الثوبتر، ورآها تحدِّق عبر الكثبان الرملية باتِّجاه الجدار الحامي. نظر ليرى ما لفت انتباهها، ورأى ثوبتر أخرى تنقض عليهما، وأدرك أن الوقت لن يسمح بإخراج الجثَّتين من الثوبتر والهروب بها.

صاحت چيسيكا: «اركض يا پول. إنهم الهراكنة!».

أرّاكس يُعلِّم ثقافة السكِّين، ثقافة قطع كل ما هو غير مكتمل ثم قول: «الآن صار مكتملًا، لأن أمره انتهى هنا».

من كتاب «أحاديث المؤدِّب المجمَّعة» للأميرة إيرولان.

في نهاية الممر الذي يركض فيه، توقَّف رجلٌ يرتدي زيَّ الهراكنة بغتةً وحدَّق إلى يُوي، ثم بنظرة واحدة سريعة استوعب المشهد برمَّته: جُثَّة مييس، وجسد الدوق الممدَّد على الأرض، ووقوف يُوي هناك. كان الرجل يحمل بندقية ليزر في يُمناه، وتحيط به هالة من الوحشية والخشونة والاتِّزان جعلت القشعريرة تسري في جسد يُوي.

فكَّر يُوي: *هذا من السَّاردوكار، ومن مظهره يبدو أنه برتبة باشار. على الأرجح هو من حرس الإمبراطور الخاص الذي أرسله إلى هنا لمراقبة الأمور. لا يهم نوع الزِّي الذي يرتديه السَّاردوكار، فلا شيء قادر على إخفاء حقيقتهم.*

قال الرجل: «أنت يُوي»، ونظر حازرًا إلى طوق كلِّية سوك الذي يمقص به الطبيب شعره، وإلى وشم الألماسة على جبينه، ثم التقت عيناه عيني يُوي.

قال الطبيب: «أجل، أنا يُوي».

قال الرجل: «اطمئن يا يُوي، اقتحمنا المنزل على الفور حين عطَّلت دروع الطاقة. كل شيء تحت السيطرة الآن. أهذا الدوق؟».

– «هذا هو الدوق».

– «أهو ميِّت؟».

- «فاقد الوعي فحسب. أقترح تقييده».

- «هل تخلَّصت من الآخرين؟»، قالها وألقى نظرة خلفه حيث يتمدَّد جسد ميپس.

غمغم يُوي: «للأسف».

قال السَّاردوكار ساخرًا: «الأسف!»، ثم تقدَّم وألقى نظرة قريبة إلى ليتو.

- «هذا إذًا الدوق الأحمر العظيم».

فكَّر يُوي: *هذا كفيل بمحو أيِّ شكوك بشأن هويَّة الرجل. وحده الإمبراطور ينعت آل آتريديز بالدوقات الحمر.*

مدَّ السَّاردوكار يده، وانتزع شارة الصقر الأحمر من صدر بذلة ليتو، وقال: «تذكار صغير. أين خاتم الدوقية؟».

قال يُوي: «لا يضعه في إصبعه».

صاح السَّاردوكار بحدَّة: «أرى هذا!».

شدَّ يُوي جسده، وابتلع ريقه. *إذا حاصروني بالأسئلة، واحضروا كاشفة حقيقة، سيعرفون مكان الخاتم، وسيعرفون بأمر الثوبتر التي أعددتها.. وسيبوء كل تخطيطي بالفشل.*

قال يُوي: «أحيانًا يرسل الدوق الخاتم مع رسول تأكيدًا على أنه أصدر الأوامر بنفسه».

تمتم السَّاردوكار: «لا بُدَّ من أن ثقته برُسُله كبيرة».

غامر يُوي بقول: «هل ستقيِّده؟».

- «كم سيظل غائبًا عن الوعي؟».

- «ساعتين تقريبًا. لم أكن دقيقًا في جرعته كما فعلت مع جرعة المرأة والصبي».

لكز السَّاردوكار الدوق بقدمه وقال: «هذا لم يكن يُخشى جانبه حتَّى وهو مستيقظ. متى ستفيق المرأة والصبي؟».

- «في غضون عشر دقائق».

- «بهذه السرعة؟».

- «قيل لي إن البارون سيصل خلف رجاله مباشرةً».

- «أجل، ويجب عليك الانتظار في الخارج يا يُوي»، ثم رماه بنظرة حادَّة وأردف: «الآن!».

ألقى يُوي نظرة إلى ليتو وقال: «ماذا عن...».

- «سيُسلَّم إلى البارون وهو مُكتَّف بإحكام كشواءٍ سيدخل الفرن»، قالها السَّاردوكار ورمق من جديد وشم الألماسة على جبهة يُوي، ثم أردف: «رجالنا يعرفونك: ستكون في مأمن في أروقة المنزل. لم يعد لدينا وقت للدردشة أيُّها الخائن، فأنا أسمع اقتراب الآخرين».

فكَّر يُوي: *الخائن*. ثم خفض بصره ومرَّ من جوار السَّاردوكار، عالمًا أن هذا ما سيتذكَّره التاريخ به: *يُوي الخائن*.

مرَّ يُوي بمزيدٍ من الجثث وهو في طريقه إلى المدخل الأمامي، وراح يختلس النظر إليها خاشيًا أن يرى بينها پول أو چيسيكا، لكن كل الصرعى كانوا من الحرس المنزلي أو ممَّن يرتدون زيَّ الهراكنة.

انتبه حرس الهراكنة وحدَّجوه بنظراتهم وهو يخرج من المدخل الأمامي إلى الليل المُضاء بنارٍ موقدة. كانوا قد أضرموا النار في أشجار النخيل التي تؤم جانب الطريق لينيروا المنزل. تصاعد دخان أسود من بين ألسنة اللهب البرتقالية من المواد السريعة الاشتعال التي استخدموها لإضرام النخيل.

قال أحدهم: «هذا هو الخائن».

قال آخر: «سيرغب البارون في رؤيتك قريبًا».

فكَّر يُوي: *لا بُدَّ لي من الذهاب إلى الثوبتر وترك خاتم الدوقية حيث يستطيع پول العثور عليه*. ثم اعتراه خوفٌ مفاجئ: *إن شكَّ آيداهو في أمري أو نفد صبره، إن لم ينتظر ويذهب إلى حيث طلبت منه الذهاب بالضبط، فلن ينجو پول وچيسيكا من تلك المذبحة، ولن أنال ولو نفحة خلاص ممَّا اقترفته يداي*.

أشار حارس هاركونني بذراعه وقال: «انتظر هناك، بعيدًا عن الطريق».

بغتةً، أدرك يُوي أنه صار منبوذًا في هذا المكان الخرب. يحتقره الجميع، ولا تطوله شفقة. يجب ألَّا يفشل آيداهو في مهمَّته!

اصطدم به حارسٌ آخر وصاح: «قلنا ابتعد عن الطريق يا هذا!».

فكَّر يُوي: *حتَّى بعدما استفادوا مني يحتقرونني!* ثم شدَّ قامته حين دُفع جانبًا، مستعديًا بعضًا من كرامته.

زمجر ضابط من الحرس: «انتظر قدوم البارون!».

أومأ يُوي، وسار على نحوٍ يبدو طبيعيًّا بطول واجهة المنزل، ثم انحرف عند الركن وتوارى في الظلال بعيدًا عن الأنظار وعن وهج النخلات المحترقة. أسرع يُوي خُطًى متردِّدةً تفضح توتُّره قاصدًا الفناء الخلفي وراء مشتل النباتات حيث تقبع الثوبتر التي وُضعت كي تحمل پول وأُمَّه.

كان هناك حارس واقف عند باب المنزل الخلفي، مركِّزًا اهتمامه على القاعة المضاءة والرجال الذي يتحرَّكون في صخب في الداخل، يفتِّشون الحجرة تلو الأخرى.

يا للثقة التي يتحرّكون بها!

احتجب يُوي بالظلال، وشقّ طريقه حول الثوبتر، وفتح الباب الذي على الجانب الآخر من الحارس برفق. مدَّ يده أسفل المقعد الأمامي إلى عُدَّة الفرمِن التي خبّأها، ورفع غطاء أحد الجيوب ودسَّ خاتم الدوقية فيه. لمست يده الورقة المصنوعة من الاسپايس، تلك الرسالة التي كتبها، فوضع الخاتم في الورقة ثم أخرج يده وأعاد غلق الحقيبة.

بهدوء، أغلق يُوي باب الثوبتر، وشقّ طريقه عائدًا إلى زاوية المنزل، وأكمل سيره في اتّجاه النخلات المحترقة.

فكَّر يُوي: *الآن اتممت مهمَّتي.*

ثم خرج من وسط الظلام إلى ضوء النخلات التي تأكلها النيران. أحكم رداءه حول جسده، وحدَّق إلى ألسنة اللهب وهو يُفكِّر: *قريبًا سأعرف. قريبًا سأرى البارون وسأعرف. أما البارون، فهو على موعدٍ مع ضرسٍ صغير.*

ثمَّة أسطورة تقول إن في اللحظة التي فارق فيها الدوق ليتو آتريديز الحياة، قطع شهابٌ السماءَ من فوق قصر أسلافه على كوكب كلادان.

من مقدّمة كتاب «سيرة المؤدِّب للأطفال» للأميرة إيرولان

وقف البارون ڤلاديمير هاركونن يرمق ليل أرّاكس المضاء بالنيران من نافذة سفينته الفضائية الراسية على الأرض التي يستخدمها مركزَ قيادة. انصب اهتمامه على الجدار الحامي البعيد، حيث كان سلاحه السرّي يؤدّي عمله.

قذائف المدفعية.

كانت المدافع تقصف الكهوف التي تراجع إليها مقاتلو الدوق واتَّخذوها خنادقَ لصمودهم الأخير. كان القصف بطيئًا مدروسًا، يُسقط عليهم وابلًا من الصخور وأطنان غبار في انفجاراتٍ وامضة خاطفة ويغلق عليهم المداخل كي يموتوا جوعًا وعطشًا، كحيواناتٍ انهارت عليها جحورها.

شعر البارون بدوي القصف البعيد، يحمله إليه معدن هيكل السفينة كأنه قرع طبول. *برووم... برووم...* ثم: *بروووووووم!*

من كان سيخطر في باله إحياء المدفعية في عصر دروع الطاقة؟ مرَّت الخاطرة في عقله كأنها ضحكة مكتومة. *لكن فرار رجال الدوق إلى تلك الكهوف كان متوقَّعًا. أوه، كم سيقدِّر الإمبراطور ذكائي في الحفاظ على حياة أفراد قوَّاتنا المشتركة.*

ضبط إحدى مضادات الجاذبية الصغيرة التي تحمي جسده البدين من سحب الجاذبية، وتلاعبت ابتسامة على ثغره ساحبةً معها الثنيات الرخوة على فكِّه.

من المؤسف إهدار مقاتلين بارعين كمقاتلي الدوق، هكذا فكَّر ساخرًا من نفسه، واتَّسعت ابتسامته أكثر، ثم أومأ مستدركًا: *لا بُدَّ للشفقة من التحلِّي بالقسوة!* من تعريفات الفشل أن يسهل الاستغناء عن المرء، أن تسهل التضحية به. الكون برمَّته يجلس فاتحًا ذراعيه في انتظار من في مقدوره اتِّخاذ القرارات الصحيحة، أما الأرانب المتردِّدة فيجب استهدافها وإجبارها على الفرار إلى جحورها، وإلا كيف يمكنك السيطرة عليها وتربيتها؟ تخيَّل البارون مقاتليه كما لو كانوا خلية نحلٍ تطارد الأرانب وتدحرها، وفكَّر: *يطنُّ الوجود بموسيقى تشنِّف الآذان عندما يعمل في خدمتك ما يكفي من النحل.*

فُتح بابٌ خلفه، فنظر البارون إلى الانعكاس في النافذة المعتمة ليرى القادم قبل أن يستدير. دخل بايتر دي فريس إلى الحجرة يتبعه عمان كودو، قائد حرس البارون الشخصي. خلف الباب المفتوح لمح البارون حركة رجاله، وشاهد وجوههم الممتقعة، وخوف الحملان الذي يمتلي ملامحهم في حضرته.

استدار البارون.

لمس بايتر ناصية رأسه بإصبعه في محاكاة ساخرة للتحيَّة الرسمية، وقال: «أخبار جيِّدة يا مولاي. لقد أحضر السَّاردوكار الدوق».

دمدم الدوق: «بالتأكيد».

وتفرَّس في قناع الشَّر الكئيب البادي وجه بايتر المخنَّث، وفي عينيه الزرقاوين الضيِّقتين المحاطتين بهالاتٍ سوداء.

وفكَّر: *يجب أن أتخلَّص منه قريبًا، لقد تجاوز بقاؤه فائدته وصار يشكِّل خطرًا حقيقيًا عليَّ. ولكن يجب أن يكرهه سكَّان أرّاكس أوَّلًا، وبعدها سيرحِّبون بحبيبي فيد راوثا كمخلِّصٍ لهم.*

نقل البارون اهتمامه إلى قائد حرسه، عمان كودو، الرجل صاحب الفكِّ الحديدي، والذقن المربّع الذي يشبه مقدِّمة حذاء. الرجل الذي يستطيع وضع ثقته به، لأنه مطَّلع على عيوبه ونقائصه.

سأل البارون: «في البداية، أين الخائن الذي سلَّمني الدوق على طبقٍ من فِضَّة؟ يجب أن أعطي الخائن مكافأته».

استدار بايتر على عقب ساقٍ واحدة، وأشار إلى الحارس الواقف في الخارج.

تحرَّك ظلٌّ أسود في الخارج، ثم دخل يُوي إلى الغرفة بخطواتٍ بطيئة متصلبة. كان شاربه يتدلَّى على شفتيه الأرجوانيتين، ولا تبدو الحياة إلَّا في عينيه المجوزتين. بإشارة من پايتر، توقَّف يُوي بعد ثلاث خطوات أخذها في الغرفة، ووقف مكانه يحدِّق إلى البارون عبر المساحة الفاصلة بينهما.

- «الدكتور يُوي».

- «سيِّدي هاركونن».

- «سمعت أنك سلَّمت الدوق إلينا».

- «أتممت جزئي من الصفقة يا سيِّدي».

نظر البارون إلى پايتر.

فأومأ پايتر.

عاد البارون ينظر إلى يُوي: «تقول إنك التزمت بجزئك من الصفقة، هه؟ وأنا...»، ثم بصق كلماته التالية: «ماذا كان علي أن أفعل في المقابل؟».

- «أنت تتذكَّر جيِّدًا يا سيِّدي هاركونن».

ثم استطاع يُوي التفكير الآن وسط الصَّمت الذي حلَّ على ذهنه بعد توقُّف دقِّ السَّاعات المستمر فيه. لقد فضحت كلمات البارون ما يحاول إخفاءه. لقد ماتت وانا بالفعل ورحلت إلى حيث لم يعد في مقدورهم تعذيبها، وإلَّا لاستمرُّوا في استخدامها ورقةَ ضغط على الطبيب الضعيف. توحي طريقة كلام البارون بأنه فقد ما كان يستخدمه ضدَّه، توحي بأنه خسر ورقته الرابحة.

سأل البارون: «حقًّا؟».

- «لقد وعدت بتحرير وانا من عذابها».

أومأ البارون قائلًا: «أوه، أجل. الآن أتذكَّر. كان هذا وعدي. هكذا استطعت كسر شوكة التهيئة العقلية الإمبراطورية. لم تتحمَّل رؤية زوجتك ساحرة البِني چيسيرت تُسام سوء العذاب في مضخمات الألم التي ابتكرها پايتر. حسنًا، البارون ڤلاديمير هاركونن دائمًا ما يفي بوعوده، لقد أخبرتك بأنني سأحرِّرها من عذابها وبأنني سألمُّ شملكما. ليكن ذلك». ثم أشار بيده إلى پايتر.

اتَّقدت عينا پايتر الزرقاوان وصارت نظرته زجاجية، وهجم بغتة في رشاقة القطط. التمع السكِّين في يده كأنه مخلب وهو ينغرس في لحم ظهر يُوي.

تصلَّب جسد الرجل العجوز دون أن ينزل عينيه عن البارون.

بصق البارون قائلًا: «انضم إليها إذًا!».

وقف يُوي مترنِّحًا، وتحرَّكت شفتاه بإحكام دقيق، وخرج صوته منهما بإيقاع موزون على نحوٍ غريب:

«تظن... أنك... هز... هزمتني. تظن... أنني... لم... أكن... أعلم... ماذا... جلبت... على... حبيبتي... وانا».

ثم هوى جسده أرضًا، بلا انحناء أو تراخٍ، كما تسقط الأشجار.

كرَّر البارون: «انضم إليها إذًا»، ولكن كلماته بدت كصدى صوتٍ ضعيف.

استطاع يُوي أن يُوجسه ويملأ قلبه خوفًا. أدار البارون اهتمامه سريعًا إلى پايتر، ورأى الرجل يمسح النصل بخرقة قماش، ورأى نظرة رضًا دسمةً في العينين الزرقاوين.

فكَّر البارون: *هذه إذًا الطريقة التي يقتل بها بيده. من المفيد معرفة ذلك.*

سأل البارون: «هل سلَّمنا الدوق فعلًا؟».

قال بايتر: «بالتأكيد يا سيِّدي».

- «أحضره إذًا!».

نظر بايتر إلى قائد الحرس، فاستدار لتنفيذ الأمر.

نظر البارون إلى جثمان يُوي. قد يظن المرء من الطريقة التي سقط بها أن جسد الرجل مصنوع من خشب البلُّوط لا العظام.

قال البارون: «لا يمكنني الوثوق بخائن، حتَّى لو كان من صنعي».

ثم ألقى نظرة إلى النافذة التي يكتنفها الظلام. عرف البارون أن الخيمة السوداء التي تغطِّي كل شيء في الخارج صارت تنتمي إليه الآن. لقد توقَّف القصف المدفعي لكهوف الجدار الحامي، وصارت الجحور شراكًا مغلقة على من فيها. بغتةً، لم يكن بوسع عقل البارون تخيُّل شيءٍ أجمل من ذلك الفراغ الأسود المطلق، رُبَّما باستثناء البياض على السَّواد، البياض الناصع إذا طلى السَّواد، بياض بلون البورسلين.

لكن قلبه لا يزال مرتابًا.

ما الذي قصده هذا الطبيب المُسنُّ المأفون؟ بالطبع رُبَّما كان يعلم ما سيصيبه في النهاية، لكن غريب ذلك الجزء الذي قال، الذي يتعلَّق بظنِّي أنه قد هُزم:

«تظن أنك هزمتني».

ماذا قصد؟

دخل الدوق ليتو آتريديز عبر الباب، ذراعاه مكبَّلتان بالسلاسل والأصفاد، ووجهه الحاد الشبيه بوجه الصقر معفَّرٌ بالتراب. كانت سُترته ممزَّقة من الصدر حيث انتزع أحدهم شارته، وتتدلَّى أسمالٌ من خصره حيث نُزع حزام درعٍ الطاقة دون فك أربطته أوَّلًا. كانت عينا الدوق مزجَّجتين، وتطل منهما نظرة مجنونة.

قال البارون: «أهلًا!»، ثم تردَّد وأخذ نفسًا عميقًا. أدرك أنه تحدَّث بصوت عالٍ جدًا، ما أفقد تلك اللحظة -التي طالما تخيَّلها- شيئًا من مذاقها.

فلتحل اللعنة على هذا الطبيب إلى الأبد!

قال پايتر: «أظن أن الدوق الطيِّب مخدَّر. هذه هي الطريقة التي أوقعه بها يُوي كي يسلِّمه إلينا»، ثم التفت إلى الدوق وسأله: «ألست مخدَّرًا يا عزيزي الدوق؟».

أتاه الصَّوت من مكانٍ بعيد جدًا. كان ليتو يشعر بالسلاسل، وبالوجع الكامن في عضلاته، وبشفتيه المشقَّقتين، وبوجنتيه الملتهبتين، وبمذاق العطش الجاف الخشن في فمه... لكن الأصوات بدت باهتة كأنها مكتومة ببطَّانية قطنية. وعبر تلك البطَّانية، لم ير إلَّا ظلالًا وأشكالًا ضبابية.

سأل البارون: «ماذا عن المرأة والصبيِّ يا پايتر؟ هل من جديد بشأنهما؟».

مرَّر پايتر لسانه على شفتيه.

زمجر البارون: «لقد وصلتك أخبار عنهما! ماذا سمعت؟».

رمى پايتر قائد الحرس بنظرة سريعة، وعاد ينظر إلى البارون: «أرسلنا رجلين لتنفيذ المهمَّة يا سيِّدي، ثم... آه... إحم... عثرنا عليهما».

- «حسنًا، هل كان تقريرهما مُرضيًا؟».

- «لقد ماتا يا سيِّدي».

- «بالتأكيد، أعلم هذا! ما أريد معرفته هو...».

- «كانا ميِّتين حين عثرنا عليهما».

احتقن وجه البارون بالغضب، وقال: «وماذا عن المرأة والصبي؟».

- «لا أثر لهما يا مولاي، لكن كانت هناك دودة. لقد جاءت في أثناء تمشيط المكان وتقصّي ما حدث. رُبَّما كانت حادثة كما كنا نأمل. يحتمل أن...».

- «نحن لا نتعامل بالاحتمالات هنا يا پايتر. ماذا عن الثوبتر المفقودة؟ ألا يوحي لك هذا بشيء يا مِنتاتي الأريب؟».

- «واضح أن أحد رجال الدوق استخدمها للهرب يا مولاي. قتل طيَّارنا وهرب بها».

- «أيٌّ من رجال الدوق؟».

- «لقد كانت عملية قتل نظيفة وصامتة يا سيدي. قد يكون حوَّاط، أو ذلك المدعو هاليك، ورُبَّما آيداهو، أو أحد كبار الضُبَّاط».

تمتم البارون: «كلها احتمالات»، وألقى نظرة إلى الدوق المخدَّر المترنِّح.

قال پايتر: «لا تقلق يا سيِّدي، الوضع تحت السيطرة».

- «كلَّا، إنه ليس كذلك! أين عالم البيئات الكوكبية؟ أين ذلك الأحمق المدعو كاينز؟».

- «وصلتنا أخبار عن مكانه، وأرسلنا لإحضاره يا مولاي».

غمغم البارون: «لا تعجبني الطريقة التي يعاوننا بها هذا المندوب الإمبراطوري».

كانت الكلمات تأتي من بعيد، عبر البطَّانية القطنية، لكن بعضها انطبع على عقل ليتو. *لا أثر للمرأة والصبيّ*. پول وچيسيكا هربا، ولا يزال مصير حوَّاط وهاليك وآيداهو مجهولًا. ما زال هناك أمل.

قـال البـارون بلهجـة آمـرة: «لا شـيء فـي إصبعـه. أيـن خاتـم الدوقيـة؟».

قال قائد الحرس: «ضابط السَّـاردوكار يقول إنه لم يكن يضعه عندما أُسِـر».

قال البارون: «قتلت الطبيب قبل الأوان يا پايتر، وهـذه غلطـة. كان عليـك تحذيـري قبلهـا. اندفاعـك لـم يكـن فـي مصلحتنـا»، ثـم عبس وتولَّـى متمتمًـا: «احتمـالات».

ظلَّت الفكـرة عالقـة فـي ذهـن ليتـو: *پول وچيسـيكا هربـا!* ومعهـا ألحَّت ذكرى أخـرى، صفقـةٌ مـا، بالـكاد يتذكَّرهـا.

الضِّرس!

الآن يتذكَّـر شـيء مـن الأمـر: *قـرصٌ يحتـوي علـى غـازٍ سـام علـى شـكل ضـرس صنـاعـي.*

شـخصٌ مـا أخبـره أن يتذكَّـر الضِّـرس. الضـرس الآن فـي فمـه. يسـتطيع أن يشـعر بـه ويتحسَّـس شـكله بلسـانه. كل مـا عليـه هـو أن يعضَّ عليـه بقـوَّة.

ليس بعد!

أخبـره ذلـك الشـخص أن ينتظـر حتَّـى يكـون البـارون قريبًـا منـه. مـن أخبـره بذلـك؟ لـم يكـن يتذكَّـر.

سـأل البارون: «إلى متى سيظل في هذه الحالة؟».

- «رُبَّما لساعة أخرى يا مولاي».

تمتـم البـارون: «رُبَّمـا»، ثـم التفـت مجـدَّدًا إلـى النافـذة التـي يكتنفهـا الليـل بعباءتـه السـوداء، وأردف: «أنـا جائـع».

فكَّـر ليتـو: *هـذه الكتلـة الضبابيـة الهلاميـة الواقفـة هنـاك هـي البـارون.* ظلَّت الكتلـة تتراقـص جيئـةً وذهابًـا، متمايلـةً مـع حركـة

الغرفة، كما راحت الغرفة نفسها تتّسع وتتقلّص، تضيء وتعتم، ثم انطوت إلى سوادٍ وتلاشت.

صار الوقت ظلمات بعضها فوق بعض في وعي الدوق، وراح ينجرف صعودًا عبرها. *لا بُدَّ لي من الانتظار.*

كانت هناك طاولة. استطاع ليتو رؤية الطاولة بوضوح كبير، كما رأى رجلًا جسيمًا بدينًا على الجانب الآخر منها، أمامه بقايا وجبة طعام. أحسَّ ليتو بأنه جالس في المقعد المواجه للرجل البدين، وشعر بثقل سلاسله وأصفاده، وبالأربطة التي تقيِّد جسده الخدر في الكرسي. كان يعلم أن بعض الوقت قد مرَّ عليه وهو في هذا الوضع، لكنه لم يستطع حساب مقداره.

- «أظن أنه بدأ يفيق أيُّها البارون».

ذلك الصَّوت الحريري الناعم. إنه پايتر.

- «أرى هذا يا پايتر».

تلك الدمدمة العميقة. إنه البارون.

شعر ليتو بأن الموجودات من حوله تزداد وضوحًا. اكتسب الكرسي الذي يجلس عليه صلابة، وصارت قيوده أشد وأحكم. والآن بات يرى البارون بوضوحٍ تام. راقب ليتو حركات يد الرجل: لمساته القهرية لحافَّة الطَّبق ومقبض الملعقة، وإصبعه التي تتحسَّس الدهون على عظام فكِّه.

ظلَّ ليتو يراقب حركات يد الرجل، مأخوذًا بها.

قال البارون: «أعرف أنك تسمعني يا دوق ليتو. نريد أن نعرف منك أين نجد حظيَّتك والصبيَّ الذي أنجبته منها».

لم تخف نبرة الإهانة على ليتو، لكن كلمات البارون غمرته بالاطمئنان. *الأمر صحيح إذًا: پول وچيسيكا ليسا* في حوزتهم.

هدر البارون: «هذه ليست لعبة أطفال! لا بُدَّ أنك تعلم هذا»، ثم مال على ليتو متأمِّلًا ملامح وجهه. كان البارون منزعجًا لأنه غير قادر على معالجة الأمر على انفراد، بينهما هما الاثنين فقط. إنها لسابقة سيِّئة أن يرى أشخاص آخرون أحد النبلاء في مثل هذه الموقف العسير.

شعر ليتو بقوَّته تعود إليه. والآن، برزت ذكرى الضِّرس المزيَّف في عقله كأنها برج كنيسة في أرضٍ فضاء. لقد تذكَّر هوية واضع هذا السلاح المميت في فمه، هذه الكبسولة التي تأخذ شكل العصب في ذلك الضرس، هذا الغاز السام.

إنه يُوي!

في عقل ليتو علقت ذكرى ضبابية لجثَّة هامدة تُجرُّ من أمامه في هذه الغرفة، وعلم أنها جثَّة يُوي.

سأله البارون: «هل تسمع هذه الضوضاء يا دوق ليتو؟».

شُحذ انتباه ليتو للصوت الشبيه بنقيق الضفادع، أنين حلقي صادر عن شخص يُعذَّب.

قال البارون: «أمسكنا أحد رجالك متخفِّيًا في ملابس الفرمِن. اكتشفنا تنكُّره بسهولة، من عينيه كما تعلم. إنه مصرٌّ على أنه زُرِع بين الفرمِن ليتجسَّس عليهم. لقد عشت مدَّة على هذا الكوكب يا قريبي العزيز، وأعرف جيِّدًا أنه ليس بوسع المرء التجسُّس على حثالة الصَّحراء هؤلاء. لذا أخبرني، هل اشتريت مساعدتهم بالمال؟ هل أرسلت امرأتك وابنك إليهم؟».

شعر ليتو بانقباض في صدره: *لو كان يُوي قد أرسلهم إلى حافَّة الصَّحراء، فلن يتوقَّف البحث حتى يُعثر عليهما.*

قال البارون: «هيًّا، هيًّا. ليس لدينا الليل بطوله، وما أسهل التعذيب. أرجوك لا تضطرنا إلى ذلك يا دوقي العزيز». ثم رفع البارون عينيه إلى بايتر الذي كان يقف وراء كتف ليتو، وأردف: «بايتر ليس معه كل أدواته هنا، لكنني واثق بأن في مقدوره الارتجال».

- «أحيانًا يكون الارتجال أفضل أيُّها البارون».

سمع ليتو الصَّوت في أُذُنه. *يا لفحيح الأفاعي الناعم هذا!*

قال البارون: «كان لديك خطَّة للطوارئ. أكرِّر: أين أرسلت امرأتك والصبي؟»، ثم نظر إلى يد ليتو وأردف: «وخاتمك مفقود. هل أعطيته للصبي؟».

ثم رفع عينيه محدِّقًا إلى عيني ليتو.

ثم قال: «حسنًا، لا تريد الإجابة. ستضطرني إلى فعل أمور لا أريد أن أفعلها. سيستخدم بايتر أساليب بسيطة ومباشرة. أوافقه في أنها أحيانًا تكون الأفضل، ولكن ليس من اللَّائق تعريضك إلى مثل هذه الأمور».

قال بايتر: «أفكِّر في صبِّ بعض الشَّحم السَّاخن على ظهره، أو على جفنيه، أو على مواضع أخرى من الجسد. إنها وسيلة فعَّالة، بالذات عندما لا يعرف الشخص على أيِّ موضع سينزل الشحم. إنها وسيلة رائعة، وتترك نمطًا جميلًا من البثور الصديدية المتقيِّحة على الجلد، أليس كذلك أيُّها البارون؟».

قال البارون بنبرةٍ لاذعةٍ: «اختيار أنيق».

يا لتلك الأصابع التي لا تكف عن التلمُّس! هكذا فكَّر ليتو وهو يراقب اليدين البدينتين كأيدي الأطفال، والجواهر النفيسة التي تزيِّن الأصابع المكتنزة، والطريقة القهرية التي تتحسَّس بها الأشياء.

تساءل الدوق وأصوات العذاب الآتية عبر الباب تمزّق أعصابه: *ترى من أمسكوا؟ أيمكن أن يكون آيداهو؟*

قال البارون: «صدّقني يا ابن العم العزيز، لا أريد للأمور أن تصل إلى هذا».

قال بايتر: «فكّر في أعصابك التي ستبعث رسائل استغاثة طلبًا لمساعدة لن تأتي. الأمر أقرب إلى الفن كما ترى».

تذمّر البارون: «وأنت فنّان بارع، الآن أرجو أن تُسمعنا سكاتك».

فجأة تذكّر ليتو اقتباسًا قاله جيرني هاليك ذات مرّة، عندما رأى صورة للبارون: «"ثم وقفت على رمل البحر، فرأيت وحشًا طالعًا من البحر له رؤوس عِدَّة... وعلى رؤوسه مكتوب كافر"[1]».

قال بايتر: «نحن نضيّع الوقت يا بارون».

– «ربّما».

ثم أومأ البارون وقال: «أنت تعلم أنك ستخبرنا في النهاية بمكانيهما يا عزيزي ليتو. عند درجة معيّنة من الألم ستنهار مقاومتك».

فكّر ليتو: *هو محقّ غالبًا، لولا وجود الضّرس... ولولا حقيقة أنني لا أعلم مكانهما.*

التقط البارون قطعة لحم وألقاها في فمه، وراح يلوكها ببطء، ثم بلعها وفكّر: *علينا أن نجرّب طريقة أخرى.*

قال البارون: «تأمّل هذا السبيّ الذي يأبى الخضوع. تأمّله جيّدًا يا بايتر».

---

(1) سفر الرؤيا، الإصحاح الثّالث عشر، آية 1 (بتصرُّف).

وفكَّر البارون: *أجل! تأمَّل هذا الرجل الذي يظنُّ أنه لا يمكن شراؤه. هذا الأسير الذي قُسِّمت روحه إلى ملايين الأسهم، وبيعت شيئًا فشيئًا على مدار كل ثانية من حياته! إذا رفعته وهززته الآن، فسيخشخش من الداخل، إذ لم يبق فيه شيء! إنه فارغ! نخر! أيُّ فرق سيحدثه موته الآن؟*

توقَّف الصَّوت الشبيه بنقيق الضفادع في الخلفية.

رأى البارون قائد حرسه عمان كودو يظهر عند مدخل الباب ويهزُّ رأسه. لم يُدل الأسير بالمعلومات المطلوبة. إخفاقٌ آخر. حان وقت إنهاء المماطلة مع هذا الدوق الأحمق. هذا الغبي المأفون الرخو لا يدرك حجم الجحيم التي سيصلى نارها، النار التي لا تفصله عنها سوى ملليمترات قليلة.

هدَّأت الخاطرة البارون، وتغلَّبت على إحجامه عن تعريض شخص نبيل إلى العذاب. تخيَّل نفسه فجأة جراحًا يجري عمليَّات تشريح لا حصر لها بمقصِّه، نازعًا الأقنعة عن الحمقى، كاشفًا الجحيم القابع تحتها.

أرانب، كلهم أرانب!

وكم ترتعد الأرانب حين ترى مفترسًا!

حدَّق ليتو إلى البارون من جانب الطاولة الآخر، متسائلًا ماذا ينتظر. سينهي الضرس كل شيء سريعًا. لقد عاش حياةً حافلةً، معظمها جيِّد. تذكَّر ليتو طائرةً ورقيَّةً تحلِّق في سماء كلادان الزرقاء، وپول يضحك جذلًا لرؤياها. ثم تذكَّر شروق الشمس هنا على أرَّاكس، وألوان منحدرات الجدار الحامي التي تنعِّمها غشاوة الغبار.

تمتم البارون: «خسارة». ثم دفع نفسه بعيدًا عن الطاولة، ووقف بخفَّة بفضل مضادَّات الجاذبية، ثم تردَّد للحظة حين

شاهد تغييرًا يطرأ على الدوق. رآه يسحب نفسًا عميقًا، ويتصلَّب فكَّه، وتبرز عضلاته وهو يعضُّ على نواجذه.

وفكَّر البارون: *كم يخشاني!*

مصعوقًا بالخوف من أن يفلت البارون منه، عضَّ ليتو بقوَّة على كبسولة الضِّرس، وشعر بها تتكسر، ثم فتح فمه ونفث البخار اللاذع الذي ذاق مرارته على لسانه. بدأ البارون يبهت ويتلاشى.. كأنه سراب. سمع ليتو شهقة بالقرب من أُذُنه صادرة عن پايتر، صاحب الصَّوت الناعم.

نلت منه أيضًا!

- «پايتر! ماذا يحدث؟».

كان الصَّوت الجهوري بعيدًا جدًا.

تسارعت الذكريات في عقل ليتو، حاملةً طابع تمتمات الشمطاوات الهُتم السَّابق. ثم انضغط كل شيءٍ من حوله -الحجرة، والطاولة، والبارون، والعينان الزرقاوان المذعورتان- في فوضى مُشوَّشة.

ها هو الرجل ذو الذقن الشبيه بمقدِّمة الحذاء يسقط كأنه دمية، وها هي أنف الرجل الدمية تتكسر وتميل إلى اليسار كأنها قضيب بندول علق إلى الأبد في بداية حركته. سمع ليتو تحطُّم الأواني الفخَّارية كأنها دويٌّ بعيدٌ في أُذُنيه. صار عقله سلَّةً عملاقة تلتقط كل شيءٍ في الوجود: كل صيحة، كل همسة، كل.. صمت.

بقيت معه فكرة واحدة، رآها ليتو مجسَّدة بلا هيئة على ضوء أشعةٍ سوداء: *الظروف تشكِّل المرء، والمرء يشكِّل الظروف. أنت حصادُ ما تزرع.* ملأت الفكرة نفسه بشعور من الاكتمال عجز عن تفسيره.

ثم ساد الصَّمت.

وقف البارون مسندًا ظهره إلى باب منفذ الهروب الذي استخدمه للفرار وأغلقه بقوَّة من خلفه على غرفة ملأى بالقتلى. شعر بالحرس يحيطون به، وسأل نفسه: *هل تنفَّسته؟ هل أصابني هذا الغاز أيًا كان كُنهه؟*

ثم عاد له سمعه، وصوابه. سمع شخصًا يصيح مصدرًا أوامر: «اجلبوا أقنعة الغاز.. أبقوا الباب مغلقًا.. شغِّلوا مراوح التهوية».

فكَّر البارون: *خرَّ الآخرون صرعى على الفور، لكنني ما زلت صامدًا، ما زلت حيًّا أتنفَّس. بحقِّ الجحيم! كم كان الأمر وشيكًا!*

استطاع الآن تحليل ما حدث. كان درعه يعمل وقتها، صحيح أنه كان مضبوطًا على أقل مستوى طاقة، لكنه كان كافيًا لإبطاء عملية التبادل الغازي الجزيئي على حدود حاجز الطاقة. كما أنه كان يدفع نفسه لحظتها بعيدًا عن الطاولة، أضف إلى هذا شهقة بايتر التي جعلت الحارس يركض نحوه ليذود عنه ملقيًا نفسه إلى التهلكة.

المصادفة وشهقة رجلٍ محتضر هما ما أنقذا حياته.

لم يشعر البارون بامتنان لبايتر. هذا الأحمق هو من أودى بنفسه للهلاك. وقائد الحرس الغبي ذاك! ألم يقل إنه فتَّش الجميع جيِّدًا قبل إحضارهم أمام البارون! كيف تسنَّى للدوق أن...؟ هكذا بلا أدنى تحذير، ولا حتَّى من كشَّاف السُّموم الموضوع على الطاولة، إلى أن فات الأوان. كيف؟

فكَّر البارون وقد بدأ يستعيد رباطة جأشه: *حسنًا، لا يهم هذا الآن، فأولى مهام قائد الحرس الجديد ستكون إيجاد أجوبة عن*

تلك الأسئلة.

صار أكثر انتباهًا إلى الحركة المحمومة في نهاية الرواق الممتدّ من باب حجرة الموت الآخر. دفع البارون نفسه بعيدًا عن بابه الخاص، وتأمَّل أتباعه الخانعين الملتفّين حوله، صامتين محدِّقين منتظرين ردَّة فعله.

هل سيغضب البارون؟

أدرك البارون أنه لم تمض سوى ثوانٍ معدودة منذ أن فرَّ من غرفة الموت المريعة تلك.

بعض الحرس كانوا يوجِّهون أسلحتهم نحو الباب، فيما وقف البعض الآخر في تحفُّزٍ شرس في وجه الرواق الخالي الممتد نحو مصدر الضوضاء عند الزاوية المنعطف الذي إلى يمينهم.

جاء رجلٌ يهرول من ذلك المنعطف، بقناع غاز متدلٍّ بأربطة من رقبته، وعيناه على كشَّافات السُّموم التي تمتدُّ بطول سقف الرواق فوق رؤوسهم. كان أشقر الشعر، بوجه مفلطح وعينين خضراوين، وخطوط نضرة تتشعَّب خارجةً من شفتيه الغليظتين. بدا كأنه مخلوق مائي خارج بيئته.

حملق البارون إلى الرجل المقترب، وتذكَّر اسمه: نيفود، آياكين نيفود. حارس برتبة أُنباشي. كان نيفود مدمنًا على السِموتا، وهو مزيجٍ من مخدِّر وموسيقى يؤثِّر في أعمق مستويات الوعي. تلك معلومةٌ مفيدة.

توقَّف الرجل أمام البارون وقدَّم إليه التحيَّة الرسمية: «الرواق آمن يا مولاي. كنت واقفًا أراقب بالخارج وأدركت أنه غازٌ سام. فتحات التهوية في غرفتك تسحب الهواء من هذه الممرَّات»، ثم رنا ببصره إلى كشَّاف السُّموم الذي يعلو رأس البارون وأردف: «لم

يتسرَّب شيءٌ من الغاز، وقد طهَّرنا الغرفة الآن. أوامرك؟».

ميَّز البارون صوت الرجل، إنه من سمعه يعطي الأوامر. *هذا الأُنباشي كفء*، هكذا فكَّر.

سأله البارون: «هل مات جميع من في الداخل؟».

- «أجل يا سيِّدي».

فكَّر البارون: *حسنًا، علينا التأقلم مع هذه المستجدَّات*.

قال: «في البداية، أحب أن أهنئك يا نيفود، فقد اخترتك لتكون قائد حرسي الشخصي الجديد، وأرجو أن تضع الدرس الذي يجب تعلُّمه من مصير سلفك نصب عينيك».

راقب البارون ملامح حارسه وهو يستوعب ما تعنيه ترقيته، فقد أدرك نيفود أنه لن يعوز السِموتا بعد الآن.

أومأ نيفود قائلًا: «مولاي يعرف أنني سأكرِّس نفسي بالكامل لسلامته».

- «أجل. حسنًا، والآن إلى العمل. أظن أن الدوق يضع شيئًا في فمه. أريدك أن تعرف كنه هذا الشيء، وكيف استخدمه، ومن ساعده في وضعه في مكانه. ستأخذ التدابير اللازمة كافة كي...».

ثم بتر عبارته عندما قطعت ضوضاء في الممرِّ من خلفه حبل أفكاره. كان الحرس الواقفون عند باب المصعد الصَّاعد من طوابق الفرقاطة السفلية يحاولون منع عقيد باشار طويل القامة خرج لتوِّه من المرور.

لم يتعرَّف البارون على وجه العقيد الباشار. كان نحيفًا، فمه كأنه شقٌّ في جلدٍ مدبوغ، وعيناه بقعتا حبر.

زأر الرجل وهو يدفع الحرَّاس جانبًا: «أبعدوا أيديكم عني يا آكلي الجيف!».

فكَّر البارون: آاه، *إنه واحد من السَّاردوكار.*

تقدَّم العقيد الباشار في خطوات واسعة نحو البارون الذي ضاقت عيناه خوفًا. يملؤه ضُبَّاط السَّاردوكار بالقلق ويقبضون قلبه، فجميعهم يبدون كأنهم أقارب الدوق (الدوق الراحل)، فضلًا عن تبجُّحهم وجرأتهم مع البارون!

وقف العقيد الباشار على بُعد نصف خطوة من البارون، واضعًا يديه في خصره، فيما راح الحرس يحومون من خلفه في حالة من القلق.

لاحظ البارون غياب التحيَّة، كما لاحظ الازدراء في سلوك السَّاردوكار، فازداد قلقه. لم يأت إلى الكوكب سوى فيلق واحد منهم (أي عشرة ألوية) لدعم فيالق الهراكنة، لكن البارون لم يخدع نفسه، فهذا الفيلق قادر تمامًا على الانقلاب على جيش الهراكنة بالكامل والتغلُّب عليه.

زمجر السَّاردوكار: «قُل لرجالك إنه لا يُسمح لهم بمنعي من مقابلتك يا بارون. لقد أتاك رجالي بالدوق الآتريديزي قبل أن يتسنَّى لي مناقشة مصيره معك. سنناقش هذا الأمر الآن».

فكَّر البارون: يجب *ألا أفقد ماء وجهي أمام رجالي.*

- «وبالتالي؟»، نطق البارون الكلمة ببرودة محسوبة، شاعرًا بالفخر من نفسه.

قال العقيد الباشار: «كلَّفني الإمبراطور بالتأكُّد من أن يموت قريبه النبيل بشكل لائق، ودون عذاب».

قال البارون كاذبًا: «هكذا أمرني أيضًا، هل ظننت أنني سأعصي أمره؟».

قال السَّاردوكار: «عليَّ إبلاغ الإمبراطور بما رأيته بأمِّ عيني».

ردَّ البارون بحدَّة: «لقي الدوق حتفه بالفعل»، وأشار بيده كي ينصرف الرجل.

ظلَّ العقيد الباشار واقفًا برسوخ في مكانه مواجهًا البارون، لم يهتزَّ له جفن ولم تتحرَّك فيه عضلة توحي بالاكتراث لكونه أُمِر بالانصراف.

فكَّر البارون: *أحقًّا؟! هذا تمادٍ!*

قال البارون: «مات بيده، إن كان لا بُدَّ أن تعرف. أخذ سُمًّا».

قال العقيد الباشار: «سأعاين الجثَّة الآن».

رفع البارون بصره إلى السقف في سخطٍ مصطنع، فيما تسابقت الأفكار في عقله: *اللعنة! هذا السَّاردوكار ثاقب النظر سيفحص الغرفة قبل تغيير أيِّ شيء!*

زمجر السَّاردوكار: «الآن! سأراها بأمِّ عيني».

أدرك البارون أن لا سبيل إلى منعه. سيرى السَّاردوكار كل شيء، وسيعرف أن الدوق قتل رجالًا من الهراكنة، وأن البارون هرب بأعجوبة. الأدلَّة موجودة في بقايا العشاء على الطاولة، وفي الدوق الميت على المقعد المقابل محاطًا بالرَّدى الذي تسبَّب فيه.

لا سبيل إلى منعه على الإطلاق.

زمجر السَّاردوكار: «لن أسمح بالتأجيل».

قال البارون: «لا أحد يؤجِّلك»، وحدَّق إلى عيني السَّاردوكار السوداوين بلون السَّبج. «أنا لا أخفي شيئًا عن إمبراطوري»، ثم أومأ إلى نيفود قائلًا: «ليرى العقيد الباشار كل شيء، في الحال. اصطحبه إلى الغرفة عبر الباب الذي كنت تحرسه يا نيفود».

قال نيفود: «اتبعني يا سيِّدي».

ببطء، وبغطرسةٍ وقحة، دار السارداوكار حول البارون، ثم شقَّ طريقه مارًّا من بين الحرس.

فكَّر البارون: *إنه لا يُطاق. الآن سيعرف الإمبراطور أيَّ هفوةٍ ارتكبت، وسيعدّها علامة ضعف.*

أزعجته معرفته أن الإمبراطور وساردوكاره متشابهان في ازدرائهما للضعف. عضَّ البارون شفته السفلى مواسيًا نفسه بأن الإمبراطور على الأقل لم يعلم بأمر الغارة التي شنَّها آل آتريديز على جيدي پرايم، وبتدميرهم مخازن الاسپايس هناك.

اللعنة على ذلك الدوق الدَّاعر!

راقب البارون ظهري الرجلين المبتعدين: السَّاردوكار المتغطرس، ونيفود الكفء القصير القوي البنية.

فكَّر البارون: *علينا التأقلم. سأضطر إلى تسليط رابان الباطش على هذا الكوكب اللعين مرَّة أخرى، بلا قيد أو رادع. سأضطر إلى التضحية بفردٍ تجري في عروقه دماء الهراكنة لتهيئة أرَّاكس لقبول فيد راوثا حاكمًا. اللعنة على ذلك المدعو پايتر الذي تسبَّب في مقتله قبل أن أقضي حاجتي منه!*

تنهَّد البارون.

يجب أن أرسل إلى كوكب تِليلاكس على الفور للحصول على منتات جديد. لا شك أن البديل المُعدَّ لي جاهزٌ لديهم الآن.

سعل أحد الحراس بجانبه.

التفت البارون نحو الرجل وقال: «أنا جائع».

- «أمرك يا مولاي».

دمدم البارون: «وأريد شيئًا يسلِّيني بينما تعملون على تنظيف تلك الغرفة وفحصها».

خفض الحارس عينيه وقال: «ما التسلية التي يرغب فيها مولاي؟».

قال البارون: «سأكون في حجرة نومي. أحضر لي ذاك الغلام الذي ابتعناه من جامونت، ذا العينين الجميلتين، وتأكَّد من تخديره جيِّدًا. فلست في مزاجٍ للمصارعة».

- «أمرك يا سيِّدي».

استدار البارون وبدأ يتحرَّك نحو حجرته بخطواتٍ واثبة تكاد تطفو بفعل مضادَّات الجاذبية، وفكَّر: *أجل، الغلام ذو العينين الجميلتين، الغلام الذي يشبه پول آتريديز الشاب بشدَّة.*

آهٍ يا بحار كلادان،
آهٍ يا رعية الدوق ليتو..
ها قد سقطت قلعة ليتو،
سقطت إلى الأبد.

من كتاب «أغاني المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

شعر پول أن ماضيه كله، وكل خبرة مرَّ بها قبل هذه الليلة، صارت رمالًا راكدةً في قاع ساعة رملية. كان يجلس بالقرب من أمِّه ضامًّا ركبتيه داخل خيمة صغيرة من القماش والبلاستيك: خيمة تقطير. لقد وجدا الخيمة -مثل ملابس الفرمِن التي يرتديانها الآن- في الحقيبة التي تركها أحدهم لهما في الثوبتر. لم يكن ينتاب عقل پول أدنى شك في هويَّة الشخص الذي وضع عُدَّة الفرمِن حيث وجداها، الشخص الذي وجَّه مسار الثوبتر التي حملتهما إلى هنا أسيرين بناءً على اقتراحه.

إنه يُويِ!

لقد سلَّمهما الطبيب الخائن إلى يد دانكن آيداهو مباشرةً.

حدَّق پول -عبر الجزء الشفَّاف في خيمة التقطير- إلى الصخور السابحة في ضياء القمر التي تطوِّق البقعة التي خبَّأهما آيداهو فيها.

فكَّر پول: *أختبئ كالأطفال وقد صرت الدوق*. شعر بمرارة الفكرة، لكنه لم يستطع إنكار حكمة ما فعلوه.

شيءٌ ما أصاب وعيه هذه الليلة، فقد استطاع أن يرى بوضوحٍ تام كل ظرف وكل حدث جرى من حوله. شعر بأنه غير قادر على كبح تدفُّق المعلومات الداخلي في ذهنه، أو التحكُّم في الدقَّة

البـاردة التـي تضـاف بهـا كل معلومـة جديـدة إلـى مجمـوع معارفـه، أو فـي معالجـة البيانـات المتمركـزة فـي وعيـه. هـذه قـدرات مِنتـات، بل مـا هـو أكثـر.

فكَّـر پـول فـي لحظـة الغضـب العاجـز الـذي مـرَّت بـه حيـن انقضَّـت الثوبتـر الغريبـة خارجـة دثـار الليـل، ماثلـةً كصقـرٍ عمـلاق فوق الصَّحـراء والريـاح تعـوي فـي أجنحتهـا. التغيُّـر الـذي طـرأ علـى عقـل پـول أصابـه وقتهـا. دارت الثوبتـر فـي الهـواء ثـم انزلقـت علـى الرمـال مقتربـة مـن الشـخصين الراكضيـن: هـو وأُمُّـه. تذكَّـر پـول كيـف شـملتهما رائحـة الكبريـت المحتـرق الناتجـة عـن احتـكاك مزلاجـي الثوبتـر بسـطح الرمـال.

فـي تلـك اللحظـة اسـتدارت أُمُّـه متوقِّعـةً أن تـرى مرتزقـة الهراكنـة وفـي أيديهـم بنـادق الليـزر، لكنهـا بـدلًا مـن ذلـك رأت دانكـن آيداهـو يميـل بجسـده خـارج بـاب الثوبتـر المفتـوح ويصيـح: «أسـرعا! أرى علامـة دودة جنوبًـا».

لكـن پـول كان قـد تعـرَّف علـى هويَّـة قائـد الثوبتـر قبـل أن يسـتدير، مـن تفاصيـلَ دقيقـة لاحظهـا فـي طريقـة تحليقهـا وهبوطهـا المندفـع. تلـك التفاصيـل المتناهيـة فـي الصغـر -التـي لـم تلحظهـا أُمُّـه نفسـها- كشـفت لپـول هويـة الجالـس خلـف مقـود الثوبتـر قبـل أن يـراه.

تململـت چيسـيكا فـي جلسـتها المقابلـة لپـول داخـل خيمـة التقطيـر، وقالـت: «لا يُوجـد إلَّا تفسـير واحـد. لا بُـدَّ أن الهراكنـة كانـوا متحفِّظيـن علـى زوجـة يُـوي. الرجـل لـم يكـن يطيقهـم! لا يمكـن أن أكـون مخطئـة فـي هـذا الشـأن، وأنـت قـرأت رسـالته. ولكـن لمـاذا أنقذنـا مـن هـذه المذبحـة؟».

فكَّر پول: *إنها لم تفهم الأمر إلَّا الآن، وبالكاد*. صدمته الفكرة، إذ كان قد أدرك ما حدث بالكامل في اللحظة التي قرأ فيها الورقة المصاحبة لخاتم الدوقية التي وجداها في الحقيبة.

كتب يُوي يقول: «لا تحاولا أن تسامحاني، لا أريد مسامحتكما، فلديَّ ما يكفي من هموم. لقد ارتكبت ما ارتكبت بلا ضغينة أو أمل في تفهُّم الآخرين. إنه تحدِّي البرهان* الخاص بي، اختباري الأخير. مُرفق طيُّه خاتم الدوقية الآتريديزي دليلًا على صدق ما أكتب. عندما تقرآن هذه الرسالة، سيكون الدوق ليتو ميِّتًا. عزاؤكما الوحيد هو أنه لم يمت وحده، بل مات معه ذلك الذي نكرهه فوق الجميع».

لم تُخاطب الرسالة شخصًا باسمه، أو تُذيَّل بتوقيع، لكن لم يكن يمكن إخطاء هذا الخطِّ المألوف: خطُّ يُوي.

بتذكُّره الرسالة، استعاد پول ألم تلك اللحظة: كان ألمًا حادًّا وغريبًا بدا أنه يحدث خارج يقظته العقلية الجديدة. لقد قرأ خبر موت أبيه، واستبين الصدق في الكلمات، لكنها لم تكن أكثر من مجرَّد معلومة أخرى يُسجِّلها ذهنه لاستخدامها وقت الحاجة.

فكَّر پول: *لقد أحببت أبي*، وكان واثقًا بذلك تمام الثقة. *يُفترض أن أبكيه، يُفترض أن أشعر بشيء*.

لكنه لم يشعر بشيء سوى: *إنها معلومة مهمَّة*.

مجرَّد معلومة مهمَّة ضمن المعلومات الأخرى.

كان عقله مشغولًا طوال الوقت بالاستقراء، وبإضافة الانطباعات الحسِّية، وبمعالجة البيانات.

تذكَّر پول كلمات هاليك: «*يقاتل المرء عند الضرورة، مهما كان مزاجه! المزاج يكون لأمور الماشية أو لممارسة الحب أو للعزف على الباليسِت، لا للقتال!*».

وفكَّر پول: *رُبَّما هذا هو بيت القصيد. سأحزن على ابي لاحقًا، عندما يسمح الوقت بذلك.*

لكنه لم يشعر بأيٍّ لينٍ أو أناةٍ في الجمود الذي يسيطر على كيانه، بل على العكس شعر بأن وعيه الجديد ما زال في مهده، وبأنه سينمو. تغلغل الشعور بالغاية الرهيبة التي اختبرها لأول مرَّة في محنته مع الأمِّ الموقَّرة موهيم في أوصاله، وبدأت يده اليمنى -اليد التي تتذكَّر الألم- تنبض وتوخزه.

وتساءل: *أهذا ما يعنيه أن يكون المرء الكويزاتس هاديراك؟*

قالت چيسيكا: «لوهلة ظننت أن حوَّاط خذلنا مجدَّدًا، وأن يُوي رُبَّما لم يكن طبيبًا من كُلِّية سوك».

قال پول: «لقد كان كما عرفناه بالضبط، بل وأكثر»، وفكَّر: *لِمَ تستوعب الأمور بهذا البطء؟* ثم أردف: «لو لم ينجح آيداهو في الوصول إلى كاينز، لكنا...».

قاطعته قائلة: «إنه ليس أملنا الوحيد».

قال: «لم يكن هذا ما أرمي إليه».

سمعت صلابة الفولاذ في صوته، ونبرته الحازمة، فحدَّقت إليه عبر الظلام الرمادي في خيمة التقطير. بدا پول كصورة ظلِّية على خلفية الصخور الفضِّية العاكسة لضياء القمر التي تراها عبر الجزء الشفَّاف من الخيمة.

قالت: «لا بُدَّ أن آخرين من رجال أبيك قد هربوا. علينا أن نعيد تجميعهم، وإيجاد...».

قاطعها قائلًا: «سنعتمد على أنفسنا. الأولوية الآن هي الوصول إلى أسلحتنا الذرِّية قبل أن يعثر عليها الهراكنة».

قالت: «من المستبعد العثور عليها بعد الطريقة التي أُخفيت بها».

- «لا يجب ترك الأمر للمصادفة».

فكَّرت چيسيكا: *إنه يفكِّر في التهديد بتدمير الكوكب بما يحويه من اسپايس باستخدام أسلحتنا الذرِّية. لكنه سيعيش حياته هاربًا إن فعل ذلك، لا يأمل إلّا الإبقاء على هويّته المنشقّة مُخفاة.*

جذبت كلمات أُمِّه طرف خيط أفكار جديد في عقل پول، وانتابه شعور جسيم بالمسؤولية جدير بدوق تجاه الرجال الذين قُتلوا الليلة. فكَّر پول: *الناس هم عماد أيّ عائلة نبيلة*، ثم تذكَّر كلمات حوَّاط: *«ما الحُزن إلّا في فراق الأصدقاء، أما الأماكن فمجرَّد أماكن».*

قالت چيسيكا: «إنهم يستعينون بالسَّاردوكار. علينا الانتظار إلى أن ينسحب السَّاردوكار».

قال پول: «يظنون أننا محاصران بين الصَّحراء من جهة والسَّاردوكار من جهة. إنهم يعتزمون عدم نجاة أحد من آل آتريديز: هذه إبادة تامَّة. لا تعوِّلي على هروب أيٍّ من رجالنا».

- «لا يمكنهم الاستمرار في حملتهم إلى الأبد مخاطرين بفضح تورُّط الإمبراطور».

- «أحقًّا؟».

- «لا شك في أن بعض رجالنا سيهربون».

- «أحقًّا؟».

أشاحت چيسيكا بوجهها وقد اعتراها خوفٌ من القوَّة المريرة البادية في صوت ابنها، وميَّزت فيها تقييمه الصَّارم لكل

الاحتمالات. شعرت بأن عقله وثب وثبة تجاوز بها عقلها، وأنه صار يرى أبعد منها في بعض النواحي. لقد ساعدت في إذكاء نيران هذا العقل، لكنه الآن يخيفها. حصرت جيسيكا تفكيرها في الملاذ الآمن الضائع الذي كانت تجده في الدوق، فحرقت الدموع عينيها.

وفكَّرت: *على هذا جُبِلت الدنيا يا ليتو: يوم حُب ويوم كرب.* ثم أراحت يدها على بطنها، وركَّزت تفكيرها على الجنين الكائن فيها. *أحمل في أحشائي الابنة الآتريديزية التي أُمِرتُ بإنجابها، لكن الأُمّ الموقَّرة كانت مخطئة: لم تكن الابنة لتنقذ حبيبي ليتو. هذه الطفلة مجرَّد روح تمدُّ يدًا إلى المستقبل في خضم المنون. لقد حملت بها بدافع الغريزة وليس من باب الطاعة.*

قال بول: «جرِّبي الاتِّصال بالشبكة ثانيًا».

فكَّرت: *عقله لا ينفك عن العمل بغض النظر عن محاولاتنا لكبح جماحه.*

أمسكت جيسيكا جهاز الاستقبال الصغير الذي تركه آيداهو لهما، وأدارت مفتاحه. أنار ضوءٌ أخضر على واجهة الجهاز، وانبعث تشويش استاتيكي من السمَّاعة. خفضت الصَّوت، وأدارت المؤشِّر بحثًا عن الترددُّات. علا صوتٌ يتحدَّث بلغة المعارك الآتريديزية في الخيمة.

- «... تراجعوا وأعيدوا تنظيم الصفوف عند السفح. أفاد فيدور بعدم وجود ناجين في قرطاج وبأن بنك النقابة نُهِب».

فكَّرت جيسيكا: *قرطاج! إنها أحد معاقل الهراكنة.*

قال الصَّوت: «إنهم من السَّاردوكار. انتبهوا لجنود السَّاردوكار المتنكِّرين في الزيِّ الآتريديزي. إنهم...».

ارتفعت ضجيج صاخب من السمّاعة، ثم ساد الصّمت.

قال پول: «جرِّبي التردُّدات الأخرى».

سألته چيسيكا: «هل تدرك معنى هذا؟».

- «توقَّعت الأمر. يريدون أن تلومنا نقابة الفضاء على تدمير بنكهم، وإذا انقلبت النقابة ضدَّنا، نكون قد حُوصرنا على أرَّاكس. جرِّبي التردُّدات الأخرى».

تأمَّلت كلماته: توقَّعت *الأمر*. ماذا أصابه يا تُرى؟ ببطء، عادت چيسيكا إلى الجهاز وراحت تحرِّك مؤشِّر التردُّدات فالتقطا شذراتٍ من أحداث العنف الجارية من الأصوات القليلة التي تصرخ بلغة المعارك الآتريديزية. «... تراجعوا...»، «... حاولوا إعادة تنظيم الصفوف عند...»، «... محاصرون في الكهف...».

لم يكن من الصعب تمييز نبرة الابتهاج بالنصر في رطانة الهراكنة المتدفِّقة من التردُّدات الأخرى: أوامر صارمة محدَّدة، وتقارير عن المعارك. لم تسمع چيسيكا ما يكفي لتحليل اللغة وفك شيفرتها، لكن النبرة كانت واضحة كضوء الشمس.

الهراكنة انتصروا.

أمسك پول الحقيبة الملقاة إلى جواره وهزَّها، فسمع قرقرة الماء في جرَّتي الماء اللتريَّتين. أخذ نفسًا عميقًا، ونظر عبر الجزء الشفَّاف من الخيمة إلى الجرف الصخري الجاثم أمام خلفية النجوم. تحسَّست يده السُّرَّة العاصرة المشدودة التي تغلق المدخل وقال: «أوشك الفجر على البزوغ. بإمكاننا انتظار آيداهو طوال النهار، ولكن ليس لليلةٍ أخرى. في الصَّحراء، يجب أن يسافر المرء ليلًا، وأن يستريحَ في الظِّل خلال النهار».

تذكَّرت چيسيكا ما اكتسبته من المعرفة المتناقلة هنا: *من دون بذلة التقطير، يحتاج الشخص الجالس في الظل في الصَّحراء*

إلى خمسة لترات من الماء يوميًا ليمارس حياته الطبيعية. شعرت بملمس جلد البذلة الناعم على جسدها، وفكَّرت في حقيقة اعتماد حياتيهما على هذه الملابس.

قالت: «لو تركنا هذا المكان، لن يجدنا آيداهو أبدًا».

قال: «ثمَّة أساليب تعذيب قادرة على جعل أيِّ رجلٍ يتحدَّث. إن لم يعد آيداهو بحلول الفجر، علينا أن نأخذ في حسباننا احتمال وقوعه في الأسر. إلى متى سيصمد في رأيك؟».

لم يحتجِ السؤال إلى جواب، لذا التزمت الصَّمت.

فكَّ پول حزام الحقيبة، وأخرج منها دليلًا صغيرًا مرفق به علامة تبويب مضيئة وعدسة مكبِّرة. وعلى صفحاته، تألَّقت كلمات خضراء وبرتقالية مضيئة: «الجرَّات اللتريَّة، خيمة التقطير، أقراص الطاقة، أنابيب القسطرة، منشاق الرمال، المناظير، حقيبة لوازم خيمة التقطير، مسدَّس باراداي، خارطة التضاريس، سدَّادات المرشِّحات، البوصلة الپاراوية، خطاطيف الصَّانعة، المطارِق، عُدَّة الفرمِن، عمود النار...».

أشياء كثيرة يتطلَّبها البقاء على قيد الحياة في الصَّحراء.

ثم وضع الدليل جانبًا على أرضية الخيمة.

سألته چيسيكا: «إلى أين سنذهب؟».

قال پول: «تحدَّث أبي عن قوَّة الصَّحراء، التي من دونها لن يستطيع الهراكنة فرض سيطرتهم على الكوكب. إنهم لم يحكموا هذا الكوكب في السابق، ولن يحكموه أبدًا، حتَّى لو استعانوا بعشرة آلاف فيلق من السَّاردوكار».

- «پول، أنت لا تظن أن...».

قاطعها قائلًا: «الأدلّة بين أيدينا هنا في هذه الخيمة. الحقيبة ومحتوياتها، بذلات التقطير، بل والخيمة نفسها. نعلم أن النقابة تطلب سعرًا باهظًا مقابل أقمار التحكُّم في الطقس، نعلم أن...».

قاطعته سائلةً: «ما علاقة أقمار التحكُّم في الطقس بالأمر؟ لا يمكنهم أن...»، ثم بترت عبارتها.

شعر پول بفرط نشاط عقله وهو يقرأ ردَّة فعلها، ويحسب أدقَّ تفاصيلها، ثم قال: «الآن فهمتِ. الأقمار الصناعية تراقب تضاريس الكوكب، وفي أعماق الصَّحراء يعيش من لا يتحمَّل المراقبة المستمرَّة».

- «هل تقصد أن النقابة نفسها تتحكَّم في هذا الكوكب؟».

كان فهمها بطيئًا جدًا.

قال: «كلَّا! بل الفرمن! إنهم يدفعون الرُّشى للنقابة مقابل الحفاظ على خصوصيَّتهم، ويدفعون تلك الرُّشى بعملة الاسپايس المتاحة مجَّانًا لأيِّ شخص يمتلك قوَّة الصَّحراء. هذا ليس مجرَّد تخمين ثانوي، بل عملية حسابية قاطعة. يمكنك الاعتماد على ما أقول».

قالت چيسيكا: «لم تصبح مِنتاتًا بعد يا پول، لا يمكنك الجزم أن...».

قاطعها قائلًا: «ولن أصبح مِنتاتًا أبدًا. أنا شيءٌ مختلف... أنا مسخ».

- «پول! كيف تجرؤ على قول مثل...».

قاطعها صائحًا: «دعيني وشأني!».

ثم أشاح بوجهه بعيدًا، محملقًا في الليل الفضِّي الأديم في الخارج.

وسأل نفسه: *لِمَ يجافيني الحزن هكذا؟* كان يشعر بأن كل خلية في جسده تتوق إلى راحة البُكاء، لكنه عرف أنه حُرِم منه إلى الأبد.

لم تسمع چيسيكا مثل هذا الضيق في صوت ابنها من قبل. أرادت أن تربِّت على كتفه وتطوِّقه بذراعيها، أن تهوِّن عليه وتقدِّم إليه يد المساعدة، لكنها شعرت بأنها لا تملك من أمره شيئًا، وأن هذه مسألة عليه أن يحلها بنفسه.

لفتت انتباهها علامة التبويب المضيئة في دليل الفرمِن الملقى على أرضية الخيمة بينهما، فالتقطته، وألقت نظرة إلى غلافه، وبدأت تقرأ: «دليل الصَّحراء الرحبة، الأرض الملأى بأشكال الحياة. هنا آيات* وبراهين* الحياة. آمن بها ولن تحرقك اللات أبدًا».

فكَّرت چيسيكا وهي تسترجع دراساتها القديمة عن «الأسرار العظيمة»: *يبدو أشبه بكتاب الأزهر* . *تُرى، هل زارت واحدة من البِني چيسيرِت المتلاعبات بالمعتقدات كوكب أرَّاكس في الماضي؟*

أخرج پول البوصلة الپاراوية من الحقيبة، ثم أعادها وقال: «تأمَّلي كل هذه الآلات الفرمنية ذات الاستعمالات الخاصَّة. كلها تدلُّ على مستوى من التطوُّر لا نظير له، لا يسعك معه سوى الاعتراف بأن الحضارة التي صنعتها لها جذور عميقة لم تكن في حسبان أحد».

بتردُّدٍ، وباستمرار قلقها من نبرة القسوة في صوته، عادت چيسيكا تتصفَّح الكتاب، وتأمَّلت رسمةً تُظهر إحدى الكوكبات النجمية البادية في سماء أرَّاكس: كوكبة «الفأر المؤدِّب»، ولاحظت كيف أن الذيل يشير إلى الشمال.

عبر ظلام الخيمة، رصد پول حركات أُمِّه في الضوء الخافت المنبعث من علامة التبويب المضيئة، وفكَّر: *حان وقت تنفيذ رغبة أبي. يجدر بي إبلاغها برسالته الآن وهي تملك الوقت للحداد، فالحزن سيكون أمامنا عقبة لاحقًا.*

قال پول: «أُمِّي».

- «نعم؟».

سمعت التغيُّر في نبرة صوته، وتقلَّصت أحشاؤها من نبرته الجديدة. لم يسبق لها أن سمعت مثل هذا الجمود القاسي.

قال لها: «لقد مات أبي».

فتَّشت في نفسها عن مهارة الربط بين الحقائق (على طريقة البِني چيسيرِت في تقييم البيانات)، ثم هبط عليها بغتةً شعورٌ مريع بالفقد.

هزَّت چيسيكا رأسها، عاجزة عن الكلام.

قال پول: «كلَّفني أبي أن أبلغك برسالة في حال أصابه أيُّ مكروه. كان يخشى أن تصدِّقي أنه لم يكن يثق بك».

فكَّرت: *تلك الشُّبهة الباطلة التي أحاطت بي.*

- «أرادك أن تعرفي أنه لم يشك فيك قط»، قالها پول ثم أضاف شارحًا ما كان من خداع: «أرادك أن تعرفي أنه لطالما وثق بك تمام الثقة، وأنه لطالما أحبَّك وتعلَّق بك. قال إنه قد يشك في نفسه قبل أن يشك فيك، وإنه لم يندم إلَّا على أنه لم يتزوَّج بك، ولم يجعلك دوقته بصفة رسمية».

مسحت چيسيكا الدموع التي سالت على وجنتيها، وفكَّرت: *يا له من إهدار سفيه لماء الجسد!* لكنها علمت أن ما هذه الخاطرة إلَّا محاولة للتملُّص من براثن المرارة باستدعاء الغضب. وفكَّرت:

آهٍ يا ليتو، آهٍ يا حبيبي ليتو. يا للأشياء المريعة التي نرتكبها في حق من نحب! ثم بحركة عنيفة، أطفأت ضوء علامة تبويب الدليل الصغيرة.

وراح جسدها يرتجف من البكاء.

سمع پول نشيج أُمِّه وتألُّمها، وشعر بالفراغ الهائل في صدره. *لِمَ لا أبكي؟ لِمَ؟!*

رأى پول في عجزه عن البكاء عيبًا فظيعًا فيه.

فكَّرت چيسيكا مذكِّرةً نفسها بكلمات الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي: «*للكسب وقت وللفقد وقت. للوصل وقت وللقطع وقت. للحرب وقت وللسلم وقت*».

واصل عقل پول اتِّقاده المحموم المجرَّد من المشاعر. رأى پول السبل المتشعِّبة أمامهم على هذا الكوكب المُعادي، ودون أن يأخذ في اعتباره أن ما يراه رُبَّما يكون محض أحلام يقظة، ركَّز وعيه المستبصر الجديد، وأدرك أن الرؤى التي تراوده هي إحاطة مسبقة بالاحتمالات المستقبلية الأكثر ترجيحًا، لكن مع شيء إضافي، شيء يكتنفه غموض: كأن عقله انغمس في نهر الزمن، وراح يجمع نفحات من رياح المستقبل.

ثم بغتةً، كما لو أنه وجد مفتاحًا ضروريًا، ارتقى پول إلى مستوى أعلى من الوعي، وشعر بنفسه يتشبَّث بهذا المستوى الجديد، متمسِّكًا بحافَّةٍ متداعيةٍ يختلس منها النظر. بدا الأمر كما لو أنه داخل كرة تتشعَّب منها الطرق في الاتِّجاهات شتَّى، ولكن هذا لم يكن إلَّا تشبيهًا لتقريب شعوره إلى الأذهان.

تذكَّر پول أنه رأى ذات يوم منديلًا يتمايل بلا هدي في مهبِّ الريح، والآن شعر بالمستقبل كأنه مسار يلتوي على سطحٍ ما

متموِّج وغير ثابت، كذلك المنديل الذي كانت الريح تتلاعب به.

رأى بشرًا بأعدادٍ غفيرة.

وشعر ببرودة وحرارة الاحتمالات غير المحسوبة تجمِّده وتلفحه.

عَرفَ أسماء وأماكن، واختبر مشاعر لا حصر لها، وراجع بياناتٍ من شقوقٍ مظلمة مجهولة إن تُعد لا تُحصى. كان أمامه مُتَّسعٌ من الوقت للاستكشاف وللاختبار وللتذوُّق، ولكن لم يكن أمامه مُتَّسعٌ لتشكيل الدرب.

كان عالقًا في خضم طيف واسع من الاحتمالات: من الماضي السحيق الموغل في القدم إلى المستقبل البعيد المترامي الأطراف، من أكثر الأمور احتمالًا إلى أقلِّها احتمالًا. شاهد موته بأساليب لا حصر لها، ورأى كواكبَ جديدة، وحضاراتٍ جديدة.

وبشرًا!

بشرًا!

رآهم بحشودٍ غفيرة كمداد البحر، ومع ذلك صنَّفهم عقله وسجَّلهم في لوحٍ محفوظ.

لم يستثنِ منهم أحدًا، ولا حتَّى ملَّاحي النقابة.

وفكَّر: *النقابة قد تكون فرصة لنا. سيتقبَّلون غرابتي وسينظرون إليها على أنها أمرٌ مألوف وذو قيمة عالية، وبذلك سأضمن إمدادًا مضمونًا لا ينقطع من الاسپايس، الذي صار ضروريًا لي الآن.*

أفزعته فكرة أن يتحوَّل ليصير ملَّاحًا نقابيًا، ويقضي عمره في إرشاد سُفن الفضاء بعقله، متلمِّسًا الطريق بين احتمالات المستقبل. على أيِّ حال، ليس هذا إلَّا دربًا واحدًا من دروبٍ كثيرة متاحة. لكنه حين رأى هذا المستقبل المحتمل الذي يصير فيه

أحد ملَّاحي النقابة، أدرك پول غرابته الخاصة.

بصيرتي مختلفة عن بصيرة ملَّاحي النقابة. إنني أبصر أراضيَ أخرى لا يبصرونها: إنني أرى المسارات المتاحة.

بثَّت فيه الفكرة الطمأنينة والانزعاج على حدٍّ سواء، فأماكن كثيرة في تلك الأراضي الأخرى تغوص أو تلتوي بعيدًا عن نظره.

تلاشى الإحساس سريعًا كما جاء، وأدرك أن التجربة برمَّتها لم تستغرق أكثر من نبضة قلبٍ واحدة.

ومع ذلك كانت كفيلة بقلب وعيه، وتركه متَّقدًا بطريقة مرعبة. حدَّق پول إلى ما حوله. ما زال الليل يسربل الخيمة في مخبئها وسط الصخور. ما زال بكاء أُمِّه مسموعًا. ما زال افتقاره إلى الحزن ملموسًا. ما زال ذلك الجزء الغائر المنفصل من عقله يواصل عمله بوتيرة ثابتة: يحلِّل البيانات، ويحسبها، ويقيِّمها، ويسلِّمه الأجوبة كما يفعل عقل المنتات.

علم أنه صار يملك ثروة من البيانات لم تتح إلَّا لحفنة من العقول من قبل، لكن هذه المعرفة الجديدة لم تجعل الخواء الذي يسكن روحه أقل احتمالًا. شعر بأن شيئًا فيه سيتحطَّم لا محالة، كأن آلية عمل قنبلة موقوتة بدأت تتكتك بداخله، مواصلة عملها دون مراعاةٍ أو اعتبارٍ لرغبته، تسجِّل كل اختلاف، وكل شاردة وواردة من حوله: التغيُّر الطفيف في الرطوبة، الانخفاض الجزئي في درجة الحرارة، حركة حشرة على سقف خيمة التقطير، انبلاج الفجر عبر رقعة السماء الموشية بالنجوم التي يراها عبر الجزء الشفَّاف من خيمة التقطير.

كان الخواء لا يُحتمل، ولم يُحدث علمه ببدء العد التنازلي بداخله فارقًا يُذكر. استطاع أن ينظر إلى ماضيه ويشهد بداياته:

التدريب الذي تلقّاه، وشحذ مواهبه، وضغوط دراسة فروع المعرفة المعقّدة، بل وحتّى اطّلاعه على الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي في مرحلة حرجة من حياته. وفوق كل هذا، كمّية الاسپايس الهائلة التي تعرّض لها. كما استطاع أن يتطلّع إلى المستقبل -وهو الاتجاه الأكثر ترويعًا- ويرى إلى أين سيقود كل هذا.

فكّر پول: *أنا وحش! أنا مسخ!*

ثم راح يكرّر: «لا لا! لا لا!».

واكتشف أنه يضرب أرضية الخيمة بقبضتيه (سجّل الجزء العنيد فيه هذا السلوك باعتباره مُدخلًا عاطفيًا مثيرًا للاهتمام، وضمّه إلى تحليله).

كانت أمُّه إلى جواره، فأمسكت يديه محدّقةً إليه بوجهٍ رماديٍّ شاحب: «پول، ما بك؟».

صاح: «أنتِ!».

قالت: «أنا هنا يا پول. هوّن عليك».

سألها: «ماذا فعلتِ بي؟».

فجأة انقشعت الغشاوة، وفهمت بوضوح المعنى العميق المضمر في سؤاله، فقالت: «أنجبتك».

أدركت بغريزتها وبحصيلتها المعرفية أن هذه هي الإجابة المثلى التي ستفلح في تهدئته. شعر پول بيديها تضمّان يديه، وركّز على ملامح وجهها المعتمة (وبعقله المتّقد الذي لا يهدأ، رأى تفاصيل معيّنة في بنية وجهها بطريقة جديدة، وأضافها إلى المعلومات الأخرى، وتوصّل إلى نتيجة نهائية).

قال لها: «أفلتيني».

سمعت صلابة الحديد في صوته، فأطاعته: «هل ستخبرني بما بك يا پول؟».

سألها: «هل كنت تعلمين بما سأتحوَّل إليه عندما درَّبتِني؟».

فكَّرت چيسيكا: *لم يعد في صوته أثر طفولة*، ثم قالت: «تمنَّيت ما تتمنَّاه أيُّ أُمٍّ، تمنَّيت أن تكون... متفوِّقًا، مختلفًا».

- «مختلفًا؟».

سمعت ما في صوته من مرارة، فقالت: «پول، أنا...».

قاطعها قائلًا: «لم تريدي ابنًا! بل أردتِ الكويزاتس هاديراك! أردتِ إنجاب طفل ذكر للبني چيسيرِت».

نفرت من مرير كلامه، وقالت: «ولكن يا پول...».

- «هل استشرتِ أبي في هذا الأمر؟».

قالت چيسيكا برقَّة نابعة من جِدَّة حزنها: «أيًّا كانت ماهيتك يا پول، فقد ورثت من أبيك قدر ما ورثته مني».

قال: «لكنني لم أرث منه التدريب الذي تلقَّيته، ولا الأشياء التي.. أيقظت.. النائم؟».

- «النائم؟».

أشار إلى رأسه وقال: «إنه هنا»، ثم إلى صدره: «وهنا. إنه لا يهدأ ولا يتوقَّف، لا يكل ولا يمل، لا يكل ولا...».

صرخت فيه: «پول!».

بعد أن سمعت الهِستيريا في صوته.

قال لها: «أصغي إليَّ، لقد أردتِ مني أن أحكي للأُمِّ الموقَّرة عن أحلامي، الآن أنصتي أنتِ بالنيابة عنها. لقد رأيت حُلم يقظة لتوِّي، أتعرفين السبب؟».

قالت: «هدِّئ من روعك، إن كان هناك...».

- «الاسپايس هو السبب. إنه في كل شيءٍ هنا: في الهواء، وفي التربة، وفي الطعام... الاسپايس المُعمِّر. إنه أشبه بالعقار الذي تتعاطاه عرَّافات الحقيقة. إنه سُمٌّ زعاف!».

تصلَّبت چيسيكا في جلستها.

خفض پول صوته وكرَّر: «إنه سُمٌّ غير ملحوظ، شديد الخُبث، لا شفاء منه. إنه لن يقتلك ما لم تتوقَّفي عن تناوله. لا يمكننا الرحيل عن أرَّاكس إلَّا لو أخذنا قطعة من أرَّاكس معنا».

كان لصوته «حضور» مرعب لم يسمح بأيِّ جدالٍ معه.

قال پول: «أنا نتاجك أنتِ والاسپايس. الاسپايس يغيِّر أيَّ شخصٍ يتعرَّض لكمِّيات كبيرة منه كهذه، ولكن بفضلك أنتِ، استطعت أنا إخراج هذا التغيير إلى نطاق وعي. لم يكن بإمكاني تركه في غياهب اللا وعي حيث أستطيع تجاهله وتناسي وسوسته، فأنا أراه رُؤى العين».

- «پول، أنت...».

كرَّر پول مقاطعًا: «أقول لكِ أراه!».

سمعت چيسيكا نبرة الجنون في صوته، ولم تعرف كيف تتصرَّف.

لكنه تحدَّث مجدَّدًا، وسمعت في صوته عودة تحكُّمه الحديدي في نفسه: «نحن عالقان هنا».

وافقته الرأي: *نحن عالقان هنا.*

وتقبَّلت الحقيقة البادية في كلماته. لن ينجح شيء في تحريرهما بالكامل من قبضة أرَّاكس: لا خدعة ولا حيلة ولا إلحاح من البِني چيسيرِت. الاسپايس مادَّة تسبِّب الإدمان الشديد، لقد علم جسدها هذه الحقيقة قبل أن يعيها عقلها بوقتٍ طويل.

فكَّرت چيسيكا: *سنعيش ونموت هنا إذًا، على هذا الكوكب الجحيمي. المكان مهيَّأ لنا، فقط إذا استطعنا تجنُّب الهراكنة. ولن يشك أحدٌ في مسعاي: فلستُ إلَّا حاضنة تحافظ على سلالة مهمة لخطة البِني چيسيرِت.*

قال پول: «يجب أن أخبرك عن حلم اليقظة»، (كان صوته يكتسي بالغضب الآن): «وللتأكّد من أنك تصدِّقين ما أقول، سأقول لك في البداية أنني أعلم أنكِ ستنجبين ابنة، أختي، هنا على أرّاكس».

وضعت چيسيكا يديها على أرض الخيمة، وتراجعت إلى الخلف لاصقةً ظهرها بنسيجها المنحني لمحاولة إلانة قبضة خوفٍ اعتصرت قلبها. كانت متأكّدة من أن حملها لم يظهر عليها بعد، وأن تدريب البِني چيسيرت وحده هو الذي سمح لها بقراءة إشارات جسدها الأوَّلية الخافتة، ومكَّنها من معرفة أمر الجنين الذي لم تزد سنُّه على بضعة أسابيع.

همست چيسيكا معتصمةً بشعار البِني چيسيرت: «فقط لنخدم، ما وُجِدنا في الحياة إلا لنخدم».

قال پول: «سيكون لنا موطن بين الفرمِن، حيث أعدَّت مبشِّراتكم الحاميات ملاذًا آمنًا لنا».

قالت چيسيكا لنفسها: *لقد مهَّد طريقًا لنا في الصَّحراء، لكن أنَّى له أن يعرف بأمر المبشِّرات الحاميات؟*

وجدت صعوبة متزايدة في قمع رعبها من الغرابة التي تستحوذ على پول.

تأمَّل پول ظلَّها الداكن، ورأى بوعيه الجديد خوفها وكل ردود أفعالها كأن ضوءًا ساطعًا مسلَّطٌ عليها، وبدأ يطغى عليه شعورٌ بالشفقة تجاهها والتعاطف معها.

ثم قال: «أعجز عن وصف الأمور التي يمكن أن تحدث هنا لك، بل أعجز حتَّى عن وصفها لنفسي، على الرغم من أنني رأيتها. يبدو أنني لا أملك سيطرةً على قدرة تبصُّر المستقبل هذه. إنها تحدث من تلقاء نفسها. أستطيع رؤية المستقبل القريب

-الذي يمد نحو السنة- كأنه طريقٌ واسع، كأنه الجادَّة الوسطى على كلادان. بعض الأماكن لا أراها.. أماكن مظلمة.. كأنها تتوارى خلف تلَّة»، (ومن جديد تذكَّر المنديل المتطاير في مهبِّ الريح)، «... وتوجد تفرُّعات...».

ثم سكت عن الكلام عندما ملأته ذكرى تلك الرؤية. لا حُلمٌ متبصِّر ولا خبرة حياتيه هيَّأته للحظة الوعي الشامل تلك التي تمزَّقت فيها الحُجُب والأستار كاشفة عن الزَّمن المجرَّد خلفها.

بتذكُّره التجربة، أقرَّ پول بغايته الرهيبة: الضغوط التي ستفرضها حياته ستتمدَّد كأنها فقَّاعة منتفخة، وسيتراجع الزمن أمامها.

وجدت چيسيكا زرَّ التحكُّم في إضاءة الخيمة، وضغطته.

بدَّدت الإضاءة الخضراء الخافتة ظلام الخيمة، وبدَّدت معها مخاوفها. نظرت چيسيكا إلى وجه پول، وإلى عينيه، ولاحظت نظرتهما الداخلية التي تفتِّش في أعماقه، ثم أدركت أين رأت مثل هذه النظرة من قبل: رأتها في الصور التي توثِّق الكوارث، في وجوه الأطفال الذين عاصروا المجاعات أو تعرَّضوا لإصابات بالغة. كانت عيناه حُفرتين بلا قرار، أمَّا فمه فمزموم في خطٍّ مستقيم، ووجنتاه ممتقعتان.

وفكَّرت: *إنها نظرة من سمع النَّبأ الرهيب، نظرة شخصٍ أُجبِر على معرفة ميعاد موته.*

إنه بالفعل لم يعد طفلًا.

بدأ مغزى كلماته يسيطر على ذهنها، دافعًا كل الأفكار الأخرى. پول قادر على أن يرى طريقًا للهرب.

سألته: «تُوجد طريقة للهروب من الهراكنة، أليس كذلك؟».

ردَّد ساخرًا: «الهراكنة! انسي أمر هؤلاء البشر المنحرفين». ثم حملق إلى أُمِّه متأمِّلًا خطوط وجهها في الضوء الأخضر. كانت تفضح انفعالتها

قالت: «يجب ألَّا تُسمِّي الناس بشرًا بلا...».

قال: «لا تثقي تمامًا بقدرتك على رسم الحد الفاصل بين الاثنين. نحن نحمل تاريخنا معنا. ويا أُمَّاه، ثمَّة أمر لا تعرفينه ويجدر بكِ معرفته: نحن من نسل الهراكنة».

فعل عقلها شيئًا مرعبًا: أظلم تمامًا كما لو كان بحاجة إلى إغلاق كل حواسها. لكن صوت پول استمر بتلك الوتيرة العنيفة، ساحبًا إيَّاها معه.

- «عندما تجدين مرآة لاحقًا، تأمَّلي وجهك.. ولِم الانتظار؟ تأمَّلي وجهي الآن. الآثار واضحة ما لم تتعامي عنها. انظري إلى عظام يديَّ. وإن لم يقنعك أيٌّ من هذا، ثقي بكلامي. لقد سرت في دروب المستقبل، وألقيت نظرة إلى السجلَّات، وجُبت أماكن كثيرة، ولديَّ كل المعلومات. نحن من نسل الهراكنة».

قالت متلعثمة: «قد... رُبَّما نكون من فرعٍ منشق من العائلة. هذا كل شيء، أليس كذلك؟ قرابة بعيدة حدث أن...».

قاطعها قائلًا: «أنت ابنة البارون ذاته»، وراقبها وهي ترفع يديها إلى فمها جازعةً، ثم أردف: «تذوَّق البارون من المتع الكثير في شبابه، وسمح لنفسه ذات مرَّة أن يقع في حبال الغواية. لكن المرأة التي أغوته فعلت ذلك لخدمة مشروع البِني چيسيرِت الچيني، كانت واحدة منكن».

صفعتها الطريقة التي لفظ بها كلمة «منكن»، لكنها حثَّت عقلها على التفكير، ولم تستطع إنكار كلماته. خيوط كثيرة فارغة

المعنى في ماضيها تضافرت الآن وترابطت. الابنة التي أرادتها طائفة البِني چيسيرِت لم يكن الغرض منها إنهاء الصراع القديم بين آل آتريديز وآل هاركونن، وإنما لزرع عامل وراثي معيَّن في سلالتيهما.

لكن أيّ عامل وراثي؟ حاولت إيجاد إجابة.

وكما لو كان يقرأ عقلها، قال پول: «ظننَّ أنهن يمهِّدن لقدومي، لكنني لست كما توقَّعن، وقد جئت قبل أواني. وهنَّ لا يعرفن ذلك».

غطَّت چيسيكا فمها بيديها.

بحقّ الأُمّ العظيمة! إنه الكويزاتس هاديراك حقًّا!

شعرت بأنها عارية أمامه، وأدركت بعدها أنه يراها بعينين لا يخفى عنهما إلا القليل، وعرفت أن هذا هو مصدر خوفها منه.

قال: «تفكِّرين في أنني الكويزاتس هاديراك. انسي هذا الكلام، فأنا شيءٌ آخر غير متوقَّع».

فكَّرت چيسيكا: *يجب أن أرسل الخبر إلى إحدى المدارس، فقد يُظهر سجل النكاح حقيقة ما حدث، وكيف حدث.*

قال لها: «لن يعرفوا بأمري إلَّا بعد فوات الأوان».

حاولت تشتيت انتباهه، فخفضت يديها وقالت: «هل سنجد لنا مأوًى بين الفرمِن؟».

قال پول: «عند الفرمِن مقولة ينسبونها إلى شَيّ هولود، شيخة الخلود، تقول: "كن مستعدًّا لتقدير ما تلتقيه"».

ثم فكَّر: *أجل يا أُمَّاه، بين الفرمِن سيكون مأواكِ. سيكون لكِ عينين زرقاوين، وستنمو جُسأة إلى جوار أنفك الجميل من جراء استخدام أنبوب الترشيح الموصول ببذلة التقطير، وستلدين أختي: القدِّيسة عالية حاملة السكِّين.*

قالت چيسيكا: «إن لم تكن الكويزاتس هاديراك، فماذا ...».

قاطعها قائلًا: «لن تفهمي أبدًا. لن تؤمني حتَّى ترين الأمر جهرة».

وفكَّر: *أنا بذرة*.

وأدرك فجأةً مدى خصوبة الأرض التي سقط فيها، ومع هذا الإدراك ملأت كيانه الغاية الرهيبة، زاحفة إلى الخواء القابع بداخله، مهدِّدةً بأن تخنقه بالعبرات.

لقد رأى تفرُّعين رئيسين في مسار المستقبل الممتدّ أمامه: في أحدهما واجه بارونًا عجوزًا شرِّيرًا وقال له: «مرحبًا يا جدِّي»، لكن التفكير في هذا المسار وما يقبع فيه أصابه بالسقم.

أمَّا المسار الآخر فكان ضبابيًا غامضًا، لا يظهر منه إلَّا قممًا من العنف. رأى في هذا المسار حربًا دينية، ونارًا تمتدُّ عبر الكون، وراية آل آتريديز الخضراء تخفق فوق جحافل من المتعصِّبين المنتشين بخمر الاسپايس. رأى بين الحشود حفنة قليلة من رجال أبيه، منهم جيرني هاليك، كلهم يحملون شعار الصقر المنقوش على الضريح الذي يضم رفات جمجمة والده.

غمغم پول: «لن أمشي في هذا الطريق، فهذا ما تريده ساحرات مدارسكن العجائز».

قالت أُمُّه: «أنا لا أفهمك يا پول».

التزم پول الصَّمت، وراح يفكِّر كالبذرة التي هي حقيقته، يفكِّر مستخدمًا الوعي الجمعي للجنس البشري الذي عرفه في البداية باسم الغاية الرهيبة، ووجد أنه لم يعد قادرًا على كُره البِني چيسيرِت ولا الإمبراطور ولا حتَّى الهراكنة، فكلٌّ منهم يجري مدفوعًا بغريزة الجنس البشري لتجديد ما ضَعُف وتبعثر من صفاته الوراثية، إلى تهجين وخلط وحقن دمائه القديمة في آبار

چينيه جديدة. ولكن الجنس البشري لا يعرف سوى طريقة واحدة مؤكدة للنجاح في هذا المسعى: الطريقة القديمة، الطريقة المجرَّبة والأكيدة التي تهلك كل شيءٍ في طريقها: الجهاد*.

فكَّر پول: *قطعًا لن أُقدِم على هذا الطريق.*

لكنه رأى بعين عقله مجدَّدًا ضريح جمجمة والده، والمعترك العنيف الذي تخفق فوقه الراية الخضراء والسوداء.

تنحنحت چيسيكا وقد شعرت بالقلق من صمته.

- «إذًا ... سيوفِّر لنا الفرمن ملاذًا آمنًا؟».

رفع پول عينيه، محدِّقًا عبر الخيمة الغارقة في ضوءٍ أخضر إلى خطوط وجهها النبيل الأرستقراطي، وأومأ قائلًا: «أجل، هذا أحد المسارات. أجل، سيلقِّبونني... المؤدِّب، "الذي يهدي السبيل". أجل.. هذا ما سينعتونني به».

ثم أغلق عينيه مفكِّرًا: *الآن يا أبي بإمكاني الحزن عليك.*

وبدأت الدموع تنهمر على وجنتيه.

الكتاب الثَّاني

المؤدِّب

عندما سمع أبي، الإمبراطور الپاديشاه، خبر وفاة الدوق ليتو، وكيف لقي حتفه، انتابته نوبة غضب عارم لم يسبق لنا أن شهدنا مثلها. لام أُمّي، ولام الاتّفاق اللعين الذي أرغمه على وضع امرأة من البِني چيسيرِت على العرش إلى جواره. لام النقابة والبارون العجوز الشرير. لام كل من صادفه، بمن فيهم أنا، وقال إنني ساحرة مثل الأخريات. وعندما حاولت مواساته بقول إن ما حدث قد تم وفقًا لغريزة البقاء القديمة وقانون حماية النفس الذي أطاعه أقدم وأقوى الحُكّام، سخر مني وسألني إن كنت أراه طرطورًا. عندها فهمت أن كل هذا الغضب اعتراه لم يكن بسبب اهتمامه بمصير الدوق الميت، وإنّما بسبب ما تعنيه هذه الوفاة لجميع أفراد العائلة المالكة. عندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، يخيّل لي أن أبي أيضًا رُبّما كان يتمتّع ببعض القدرات التبصُّرية، ومن المؤكد أن سلالته وسلالة المؤدِّب تنحدران من سلفٍ مشترك.

من كتاب «في بيت أبي» للأميرة إيرولان.

همس پول: «الآن سيقاتل الأخ أخاه».

كان قد استيقظ من نومه قبل حلول الليل بقليل، وجلس معتدلًا في الخيمة المعتمة المحكمة الغلق. وبينما هو يتحدَّث، سمع الململة الخافتة الصادرة عن أُمّه النائمة قبالته في الخيمة.

ألقى پول نظرة إلى جهاز الاستشعار الموضوع على الأرض، متأمِّلًا مؤشِّر الأرقام على ضوء الأنابيب الفسفورية.

قالت أُمُّه: «سيحلُّ الليل قريبًا، لِمَ لا ترفع أستار الخيمة؟».

أدرك پول عندها أن تنفُّسها لم يكن منتظمًا لبعض الوقت، وأنها ظلَّت صامتة في الظلام حتى تأكَّدت من استيقاظه.

قال لها: «رفع الأستار لن يحدث فارقًا، فقد هبَّت عاصفة وغطَّت الخيمة بالرمال. سأحفر طريقًا نخرج منه بعد قليل».

- «لا أثر لدانكن بعد؟».

- «بلى».

تحسَّس پول خاتم الدوقية الذي يضعه في إبهامه بشرود، وارتجف جسده بغضبٍ مفاجئ من هذا الكوكب الذي ساعد في قتل والده.

قالت چيسيكا: «سمعت بداية هبوب العاصفة».

ساعدته كلماتها المتساهلة على استعادة بعض من هدوئه. كان قد ركَّز انتباهه على العاصفة عندما رآها تبدأ عبر الجزء الشفَّاف من خيمة التقطير: رأى حبيبات الرمال الخشنة التي تعبر الحوض، ثم ماج الهواء بفيضٍ منها. وقتها رفع بصره إلى قمَّة صخرٍ مستدقَّة، وراقبها وهي تُنحت ويتغيَّر شكلها بفعل العصف العنيف، إلى أن صارت وتدًا قصيرًا بلون الجبن الشيدر. تدفَّقت الرمال إلى الحوض الذي يتواريان فيه وصبغت السماء بلون الكاري، ثم حجبت كل ضوء عندما غطَّت الخيمة.

أنَّت دعامات الخيمة وصرَّت وهي تتحمَّل الثقل الذي وُضع عليها، ثم ساد الصَّمت بعدها ولم يقطعه سوى صفير منفاخ الهواء الرملي الخافت وهو يضخُّ الهواء من سطح الخيمة الخارجي إلى داخلها.

قالت چيسيكا: «جرِّب جهاز الاستقبال مرَّةً أخرى».

قال: «لا فائدة».

أمسك بأنبوب المياه المعلَّق بمشبك عند رقبته، وشفط جرعة ماءٍ دافئ وهو يفكِّر أنه بدأ الآن الحياة الأرَّاكسية الحقَّة: الاعتماد على الماء المستعاد من تنفُّسه وإفرازات جسده. كان الماء بلا مذاق أو رائحة، لكنه رطَّب حلقه. سمعت چيسيكا پول يشرب، وأحسَّت ببذلة التقطير الملتصقة بجسدها، لكنها رفضت الاعتراف بعطشها، إذ كان الاعتراف به يتطلَّب إدراك ضرورات الحياة الرهيبة التي يفرضها أرَّاكس، حيث يتعيَّن عليهما الحرص الشديد على عدم فقد أدنى قدر من الرطوبة، وادِّخار القطرات الزهيدة في جيوب تجميع خيمة التقطير، والتحسُّر على نفسٍ ضاع في الهواء الطلق.

العودة إلى النوم أهون كثيرًا.

لكن هذا النوم النهاري لم يسلم من الأحلام، وقد ارتجفت لمجرَّد تذكُّر هذا الحلم الذي رأت فيه نفسها تضع يديها تحت رمال تتدفَّق فوق اسم مكتوب على الأرض: *الدوق ليتو آتريديز*. كانت الرمال تمحو الاسم، فحاولت استعادته، لكن الرمال ما انفكَّت عن مسح الحرف الأوَّل قبل أن تنهي رسم الحرف الأخير.

وقد أبت الرمال أن تتوقَّف.

تحوَّل حلمها إلى بكاء سخيف الصَّوت ظلَّ يرتفع ويرتفع، وأدرك جزء من عقلها أن الصَّوت هو صوتها عندما كانت بعد طفلةً صغيرةً، مجرَّد رضيعة. ورأت امرأة ملامحها غير واضحة في ذاكرتها ترحل مبتعدة.

فكَّرت چيسيكا: *إنها أُمِّي التي لم أعرف. امرأة البِني چيسيرِت التي أنجبتني وأعطتني للأخوية لأن هذا ما أُمرت به. هل كانت*

سعيدة بالتخلُّص من ابنة الهراكنة؟

قال پول: «الاسپايس هو نقطة ضعفهم التي يجب توجيه ضربتنا إليها»

سألت چيسيكا نفسها: *كيف يفكِّر في شنِّ هجوم في وقتٍ كهذا؟*

قالت: «الكوكب برمَّته مملوء بالاسپايس، كيف ستحرمهم منه؟».

سمعت حركته في المكان، وصوت الحقيبة تُجرُّ عبر أرضية الخيمة.

قال لها: «في كلادان حكمنا بالقوَّة البحرية والقوَّة الجوِّية، أمَّا هنا فالقوَّة تكمن في الصَّحراء. الفرمِن هم المفتاح».

كان صوته يأتي من اتِّجاه السُّرة العاصرة التي تغلق مدخل الخيمة بإحكام.

ميَّز سمع چيسيكا المُدرَّب على نهج البِني چيسيرِت في نبرته مرارة تجاهها لم تُسوَّ بعد.

وفكَّرت: *منذ نعومة أظافره تعلَّم أن يكره الهراكنة، والآن اكتشف أنه واحد منهم... بسببي. كم يجهل حقيقتي! لقد كنت امرأة الدوق الوحيدة، وقد اعتنقت حياته وقيمه إلى درجة عصيان أوامر طائفتي.*

وجد پول مصباح الخيمة في متناول يده، فشغَّله ليملأ المساحة المقبَّبة بوهج أخضر. انحنى پول إلى جوار سُرَّة الخيمة، وعدَّل قلنسوة الرأس استعدادًا للخروج إلى الصَّحراء: أحكم غطاء جبينه، ووضع مرشِّح الفم وسدَّادة الأنف، فلم يظهر

مـن وجهـه سـوى عينيـه الداكنتيـن. نظـر نحوهـا مـرَّة ثـم اسـتدار. وقـال: «أمِّنـي نفسـك للخـروج إلـى العـراء». كان صوتـه مكتومًـا مـن وراء المرشِّـح.

وضعـت جيسـيكا المرشِّـح فـي فمهـا، وبـدأت تضبـط قلنسـوتها وهـي تراقـب پـول الـذي يفـك سُـرَّة المدخـل.

أحـدث احتـكاك حبيبـات الرمـال صريـرًا وهـو يفـضُّ السُّـرة، وسـرعان مـا اندفعـت الرمـال فـي عزيـفٍ خشـن إلـى داخـل الخيمـة قبـل أن يتمكَّـن مـن شـلِّ حركتهـا مسـتخدمًا أداة تكثيـف بالضغـط. انفتحـت فجـوة فـي الجـدار الرملـي بفضـل الجهـاز الـذي صلَّـد حبيبـات الرمـال، وراحـت الفجـوة تتَّسـع تدريجيًـا. فـي النهايـة انسـلَّ پـول خارجًـا منهـا وتتبَّعتـه جيسـيكا بأُذُنيهـا منصتـه إلـى وقـع خطواتـه علـى الرمـال بالخـارج.

وتسـاءلت: *مـاذا سـنواجه فـي الخـارج؟ إن الهراكنـة والسَّـاردوكار لخطـران نتوقَّـع وجودهمـا، ولكـن مـاذا عـن الأخطـار التـي نجهلهـا؟*

فكَّـرت جيسـيكا فـي أداة التكثيـف والمعـدَّات الغريبـة الأخـرى التـي فـي الحقيبـة، ورأت فـي هـذه الأدوات علامـات علـى وجـود مخاطـر غامضـة. شـعرت بنسـيم الصَّحـراء السـاخن يلمـس الجـزء المكشـوف مـن وجنتيهـا فـوق المرشِّـح.

قال پول بصوتٍ منخفضٍ وحذر: «ناولينـي الحقيبة».

تحرَّكـت لتنفيـذ طلبـه، وسـمعت قرقـرة المـاء فـي الجرَّتيـن اللتريَّتيـن وهـي تجـر الحقيبـة علـى الأرض. نظـرت إلـى أعلـى، فـلاح لهـا وجـه پـول علـى خلفيـة مـن النجـوم.

- «هنا»، قالها ومدَّ يده ساحبًا الحقيبة إلى الخارج.

الآن لم تعد ترى سوى دائرة من النجوم التي بدت كأنها فوّهات أسلحة لامعة موجَّهة إليها. قطع وابلٌ من الشهب البقعة التي تراها من السماء. بدت لها الشهب كأنها تحذير، كأنها الخطوط على جلد النمر، كأنها شواهد قبورٍ مضيئة تجمَّد لها الدم في عروقها. شعرت بثقل المكافأة المرصودة مقابل رأسيهما.

قال پول: «أسرعي، أريد طيَّ الخيمة».

سقطت حفنة من الرمال من السطح على يدها اليسرى، فسألت نفسها: كم *تستطيع قبضة اليد أن تقبض من رمال؟*

سألها پول: «أتحتاجين إلى مساعدة؟».

- «لا».

بلعت چيسيكا ريقًا جافًا، وانزلقت عبر الحفرة شاعرة باحتكاك الرمال المضغوطة المتصلِّدة بكفَّيها. مدَّ پول يده إليها، وسحبها من ذراعها. وقفت إلى جواره فوق رقعة رمال ناعمة وسط الصَّحراء المُوشاة بالنجوم ونظرت حولها. تكاد الرمال تملأ الحوض الذي يقفان فيه، ولم تترك سوى شريط داكن من الصخور المحيطة. سبرت چيسيكا أغوار الظلام البعيد بحواسِّها المدرَّبة جيِّدًا.

أصوات حيوانات...

وطيور...

وانهيار رملي في جحرٍ غير مستقر، وضوضاء كائنات خافتة تحيا فيه...

وصوت الخيمة التي يطويها پول ويخرجها من الحفرة.

لم يبدِّد ضوء النجوم من عتمة الليل سوى ما يكفي لكي تدب حياة مخيفة في الظلال. حملقت چيسيكا في بقع الظلام من حولها.

وفكَّرت: *الظلام ذكرى عمياء، فيه تنصت إلى مختلف الأصوات، لعواء من طاردوا أسلافك في ماضٍ قديم جدًّا لا تتذكَّره سوى أكثر خلاياك بدائية. في الظلام الأُذُنُ ترى، والأنف يرى.*

جاء پول ليقف إلى جوارها وقال: «أخبرني دانكن بأنه في حال وقوعه في الأسر سيحاول الصمود أطول مدَّة ممكنة. يجب أن نغادر الآن»، ثم حمل الحقيبة على ظهره، وسار إلى حافَّة الحوض الضحضاحة، وتسلَّق إلى القمَّة المطلَّة على الصَّحراء المفتوحة.

تبعته چيسيكا تلقائيًّا، ولاحظت كيف صارت تدور في فلك ابنها.

وفكَّرت: *حزني أثقل من رمال البحار. هذا العالم سلبني كل شيء وأفرغني من كل شعور، ما عدا الغريزة الأقدم: توريث الحياة. أعيش الآن من أجل دوقي الصغير، والابنة التي لم تر الضياء بعد.*

شعرت بقدميها تغوصان في الرمال وهي تتسلَّق حافة الحوض صاعدةً إلى جوار پول.

كان ينظر شمالاً عبر سلسلة من الصخور، ويتفحَّص جرفًا بعيدًا.

على خلفية النجوم، أخذت الصخور البعيدة شكل سفينة حربية بحرية قديمة، ترتفع مقدِّمتها على موجة خفيَّة، وتملؤها أبراج هوائيَّات مقوَّسة، وتميل مداخنها إلى الوراء، ويبرز من مؤخِّرتها نتوء على شكل الحرف اليوناني π.

فجأةً، تألَّق وهجٌ برتقالي أعلى الصورة الظلِّية، وارتقى خطٌّ أرجواني لامع في السماء ثم هبط باتِّجاه الوهج.

قطع خطٌّ أرجواني آخر السماء.

تسمَّرا في مكانيهما يحدِّقان مشدوهين. بدا المشهد كأنها معركة بحرية قديمة، كأنه ذكرى اشتباك بنيران المدفعية.

همس پول: «أعمدة النار!».

ارتفعت حلقة من نقاطٍ حمراء متوهِّجة فوق الصخور البعيدة، وانهالت عليها أشعة بنفسجية مارقة من السماء.

- «شعلات تمويه حراري ومدافع ليزر».

كان قمر أرَّاكس يرتفع داميًا من أثر الغبار فوق الأُفُق إلى يسارهما، فلاحظا على ضوئه غبارًا يتراكم في البعد، متلوِّيًا كشريط فوق الصَّحراء.

قال پول: «لا بُدَّ أنها ثوبترات الهراكنة تبحث عنا. إنهم يمشِّطون الصَّحراء كأنهم يريدون التأكُّد من القضاء على كل شيءٍ حي، كما يسعى المرء للقضاء على عُشٍّ تسكنه الحشرات».

قالت چيسيكا: «أو عُشٍّ يسكنه آتريديزيون».

قال پول: «علينا البحث عن مكان يصلح للاختباء. سنتَّجه جنوبًا وسنسير بمحاذاة الصخور، فلو عثروا علينا في مساحة مفتوحة...»، ثم بتر عبارته واستدار، وعدَّل من وضع الحقيبة على كتفيه، ثم قال: «إنهم يقتلون كل ما يتحرَّك».

خطا پول خطوة واحدة فوق الحافة، ثم سمع هسيس طائرة تنزلق، ورأى أورنيثوبترات معتمةً تحلِّق فوقهما في جنح الليل.

أخبرني أبي ذات مرَّة أن احترام الحقيقة يكاد يكون العماد الذي تقوم عليه كل القيم الأخلاقية. قال لي: «لا يمكن لشيء أن ينبثق من العدم». هذا تفكير عميق إن كنت تعي إلى أيٍّ مدى قد تكون «الحقيقة» غير مستقرة.

من كتاب «محاورات مع المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

قال ظفير حوَّاط: «لطالما تفاخرت بقدرتي على رؤية الأمور على حقيقتها. هذه لعنة أيٍّ مِنتات. عدم القدرة على التوقُّف عن تحليل البيانات».

بدا وجه المِنتات العجوز المغضَّن هادئًا في العتمة التي تسبق الفجر، وكانت شفتاه المبقَّعتان بشراب السافو مزمومتين في خطٍّ مستقيم تتشعَّب منه تجاعيد صغيرة.

جلس رجل يرتدي جلبابًا القرفصاء بهدوء فوق الرمال على الجانب الآخر من الحوَّاط، وبدا أنه لم يتأثر بكلامه.

كان الرجلان رابضين تحت نتوء صخري يشرف على حوضٍ واسع ضحل، وضوء الفجر ينتشر في الأُفُق خلف وفوق الجروف المتصدِّعة على امتداد الحوض، صابغًا كل الموجودات بلونٍ وردي. كان الجو باردًا تحت النتوء من أثر الليل، والهواء به لفحة جافَّة تخترق العظام. لقد هبَّت ريحٌ دافئة قبل الفجر بقليل، لكنها صارت باردة بعدها. سمع حوَّاط من خلفه صوت اصطكاك أسنان الجنود القلائل المتبقِّين من قوَّاته.

كان الرجل الرابض جوار حوَّاط من الفرمِن، وقد جاءهم متحرِّكًا بخفَّة فوق الرمال، عابرًا الحوض مع أوَّل ضوء فجر

كاذب، بحركات متماهية مع الكثبان الرملية تكاد لا تُلاحظ.

مدَّ الفرمِني إصبعًا إلى الرمال بينهما، ورسم شكلًا عليها. بدا الشكل كأنه صحنٌ يخرج منه سهمٌ. ثم قال: «دوريَّات الهراكنة تملأ المكان»، ورفع إصبعه مشيرًا إلى أعلى، إلى المنحدرت التي نزل منها حوَّاط ورجاله.

أومأ حوَّاط.

دورياتهم تملأ المكان بالفعل.

لكنه ظلَّ يجهل ما يريده هذا الفرمِني، وقد أزعجه ذلك، فمن المفترض أن يمنحه تدريبه المِنتاتي القدرة على رؤية دوافع الآخرين.

كانت هذه أسوأ ليلة مرَّ بها حوَّاط في حياته. كان في تسيمبو، الحامية العسكرية التي تشكِّل حائط الصدِّ الأمامي للعاصمة السابقة قرطاج عندما بدأت أنباء الهجوم تصل. في البداية فكَّر: *إنها مجرَّد غارة. الهراكنة يختبروننا.*

لكن الأنباء لم تتوقَّف، وتعاقبت التقارير الواحد تلو الآخر.

هبوط فيلقين قرب قرطاج.

خمسة فيالق -خمسون لواءً!- تهاجم مقرَّ الدوق الرئيس في أراكين.

هبوط فيلق آخر في آرسنت.

ظهور مجموعتين قتاليتين عند الصخرة المتشقِّقة.

ثم أمست التقارير أكثر تفصيلًا: شُوهد بين الأعداء ساردوكار إمبراطوريون، عددهم يقدَّر بنحو فيلقين. بدا من الواضح أن الغزاة يعرفون بالضبط حجم القوَّات المسلَّحة التي يجب إرسالها إلى كل منطقة. بالضبط! لقد أدت استخباراتهم عملها ببراعة.

أجَّجت الصدمة غضبه إلى درجة كادت تعطِّل قدراته المِنتاتية عن أداء عملها بسلاسة. صدم حجم الهجوم عقله كأنه ضربه على الرأس.

الآن، مختبئًا أسفل نتوء بارز من صخور الصَّحراء، أومأ حوَّاط برأسه وضمَّ غلالته الممزَّقة على جسده كأنه يحمي نفسه من الظلال الباردة.

يا لحجم الهجوم!

لطالما توقَّع أن يستأجر أعداءهم مركبات فضائية خفيفة من النقابة ويستخدموها في غارات لاختراق دفاعاتهم، فقد كانت هذه هي المناورات المعتادة في هذا النوع من الحروب بين العائلات الحاكمة. تهبط المركبات الخفيفة وتقلع من أرَّاكس بشكل دوري في عمليات نقل الاسپايس لصالح آل آتريديز، لذا أخذ حوَّاط احتياطاته من شنِّ غاراتٍ عشوائية باستخدام مركبات اسپايس خفيفة زائفة. أمَّا في حالة شنِّ هجومٍ كامل فلم يتوقَّعوا أكثر من عشرة ألوية.

لكن وفقًا لآخر إحصاء، أكثر من ألفي مركبة هبطت على أرَّاكس، وهي ليست مجرَّد مركبات خفيفة، بل فرقاطات كاملة، ومركبات استطلاع، وساحقات، وبارجات فضائية، وحاملات جنود، وحاويات تفريغ.. تحمل جميعها أكثر من مئة كتيبة من الرجال، أي عشرة فيالق!

عائدات الاسپايس المستخرج من أرَّاكس لمدَّة خمسين عامًا بالكاد تكفي لتغطية نفقات مثل هذه الحملة العسكرية.

بالكاد.

فكَّر حوَّاط: *لقد أسأت تقدير ما كان البارون على استعداد لإنفاقه على مهاجمتنا، وخذلت دوقي.*

هذا فضلًا عن مسألة الخائن.

فكَّر حوَّاط: *سأعيش حتَّى آمر بخنقها! كان عليَّ قتل ساحرة البِني چيسيرِت تلك عندما سُنحت لي الفرصة.* لم يكن لديه أدنى شكٍّ في هوية الخائن: إنها الليدي چيسيكا. كل الوقائع تنطبق عليها.

قال الرجل الفرمِني: «رجلك جيرني هاليك ومجموعة من رجاله بأمان مع أصدقائنا المهربين».

- «حسنًا».

هذا يعني أن جيرني سيغادر هذا الكوكب الجحيمي. لم نُباد عن بُكرة أبينا إذًا.

استدار حوَّاط وألقى نظرة إلى رجاله. لقد بدأ الليلة بثلاثمئة من خيرة رجاله، والآن لم يتبقَّ منهم سوى عشرين، نصفهم جرحى. كان بعضهم نائمًا، وبعضهم واقفًا، وبعضهم مستندًا إلى الصخور، وبعضهم متمدِّدًا على الرمال أسفل الصخرة. آخر ثوبتر تبقَّت لهم، تلك التي كانوا يستخدمونها مركبةً أرضيةً لنقل جرحاهم، لفظت أنفاسها الأخيرة قبيل الفجر بقليل، فمزَّقوها ببنادق الليزر شرَّ مُمزَّق وأخفوا القطع، ثم شقُّوا طريقهم إلى هذا المخبأ عند حافة الحوض.

لم يملك حوَّاط سوى فكرة عامة عن موقعهم، الذي قدَّره بنحو مئتي كيلومترٍ جنوب شرق مدينة أراكين. كما قدَّر أن في مكانٍ ما جنوب موقعهم، تقع دروب التنقُّل الرئيسة التي تستخدمها مجتمعات السييتشات القريبة من الجدار الحامي.

خلع الفرمِني المقابل لحوَّاط عنه قلنسوته وأماط لثامه كاشفًا عن شعرٍ ولحية مسفوعين، بلون الرمال. كان شعره ممشَّطًا إلى الخلف في خطوط مستقيمة، وجبهته عاليةً ضيِّقة، وعيناه زرقاوين بالكامل من أثر الاسپايس، ولا سبيل لسبر غوريهما. أمَّا شعر شاربه ولحيته فداكن متلبِّد على أحد جانبي الفم من ضغط الأنبوب الملتوي الخارج من سدَّادة الأنف.

نزع الرجل السدَّادة وأعاد ضبطهما، ثم حكَّ نُدبة بجانب أنفه.

ثم قال: «إذا قرَّرتم عبور هذا الحوض الليلة، لا تستخدموا دروع الطاقة، فثمَّة صدع في الجدار...»، واستدار على عقبيه مشيرًا نحو الجنوب وأردف: «... هناك، وبحر الرمال يمتدُّ من هنا حتَّى نطاق العِرق العظيم. دروع الطاقة ستجتذب الـ...»، وتردَّد قبل أن يقول: «... الديدان. إنها لا تأتي إلى هنا غالبًا، لكن تفعيل الدروع الطاقة يجتذب واحدة دائمًا».

فكَّر حوَّاط: *قال «ديدان». كان سيقول شيئًا آخر. ماذا يا تُرى؟ وماذا يريد منا؟*

تنهَّد حوَّاط.

لم يتذكَّر أن سبق له الشعور بمثل هذا التعب والإرهاق العضلي، الذي لم تفلح أقراص الطاقة في تخفيفه.

تبًا لأولئك السَّاردوكار الملاعين!

بمرارةٍ جالدةٍ للذات، واجه حوَّاط حقيقة وجود جنود الإمبراطور المتعصِّبين هنا على أرَّاكس، وما تمثِّله من خيانة الإمبراطورية. أخبرته قدراته المِنتاتية في تقييم البيانات بمدى ضآلة فرصته في تقديم دليل على هذه الخيانة أمام مجلس اللاندسراد الأعلى، حيث يمكن تحقيق العدالة.

سأل الرجل الفرمِني: «هل ترغب في إيصالك إلى المهرِّبين؟».

- «أهذا ممكن؟».

- «الطريق طويل».

«الفرمِن لا يحبُّون الرفض»، هكذا أخبره آيداهو ذات مرَّة.

قال حوَّاط: «لم تخبرني بعد إن كان بإمكان قومك مساعدة جرحانا أم لا».

- «إنهم جرحى».

الإجابة اللعينة ذاتها في كل مرَّة!

احتدَّ حوَّاط قائلًا: «نعلم أنهم جرحى، هذه ليست...».

قاطعه الفرمِني محذِّرًا: «اهدأ يا صديقي. ما قول جرحاكم؟ هل بينهم من يرى حاجة قبيلتك إلى الماء؟».

قال حوَّاط: «لم نتكلَّم بشأن الماء، نحن...».

قال الفرمِني: «أتفهَّم تردُّدك. إنهم أهلك وعشيرتك. أمعكم ماء؟».

- «ليس بالقدر الكافي».

أشار الفرمِني إلى غلالة حوَّاط الممزَّقة، وجلده البادي من أسفلها: «لقد هوجمتم في عقر داركم، غير مرتدين بذلات التقطير. يجدر بك اتِّخاذ قرار بشأن الماء يا صديقي».

- «هل يمكننا استئجار خدماتكم؟».

هزَّ الفرمِني كتفيه وقال: «لا تملكون الماء لذلك»، ثم ألقى نظرة إلى مجموعة الرجال خلف حوَّاط وسأله: «كم عدد الجرحى الذين بإمكانك التضحية بهم؟».

التزم حوَّاط الصَّمت محدِّقًا إلى الرجل. بصفته مِنتاتًا، فطن حوَّاط أن حديثهما لم يكن مضبوطًا على نفس الموجة. لم تفلح اللغة المنطوقة في إقامة حوارٍ بينهما بالطريقة المعتادة.

قال: «أنا ظفير حوَّاط، وأنا مُخوَّل بالتحدُّث بالنيابة عن دوقي. سألتزم بتعهُّدٍ الآن مقابل مساعدتك لنا. كل ما أطلبه منكم هو مساعدة محدودة، تتمثَّل في الحفاظ على سلامة قوَّاتي مدَّةً كافيةً تمكِّننا من قتل الخائنة التي تظنُّ أنها بعيدة عن طائلة الانتقام».

- «تريد أن نساعدك في مسألة ثأر؟».

- «الثأر سآخذه بنفسي. ما أريده هو التحرُّر من المسؤولية تجاه جرحاي كي أتمكَّن من التنقُّل بحرِّية لتنفيذ مسعاي».

قطب الفرمِني جبينه وسأل: «أيُّ مسؤولية تحمل تجاه جرحاك؟ كل امرئٍ يتحمَّل مسؤولية نفسه. الماء هو نقطة النقاش يا ظفير حوَّاط. هل تريدني أن اتَّخذ القرار بالنيابة عنك؟».

قالها الرجل ووضع يده على السلاح المخفي أسفل ردائه.

توتَّر حوَّاط، وتساءل: *أهي علامة على خيانة؟*

سأله الرجل: «مِمَّ تخشى؟».

سحقًا لهؤلاء القوم وصراحتهم المربكة! قال حوَّاط بحذر: «ثمَّة مكافأة مرصودة مقابل رأسي».

- «آه!»، لفظها الفرمِن مبعدًا يده عن السلاح قائلًا: «تظنُّ أن الفساد البيزنطي مستشرٍ بيننا. أنت لا تعرفنا. لا يملك الهراكنة ماءً يكفي لشراء أصغر طفلٍ فينا».

فكَّر حوَّاط: *لكنهم يملكون ما يكفي لتمنحهم النقابة حقَّ مرور أكثر من ألفي سفينة مقاتلة*. كان لا يزال مصدومًا من المبلغ الفادح الذي دفعه الهراكنة.

قال حوَّاط: «كلانا يقاتل الهراكنة، ألا يجدر بنا تشارك حلول وأساليب مواجهة تحدِّيات المعركة؟».

قـال الفرمِنـي: «نحـن نتشـارك الآن. لقـد رأيتـك وأنـت تقاتـل الهراكنـة. أنـت مقاتـل بـارع. لكـم مـرّت علـيّ مـن أوقـات كنـت سـأمتن فيهـا لوجـود ذراعـك إلـى جـوار ذراعـي».

قال حوّاط: «أخبرني بالمكان، وستجدني إلى جوارك».

قـال الفرمِنـي: «مـن عسـاه أن يعـرف؟ قـوّات الهراكنـة فـي كل مكان. لكنـك مـا زلـت لـم تتّخـذ قرار المـاء أو تعرضه على جرحاكم».

قـال حـوّاط لنفسـه: *يجب ان اكون حذرًا. ثمّة شيء غير مفهوم هنا*.

قال: «هلّا شرحت لي طريقتكم، الطريقة الأرّاكسية؟».

تمتـم الفرمِنـي: «تفكّـر تفكيـر الغربـاء»، وبـدا فـي نبرتـه شـيء مـن السـخرية. أشـار إلـى الشـمال الغربـي نحـو قمّـة الجـرف وقـال: «رأيناكـم وأنتـم تعبـرون الرمـال الليلـة الماضيـة»، ثـم أنـزل ذراعـه وأردف: «أسـريت بقوّاتـك علـى الجانـب الزلـق مـن الكثبـان الرمليـة، وهـذا تصـرُّف خاطـئ. كمـا أنكـم لا ترتـدون بـذلات التقطيـر، وليـس معكـم مـاء. لـن تصمـدوا طويـلًا».

قال حوّاط: «عادات أرّاكس لا تُكتسب بسهولة».

- «هذه حقيقة. لكننا قتلنا الهراكنة».

سأله حوّاط: «وماذا فعلتم بجرحاكم؟».

سـأله الفرمِنـي: «ألا يعلـم المـرء إن كان يسـتحق الإنقـاذ أمـا لا؟ جرحاكـم يعرفـون أنكـم تفتقـرون إلـى المـاء»، ثـم أمـال رأسـه ناظـرًا إلـى حـوّاط بطـرف عينـه: «هـذا هـو الوقـت المناسـب لاتّخـاذ قـرار المـاء. يجب أن ينظـر كلٌّ من الجرحى وغير الجرحى بعين الاعتبـار إلـى مسـتقبل القبيلـة».

فكَّر حوَّاط: *مستقبل القبيلة. قبيلة آل آتريديز. كلامه يحمل بعض المنطق.* ثم أجبر نفسه على طرح السؤال الذي كان يتحاشاه.

- «هل لديك أخبار عن الدوق أو ابنه؟».

ارتفعت عينان زرقاوان لا سبيل إلى سبر غوريهما تحدقان إلى عيني حوَّاط.

- «أخبار؟».

صاح حوَّاط: «أعني مصيرهما!».

قال الفرمِني: «مصير الجميع واحد. يُقال أن دوقك لقي حتفه، أمَّا ابنه، لسان الغيب، فأمره بين يدي لييت، ولييت لم يقل شيئًا بعد».

فكَّر حوَّاط: *توقَّعت الإجابة قبل أن أسأل.*

ثم استدار ملقيًا نظرة إلى رجاله. كانوا جميعًا مستيقظين الآن ينصتون إلى المحادثة محدِّقين عبر الرمال وقد بدت علامات الإدراك على وجوههم: كانوا يدركون أنه لا عودة لهم إلى كلادان، وأن أرَّاكس قد ضاع منهم إلى الأبد.

عاد حوَّاط ينظر إلى الرجل الفرمِني، وسأله: «هل لديك أخبار عن دانكن آيداهو؟».

قال الفرمِني: «كان في القصر عندما سقطت الدروع. هذا ما سمعت.. لا أكثر».

فكَّر حوَّاط: *لقد عطَّلت الدروع وادخلت الهراكنة. الحذر وحده ما انجاني، أنا الذي ما جلست إلَّا وظهري للباب. كيف سوَّلت لها نفسها الإقدام على هذه الفعلة الشنعاء، بما تتضمَّنه من انقلابٍ*

على ابنها؟ ولكن من يعرف كيف تفكِّر ساحرات البِني چيسيرِت، إن أمكن تسمية ما يدور في عقولهن تفكيرًا؟

حاول حوَّاط ابتلاع ريقه، لكن جفاف حلقه منعه: «متى ستصلكم أخبار عن الصبي؟».

قال الفرمِني: «لا نعرف إلا قليلًا عمَّا حدث في أراكين»، ثم هزَّ كتفيه وأردف: «من يدري؟».

- «ألديكم طرائق لاستقصاء أمره؟».

ردَّ الفرمِني قائلًا: «رُبَّما»، ثم حكَّ الندبة المجاورة لأنفه وقال: «أخبرني يا ظفير حوَّاط، أتعلم ما تلك الأسلحة الثقيلة التي استخدمها الهراكنة؟».

فكَّر حوَّاط بمراره: يقصد *قذائف المدفعية. من كان يتوقَّع أنهم سيستخدمون المدفعية في عصر دروع الطاقة؟*

ثم قال: «أنت تشير إلى المدفعية التي استخدموها لمحاصرة قوَّاتنا في الكهوف. لديَّ، آه.. معرفة نظرية بهذا النوع من الأسلحة الانفجارية».

قال الفرمِني: «أيُّ رجلٍ ينسحب محتميًا بكهفٍ له مدخل واحد يستحق الموت».

- «لِمَ تسأل عن تلك الأسلحة؟».

- «إنها مشيئة ليبيت».

تساءل حوَّاط: *أهذا ما يسعى إلى معرفته منا؟* ثم قال: «هل أتيت إلى هنا للحصول على معلومات حول المدافع الكبيرة؟».

- «يشاء ليبيت رؤية أحد تلك الأسلحة بنفسه».

قال حوَّاط ساخرًا: «ما عليك إلَّا الذهاب وأسر أحدها».

قال الفرمِني: «أجل، أسرنا واحدًا بالفعل، وأخفيناه حيث يستطيع ستيلجار دراسته من أجل لييت، وحيث يستطيع لييت رؤيته بنفسه إن شاء. لكنني أشك في أنه سيريد ذلك، فالسلاح ليس جيِّدًا. تصميمه رديء، لا يناسب أرَّاكس».

سأل حوَّاط: «تقول أسرتم مدفعًا؟».

قال الفرمِني: «بعد معركة قوية لم نفقد فيها إلَّا رجلين، وفي المقابل أرقنا ماء ما يزيد على مئة رجلٍ منهم».

فكَّر حوَّاط: *المدافع كانت تحت حراسة السَّاردوكار، واحد على كل مدفع. هذا المجذوب الصحراوي يتحدَّث بعفوية عن خسارة رجلين فقط ضدَّ سريَّة من السَّاردوكار!*

قال الفرمِني: «لولا أولئك الذين يقاتلون إلى جوار الهراكنة لم نكن لنفقد الرجلين، فبعضهم مقاتلون دواهٍ».

تقدَّم أحد رجال حوَّاط وهو يعرج، ونظر إلى الفرمِني الجالس القرفصاء، وسأله: «هل تتحدَّث عن السَّاردوكار؟».

قال حوَّاط: «أجل يتحدَّث عن السَّاردوكار».

قال الفرمِني متعجِّبًا: «ساردوكار!»، وبدا في صوته مرح: «آه! هؤلاء هم إذًا! كانت ليلة بديعة بالفعل. ساردوكار تقول، أتعلم من من أيِّ فيلق؟».

قال حوَّاط: «لا نعلم».

قال الفرمِني مستغرقًا في تأمُّله: «ساردوكار. لكنهم يرتدون ملابس الهراكنة. أليس هذا غريبًا؟».

قال حوَّاط: «الإمبراطور لا يرغب في انكاشف أمر أنه يقاتل إحدى العائلات النبيلة».

- «لكنك واثق بأنهم ساردوكار».

سأل حوَّاط بمرارة: «ومن أكون؟».

ردَّ الرجل كمن يقرُّ واقعًا: «أنت ظفير حوَّاط. على أيِّ حال، كنا سنعرف حقيقتهم الحقيقة عاجلًا أم آجلًا، فقد أرسلنا ثلاثة أسرى منهم ليستجوبهم رجال ليت».

تكلَّم مساعد حوَّاط ببطء، وعدم التصديق يفوح من كل كلمة ينطقها: «تقول إنكم أسرتم بعض السَّاردوكار؟».

قال الفرمِني: «ثلاثة فقط، لقد قاتلوا بضراوة».

فكَّر حوَّاط بحسرة مريرة: *ليت الوقت أُتيح لنا لتوطيد الأواصر مع هؤلاء الفرمِن. بحقِّ الأُمِّ العظيمة، أيَّ مقاتلين كنَّا سنملك لو تمكَّنا من تدريبهم وتسليحهم!*

قال الفرمِني: «لعلَّك تماطل بسبب قلقك على لسان الغيب، لكنه إن كان لسان الغيب حقًّا، فلا أذى يمكن أن يصيبه. لا تفرط في التفكير في أمرٍ لم يُثبت بعد».

قال حوَّاط: «أنا خادم... لسان الغيب. لقد نذرت حياتي لرعايته، وسلامته هي شغلي الشاغل».

- «نذرت نفسك لمائه؟».

نظر حوَّاط إلى مساعده، الذي كان لا يزال يُحدِّق إلى الفرمِني غير مصدِّق، ثم أعاد اهتمامه إلى الرجل المقرفص، وقال: «أجل، لمائه».

- «أترغب في العودة إلى أراكين، إلى مكان مائه؟».

- «إلى... أجل، إلى مكان مائه».

- «لِمَ لم تذكر من البداية أن المسألة مسألة ماء؟!»، قالها الفرمِني ونهض، وأحكم وضع السدَّادة في أنفه.

أشار حوَّاط برأسه إلى مساعده ليعود إلى مكانه بين الآخرين. أطاع الرجل الأمر بهزَّة كتفين منهكة، وسمع حوَّاط حديثًا هامسًا يدور بين الرجال.

قال الفرمِني: «طريق الماء موصول دائمًا».

أطلق أحد الرجال سُبَّة من خلف حوَّاط، وصاح مساعده به: «ظفير! لفظ آركي أنفاسه».

ضمَّ الفرمِني قبضته جوار أُذُنه، وقال: «رباط الماء! إنها علامة!»، ثم حدَّق إلى حوَّاط، قبل أن يردف: «لدينا مكان قريب لقبول الماء. هل أستدعي رجالي؟».

عاد المساعد إلى جوار حوَّاط وقال: «ظفير، بعض الرجال تركوا زوجاتهم في أراكين، وهم... أنت تعلم الوضع في أوقاتٍ كهذي».

كان الفرمِني ما زال ضامًّا قبضته إلى جوار أُذُنه، وسأله: «أتوافق على رباط الماء يا ظفير حوَّاط؟».

تسارعت الأفكار في عقل حوَّاط. لقد أدرك الآن فحوى كلام الفرمِني، لكنه كان يخشى ردَّة فعل الرجال المتعبين المحتشدين أسفل الصخرة المعلَّقة.

قال حوَّاط: «فليكن رباط الماء».

قال الفرمِني: «لإيلاف قبيلتينا»، وخفض قبضته.

وكما لو أنها كانت إشارة، هبط أربعة رجال من الصخرة التي تعلو رؤوسهم، واندفعوا نحو الرجل الميِّت ودحرجوه في رداءٍ فضفاض، ثم حملوه وبدؤوا يركضون به على امتداد جدار الجرف مُيمِّمين شطر اليمين والرمال تثور من تحت أقدامهم الراكضة.

انتهى الأمر قبل أن يستوعب رجال حوَّاط المجهدون بدْأَه،

وريثما استجمعوا أفكارهم، كان رهط الرجال قد غابوا وراء منحنى الجرف بالجثمان الذي يلفُّونه في رداء كالشوال.

صاح أحد رجال حوَّاط: «إلى أين يأخذون آركي؟ إنه...».

قال حوَّاط: «سيأخذونه إلى.. مكان دفنه».

نعر الرجل: «الفرمِن لا يدفنون موتاهم! لا تحاول خداعنا يا ظفير، فنحن نعلم جيِّدًا ما يفعلون. آركي واحد من...».

قال الفرمِني: «الجنة هي المثوى لرجلٍ مات في خدمة لسان الغيب، لا ريب في هذا. إن كنتم تخدمون لسان الغيب كما تقولون، فلِمَ ترفعون عقيرتكم بالنواح؟ ستعيش ذكرى من مات في سبيله أبد الدهر، ما دامت ذاكرة البشرية حيَّة».

لكن رجال حوَّاط بدؤوا يقتربون من الرجل، وعلى وجوههم نظرات غاضبة. التقط أحدهم بندقية ليزر وصوَّبها نحوه.

زأر حوَّاط: «قفوا حيث أنتم! ولا حركة!»، مقاومًا الإرهاق الشديد المستحوذ على عضلاته، ثم: «هؤلاء القوم يحترمون موتانا. تختلف العادات، لكن المعنى واحد».

زمجر الرجل الذي يحمل بندقية الليزر: «سيذيبون جسد آركي للحصول على مائه».

سأله الفرمِني: «أيتصرَّف رجالك هكذا لأنهم يريدون حضور المراسم؟».

فكَّر حوَّاط: *إنه غير مدرك المشكلة من الأساس*. كانت سذاجة الفرمِن تبعث على الخوف.

قال حوَّاط: «إنهم قلقون على مصير رفيقهم».

قال الفرمِني: «سنعامل رفيقكم بنفس الاحترام الذي نعامل به موتانا. هذا رباط الماء، ونحن نعرف الطقوس جيِّدًا. جسد المرء ملكه، أمَّا ماؤه فملك قبيلته».

تكلَّم حوَّاط سريعًا مع تقدُّم حامل بندقية الليزر خطوة أخرى: «هل ستساعدون جرحانا الآن؟».

قال الفرمِني: «الرباط مقدَّس لا تشكيك فيه. سنساعدكم كما تساعد أيُّ قبيلة أفرادها. سنبدأ بتوفير بذلات تقطير لكم جميعًا، ثم سنرى باقي احتياجاتكم».

تردَّد حامل بندقية الليزر.

قال مساعد حوَّاط: «هل نشتري مساعدتهم بـ... ماء آركي؟».

قال حوَّاط: «ليس شراءً. لقد انضما إلى هؤلاء القوم».

تمتم أحد الرجال: «العادات تختلف».

فبدأ حوَّاط يشعر بالارتياح.

- «وهل سيساعدونا في الوصول إلى أراكين؟».

قال الفرمِني: «سوف نقتل الهراكنة»، قبل أن يبتسم مضيفًا: «والسَّاردوكار كذلك»، ثم تراجع خطوة وكوَّر كفَّيه حول أُذُنيه وأرجع رأسه إلى الوراء منصتًا، ثم أنزل يديه وقال: «هناك طائرة تقترب، اختبؤوا أسفل الصخرة وابقوا بلا حراك».

بإشارة من حوَّاط، أطاع رجاله الأمر.

أمسك الفرمِني بيد حوَّاط ودفعه مع الآخرين وهو يقول: «سنقاتل في وقت القتال». ثم دسَّ يده أسفل ردائه، وأخرج قفصًا صغيرًا، والتقط منه مخلوقًا.

رأى حوَّاط خفَّاشًا صغيرًا، وحين أدار الخفَّاش رأسه، شاهد حوَّاط اللُّجة الزرقاء التي تشمل عينيه.

ربَّت الفرمني على الخفَّاش لتهدئته، ودندن له، ثم انحنى فوق رأس الحيوان سامحًا لقطرة من لعابه بأن تسقط من لسانه إلى فمِّ الخفَّاش المقلوب. فرد الخفَّاش جناحيه، لكنه ظلَّ في كفِّ

الفرمني المفتوحة. أمسك الرجل بأنبوبٍ صغير، وقرَّبه من رأس الخفَّاش، ووشوش مزقزقًا في الأنبوب، ثم رفع المخلوق عاليًا ورماه في الهواء.

حلَّق الخفَّاش فوق الجرف ثم غاب عن الأنظار.

طوى الفرمني القفص ودسَّه في جلبابه، ثم أحنى رأسه مصغيًا مرَّةً أخرى، وقال: «إنهم يمشِّطون المرتفعات، تُرى عمَّن يبحثون هناك؟».

قال حوَّاط: «إنهم يعرفون أننا تراجعنا إلى هذا الاتِّجاه».

قال الفرمني: «لا ينبغي للمرء افتراض أنه وحده المُطارد. راقب الجانب الآخر من الحوض، وسترى شيئًا».

مرَّ بعض الوقت.

تململ بعض رجال حوَّاط، وبدؤوا يتهامسون.

همس الفرمني بحدَّة: «التزموا الصَّمت كما الفرائس المذعورة».

لاحظ حوَّاط حركة بالقرب من الجرف المقابل، رفرفة مطموسة لجناحين صفراوين فوق رمال صفراء.

قال الفرمني: «صديقي الصغير بلَّغ الرسالة. إنه رسولٌ ماهر، في الليل أو في النهار. سأحزن إن فقدته».

تلاشت الحركة عبر الحوض، ولم يبق شيءٌ ظاهر على مساحة الرمال الممتدَّة إلى أربعة أو خمسة كيلومترات إلَّا ضغط حرارة النهار المتزايدة، وتموُّجات الهواء الساخن المتصاعدة.

همس الفرمني: «التزموا الصَّمت التَّام الآن».

ظهر رتل رجال يمشي الهوينى من أحد الصدوع في الجرف المقابل لهم، واتَّجه صوبهم مباشرةً عبر الحوض. بدت هيئاتهم

كهيئات الفرمن في عيني حوَّاط، لكنه تعجَّب من طريقة سيرهم الخرقاء. عدَّ ستَّة رجال يسيرون بتثاقل فوق الكثبان.

تعالت رفرفة جناحي ثوبتر من مكانٍ ما إلى يمين جماعة حوَّاط، ثم برزت الثوبتر من أعلى جدار الجرف فوقهم. كانت ثوبترًا آتريديزية تلطِّخها ألوان راية الهراكنة الحربية. انقضَّت الثوبتر على رتل الرجال الذين يعبرون الحوض.

توقَّفت المجموعة على قمَّة أحد الكثبان، ولوَّحت.

حامت الثوبتر فوقهم في دائرة ضيِّقة، ثم هبطت أمام جماعة الفرمِن مثيرة الغبار. اندفع خمسة رجال خارجين من الثوبتر، ولاحظ حوَّاط حول أجسادهم وميض الدروع الطَّارد للغبار، وفي حركاتهم كفاءة السَّاردوكار.

همس الفرمِني الواقف إلى جوار حوَّاط: «ويحي! إنهم يستخدمون دروعهم السخفية»، وألقى نظرة إلى الصدع في جدار الحوض الجنوبي.

همس حوَّاط: «إنهم ساردوكار».

- «جيِّد».

اقترب السَّاردوكار من جماعة الفرمِن في تشكيل محكم يأخذ شكل نصف دائرة مشهرين أسلحتهم، وعكست نصالهم بريق أشعة الشمس. ظلَّ الفرمِن واقفين في أماكنهم متقاربين، لا يبدو عليهم القلق.

فجأة، انبثق رجالٌ من الفرمِن من قلب الرمال المحيطة بالمجموعتين. كانوا في كل مكان، حول الأورنيثوبتر، ثم داخلها، وحيث التحمت المجموعتان على قمَّة الكثيب، ارتفعت سحابة من الغبار حاجبةً الموقعة العنيفة.

لكن سرعان ما انقشع غبار الوغي، ووحدهم الفرمِن بقوا واقفين.

قال الفرمِني الواقف إلى جوار حوَّاط: «من حسن الحظ أنهم لم يتركوا في الثوبتر إلَّا ثلاثة رجال، لا أظن أننا أتلفنا المركبة ونحن نستولي عليها».

همس أحد الرجال من خلف حوَّاط: «أولئك كانوا ساردوكارًا!».

سأل الفرمِني: «هل لاحظت ضراوتهم في القتال؟».

أخذ حوَّاط نفسًا عميقًا، فشمَّ رائحة الغبار المحترق من حوله، وشعر بالحرارة والجفاف، ثم قال بصوتٍ يحاكي الجفاف المحيط به: «أجل، قاتلوا بضراوة فعلًا».

أقلعت الثوبتر الأسيرة خافقة بأجنحتها في ترنُّح، ومالت في اتِّجاه الجنوب ثم ارتفعت في صعودٍ حاد طاويةً أجنحتها.

فكَّر حوَّاط: *إذًا هؤلاء الفرمِن يعرفون قيادة الثوبترات.*

من الكثيب البعيد، لوَّح الفرمِن بقطعة قماش خضراء مرَّة، ثم أخرى.

صاح الفرمِني الواقف إلى جوار حوَّاط: «هيَّا استعدوا! فالمزيد قادمون. كنت أتمنَّى ترحيلنا دون إزعاج آخر».

فكَّر حوَّاط: *يرى السَّاردوكار مجرَّد مصدر إزعاج!*

من الغرب، رأى ثوبترين أخريين تنقضَّان من ارتفاعٍ كبير على رُقعة الرمال التي خلت فجأة من الفرمِن. لم يبق على ساحة المعركة إلَّا بقعٌ زرقاء متناثرة: جثث السَّاردوكار في ثياب الهراكنة.

جاءت ثوبتر أخرى من فوق الجرف الذي يعلو حوَّاط، فأخذ نفسًا عميقًا حادًا حين رآها. كانت حاملة جنود كبيرة تطير ببطء

على ارتفاع منخفض فاردةً أجنحتها كرُخٍّ عملاقٍ عائدٍ إلى عُشّه من ثِقل حمولتها الكبيرة.

من بعيد، انطلق شعاع ليزر أرجواني من مدفع واحدة من الثوبترتين المنقضّتين، وأصاب الرمال بقوّة مثيرًا دفقة من الغبار.

زمجر الفرمِني بصوتٍ أجش من تحت أسنانه: «الجبناء!».

اتّجهت حاملة الجنود نحو بقعة الجثث الزرقاء، فاردةً أجنحتها على أقصى امتدادٍ لها، وبدأت تعبُّ الهواء عبًّا في هبوطٍ سريع.

جذب انتباه حوّاط انعكاس وميض الشمس على جسم معدني باتّجاه الجنوب، ورأى ثوبتر تنقضُّ من السماء طاويةً أجنحتها إلى جانبيها، وتتوهّج نفاثاتها بنارٍ ذهبية على خلفية السماء الرمادية الداكنة وهي تندفع كالسهم نحو حاملة الجنود التي لم تكن تشغّل طاقة درعها اتّقاءً لشر نيران مدافع الليزر الصديقة من حولها. غاصت الثوبتر في الهواء مندفعةً نحو حاملة الجنود واصطدمت بها.

اهتزَّ الحوض بدوي الانفجار، وتساقطت الصخور من أعالي الجروف في كل مكان. انفجرت نافورة رمال إلى عنان السماء من البقعة التي كانت حاملة الجنود تحتلّها مع الثوبترتين المرافقتين لها، واشتعلت النيران في كل شيء.

فكّر حوّاط: *لقد ضحّى الفرمِني الذي أقلع بالثوبتر الأسيرة بنفسه متعمّدًا ليدمّر حاملة الجنود! بحقّ الأُمّ العظيمة! ما معدن هؤلاء الفرمِن؟*

قال الفرمِني المجاور لحوّاط: «ثمنٌ معقول. لا بُدَّ أن ثلاثمئةَ رجلٍ كانوا على متن حاملة الجنود تلك. الآن، يجب أن نضمن الحصول على مائهم وأن نخطط للاستيلاء على مركبة جوّية أخرى». ثم بدأ يخرج من مخبئهم أسفل الصخرة.

فجـأةً، هبـط سـيلٌ مـن رجـالٍ فـي زيٍّ أزرق مـن أعلـى الجـرف أمامـه متمنطقيـن بمضـادات الجاذبيـة، فـأدرك حـوَّاط علـى الفـور مـن وجوههـم الجامـدة التـي يحتلّهـا تعطّشٌ مسـعور للقتـال أنهـم مـن السّـارداوكار، ورأى أنهـم لا يرتـدون دروعًـا، وأن كلًّا منهـم يحمـل سـكّينًا فـي يـد، وصاعقًـا فـي اليـد الأخـرى.

أصابـت سـكّينٌ موجَّهـة بدقّـة حلـق الفرمِنـي المرافـق لحـوَّاط، فسـقط أرضًـا متشـحِّطًا فـي دمائـه بوجـهٍ ملتـوٍ مـن الألـم. أمـا حـوَّاط فلـم يسـعفه الوقـت إلَّا ليسـتلَّ سـكّينه، قبـلَ أن تُسـقطه قذيفـة صاعـق فـي ظـلامٍ دامـس.



> كان المؤدِّب بالفعل قادرًا على تبصُّر المستقبل، ولكن عليك أن تعي حدود هذه القدرة. لتخيُّل الأمر، فكِّر في حاسَّة الإبصار. أنت تملك عينين، ومع ذلك لا يمكنك الرؤية بلا ضوء. إن وقفت في وادٍ، فستعجز عن رؤية ما وراء ذلك الوادي. بالمثل، لم يكن المؤدِّب يملك دومًا خيار النظر عبر أراضي المستقبل الغامضة من عدمه. لقد أنبأنا بأن المستقبل بالكامل قد يتغيَّر بناءً على قرار تنبُّئي واحد مُلبِس، لُفظت فيه كلمة واحدة في غير محلِّها. كما أنبأنا بأن «دروب الزمن واسعة ومتشعِّبة، لكنك حين تهمُّ بالمرور فيها، يصبح الزمن بابًا ضيِّقًا». لطالما قاوم المؤدِّب إغراء اختيار مسار آمن وواضح، محذِّرًا دومًا من أن «المسار الآمن مآله الركود».
>
> من كتاب «صحوة أرَّاكس» للأميرة إيرولان.

حين عبرت الأورنيثوبترات السماء من فوقهما في جنح الليل، قبض پول ذراع أُمِّه وصاح فيها: «اثبتي مكانك!».

بعدها شاهد المركبة التي تتصدَّر السرب في ضوء القمر، ولاحظ الطريقة المتهوِّرة التي طوت بها أجنحتها لكبح سرعتها استعدادًا للهبوط، فأدرك هويَّة الأرعن الجالس خلف أجهزة التحكُّم، وقال متنفِّسًا الصعداء: «إنه آيداهو».

استقرَّت الطائرة ومرافقاتها على أرض الحوض كسرب من الطيور عاد إلى عُشِّه. وثب آيداهو من طائرته وركض نحوهم قبل

أن يهدأ الغُبار المثار، وتبعه رجلان في ملابس الفرمِن تعرَّف پول على أحدهما: كاينز الطويل، ذي اللحية الصفراء.

صاح كاينز: «من هنا!»، وانحرف يسارًا.

خلف كاينز، ألقى آخرون من الفرمِن أغطية قماشية على الأورنيثوبترات، فصارت المركبات كأنها صفٌّ من الكثبان الرملية الصغيرة.

انزلق آيداهو متوقِّفًا أمام پول، وأدَّى التحيَّة الرسمية.

- «مولاي، لدى الفرمِن مخبأ مؤقَّت قريب نستطيع أن...».

قاطعه پول: «ماذا عمَّا يجري هناك؟».

وأشار إلى المعركة الدائرة أعلى الجرف البعيد، إلى شعلات التمويه الحراري وأشعة مدافع الليزر الأرجوانية التي تجلد الصَّحراء. شاعت ابتسامة نادرًا ما تُرى على وجه آيداهو المستدير الهادئ.

- «سيِّدي... مولاي، تركت لهم مفاجأة صغـ...».

فجأةً، التمع وميضٌ أبيض عبر الصَّحراء وأنارها كشمسٍ ساطعة، طابعًا ظلالهم على صخور الحافَّة. بحركة واحدة خاطفة، أخذ آيداهو ذراع پول بيدٍ، وكتف چيسيكا بالأخرى، ودفع كليهما من الحافَّة إلى قاع الحوض. تمدَّد الثلاثة فوق الرمال في حين ما دوى الانفجار راعدًا من فوقهم. تسبَّبت موجة الصدمة في إسقاط أجزاء من صخور حافَّة الحوض التي قفزوا منها.

اعتدل آيداهو جالسًا وراح ينفض الرمال عن نفسه.

قالت چيسيكا: «أسلحتنا الذرِّية! ظننت أن...».

قال پول: «زرعت لهم درع طاقة هناك، أليس كذلك؟».

قال آيداهو: «درعٌ كبير مضبوط على طاقته القصوى. لا بُدَّ أن شعاع ليزر أصابه فـ...»، ثم هزَّ كتفيه.

قالت چيسيكا: «حدث اندماج دون ذرِّي. هذا سلاح خطِر».

- «ليس سلاحًا يا مولاتي، بل وسيلة دفاع. سيفكِّر أولئك الحثالة ألف مرَّة قبل استخدام أشعة الليزر مجدَّدًا».

اعتلى الفرمِن الحافَّة من فوقهم، وصاح أحدهم بصوتٍ خفيض: «علينا أن نتوارى يا أصدقاء».

قام پول واقفًا على قدميه، بينما ساعد آيداهو چيسيكا.

قال آيداهو: «سيلفت هذا الانفجار الانظار يا مولاي».

فكَّر پول: *مولاي!*

شعر بأن للكلمة وقعًا غريبًا حين وُجِّهت إليه، فلطالما كانت اللفظة التي يُخاطَب بها والده.

شعر بقدراته الاستبصارية تتحرَّك فيه للحظات، ورأى نفسه يهيم مصابًا بعدوى الوعي الجمعي الهمجي الذي يقود البشرية نحو الفوضى التامَّة. أرجفته الرؤيا، فترك آيداهو يقوده على طول حافَّة الحوض نحو نتوءٍ صخري. كان الفرمِن يفتحون فجوة في الرمال باستخدام معدَّات التكثيف.

سأله آيداهو: «هل لي أن أحمل حقيبتك يا مولاي؟».

قال پول: «ليست ثقيلة يا دانكن».

قال دانكن: «أنت لا ترتدي درعًا يا مولاي، أترغب في أخذ درعي؟»، ثم ألقى نظرة إلى الجرف البعيد، وأردف: «من المستبعد أن يستخدموا أسلحة الليزر بعد الآن».

- «احتفظ بدرعك يا دانكن، ذراعك اليمنى درعٌ كافٍ لي».

لاحظت چيسيكا تأثير الثناء على دانكن، وكيف اقترب بعدها من پول، وفكَّرت: *ابني في أيدٍ أمينة مع هؤلاء القوم.*

رفع رجال الفرمِن صخرة كاشفين عن نفق يقود إلى شبكة من السراديب الجوفية الطبيعية تحت أرض الصَّحراء، وجهَّزوا غطاءً تمويه لإخفاء فتحة المدخل.

قال أحدهم: «من هنا»، وقادهم عبر دَرَجٍ صخري هابط إلى فم الظلام.

حجب الغطاء نور القمر من خلفهم، فأنار ضوءٌ أخضر خافت أمامهم كاشفًا لهم الدرجات والجدران الصخرية، ومنعطفًا إلى اليسار في نهايتها. أحاط به فرمِن متلفّعون بعباءاتهم، وراحوا يدفعونه أسفل الدَّرَج. عرجوا عبر المنعطف، وأخذوا ممرًّا هابطًا آخر قادهم إلى حجرة كهفية خشنة الجدران.

قابلهم كاينز بجُبَّةٍ قلنسوتها ملقاة على ظهره ويلتمع أسفلها -في الضوء الأخضر- عُنُق بذلة التقطير التي يرتديها. كان شعره ولحيته الطويلان مبعثرين، وبدت عيناه الزرقاوان اللتان لا أثر لبياض فيهما كدُجنة الليل أسفل حاجبيه الكثَّين.

سأل كاينز نفسه في اللحظة التي رآهم فيها: *لماذا أمدُّ يدَ العون إلى هؤلاء الناس؟ هذا أخطر عمل قمت به في حياتي، وقد يهلكني معهم.*

ثم أمعن في النظر إلى پول، ورأى الصبيَّ -الذي تدثَّر بدثار الرجولة مبكرًا- يخفي حزنه، ويقمع مشاعره إلَّا ما ظهر منها، محاولًا إثبات أنه جديرٌ بمنصب الدوقية الذي يتعيَّن عليه تولِّيه. في تلك اللحظة أدرك كاينز أن الدوقية لم تزل بوجود هذا الشاب، وأن هذا ليس أمرًا يمكن الاستهانة به.

أدارت چيسيكا بصرها في الكهف، مسجِّلةً زواياه وأركانه في عقلها على طريقة البِني چيسيرِت: *هذا معمل حديث مبنيٌّ على الطراز القديم.*

قال پول: «هذه إحدى محطَّات التجارب البيئية الإمبراطورية التي أراد أبي استخدامها قواعدَ استطلاع للقوَّات».

فكَّر كاينز: *أبوه أراد استخدامها!*

ثم تساءل مجدَّدًا في قرارة نفسه: *هل من الحمق مساعدة هؤلاء الهاربين؟ لِمَ أفعل ذلك؟ ما أسهل النيل منهم الآن لكسب ثقة الهراكنة.*

حذا پول حذو أمه، وتفقَّد أرجاء الغرفة الكهفية. رأى طاولة عمل في أحد الأركان، وعاين الجدران الصخرية الخشنة. على الطاولة، نُضِّدت مجموعة من الأدوات: مؤشِّرات مضيئة، وشبكات تسخين سلكيَّة تخرج منها أقماع وأنابيب اختبار زجاجية. كانت رائحة الأوزون تفوح من المكان.

تحرَّك بعض رجال الفرمن إلى ركنٍ منزوٍ في الغرفة، فتعالت من حيث ذهبوا أصواتٌ جديدة: سعال آلاتٍ قديمة، وصرير أحزمة تدور، وهدير محرِّكات متعدِّدة.

رنا پول إلى طرف الغرفة، وشاهد أقفاصًا فيها حيوانات صغيرة مكدَّسة على الحائط.

قال كاينز: «أصبتَ في تعرُّفك على طبيعة المكان. ما الغرض من هذا المكان برأيك يا پول آتريديز؟».

قال پول: «جعل هذا الكوكب ملائمًا لحياة البشر».

فكَّر كاينز: *رُبَّما لهذا السبب أساعدهم.*

هدأ طنين الآلات فجأة وحلَّ صمتٌ ثقيل كالفراغ لم يقطعه إلَّا زقزقة حيوانٍ رفيعة صادرة من الأقفاص، ثم سرعان ما سكت بعدها كما لو أنه شعر بإحراج.

أعاد پول انتباهه إلى الأقفاص، ولاحظ أنها تحوي خفافيش بنِّية الأجنحة، وأن شبكة تغذية آلية تمرُّ عبر الأقفاص من الجدار الجانبي.

ظهر فرمِني من ركن الحجرة المستتر، وتحدَّث إلى كاينز: «لييت، مولِّد مجال الطاقة لا يعمل. لا أستطيع إخفاءنا عن أجهزة الاستشعار القريبة».

سأله كاينز: «هل تستطيع إصلاحه؟».

- «ليس بسرعة. تعرف أن قطع الغيار...»، ثم بتر الرجل عبارته وهزَّ كتفيه.

قال كاينز: «أعرف. سنفعلها بلا آلات إذًا. اجلب مضخَّة يدوية لضخ الهواء من السطح».

- «في الحال»، قالها الرجل وأسرع مبتعدًا.

عاد كاينز إلى پول وقال: «أحسنت الإجابة».

ميَّزت چيسيكا النبرة العميقة المطمئنة في صوت الرجل. هذا صوتٌ ملوكي اعتاد إعطاء الأوامر. كما أنها لم تغفل عن مخاطبة الرجل له باسم لييت. لييت هي هويَّته الفرمِنية إذًا، الوجه الآخر لعالم البيئات الكوكبية الوادع.

قالت چيسيكا: «نحن في أشدِّ الامتنان لمساعدتك لنا يا دكتور كاينز».

غمغم كاينز: «مممم، سنرى»، ثم أشار إلى أحد رجاله: «أحضر القهوة المخلوطة بالاسپايس إلى مكتبي يا شامير».

قال الرجل: «في الحال يا لييت».

أشار كاينز إلى مدخلٍ مقبَّب محفور في جدار الحجرة الجانبي وقال: «إذا تفضَّلتم».

أومأت چيسيكا إيماءةً نبيلةً قبل أن تتقدَّم، ورأت پول يشير بيده إلى آيداهو كي يبقى حيث هو للحراسة.

كان عمق الممرِّ خطوتين، ويقود عبر بابٍ ثقيل إلى غرفة مكتب مربَّعة تنيرها كرات إنارة ذهبية طافية في الهواء. تحسَّست چيسيكا الباب بيدها وهي تدخل إلى المكتب، ودهشت من كونه مصنوعًا من الپولاذ.

خطا پول ثلاث خطوات في الغرفة، وأسقط حقيبته على الأرض. سمع الباب يُغلق من خلفه، فأدار بصره متفحِّصًا المكان: كان عرض الغرفة ثمانية أمتار، وجدرانها صخورٌ طبيعية بلون الكاري، وتتراص فيها خزانات ملفَّات معدنية إلى يمينهم، وتحتل مركزها طاولة مكتب منخفضة ذات سطحٍ زجاجي بلون الحليب تتخلَّله فقَّاعات صفراء، تحيط بها أربعة مقاعد معلَّقة بمضادَّات الجاذبية.

دار كاينز حول پول، وسحب مقعدًا لچيسيكا. جلست چيسيكا وقد لاحظت الطريقة التي يفحص بها ابنها الغرفة. ظلَّ پول واقفًا هنيهة أخرى، وكشف له تيَّار هواء بسيط يمرُّ في الغرفة أن وراء خزانات الملفَّات يقبع مخرجٌ سرِّيٌّ.

سأله كاينز: «هلَّا تجلس يا پول آتريديز؟».

فكَّر پول: كم هو حريص *على ألَّا يخاطبني بلقبي*، لكنه قبل بالجلوس، وظلَّ صامتًا إلى أن جلس كاينز.

قال كاينز: «شعرت بأن أرَّاكس يمكن أن يتحوَّل إلى جنَّة. لكن كما ترى، الإمبراطورية لا ترسل إلى الكوكب إلَّا أشاوسها المدرَّبين الباحثين عن الاسپايس!».

رفع پول إبهامه الذي يضع فيه خاتم الدوقية، وقال: «أترى هذا الخاتم؟».

- «أجل».

- «أتعي مدلوله؟».

التفتت چيسيكا بحدَّة إلى ابنها.

قال كاينز: «جثمان أبيك يرقد في أطلال أراكين، وهذا يعني أنك نظريًا صرت الدوق».

قال پول: «بل يعني أنني أحد جنود الإمبراطورية، وهذا يجعلني -نظريًا- من الأشاوس».

اكفهرَّ وجه كاينز وقال: «تقول هذا والسَّاردوكار الإمبراطوريون يطئون جثَّة أبيك؟».

قال پول: «السَّاردوكار شيء ومصدر سلطتي القانونية شيءٌ آخر».

قال كاينز: «لأرَّاكس طريقته الخاصة في تحديد من يتقلَّد زمام السُّلطة هنا».

التفتت چيسيكا ناظرة إليه، وفكَّرت: *في هذا الرجل صلابة لم يليِّنها أحد، ونحن الآن في حاجة إلى تلك الصلابة. پول يرتكب عملًا خطِرًا.*

قال پول: «مجيء السَّاردوكار إلى أرَّاكس لهو دليل على مدى خوف إمبراطورنا المحبوب من أبي. الآن، أنا من سأعطي الإمبراطور الپاديشاه أسبابًا للخوف من...».

قاطعه كاينز بحزم: «يا فتى! ثمَّة أمور لا يمكن لك أن...».

قاطعه پول: «من الآن ستخاطبني بمولاي أو بسيِّدي».

فكَّرت چيسيكا: *هداديك!*

حدَّق كاينز إلى پول، ولاحظت چيسيكا بريق الإعجاب في وجه عالم البيئات الكوكبية، مع لمحة من الهزل.

قال كاينز: «مولاي».

قال پول: «أنا مصدر إحراج للإمبراطور، بل مصدر إحراج لكلٍّ من يريد تقسيم غنائم أرَّاكس، وما دُمت على قيد الحياة، سأظلُّ مصدر إحراجٍ، وشوكة في حلق الجميع تخنقهم حتَّى الموت!».

قال كاينز: «مجرَّد كلام».

حدَّجه پول بحدَّة، ثم قال بعد برهة: «لديكم أسطورة هنا عن لسان الغيب، الصَّوت الآتي من عالم آخر، ذلك الذي سيقود الفرمِن إلى الجنَّة. رجالك يعتقدون...».

قاطعه كاينز قائلًا: «محض خرافات!».

وافقه پول: «قد تكون، وقد لا تكون. للخرافات أحيانًا جذورٌ غريبة وفروعٌ أغرب».

قال كاينز: «من الواضح أنك تفكِّر في خطَّة... يا مولاي».

- «هل يمكن أن يقدِّم لي الفرمِن دليلًا دامغًا على أن السَّاردوكار هنا، وأنهم متنكِّرون في ملابس الهراكنة هنا؟».

- «أغلب الظن».

قال پول: «سيعيد الإمبراطور تسليم مقاليد الحكم إلى أحد الهراكنة. رُبَّما حتَّى سيختار رابان الوحش. فليكن، سندعه يفعل ذلك، وعندما يتورَّط بما لا يدع مجالًا للشكِّ لإدانته، سنهدِّده برفع دعوى تفصيلية بكل ما ارتكب من جرائم أمام اللاندسراد، وسنتركه يفكِّر في مسألة مثوله أمام المجلس الأعلى، و...».

صاحت چيسيكا: «پول!».

قال كاينز: «هَب أن مجلس اللاندسراد الأعلى قبل دعواك،

لـن يـؤدّي ذلـك إلّا إلـى نتيجـة حتميّـة واحـدة: حـرب شـاملة بيـن الإمبراطوريـة والعائـلات النبيلـة».

قالت چيسيكا: «فوضى».

قـال پـول: «لكننـي سـأعرض الدعـوى علـى الإمبراطـور قبـل تقديمهـا، وأعطيـه بديـلًا عـن الفوضـى».

قالت چيسيكا بنبرة جافّة: «أتعني ابتزازه؟».

قـال پـول: «هـذا إحـدى أدوات فـن الحكـم كمـا قلـتِ بنفسـك»، فاستشـعرت چيسـيكا المـرارة الباديـة فـي صوتـه، ثـم أردف: «ليـس للإمبراطـور أبنـاء ذكـور، بـل إنـاث فقـط».

سألته چيسيكا: «قل لي إنك لا تطمح إلى العرش؟».

قال پول: «لـن يخاطـر الإمبراطـور بتمزيق وتفكيك الإمبراطوريـة فـي حـربٍ شـاملة. ستُدمَّر كواكب برمّتهـا، وتعـم الفوضـى، وهـو لـن يخاطـر بذلـك».

قـال كاينـز: «إن مـا تقترحـه لهـو مقامـرة يائسـة ومحفوفـة بالمخاطـر».

سـأل پـول: «مـا أكبـر مخـاوف نبـلاء مجلـس اللاندسـراد؟ إنـه مـا يحـدث هنـا والآن علـى أرّاكس. أن يحصـد السّـاردوكار أرواحهـم الواحـد تلـو الآخـر. لهـذا السـبب أُنشـئ مجلـس اللاندسـراد مـن الأسـاس. إنـه الربـاط الـذي يشـدّ وثـاق المعاهـدة الكبـرى. لا شـيء غيـر اتّحادهـم يمكّنهـم مـن مضاهـاة الجيـوش الإمبراطوريـة».

– «لكنهم...».

قاطعـه پـول: «هـذا أكثـر مـا يخشـونه، وأرّاكـس سـيكون صيحـة الاسـتنفار التـي ستجمعهم علـى قلـب رجلٍ واحـد. سـيرى كلٌّ منهـم نفسـه فـي أبـي، معـزولًا عـن القطيـع، ثـم قتيـلًا مشـحّطًا بدمائـه فـي النهايـة».

وجَّه كاينز كلامه إلى چيسيكا: «هل ستفلح خطَّته هذه برأيك؟».

ردَّت چيسيكا: «لست منتاتًا».

- «لكنكِ من البِني چيسيرِت».

حدَّجته بنظرة ثاقبة وقالت: «في خطَّته نقاطٌ جيِّدة ونقاطٌ سيِّئة، مثلها مثل أيِّ خطَّة مبدئية. يعتمد نجاح الخطط على التنفيذ بقدر ما يعتمد على الفكرة».

قال پول مقتبسًا: «"القانون هو أسمى العلوم". هذه العبارة مكتوبة فوق بوَّابة البلاط الإمبراطور، أقترح أن نريه المعنى الحقيقي للقانون».

قال كاينز: «لست متأكدًا من أنني أستطيع الثقة بالشخص الذي وضع هذه الخطة، فلأرَّاكس خطَّته الخاصة التي نحاول...».

قاطعه پول قائلًا: «من موقعي على العرش، يمكنني تحويل أرَّاكس إلى جنَّة بإشارة من يدي. هذا هو الثَّمن الذي أعرضه عليك مقابل دعمك».

تصلَّب كاينز قائلًا: «ولائي ليس للبيع يا مولاي».

حدَّق پول إليه من مكانه عند طرف المكتب المقابل. التقت نظرته النظرة الباردة المطلَّة من العينين التامَّتي الزرقة، وتأمَّل الوجه الملتحي والملامح الآمرة. ارتسمت ابتسامةٌ جافَّةٌ على ثغر پول، وقال: «أحسنت قولًا. أعتذر إليك».

حدَّج كاينز پول بنظرة مماثلة، ثم قال في النهاية: «لم يقرّ أحد الهراكنة بخطئه قط. رُبَّما أنت لست مثلهم يا آتريديزي».

قال پول: «قد يكون هذا لقصورٍ في تعليمهم. تقول إنك لست

للبيع، لكن أظن أنني أملك الثمن الذي ستقبل به. إنني أعرض عليك ولائي مقابل ولائك... ولائي الكامل».

فكَّرت چيسيكا: *صدق وأمانة آل آتريديز يجريان في عروق ابني. إنه يتمتَّع بذلك الشرف العظيم الشبه الساذج الذي يميِّزهم، ويا له من قوَّةٍ جبَّارةٍ حقًّا.*

رأت چيسيكا أن كلمات پول هزَّت كاينز.

قال كاينز: «هذا هُراء، أنت مجرَّد صبيٍّ و...».

قال پول: «أنا الدوق! سليل آل آتريديز، الذي لم يسبق لواحدٍ منهم أن خالف ميثاقًا كهذا».

ابتلع كاينز ريقه.

قال پول: «عندما أقول ولائي الكامل، فأنا أعني ما أقول، دون قيد أو شرط. أعني أنني على استعداد للتضحية بحياتي من أجلكم».

قال كاينز: «مولاي!»، انتُزعت الكلمة منه انتزاعًا، لكن چيسيكا رأت أنه لم يكن الآن يخاطب صبيًّا في الخامسة عشرة، بل رجلًا، شخصًا أرفع مقامًا. كان كاينز يعني الكلمة بكل ما تحمله من معنى.

فكَّرت چيسيكا: *إنه يبدو مستعدًّا للتضحية بحياته في سبيل پول في هذه اللحظة. كيف يكسب آل آتريديز ولاء الرجال بهذه السرعة والسهولة؟*

قال كاينز: «أعرف أنك تعني ما تقول، ولكن الهراكنة...».

فجأةً، فُتح الباب الذي خلف پول بقوَّة، فاستدار الفتى سريعًا ورأى قتالًا عنيفًا يدور في الممرِّ خارجه. صياح، ومقارعة سيوف، ووجوه غبرة.

وثب پول وچيسيكا إلى الباب، ورأيا آيداهو يسدُّ الممرَّ وعيناه الداميتان باديتان عبر غشاوة درع الطاقة، فيما تنهال عليه أيدٍ مخلبية بسيوفٍ كالشهاب، وتحاول عبثًا اختراق درعه بأسنَّتها. انطلقت قذيفةٌ برتقالية من صاعق صدَّها الدرع. راح نصلا آيداهو ينكِّلان بخصومه يمنةً ويسارًا، يشقَّان ويقطِّعان، ودماءٌ حمراء تتقاطر منهما.

انضم كاينز إلى پول وأُمِّه، وألقى ثلاثتهم أنفسهم على الباب لإغلاقه.

لمح پول آيداهو مرَّة أخيرة وهو يصدُّ حشدًا من ذوي البزَّات الهاركونية، وقد صارت ضرباته مترنِّحة، واصطبغ شعره الملبَّد كشعر الماعز بحمرة الموت. ثم انغلق الباب، وأحكم كاينز تأمينه بالمزلاج.

قال كاينز: «يبدو أنني قد اتَّخذت قراري».

قال پول: «تتبَّع أحدهم محرِّكات آلاتكم قبل إيقافها»، ثم سحب أُمَّه بعيدًا عن الباب، ورأى نظرة اليأس في عينيها.

قال كاينز: «كان يجب أن أشكَّ في وجود مشكلة حين تأخَّرت القهوة».

قال پول: «لديك مخرج طوارئ سرِّي هنا، هل سنستخدمه؟».

أخذ كاينز نفسًا عميقًا وقال: «ينبغي لهذا الباب أن يصمد عشرين دقيقة على الأقل أمام أيِّ شيءٍ، ما عدا بنادق الليزر».

قال پول: «لن يخاطروا باستخدام بنادق الليزر خشية أن يكون لدينا دروع طاقة هنا».

همست چيسيكا: «هؤلاء كانوا ساردوكارًا في زيِّ الهراكنة».

الآن، بدأت ضربات منتظمة تضرب الباب.

أشار كاينز إلى الخزانات المصطفَّة بمحاذاة الحائط الذي إلى يمينه، وقال: «من هنا»، ثم اتَّجه إلى الخزانة الأولى، وفتح أحد أدراجها، وأدار مقبضًا بداخله. انفتح جدار الخزانات برمَّته كاشفًا عن نفقٍ مظلم خلفه. قال كاينز: «هذا الباب أيضًا من البولاذ».

قالت چيسيكا: «أنتم مستعدُّون جيِّدًا».

قال كاينز: «لقد رزحنا تحت نير الهراكنة لثمانين عامًا»، ثم اقتادهما إلى فمِّ الظلام، وأغلق الباب.

وسط العتمة المفاجئة، رأت چيسيكا سهمًا مضيئًا يتوهَّج على الأرض أمامها.

جاء صوت كاينز من خلفهما: «هنا سنفترق. هذه الجدار متين، وسيصمد نحو الساعة. اتبعا تلك الأسهم المضيئة على الأرض -التي ستخمد من تلقاء ذاتها فور مروركما- وستقودكما عبر متاهة من الممرَّات إلى مخرجٍ آخر خبَّأت عنده طائرة ثوبتر. ستجتاح الصَّحراء الليلة عاصفةٌ عاتية. أملكما الوحيد هو بلوغ تلك العاصفة، والغوص فيها، ومن ثم ركوبها. هكذا يفرُّ قومي بالثوبترات التي يستولون عليها. إن امتطيتما العاصفة ستنجوان».

سأله پول: «وماذا عنك؟».

- «سأحاول الهروب من طريقٍ آخر، وإن أُسِرت لا مشكلة، فأنا ما زلت عالم البيئات الكوكبية التابع للإمبراطور. سأدَّعي أنني كنت أسيرًا لكما».

فكَّر پول: *ها نحن نهرب كالجبناء. لكنها الطريقة الوحيدة كي أعيش لأنتقم لأبي*، ثم استدار ليواجه الباب.

سمعت چيسيكا حركته، وقالت: «دانكن مات يا پول. لقد رأيت جرحه بنفسك. لا يمكنك مساعدته الآن».

قال پول: «سأثأر لهم جميعًا يومًا ما».
قال كاينز: «لن تفعل إن لم تُسرع الآن».
شعر پول بيد الرجل تربّت على كتفه.
سأله پول: «أين سنلتقي يا كاينز؟».
- «سأرسل جماعة من الفرمِن للبحث عنكما، فمسار العاصفة معروف لنا. أسرع الآن، عسى أن تمنحك الأُمُّ العظيمة السرعة والحظ».
ثم سمعاه يهرول مبتعدًا في الظلام.
بحثت چيسيكا عن يد پول، وجذبته إليها برفق وقالت: «يجب ألَّا نفترق».
- «أجل».
تبعها پول ومرَّا فوق السهم الأوَّل، ورأياه ينطفئ فور ملامستهما له. أضاء سهمٌ آخر مرشدًا الطريق أمامهما، فعبراه، ورأياه يخبو من تلقاء نفسه، ثم أضاء آخر أمامهما.
كانا يركضان الآن.
فكَّرت چيسيكا: *خطط ضمن خطط ضمن خطط. هل صرنا جزءًا من خطَّة شخص آخر الآن؟*
قادتهما الأسهم عبر منعطفات، وفتحات جانبية استشعروها بالكاد في الإضاءة الخافتة. انحدر بهما المسار بعض الوقت، ثم بدأ يصعد، واستمر في صعوده. في النهاية وصلا إلى درجاتٍ منحوتة، ثم أخذا منعطفًا، ليجدا نفسيهما أمام حائطٍ مضيءٍ يسدُّ الطريق، في منتصفه مقبضٌ داكن.
أمسك پول بالمقبض وحرَّكه.
انفتح الحائط إلى الخارج، وأغشى أعينهما ضوءٌ باهر، قبل أن يكشف لهما عن كهفٍ محفور في الصخر تقبع بمنتصفه

أورنيثوبتـر منتظـرة. لاح حائـطٌ رمـادي مسـطَّح مـن خلـف الطائـرة عليـه لافتـة تشـير إلـى أنـه بـاب.

سألت چيسيكا: «أين ذهب كاينز؟».

قـال پـول: «فعل مـا كان سيفعله أيُّ زعيـم حـرب عصابات جيِّد، فصلنـا إلـى مجموعتيـن ورتَّـب الأمـر بطريقـة لا تسـمح لـه بكشـف موقعنـا إذا وقـع فـي الأسـر، لأنـه يجهلـه حقًّـا».

سـحبها پـول معـه إلـى داخـل الغرفـة، ولاحـظ كيـف أن خطواتهمـا تثيـر غبـارًا سـميكًا يغطّـي الأرضيـة.

قال لها: «لم يأت أحدٌ إلى هنا منذ وقتٍ طويل».

قالت: «بدا واثقًا بأن الفرمِن سيعثرون علينا».

- «وأنا أشاركه ذات الثقة».

أفلـت پـول يدهـا، واتَّجـه إلـى بـاب الأورنيثوبتـر وفتحـه، وأمَّـن مكانًـا لحقيبتـه فـي الخلـف.

ثـم قـال: «هـذه الطائـرة محجوبـة عـن أجهـزة الاستشـعار. لوحـة العـدَّادات بهـا زر للتحكُّـم عـن بُعـد فـي البـاب، وآخـر للتحكُّـم فـي الإضـاءة. ثمانـون عامًـا تحـت حكـم الهراكنـة علَّمتهـم الكثيـر».

استندت چيسيكا إلى باب الطائرة الآخر، ملتقطةً أنفاسها.

ثـم قالـت: «سينشـر الهراكنـة قوَّاتهـم لتمشـيط المنطقـة. إنهـم ليسـوا أغبيـاء»، ثـم اسـتجمعت حاسَّـة الاتِّجـاه لديهـا، وأشـارت إلـى اليميـن: «العاصفـة التـي رأيناهـا فـي هـذا الاتِّجـاه».

أومـأ پـول، وقـاوم شـعورٌ مفاجـئ بالإحجـام والنفـور اعتـراه. كان يـدرك السَّـبب الكامـن وراء الشـعور، لكـن المعرفـة لـم تنفعـه بشـيء. فـي لحظـةٍ مـا مـن هـذه الليلـة كان قـد عبـر المفتـرق الـذي تتشـعَّب منـه القـرارات، وغـاص فـي أعمـاق المجهـول. كان يعلـم النطـاق

الزمني الذي هما فيه، لكن اللحظة الآنية كانت مكانًا مبهمًا يلفُّه الغموض. بدا الأمر كأنه رأى نفسه من بعيد يغيب عن النظر أسفل وادٍ، ومن بين الطرق التي لا حصر لها التي تخرج متشعِّبة من هذا الوادي، قد يصل بعضها به إلى برِّ الأمان، لكنه قد يضل في كثيرٍ منها.

قالت چيسيكا: «كلَّما طال انتظارنا، سيكونون أكثر استعدادًا».

قال لها: «اركبي واربطي حزامك».

انضمَّ إليها پول داخل الأورنيثوبتر وهو ما زال يصارع فكرة أن هذه اللحظة منطقة عمياء، لم يرها في أيِّ رؤيا استبصارية، وأدرك مصدومًا أنه صار يعوِّل أكثر فأكثر على ذاكرته الاستبصارية، وأن هذا أضعف قدرته على التعامل مع هذا الظرف الطارئ.

«الاعتماد على عينيك يضعف حواسك الأخرى». هذا قول مأثور لدى البِني چيسيرِت. طبَّق پول القول على نفسه، وأقسم ألَّا يقع في هذا الشرك مرَّةً أخرى. هذا إن نجا.

ربط پول حزام المقعد، وتأكَّد من أن حزام أُمِّه مربوط جيِّدًا، ثم فحص عدَّادات المركبة. كانت الأجنحة مفرودة في حالة استرخاء كامل، ونسيجها المعدني الرقيق ممدودًا.

جذب پول القضيب الضام، ورأى الأجنحة تتكمش استعدادًا للإقلاع بالنفَّاثات بالطريقة التي علَّمه إيَّاها جيرني هاليك. دار مفتاح التشغيل بسلاسة، فدبَّت الحياة في عدَّادات لوحة التحكُّم مع عمل المحرِّكات، ودارت التوربينات مصدرة هسيسًا خافتًا.

سألها: «مستعدة؟».

– «أجل».

ضغط زرَّ التحكُّم في الإضاءة عن بعد.

فلفَّهما الظلام.

صارت يداه ظلَّين يتحرَّكان على خلفية العدَّادات المضيئة، وضغط زر تشغيل آلية باب الحجرة عن بُعد. تعالى صريرٌ معدني حاد من أمامهما، وانهال شلال الرمال المتراكمة خلف الباب إلى داخل الحجرة قبل أن يعم الصَّمت. لمس نسيمٌ عابر وجنتي پول، فأغلق باب الثوبتر وشعر بالضغط المفاجئ الذي وقع على أُذُنيه.

ظهرت رقعة واسعة من النجوم غير الواضحة وسط الغبار، محاطة بإطار من الظلام يشكِّل أضلعه الباب الجداري. حدَّد ضوء النجوم معالم جرفٍ صخري بعيد، وبدت أسفله التموُّجات الرملية غير واضحة.

أدار پول محوِّل التشغيل المضيء على اللوحة. فرفرفت الأجنحة بقوَّة إلى أعلى وأسفل دافعةً الثوبتر خارج عُشِّها، ثم تدفَّق الوقود المحترق من النفَّاثات وطُويت الأجنحة في وضع الإقلاع.

وضعت چيسيكا يديها على أدوات التحكُّم الخاصة بمساعد الطيَّار برفق، مستشعرةً الثقة التي يتحكَّم فيها ابنها في المركبة. شعرت بالخوف والبهجة في آنٍ واحد، وفكَّرت: *تدريب پول هو أملنا الوحيد الآن. لا أمل لنا سوى شبابه وحيويَّته.*

ضخَّ پول مزيدًا من الوقود في المحرِّكات النفَّاثة. مالت الثوبتر على جانبها فغاصا في مقعديهما، وارتفع جدارٌ داكن أمامهما حاجبًا بعض النجوم. أطال پول أجنحة المركبة، وغذَّاها بمزيدٍ من الطاقة، وبعد خفقات متتالية من رفرفة الأجنحة ارتفعا فوق الصخور، وشاهدا أسفلهما النتوءات والزوايا السابحة في ضوء النجوم الفضِّي. إلى يمينهما، كشف القمر الثاني عن نفسه فوق

خط الأفق من وراء سحابة غبار حمراء، محدِّدًا مسار العاصفة.

عزفت يدا پول بمهارة على أدوات التحكُّم. انمكشت الأجنحة بتحزيز إلى أن صارت كأجنحة خنفساء قصيرة، وضغطت قوَّة التسارع جسديهما بقوة عندما مالت الطائرة بزاوية حادَّة.

قالت چيسيكا: «شعلات تمويه حراري أمامنا».

- «أراها».

قالها ودفع ذراع الطاقة إلى الأمام.

وثبت الثوبتر كالحيوان المذعور، واندفعت مرتفعةً باتِّجاه الجنوب الغربي نحو العاصفة ومنحنى حافة الصَّحراء العظيم. على مسافة قريبة، رأى پول ظلالاً متناثرة تدل على المكان الذي ينتهي عنده خط الصخور، حيث تغوص شبكة السراديب تحت الكثبان الرملية. خلف الصخور، امتدَّ بحرٌ من الظلال الهلالية في ضوء القمر: كثبان يموج بعضها في بعض، عاريةً من كل أثر.

وفوق خطِّ الأفق، ارتفعت العاصفة الهائلة إلى عنان السماء، كجدار هائل يحجب النجوم.

رجَّ شيءٌ ما بدنَ الثوبتر.

شهقت چيسيكا جزعة: «قذيفة منفجرة! إنهم يستخدمون نوعًا ما من المقذوفات».

رأت چيسيكا الابتسامة الوحشية التي تلاعبت على ثغر پو وهو يقول: «يبدو أنهم يتجنَّبون استخدام مدافع الليزر».

- «لكننا لا نملك درع طاقة!»

- «وهل يعرفون ذلك؟».

ارتجَّ بدن الثوبتر مجدَّدًا.

ثنى پول جزعه لينظر خلفه، وقال: «بينهم واحد فقط سريع بما يكفي لمواكبتنا».

ثم أعاد انتباهه إلى مسارهما، ورأى العاصفة تتنامى في الأُفُق، وتلوح أمامهما كأنها جدارٌ صلد ملموس.

همس پول: «علينا تسليح الفرمِن بالقاذفات والصواريخ وكل الأسلحة القديمة الأخرى».

قالت چيسيكا: «العاصفة يا پول، أليس من الأفضل أن تستدير؟».

- «ماذا عن المركبة التي تلاحقنا؟».

- «إنها ترتفع مبتعدة».

- «الآن إذًا!».

قالها پول وطوى الأجنحة، ومال بزاوية حادَّة إلى اليسار متَّجهًا صوب جدار العاصفة الذي بدا -على نحوٍ مضلِّل- أنه يموج ببطء، وشعر بقوَّة التسارع تجذب لحم وجنتيه.

انزلقا عبر سحابة بطيئة من الغبار ازدادت كثافةً وثقلًا بالتدريج مع توغُّلهما فيها، إلى أن حجبت عنهما الصَّحراء والقمر، وصارت الطائرة قطعة من الظلام البهيم لا يكسره إلَّا الضوء الأخضر المنبعث من لوحة العدَّادات.

تذكَّرت چيسيكا كل التحذيرات المتعلِّقة بمثل هذه العواصف في ومضاتٍ خاطفة: كيف أنها قادرة على قطع المعدن كأنه زبد، وتجريد العظام من اللحم، ونخر العظام إلى رميم.

أحسَّت بعصف الرياح المحمَّلة بالغبار. أمالت الرياح الثوبتر التي يجاهد پول كي يتحكَّم فيها، ورأته يقطع الطاقة عن المحرِّكات، ثم شعرت بالمركبة تنحدر نزولًا. ارتجف المعدن من حولهما وأنَّ مصدرًا هسيسًا عاليًا.

صاحت چيسيكا: «الرمال!».

ورآته يهزُّ رأسه نفيًا في ضوء لوحة التحكُّم: «لا توجد رمال كثيرة على هذا الارتفاع».

لكنها شعرت بأنهما يغوصان أكثر في قلب العاصفة.

فرد پول الأجنحة على أقصى امتدادٍ لها، وسمع صريرها تحت تأثير الضغط، وأبقى عينيه مثبَّتتين على العدَّادت. استمرَّ يحلِّق بالثوبتر بغرزيته الفطرية، مجاهدًا للحفاظ على ارتفاعها.

خفت صوت اندفاعهما عبر الرياح، وبدأت الثوبتر في الانحراف يسارًا. ركَّز پول انتباهه على الكرة المضيئة في عدَّاد منحنى الاتِّجاه، وجاهد مستعيدًا مركبته إلى مستوى التحليق.

راود چيسيكا شعورٌ غامضٌ بأنهما ثابتان في مكانيهما، وأن الموجودات في الخارج هي التي تتحرَّك. صفرة غابرة غامضة تتدفَّق على النوافذ، وصريرٌ خشن ذكَّرها بالقوى العاتية المحيطة بهما.

وفكَّرت: *تلك الرياح سرعتها سبعمئة أو ثمانمئة كيلومترٍ في الساعة*. شعرت بالأدرينالين يتدفَّق في عروقها، قالت لنفسها: *يجب ألَّا أخاف*، متمتمةً بكلمات تعويذة البِني چيسيرِت: *الخوف قاتل*.

ببطء، انتصرت سنوات تدريبها الطويلة على الخوف.

وعادت إليها السكينة.

همس پول: «الوضع خرج عن السيطرة. لن نستطيع الانخفاض أو الهبوط، ولا أظن أنني قادر على اعتلاء العاصفة. سنضطر إلى ركوبها إلى النهاية».

انقشعت السكينة سريعًا كما شملتها، وشعرت چيسيكا بأسنانها تصطكُّ خوفًا، فعضَّت على نواجذها. ثم سمعت صوت پول، منخفضًا ومنضبطًا، يتلو التعويذة:

«الخوف قاتل. الخوف مِيتةٌ صُغرى تُهلك قبل الأوان. سأواجه خوفي. سأسمح له بتجاوزي والمرور من خلالي. وحين يمرُّ، سأرنو بعين البصيرة لأرى مسلكه. وحيث مضى الخوف لن يبقى شيء، لن يبقى سواي».

قل لي ماذا تحتقر، أقل لك من أنت!

من كتاب «دليل المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

قال قائد الحرس آياكين نيفود: «قُضي الأمر يا مولاي البارون. المرأةُ والصبيُّ قطعًا ماتا».

اعتدل البارون ڤلاديمير هاركونن جالسًا في الفراش المعلَّق بمضادَّات الجاذبية في جناحه الخاص. كانت فرقاطة الفضاء التي هبط بها على أرّاكس ممتدَّةً خلف هذا الجناح وتحيط به كبيضة متعدِّدة القشور. لكن هنا في حجرته الخاصة، كان هيكل السفينة المعدني القاسي مختفيًا وراء الستائر والحشوات القماشية والقطع الفنِّية النادرة.

كرَّر قائد الحرس: «الأمر مؤكَّد. لقد ماتا».

نقل البارون جسده الضخم في الفراش المعلَّق بمضادَّات الجاذبية، مركِّزًا اهتمامه على مشكاةٍ عبر الغرفة موضوع عليها تمثال من حجر الإبالين لصبيٍّ يقفز. طار النوم من عينيه، فعدَّل من وضع مضادَّات الجاذبية المبطَّنة بحشوة أسفل ثنيات عُنُقه المترهِّل، وعلى الضوء الخافت المنبعث من كرة الإنارة الوحيدة في غرفة نومه نظر إلى المدخل حيث يقف نيفود، يمنعه من الدخول درع الطاقة الخماسي.

كرَّر الرجل: «المرأةُ والصبيُّ قطعًا ماتا أيُّها البارون».

لاحظ البارون النظرة البليدة في عيني نيفود من أثر تعاطي السِموتا. بدا واضحًا أن الرجل كان منتشيًا بالمخدِّر عندما تلقَّى هذا التقرير، وأنه تناول الترياق لتوِّه قبل أن يسرع إلى هنا.

قال نيفود: «جاءني تقريرٌ كامل».

فكَّر البارون: *دعه يتعرَّق خوفًا قليلًا. على المرء أن يحافظ دائمًا على أداتي فن الحكم، السُّلطة والخوف، مشحوذتين وجاهزتين.*

دمدم البارون: «هل رأيت جثَّتيهما؟».

بدا التردُّد على نيفود.

- «حسنًا؟».

- «مولاي... لقد شوهدا يغوصان في عاصفة رملية. سرعة الرياح في تلك العواصف تصل إلى ثمانمئة كيلومتر. لا شيء ينجو من تلك العواصف يا مولاي، لا شيء على الإطلاق! إحدى طائراتنا دُمِّرت في أثناء المطاردة».

حدَّق البارون إلى نيفود، ولاحظ الرعشة البادية في عضلات فمه، وحركة ذقنه وهو يبتلع ريقه.

كرَّر البارون سؤاله: «هل رأيت الجثث؟».

- «مولاي...».

قاطعه البارون هادرًا: «لأي غرض أتيتني متبخترًا في درعك إذًا؟ كي تزفَّ إليَّ خبرًا مؤكَّدًا في حين أنه ليس كذلك؟ أظننت أنني سأثني عليك لغبائك، أم رُبَّما سأمنحك ترقيةً أخرى؟».

شحب وجه نيفود حتَّى صار في بياض العظام.

فكَّر البارون: *ما أجبنه من دجاجة. أنا محاط بأمثال هذا التافه الحقير. إذا نثرت الرمال أمام هذا الكائن وقلت له إنها حبوب، فسوف ينقرها.*

سأل البارون: «إذًا قادنا ذلك المدعو آيداهو إلى مكانيهما؟».

- «أجل يا مولاي!».

فكَّر البارون: *انظر كيف يلفظ إجاباته بلا تفكير*، ثم قال: «كانا يحاولان الفرار إلى الفرمِن، أليس كذلك؟».

- «أجل يا مولاي».

- «هل ذكر.. هذا التقرير شيئًا آخر؟».

- «عالم البيئات الكوكبية كاينز متورِّط في الأمر يا مولاي. انضم آيداهو إلى هذا المدعو كاينز في ظروفٍ غامضة.. بل يمكن أن أصفها بالمريبة».

- «و؟».

- «لقد.. آه.. فرَّا معًا إلى مكانٍ في الصَّحراء من الواضح أن الصبيَّ وأُمَّه كانا يختبئان فيه. في خضم المطاردة، أطاح انفجار ناتج عن تماس شعاع ليزر مع درع طاقة بعدَّة مجموعات من قوَّاتنا».

- «كم رجلًا فقدنا».

- «آه.. لست متأكِّدًا بعد يا مولاي».

فكَّر البارون: *إنه يكذب. لا بُدَّ أن الخسارة فادحة.*

قال البارون: «وهذا الخادم الإمبراطوري المدعو كاينز، كان يلعب على الطرفين، أليس كذلك؟».

- «أراهن بسمعتي على هذا مولاي».

سُمعته!

سأل البارون: «اقتلوه».

- «ولكن يا مولاي! كاينز عالم البيئة الإمبراطوري، وهو تابع لجلالته...».

- «رتِّبوا مقتله كي يبدو كأنه حادث إذًا».

«مولاي، اشترك السَّاردوكار مع قوَّاتنا في مداهمة وكر الفرمن. كاينز في حوزتهم الآن».

- «انتزعه من قبضتهم إذًا. قل إنني أريد استجوابه».

- «وإذا اعترضوا؟».

- «لن يعترضوا إذا تصرَّفت مع الأمر بحكمة».

ابتلع نيفود ريقه وقال: «حسنًا يا مولاي».

دمدم البارون: «هذا الرجل يجب أن يموت. لقد حاول مساعدة أعدائي».

تململ نيفود في وقفته كالقلق.

- «ماذا أيضًا؟».

- «مولاي، لدى السَّاردوكار أسيرٌ آخر قد يهمُّك أمره. لقد أمسكوا بكبير المقاتلين التَّابع للدوق».

- «حوَّاط؟ ظفير حوَّاط؟».

- «لقد رأيت الأسير بنفسي يا مولاي. إنه حوَّاط بالفعل».

- «لم أحسب أن هذا ممكنًا!».

- «قالوا إن قذيفة صاعق أفقدته وعيه في الصَّحراء، حيث لم يستطع استخدام درعه. لم يصب بأذى تقريبًا يا مولاي. إذا تمكَّنا من وضع أيدينا عليه، فسنتسلَّى كثيرًا».

زمجر البارون قائلًا: «أنت تتحدَّث عن مِنتات. المرء لا يفرِّط في مِنتات. هل تكلَّم؟ ما تعليقه على هزيمته؟ هل يدرك أبعاد الـ... بالتأكيد لا».

- «ما قاله يا مولاي يكشف أنه يظنُّ أن الليدي چيسيكا هي الخائنة».

- «آهااا».

غـاص البـارون فـي جلسـته مفكّـرًا قليـلًا، ثـم قـال: «هـل أنـت متأكِّـد مـن أن غضبـه منصـبٌّ علـى الليـدي چيسـيكا؟».

- «قالها في حضوري يا مولاي».

- «دعه يظن أنها نجت إذًا».

- «ولكن يا مولاي...».

- «لا أريـد جـدالًا! أريـد أن يُعامـل حـوَّاط برفـق، وألَّا يعـرف شـيئًا عـن الدكتـور يُـوي الراحـل، الخائـن الحقيقـي. أخبـروه بـأن الدكتـور يُـوي مـات وهـو يدافـع عـن دوقـه، فهـذه حقيقـة بشـكلٍ أو بآخـر. وفـي المقابـل، سـنغذّي شـكوكه فـي الليـدي چيسـيكا».

- «مولاي، أنا لا...».

- «التحكُّـم فـي أيِّ مِنتـات وتوجيهـه يـا نيفـود يكـون عـن طريـق تضليلـه بالمعلومـات. المعلومـات الزائفـة تؤدِّي إلـى اسـتنتاجات زائفـة».

- «صحيح كلامك يا مولاي، ولكن...».

- «أهو جائع؟ أو ظمآن؟».

- «مولاي، حوَّاط ما زال في قبضة السَّاردوكار».

- «آه، صحيـح! لكـن السَّـاردوكار سـيكونون حريصيـن مثلـي تمامًـا علـى انتـزاع المعلومـات مـن حـوَّاط. لقـد لاحظـت شـيئًا عـن حلفائنـا يـا نيفـود. إنهـم لا يتمتَّعـون بالدهـاء... السياسـي. أظـن أن هـذا الأمـر متعمَّـد ومـدروس. الإمبراطـور يريدهـم هكـذا. أجـل، أظـن هـذا. ذكِّـر قائـد السَّـاردوكار بشـهرتي فـي الحصـول علـى المعلومـات مـن الأسـرى الممانعيـن».

بدا الاستياء على نيفود وهو يقول: «أمرك يا مولاي».

- «أخبـر قائـد السَّـاردوكار أننـي أرغـب فـي اسـتجواب كلٍّ مـن

حوَّاط وكاينز في الوقت نفسه، لتقليب أحدهما على الآخر. أظنه سيفهم هذا جيِّدًا».

- «أمرك يا مولاي».

- «وما إن نضع أيدينا عليهما...»، قالها البارون وأومأ في رضا.

- «مولاي، سيطلب السَّاردوكار وضع مراقب معك في أثناء... الاستجواب».

- «سنختلق أيَّ حجَّة لإبعاد المراقبين غير المرغوب فيهم يا نيفود».

- «فهمتك يا مولاي. وعندها سيتعرَّض كاينز لحادثة».

- «كلٌّ من كاينز وحوَّاط سيتعرَّض لحادثة يا نيفود، ولكن حادثة كاينز وحدها هي التي ستكون حقيقية، فأنا لا أريد إلَّا حوَّاط. آه، أجل!».

رمش نيفود وابتلع ريقه وبدا كأنه على وشك أن يطرح سؤالًا، لكنه ظلَّ صامتًا.

قال البارون: «قدِّموا الطعام والشراب إلى حوَّاط، وعاملوه برفقٍ ولين. وفي شرابه دسُّوا السُّمَّ الكامن الذي ابتكره پايتر دي فريس، واحرص على حقن الترياق في طعامه باستمرار بدايةً من هذه اللحظة، ما لم أعطِك أمرًا بخلاف ذلك».

- «الترياق، بالتأكيد»، ثم هزَّ نيفود رأسه وأردف: «ولكن...».

- «لا تكن غبيًّا يا نيفود. كاد الدوق يقتلني بتلك الكبسولة السَّامة، وقد سلبني الغاز الذي زفره في حضوري أهم مِنتات لديَّ. أحتاج إلى بديل».

- «حوَّاط؟».

- «أجل، حوَّاط».

- «ولكن...».

- «أعرف ما ستقول، إن حوَّاط مخلص تمامًا لآل آتريديز. هذا صحيح، لكنهم ماتوا جميعًا. سنتودَّدُ إليه، وسنقنعه بأنه ليس مسؤولًا عن وفاة الدوق، وبأن الأمر برمَّته من فعل ساحرة البِني چيسيرِت تلك. سننفث في أُذُنيه أن سيِّده كان ضعيفًا وسمح لعواطفه بأن تعمي عقله. المِنتات يُعجبون بالقدرة على التفكير دون عواطف يا نيفود. سنظفر بظفير حوَّاط العظيم».

- «أجل يا سيِّدي، سنظفر به».

- «للأسف، حظي حوَّاط بسيِّدٍ فقير الموارد، شخص لا يستطيع رفع مِنتاته إلى أعلى مستويات المنطق، إلى ذُرى التفكير السامية التي يستحقُّها كل مِنتات. سيرى حوَّاط شيئًا من الحقيقة في هذا، فالدوق لم يستطع تحمُّل مصاريف جواسيس أكفاء لتزويد مِنتاته بالمعلومات المطلوبة». أنهى البارون كلامه وحدَّق إلى نيفود، ثم أردف: «لا داعي لأن نخدع أنفسنا يا نيفود، فالحقيقة سلاحٌ قوي. نحن نعلم كيف هزمنا آل آتريديز، وحوَّاط أيضًا يعلم. فعلناها بالثروة».

- «أجل يا مولاي، بالثروة».

قال البارون: «سنستقطب حوَّاط، وسنخفيه عن أعين السَّاردوكار. وسنبقي ورقة الترياق المضاد للسُّمِّ في أيدينا على سبيل الاحتياط. لا سبيل أمام الجسم للتخلُّص من السُّمِّ الكامن. يجب ألا يرتاب حوَّاط في الأمر يا نيفود. الترياق لن ينكشف لأيِّ كشَّاف سموم. يستطيع حوَّاط فحص طعامه كما شاء ولن يكتشف أدنى أثرٍ للسُّمِّ».

التمعت عينا نيفود بالفهم.

قال البارون: «غياب الشيء يمكن أن يكون مميتًا كوجوده. كغياب الهواء، أليس كذلك؟ أو الماء؟ أو أيّ شيء آخر لا يمكن الاستغناء عنه»، ثم أومأ مردفًا: «أتفهمني يا نيفود؟».

ابتلع نيفود ريقه وقال: «أجل يا سيِّدي».

- «اذهب ونفِّذ إذًا. اعثر على قائد السَّاردوكار وحرِّك الأمور».

- «على الفور يا مولاي»، قالها نيفود وانحنى، ثم استدار على عقبيه وسارع بالمغادرة.

فكَّر البارون: *حوَّاط في صفوفي! يا للروعة! سيقبل السَّاردوكار بتسليمه لي. إن كانوا يرتابون في شيء، فهو رغبتي في تدمير المنتات، وسوف أؤكِّد لهم هذا الشك! هؤلاء الحمقى! هذا أحد أعظم المنتات في التاريخ، منتات دُرِّب على القتل، وسوف يلقونه إليَّ كأنه دُمية سخيفة لا ضير في تحطيمها، لكنني سأريهم كيف يمكن الاستفادة من مثل هذه الدُّمية.*

مدَّ البارون يده تحت الستارة المجاورة لسريره المعلَّق، وضغط زِرًّا لاستدعاء ابن أخيه الأكبر، رابان، ثم أراح ظهره مبتسمًا.

كما أن كل آل آتريديز لقوا حتفهم!

قائد الحرس الأحمق محقٌّ بالطبع. قطعًا لا شيء ينجو من العواصف الرملية على أرَّاكس. لا أورنيثوبتر، ولا ركَّابها. لقد ماتت المرأة والصبيُّ. الرُّشى التي دُفعت للأشخاص في الأماكن الصحيحة، والنفقات الهائلة التي تطلَّبتها تلك الحملة العسكرية الجبَّارة على هذا الكوكب، والتقارير الماكرة التي صيغت خصيصى للإلقاء على مسمع الإمبراطور وإسعاده.. كل هذا التخطيط الدقيق أتت ثماره أخيرًا.

سرح البارون في المستقبل الممتدِّ أمامه. يومًا ما سيصبح أحد الهراكنة إمبراطورًا. ليس هو، ولا ولدًا من صلبه، وإنما فردٌ آخر من نسل الهراكنة. ليس رابان الذي استدعاه لتوِّه، بل شقيقه الأصغر فيد راوثا. كان الفتى يتمتَّع بحِدَّة ذهن تثير إعجاب البارون.. كان يتمتَّع بشراسة.

فكَّر البارون: *إنه غلام رائع. بعد عام أو اثنين، لنقل عندما يبلغ السَّابعة عشرة من عمره، سأعرف على وجه اليقين إن كان هو الأداة التي يحتاج إليها الهراكنة للجلوس على العرش أم لا.*

- «مولاي البارون».

كان الواقف خلف مجال طاقة باب غرفة نوم البارون رجلٌ قصير البنية، غليظ الوجه والبدن، ورث صفات الهراكنة الذكورية من قِصَر المسافة بين العينين وعَرض المنكبين. كان يتمتَّع ببعض الصلابة أسفل دهونه، لكن كان يتَّضح من هيئته أنه سيأتي يومٌ عليه سيضطر فيه إلى الاستعانة بحزام مضادات جاذبية لحمل وزنه الزائد.

فكَّر البارون: *ما ابن أخي إلَّا دبَّابة بشرية، عضلات بلا عقل. إنه ليس مِنتاتًا.. ليس بايتر دي فريس.. لكنه رُبَّما أنسب شخص للمهمَّة المطروحة. إن أعطيته مطلق الحرِّية، سيسحق كل شيءٍ في طريقه. أوه، كم سيكون مكروهًا هنا على أرَّاكس.*

قال البارون: «عزيزي رابان»، ثم أزال مجال طاقة الباب، لكنه أبقى على درع جسده بكامل طاقته، عالمًا أن وميضه سيكون واضحًا في ضوء كرة الإنارة المجاورة لفراشه.

قال رابان: «هل استدعيتني؟»، وخطا إلى داخل الحجرة ملقيًا نظرة عبر اضطراب الهواء الناتج عن درع الطاقة، وبحث عن أحد المقاعد المضادة للجاذبية فلم يجد.

قال البارون: «اقترب كي أراك بوضوح».

خطا رابان خطوة أخرى مفكِّرًا في هذا العجوز اللعين الذي تعمَّد إزالة كل المقاعد ليجبر الزائر على الوقوف.

قال البارون: «مات آل آتريديز عن بُكرة أبيهم. هذا هو السبب الذي استدعيتك إلى أرَّاكس من أجله. لقد عاد الكوكب لك».

طرفت عينا رابان: «لكنني ظننت أنك ستدفع بپايتر دي فريس إلى...».

- «پايتر كذلك مات».

- «پايتر؟».

- «أجل پايتر».

أعاد البارون تشغيل مجال طاقة الباب، وضبطه بحيث يحجب اختراق كل أنواع الموجات.

سأله رابان: «أخيرًا سئمت منه، أليس كذلك؟».

بدا صوته خافتًا وبلا حياة بسبب خلو الغرفة من الموجات.

دمدم البارون: «سأقول لك شيئًا لن أكرِّره مرَّةً أخرى. أنت تلمِّح إلى أنني تخلَّصت من پايتر كما يتخلَّص المرء من شخصٍ تافه عديم القيمة... هكذا»، وفرقع بإصبعيه، ثم أردف: «أنا لست غبيًا إلى هذه الدرجة يا ابن أخي، وإذا لمَّحت مرَّةً أخرى -بكلمةٍ أو بفعلٍ- أنني بهذا الغباء فلن أتهاون معك».

ضاقت عينا رابان وبدا الخوف فيهما. كان يعلم الحدود التي لن يتجاوزها البارون في توقيع العقاب على فرد من أفراد العائلة، والتي نادرًا ما تصل إلى الإعدام، إلَّا إذا كان على المحك أرباحٌ هائلة، أو لو اُستُفِزَّ إلى أقصى درجة. لكن هذا لا ينفي أن العقوبات العائلية قد تكون مؤلمة.

قال البارون: «اعذرني يا سيِّدي البارون»، وخفض عينيه لا لإظهار خضوعه فحسب، بل لإخفاء غضبه كذلك.

قال البارون: «خنوعك لا يخدعني يا رابان».

أبقى رابان عينيه خفيضتين، وابتلع ريقه.

قال البارون: «أردت أن أوضِّح لك نقطة معيَّنة. إيَّاك والتخلُّص من شخص دون تفكير، بالطريقة التي قد تتخلَّص بها إقطاعية كاملة من شخصٍ اعتباطًا مراعاةً لأصول المحاكمة العادلة. لا تفعل ذلك إلَّا للضرورة القصوى، واعلم هدفك جيِّدًا أوَّلًا!».

بدا الغضب في صوت رابان وهو يقول: «لكنك قضيت على الخائن يُوي! رأيت جثَّته تُحمل إلى الخارج عندما وصلت الليلة الماضية».

أنهى رابان عبارته وحدَّق إلى عمِّه وقد اعتراه خوفٌ مفاجئ من وقع كلماته.

لكن البارون قال مبتسمًا: «أنا أتعامل بحرص شديد مع الأسلحة الخطِرة. الدكتور يُوي كان خائنًا، وقد سلَّمني الدوق على طبق من ذهب»، ثم ازداد صوت البارون قوَّة وهو يكمل: «لقد استطعت تحريض طبيب من كلِّية سوك! فرد من دوائرها الداخلية! أتسمعني يا فتى؟ لكن هذا النوع من الأسلحة أخطر من أن يُترك. لم أقضِ عليه اعتباطًا».

- «هل علم الإمبراطور أنك استطعت تحريض أحد أطبَّاء سوك؟».

فكَّر البارون: *هذا سؤال ثاقب. هل أسأت الحكم على ابن أخي؟*

قال البارون: «لم يعلم بعد، لكن لا شك أن جنوده السَّاردوكار سيخبرونه. لكن قبل حدوث ذلك، سأرفع إليه تقريري الخاص عبر قنوات شركة تشوم الإدارية، وسأشرح له أن الحظ حالفني في العثور على طبيبٍ ادَّعى الخضوع للتهيئة العقلية. طبيب مزيَّف، أتفهمني؟ وبما أن الجميع موقنون من استحالة اختراق تهيئة كُلِّية سوك، سيلقى كلامي قبولًا».

غمغم رابان: «آها، فهمت».

فكَّر البارون: *آمل أن تكون قد فهمت بالفعل. آمل أن تكون قد فهمت أهمِّية إبقاء هذا الأمر سِرًّا. لِمَ أفعل ذلك؟ لِمَ أتفاخر أمام ابن أخي الأحمق هذا. ابن أخي الذي يجب استخدامه والتخلُّص منه؟* شعر البارون بالغضب من نفسه، وشعر بخيانتها له.

قال رابان: «يجب إبقاء الأمر سِرًّا، أفهم ذلك».

تنهَّد البارون: «سأعطيك تعليمات مختلفة بشأن أرَّاكس هذه المرة يا ابن أخي. في آخر مرة حكمت فيها هذا الكوكب، كنت أكبح جماحك بشدَّة. هذه المرة، ليس لدي إلَّا مطلبًا واحدًا».

- «وما هو يا سيِّدي؟».

- «الإيرادات».

- «الإيرادات؟».

- «هل تملك أدنى فكرة يا رابان كم أنفقنا لجلب قوَّة عسكرية بهذا الحجم لإخضاع آل آتريديز؟ هل تملك ولو فكرة مبدئية عن مقدار رسوم التي تفرضها النقابة على النقل العسكري؟».

- «إنها باهظة، أليس كذلك؟».

- «أجل، باهظة!».

أشار البارون بذراع سمينة إلى رابان وقال: «لو اعتصرت كل قرش يمكن الحصول عليه من أرّاكس في ستين عامًا، بالكاد ستغطّي تكاليفنا!».

ففر فاه رابان، ثم أغلقه دون أن يتكلّم.

قال البارون ساخرًا: «وتقول باهظة! كان احتكار النقابة اللعين للسفر الفضائي سيفلسنا بالكامل لو لم أكن قد خطّطت لنفقات هذه الحملة منذ مدّة طويلة. يجب أن تعلم يا رابان أننا تحملنا وحدنا العبء برمّته، تحمّلنا حتّى تكاليف نقل السارداوكار».

وتساءل البارون للمرّة الألف إن كان سيأتي يومٌ يمكن فيه الاستغناء عن خدمات النقابة. إنهم كالطفيليّات التي تستنزف كل ما يمكن استنزافه من دماء عائلها، دون أن تسمح بموته، حتّى تصير بلا حول ولا قوّة في قبضتهم حيث يمكنهم إجبارك على الدفع والدفع والدفع.

ودائمًا ما ارتبطت مطالبهم الباهظة بالحملات العسكرية، التي اعتاد عملاء النقابة المداهنون وصفها بسماجة بأنها «بدل المخاطر». ومقابل كل عميل تنجح في زرعه ليكون جاسوسًا لك في هيكل البنك النقابي، يزرعون اثنين في نظامك الإداري.

شيء لا يُطاق!

قال رابان: «الإيراد إذًا هو كل ما يهمك».

خفض البارون ذراعه، وضمّ يده في قبضة قائلًا: «يجب أن تعصر».

– «وأستطيع أن أفعل ما يحلو لي ما دمت أعصر؟».

– «كل ما يحلو لك».

قال رابان: «تلك المدافع التي جلبتها معك، هل أستطيع...».

- «أنا بصدد سحبها».

- «ولكنك قلت...».

- «لن تحتاج إلى مثل هذه الألعاب. لقد كانت ابتكارًا صُنع لغرض محدَّد، وهي الآن عديمة الفائدة. كما أننا بحاجة إلى تفكيكها لاستخدام معدنها. إنها لا تخترق دروع الطاقة يا رابان، لقد استخدمناها عنصرَ مفاجأة فقط. كان من المتوقَّع أن يتراجع رجال الدوق إلى الكهوف الجرفية على هذا الكوكب اللعين، وكل ما فعلته مدافعنا أنها أغلقتها عليهم».

- «الفرمِن لا يستخدمون الدروع».

- «يمكنك الاحتفاظ ببعض مدافع الليزر إن كنت ترغب في ذلك».

- «أجل يا سيِّدي. ولي حرِّية التصرُّف؟».

- «ما دمت تعصر».

ارتسمت ابتسامةٌ شامتةٌ على وجه رابان وهو يقول: «أفهمك تمامًا يا سيِّدي».

تذمَّر البارون: «أنت لا تفهم شيئًا تمام الفهم، لكن واضحين في هذا من البداية. ما يجب أن تفهمه هو كيفية تنفيذ أوامري. هل خطر ببالك يا ابن أخي أن ما لا يقل عن خمسة ملايين شخص يعيشون على هذا الكوكب؟».

- «وهل نسي سيِّدي أنني كنت وَصيّه السيريدار على هذا الكوكب من قبل؟ وليعذرني سيِّدي في ما سأقول، هذا الإحصاء التقديري قد يكون منخفضًا. من الصعب إحصاء سكان ينتشرون في الأحواض والوهاد كما هو الحال هنا. وعندما تضع في الاعتبار الفرمِن قاطني الـ...».

- «لا يستحقُّ الفرمِن وضعهم في الاعتبار!».

- «سامحني يا سيِّدي، ولكن السَّاردوكار يعتقدون خلاف ذلك».

تردَّد البارون لحظة محدِّقًا إلى ابن أخيه، ثم سأله: «أتعرف شيئًا لا أعرفه؟».

- «كان سيدي قد أخلد إلى النوم عند وصولي الليلة الماضية. لذا، سمحت لنفسي بالتواصل مع بعض ضُبَّاطي... آه، السابقين، الذي كانوا يعملون مرشدين للسَّاردوكار. أفاد ضُبَّاطي أن فرقة من الفرمِن نصبت كمينًا لإحدى قوَّات السَّارداوكار في مكان ما جنوب شرق موقعنا هذا، وقضت عليهم».

- «قضوا على قوَّة من السَّاردوكار؟».

- «أجل يا سيِّدي».

- «مستحيل!».

هزَّ رابان كتفيه.

قال البارون بسخرية: «فرمِن يهزمون ساردوكارًا!».

قال رابان: «إنني أقول ما بلغني فحسب. يُقال أن جماعة الفرمِن هذه قد أسرت مِنتات الدوق المُهاب، ظفير حوَّاط».

- «آآاه».

نطقها البارون وأومأ مبتسمًا.

قال رابان: «أميل إلى تصديق التقرير، فليس لديك فكرة عن حجم المشكلة التي كان الفرمِن يمثلونها لنا».

- «رُبَّما، لكن من رآهم ضُبَّاطك لم يكونوا فرمِنيين. لا بُدَّ أنهم من جنود آل آتريديز الذين درَّبهم حوَّاط وقد تنكَّروا في ملابس الفرمِن. هذا هو التفسير الوحيد الممكن».

هزَّ رابان كتفيه مجدَّدًا، ثم قال: «يرى السَّاردوكار أنهم من

الفرمِن. لقد وضع السَّاردوكار بالفعل خطة لمحو الفرمِن عن وجه الكوكب».

- «جميل!»

- «ولكن...».

- «هذا سيشغل السَّاردوكار بعض الوقت، وقريبًا سنضع أيدينا على حوَّاط. أنا واثق بذلك! أشعر به! آه، يا لهذا اليوم من يوم عظيم! السَّاردوكار يطاردون بعض الجرذان الصحراوية العديمة القيمة، بينما نحصل نحن على الجائزة الحقيقية!».

- «مولاي...»، قالها رابان وتردَّد لحظة عابسًا، ثم قال: «لطالما شعرت بأننا نستهين بالفرمِن، سواء من ناحية العدد أو الـ...».

- «تجاهلهم يا بنيٍّ! إنهم مجرَّد رعاع. ما يهمَّنا هو البلدات والمدن والقرى المكتظة بالسكان. أعداد كبيرة من الناس تعيش هناك، أليس كذلك؟».

- «أعداد غفيرة يا مولاي».

- «إنهم يقلقونني يا رابان».

- «يقلقونك؟».

- «تسعون بالمئة لا قلق منهم، لكن هناك دائمًا قلَّة مندسَّة. العائلات الصغيرة وغيرها، أصحاب الطموح الذين قد يحاولون الإقدام على عمل خطِر. إن تمكَّن أحدهم من مغادرة أرَّاكس بقصَّة غير لطيفة عمَّا حدث هنا، سأكون مستاءً تمامًا. ألديك فكرة عن مدى الاستياء الذي سأشعر به وقتها؟».

ابتلع رابان ريقه.

قال البارون: «عليك أن تتَّخذ تدابير فورية. احتجز رهينة من كل عائلة صغيرة. أيُّ شخصٍ يعيش خارج أرَّاكس يجب أن يعرف أن ما جرى هنا كان معركة عرفية كأيِّ معركة تحدث بين عائلتين

نبيلتين. لا دخل للساردوكار بالأمر على الإطلاق، أتفهمني؟ وبالنسبة إلى الدوق، يجب أن يعلم الجميع أنني عرضت عليه حياة المنفى المعتادة، لكنه تُوفِّي في حادثٍ مؤسف قبل أن يتمكن من قبول العرض، الذي كان على وشك قبوله. هذا هو ما حدث، وأيُّ إشاعة عن وجود السَّاردوكار هنا وضلوعهم بالأمر يجب أن تُقابل بالاستهزاء والسخرية».

قال رابان: «كما يرغب الإمبراطور».

- «أجل، كما يرغب الإمبراطور».

- «ماذا عن المهرِّبين؟».

- «لا أحد يصدِّق المهرِّبين يا رابان. يُغضُّ الطرف عن أعمالهم، لكن لا أحد يصدِّقهم. على أيِّ حال، سيكون عليك توزيع بعض الرُّشى في تلك الأوساط، واتِّخاذ إجراءات أخرى أنا واثق بأنك تستطيع التفكير فيها».

- «أمرك يا مولاي».

- «حسنًا يا رابان، شيئان أريدهما منك في أرَّاكس: الإيرادات وقبضة حديدية لا ترحم. انظر إلى هؤلاء الحمقى على حقيقتهم: مجرَّد عبيد يغارون من أسيادهم وينتظرون الفرصة للتمرُّد عليهم. لا تُرهم أدنى شفقة أو رحمة».

سأل رابان: «هل يستطيع المرء إبادة كوكبٍ برمَّته؟».

- «إبادة؟»، قالها البارون وقد كشفت التفاتة رأسه السريعة عن دهشته، وأردف: «من ذكر أيَّ شيءٍ عن الإبادة؟».

- «ظننت أنك ستجلب ثروة بشرية جديدة و...».

- «قلت اعصر يا ابن أخي، لا تبيد. لا تهلك السكَّان، وإنَّما

أكرههم على الخضوع المطلق. كن كالضواري يا بني»، وابتسم فبدت غمَّازتاه، وشاع تعبيرٌ طفولي في الوجه السمين: «الوحش الضاري لا يتوقَّف أبدًا. لا تظهر رحمة، ولا تتوقَّف. ما الرحمة إلَّا وهمٌ، وحشٌ خياليٌّ تستطيع هزيمته ما دام في بطنك جوع وفي حلقك ظمأ. إيَّاك أن تشبع أو أن ترتوي»، قالها البارون وربّت على انبعاجاته البارزة أسفل مضادات الجاذبية وأردف: «مثلي».

- «فهمت يا سيِّدي».

قالها رابان وأدار بصره يمنةً ويسارًا.

- «كل شيء واضح لك إذًا يا ابن أخي؟».

- «باستثناء شيء واحد فقط يا عمِّي: عالم البيئات الكوكبية، كاينز».

- «آه، كاينز، أجل».

- «إنه رجل الإمبراطور يا مولاي، وبإمكانه التحرُّك بحرِّية كيفما شاء. كما أنه مقرَّب جدًّا من الفرمن، وتزوج بواحدة منهم».

- «سيموت كاينز بحلول ليلة غد».

- «قتل موظَّفٍ إمبراطوري عملٌ خطِرٌ يا عمِّي».

سأله البارون: «وكيف تظن أنني وصلت إلى ما أنا فيه بهذه السرعة؟». كان صوته منخفضًا، ومشحونًا بمعانٍ يُفضَّل ألَّا تُلفظ. «علاوة على ذلك، لا داعي أبدًا للخوف من أن يغادر كاينز أرَّاكس، فلا تنس أنه مدمنٌ على الاسبايس».

- «بالتأكيد!».

قال البارون: «من يعرفون حقيقة إدمانهم لن يرتكبوا فعلًا يعرِّض مصالحهم للخطر، وكاينز قطعًا من العارفين».

قال رابان: «لقد نسيت».

حدَّق أحدهما إلى الآخر في صمت.

في النهاية قال البارون: «بالمناسبة، سوف تضع مخزوني من الاسپايس على رأس أولوياتك. لديَّ مخزون شخصي احتياطي كبير، ولكن تلك الغارة الانتحارية التي شنَّها رجال الدوق دمَّرت معظم ما كنا نخزِّنه للبيع».

أومأ رابان: «أمرك يا مولاي».

أشرق وجه البارون وقال: «صباح غدٍ، ستجمع ما تبقَّى من تنظيمات هنا وستقف أمامهم قائلًا: لقد كلَّفني إمبراطورنا الپاديشاه العظيم السامي باستعادة ملكيَّة هذا الكوكب وإنهاء جميع النزاعات».

- «فهمت يا مولاي».

- «هذه المرَّة أنا واثق بأنك فهمت. سنناقش الأمور بتفاصيل أكثر غدًا. أما الآن فاتركني كي أكمل نومي».

أبطل البارون مجال طاقة الباب، وراقب ابن أخيه وهو يغيب عن النظر.

وفكَّر: *دبَّابة بشرية، عضلات بلا عقل. سيكونون كالعصف المأكول عندما ينتهي منهم. عندها، سأرسل فيد راوثا لرفع العبء عنهم، وسيهتفون ويهلِّلون لمنقذهم. الحبيب فيد راوثا، الحميد فيد راوثا، الرحيم فيد راوثا الذي سينقذهم من الوحش. فيد راوثا، رجلٌ أولى أن يُتَّبع ويستحق الموت من أجله. عندما يحين الوقت، سيكون الفتى قد تعلَّم كيف يقمع ويضطهد دون عاقبة. أنا واثق بأنه الشخص الذي نحتاج إليه. سوف يتعلَّم. كما أنه صاحب جسدٍ جميل. حقًّا كم هو غلامٌ جميل.*

في سنِّ الخامسة عشرة، كان قد تعلَّم فضيلة الصَّمت.
من كتاب «تاريخ المؤدّب للأطفال» للأميرة إيرولان.

في أثناء ما كان پول يجاهد للتحكُّم في عصا قيادة الثويتر، أدرك أن عقله يصنِّف قوى العاصفة المتشابكة بلا هوادة، ووعيه -الذي يفوق وعي المِنتات- يحسب كل شاردة وواردة. شعر باللفح الغباري، وبالتلاطم، وبالاضرابات الجوِّية المختلطة، وبدوَّامات عرضية بين الفينة والأخرى.

كانت قمرة القيادة من الداخل أشبه بصندوقٍ ثائر تضيئه أشعة خضراء منبعث من لوحة العدَّادات. كان العصف الغباري الأصفر في الخارج غائمًا وبلا ملامح، لكن إحساس پول الداخلي بدأ يخترق حجابه ويرى عبره.

وفكَّر: يجب *أن أعثر على الدوَّامة الصحيحة*.

كان يشعر بتضاؤل في قوَّة العاصفة منذ مدَّة ليست بالقصيرة، لكنها ما زالت ترجرجهم بعنف. انتظر پول حدوث اضطرابٍ جوِّيٍّ آخر ليركبه.

بدأت الدوَّامة الهوائية على هيئة موجة عظيمة مفاجئة رجَّت السفينة بالكامل. واجه پول كامل خوفه وانحدر بالثوبتر يسارًا.

رأت چيسيكا المناورة على شاشة مؤشِّر الارتفاع الكروية.

وصرخت: «پول!».

أمالتهما الدوَّامه، ودارت بهما، وقلبتهما رأسًا على عقب، ثم رفعت الثوبتر كأنه رقاقة قذفتها عينٌ حمئة دافعةً إيَّاها إلى أعلى قبل أن تلفظها. ظلَّت الثوبتر تتخبَّط -كهباءةٍ مجنَّحةٍ- في قلب الإعصار الغباري الذي ينيره القمر الثاني.

نظـر بول إلـى أسـفل، ورأى عمـود الهـواء الغبـاري السـاخن الـذي قاءهمـا، وشـاهد العاصفـة المحتضـرة تـذوي كأنهـا مجـرى نهـر جفَّ فـي الصَّحـراء: مجـرَّد غيمـة رماديـة تصفـر شـيئًا فشـيئًا فـي أثنـاء ركوبهمـا تيَّـار الهـواء الصَّاعـد.

همسـت چيسـيكا: «خرجنا منها».

أدار بول مركبتهمـا بعيـدًا عـن الغبـار بانحـدار منتظم، وراح يمسـح سـماء الليـل ببصره.

ثم قال: «هربنا منهم».

شـعرت چيسـيكا بدقَّـات قلبهـا القويَّـة. أرغمت نفسـها على الهدوء وهـي تتأمَّـل العاصفـة المتضائلـة. أخبرهـا إحساسـها بالوقـت أنهمـا حلَّقـا مـا يقـرب مـن أربـع سـاعات داخـل هـذا العصـف المتفاقـم مـن قـوى الطبيعـة، لكـن جـزءًا مـن عقلهـا شـعر بأنهمـا قضيـا حيـاةً كاملـةً فيـه. شـعرت چيسـيكا بأنهـا وُلـدت مـن جديـد.

وفكَّـرت: *بـدا الأمـر كأنـه تجسـيدٌ لكلمـات التعويـذة. لقـد واجهنـا العاصفـة ولـم نقـاوم، وقـد تجاوزتنـا ومـرَّت مـن حولنـا ثـم مضـت، لكننـا بقينـا.*

قـال بـول: «صـوت رفرفـة الأجنحـة لا يعجبنـي، لا بُـدَّ أن ضـررًا أصابهـا».

شـعر بالاضطـراب الشَّـائع فـي بـدن الثوبتـر مـن خـلال يديـه المتقلِّتيـن علـى أجهـزة التحكُّـم. كانـا قـد خرجـا مـن العاصفـة، لكنهمـا لـم يـزلا بعـد خـارج مجـال رؤيتـه الاسـتبصارية الكاملـة. ومـع ذلـك فقـد هربـا، وشـعر بول بنفسـه مرتعـدًا مـن اقتـراب وحـيٍ جديد.

انتابته القشعريرة.

كان الشـعور مغناطيسـيًا ومرعبًـا، ووجـد نفسـه مأخـوذًا بمعرفـة

ما تسبَّب في حدوث هذا الإدراك المُرجف. شعر بأن جزءًا من الأمر كان بسبب تشبُّع الطعام والشراب على أرَّاكس بالاسپايس، لكنه شعر بأن جزءًا آخر قد يعود إلى تعويذة درء الخوف، كما لو أن لكلماتها قوَّة خاصة.

- «لن أخاف...».

السَّبب والمسبِّب: إنه ما زال حيًا على الرغم من تلك القوى المهلكة، ويشعر بأنه على وشك الانغماس في حالة من الوعي الذاتي لم تكن لتتحقَّق دون سحر كلمات التعويذة. تردَّد اقتباسٌ من الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي في جنبات عقله: *«أيُّ حواس نفتقر إليها تُعجزنا عن رؤية وسماع عوالم أخرى مُحيطة بنا؟»*.

قالت چيسيكا: «الصخور في كل مكان».

هزَّ پول رأسه لتصفية ذهنه، وركَّز انتباهه على التحكُّم في الثوبتر. نظر إلى حيث أشارت أمه، ورأى تكويناتٍ صخريةً سوداء بارزةً من وسط الرمال أمامهما وإلى يمينهما. شعر بهواءٍ يسفع كاحليه، وغبار يتدفَّق إلى قمرة القيادة. ثمَّة ثقب في هيكل الثوبتر، ضررٌ آخر أحدثته العاصفة.

قالت چيسيكا: «من الأفضل أن تهبط بنا على الرمال، فقد لا تتحمَّل الأجنحة التوقُّف المفاجئ».

أشار برأسه نحو بقعة تبرز فيها من بين الكثبان قممٌ صخرية نحتتها الرياح الرملية، وقال: «سأهبط بالقرب من تلك الصخور. تأكَّدي من أن حزام الأمان محكم».

أطاعته وهي تفكِّر: *معنا ماء وبذلات تقطير. إذا تمكَّنا من العثور على طعام، فقد نستطيع البقاء على قيد الحياة مدَّة طويلة في هذه الصَّحراء. الفرمِن يعيشون هنا. نستطيع فعل ما يفعلونه.*

قال پول: «ما إن نتوقَّف، اركضي نحو تلك الصخور، وسأتولّى أنا أمر الحقيبة».

همَّت بقول: «أركض نحو...»، ثم صمتت وأومأت بفهم: «الديدان».

صحَّح لها: «صديقاتنا الديدان، فسوف تهاجهم هذه الثوبتر وتلتهمها، ولن يبقى دليل على مكان هبوطنا».

فكَّرت چيسيكا: *يا لانضباط تفكيره!*

انزلقت الثوبتر هابطة إلى أسفل شيئًا فشيئًا.

بدآ يشعران بسرعة حركة الطائرة مع اقترابها من سطح الأرض. مرقت الكثبان سريعًا من تحتهما فبدت كظلال ضبابية، وبرزت الصخور من وسط الرمال كالجزر. احتكَّ بدن الثوبتر بقمة كثيبٍ فترنَّحت بنعومه، ثم تخطَّت واديًا رمليًا، ولمست قمَّة كثيب آخر.

فكَّرت چيسيكا معجبةً بكفاءته: *إنه يستخدم الرمال لإبطاء سرعتنا*.

صاح پول: «تمسَّكي جيِّدًا!».

وجذب ذراع كبح الأجنحة برفق في البداية، ثم بقوَّة أكبر فأكبر، وشعر بها تعبُّ الهواء، وتتكمش سريعًا بالتدريج. صفَّرت الرياح بحدَّة مع مرورها عبر نسيج الأجنحة المعدني المتراكب.

ثم بغتةً، ودون سابق إنذار سوى ترنُّح طفيف، التوى الجناح الأيسر الذي أضعفته العاصفة إلى أعلى وانثنى نحو الداخل مرتطمًا بجانب الثوبتر. انزلقت الثوبتر فوق قمَّة أحد الكثبان وانحرفت إلى اليسار، ثم تدحرجت هابطةً على الجانب الآخر ودُفنت مقدِّمتها في الكثيب التالي وسط سيل من الرمال

المندفعة. استقرَّت الثوبتر على جانب الجناح المكسور، بينما ارتفع الجناح الأيمن مشيرًا إلى السماء.

نزع پول حزام الأمان، وقذف جسده إلى أعلى عابرًا أُمَّه، وجذب الباب بقوَّة فاتحًا إيَّاه. انسكبت الرمال حولهما في المقصورة، جالبة معها رائحة جافَّة تشبه رائحة احتكاك حجري صوَّان. التقط الحقيبة من المقعد الخلفي، وتأكَّد من أن أُمَّه تحرَّرت من حزامها. تسلَّقت جيسيكا جانب المقعد الأيمن وخرجت من هيكل الثوبتر المعدني، وتبعها پول ساحبًا الحقيبة خلفه من حمَّالتها.

قال آمرًا: «اركضي!».

وأشار إلى جانب الكثيب وما خلفه، حيث رأيا ما يشبه برجًا من الصخر نحتته الرياح الرملية.

وثبت جيسيكا من فوق الثوبتر واندفعت راكضة على جانب الكثيب المنحدر وهي تسمع لهاث پول من خلفها. وصلا إلى حافَّة الرمال التي تنحدر بعد ذلك إلى أسفل باتِّجاه الصخور.

قال پول: «تحرَّكي بطول حافَّة الكثيب، سيكون ذلك أسرع».

شقَّا طريقهما بصعوبة نحو الصخور، تعيقهما الرمال وتثقل أقدامهما.

بدأ صوتٌ آخر يترامى إلى مسمعيهما: همسٌ مكتومٌ.. فحيحٌ.. سعيٌ جوفيٌّ خشن.

قال پول: «إنها دودة».

علا الصَّوت.

قال پول لاهثًا: «أسرعي!».

على مسافة لا تزيد على عشرة أمتار، ظهرت أمامهما أوَّل رقعة صخور حصباء، كشاطئ نجاة مرتفع وسط الرمال، حين سمعا صوت سحق وتمزُّق معدني من خلفهما.

نقل پول الحقيبة إلى ذراعه اليمنى، قابضًا إيَّاها من حمَّالتها، فراحت ترتطم بجانبه وهو يركض. أخذ ذراع أُمِّه باليد الأخرى، وتسلَّقا الصخرة المرتفعة، وواصلا ركضهما فوق سطحٍ مغطًّى بالحصى، وعبّر أخدودٍ صاعد ملتوٍ نحتته الرياح، وهما يلهثان ملتقطين أنفاسًا جافَّةً في حلقيهما.

لهثت چيسيكا: «لم أعد قادرة على مواصلة الركض».

توقَّف پول، ودفعها إلى تجويفٍ صخريٍّ ضيِّق، واستدار ونظر إلى الصَّحراء أسفله. ركض تلٌّ متحرِّك بمحاذاة جزيرتهم الصخرية خالقًا تموُّجات في ضوء القمر، صانعًا أمواجًا رمليَّة، وشاقًّا جحرًا طويلًا محدَّبًا يكاد يكون على مستوى نظر پول من مسافة نحو الكيلومتر. التوى مسار الدودة مخترقًا الكثبان مسوِّيًا إيَّاها بالأرض، وشكَّل حلقة غير مكتملة تقاطعت مع الرقعة التي تركا فيها الأورنيثوبتر المحطَّمة.

وحيث مرَّت الدودة، لم يعد للطائرة أثرٌ.

انحرف الجحر الجبلي المتحرِّك صوب الصَّحراء، عائدًا أدراجه في ذات مساره، مفتِّشًا.

همس پول: «إنها أكبر من سفن النقابة! قيل لي أن الديدان تنمو إلى أحجام ضخمة في عمق الصَّحراء، لكنني لم أتخيَّل أنها بهذه الضخامة».

قالت چيسيكا ملتقطةً أنفاسها: «ولا أنا».

مرةً أخرى، انحرف المخلوق بعيدًا عن الصخور، وأسرع في مسارٍ مستقيم نحو الأفق. أنصتا إلى صوت ابتعاده حتَّى خفت وطغت عليه أصوات حركة الرمال الناعمة من حولهما.

أخذ پول نفسًا عميقًا، ورفع ناظريه نحو الجرف السَّابح

فـي ضـوء القمـر، وقـال مقتبسًـا مـن كتـاب العبـر* : «سـافروا ليـلًا واسـتريحوا فـي الظـلّ نهـارًا»، ثـم نظـر إلـى أُمِّـه وقـال: «مـا زال أمامنـا سـويعات مـن الليـل. أبإمكانـك المواصلـة؟».

- «أمهلني لحظةً».

خطـا پـول فـوق الرقعـة الحصبـاء، ووضـع الحقيبـة علـى ظهـره وضبـط طـول حمَّالتيهـا، ووقـف لحظـات ممسـكًا البوصلـة الپاراويـة بيـده.

ثم قال: «متى ما تكوني جاهزة».

خرجت چيسيكا من التجويف الصخري، شاعرةً بأنها استعادت قوَّتها، وسـألت: «أيّ اتِّجاه سنسلك؟»

أشار پول: «إلى حيث يقودنا هذا الجرف».

- «إلى عمق الصَّحراء».

همس پول: «صحراء الفرمِن».

ثـم سـكت وقـد هـزَّه المشـهد الـذي يتذكَّره مـن رؤيـة الاسـتبصارية التـي رآهـا علـى كلادان. لقـد شـاهد هـذه الصَّحـراء مـن قبـل، لكـن تفاصيلهـا كانـت مختلفـة قليـلًا فـي رؤيـاه، كأنهـا صـورة بصريـة اختفـت فـي غياهـب وعيـه وتشـرَّبتها ذاكرتـه، وحيـن اسـتعادتها الآن لـم تفلـح فـي مطابقتهـا بإتقـان مـع المشـهد الحقيقـي. بـدا كأن الرؤيـا اختلفـت، وأقبلـت عليـه مـن زاويـة مختلفـة، فيمـا ظـلَّ هـو ثابتًـا لـم يتحـرَّك.

تذكَّـر پـول: *كان آيداهـو معنـا فـي الرؤيـا ... لكـن آيداهـو ميِّـتٌ الآن.*

سـألته چيسـيكا وقـد أسـاءت فهـم تـردُّده: «هل تـرى الطريـق الـذي يجب أن نسلكه؟».

قال: «كلَّا، لكننا سنتحرَّك على أيِّ حال».

أحكم وضع الحقيبة على كتفيه، وضرب الأرض بقدميه صاعدًا عبر أخدودٍ حفرته الرمال. وصل بهما الأخدود إلى رقعة أرضٍ صخرية يضيئها القمر، فيها حوافٌّ بارزةٌ كأنها مساطب تصعد في اتِّجاه الجنوب.

اتَّجه پول إلى المسطبة الأولى، وتسلَّقها، فتبعته چيسيكا.

لاحظت كيف صار مسارهما محكومًا بما يطرأ أمامهما من عقبات: الجيوب الرملية بين الصخور التي تبطئ حركتهما، وسنون الجرف الحادَّة التي نحتتها الرياح التي تجرح كفوفهما، والعوائق التي ترغمهما على اتِّخاذ قرارٍ: هل يعبران فوقها أم يدوران من حولها؟ فرضت التضاريس إيقاعها الخاص. لم يتبادلا الحديث إلَّا عند الضرورة، وبأصواتٍ غليظة مبحوحة من المجهود.

- «احترسي هنا، الرمال تجعل هذه الحافَّة زلقة».

- «حذار من أن تصدم رأسك في هذا النتوء».

- «ابقي أسفل ذلك الجرف، فالقمر خلفنا وسيكشف حركتنا لأيِّ شخص في الخارج».

توقَّف پول عند تجويفٍ صخري، وأسند ظهره بالحقيبة إلى حافَّة ضيِّقة.

اتَّكأت چيسيكا بجانبه، ممتنَّةً للحظة الراحة. سمعت پول يشدُّ أنبوب بذلته، فحذت حذوه ورشفت من ماء جسدها المُعاد تدويره. كانت تشوبه ملوحة، فتذكَّرت المياه على كلادان: تذكَّرت النافورة الطويلة التي تبلغ عنان السماء، وما تحويه من ماء وفير يبدو لك كأنه لن ينفد أبدًا فلا يشغل بالك.. فقط تستمتع بشكله، أو بالأضواء المنعكسة عليه، أو بصوته حين تقف بالقرب منه.

فكَّرت چيسيكا: *ما أشدَّ حاجتي إلى التوقُّف، إلى الراحة، إلى الراحة الحقَّة!*

خطر لها أن مفهوم الرحمة يعني القدرة على التوقف، ولو للحظة. لا رحمة حيث لا يُوجد توقف.

دفع پول نفسه بعيدًا عن حافَّة الصخرة، واستدار، وتسلق فوق سطحٍ مائل، فتنهَّدت چيسيكا وتبعته.

انزلقا هابطين إلى مسطبة عريضة تقود إلى سطح صخري شديد التحدُّر. ومجددًا، أُجبرا على اتِّباع الإيقاع غيرً المنتظم الذي يفرضه التقدُّم عبر هذه الأرض الوعرة.

شعرت چيسيكا أن الليل صار قوامًا مختلطًا من أجسام مختلفة الأحجام لا تنفك أيديهما عن تحسُّسها وأقدامهما عنً سحقها: جلاميد، وحصًى، وقشور صخرية، ورمالٌ خشنة، ورمالٌ ناعمة، وحبيبات دقيقة، وغبارٌ، ومسحوق مطحون كالدقيق.

سدَّ المسحوق مرشِّحي أنفيهما وكان لا بُدَّ من نفخه باستمرار، ولم يكف الحصى والرمل الخشن عن الانزلاق على الأسطح الصلبة مهدِّدًا بزلٍّ قدم من لا ينتبه له، فيما راحت شظايا الصخور تجرح الأيدي.

أمَّا جيوب الرمال المنتشرة في كل مكان فكانت تعيق وتكبِّل حركة أقدامهما.

توقَّف پول فجأة على أحد المساطب الصخرية، وأسند أُمَّه التي تعثَّرت فيه.

أشار إلى اليسار، فنظرت چيسيكا على امتداد ذراعه ورأت أنهما يقفان على قمَّة منحدر، وأسفلهما بمسافة مئتي مترٍ امتدَّت الصَّحراء كمحيطٍ ساكن يتلألأ موجه الرملي الهامد في

ضوء القمر الفضّي، وتجري عبره ظلالٌ متعرِّجة في منحنيات لا حصر لها تنتهي عند جرفٍ آخر بعيد تكتنفه غشاوة غبار رمادية.

قالت چيسيكا: «صحراء مفتوحة».

قال پول: «غبراء واسعة يصعب عبورها»، وخرج صوته مكتومًا عبر سدّادة المرشّح التي على وجهه.

أدارت چيسيكا رأسها يمينًا ويسارًا، فلم تر شيئًا أسفلها سوى الرمال.

حدَّق پول إلى أمام مباشرة عبر الكثبان الرملية المفتوحة، مراقبًا حركة الظلال مع مرور القمر.

ثم قال: «العرض نحو ثلاثة أو أربعة كيلومترات».

سألت: «ديدان؟».

- «بلا شك».

أثقلها الإجهاد، وأضعفت آلام عضلاتها حواسَّها، فسألته: «هل نرتاح ونأكل أوّلًا؟».

خلع پول الحقيبة من فوق كتفه، وجلس أرضًا واتّكأ عليها. استندت چيسيكا بيدها على كتفه، وغاصت جالسةً على صخرة مجاورة، ثم شعرت به يستدير وهي ترتاح في جلستها، وسمعته يعبث في محتويات الحقيبة.

قال لها: «هاكِ».

كان ملمس يده جافًا على راحة يدها وهو يدسُّ فيها قرصين من أقراص الطاقة.

ابتلعتهما چيسيكا على مضض برشفة من أنبوب بذلتها.

قال پول: «اشربي كل الماء في بذلتك، فالبداهة تقول إن أفضل مكان لحفظ الماء هو جسدك، فهو يحافظ على مستوى نشاطك مرتفعًا ويجعلك أقوى. ثقي ببذلتك».

أطاعته چيسيكا، وشربت كل ما في جيوب تجميع بذلتها، وشعرت بعودة النشاط إليها. ثم فكرت في الهدوء الذي يسود هذا المكان المقفر، وكيف يسكِّن آلام لحظة تعبهما هذه، وتذكَّرت ذات مرة أنها سمعت المحارب المطرب جيرني هاليك يقول: «كسرة خبزٍ جافَّة مع هدوء وراحة بال خيرٌ من بيتٍ مملوء بالذبائح والمشكلات».

كرَّرت چيسيكا الكلمات على مسمعي پول.

قال لها: «هكذا كان جيرني».

لاحظت نبرة الحزن في صوته، والطريقة التي تحدَّث بها كأنه يتحدَّث عن شخص ميِّت، وفكَّرت: *قد يكون جيرني المسكين ميِّتًا بالفعل*. كانت قوَّات عائلة آتريديز إمَّا موتى وإمَّا أسرى وإمَّا ضائعون مثلهما في هذا الخواء الجاف الذي لا زرع فيه ولا ماء.

قال پول: «كان جيرني -دائمًا- بارعًا في الاقتباس. أكاد أسمعه يقول الآن: "وسوف أجفِّف الأنهار، وأبيع الأرض إلى الأشرار، وسأخرِّب الأرض وما فيها بأيدي الغرباء"[1]».

أغلقت چيسيكا عينيها، وشعرت بأنها على وشك البكاء من نبرة الرثاء الحزينة في صوت ابنها.

ولم تمض لحظات حتَّى قال پول: «كيف... تشعرين؟».

أدركت أن سؤاله موجَّهٌ لحملها، فقالت: «شهورٌ كثيرة تفصلنا عن ولادة أُختك. ما زلتُ... لائقة جسديًا».

وفكَّرت: *ما أشدَّ الطابع الرسمي الذي أتحدَّث به إلى فلذة كبدي!* ثم -ولأنه من نهج البِني چيسيرِت تفتيش النفس بحثًا

---

(1) سفر حزقيال، الإصحاح الثلاثون، الآية 12 (بتصرُّف).

عن تفسير لمثل هذا التصرُّف الغريب- فتَّشت سريرتها وعرفت سبب ردِّها عليها بهذه الصيغة الرسمية: *إنني أخاف ابني. أخاف غرابته. أخاف ممَّا قد يبصره في مستقبلنا، ممَّا قد يطلعني عليه.*

أرخى پول غطاء البذلة على عينيه، منصتًا إلى صرير الحشرات في الليل. كانت رئتاه مشحونتين بصمته. شعر بحكَّة في أنفه ففركه ونزع منه سدَّادة المرشِّح، فتنبَّه لرائحة القرفة الغنية.

قال: «يوجد مِزَاج اسپايس في مكانٍ قريب».

لمست ريحٌ خفيفة وجنتي پول برقَّة الريش، وهزهزت ثنايا ثوبه، لكن هذه الريح لم تحمل معها نذير هبوب عاصفة. لقد بدأ يتلمَّس الفرق بين أنواع الرياح آنفًا.

قال پول: «سيبزغ الفجر عن قريب».

أومأت چيسيكا.

قال: «ثمَّة طريقة لعبور تلك الرمال المفتوحة بآمان، الفرمِن يفعلونها».

- «ماذا عن الديدان؟».

قال پول: «لو زرعنا المِطراق الموجود في عُدَّتنا الفرمِنية في هذه الصخور قبل أن نتحرَّك، سيجذب انتباه الدودة ويشغلها عنَّا بعض الوقت».

حملقت چيسيكا إلى الصَّحراء السابحة في ضوء القمر الممتدَّة بينهما وبين الجرف الآخر، وغمغمت: «هل سيؤمِّن لنا وقتًا يكفي لقطع أربعة كيلومترات؟».

- «رُبَّما. وإن قطعنا المسافة دون أن يصدر عنَّا غير الأصوات الطبيعية التي لا تجذب الديدان فـ...».

ثم بتر عبارته وتأمَّل الصَّحراء المفتوحة، مفتِّشًا في ذاكرته الاستبصارية، محقِّقًا في التلميحات الغامضة الواردة في دليل عُدَّة الفرمِن -الذي أتى مع حقيبة هروبهما- عن المطارق وخطاطيف الصَّانعة، واستغرب أن كل ما شعر به عند التفكير في الديدان هو الذُّعر غير المُبرَّر. كان يعلم -بشكل ضبابي كما لو كان الأمر يقبع على حافَّة وعيه- أن الديدان يجب أن يُنظر إليها باحترام لا أن يُخشى جانبها. فقط لو... لو...

هزَّ رأسه محبطًا.

قالت چيسيكا: «يجب أن تكون الأصوات الصادرة عنَّا بلا إيقاع».

- «ماذا؟ آه، صحيح. لو كسرنا إيقاع خطواتنا ستنزاح الرمال نفسها من تحت أقدامنا على فترات. لا تستطيع الديدان استقصاء كل صوتٍ ضئيل في الصحراء. لكن علينا أخذ قسطٍ كافٍ من الراحة قبل تجربة الأمر».

رنا ببصره صوب الجدار الصخري الآخر، ورأى مرور الوقت في حركة الظلال العمودية التي يلقيها ضوء القمر هناك: «سيبزغ الفجر بعد ساعة».

سألته: «أين سنمضي النهار؟».

التفت پول يسارًا وأشار: «الجرف يلتوي عائدًا نحو الشمال هناك. يمكنك تمييز أن هذا هو وجهه المقابل للريح من الطريقة التي نحتته بها الرياح. ستكون هناك صدوع.. صدوع عميقة».

سألته: «أمن الأفضل أن نبدأ الآن؟».

وقف پول وساعدها على الوقوف قائلًا: «هل ارتحت بما يكفي للهبوط؟ أريد الاقتراب قدر الإمكان من سطح الصَّحراء قبل أن نُخيِّم».

- «أجل»، وأشارت برأسها إليه كي يقود الطريق.

تـردَّد پـول قليـلًا، ثـم التقـط حقيبتـه، ووضعهـا علـى كتفيـه، واسـتدار وبـدأ السـير علـى امتـداد الجـرف.

فكَّـرت چيسـيكا: *فقـط لـو كان معنـا مضـادات جاذبيـة، لصـار الهبـوط وثبًـا أيسـر كثيـرًا. لكـن رُبَّمـا تكـون مضـادات الجاذبيـة شيئًا آخـر يجـب تجنُّبـه فـي الصَّحـراء المفتوحـة، رُبَّمـا تجـذب الديـدان كمـا تفعـل الـدروع.*

وصـلا إلـى سلسـلة مـن الرفـوف الصخريـة تهبـط متتاليـة إلـى أسـفل، ورأيـا خلفهـا علـى ضـوء القمـر صدعًـا تبـرز منـه مسـطبة تفضـي إلـى تجويـف المدخـل.

تقـدَّم پـول الطريـق هبوطًـا، متحـرِّكًا بحـذر ولكـن بسـرعة لأن ضـوء القمـر كان آخـذًا في الخفـوت وبـدا مـن الواضـح أنـه لـن يسـتمر طويـلًا. هبطـا إلـى محيطٍ مـن الظـلال الأعمـق والأعمـق، وأحاطـت بهمـا أشـكال مبهمـة مـن الصخـور ترتقـي إلـى السـماء المزدانـة بالنجـوم. ضـاق الصـدع تدريجيًـا حتَّـى صـار عرضـه عشـرة أمتـار فحسـب عنـد حافـة منحـدرٍ رملـي رمـادي باهـت يمتـدُّ هبوطًـا مختفيًـا فـي الظـلام.

همسـت چيسـيكا: «هل بإمكاننـا هبوطه؟».

- «أظن ذلك».

اختبر سـطح الأرض بقدم واحدة.

ثـم قـال: «بإمكاننـا الانـزلاق هبوطًـا. سـأذهب أوَّلًا، وانتظـري حتَّـى تسـمعي صـوت توقُّفي».

- «كن حذرًا».

خطـا پـول فـوق المنحـدر وتزحلـق منزلقًـا علـى سـطحه الناعـم إلـى أن بلـغ أرضًـا تكدَّسـت عليهـا الرمـال فـي اسـتواء تقريبًـا. كان المـكان خبيئـةً متواريـةً عميقًـا بيـن الجـدران الصخريـة.

أتـاه صـوت انـزلاق رملـي مـن خلفـه، وبينمـا كان يحـاول تبيُّـن تفاصيل أعلى المنحدر في الظـلام، كاد اندفاع الرمـال المنهالـة أن يسـقطه، قبـل أن تهـدأ وتيرتـه ويعـمَّ الصَّمـت.

صـاح: «أُمَّاه؟».

لم يأته ردًا.

- «أُمَّاه؟».

ألقـى پول الحقيبـة مـن فوق ظهـره، ودفـع بنفسـه علـى المنحـدر، زاحفًـا نابشًـا مثيـرًا الرمـال كالمجنـون، وهـو يلهـث: «أُمِّي! أُمِّي! أيـن أنتِ؟».

جرفـه شـلالٌ رملـي آخـر سـقط مـن عـلٍ ودفنـه إلـى الوركيـن، فـراح يتلـوَّى بجسـده حتَّـى انتـزع نفسـه منـه.

تسـارعت الأفـكار فـي ذهنـه: *لقـد علقـت فـي أثنـاء انزلاقهـا علـى المنحـدر الرملـي ودفنتهـا الرمـال. يجـب أن أحافـظ علـى هدوئـي كـي أعالـج هـذا المـأزق بحكمـة. لـن تختنـق علـى الفـور، سـتضع نفسـها فـي حالـة سُبات بينـدوي لتقلِّل استهلاكها للأكسـجين، فهـي تعـرف أننـي سـأنبش الرمـال بحثًـا عنهـا.*

هـدَّأ پول مـن روعـه وأبطـأ ضربـات قلبـه الوحشـية مسـتخدمًا نهـج البِنـي چيسـيرِت الـذي تعلَّمـه مـن أُمِّـه، وصفَّـى ذهنـه ومسـحه حتَّـى صـار كصفحـةٍ بيضـاء يمكـن للحظـات القليلـة الماضيـة أن تكتـب نفسـها عليـه. كل حركـة وكل التـواءة حدثـت فـي أثنـاء الانـزلاق ظلَّـت تتـردَّد فـي جنبـات ذاكرتـه ببـطء بتناقـض مـع حقيقـة أن العمليـة برمَّتهـا لـم تسـتغرق فـي الواقـع سـوى أجـزاء مـن الثانيـة.

تسـلَّق پول المنحـدر بزاويـة مائلـة، متلمِّسًـا طريقـه بحـذر، إلـى أن عثـر علـى صخـور جـدار الصـدع البـارزة. بـدأ يحفـر، محرِّكًـا الرمـال

بحرص كي لا يتسبَّب في انزلاقٍ رملي آخر. عثرت يداه على قطعة قماش، فتتبَّعها حتَّى وجد ذراعًا، ثم تتبَّع الذراع برفق إلى أن كشف عن وجهها.

همس: «هل تسمعينني؟».

لم يتلقَّ ردًا.

حفر بسرعة أكبر محرِّرًا كتفيها. كان جسدها مرتخيًا بين يديه، لكنه لاحظ نبضات قلبها البطيئة.

فتمتم في سرِّه: *إنها في حالة سُبات بيندوي.*

أزاح الرمال حتَّى خصرها، وألقى ذراعيها فوق كتفيه وسحبها إلى أسفل المنحدر ببطء في البداية، ثم بدأ يجرُّها بأسرع ما يمكن حين شعر بقلقلة الرمال في الأعلى. راح يجذبها أسرع فأسرع، لاهثًا من المجهود، مكافحًا للحفاظ على توازنه. سقط بقوَّة على قعر الصدع الصلب، ثم طوَّحها على كتفه وانطلق راكضًا بها وهو يترنَّح مع انهيار المنحدر الرملي برمَّته بفحيحٍ صاخب تردَّد صداه مضخَّمًا داخل الجدران الصخرية.

توقَّف پول عند نهاية الصدع المطلَّة على كثبان الصحراء القابعة في الأسفل على مسافة ثلاثين مترًا تقريبًا. برفق، أراحها على الرمال، ونطق بالكلمة المطلوبة لإخرجها من حالة الجمود التخشُّبي.

بدأت تستيقظ تدريجيًا، وصارت أنفاسها أعمق فأعمق.

ثم همست: «كنت متأكِّدةً من أنك ستعثر عليَّ».

نظر پول خلفه إلى أعلى الصدع وقال: «رُبَّما كان من الأرحم لو لم أجدك».

- «پول!»

قال: «فقدت الحقيبة. إنها الآن تحت مئة طن من الرمال على الأقل».

- «وبها كل شيء؟».

- «الماء الاحتياطي، وخيمة التقطير، وكل الأغراض المهمة»، ثم تحسَّس جيبه وأردف: «ما زالت البوصلة الپاراوية معي»، ثم تلمَّس الوشاح المربوط حول خصره وأضاف: «وكذلك السكِّين والنظَّارة المعظِّمة. بإمكاننا إلقاء نظرة جيِّدة إلى المكان الذي سنموت فيه».

في تلك اللحظة، أشرقت الشمس فوق الأفق من مكانٍ ما شرقًا وراء نهاية الصدع، وومضت ألوانٌ مختلفة على الرمال في الصَّحراء المفتوحة، ومن أماكن خفيَّة بين الصخور صدحت جماعات من الطيور بتغريدٍ طروب.

لكن چيسيكا لم تحوِّل عينيها عن اليأس البادي في وجه پول، ثم شحنت صوتها بنبرة موبِّخة وقالت: «أهذا ما تعلَّمته؟».

سألها: «ألا تفهمين؟ كل ما نحتاج إليه للبقاء على قيد الحياة في هذا المكان مدفون تحت تلك الرمال».

قالت: «سنجده كما وجدتني»، والآن كانت نبرتها رقيقةً وعقلانيةً.

جلس پول القرفصاء على كعبيه.

ثم رفع بصره أعلى الصدع متأمِّلًا المنحدر الجديد، ملاحظًا خلخلة رماله وعدم تماسكها.

- «لو استطعنا تثبيت مساحة صغيرة من ذلك المنحدر، والحفاظ على فوَّهة فجوة مفتوحة في الرمال، فرُبَّما تمكَّنا من صنع بئر تقود إلى مكان الحقيبة. الماء قد يساعد في هذا،

لكننا لا نملك كمًا كافيًا من الماء كي...»، ثم بتر عبارته وقال: «الرغوة!».

التزمت چيسيكا صمتًا تامًا خشية أن تقطع حبل أفكار عقله الفائق.

رنا پول إلى الكثبان الممتدَّة في الخارج، متشمِّمًا بأنفه وباحثًا بعينيه، محدِّدًا الاتِّجاه الصحيح، ثم ركَّز بصره على رقعة الرمل الداكنة أسفلهما.

قال: «الاسپايس. إنه مادَّة قلوية في الأساس، وأنا معي البوصلة الپاراوية، وبطَّاريتها حمضية».

اعتدلت چيسيكا في جلستها مستندةً إلى الصخور.

لم يعرها پول انتباهًا، وقفز واقفًا وبدأ يسير عبر درب الرمال الصلب الهابط من نهاية الصدع إلى أرضية الصَّحراء.

راقبت طريقة مشيه، وكيف يكسر إيقاع خطواته: خطوة.. فوقوف، خطوتان.. فانزلاقة.. وقوف...

لم يكن لخطواته إيقاع واضح يمكن أن يخبر دودة هائمة أن شيئًا غير ظواهر الصَّحراء يتحرَّك.

وصل پول إلى رقعة الاسپايس، واغترف غرفةً منها في طيَّة من ثوبه، وعاد بها إلى الكهف الصدعي. سكب پول الاسپايس فوق الرمال أمام چيسيكا، وجلس القرفصاء وبدأ بتفكيك البوصلة الپاراوية مستخدمًا طرف سكِّينه. خلع غطاء البوصلة، ثم فضَّ وشاحه وفرشه على الأرض، ووضع أجزاء البوصلة عليه، والتقط البطَّارية من بينها. أزال القرص وآلية المؤشِّر، فما تبقَّى من الآلة غير قطعة مقعَّرة فارغة.

قالت چيسيكا: «ستحتاج إلى ماء».

أمسك پول بأنبوب الماء القريب من عُنُقه، وشفط منه ملء فمه، وبصقه في الحاوية المقعَّرة.

فكَّرت چيسيكا: *سيكون هذا هدرًا للماء لو فشل الأمر. لكن ذلك لن يهم حينها على أيِّ حال.*

مستخدمًا سكِّينه، قطع پول شقًّا في البطَّارية، وسكب محتوياتها البلَّورية في الماء، ففارت وأرغت قليلًا، ثم هدأت.

لمحت عينا چيسيكا حركة فوقهما، فنظرت إلى أعلى ورأت صقورًا جاثمة على امتداد حافَّة الصدع، تنظر إلى الماء المكشوف أسفلها.

وفكَّرت: *بحق الأُمّ العظيمة! إنها قادرة على استشعار وجود الماء من تلك المسافة!*

أعاد پول تركيب غطاء البوصلة الپاراوية دون تركيب زر إعادة الضبط، ما ترك ثقبًا صغيرًا يؤدي إلى الماء في الداخل. ممسكًا بالآلة المُعدَّلة في يدٍ، وبحفنة من الاسپايس في اليد الأخرى، صعد پول أعلى الصدع، ووقف يتفحَّص وضع المنحدر الرملي. برفق، نفخت الرياح رداءه الذي لم يكن الوشاح يمسكه. خاض پول في رمال المنحدر، متسلِّقًا بعضه، مزيحًا الرمال بقدميه ومثيرًا هبَّات غبار.

ثم توقَّف، وبأطراف أصابعه ذرَّ فتات الاسپايس في البوصلة الپاراوية، ورجَّها.

تصاعدت رغوة خضراء من الثقب الذي كان يحتلُّه زر إعادة الضبط. سكبها پول فوق المنحدر الرملي صانعًا جيبًا دائريًّا، وبدأ في ركل الرمال من داخله وهو لا ينفك عن تثبيت حافَّة الحفرة بمزيدٍ من الرغوة.

صعدت چيسيكا إلى موقعٍ قريب منه، وصاحت: «أتحتاج إلى مساعدة؟».

قال لها: «تعالي واحفري، علينا أن نحفر بعمق ثلاثة أمتار. الوقت يداهمنا»، وبينما كان يتحدَّث، توقَّفت الرغوة عن التدفُّق من الأداة.

قال پول: «أسرعي، لا أعرف إلى متى ستصمد هذه الرغوة في تثبيت الرمال».

تسلَّقت چيسيكا زاحفةً إلى جوار پول، في أثناء ما كان يضع ذرَّة اسپايس أخرى في الثقب ويرجُّ حاوية البوصلة. ومن جديد، تدفَّقت الرغوة خارجة منها.

وبينما راح پول يصبُّ الرغوة صانعًا حاجزًا، أخذت چيسيكا تحفر بكلتا يديها، ملقيةً الرمال على المنحدر، ثم سألت لاهثة: «لأيِّ عُمق؟».

قال: «ثلاثة أمتار تقريبًا. لكنني لم أخمِّن الموقع إلَّا بالتقريب، قد نضطر إلى توسيع الحفرة».

ثم تحرَّك جانبًا خطوة، منزلقًا في الرمال الناعمة. «احفري بزاوية إلى الخلف، لا تجعلي الحفرة مستقيمة».

أطاعته چيسيكا.

ببطء، ازداد عمق الحفرة، وبلغت مستوى أرض الحوض، ومع ذلك لم يعثرا على أثرٍ للحقيبة.

سأل پول نفسه: *هل أخطأت الحساب؟ أنا من أصبت بالذعر في البداية وتسبَّبت في هذا الخطأ. هل شوَّش ذلك على قدرتي؟*

ثم نظر إلى البوصلة الپاراوية: لم يتبقَّ إلَّا أقل من خمسين ملليجرامًا من المزيج الحمضي.

وقفت چيسيكا معتدلة داخل الحفرة، ومسحت إحدى وجنتيها بيدٍ مغطّاة بالرغوة، والتقت عيناها بعيني پول.

قال پول: «الحافّة الخارجية. احفري برفق الآن». ثم أضاف ذرّة اسپايس أخرى في الحاوية، وأسقط الرغوة الفائرة حول يدي چيسيكا، فيما راحت هي تحفر عموديًا في سطح الحفرة العلوي المائل. في المسار الثاني، لمست يديها جسمًا صلبًا، ثم بدأت ببطء تسحب حمّالة طويلة بإبزيم بلاستيكي من الحفرة.

قال پول بصوتٍ يكاد يكون همسًا: «لا تحرّكيها أكثر من ذلك، لقد نفدت الرغوة منا».

أمسكت چيسيكا الحمّالة بيدها، ورفعت بصرها إليه.

ألقى پول البوصلة الفارغة إلى أرضية الحوض، وقال: «أعطيني يدكِ الأخرى، واستمعي إليَّ جيِّدًا. سأسحبك جانبًا إلى أسفل المنحدر. لا تفلتي الحمّالة من يدك. لن تنهال رمال كثيرة من الأعلى، لقد استقرَّ المنحدر. كل ما سأحاول فعله هو إبقاء الرمال بعيدًا عن رأسك، وعندما تمتلئ الحفرة بالرمال، سأحفر وأخرجك، وسنجذب الحقيبة معًا».

قالت: «فهمت».

- «مستعدة؟».

- «مستعدة». قالتها وأحكمت أصابعها حول الحمّالة.

بجذبة واحدة، أخرج پول نصف جسدها من الحفرة، وحافظ على رأسها عاليًا فيما انهار حاجز الرغوة، وانهالت الرمال إلى أسفل حتّى استقرَّت. بقيت چيسيكا مدفونة إلى الخصر، وبقيت ذراعها اليسرى بكتفها تحت الرمال، فيما حمت طيّة من ثوب پول ذقنها. آلمتها كتفها من الضغط الواقع عليها.

قالت: «ما زلت ممسكة بالحمَّالة».

ببطء، أزاح پول الرمال من حولها حتَّى وجد الحمَّالة. ثم قال: «سنجذبها معًا، بهدوء وروِيَّة كي لا نقطعها».

انهال مزيدٌ من الرمال وهما يجذبان الحقيبة إلى الخارج، وعندما ظهرت الحمَّالة على السطح، توقَّف پول، وحرَّر جسد أُمِّه من الرمال، ثم جذب كلاهما الحقيبة أسفل المنحدر، متعاونين لإخراجها من محبسها.

بعدها بدقائق قليلة، كانا يقفان في قعر الصدع ممسكين بالحقيبة بينهما.

نظر پول إلى وجه أُمِّه الملطَّخ بالرغوة، وإلى ثوبها المعجون بالرمال حيث جفَّت الرغوة. بدت كأنها هدفٌ صُوِّبت عليه كرات رمالٍ مُبلَّلة.

قال لها: «تبدين في حالة مزرية».

قالت له: «لست في منتهى الأناقة أنت أيضًا».

ثم راحا يضحكان، قبل أن يتمالكا نفسيهما.

قال پول: «لم يكن ينبغي لذلك أن يحدث، لم أكن حريصًا».

هزَّت چيسيكا كتفيها، وشعرت بالرمال الملتصقة بثوبها تتساقط.

قال لها: «سأنصب الخيمة. من الأفضل أن تخلعي هذا الثوب وتنفضيه جيِّدًا»، ثم استدار آخذًا الحقيبة معه.

أومأت چيسيكا وقد ألجمها الإرهاق الذي ألمَّ بها فجأةً عن الرد.

قال پول: «تُوجد ثقوب أوتاد في الصخر. أحدهم خيَّم هنا من قبل».

خطر لها وهي تفرك ثوبها: *ولِمَ لا؟* هذه بقعة مناسبة للتخييم، فهي تقبع عميقًا بين الصخور، وقبالة جرف آخر يبعد أربعة كيلومترات تقريبًا. كما أنها مرتفعة عن الصَّحراء بما يكفي لتفادي الديدان، وفي الوقت نفسه قريبة بما يكفي منها ما يسهل الذود بها قبل العبور.

استدارت چيسيكا ورأت أن پول نصب الخيمة التي تماهت قبَّتها المنتفخة المضلَّعة مع صخور جدار الصدع المحيطة. مرَّ پول من جوارها، ملتقطًا نظَّارته المعظِّمة، ثم ضبط ضغطها الداخلي بلفَّة سريعة، وركَّز عدستيها الزيتيَّتين على الجرف الآخر، الذي اصطبغ بصفرة ذهبية في ضوء النهار عبر الرمال الممتدَّة.

راقبته چيسيكا وهو يتفحَّص المشهد الأبوكاليبسي المروِّع، وعيناه تسبران غور الأخاديد وأنهار الرمال.

قال: «توجد نباتات نامية هناك».

التقطت چيسيكا النظَّارة الاحتياطية في الحقيبة الملقاة جوار الخيمة، ووقفت بجانب پول.

قال: «هناك»، ممسكًا النظَّارة بيدٍ، ومشيرًا بالأخرى.

نظرت إلى حيث أشار.

ثم قالت: «هذا سجوار. صبَّار هزيل».

قال پول: «قد يكون هناك أشخاص بالجوار».

قالت محذِّرة: «قد يكون بقايا متخلِّفة من إحدى محطَّات التجارب النباتية».

قال: «هذه بقعة نائية جدًّا جنوب الصَّحراء». ثم خفض منظاره، وحكَّ جلده أسفل سدَّادة المرشِّح مستشعرًا مدى جفاف

وتشقُّق شفتيه ومذاق العطش المترِّب في فمه، وأردف: «المكان يبدو كأماكن عيش الفرمِن».

سألته: «وهل نحن على يقين من أن الفرمِن سيكونون ودودين؟».

- «وعدنا كاينز بأنهم سيساعدوننا».

فكَّرت چيسيكا: *لكن في صدور في أهل هذه الصَّحراء يأس، وقد استشعرت بعضًا منه اليوم. اليائسون قد يقتلوننا للحصول على مياهنا.*

أغلقت چيسيكا عينيها، واستحضرت في ذهنها مشهدًا من كلادان وأسقطته على هذه الأرض القاحلة. تذكَّرت رحلة قضتها مع الدوق ليتو قبل ولادة پول، حلَّقا فيها بالطائرة فوق الأدغال الجنوبية، وأوراق الأعشاب البرية المتمايلة، وحقول الأرز في الدلتا. من منظورهما السماوي شاهدا طوابير متحرِّكة تقطع المساحات الخضراء تبدو كأنها طوابير نمل: جماعات من الرجال تسير بحمولاتها المعلَّقة على أنيارٍ طافية مزوَّدة بمضادات الجاذبية. وفي البحر، شاهدا مراكب الداو الشراعية التي تبدو أشرعتها كبتلاتٍ بيضاء. كل هذا راح.

فتحت چيسيكا عينيها على سكون الصَّحراء، وعلى سخونة النهار المتزايدة. كانت شياطين الحرارة الجحيمية قد بدأت تسخين الهواء وجعله يتراقص فوق الرمال المفتوحة، وبدا الجدار الصخري الآخر المقابل لهما كجسم تراه عبر زجاجٍ رديء.

نشر انسكابٌ رملي ستارته القصيرة على مدخل الصدع المفتوح على الصحراء، وصدر صفيرٌ عن الرمال وهي تتجرف بفعل نسيم الصباح وبفعل خفقات أجنحة الصقور التي بدأت تحلِّق مغادرة حافَّة الجرف. توقَّف سقوط الرمال، لكن چيسيكا

ظلَّت تسمع الصفير في أذنيها. ازدادت حدَّة الصَّوت تدريجيًا، الصَّوت الذي ما إن يسمعه المرء مرَّة في حياته، لا ينساه أبدًا.

همس پول: «إنها دودة».

جاءت الدودة من جهة اليمين، بحضورٍ مهيب لا يمكن تجاهله ولا يكترث لشيءٍ: رابية تتحرَّك أسفل الرمال مخترقةً الكثبان الرملية القابعة في مجال بصرهما. ارتفعت مقدِّمة الرابية، مثيرة الغبار كالموجة التي تتشكَّل عند قوس السفينة وهي تشقُّ الماء. ثم رحلت، ميمِّمةً إلى اليسار.

تضاءل الصَّوت، ثم خمد.

همس پول: «رأيت فرقاطات فضائية أصغر حجمًا».

أومأت چيسيكا، وواصلت تحديقها إلى الصَّحراء. تركت الدودة فجوة محيِّرة خلفها حيث مرَّت، وامتدَّت أمامهما إلى ما لا نهاية مخلِّفةً شعورًا بالمرارة، مختفيةً عند خط الأُفُق حيث تلتقي السماء بالأرض.

قالت چيسيكا: «بعد أن نستريح، يجب أن نواصل دروسك».

كبت پول غضبًا مفاجئًا تأجَّج داخله وقال: «أُمِّي، ألا تظنين أنه بإمكاننا الاستغناء عن...».

قالت: «اليوم تملَّكك بالذعر. أنت تعرف عقلك وقدراته البيندوعصبية رُبَّما أفضل مني، ولكن ما زال أمامك الكثير لتتعلمه عن جهاز پرانا العضلي الهيكلي. يتصرَّف الجسم من تلقاء نفسه أحيانًا يا پول، وبإمكاني تعليمك كيف تسيطر عليه. يجب أن تتعلَّم السيطرة على كل عضلة وعلى كل نسيج في جسدك. تحتاج إلى مراجعة درس اليدين. سنبدأ بعضلات الأصابع، وأوتار الكف، وحساسية الأنامل»، ثم استدارت مبتعدة. «هيَّا، إلى الخيمة الآن».

ثنى پول أصابع يده اليسرى، وراقبها وهي تزحف عبر الصّمام العاصر، عالمًا أنه لن يستطيع إثناءها عمًّا عقدت عزمها عليه، وأنه لا بُدَّ له من الانصياع.

وفكَّر: *أيا كان ما فُعِل بي، فقد كنت طرفًا فيه.*

مراجعة درس اليدين!

نظر پول إلى يده، وراعاه مدى ضآلتها إذا ما قورنت بمخلوقات في حجم تلك الدودة.

جئنا من كلادان، وهو كوكبٌ كالجنَّة في نظر البشر. على كلادان، لم نكن في حاجة إلى تشييد جنَّة حقيقية ملموسة ولا جنَّة خيالية للعقل، إذ كنَّا نراها رؤى العين في كل شيءٍ حولنا. والثَّمن الذي دفعناه نظيرها هو الثمن الذي طالما دفعه البشر لتحقيق الجنَّة في الحياة الدنيا: صرنا رخاخًا، وفقدنا خشونتنا.

من كتاب «المؤدِّب: محادثات» للأميرة إيرولان.

قال الرجل: «أنت إذًا جيرني هاليك العظيم».

وقف هاليك محدِّقًا عبر غرفة المكتب الكهفية المستديرة إلى وجه المهرب الجالس خلف مكتبٍ معدني. كان الرجل يرتدي الثوب الفرمِني التقليدي، وفي عينيه مسحة من الزرقة تشي بأن حميته الغذائية لم تكن مقتصرة على الطعام الأرَّاكسي، وأنها تشمل أطعمة من خارج الكوكب. كانت غرفة المكتب تحاكي مراكز القيادة الرئيسة في الفرقاطات الفضائية، تتناثر فيها الشاشات وأجهزة الاتِّصال على امتداد جدارٍ مقوَّس بزاوية 30 درجة، وإلى جوارها صفوف مفاتيح إطلاق الأسلحة عن بُعد، وسطح المكتب نفسه مصمَّم ليشغل الجزء المنحني المتبقِّي من الجدار.

قال المهرِّب: «أنا ستابان تُويك، ابن أسمر تُويك».

قال هاليك: «أنت إذًا من أدين له بالشكر على المساعدة التي تلقَّيناها».

قال المهرِّب: «آها، العرفان بالجميل. اجلس».

من الحائط جوار الشاشات، خرج مقعد وثير كمقاعد سفن الفضاء، فغاص هاليك فيه وهو يتنهَّد شاعرًا بالإرهاق المتكالب

عليه. رأى انعكاس صورته على سطح داكن مجاور للمهرب، وراعاه ما رأى فيه من خطوط انهاك باديةً في كتلة وجهه الدميمة. ومع عبوسه ملامحه، التوت نُدبة الإنكفاين على طول فكّه.

تولّى هاليك عن انعكاس صورته، وحدّق إلى تُويك، ملاحظًا التشابه العائلي البادي في ملامح وجهه: حاجبا أبيه الكثّين المتدلّيين، وأنفه ووجنتيه المسطّحتين المقدودتين من صخر.

قال هاليك: «أخبرني رجالي أن أبيك قُتل على يد الهراكنة».

قال تُويك: «على يد الهراكنة، أو على يد خائنٍ من قومك».

تغلّب الغضب على بعضٍ من إجهاد هاليك، فاعتدل متحفّزًا وقال: «هل بإمكانك تسمية الخائن؟».

- «لسنا متأكّدين».

- «كان ظفير حوّاط يشتبه في الليدي چيسيكا».

- «آها، ساحرة البِني چيسيرِت. رُبّما. لكن حوّاط الآن أسير الهراكنة».

- «سمعت بذلك»، ثم أخذ نفسًا عميقًا وأردف: «يبدو أن أمامنا مزيدًا من القتال».

قال تُويك: «لن نفعل شيئًا يجذب الأنظار إلينا».

شدّ هاليك قامته: «ولكن...».

قاطعه تُويك: «نحن نرحّب بمكوثك أنت ورجالك الذين أنقذناهم بيننا وتحت حمايتنا. تقول إنك ممتنٌّ لنا. حسنًا جدًا، اعمل على سداد دينك إذًا. بإمكاننا الاستفادة دومًا بالرجال الصالحين، لكننا سندمّركم على الفور إذا تحرّكتم بأدنى بادرة عداء ضد الهراكنة».

- «لكنهم قتلوا والدك يا رجل!».

- «رُبَّما. وإن كان الأمر كذلك، فسأعطيك إجابة والدي لأولئك الذين يتصرفون دون تفكير: الحجر ثقيل والرمل ثقيل، لكن غضب الجاهل أثقل من الاثنين».

قال هاليك هازئًا: «ألا تنوي فعل شيء حيال الأمر إذًا؟».

- «لم أقل ذلك. كل ما أقوله إنني سأصون عقدنا مع النقابة، والنقابة تلزمنا بأن نلعب اللعبة بحذر. لتدمير الخصم طرائق أخرى».

- «آها».

- «آها بالفعل. إن كنت عازمًا على مطاردة السَّاحرة، فافعل ما يحلو لك. لكنني أحذِّرك من أن أوان ذلك رُبَّما يكون قد فات. كما أننا نشك في مسألة كونها الشخص الذي تريده على أيِّ حال».

- «حوَّاط قليلًا ما يُخطئ».

- «لقد ترك نفسه يقع في أيدي الهراكنة».

- «أتظنُّ أنه الخائن؟».

هزَّ تُويك كتفيه قائلًا: «هذا مجرَّد افتراض، ففي ظنِّنا أن السَّاحرة ماتت. على الأقل هذا ما يعتقده الهراكنة».

- «يبدو أنك تعلم الكثير عن الهراكنة».

- «محض تلميحات وإشارات، مجرَّد شائعات وحدس».

قال هاليك: «نحن أربعة وسبعون رجلًا، إن كنت جادًا في مسألة تجنيدنا معك، فلا بُدَّ أنك تصدِّق أن دوقنا قضى نحبه».

- «جثَّته شوهدت بالفعل».

- «ماذا عن الصبي؟ السيِّد الصغير بول؟»، قالها هاليك وحاول ابتلاع ريقه، لكن غصَّة في حلقه منعته.

- «وفقًا لآخر أنباء وردتنا، فقد اختفى هو وأُمُّه في قلب عاصفة صحراوية. في الغالب لن يُعثر حتَّى على عظامهما».

- «السَّاحرة ماتت إذًا. كلهم ماتوا».

أومأ تُويك قائلًا: «كما سمعنا أن رابان الوحش سيجلس مجددًّا على عرش الحكم هنا، على كوكب كثيب».

- «الكونت رابان، كونت كوكب لانكفيل؟».

- «أجل».

تأنَّى هاليك لحظة لإخماد الغضب العارم الذي تأجَّج بداخله مهدِّدًا بالسيطرة عليه، ثم قال بأنفاسٍ لاهثة: «لديَّ حساب شخصي مع رابان يجب تسويته، فهو من قتل أفراد عائلتي...»، وحكَّ النُدبة على فكِّه مُردفًا: «وأصابني بهذه».

قال تويك: «لا يخاطر المرء بكل شيء لتسوية حسابٍ قبل الأوان»، ثم قطب جبينه وهو يراقب اختلاج عضلات فكِّ هاليك، والإحجام المفاجئ الذي ظهر في عيني الرجل الغائرتين.

أخذ هاليك نفسًا عميقًا وقال: «أعرف.. أعرف».

- «بإمكانك أنت ورجالك تأمين تذكرة خروجكما من أرَّاكس بالعمل لحسابنا، فثمَّة أماكن كثيرة يمكن أن...».

- «إني أُحلُّ رجالي من أيِّ وثاقٍ يربطهم بي. لهم مطلق الحرية للاختيار بأنفسهم. أمَّا أنا فسأبقى، ما دام رابان هنا».

- «بتفكيرك هذا، لست متأكدًا من رغبتنا في بقائك».

حدَّق هاليك إلى المهرِّب وقال: «أتشكُّ في وفائي بكلمتي؟».

- «كلَّا وحاشا...».

- «لقد أنقذتني من الهراكنة. تعهُّدي بالولاء للدوق ليتو كان لسببٍ مماثل. سأبقى على أرَّاكس، إما معك.. وإما مع الفرمِن».

قال تُويك: «النطق بالفكرة من عدمه لا يؤثِّر في حقيقة أن لها وجودًا، وفيها قوَّة. قد تجد الخط الفاصل بين الحياة والموت مع الفرمِن رفيعًا وحادًا جدًا».

أغلق هاليك عينيه للحظات، شاعرًا باستحواذ التعب عليه، وغمغم: «"أين الرب الذي سار بنا في أرض القفار والوهاد؟"[1]».

قال تُويك: «تروَّى وسيأتي اليوم الذي تحصل في على انتقامك. العجلة من الشيطان. برِّد أحزانك، فلدينا ما يلهيك عنا. ثلاثة أشياء تريح القلب: الماء والخضرة والوجه الحسن».

فتح هاليك عينيه وقال: «أريد أن تسيل دماء رابان هاركونن عند قدميَّ»، ثم حدَّق إلى تُويك: «أتظن أن هذا اليوم سيأتي؟».

- «لا أملك مساعدتك في مواجهة الغد يا جيرني هاليك، كل ما في وسعي هو مساعدتك اليوم».

- «إذًا سأقبل بهذه المساعدة، وسأنتظر مجيء اليوم الذي تخبرني فيه أن أثأر لوالدك وللآخرين الذين...».

قال تُويك: «اسمعني جيِّدًا أيُّها المناضل»، ثم انحنى فوق مكتبه حتَّى صارت كتفاه في محاذاة أُذُنيه، وبدا التصميم في عينيه، وصار وجهه فجأة أشبه بالصخر الذي نحتته الريح: «أنا من سأسترجع ماء أبي بنفسي، بنصل سكِّيني».

حدَّجه هاليك بنظره مماثلة. في تلك اللحظة، شعر بأن المهرِّب يذكِّره بالدوق ليتو: قائدٌ شجاع، راسخ المنزلة، واثقٌ بمساره. كان يشبه الدوق قبل مجيئه إلى أرَّاكس.

1- سفر إرميا، الإصحاح الثَّاني، آية 6 (بتصرُّف).

سأله هاليك: «أتريد نصلي بجوار نصلك؟».

أرجع تُويك ظهره إلى الخلف، واسترخى في مقعده، متأمِّلًا هاليك بصمت.

ألح هاليك: «أتراني مناضلًا؟».

قال تُويك: «أنت الوحيد الذي هرب من ضُبَّاط الدوق. كان عدوُّك متفوِّقًا، لكنك نجحت في مجاراته، وهزمته بالطريقة التي هزمنا بها أرَّاكس».

- «ماذا؟».

- «نحن نعيش في كبدٍ هنا يا جيرني هاليك. أرَّاكس عدوَّنا».

- «أتقصد أن علينا التعامل مع الأعداء كلٌّ على حدةٍ؟».

- «هذا هو بيت القصيد».

- «أهذا هو منهج الفرمِن في البقاء؟».

- «رُبَّما».

- «قلت إنني قد لا أحتمل قسوة وشظف حياة الفرمِن. إنهم يعيشون في عمق الصَّحراء، أهذه هو السبب؟».

- «من يعرف أين يعيش الفرمِن؟ كل ما نعرفه هو أن الهضبة الوسطى أرضٌ غير مطروقة. لكنني أريد التحدُّث أكثر عن...».

قاطعه هاليك: «قيل لي إن النقابة نادرًا ما تسمح بمرور مركبات نقل الاسبايس الخفيفة فوق الصَّحراء. لكن الشائعات تقول إنه يمكن مشاهدة رُقيعات خضراء هنا وهناك، إن كنت تعرف أين تبحث».

قال تُويك ساخرًا: «شائعات! أتفاضل الآن بيني وبين الفرمِن؟ نتمتَّع بقدرٍ من الأمن، ولدينا سييتشنا المنحوت في الصخر، ولدينا أحواضنا الخاصة المخفية. نحن نعيش حياة البشر

المتحضِّرين. ما الفرمِن إلَّا عصابات متفرِّقة شعثاء نستغلُّها في جمع الاسپايس».

- «لكنهم قادرون على قتل الهراكنة».

- «وهل تريد معرفة نتيجة أفعالهم؟ إنهم يُطاردون ويُقتلون كالحيوانات، يُسقطونهم صرعى ببنادق الليزر، لأنهم لا يملكون دروعًا. إنهم يتعرَّضون لإبادة. لماذا؟ لأنهم تجرَّؤوا على قتل الهراكنة».

سأله هاليك: «وهل الذين قتلهم الفرمِن هراكنة؟».

- «ماذا تقصد بذلك؟».

- «ألم تسمع باحتمالية وجود ساردوكار بين صفوف الهراكنة؟».

- «مزيدٌ من الشائعات».

- «لكن ما يجري الآن مذابح جماعية، وليس هذا من طبع الهراكنة. المذابح تبديد وإسراف».

قال تُويك: «لا أُصدِّق إلَّا ما أراه بأُمِّ عينيَّ. اتَّخذ قرارك أيُّها المناضل. أنا أم الفرمِن. أعدك بتوفير الملاذ وفرصة لإراقة الدم الذي يريد كلانا إراقته. ثق بهذا. لن يقدِّم لك الفرمِن سوى حياة المطاريد».

تردَّد هاليك في قراره، شاعرًا بالحكمة والتعاطف في كلام تُويك، لكن قلقًا اعتراه لسببٍ ما لم يستطع تفسيره.

قال تُويك: «ثق بقدراتك. أليست قرارات هي التي أخرجت قوَّاتك سالمة من المعركة؟ قرِّر إذًا».

قال هاليك: «موت الدوق وابنه حقيقة مؤكَّدة، أليس كذلك؟».

- «هذا ما يعتقده الهراكنة، وفي مثل هذه الأمور، أميل إلى الوثوق برأي الهراكنة»، ثم ارتسمت ابتسامةٌ كالحةٌ على وجه

تُويك، وأردف: «لكنها الثقة الوحيدة التي أمنحها لهم».

كرَّر هاليك: «لا بُدَّ من أنها الحقيقة إذًا». ثم مدَّ يده اليمنى مفتوحة، وإبهامه مطويًا على راحة يده في الإشارة المتعارف عليها: «أعطيك سيفي».

- «وأنا قبلته».

- «أتريدني أن أقنع رجالي بالانضمام إليك؟».

- «وهل ستتركهم يختارون بأنفسهم؟».

- «لقد تبعوني حتَّى هذه اللحظة، لكن معظمهم وُلدوا على كلادان، ولم يجدوا أرَّاكس كما كانوا يتوقَّعون. لقد خسروا كل شيءٍ هنا باستثناء أرواحهم، لذا أُفضِّل أن يتَّخذوا قرارهم بأنفسهم الآن».

قال تُويك: «ليس هذا وقتًا مناسبًا للتردُّد، لقد تبعوك إلى هذا الحدّ».

- «أنت في حاجةٍ إليهم، أليس كذلك؟».

- «يمكننا الاستفادة دومًا بالمقاتلين ذوي الخبرة، بالذات في هذه الأوقات».

- «لقد قبلت بسيفي. أتريدني أن أقنعهم؟».

- «أظن أنهم سيتبعونك يا جيرني هاليك».

- «لنأمل ذلك».

- «بالتأكيد».

- «بإمكاني اتِّخاذ قراري بنفسي في هذا الأمر؟».

- «القرار قرارك».

نهض هاليك من المقعد الوثير، ولاحظ قدر ما استهلكه مجهودٌ بسيطٌ كهذا ممَّا تبقى من مخزون طاقته، وقال: «في

الوقت الحالي، سأتفقَّد أماكن سكنهم وألبِّي ما ينقصهم من احتياجات».

قال تُويك: «اذهب إلى ضابط الإمدادات، اسمه دريسق. أخبره بأنني أمرت أن تتلقَّوا كل وسائل الراحة. سأنضم إليكم بنفسي لاحقًا، لكن عليَّ متابعة سير بعض شحنات الاسپايس أوَّلًا».

قال هاليك: «الفرص متاحة للجميع».

قال تُويك: «أجل، الجميع. أوقات الاضطرابات فرصة نادرة تزدهر فيها أعمالنا».

أومأ هاليك، ثم سمع هسيسًا خافتًا وشعر بدفقة هواء مع انفتاح كوَّة باب في الجدار المجاور، فاستدار، وحنى رأسه وهو يعبر من خلاله مغادرًا حجرة المكتب.

وجد نفسه في قاعة الانتظار التي اقتاده إليها مساعدو تُويك هو ورجاله في السابق. كانت طويلة وضيِّقة بعض الشيء، ومنحوتة من صخور البيئة الطبيعية، ويشير سطحها الأملس على استخدام قواطع الليزر الحارقة في تنعيم جدرانها. أما السقف فكان عاليًا إلى درجة تسمح باستكمال منحنى الصخر الطبيعي الدَّاعم، والسماح بمرور تيَّارات الهواء الداخلية لتوزيع الحرارة. وعلى الجدران، اصطفت رفوف أسلحةٍ وخزانات.

لاحظ هاليك -بشيءٍ من الفخر- أن من لا يزالون قادرين على الوقوف من رجاله كانوا واقفين، ولم يعطوا لأنفسهم حقَّ الاسترخاء في التعب والهزيمة، فيما راح يتحرَّك بينهم فريق مسعفي المهرب ويعتنون بالجرحى. كانت محفَّات الجرحى مجمَّعة في منطقة واحدة إلى اليسار، وكل جريح برفقة زميلٍ له.

فكَّر هاليك: يقول ميثاق الشرف الآتريديزي: «يشدُّ بعضنا بعضًا»، وهو عقيدةٌ راسخةٌ فيهم كالنواة الصلبة.

تقدَّم أحد الضبَّاط حاملًا باليسِت هاليك ذات الأوتار التسعة خارج حقيبتها، وأدَّى له التحيَّة العسكرية، ثم قال: «سيِّدي، يقول المسعفون إنه لا أمل في إنقاذ ماتاي، فليس لديهم بنوك أعضاء أو عظام هنا. كل ما يملكونه هو الأدوات المتاحة في المستشفى الميداني. ماتاي لن ينجو، هذا ما يقولونه، وهو لديه رجاء».

- «ما هو؟».

مدَّ الضَّابط يده بالباليست وقال: «يريد ماتاي سماع أغنية تهوِّن عليه لحظاته الأخيرة يا سيِّدي. يقول إنك تعرف الأغنية المطلوبة، إذ طلبها منك مرارًا من قبل»، ثم ابتلع الضابط ريقه وأردف: «إنها أغنية "امرأتي" يا سيِّدي. إن كنت...».

قاطعه هاليك قائلًا: «أعرف طلبه»، وأخذ الباليسِت، والتقط الريشة المتعدِّدة السنون من مكانها عند لوحة الأصابع، وضرب وترًا على الآلة فوجد أن أحدهم ضبطها بالفعل. شعر بعينيه تحرقانه، لكنه نفض عنه التفكير في الألم وهو يمشي بين صفوف الرجال، عازفًا اللحن، مجبرًا نفسه على الابتسام.

كان الكثير من رجاله وواحد من مسعفي المهرِّب مُنحنين فوق إحدى المحفَّات. شرع أحد الرجال في الغناء بصوتٍ خفيض مع اقتراب هاليك، ملتقطًا اللحن بسهولة تدلُّ على طول معرفته به:

«تقف امرأتي في نافذتها،

خطوطها المنحنية تكسر حِدَّة الزجاج المربع.

ترفع ذراعيها، وتثنيهما، وتطويهما نزولًا

في أشعة الشمس الغاربة، الحمراء الذهبية.

هلُمَّا إليَّ..
يا ذراعي معشوقتي الدافئتين
أنتما ملكي..
يا ذراعي معشوقتي الدافئتين».

سكت المغنِّي عن الغناء، ومدَّ ذراعه المضمَّدة وأغلق جفني الرجل المُسجى على المحفَّة.

ضرب هاليك وترًا شجيًا أخيرًا على الباليسِت، وفكَّر: *الآن صرنا ثلاثة وسبعين.*



يصعب على كثير من الناس فهم طبيعة الحياة الأسرية التي يعيشها أطفال العائلة المالكة في حضانة القصر الإمبراطوري، لكنني سأحاول إيجازها لك في كبسولة. لم يكن لأبي سوى صديق واحد حقيقي هو الكونت هاسيمير فنرينج، المولود خَصِيًّا، وأحد أخطر القتلة في الإمبراطورية. ذات يوم، أحضر الكونت -وهو رجلٌ أنيقٌ، قبيحٌ، ضئيل الحجم- جاريةً جديدةً إلى والدي ليتَّخذها حظيَّة، فأرسلتني أُمِّي للتجسُّس على الأمر. كنا جميعًا نتجسس على أبي لحماية أنفسنا. بالطبع لم يكن مسموحًا للجاريات الحظيَّات -بموجب الاتِّفاقية المبرمة بين البِني جيسيرِت والنقابة- إنجاب خليفة لأبي، لكن ذلك لم يمنع تكرار الدسائس الدنيئة التي تقضُّ المضاجع، حتَّى صرنا -أنا وأُمِّي وأخواتي- بارعات في مراوغة شراك الموت الخبيثة. قد يبدو قولي بغيضًا، لكنني لست واثقةً بأن والدي كان بريئًا من كل هذه المحاولات. العائلات المالكة ليست كباقي العائلات. وهكذا، ذهبت فرأيت الجارية الحظيَّة الجديدة تقف هناك، بشعرها الأحمر كشعر والدي، وقوامها الممشوق، وجمالها الباهر. كان لعضلاتها تناسق عضلات الراقصات، وبدا واضحًا أنها تدرَّبت على فنون الإغراء العصبي. أطال أبي النظر إليها وهي تقف عارية أمامه، وفي النهاية قال: «إنها

أجمل من اللازم، سنحتفظ بها للتهادي». لن تتخيَّل الوجوم الذي خيَّم على جميع من في حضانة القصر الإمبراطوري بعد هذا التعفُّف الذي أبداه والدي، إذ كان بُعد النظر وضبط النفس من أخطر التهديدات التي تواجهنا نحن معشر البِني چيسيرِت.

من كتاب «في بيت أبي» للأميرة إيرولان.

وقف پول خارج خيمة التقطير في وقتٍ متأخر من بعد الظهر. كان الصدع الذي نصب فيه مخيِّمهم مستترًا في عمق الظلال. حدَّق پول عبر الرمال المفتوحة إلى الجرف البعيد، متسائلًا إن كان عليه إيقاظ والدته النائمة في الخيمة.

امتدَّت الكثبان على مرمى البصر أمام مأويهما، طيَّات تلو طيَّات من الرمال. وعلى الجانب المقابل للشمس الغاربة، ألقت الكثبان ظلالًا ثقيلة شديدة السواد تكاد تكون قطعًا من الليل.

صحراء منبسطة مترامية الأطراف.

بحثت عيناه عن أيِّ تضاريس بارزة في المشهد، لكن لم يكن هناك تضريس واحد يكسر حدَّة الهواء المثقل بالحرارة أو ذلك الأفق المفتوح. لا أثر لنبتةٍ أو لغصن مزهر يهتز بلطف ليدل على مرور النسيم. لا شيء سوى الكثبان، وذلك الجرف البعيد الجاثم تحت سماء جرداء فضِّية زرقاء مصقولة.

تساءل پول: *ماذا لو لم تكن إحدى محطَّات التجارب المهجورة عند الجرف؟ ماذا لو لم يكن هناك فرمِن كذلك، وأن النباتات التي رأيناها تصادف وجودها فحسب؟*

داخل الخيمة، استيقظت چيسيكا وانقلبت على ظهرها مسترقةً إلى پول النظر عبر الجزء الشفّاف من الخيمة. كان يقف معطيًا ظهره لها، فذكّرها شيءٌ في وقفته بأبيه، وشعرت ببئر الحزن داخلها تفيض، فأشاحت بوجهها.

ثم ما لبثت أن ضبطت بذلة التقطير على جسدها، وأنعشت نفسها برشفة ماء من جيب الخيمة وانزلقت خارجة، ثم وقفت تتمطّى موقظةً عضلاتها النائمة.

قال پول دون أن يستدير: «أجد نفسي مستمتعًا بالهدوء هنا».

فكّرت چيسيكا: *يا لقدرة العقل على التكيُّف مع البيئة التي يجد نفسه فيها!* ثم تذكّرت قول البِني چيسيرِت المأثور: «*تحت تأثير الضغط، قد ينجرف العقل صوب أيٍّ من الاتّجاهين: الضلال أو الرُّشد، التفكير الإيجابي أو السلبي. فكّرن في الأمر على أنه طيفٌ واسع، يقبع اللا وعي في طرفه السلبي والوعي الفائق في طرفه الإيجابي. الطرف الذي سيميل إليه العقل تحت الضغط سيحدِّد التدريب الذي تلقّاه الشخص*.

قال پول: «الحياة هنا قد تطيب لنا».

حاولت أن ترى الصَّحراء بعينيه، وأن تستوعب الظروف القاسية التي يألفها أهل هذا الكوكب، ووجدت نفسها تتساءل عن السيناريوهات المستقبلية التي تراءت لپول لمحات خاطفةً منها، وفكّرت: *يمكن للمرء العيش بمفرده هنا، بلا خوف أن يتسلَّل شخصٌ لاغتياله، بلا خوف من المطاردة*.

تقدَّمت خطوة عن پول، ورفعت نظّارتها المعظِّمة إلى عينيها ضابطةً عدستيها الزيتيَّتين، وأمعنت في النظر إلى الجرف

المقابل لهم. أجل، يُوجد سجوار في الأخاديد الجافّة، ونباتات شوكية أخرى، وحصيرة من العشب القصير يبدو لونه أخضر مصفرًا في الظلال.

قال پول: «سأزيل المخيَّم».

أومأت چيسيكا، وسارت إلى مدخل الصدع حيث تستطيع إلقاء نظرة واسعة إلى الصَّحراء، ورفعت نظَّارتها المعظّمة إلى اليسار. رأت غورًا ملحيًا يسطع باللون الأبيض، وتحدّد أطرافه صفرةٌ داكنةٌ: سهلٌ أبيض قابع هناك في العراء حيث اللون الأبيض يعني الموت. لكن هذا الغور دليل على وجود شيءٍ آخر: الماء. في وقتٍ ما كان الماء يتدفّق عبر ذلك البياض السَّاطع. خفضت چيسيكا نظّارتها المعظّمة، وعدَّلت بُرنُسها، وأنصتت للحظات إلى صوت تحرُّكات پول.

انخفضت الشمس أكثر في الأُفُق، فطالت الظلال عبر الغور الملحي، وانتشرت خطوط ألوان جامحة في سماء الغروب. ثم ساحت الألوان، وبدأت رؤوس أصابع الظلمة التي تكوَّنت منها تتحسَّس الرمال، فانتشرت ظلالٌ بلون الفحم، قبل أن يخلع الليل فروته الثقيلة على الصَّحراء حاجبًا إيَّاها عن الأنظار.

وظهرت النجوم!

رفعت چيسيكا بصرها إلى النجوم، وأحسَّت بحركة پول وهو يقترب منها. تركَّز ليل الصَّحراء في السماء، كأنه يريد الارتقاء نحو النجوم. انحسرت وطأة حرارة النهار، وشعرت چيسيكا بنسمة هواء عابرة تداعب وجهها.

قال پول: «سيظهر القمر الأوَّل بعد قليل. الحقيبة جاهزة، وقد زرعت المِطراق في الأرض».

فكّرت چيسيكا: *قد نضيع إلى الأبد في هذا الجحيم، ولن يعرف أحد.*

أثارت الريح الليلة حبيبات رمال سفعت وجهها حاملةً معها رائحة القرفة، وامتلأ الليل بوابلٍ من الروائح.

قال پول: «شمّي هذا».

قالت: «أشمُّها حتّى عبر سدّادة مرشّح الأنف. هذه الرمال تحوي ثروة، لكن هل ستبتاع لنا الماء؟»، ثم أشارت إلى ما وراء الحوض وأردفت: «لا أرى أضواء صناعية هناك».

قال لها: «قد يكون الفرمِن مختبئين في سييتشٍ خلف تلك الصخور».

بزغت حافّة فضّية من خطّ الأُفُق إلى يمينهما: قمر الليل الأوّل، ثم دخل إلى مجال الرؤية، وبدا شكل اليد المرسوم على وجهه للناظرين. تأمّلت چيسيكا الرمال الفضّية البيضاء التي كشف عنها الضوء.

قال پول: «زرعت المِطراق في أعمق جزء في الصدع. بمجرّد ما أُشعِل فتيله، سيكون أمامنا ما يقرب من ثلاثين دقيقة».

- «ثلاثون دقيقة لماذا؟».

- «قبل أن يبدأ استدعاء الدودة».

- «أها، أنا مستعدّة للتحرُّك».

انسلَّ مبتعدًا عنها، وسمعت صوت خطواته تصعد أعلى الصدع الذي وفَّر لهما المأوى.

وفكّرت: *هذه الليلة أشبه بالنفق، ممرّ سيعبر بنا إلى الغد، إن كان لدينا غد*. ثم هزّت رأسها واستطردت في تفكيرها: *لِمَ*

تكتنفني هذه الكآبة؟ لقد تدرَّبت على أن أقوى من ذلك.

عاد پول والتقط الحقيبة، وتقدَّم الطريق نزولًا نحو أوَّل كثيبٍ، ثم توقَّف عنده مصغيًا إلى صوت اقتراب أُمِّه من خلفه. سمع صوت تقدُّمها الناعم، وهسيس بعثرة الرمال الواهن بين قدميها: شيفرة الصَّحراء السرِّية التي توضِّح قواعد السلامة الخاصة بها.

قال پول: «يجب ألَّا يكون لسيرنا إيقاع»، ثم استدعى في ذهنه ذكرتين عن رجال يسيرون فوق الرمال: ذكرى استبصارية وأخرى حقيقية.

قال: «راقبي كيف أفعلها، فهكذا يسير الفرمن في الصَّحراء».

خطا پول على جانب الكثيب المواجه للرياح، متَّبعًا منحناه، مجرجرًا قدميه في خطواتٍ غير منتظمة.

راقبت چيسيكا تقدُّمه قرابة عشر خطوات، ثم تبعته، مقلِّدةً حركته. بعدها فهمت منطق الأمر: يجب أن تبدو الأصوات الصادرة عنهما كأصوات حركة الرمال الطبيعية، كأصوات الرياح. لكن عضلاتها تذمَّرت وبدأت تئن من هذا الإيقاع المكسور غير الطبيعي: خطوة.. سحبة.. سحبة.. خطوة.. خطوة.. انتظار.. سحبة.. خطوة...

امتدَّ الزمن من حولهما، وبدا أن الجرف الذي أمامهما لا يقترب، وأن الجرف الذي خلفهما ما زال شاهقًا.

طق! طق! طق! طق!

تعالى صوت القرع من الجرف الذي خلفهما.

همس پول: «هذا صوت المِطراق».

استمرَّ صوت الدقِّ، ووجدا صعوبة في تجنُّب إيقاعه في خطواتهما.

طق.. طق.. طق.. طق.

تحـرَّكا كأنهما في وعـاءٍ مقمـر يخترقه هـذا الرطـم الأجـوف، يهبطـان ويصعـدان كثبانًـا تتسـاب رمالهـا: خطـوة.. فسـحبة.. فانتظـار.. فخطـوة... يقطعـان رمـالًا حصواتهـا فـي حجـم البـازلّاء تتزلـق تحـت أقدامهمـا: سـحبة.. فانتظـار.. فخطـوة..

وطـوال الوقـت ظلَّـت آذانهمـا منتبهـة، تبحـث عـن صـوت عزيـفٍ معيَّـن.

وعندمـا جـاء الصَّـوت، بـدأ خافتًـا جـدًّا إلـى درجـة أن حفيـف جرجـرة أقدامهمـا غطَّـى عليـه. لكنـه ارتفـع بالتدريـج، رويـدًا رويـدًا، قادمًـا مـن الغـرب.

واصل المِطراق طرقه: **طق.. طق.. طق.. طق.**

سـاد صـوت العزيـف المقتـرب الديجـور الجاثـم خلفهمـا. أدارا رأسـيهما وهمـا يسـيران، فرأيـا التـلَّ المتحـرِّك الـذي يحـدِّد مسـار الـدودة.

همس پول: «واصلي السير، ولا تلتفتي خلفك».

أتـى دوي انفجـارٍ ضـارٍ مـن الصخـور المظلمـة التـي غادراهـا. كان الصَّـوت صـوت انهيـارٍ صخـري مـن جبـل شـاهق.

كرَّر پول: «واصلي السير».

بلغـا نقطـة بـدا فيهـا كلا الجداريـن الصخرييـن -الـذي أمامهمـا والـذي خلفهمـا- علـى نفـس البُعـد.

ومـن خلفهمـا، واصـل صـوت السـياط المسـعورة التـي تمـزِّق الصخـور هيمنتـه علـى الليـل.

تابعا السير دون توقُّف، حتَّى بلغت ألياف عضلاتهما حدًا من الألم بدا كأنه لن ينتهي أبدًا، لكن پول لاحظ أن الجرف الذي أمامهما ازداد حجمًا.

سارت چيسيكا في تركيز وعُزلة يفصلانها عمَّا حولها، مدركةً أن إلحاح إرادتها وحده هو الذي يحثُّها على مواصلة المشي. أوجعها جفاف فمها، لكن الأصوات التي خلفها سلبتها كل أمل في التوقف لارتشاف جرعة ماء من جيوب بذلة التقطير.

طق... طق...

من الجرف البعيد، زمزمت نوبة جنون صاخبة أخرى، وأغرقت معها المِطراق.

فساد الصَّمت!

همس پول: «أسرعي».

أومأت چيسيكا، عالمةً أنه لم يرَ إيماءتها في الظلام، لكنها احتاجت إلى فعل ذلك لتخبر نفسها أنه من الضروري أن تطالب عضلاتها (التي بذلت بالفعل كل طاقتها) ببذل مزيدٍ من المجهود.

تبًّا لتلك الحركة غير الطبيعية!

لاح الجرف أمامهما كجدارٍ آمن يكاد يلامس النجوم، ورأى پول مسطَّحًا رمليًا مستويًا عند سفحه. خطا پول فوق الرمال، متعثِّرًا من التعب، ثم استدرك عثرته ضاربًا الأرض بقوَّة بقدمه في ردَّة فعلٍ لا إرادية.

جلجل دويٌّ رنَّان اهتزَّت له الرمال من حولهما.

ترنَّح پول جانبًا.

بوم! بوم!

همست چيسيكا: «هذا رملٌ طبلي!».

استعاد پول توازنه، وألقى نظرة خاطفة إلى الرمال من حولهما، ورأى أن الجرف الصخري ما زال يمد نحو مئتي متر.

من خلفهما، سمعا عزيفًا كعزيف الريح، كصوت فيضانٍ جارف في يابسةٍ لا ماء فيها.

صرخت چيسيكا: «اركض! اركض يا پول!».

وانطلقا راكضين.

قرعت الرمال كالطبول أسفل أقدامهما، ثم خرجا من هذه البقعة ودخلا أرضًا حصباء.

لبعض الوقت، كان في الركض راحةً للعضلات التي آلمها السير العديم الإيقاع الذي لم تألفه. للركض إيقاع يفهمه الجسد. لكن الرمال والحصى أثقلا أقدامهما، وراح عزيف الدودة يقترب قاصفًا كالعاصفة من حولهما.

تعثَّرت چيسيكا ووقعت على ركبتيها، لا يسيطر على تفكيرها غير التعب والصَّوت والرعب.

شدَّها پول وساعدها على الوقوف.

واستأنفا ركضهما، يدًا بيدٍ.

برز أمامهما وتدٌ رفيع من وسط الرمال، فتجاوزاه، ثم رأيا آخر.

فشل عقل چيسيكا في استيعاب وجود الوتدين حتَّى تجاوزاهما.

برز وتدٌ ثالث نحتت سطحة الرياح من شقٍّ في الصخر.

ثم آخر.

وصلنا إلى الصخور!

شعرت بصلابة الصخور تحت قدميها، واكتسبت خطوتها قوَّةً جديدةً من السطح الراسخ التي تطأها.

تراءى لهما صدعٌ رأسيٌّ عميق الظلال في الجرف أمامهما، فانطلقا نحوه، وحشرا نفسيهما في شقِّه الضيِّق.

فجأةً، توقَّف صوت اقتراب الدودة من خلفهما.

استدار كلاهما وأطلَّ برأسه على الصَّحراء. على بعد خمسين مترًا تقريبًا عند سفح الشاطئ الصخري حيث تنتهي الكثبان، انبجس جسمٌ ملتوٍ رمادي مفضَّض من الصَّحراء، مهيلًا أنهارًا من الرمال والغبار في كل مكانٍ حوله. ثم ازداد ارتفاعًا، وكشف عن فم عملاق يسعى.. فتحة دائرية سوداء تلتمع حوافها في ضوء القمر.

تلوَّى الفم كالأفعى باتِّجاه الشَّق الضيِّق الذي يحتمي به پول وچيسيكا، فأزكمت رائحة القرفة أنفيهما. انعكس ضوء القمر على الأسنان العاجية.

تلمَّظ الفم الهائل جيئةً وذهابًا.

كتم پول أنفاسه.

وربضت چيسيكا محدِّقةً في ذهول.

تطلَّب الأمر منها استجماع كل ما تدرَّبت عليه من تركيز الوعي لتسكين الذعر البدائي الذي استولى عليها، وإخضاع الخوف الغريزي الجمعي الذي كاد يشلُّ تفكيرها.

غمرت پول نشوة مفاجئة، فقد شعر قبل لحظات بأنه عبر حاجزًا زمنيًا، ودخل إلى منطقة مجهولة من الغيب كان الظلام فيها جدارًا ملموسًا من فرط دمسه، وعجزت فيها عينه الداخلية

عن رؤية أيِّ شيءٍ. بدا كأنه أخذ خطوةً ما سقطت به في بئرٍ عميقة بلا قرار، أو إلى غور سحيق صار فيه المستقبل محجوبًا عن النظر. لقد تغيَّرت تضاريس الغد وتحوّلت جذريًا.

ولكن بدلاً من أن تخيفه هذه العتمة الزمنية، شحذت حواسه الأخرى وأجبرتها على الدخول في حالة من التسارع المفرط، ووجد عقله يسجِّل كل تفصيلة، وكل شاردة وواردة متاحة من هذا المخلوق الذي ارتفع من الرمال بحثًا عنه. كان قطر فتحة فمه نحو ثمانين مترًا، وبامتداد حافَّته، التمعت أسنانٌ عاجية في الظلام لها ذات شكل السكاكين العاجية الملتوية. ومن الفم فاح بخر أنفاسٍ برائحة القرفة، مع بقايا صنانٍ عضوي وحمضي خفيفة.

حجبت الدودة ضوء القمر وهي تزحف على الصخور التي تعلوهما، فتساقط وابلٌ من الحجارة الصغيرة والرمال إلى مكان اختبائهما الضيِّق.

دفع پول أُمَّه إلى الخلف أكثر.

غمرته رائحة القرفة القوية.

سأل پول نفسه: *ما علاقة الدودة بالاسپايس؟* وتذكَّر كيف فلت تلميحًا من ليت كاينز عن وجود علاقة بين الديدان والاسپايس.

بررروووووووم!

كان الصَّوت كهزيم رعدٍ يأتي من مكانٍ ما بعيد إلى يمينهما.

دوى الصَّوت مجدَّدًا: بررروووووووم!

انسحبت الدودة عائدة إلى الرمال، وظلَّت راقدةً لحظات هناك، تومض أسنانها في ضوء القمر.

طق! طق! طق! طق!

فكَّر پول: *نابضٌ آخر!*

تعالى الصَّوت مجدَّدًا من جهة اليمين.

سرت رعدة في جسد الدودة، وتراجعت منسحبة إلى مسافة أعمق داخل الرمال، ولم يبق ظاهرًا منها سوى حواف الفم الخارجية المحدودبة كفوهة نفق تجثم فوق الكثبان.

تخلخلت الرمال بصوت احتكاكٍ خشن.

غاص المخلوق أكثر، منسحبًا، عائدًا أدراجه، ثم صار تلًّا رمليًا ناتئًا تلوَّى مبتعدًا، كسنامٍ متحرِّك يشقُّ طريقه بين الكثبان.

خرج پول من الشقِّ، وراقب الموجة الرملية تنحسر عائدةً عبر الصَّحراء، ملبِّيةً استدعاء المِطراق الجديد.

تبعته چيسيكا مصغيةً: **طق.. طق.. طق.. طق.**

ثم سرعان ما توقَّف الصَّوت.

أمسك پول أنبوب بذلة التقطير، ورشف من الماء المُعاد تدويره.

حاولت چيسيكا التركيز على حركة ابنها، لكن عقلها كان خاويًا من الإرهاق الذي أعقب الرعب. همست قائلة: «هل رحلت حقًّا؟».

قال پول: «أحدهم استدعاها. لا بُدَّ أنهم الفرمِن».

شعرت بأنها تتعافى، فقالت: «كانت بالغة الضخامة!».

- «لكنها ليست في ضخامة تلك التي التهمت الثوبتر».

- «هل أنت متأكِّد أنهم من الفرمِن؟».

- «أجل، لقد استخدموا مِطراقًا».

- «ولماذا يساعدوننا؟».

- «رُبَّما لم يكونوا يساعدوننا، رُبَّما كانوا يستدعون دودةً فحسب».

- «لِمَ؟».

شعر بالجواب على طرف لسانه، لكنه أبى أن يخرج. انتابته رؤيا عن شيءٍ متعلِّق بالقضيبين المعقوفين القابعين داخل جرابيهما في حقيبتهما: «خُطَّافا الصَّانعة».

سألت چيسيكا: «لِمَ يستدعون الديدان؟».

اعترى عقله بعض الخوف، فأجبر نفسه عن الالتفات بعيدًا عن أُمِّه، ورفع بصره نحو الجرف وأشار قائلًا: «حريٌّ بنا أن نجد طريقًا إلى أعلى قبل حلول النهار. تلك الأوتاد التي مررنا بها، يوجد المزيد منها».

مدَّت بصرها ناظرةً إلى حيث أشار، فرأت الأوتاد، العلامات المخدوشة بالرياح، تحدِّد ظلَّ حافةٍ صخريةٍ ضيِّقة تلتوي داخل أحد صدوع الجرف الذي يعلوهما.

قال پول: «لقد تركوا علامات تحدِّد المسار الذي يمكن تسلُّق الجرف منه».

تلكَّأت چيسيكا لحظات، ملتقطةً أنفاسها، مستعيدةً قوَّتها، ثم تبعته.

أخذا يتسلَّقان متَّبعين الأوتاد المرشدة، حتَّى ضاقت الحافَّة وصارت حدًّا رفيعًا مشرفًا على صدعٍ مظلم.

أمال پول رأسه ناظرًا داخل المكان المظلم. كان يشعر بموطئ قدميه غير المستقر على الحافَّة النحيلة، لكنه أجبر نفسه على التروِّي توخِّيًا للحذر. لم يرَ سوى الظلام داخل الصدع الممتدّ

إلى أعلى الجرف منفتحًا على النجوم. بحثت أُذُناه عن أيِّ صوتٍ غريب، لكنها لم تسمع غير الأصوات المتوقَّعة المألوفة: انسكاب حفنة من الرمال غير المستقرة، أزيز حشرة، خطوات مخلوق صغير راكض. اختبر الظلام الجاثم داخل الصدع بقدم واحدة، فعثر على صخرة تحت سطحٍ من الحصى. تخطَّى الزاويةَ بخطًى بطيئة، وأشار إلى أمِّه كي تتبعه، ممسكًا بطرفٍ فضفاض من ثوبها ليساعدها على العبور.

رفعا بصريهما نحو فرجة النجوم التي تؤطِّرها حافَّتا نتوءين صخريين، وعلى ضوئها، شاهد پول أُمَّه كشبحٍ رمادي غائم متحرِّك، فهمس قائلًا: «يا ليتنا نملك رفاهية المخاطرة بإشعال بصيص ضوء».

قالت له: «لدينا حواسُّ أخرى غير الإبصار».

مدَّ پول قدمًا متحسِّسةً إلى الأمام، ثم نقل وزنه إليها، وجسَّ الأرض بقدمه الأخرى، فاصطدمت بعائقٍ أمامها. رفع قدمه، فوجد درجة سلم، فصعدها. ثم مدَّ يده خلفه، وشعر بذراع أُمِّه، وجذبها من ثوبها كي تتبعه.

درجةٌ أخرى.

همس پول: «أظن أنها تقود إلى القمَّة».

فكَّرت چيسيكا: *تلك الدرجات مسطَّحة ومتساوية، لا بُدَّ أنها من صنع بشر!*

تتبَّعت چيسيكا حركة پول في العتمة، متحسِّسةً الدرجات. ضاق الجداران الصخريَّان حتى كادت كتفاهما تحتكَّا بهما. انتهى الدرج بممرٍّ ضيِّق كالشق طوله نحو عشرين مترًا، وأرضه مستوية، أفضى بهما إلى حوضٍ ضحل يضيئه القمر.

خطا پول فوق حافة الحوض، وهمس قائلًا: «يا له من مكانٍ جميل».

من موقعها خلفه بخطوة، حدَّقت چيسيكا إلى المشهد في اتّفاق صامت.

فعلى الرغم من تعبها، والحكّة التي تسبِّبها لها أنابيب القسطرة وسدَّادتا الأنف، وبذلة التقطير التي تحتجز جسدها، وعلى الرغم من خوفها ورغبتها المُلحَّة في بعض الراحة، أخذ جمال هذا الحوض بلبِّها، وملأ حواسها، وأجبرها على التوقُّف والإعجاب ببهائه.

همس پول: «إنه أشبه بعالمٍ خيالي!».

أومأت چيسيكا.

أمامها، امتدَّت نباتات صحراوية كثيفة عبر مساحة واسعة: شجيرات، وصبَّار، وشتلات صغيرة خضراء الأوراق، كلها تهتزُّ مع النسيم الرقيق في ضوء القمر.

قال پول: «لا بُدَّ أنها إحدى بؤر الفرمِن».

وافقته قائلةً: «هذه النباتات تحتاج إلى رعاية كي تعيش»، ثم أزالت غطاء الأنبوب المتَّصل بجيوب التجميع في بذلتها، ورشفت منه. انساب ماءٌ دافئ لاذع مبلِّلًا حلقها، ولاحظت كيف أنعشها. احتكَّ غطاء الأنبوب بحبيبات رمالٍ متجمِّعة حول حافّته وهي تعيده إلى مكانه.

لفتت حركة آتية من جهة اليمين عند قاع الحوض انتباه پول. أمعن في النظر عبر غطاء الشجيرات والأعشاب الكثيف، محدِّقًا إلى سطحٍ رملي مستوٍ يسبح في ضوء القمر، مسكون بحركة مخلوقات صغيرة نطّاطةٍ وثّابة.

همس قائلًا: «فئران!».

كانت المخلوقات الصغيرة تتوائب متنقّلةً في الظلال وخروجًا منها.

مرَّ جسمٌ في سرعةٍ وصمت أمام أعينهما جاثمًا على الفئران، ثم تعالى صوت صرير رفيع، تبعته رفرفة أجنحة، وحلَّق شبح طائر رمادي بعيدًا وهو يحمل شيئًا داكنًا في مخالبه.

فكَّرت چيسيكا: *كنا بحاجة إلى هذه التَذكِرة.*

واصل پول تحديقه عبر الحوض. أخذ شهيقًا عميقًا، وشمَّ رائحة مريمية خفيفة ولاذعة تتصاعد مع نسيم الليل، وفكَّر في الطير الجارح على أنه جزء من ناموس الصَّحراء. لقد جلبت هجمته الخاطفة على الحوض صمتًا مطبقًا إلى درجة يكاد يُسمع فيه انسكاب ضوء القمر الأزرق اللبني، وتدفُّقه عبر صبَّار السجوار الحارس والنباتات الشوكية. كان للضوء هنا أزيزٌ منخفض متناغم أكثر من أيِّ موسيقى أخرى في الكون.

قال: «حريٌّ بنا أن نجد بقعةً مناسبةً لنصب الخيمة، وغدًا سنحاول العثور على الفرمِن الذين...».

- «معظم الدخلاء هنا يندمون عند عثورهم على الفرمِن!».

كان الصوت المباغت الذي مزَّق خصوصية اللحظة ذكوريًا غليظًا، وأتى من مكانٍ ما فوقهما إلى اليمين.

- «رجاءً ألَّا تركضا أيُّها الدخيلين»، هكذا قال الصَّوت حين همَّ پول بالتراجع إلى الممرِّ الضيِّق، «فلن يؤدي الركض إلَّا إلى إهدار ماء جسديكما».

فكَّرت چيسيكا مذعورة: *يريدون الحصول على ماء جسدينا!*

تغلَّبت عضلاتها على كل التعب، فتحفَّزت تمامًا دون أن يفتضح ذلك للرائي. حدَّدت چيسيكا موقع الصَّوت بدقَّة، وفكَّرت: *يا له من منسلٍّ بارع! لم أشعر باقترابه قط*. وأدركت أن صاحب الصَّوت لم يسمح لنفسه إلَّا بإصدار الأصوات الصغيرة، أصوات الصَّحراء الطبيعية. صاح صوتٌ آخر من حافَّة الحوض إلى يسارهم.

- «أسرِع يا ستيل، تحصَّل على مائهما كي نمضي في طريقنا، فلم يتبقَّ إلا القليل على بزوغ الفجر».

استاء پول -الذي كان أبطأ استجابةً في حالات الطوارئ من أُمِّه- لأنه تجمَّد وحاول الانسحاب، لأنه سمح للحظة هلعٍ عابرةٍ أن تغشي قدراته، لذا أجبر نفسه بعدها مباشرةً على اتِّباع تعليماتها: الاسترخاء، ثم التظاهر بالاسترخاء، ثم الاستنفار العضلي الكامل استعدادًا للانطلاق في أيِّ اتِّجاه.

ومع ذلك، شعر بالخوف يعتصر قلبه وعرف سببه. هذه اللحظة مُعمَّاة، لم يرها في أيِّ مستقبلٍ. ها هما قد وقعا في قبضة جماعة شرسة من الفرمِن لا تريد إلَّا الماء الذي يجري في بدني شخصين أعزلين لا درع يحميهما.

هـذا التحوُّر والتكيُّف الذي أصـاب ديانـة الفرمِن إذًا هـو مصـدر مـا صرنـا نعرفـه باسـم «أعمـدة الكـون»، المذهـب الـذي يسـير الكهنـة المفوَّضـون بالكـزارة* بيننـا ناشـرين تعاليمـه وبراهينـه ونبوءاتـه، مقدِّميـن لنـا الذوبـان الأرَّاكسـي الصوفـي الـذي يتمثَّـل جمالـه العميـق فـي الموسـيقى المحرِّكة للمشـاعر المسـتمدَّة مـن القوالـب والتقاليـد القديمـة بعـد دمغهـا بطابـع الصَّحـوة الجديـدة. مـن منـا لـم يسـمع ويتأثَّـر بكلمـات «ترنيمـة الشـيخ»؟:

أجرجر قدميَّ في صحراءٍ
يموج سرابها كالجمع الغفير.
تجوَّلت في آفاق الكولاب،
شرهًا للمجد، توَّاقًا إلى المخاطر.
وشاهدتُ الزَّمن،
في بحثه الجائع عنِّي،
يُسوِّي الجبال بالأرض.
ثم رأيتُ العصافير تقترب سريعًا،
كأنها -في جرأتها- ذئابٌ منقضَّة،
وتحطُّ على شجرة شبابي.
سمعت صياح السِّرب في أغصاني،
ولم أسلم من براثنه ومناقيره!

من كتاب «صحوة أرَّاكس» للأميرة إيرولان.

زحف الرجل على قمَّة الكثيب، كأنه ذرَّة غبار عالقةً في وهج شمس الظهيرة. كان يرتدي جُبَّة صحراوية مُمزَّقة، تكشف أسمالها البالية عن جلده العاري للقيظ الشديد. كانت القلنسوة قد انتُزعت من العباءة، لكن الرجل صنع عمامة من قطعة قماشٍ ممزَّقة، ومن أسفلها بدت خصلات شعره الصفراء كالرمال، في نفس لون لحيته الشعثاء وحاجبيه الكثَّين. أسفل لُجَّتي عينيه الزرقاوين بالكامل، انتشرت بقايا بقعة داكنة على خديه، وانحفر خطٌّ غائر في شاربه ولحيته يحدِّد المكان الذي يمرُّ منه أنبوب بذلة التقطير في الطريق من أنفه إلى جيوب التجميع.

توقَّف الرجل في منتصف قمَّة الكثيب، وفرد ذراعيه على الجانب المنحدر. تجلَّطت الدماء على ظهره وذراعيه وساقيه، والتصقت كتلٌ من الرمال الصفراء الرمادية بجروحه. ببطء، وضع يديه تحته واستند عليها، ودفع نفسه إلى أعلى ليقف على قدميه، وظلَّ في مكانه يترنَّح. حتَّى في هذا الفعل العشوائي تقريبًا، بدا أثر الانضباط والدقَّة اللذين كانا يميِّزان حركته في السَّابق.

قال الرجل: «أنا لييت كاينز»، موجِّهًا كلامه للأُفُق الفارغ. كان صوته مجرَّد مُحاكاة هزلية أجشَّة للقوَّة التي كان عليها في السابق. ثم همس: «أنا عالم البيئات الكوكبية التابع لجلالة الإمبراطور، الخبير البيئي المنوط بكوكب أرَّاكس، القيِّم على هذه الأرض».

ثم تعثَّر، وسقط متدحرجًا على جانبه فوق سطح الكثيب الخشن المواجه للريح، وتشبَّثت يداه بضعف بالرمال.

وفكَّر: *أنا القيِّم على هذه الأرض.*

أدرك أنه يهذي، وأن عليه أن يدفن نفسه في الرمال حتَّى يصل إلى الطبقة السفلية الأبرد نسبيًا، ويغطِّي نفسه بها. لكنه

كان يشمُّ في مكان ما تحت هذه الرمال الرائحة الزنخة المُسكِّرة قليلًا المنبعثة من أحد جيوب تجمُّع مادَّة الاسپايس الأوَّلية، وهو -بلا شك- يدرك الخطر الكامن خلف هذا الأمر أكثر من أيِّ فرمني آخر. إن كان يشمُّ رائحة مادَّة الاسپايس الأوَّلية، فهذا يعني أن الغازات الجوفية المحتجزة عميقًا تحت الرمال أوشكت على الانفجار. عليه أن يبتعد عن هذه البقعة.

تحرَّكت يداه بضعف تاركةً آثارها على سطح الكثيب.

جالت في ذهنه خاطرة واضحة ومحدَّدة: *الزراعة هي أساس الحضارة. تكمن الثروة الحقيقية لأيِّ كوكب في أرضه، وفي درجة اهتمام أهله بذلك الرافد الحضاري الأساسي.*

وفكَّر كم هو غريب أن العقل عندما يركِّز على مسارٍ واحد مدَّة طويلة، يعجز أن يحيد عن هذا المسار. لقد تركه جنود الهراكنة في هذه البقعة بلا ماء أو بذلة تقطير، ظنًّا منهم أن دودةً ستلتهمه، إن لم تجفِّفه الصَّحراء أوَّلًا. لقد رأوا أنه من الممتع تركه ليموت ببطء على يد كوكبه الأثير اللا مُبالي.

فكَّر كاينز: *لطالما وجد الهراكنة صعوبة في قتل الفرمِن، فنحن لا نموت بسهولة. كان من المفترض أن أكون ميتًا الآن. سأموت قريبًا، لكنني لا أستطيع منع نفسي عن التفكير كعالم بيئة.*

«أهم وظيفة لعلم البيئة هي فهم عواقب الأمور».

أفزعه الصَّوت لأنه ميَّز صاحبه، وكان يعرف أنه ميِّت. كان الصَّوت صوتَ أبيه، الذي كان عالم البيئة الكوكبي هنا من قبله. لكن أباه لقي حتفه منذ زمنٍ طويل في انهيارٍ كهفي في حوض الجصِّ.

قال أبوه: «أوقعت نفسك في مأزقٍ يا بُني. كان عليك أن تعلم عواقب محاولة مساعدة ابن ذلك الدوق».

فكَّر كاينز: *أنا أهذي.*

بدا الصَّوت كأنه يأتي من يمينه. التفت كاينز لينظر في ذلك الاتِّجاه كاشطًا وجهه في الرمال، لكنه لم يرَ سوى امتداد حدبة الكثيب المترافصة مع شياطين الحرارة في وهج الشمس.

قال أبوه: «كلما ازداد عدد الكائنات الحيَّة في النظام البيئي، ازدادت البيئات الملائمة للحياة فيه». كان الصَّوت الآن يأتي من يساره، ومن خلفه.

سأل كاينز نفسه: *لِمَ لا يثبت؟ ألا يريدني أن أراه؟*

قال أبوه: «تحسِّن الحياة من قدرة البيئة على توفير مقومات الحياة، فالحياة تجعل العناصر الغذائية اللازمة متاحة بسهولة أكبر. إنها تضخُّ مزيدًا من الطاقة في المنظومة من خلال التفاعلات الكيميائية الهائلة المتبادلة بين مختلف الكائنات الحيَّة».

سأل كاينز نفسه من جديد: *لِمَ يواصل العزف على نفس النغمة؟ أنا أعرف هذه المعلومات من قبل أن أبلغ العاشرة من عمري.*

بدأت الصقور الصحراوية آكلة الجيف -مثل معظم الكائنات البرِّية في هذه الأرض- تحلِّق في دوائر فوق رأسه. رأى كاينز ظلًّا يمرُّ بالقرب من يده، فلوى عُنُقه بشدَّة للنظر إلى أعلى. كانت الطيور رقعًا ضبابية على خلفية السماء الزرقاء الفضِّية، نقاط سخام تحوم فوق رأسه.

قال أبوه: «نحن خبراء عموميون ولسنا اختصاصيين. لا يستطيع المرء رسم خطوطٍ فاصلةٍ حين يتعلَّق الأمر بدراسة مشكلات على نطاق كوكبي. علم البيئات الكوكبية علمٌ مطواعٌ ومرن».

تعجَّب كاينز: *بم يحاول إخباري؟ هل فشلت في رؤية بعض العواقب؟*

ترك وجنته ترتخي على الرمال الساخنة، واشتم رائحة الصخور المحترقة أسفل غازات عناصر الاسبايس الأوَّلية. وفي ركنٍ منطقي من ذهنه، تكوَّنت فكرةٌ: *تلك الطيور التي تحلّق فوقي آكلات جيف. رُبَّما سيراها بعض أفراد قبيلتي ويأتون للتحرّي.*

قال أبوه: «البشر من أهم أدوات عالم البيئات الكوكبية الناجح. عليك أن تزرع المعرفة البيئية بين الناس. لهذا السبب أنشأت هذا النوع الجديد من التدوين البيئي».

فكَّر كاينز: *إنه يكرّر أشياء قالها لي عندما كنت طفلًا.*

بدأ يشعر بالبرد، لكن الركن الذي احتفظ بمنطقه في عقله أخبره: *الشمس في كبد السماء، وأنت لا ترتدي بذلة تقطير وجسمك ساخن. إنها تجفّف الرطوبة من جسدك.*

تشبَّثت أصابعه بضعف في الرمال.

لم يتركوا لي حتَّى بذلة تقطير!

قال أبوه: «الهواء المُشبَّع بالرطوبة يساعد في منع البخر السريع من أجسام الكائنات الحيَّة».

تعجَّب كاينز: *لِمَ يواصل تكرار البديهيات؟*

حاول تخيُّل هواء مُشبَّع بالرطوبة، وعُشب يغطي هذا الكثيب، وماءٍ مجمَّع تحته، وقناة* طويلة تمتدُّ إلى الأُفُق، غير تلك التي في الرسومات التوضيحية. مسطَّحات مائية. ماءٌ للريِّ. تذكَّر كاينز أن ريَّ هكتارٍ واحد من الأرض يتطلَّب خمسة آلاف متر مكعب من المياه في الموسم الزراعي الواحد.

قال أبوه: «هدفنا الأوَّل على أرَّاكس هو تكوين مروج عشبية. سنبدأ بالأعشاب المتطفّرة التي تكيَّفت للعيش في بيئةٍ جدباء، وعندما نتمكَّن من احتجاز الرطوبة في مسطَّحاتٍ عشبية واسعة، سننتقل لإنماء غابات على الأراضي المرتفعة، ثم سننشئ بضعة مسطحاتٍ مائية -صغيرة في البداية- بمحاذاة مسارات الرياح السائدة، مع توزيع مصايد الرياح ومكثِّفات الرطوبة على خطوطٍ متباعدة في مسارات الريح لاستعادة ما تسرقه من رطوبة. يجب أن نخلق رياحًا محليَّةً حقيقية، رياحًا رطبة، لكننا لن نستغني أبدًا عن مصايد الرياح».

فكَّر كاينز: *دومًا يعطيني محاضرات. لِمَ لا يكف عن الثرثرة؟ ألا يرى أنني أحتضر؟*

قال أبوه: «أنت أيضًا ستموت إن لم تبتعد عن موقع الفقَّاعة التي تتكوَّن الآن تحتك في جوف الأرض. أنت تعلم أنها في الأسفل، وبإمكانك أن تشمَّ رائحة غازات كتلة الاسپايس الأوَّلية، كما تعلم أن متعضِّيات الصَّانعة الصغيرة الحيَّة بدأت تفقد بعضًا من مائها في الكتلة».

أثار التفكير في وجود هذا الماء تحته جنونه، وتخيَّله عقله الآن، محتجزًا في طبقات الصخور المسامية بفعل يرقات الصَّانعة الصغيرة الجلدية الملمس نصف النباتية نصف الحيوانية. ثم تخيَّل ذلك الفتق الرفيع الذي يصبُّ فيضًا من الماء البارد الشفَّاف النقي المنعش إلى..

كُتلة الاسپايس الأوَّلية!

استنشق كاينز الهواء، فاشتم الرائحة الزنخة المُسكِّرة. كان الهواء مُشبَّعًا بها أكثر من ذي قبل.

دفع كاينز نفسه واعتدل متّكئًا على ركبتيه، وسمع صرخة طائر، وخفقان جناحين متسرّعين.

فكّر كاينز: *هذا القطاع من الصحراء غني بالاسپايس. لا بُدَّ من وجود فرمِن في الجوار حتّى في شمس الظهيرة، وبالتأكيد سيرون الطيور وسيأتون للتقصّي.*

قال أبوه: «التنقُّل عبر التضاريس البيئية المختلفة ضرورة للحياة الحيوانية، والشعوب البدوية تخضع للضرورة نفسها. تتكيَّف مسارات التنقُّل مع الاحتياجات المادّية إلى الماء والغذاء والمعادن. يجب أن نتحكم في هذه الحركة، وأن ننسقها لتحقيق أغراضنا».

تمتم كاينز: «اخرس أيُّها العجوز!».

قال أبوه: «ما يتعيَّن علينا تنفيذه على أرّاكس لم يسبق لأحد محاولة تنفيذه نطاق كوكب برمّته. يجب أن نستخدم الإنسان قوَّةً بيئية بناءة، وأن نُدخل أشكالَ حياة متكيِّفة جديدة لتطويع البيئة وتغيير شكل الكوكب: نبتةً هنا، وحيوانًا هناك، وبشرًا هنا وهناك.. عندها ستتبدَّل دورة الماء، وسنشيِّد نوعًا جديدًا من النظم البيئية».

قال كاينز بصوتٍ أجش: «اخرس!».

قال أبوه: «كانت مسارات التنقُّل هي الدليل الأوَّل الذي أرشدنا لوجود علاقة بين الديدان والاسپايس».

فكَّر كاينز بنفحة من الأمل: *دودة! من المؤكَّد أن صانعةً ستأتي عندما تنفجر هذه الفقاعة. لكنني لا أملك أيّ خطاطيف، كيف لي أن أمتطي صانعةً ضخمةً بلا خُطّافين؟*

شعر بالإحباط يستنزف ما تبقّى فيه من قوَّة. الماء قريب جدًّا، على عمق مئة مترٍ أو نحو ذلك أسفله. لا شك في أن

دودةٌ ستأتي، لكن لا طريقة لإجبارها على البقاء على السطح واستخدامها.

طرح كاينز نفسه إلى الأمام فوق الرمال، عائدًا إلى التجويف الضحل الذي خلَّفته حركته في الرمال.

قال أبوه: «تغلغلت البيئة الأرَّاكسية في الأنماط التطوُّرية لأشكال الحياة المحليَّة. كم هو غريب أن قلَّة قليلة من الناس هم الذين رفعوا أنظارهم عن الاسپايس مدَّة كافية ليتدبَّروا التوازن شبه المثالي بين النيتروچين والأُكسچين وثاني أكسيد الكربون الذي يُجرى الحفاظ عليه هنا في غياب مساحات كبيرة لازمة من الغطاء النباتي. إن المجال الحيوي لهذا الكوكب مفتوح أمام قومٍ ينظرون ويعقلون: صحيح أنه منظومة لا ترحم، لكنه منظومة مُحكَمة مع ذلك. أيعني هذا أنه خالٍ من الثغرات؟ كلَّا، لكن حين تنشأ ثغرة، يأتي شيءٌ ويملؤها. يتألَّف العلم من حقائق لا تُدرك بداهتها إلا بعد تفسيرها. كنت متأكِّدًا من وجود يرقات الصَّانعة الصغيرة في أعماق الرمال قبل أن أراها بوقتٍ طويل».

همس كاينز: «أرجوك كُفَّ عن محاضرتي يا أبي».

هبط صقرٌ فوق الرمال قرب يده الممدودة، ورآه كاينز يطوي جناحيه، ويميل برأسه ناظرًا إليه. استجمع قوَّته وزجره بصوت أجش، فتواثب الطائر متراجعًا خطوتين إلى الخلف، لكنه ظلَّ يحدِّق إليه.

قال أبوه: «عمَّ الفساد أراضٍ كثيرة بما كسبت أيدي الناس، فلطالما كان البشر وأعمالهم مرضًا يصيب كواكبهم. لكن الطبيعة دائمًا ما تنجح في التعامل من المرض، فإما أن تزيله وإما أن تحتوي عليه وتدمجه في المنظومة بطريقتها الخاصة».

خفض الصقر رأسه وفرد جناحيه، وعاد وضمَّهما، ثم حوَّل اهتمامه إلى يده الممدودة.

وجد كاينز أنه لم يعد يملك القوة الكافية للصياح وزجره.

قال أبوه: «المنظومة التاريخية القائمة على النهب والسلب المتبادل ستتوقَّف هنا على أرَّاكس. لا يمكن للبشر الاستمرار إلى الأبد في سلب ما يحتاجون إليه دون اعتبار لمن سيأتي بعدهم. إن الموارد الطبيعية لأيِّ كوكب مدوَّنة في سجلِّه الاقتصادي والسياسي. هذا السجل في متناولنا، ومسارنا واضح».

فكَّر كاينز: *إنه لا يمل من إلقاء المحاضرات. دومًا يُحاضر، ويُحاضر، ويُحاضر.*

وثب الصقر مقتربًا بخطوة من يد كاينز الممدودة، وحرَّك رأسه يُمنةً ويسارًا فاحصًا اللحم المكشوف.

قال أبوه: «أرَّاكس كوكبٌ ينتج محصولًا واحدًا فقط. وهذا المحصول لا تنتفع به سوى الطبقة الحاكمة التي تعيش كما عاشت الطبقات الحاكمة على مرِّ التاريخ. أسفل هذه الطبقة، تحيا جموع من أنصاف البشر أنصاف العبيد على الفتات. ما يهمُّنا هو تلك الجموع وذلك الفتات، فهما أثمن بكثير مما كان يُظن في أيِّ عصرٍ مضى».

همس كاينز: «أنا لا أصغي إليك يا أبي، انصرف».

ثم فكَّر: *قطعًا يجب أن يكون بعض أفراد قبيلتي في الجوار، ولا بُدَّ أنهم رأوا الطيور التي تحوم فوق رأسي وسيأتون للتحقُّق من احتمالية وجود رطوبة على الأقل.*

قال أبوه: «ستعرف جموع أرّاكس أننا نعمل على جعل الأرض تتدفّق بالماء، أغلبهم -بالطبع- لن يكون لديهم إلّا فكرة ضبابية شبه صوفية عن الطريقة التي نعتزم بها تحقيق الأمر، بل إن كثيرين سيعتقدون أننا سنجلب الماء من كوكبٍ آخر. هؤلاء لا يدركون مشكلة وزن المياه الثقيل جدًّا الذي يعجزنا عن مثل هذا الأمر. لكن دعهم يعتقدون ما يشاؤون، ما داموا يؤمنون بنا».

فكّر كاينز: *سأقوم بعد لحظات وأخبره برأيي الحقيقي فيه. ما أجرأه! يقف ويحاضرني في حين ما يُفترض به أن يساعدني.*

قال أبوه: «يجب أن ترى الجموع الدين والقانون على أنهما كيانٌ واحد لا ينفصل. يجب أن يُعدّ العصيان خطيئة، ويتطلّب عقوبة دينية. سيكون لهذا فائدة مزدوجة، تحقيق قدر أكبر من الطاعة وبثّ شجاعة أكبر في النفوس. يجب ألّا نعتمد كثيرًا على شجاعة الأفراد، بقدر ما نعتمد على شجاعة الشعب برمّته».

فكّر كاينز: *أين ناسي وأنا في أمسّ الحاجة إليهم؟* ثم استجمع كل ما فيه من قوّة، وحرّك يده قيد إصبع أقرب إلى الصقر، الذي قفز متراجعًا إلى الخلف وسط رفاقه، ووقفوا جميعًا متأهّبين للطيران.

قال أبوه: «سنضع جدولًا زمنيًا يحاكي الوقت التي تستغرقه الظاهرة الطبيعية. إن حياة الكوكب نسيجٌ واسع متشابك بإحكام. ستتحدّد التغييرات النباتية والحيوانية في البداية عن طريق القوى الفيزيائية التي سنتلاعب بها. وعندما تترسّخ التغييرات التي استحدثناها في البيئة، ستصبح قوى مؤثّرة مسيطرة في حد ذاتها، وسيكون علينا التعامل معها حينها أيضًا. لكن لا تنس أن كل ما نحتاج إليه هو التحكّم في ثلاثة بالمئة فقط من المحيط

الحيـوي، ثلاثـة بالمئـة فحسـب سـتكون كافيـة لتحويـل المنظومـة البيئيـة برمَّتهـا إلـى نظـام مكتـفٍ ذاتيًـا».

تعجَّب كاينـز: *لِمَ لا تساعدني؟ ها أنت تخذلني وأنا في أمسّ الحاجة إليك، كما كان الحال دائمًا*. أراد أن يدير رأسه لينظر إلى الاتِّجاه الذي يأتي منه صوت والده، ويحملق إلى العجوز شزرًا، لكن عضلاته رفضت الاستجابة لمطلبه.

رأى كاينز الصقر يتحرَّك، مقتربًا من يده في خطوات حثيثة حذرة، فيما انتظر رفاقه في لا مُبالاة زائفة. توقَّف الصقر على بُعد وثبة واحدة من يده.

شعر كاينز بغتةً بصفاء ذهنٍ عميق، ورأى في أرَّاكس فرصة قابلة للتحقُّق لم يرَها والده من قبل. ملأت الاحتمالات على امتداد هذا المسار المختلف عقله.

قال أبوه: «ما من كارثة يمكن أن تحل بشعبك أسوأ من وقوعهم في يد بطلٍ منتظر».

فكَّر كاينز: *إنه يقرأ أفكاري! لا يهم، فليقرأها كما شاء. لقد سبق أن أرسلت الرسائلَ إلى قُرى السييتشات التابعة لنا، وما من شيء بإمكانه إيقافها الآن. إذا كان ابن الدوق على قيد الحياة فسيجدونه ويحمونه كما أمرت. قد يتخلَّصون من المرأة، أُمِّه، لكنهم سينقذون الصبيّ*.

وثب الصقر وثبة جعلته على مسافة تكفي لتمزيق يده بمنقاره. أمال الطائر رأسه متفحِّصًا اللحم المرتخي، ثم اعتدل فجأة، ورفع رأسه إلى أعلى، وبصرخة واحدة قفز في الهواء وحلَّق مبتعدًا، متبوعًا برفاقه.

فكَّر كاينز: *لقد جاؤوا! الفرمِن عشيرتي وجدوني*.

ثم سمع دمدمة الرمال.

كل فرمِني يعرف هذا الصَّوت جيِّدًا، وبإمكانه تمييزه على الفور عن أصوات الديدان أو الحيوانات الصحراوية الأخرى. في مكانٍ ما أسفله في جوف الأرض، جمَّعت كتلة الاسبايس الأوَّلية ماءً وفضلات عضوية كافية من الصَّانعات الصغيرة، وبلغت مرحلة حرجة من النمو المفرط. في عمق الرمال، تتكوَّن الآن فقَّاعة غازية هائلة من ثاني أكسيد الكربون، ستتصاعد إلى أعلى مُحدثةً انفجارًا ضخمًا، في مركزه دوَّامة غبارية ستبتلع أيَّ شيء موجود على السطح، وستستبدل به ما تكوَّن في أعماق الرمال.

حامت الصقور في دوائر فوق رأسه، مقفقفةً في إحباط. إنها تعرف ما يحدث. كل مخلوقات الصَّحراء تعرف.

فكَّر كاينز: *وأنا مخلوق صحراوي. هل تراني يا أبي؟ أنا مخلوق صحراوي.*

شعر بالفقَّاعة ترفعه، وشعر بها تنفجر وبالدوَّامة الغبارية تتلقَّفه، وتسحبه إلى أسفل نحو الظلام البارد. للحظة، كان الإحساس بالبرودة والرطوبة مريحًا، ثم -في أثناء ما كان كوكبه يقتله- خطر ببال كاينز أن والده وكل العلماء الآخرين كانوا على خطأ، وأن أكثر مبادئ الكون ثباتًا هي عشوائية التجربة والخطأ.

حتَّى الصقور تدرك تلك الحقائق.



كيف يتسنّى لنا اختبار صحّة النبوءات والاستبصارات في ظلّ الأسئلة الحائرة؟ خذ عندك الآتي: كم ممّا يَصدُق من نبوءات يعود إلى معرفة حقيقية مسبقة بأنباء المستقبل (أو إلى «دالّة الموجة» كما كان المؤدِّب يصف رؤاه الاستبصارية)، وكم منها يعود إلى تدخُّل النبي في تشكيل المستقبل كي يتطابق مع كلمات نبوءته؟ ماذا عن الارتباط اللصيق بالواقع المتأصّل في فعل التنبُّؤ؟ هل يرى النبي المستقبل بالفعل، أم أنه يرى موطنَ ضعفٍ، يرى شرخًا أو شقًّا بإمكانه تحطيمه بكلماته أو قراراته، كما يشكِّل قاطع الألماس البارع جوهرته بضربة من سكِّينه؟

من كتاب «تأمُّلات خاصة حول المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

صاح الرجل في ظلام الليل: «احصل على مائهما»، فقاوم پول خوفه، وألقى نظرة خاطفة إلى أُمّه. رأت عيناه المدرَّبتان جيِّدًا تأهُّبَها للقتال وتحفُّز عضلاتها.

قال الصَّوت الآتي من فوقهما: «سيكون من المؤسف القضاء عليكما».

فكَّرت جيسيكا: *هذا من تحدَّث إلينا أوَّلًا. إنهما اثنان على الأقل، واحد إلى يميننا والآخر إلى يسارنا.*

– «سيجنورو روبوسا سوكارس هين مينج لا بشاڤاس دوي مي كاماڤس نا بسلاس ليلي بال روباس!».

هكذا صاح الرجل الذي عن يمينهم عبر الحوض.

في أُذُن پول، لم تكن الكلمات إلَّا رطانةً، لكن علوم البِني

چيسيرِت التي تلقَّتها چيسيكا مكَّنتها من التعرُّف على لغة الكلام. إنها التشكوبسا، إحدى اللغات القديمة المستخدمة في الصيد، وقد قال بها الرجل الذي فوقهم إنهم قد يكونا الغريبين اللذين يبحثون عنهما.

في الصَّمت المفاجئ الذي أعقب الصَّوت المنادي، أطل وجه القمر الثاني بلونه الأزرق العاجي الباهت، ساطعًا محملقًا من وراء الصخور إلى الجهة الأخرى من الحوض.

جاءت أصوات تسلُّق مختلطة من وسط الصخور، من أعلى ومن الجانبين. تبعتها حركة هيئات شبحية في ضوء القمر، وفي النهاية خرج أشخاصٌ كُثُر من بين الظلال.

فكَّر پول مصدومًا: *إنهم فريقٌ كامل!*

تقدَّم رجلٌ يرتدي بُرنُسًا مرقَّشًا ووقف أمام چيسيكا. كانت كمامته مُلقاة إلى جانب فمه كي يستطيع التحدُّث بوضوح، فبدت لحيته الكثيفة في ضوء القمر الجانبي. أمَّا وجهه وعيناه فكانا محتجبين خلف غطاء رأسه المتدلِّي.

سأل الرجل: «ماذا لدينا هنا، إنسٌ أم جن*؟».

سمعت چيسيكا نبرة مزاحٍ صادقةٍ في صوته، فسمحت لنفسها التفكير ببعض الأمل. هذا صوت قائد، وهو الصَّوت الذي خرج من جوف الليل وصدمهما بتطفله في البداية.

قال الرجل: «إنسٌ لا جدال».

شعرت چيسيكا بسكينٍ مُخفاة في طيَّة من ثوب الرجل دون أن تراها عينيها، فاعترتها لحظة ندمٌ مريرة لكونهما لا يملكان دروعًا.

سأل الرجل: «ألكما لسانان ينطقان؟».

وضعت چيسيكا كل الغطرسة الملكية التي في جعبتها في سلوكها

وصوتها. كان ردُّها سريعًا، لكنها لم تسمع ما يكفي من هذا الرجل لتطمئن من أنها أنشأت سجلًا بثقافته ونقاط ضعفه في ذهنها.

سألته بصوتٍ آمر: «وما هوية من خرجوا علينا كالمجرمين تحت ستار الليل؟».

التفت صاحب الرأس المغطَّى بغطاء البُرنُس بحدَّة وقد بدى توتُّره، ثم استرخى ببطء مبيِّنًا لها الكثير. هذا الرجل يجيد التحكُّم في أعصابه.

تحرَّك پول مبتعدًا عن والدته بعض الشيء كي يصبحا هدفين منفصلين، وليمنح كليهما مساحة أوسع للتحُّرك.

استدار صاحب الرأس المغطَّى إلى پول ملاحظًا حركته، فبدا جانب وجهه في ضوء القمر. رأت چيسيكا الأنف الحاد، وعينًا واحدة داكنة لامعة، لُجَّة من الحبر المدلهم لا بياض فيها، وشاربًا بُنِّيًا كثًّا مفتولًا إلى أعلى.

قال الرجل: «شبلٌ واعد. إن كنتما هاربين من الهراكنة، فقد نرحِّب بكما بيننا. ما رأيك يا فتى؟».

برقت الاحتمالات في عقل پول: *أهذه خُدعة؟ أم حقيقة؟ يلزم اتِّخاذ قرارٍ فوري.*

سأله پول: «ولماذا سترحِّبون بهاربين بينكم؟».

قال الرجل الطويل: «صبيٌّ يتحدَّث ويفكِّر كالرجال. حسنًا، إجابةً عن سؤالك، يا أيُّها الولي* الصغير، فأنا ممَّن لا يدفعون الفيء*، ضريبة الماء، إلى الهراكنة. هذا هو السبب في أنني قد أرحب بالهاربين».

فكَّر پول: *إنه يعرف من نحن، في صوته إضمار.*

قال الرجل الطويل: «أنا ستيلجار الفرمِني. هل سيحلل هذا

عقـدة لسـانك يـا فتـى؟».

فكَّـر پـول: *إنـه الصَّـوت نفسـه*. وتذكَّـر الاجتمـاع الـذي زاره هـذا الرجـل مطالبًـا بجثـة صديقٍ لـه قتلـه الهراكنـة.

قـال پـول: «إننـي أعرفـك يـا سـتيلجار. أتيـت إلـى اجتمـاع أبـي مطالبًـا بمـاء صديقـك، ورحلـت بصحبـة أحـد رجـال أبـي، دانكـن آيداهـو، كتبـادلٍ للأصدقـاء».

قال ستيلجار: «وقد هجرنا آيداهو وعاد إلى دوقه».

سـمعت چيسـيكا مسـحة الازدراء فـي صوتـه، فهيَّـأت نفسـها للهجـوم فـي أيِّ لحظـة.

صـاح صـوتٌ مـن الصخـور فوقهـم: «نحـن نضيِّـع الوقـت هكـذا يـا سـتيل».

أعلـن سـتيلجار: «هـذا ابـن الـدوق، وهـو قطعًـا الشـخص الـذي أخبرنـا لييـت البحـث عنـه».

- «لكنه... مجرَّد طفلٍ يا ستيل».

قـال سـتيلجار: «لكـن الـدوق كان رجـلًا، وهـذا الفتـى أجـاد اسـتخدام المِطـراق، وكان عبـوره شـجاعًا فـي طريـق شَـيْ هولـود».

لاحظـت چيسـيكا أنـه يسـتثنيها مـن أفكاره. هـل أصـدر حكمـه ضدَّهـا آنفًـا.

احتـجَّ الصَّـوت الـذي يعلوهـم قائـلًا: «لا نملـك الوقـت لاختبـار معدنـه».

قال ستيلجار: «لكنه قد يكون لسان الغيب».

فكَّرت چيسيكا: *إنه يبحث عن بشارة!*

قال الصَّوت من فوقهم: «ماذا عن المرأة؟».

تأهَّبت چيسيكا مجدَّدًا. هذا الصَّوت يحمل موتًا في نبرته.

قال ستيلجار: «أجل، المرأة، وماؤها».

قال الصَّوت الآتي من الصخور: «أنت تعرف القانون، من لا يستطيع التعايش مع الصَّحراء...».

قاطعه ستيلجار: «صمتًا. الأزمان تتغيَّر».

سأل الصَّوت الآتي من الصخور: «هل أمر ليبيت بهذا؟».

قال ستيلجار: «لقد سمعت صوت السريىلاجو بنفسك يا چيميس، فمالك تلاحقني هكذا؟».

فكَّرت چيسيكا: *سييلاجو!* فتحت الكلمة أمامها أبوابًا واسعة للفهم: هذه لغة العلم* والفقه*، وكلمة سييلاجو تعني حيوانًا ثديًا صغيرًا طائرًا، خُفَّاشًا بالأحرى. صوت *السييلاجو*: هذا يعني أنهم استقبلوا وترجموا رسائلَ مشفَّرة في أصوات الخفافيش عن طريق مُكوِّدات، ووجدوها تأمرهم بالبحث عن پول وعنها.

قال الصَّوت الذي يعلوهم: «لم أقصد إلا تذكيرك بواجباتك يا صديقي ستيلجار».

قال ستيلجار: «واجبي هو الحفاظ على قوَّة القبيلة. إنه واجبي الوحيد، ولست بحاجة إلى من يذكِّرني به. هذا الطفل يثير اهتمامي. إنه مكتنز لحمًا، ونشأ في وفرة من الماء، وعاش بعيدًا عن شمسنا الأم، وليست عيناه كأعين العباد*. ومع ذلك لا يتحدَّث ولا يتصرَّف مثل الضعاف من أهل الوهاد، ولم يكن أبوه مثلهم أيضًا، فما عِلَّة ذلك؟».

قال الصَّوت القادم من الصخور: «لا يجدر بنا الاستمرار في الجدال هنا طوال الليل، فإن مرَّت دورية...».

قال ستيلجار: «لن أكرِّر عليك أن تصمت مرَّةً أخرى يا چيميس».

التـزم الرجـل الـذي يعلوهـم الصَّمـت، لكـن چيسـيكا سـمعته يتحـرَّك، ويقفـز عابـرًا مضيقًـا صخريًـا، شـاقًا طريقـه هبوطًـا إلـى قـاع الحـوض إلـى يسـارهم.

قـال ستيلجار: «أشـار صـوت السـييلاجو إلـى أن إنقاذكمـا سـيعود علينـا بالنفـع. أتوسَّـم الخيـر فـي هـذا الفتـى القـوي الراشـد كالرجال. إنـه يافـع ويمكنـه التعلُّم. ولكـن مـاذا عنـك أنـت يـا امـرأة؟». ثـم حملق إلى چيسـيكا.

فكَّـرت چيسـيكا: *لقـد انتهيـت مـن تسـجيل صوتـه ونمطـه فـي ذهنـي الآن. يمكننـي التحكُّـم فيـه بكلمـة واحـدة، لكنـه رجـلٌ قـوي، وسـينفعنا أكثـر بكثيـر وهـو حـرُّ الحركـة غيـر مسـلوب الإرادة، وذو بـأسٍ وشـوكة. سـنرى.*

قالـت چيسـيكا: «أنـا أُمُّ هـذا الصبيّ، وجانـبٌ مـن قوَّتـه التـي تثيـر إعجابـك هـي نتـاج تدريبـي لـه».

قـال سـتيلجار: «يمكـن أن تتمتَّـع النسـاء بقـوَّة غيـر محـدودة، وبالتأكيـد تمتلـك الأُمَّهـات الموقَّـرات تلـك القـوَّة. هـل أنـت أُمٌّ موقَّـرة؟».

تعامـت چيسـيكا مؤقَّتًـا عـن تداعيـات السـؤال، وأجابـت بصـدق: «كلا».

- «هل تدرَّبتِ على أساليب الصَّحراء؟».
- «كلا، لكن كثيرين يعدُّون تدريبي ذا قيمة».

قال ستيلجار: «نحن من نحكم على قيمة الشيء بأنفسنا».

قالت: «لكل إنسان الحق في إصدار أحكامه الخاصة».

قـال سـتيلجار: «جيـد أنـك تتفهَّميـن السـبب. ليـس بإمكاننـا التلكُّؤ هنـا لاختبـارك يـا امـرأة، أتفهميـن هـذا؟ ولا نريـد أن يطاردنـا

شبحك. سآخذ الصبيَّ ذا شيم الرجال في كنفي وتحت جناحي، وسيحظى بملاذٍ آمن في قبيلتي. أما أنت يا امرأة... تفهمين أنه لا ضغينة شخصية في الأمر، أليس كذلك؟ إنه القانون المتَّبع، الاستصلاح*، تقديم الصالح العام. أليس هذا بكافٍ لكِ؟».

أخذ پول نصف خطوة إلى الأمام، وقال: «ما هذا الكلام؟».

ألقى ستيلجار نظرة سريعة إلى پول، لكنه أبقى اهتمامه منصبًا على چيسيكا، وقال: «ما لم يتلقَّ المرء تدريبًا مكثَّفًا منذ الطفولة للعيش هنا، فقد يلحق الدمار بقبيلة برمَّتها. هذا هو القانون، لا يمكننا أن نحمل عبء عديمي الفائدة...».

بدأت چيسيكا حركتها بإغطاءة خادعة وبدت كأنها ستسقط أرضًا. كان هذا فعلًا متوقَّعًا من شخصٍ غريب ضعيف، وعادةً ما تُبطئ الأفعال المتوقَّعة ردود فعل الخصم. يتطلَّب العقل لحظات لاستيعاب ما يطرأ على المألوف ويحوِّله إلى غير مألوف. تحرَّكت چيسيكا عندما رأت كتفه اليمنى تنخفض ليخرج السلاح المخفي بين طيَّات ثوبه، وارتكزت في وضعها الجديد. ثم استدارت، وشقَّت ذراعها الهواء سريعًا كالسوط، وانخرط الثوبان في دوَّامة، ثم انتهى الوضع بالصخور خلفها والرجل بلا حيلة أمامها.

عندما همَّت أُمُّه بالتحرُّك، تراجع پول خطوتين إلى الخلف. ومع هجومها، ركض محتميًا بالظلال. اعترض طريقه رجلٌ ملتحٍ نصف جاثم، واندفع نحوه حاملًا سلاحًا في يده. باغت پول الرجل بضربة مباشرة تحت عظمة القص، ثم قفز جانبًا وعالجه بضربة أسفل عنقه، وسلبه سلاحه وهو يسقط أرضًا.

اختفى پول وسط الظلال، وتسلَّق الصخور سريعًا والسلاح في وشاح خصره. لقد ميَّز السلاح على الرغم من شكله غير

المألوف: إنه سلاح يطلق مقذوفات، وهذا أفصح عن أشياء كثيرة تخص هذا المكان. إنه دليلٌ آخر على أن الدروع لا تُستخدم هنا.

سينصبُّ اهتمامهم على ما يدور بين أُمّي وهذا المدعو ستيلجار، وهي قادرة على التكفُّل به. يجب أن أعتصم بموقع آمن مرتفع يمنحني أفضلية، حيث أستطيع تهديدهم ومنحها فرصةً للهرب.

جاءت من الحوض أصوات تكّات زنبركات حادّة متتالية، وانهال وابلٌ من المقذوفات على الصخور من حوله، وثقبت إحداها ثوبه. انحشر پول في فرجة بين الصخور، ووجد نفسه في صدع عموديٍّ ضيّق، فشقَّ طريقه صعودًا ببطء وصمتٍ قدر استطاعته، مرتكزًا بظهره إلى أحد جانبيه، ومستندًا بقدميه على الآخر.

بَلَغَهُ صدى صيحة ستيلجار: «تراجعوا يا حمقى! ستهشِّم عُنُقي إن اقتربتم!».

قال صوتٌ قادم من الحوض: «لقد هرب الصبيُّ يا ستيل، ماذا سنفـ...».

- «بالطبع هرب يا ذا العقل الخامد... آآه! رفقًا يا امرأة!».

قالت چيسيكا: «قل لهم أن يتوقفوا عن مطاردة ابني».

- «لقد توقَّفوا بالفعل يا امرأة. لقد هرب كما أردت له. بحق الآلهة الجوفية! لِمَ لم تقولي إنك امرأة خوارقية ومقاتلة؟».

قالت چيسيكا: «أصدر أمرًا لرجالك بالتراجع، أخبرهم بأن يهبطوا إلى الحوض ويقفوا حيث أراهم. من الأفضل لك أن تثق بأنني على علم بعددكم».

وفكَّرت: *هذه لحظة حسَّاسة، ولكن إن كان هذا الرجل ذكيًا كما أظن، فلدينا فرصة.*

شقَّ پول طريقه صعودًا شيئًا فشيئًا، ثم وجد حافَّة ضيقةً

يمكن أن يرتاح عليها ويراقب منها الحوض أسفله. ترامى إليه صوت ستيلجار.

- «وإذا رفضت؟ كيف ستـ... آااه! دعيني يا امرأة! لم نعد ننوي إيذاءك. بحق الآلهة العظيمة! إن كنتِ قادرة على فعل هذا بأقوانا، فأنت تساوين عشرة أضعاف ماء جسدك».

خطر لچيسيكا: *حان الآن وقت اختبار العقل*. ثم قالت: «تحدَّثت عن لسان الغيب».

قال ستيلجار: «رُبَّما تكونان من حكت عنهما الأسطورة، لكنني لن أومن بهذا حتَّى تثبت صحَّتها بالاختبار. كل ما أعرفه الآن أنكما جئتما إلى هنا بصحبة ذلك الدوق الأحمق الذي... آااه! يا امرأة! لا يهمني إن قتلتني! لقد كان شريفًا وشجاعًا، لكن من الغباء أن يضع نفسه في قبضة الهراكنة!».

ساد الصَّمت.

ثم قالت چيسيكا بعدها: «لم يكن لديه خيار، لكننا لن نتجادل في ذلك. الآن، اؤمُر رجلك المختبئ وراء تلك الشُجيرة أن يكفَّ عن محاولة تصويب سلاحة إليَّ، وإلَّا سأخلِّص الكون منك، ثم سأقضي عليه».

زأر ستيلجار: «أنت يا هذا! نفِّذ ما قالت!».

- «لكن يا ستيل...».

- «نفِّذ ما قالت يا وجه الدودة! يا براز العظاءة! يا مأفون الرمال! افعلها وإلا سأساعدها في تقطيع أوصالك! ألا ترى قيمة هذه المرأة؟».

خرج الرجل من مخبئه الجزئي وراء الشُجيرة، خافضًا سلاحه.

قال ستيلجار: «لقد أطاع».

قالت چيسيكا: «الآن، اشرح لرجالك بوضوح ماذا تريده مني،

فلا أريد لأيِّ شابٍ متهور أن يرتكب خطأً أحمق».

قال ستيلجار: «عندما نتسلَّ إلى القرى والبلدات نضطر إلى إخفاء هويتنا والاختلاط بأهل الوهاد والأخاديد، ولا نحمل معنا أسلحةً، لأن السكاكين العاجية مقدَّسة. أما أنت يا امرأة، فتتمتَّعين بالقدرة الخوارقية في القتال. كنا نسمع بها فحسب، والكثيرون شكَّكوا فيها، لكن لا يمكن للمرء أن يُشكِّك في ما رأى بأُمِّ عينيه. لقد تغلَّبتِ على فرمنيٍّ مُسلَّح، وهذا سلاح يعجز أيُّ تفتيشٍ عن كشف أمره».

أثارت كلمات ستيلجار اضطرابًا بين الرجال في الحوض.

- «وإذا وافقت على تعليمكم هذه... الطريقة الخوارقية؟».

- «ستحظين بحمايتي أنت وابنك».

- «وكيف نثق بأنك ستصدق وعدك معنا؟».

فقد صوت ستيلجار شيئًا من منطقه الحاذق، وبدت مسحة من المرارة الحادَّة وهو يقول: «هنا يا امرأة لا نتعامل بأوراقٍ وعقود. لا نتفوَّه بوعودٍ في الليل وننقضها عند الفجر. كلمة الرجل هنا عقد. وبصفتي قائدًا لقومي، فهم ملتزمون باحترام كلمتي. علِّمينا تلك الطريقة الخوارقية وسيكون لك ملاذًا آمنًا بيننا ما شئت، وسيختلط ماؤك بمائنا».

سألته جيسيكا: «هل تتحدَّث باسم كل الفرمن؟».

- «ليس بعد، لكن قد يحدث هذا بمرور الوقت. وحده أخي ليت يتحدَّث باسم كل الفرمن. أما هنا فأنا أعدك بالسرِّية فحسب. لن يذكر قومي شيئًا عنكما إلى أيِّ سييتش آخر. لقد عاد الهراكنة إلى كوكب كثيب مدجَّجين بالسلاح والقوَّات، ومات دوقك، وقيل إنكما لقيتما حتفكما في عاصفة هائلة. الصيَّاد لا

يسعى خلف طريدة ميّتة».

فكَّرت چيسيكا: *كلماته مطمئنة، لكن هؤلاء القوم لديهم شبكة اتّصالات قوية وبإمكان أحدهم إرسال رسالة بسهولة.*

قالت: «أظن أن جائزةً رُصدت مقابل الإبلاغ عنا».

ظلَّ ستيلجار صامتًا، لكنها أحسَّت بتسارع الأفكار في رأسه وشعرت بخلجات عضلاته تحت يديها.

بعد هنيهة قال: «سأكررها عليك ثانيةً: لقد أعطيتك وعدًا وعرضت عليك رباط القبيلة. قومي يعرفون قيمتك لنا الآن. ماذا سيعرض علينا الهراكنة في المقابل؟ حرّيتنا؟ هه! كلا. أنت التقوى* التي ستمنحنا كل ما لا يفلح الاسپايس المكدَّس في خزائن الهراكنة في شرائه».

قالت چيسيكا: «سأعلّمكم إذًا طريقتي في القتال»، وشعرت بما حملته كلماتها من طابعٍ طقسي ثقيل دون وعيٍ منها.

- «الآن، هلّا أطلقتِ سراحي؟».

قالت چيسيكا: «ليكن»، وأطلقت سراحه من قبضتها، ثم أخذت خطوة جانبًا لتكون على مرأى جميع من يقف عند حافة الحوض، وفكَّرت: *هذا هو الاختبار المشهود*، لكن پول يجب أن يعلم حقيقتهم حتى لو مُتُّ في سبيل معرفته.*

في أثناء الانتظار الصامت، اشرأب عُنُق پول قليلًا ليرى الموقع الذي تقف فيه أُمُّه بشكل أفضل. مع تحرُّكه، سمع أنفاسًا ثقيلة آتية من أعلى الشقِّ العمودي، لكنها سرعان ما انكتمت، وشعر بوجود ظلٍّ باهت يحدِّد حوافه ضوء النجوم.

جاء صوت ستيلجار من أعلى الحوض هادرًا: «يا من في الأعلى! لا داعي لمطاردة الصبيِّ، فسيهبط وحده بعد قليل».

جاء صوت صبيٍّ صغير أو فتاة من الظلام فوق پول: «لكن يا

ستيل، لا يمكن أن يكون بعيدًا عن...».

- «قلت اتركيه وشأنه يا تشاني! يا بنت السحلية!».

همست الفتاة لاعنةً من الظلام فوقه، ثم قالت في صوتٍ خفيض: «يدعوني أنا ببنت السحلية!». ثم انسحب الظلّ خارجًا من مجال رؤيته.

أعاد پول انتباهه إلى الحوض، متتبّعًا ظلّ ستيلجار المتحرّك جوار أمّه.

نادى ستيلجار «هلمّوا جميعًا»، ثم التفت إلى چيسيكا وسألها: «والآن حان دوري لأسألك كيف لنا التأكّد من أنك ستفين بجزئك من الاتّفاق؟ فأنتم من عشتم حياة الأوراق والعقود فارغة المعنى وما إلى ذلك من...».

قالت چيسيكا: «نحن معشر البِني چيسيرِت لا نخرق عهودنا، مثلكم تمامًا».

ساد صمتٌ طويل، ثم تعالى فحيح أصوات كثيرة تقول: «ساحرة من البِني چيسيرِت!».

التقط پول السلاح الذي استولى عليه من وشاحه، وصوّبه على شبح ستيلجار الداكن، لكن الرجل وأتباعه ظلّوا ساكنين، محدّقين إلى چيسيكا.

قال أحدهم: «إنها الأسطورة».

قال ستيلجار: «هذا ما قالته ميپس الشادوات في تقريرها عنك. لكن هذا ادّعاء كبير، وعلينا اختبار صحّته. إن كنت المرأة البِني چيسيرِتية التي ذكرتها الأسطورة التي سيقودنا ابنها إلى الجنة...»، ثم بتر عبارته وهزّ كتفيه.

تنهّدت چيسيكا، وفكّرت: *إذًا فقد بذرت مبشّراتنا الحاميات*

أساطير دينية وقائية في جميع أنحاء حفرة الجحيم هذه. حسنًا، كان هذا هو الغرض منها في الأساس، وسوف تساعدنا.

قالت: «العرَّافة التي أبلغتكم بهذه الأسطورة، أخبرتكم أنها محكومة بضوابط معيَّنة، ضوابط الكرامة* والإعجاز* التي ستظهر على يد من تتحدَّث عنه النبوءة. هذا الأمر أعرفه. أتريد أن آتيكم بآية لتطمئن قلوبكم؟».

اتَّسع منخراه في ضوء القمر، وقال: «ليس بوسعنا التلكُّؤ أكثر من ذلك لأداء الطقوس».

تذكَّرت جيسيكا خريطة كان كاينز أراها إيَّاها في أثناء إعداد خطط الهروب في حالات الطوارئ. يبدو أن دهرًا قد مضى على ذلك! كان على الخريطة موقع يُدعى «سييتش تابر»، وإلى جواره ملحوظة تقول: «ستيلجار».

قالت: «رُبَّما سنفعلها عندما نصل إلى سييتش تابر إذًا».

ارتج ستيلجار لإلمامها بما لم تحط به علمًا، ففكَّرت جيسيكا: *آهٍ لو يعلم الحيل التي نستخدمها! لا بُدَّ أن تلك المبشِّرة البِني جيسيرِتية الحامية كانت بارعة. هؤلاء الفرمِن أُعِدُّوا جيِّدًا للإيمان بنا.*

تحرَّك ستيلجار بعصبية: «يجب أن نرحل الآن».

أومأت جيسيكا، لإعلامه بأنهم سيغادرون بإذنٍ منها.

رفع ستيلجار بصره ناظرًا مباشرةً إلى الحافَّة الصخرية حيث يختبئ پول: «أنت يا فتى، بإمكانك النزول الآن»، ثم أدار انتباهه نحو جيسيكا، وخاطبها بنبرة اعتذارية: «أصدر ابنك جلبة صاخبة وهو يتسلق الجرف. أمامه الكثير ليتعلَّمه لِئلا يعرِّض

حياتنا للخطر، لكنه ما زال صغير السن».

قالت جيسيكا: «لا شكَّ في أن لدى كلينا الكثير ليعلِّمه للآخر. أما الآن، فمن الأفضل أن تراعي صاحبك المتكوِّم هناك، فقد كان ابني المثير للجلبة قاسيًا بعض الشيء وهو يسلبه سلاحه».

التفَّ ستيلجار سريعًا، فتطاير غطاء رأسه: «أين؟».

أشارت جيسيكا: «خلف تلك الشجيرات».

لمس ستيلجار اثنين من رجاله وقال: «تفقَّداه»، وحملق إلى رجاله وعدَّدهم. «جيميس مفقود». ثم التفت إلى جيسيكا وقال: «حتَّى ابنك يعرف الطريقة الخوارقية في القتال».

قالت جيسيكا: «وستلاحظ أن ابني لم يتحرك من مكانه كما طلبت منه».

عاد الرجلان اللذان أرسلهما ستيلجار وهما يسندان ثالثًا يتعثَّر ويلهث بينهما. رماهما ستيلجار بنظرة خاطفة، ثم أعاد انتباهه إلى جيسيكا: «لا يأخذ ابنك أوامره إلَّا منك، أليس كذلك؟ جيِّد. إنه حسن السلوك والانضباط».

صاحت جيسيكا: «بإمكانك النزول الآن يا پول».

نهض پول واقفًا، وطلع في ضوء القمر من فوق الشقِّ الذي كان يختبئ فيه وهو يعيد سلاح الفرمِني إلى وشاحه. وعندما استدار، ظهر شخصٌ آخر من بين الصخور وواجهه.

في ضوء القمر وانعكاسه على الحجر الرمادي، رأى پول شخصًا ضئيل الجسد في ثيابٍ فرمِنية، يحملق إليه وجهه المحتجب خلف ظلال القلنسوة، ومن طيَّة في ثوبه، يصوِّب إليه فوَّهة أحد أسلحة المقذوفات.

– «أنا تشاني، ابنة لييت».

كان الصَّوت مرحًا، وبه مسحة من الضحك.

قالت الفتاة: «ما كنت سأسمح لك بإيذاء رفاقي».

ابتلع پول ريقه. استدارت الفتاة في مسار الضوء الساقط من القمر، فتبدَّى له وجهها الملائكي الأخَّاذ، وعيناها الشبيهتان بحفرتين حالكتي السواد. أصاب پول الذهول وجمد في مكانه من رؤية ذاك الوجه المألوف الملامح الذي رآه مرَّات لا حصر لها في أولى رؤاه الاستبصارية، وتذكَّر الجرأة الفاضبة الذي وصف به هذا الوجه الخارج من عالم الأحلام قائلًا للأُمِّ الموقَّرة جايس هيلين موهيم: «سوف ألتقيها».

ها هو الوجه أمامه الآن، لكن في لقاءٍ لم يحلم به قط.

قالت الفتاة: «كنت صاخبًا كشَيِّ هولود في غضبتها، وسلكت أصعب الطرق صعودًا إلى هنا. اتبعني، سأريك طريقًا أسهل للنزول».

خرج پول متعثِّرًا من الصدع، وسار مسترشدًا بحفيف ثوبها عبر تضاريس متداعيةٍ هابطة. كانت تتحرَّك كالغزال، وتتواثب راقصةً فوق الصخور. شعر پول بسخونة الدماء تورِّد وجه، وشعر بالامتنان للظلام المحيط به.

تلك الفتاة! كانت أشبه بلمسة من القدر. شعر بأن محمولًا على موجة تنعش روحه، وترفع مع حركتها المتهادية كل معنوياته.

بعد قليل كانا يقفان وسط باقي الفرمن في قاع الحوض.

التفتت چيسيكا إلى پول مبتسمةً ابتسامةً كالحة، لكنها وجَّهت كلامها إلى ستيلجار: «أظن أن هذا درسٌ جيِّد للطرفين. أتمنى ألا تحمل أنت وقومك ضغينة تجاهنا لما أبديناه من عنف. ما حدث كان... ضروريًا. كنتم على وشك... ارتكاب خطأ».

قال ستيلجار: «إنقاذ المرء من الوقوع في الخطأ هبة من

الجنـة»، ثـم لمـس شـفتيه بيـده اليسـرى، وأخـذ السـلاح مـن خصـر بـول باليـد الأخـرى وألقـاه إلـى أحـد رفاقـه. «سـيكون لـك مسـدَّس مَولَـى* خـاص بـك يـا فتـى، عندمـا تسـتحقه».

هـمَّ بول بالكلام لكنـه تـردَّد متذكـرًا تعاليـم أمِّـه: *«البدايات أوقات حسَّاسة جدًا»*.

قالـت چيسـيكا: «ابنـي لديـه مـا يحتـاج إليـه مـن أسـلحة»، وحدَّقت إلـى سـتيلجار، مجبـرةً إيَّـاه علـى تذكـر كيـف اسـتولى بـول علـى المسـدَّس.

رمـق سـتيلجار چيميـس، الرجـل الـذي هزمـه بـول وأخضعـه. كان يقـف منزويًـا، منكَّـس الـرأس، وأنفاسـه ثقيلـة. قـال سـتيلجار: «أنـت امـرأة صعبـة المـراس». ثـم رفـع يـده إلـى أحـد أتباعـه، وفرقـع بإصبعيه.

- «كوشتي بكَّاء تي».

فكَّرت چيسيكا: *لغة التشاكوبسا مجدَّدًا*.

دسَّ الرجـل قطعتـي قمـاش مربَّعتيـن فـي يـد سـتيلجار، فمرَّرهمـا سـتيلجار بيـن أصابعـه، ثـم لـفَّ واحـدة حـول عُنُـق چيسـيكا تحـت قلنوسـتها، ولـفَّ الأخـرى حـول عُنُـق بـول بالطريقـة نفسـها.

وقـال: «الآن صرتمـا ترتديـان منديـل البـكَّاء*. إن افترقنـا، سـيعرف الآخـرون أنكمـا تنتميـان لسـييتش سـتيلجار. أمـا الأسـلحة فسـنتحدَّث عنهـا لاحقًـا».

ثـم بـدأ يسير بين أفـراد جماعتـه، متفحِّصًـا إيَّاهـم، وأعطـى عُـدَّة الفرمـن التـي مـع بـول إلـى أحـد رجالـه كـي يحملهـا.

فكَّـرت چيسـيكا إذ ميَّـزت المصطلـح الدينـي: بكَّـاء. *مـن يـذرف الدمـوع بغـزارة علـى غيـره*. شـعرت كيـف أن رمزيـة المنديـل تُوحِّـد هـذه الجماعـة، فسـألت نفسـها: *ولِـمَ يوحِّدهـم البـكاء؟*

كان سـتيلجار قـد وصـل إلـى الفتـاة التـي أحرجـت بـول، وقـال:

«تشاني، خذي الصبيَّ الراشد تحت جناحك. اِنأَي به بعيدًا عن المتاعب».

مسَّت تشاني ذراع پول، وقالت: «تعال أيُّها الصبيُّ الراشد».

دارى پول الغضب في صوته، وقال: «اسمي پول، لذا فـ...».

قاطعه ستيلجار قائلًا: «سنعطيك اسمًا يا أيُّها الرجل الصغير، في وقت المحنة*، بعد اختبار العقل*».

ترجمت چيسيكا كلماته في عقلها: يقصد *اختبار الحكمة*. صاحت فجأة وقد غلبت رغبتها في إعلاء شأن پول على كل الاعتبارات الأخرى: «لقد اجتاز ابني اختبار الجوم جَبار!».

من السكون التَّام الذي تلى عبارتها، أدركت چيسيكا أنها ألقت حجرًا في قلوبهم.

قال ستيلجار: «ثمَّة الكثير ممَّا يجهله أحدنا عن الآخر، لكننا تلكَّأنا هنا أكثر ممَّا ينبغي. يجب ألَّا تطلع شمس النهار علينا ونحن في العراء»، ثم انتقل إلى الرجل الذي صرعه پول، وقال: «چيميس، أتستطيع السير؟».

أجابه الرجل مزمجرًا: «لقد أخذني على حين غِرَّة. كانت حادثة عارضة ليس إلَّا. بإمكاني السير».

قال ستيلجار: «لا أريد حوادث أخرى، سأحمِّلك مسؤولية سلامة الفتى مع تشاني يا چيميس. هذان الاثنان في حمايتي».

حدَّقت چيسيكا إلى الرجل المدعو چيميس. كان هو صاحب الصَّوت الذي تجادل مع ستيلجار من فوق الصخور. كان هو الصَّوت الذي يحمل الموت في نبرته. وها هو ستيلجار يرتئي تكرار أوامره على مسمعه.

ألقى ستيلجار نظرةً فاحصةً إلى المجموعة، وأشار لرجلين بالتقدُّم: «لاروس وفاروق، ستخفيان آثار أقدامنا. احرصا ألّا نترك أثرًا خلفنا. أريد عناية فائقة، فمعنا اثنان غير مُدرَّبين». ثم استدار، ورفع يده مشيرًا عبر الحوض: «تحرَّكوا في طابور، مع حماة على الجانبين. يجب أن نبلغ "كهف التلال" قبل الفجر».

سارت جيسيكا إلى جوار ستيلجار، تعدُّ الرؤوس. أربعون فرمِني، وهي وبول، هذا يجعل العدد اثنين وأربعين. فكَّرت جيسيكا: *يتحرَّكون كفصيلة عسكرية، حتَّى الفتاة تشاني.*

أخذ بول مكانًا في الطابور خلف تشاني، متخلِّصًا من شعوره بالإحراج لكون فتاة أمسكت به وقد احتلَّت ذهنه الذِّكرى التي استدعتها صيحة أُمِّه: «لقد اجتاز ابني اختبار الجوم جَبارا»، وشعر بوخزٍ في يده من ذكرى الألم.

همست تشاني: «انتبه لخطواتك. لا تحتك بالشجيرات لئلا تترك أثرًا يدل على مرورنا من هنا».

ابتلع بول ريقه وأومأ.

أصغت جيسيكا إلى أصوات الجماعة، فسمعت صوت خطواتها وخطوات بول، ودهشت من الطريقة التي يتحرَّك بها الفرمِن. أربعون شخصًا يعبرون الحوض ولا يصدر عنهم إلَّا أصوات البيئة الطبيعية، فيما تخفق ثيابهم في الظلال كقوارب شراعية شبحية. وجهتهم هي سييتش تابر، السييتش التابع لستيلجار.

قلَّبت الكلمة في عقلها: *سييتش. إنها كلمة تشاكوبسية، لم تتغيَّر -في لغة الصيد القديمة- من قرونٍ لا حصر لها. سييتش:*

الملاذ وقت الخطر. بدأت تستوعب الدلالات العميقة للكلمة واللُّغة بعد التوتُّر الذي ساد لقاءهم.

قال ستيلجار: «نتحرَّك بوتيرة جيِّدة. سنصل إلى كهف التلال قبل الفجر بمشيئة شَيْ هولود».

أومأت جيسيكا، وحاولت توفير طاقتها، شاعرةً بذلك الإنهاك الرهيب الذي تسيطر عليه بقوَّة إرادتها... وبشيء آخر: الشعور بالابتهاج الذي يتملَّكها الآن، هكذا اعترفت لنفسها. انصب تركيز ذهنها على ما تمثِّله هذه الجماعة من قيمة، وأدركت ما يكشفه لها هذا المسير المنضبط عن ثقافة الفرمِن.

وخطر لها: *كل فرد، المجتمع بالكامل، مهيَّأ للحياة العسكرية ومدرَّب على طاعة أوامرها، وهذا شيء لا يقدر بثمن بالنسبة إلى دوقٍ منبوذ!*



للفرمِن صفة لا يُضاهيهم فيها أحد، أسماها القدماء «توتير القوس»، وهي المهلة التي يختار المرء فرضها على نفسه بين الرغبة والإشباع، بين اشتهاء الشيء ومدِّ اليد لأخذه.

من كتاب «حكمة المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

افترقوا من كهف التلال مع بزوغ الفجر، متحرِّكين عبر صدع شديد الضيق في جدار الحوض اضطرهم إلى السير بجانبهم للمرور منه. في ضوء الفجر الخافت، رأت چيسيكا ستيلجار يرسل بعض رجاله للحراسة، وراقبتهم للحظات وهم يتسلَّقون أعلى الجرف.

رفع پول رأسه إلى أعلى وهو يسير، فرأى مقطعًا عرضيًا للكوكب موشيًا بالنجوم حيث ينتهي الشقُّ الضيِّق ويفغر فاه باتجاه السماء الزرقاء الرمادية.

جذبته تشاني من طرف ثوبه لتستعجله: «أسرِع، لقد تبيَّن الضوء».

همس پول: «الرجال الذين تسلَّقوا الجرف، إلى أين هم ذاهبون؟».

قالت: «إنهم دورية النهار الأولى. أسرِع الآن!».

فكَّر پول: *يعيِّنون حراسة في الخارج. هذا تصرُّف حكيم. لكن كان من الأنسب لو قصدنا وجهتنا في مجموعات منفصلة، ففي هذا تقليلٌ لاحتمال فقد الفصيلة بكاملها إذ وقع هجوم.* استوقفت پول الفكرة، إذ أدرك أنه يفكِّر بطريقة حرب العصابات، وتذكَّر خوف والده من أن يصبح آل آتريديز عصابة هاربة. تعتمد أساليب حرب العصابات.

همست تشاني: «أسرِع!».

أسرع پول خُطاه، مصغيًا إلى حفيف الثياب من خلفه، وتذكَّر آية السراط* من الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي الذي أعطاه إيَّاه يُوي.

أخذ پول يقلِّب الآية في عقله: «*الجنة عن يميني، والجحيم عن شمالي، وملك الموت من خلفي*».

سلكوا منعطفًا اتَّسع بعده الممرُّ. وقف ستيلجار جانبًا يوجِّههم للدخول عبر مدخلٍ منخفض زواياه قائمة.

همس قائلًا: «أسرعوا! سنكون كالأرانب الحبيسة في قفصٍ لو رأتنا دورية مارَّة هنا».

انحنى پول ليمر من الفجوة، وتبع تشاني إلى كهف ينيره ضوءٌ رمادي باهت صادر من مكان ما في الأمام.

قالت له: «بإمكانك الوقوف معتدلًا».

فرد پول قامته، ووقف يتفحَّص الكهف: كان عميقًا واسعًا ذا سقف مُقبَّب منخفض بالكاد يعلو عن متناول اليد. انتشر أفراد الفصيلة في الظلال، ورأى پول أُمَّه تقف في جانبٍ تتأمَّل مرافقيهم، ملاحظًا كيف لم تندمج وسط الفرمِن وبدت مختلفة عنهم على الرغم من تطابق الثياب. كان في مشيتها قوَّة وشموخ يميِّزانها عمَّا حولها.

قالت تشاني: «اعثر على مكان للراحة لا يعيق حركة الآخرين أيُّها الطفل الراشد. هاك طعامك»، ودسَّت في يده كسرتين ملفوفتين بورقة تفوح منهما رائحة الاسپايس.

أتى ستيلجار من خلف چيسيكا، معطيًا مجموعة واقفة إلى اليسار أوامره: «ضعوا الغطاء العازل في مكانه، وتأكَّدوا من عدم

تسريبه الرطوبة»، ثم التفت قائلًا إلى فرمِني آخر: «لميل، اجلب كرات الإنارة»، ثم أخذ بذراع چيسيكا وهو يقول: «أريد أن أريك شيئًا أيَّتها المرأة الخوارقية»، وقادها حول منحنى صخري باتجاه مصدر الضوء.

وجدت چيسيكا نفسها تنظر عبر مدخل واسع آخر للكهف، فتحة مرتفعة في جدار الجرف تطل على حوض آخر عرضه نحو عشرة أو اثني عشر كيلومترًا. كان الحوض محميًا بجدران صخرية عالية، وتتناثر فيه أجمات متفرقة هناك وهناك.

وبينما كانت تتأمَّل الحوض المصطبغ بصبغة رمادية في ضوء الفجر، أشرقت الشمس من فوق الجرف البعيد وأضاءت تضاريس صخرية ورملية بلون البسكويت. لاحظت چيسيكا حركة شمس أرَّاكس السريعة، التي بدت كأنها هي تقفز من فوق الأفق.

فكَّرت چيسيكا: *أشعر بهذا لأننا نودُّ إمساك الشمس عن الشروق، فالليل هنا آمن من النهار*. ثم اعتراها اشتياقٌ شديد إلى رؤية قوس قزح في هذا المكان القفر الذي لن يرى أمطارًا أبدًا، وفكَّرت: *عليَّ أن أكتم مثل هذا الحنين، فهو ضعف، والضعف صار رفاهيةً لم يعد بوسعي تحمُّل تبعاتها*.

جذب ستيلجار ذراعها، وأشار عبر الحوض.

– «هناك! أترينهم؟ هؤلاء هم الدروز* بحق».

نظرت إلى حيث أشار، ولاحظت حركة أُناسٍ ينتشرون بامتداد قاع الحوض في ضوء النهار وحتَّى الظلال التي يلقيها الجرف المقابل. على الرغم من بُعد المسافة، كانت حركتهم واضحة في الهواء الصافي. أخرجت نظَّارتها المعظّمة من أسفل ثوبها، وركَّزت عدستيها الزيتيَّتين على الأشخاص البعيدين. كانت المناديل التي

يلفُّونها حول أعناقهم تتطاير مع الهواء كفراشات متعدِّدة الألوان.

قال ستيلجار: «هذا موطننا. سنصل إلى هناك الليلة»، ثم نظر عبر الحوض وهو يفتل شاربه إلى أعلى: «سهر قومي طوال الليل في العراء يعملون، هذا يعني أنه لا توجد دوريات في الجوار. سأرسل إليهم إشارة لاحقًا كي يتهيَّؤوا لقدومنا».

قالت چيسيكا: «يُظهر قومك انضباطًا جيِّدًا». ثم خفضت نظَّارتها المعظِّمة، ورأت أن ستيلجار يتأمَّلهم.

قال ستيلجار: «إنهم يطيعون قانون حماية القبيلة. إنها الطريقة التي ارتضيناها لاختيار القائد بيننا. القائد هو الأقوى، وهو من يوفِّر الماء والحماية». ثم حوَّل اهتمامه إلى وجهها.

بادلته التحديق، ولاحظت عينيه العديمتي البياض، والهالات السوداء حول محجريه، ولحيته وشاربه اللذين يحفُّهما الغبار، والخط الغائر المنحني الذي يرسمه الأنبوب الواصل من منخريه إلى بذلة التقطير.

سألته: «هل عرَّضت زعامتك للخطر عندما تغلَّبت عليك يا ستيلجار؟».

قال لها: «لم تدعيني للنزال بشكلٍ رسمي».

قالت: «من المهم أن يحتفظ القائد باحترام رجاله».

قال ستيلجار: «ولا واحد من قمل الرمال هؤلاء تُعجزني هزيمته. بتغلُّبك عليَّ، فقد تغلَّبتِ علينا جميعًا، والآن هم يأملون أن يتعلَّموا منك الطريقة الخوارقية، وبعضهم ينتابه الفضول لمعرفة إن كنت ستدعينني للقتال».

وازنت چيسيكا الأمور في عقلها، وسألته: «أتقصد التغلُّب عليك في نزالٍ رسمي؟».

أومـأ قائـلًا: «لكننـي لا أنصحـك بفعـل ذلـك لأنهـم لـن يتبعـوك، فأنـتِ لسـتِ مـن نبـت الرمـال، وقـد لاحظـوا ذلـك فـي رحلتنـا الليليـة».

قالت: «إنهم قومٌ عمليون».

ألقـى نظـرة إلـى الحـوض وقـال: «هـذا صحيـح. نحـن نـدرك احتياجاتنـا جيِّـدًا. لكـن قلَّـة مـن بيننـا يفكِّـرون بهـذا العمـق ونحـن بهـذا القـرب مـن موطننـا. لقـد أطلنـا المكـوث فـي العـراء، نجهِّـز ونـورِّد حصتنـا مـن الاسـپايس إلـى التجَّـار الأحـرار لتوصيلهـا إلـى رجـال النقابـة الملاعيـن، عسـى أن تُسـوَّد وجوههـم إلـى الأبـد».

كانـت چيسـيكا تسـتدير مبتعـدة عنـه، لكـن كلامـه أوقفهـا، فعـادت ونظـرت إلـى وجهـه وسـألته: «النقابـة؟ ومـا شـأن النقابـة بالاسـپايس الـذي يخصُّكـم؟».

قـال سـتيلجار: «إنهـا أوامـر لييـت. نعـرف الحكمـة مـن الأمـر، لكـن مرارتهـا تزعجنـا. نحـن نرشـو النقابـة بكمِّيـاتٍ هائلـة مـن الاسـپايس للحفـاظ علـى سـمائنا خاليـة مـن الأقمـار الصناعية، حتَّـى لا يتجسـس أحـد علـى مـا نفعلـه بسـطح أرَّاكس».

وزنـت كلماتهـا قبـل أن تلفظهـا، متذكِّـرةً أن پـول أشـار إلـى أن هـذا هـو السَّـبب فـي خلـو سـماء أرَّاكس مـن الأقمـار الصناعيـة: «ومـا الـذي تفعلونـه بسـطح الكوكـب وتريـدون حجبـه عـن الأنظـار؟».

– «نغيِّـره. ببطء، لكـن بثقـة. نجعلـه صالحًـا لحيـاة البشـر. لـن يشـهد جيلنـا هـذا التغيُّـر، ولا أبناؤنـا، ولا أحفادنـا، ولا أحفـاد أحفـاد أحفادنـا، لكنـه سـيحدث»، ثـم رنـا بعينيـن لا يُسـبر غورهمـا إلـى الحـوض الواسـع، وقـال حالمًـا: «مسطَّحات مائية، ونباتـات خضـراء طويلـة، وأُنـاس يسـيرون بـلا بـذلات تقطيـر».

فكَّرت چيسيكا: *هذا إذًا هو حلم لييت كاينز.*

قالت چيسيكا: «الرُّشى أمرٌ خطِرٌ، فمن طبيعتها الازدياد مع الوقت».

قال: «إنها تزداد بالفعل، ولكن في التأنّي السلامة».

استدارت چيسيكا، وتأمَّلت الحوض الممتد أمامها، محاولةً تخيُّله كما يراه ستيلجار في مُخيِّلته، لكنها لم تر إلَّا صخورًا بعيدةً رماديةً صفراء بلون الخردل، وحركة غائمة مفاجئة في السماء فوق الجروف.

قال ستيلجار: «آها».

ظنَّت في البداية أنها مركبة دورية، ثم أدركت أنه سراب، بدت معه التضاريس الطبيعية كأنها تحوم فوق رمال الصَّحراء، وفي البُعد رأت نباتات خضراء متموِّجةً، وفي منتصف المسافة دودة طويلة تجري على السطح، وعلى ظهرها شيءٌ يبدو كأنه ثياب فرمنية خفَّاقة. ثم تلاشى السراب.

قال ستيلجار: «سيكون من الأفضل لو ارتحلنا ركوبًا، لكننا لا نسمح بدخول الصَّانعة إلى هذا الحوض. لذا سيتعيَّن علينا استئناف مسيرتنا على الأقدام الليلة».

فكَّرت چيسيكا: *الصَّانعة! إنها الكلمة المقابلة للدودة في لغتهم.*

فكَّرت في أهمِّية كلماته، وتصريحه بأنهم لا يستطيعون السماح لدودة بأن تدخل هذا الحوض، وأدركت طبيعة ما رأته في السراب: رجال من الفرمن يمتطون ظهر دودة عملاقة. تطلَّب الأمر منها مجهودًا كبيرًا كي لا تبدو عليها آثار الصدمة من تلك المعلومة.

قال ستيلجار: «ينبغي لنا العودة والانضمام إلى الآخرين، وإلَّا سيشكُّ قومي في أنني أغازلك، فبعضهم يشعر بالغيرة بالفعل لأن

يديَّ ذاقت جسدك ونحن نتصارع ليلة أمس في حوض تيونو».

صاحت چيسيكا: «كيف تجرؤ!».

قال ستيلجار بصوتٍ معتدل: «لم أقصد إهانة. نحن لا نأخذ النساء هنا ضد رغبتهم، أمَّا أنت...»، وهزَّ كتفيه: «فلستِ في حاجة إلى الاحتماء بعُرف كهذا».

قالت: «أريدك أن تتذكَّر دومًا أنني كنت امرأة دوق»، ولكن صوتها كان أهدأ ممَّا سبق.

قال لها: «كما تشائين. حان وقت إحكام غلق هذه الفتحة ليتمكَّن الناس من إرخاء إحكام بذلات التقطير. قومي بحاجة إلى نيل قسطٍ من الراحة اليوم، فغدًا لن تدعهم أُسرهم ينعمون براحة».

ساد الصَّمت بينهما.

رنت چيسيكا إلى الخارج حيث ينتشر ضوء النهار. إنها متيقِّنة ممَّا سمعت من تلميح صوت ستيلجار: عرضه الصامت بأن يمنحها ما هو أكثر من الحماية. هل هو في حاجة إلى زوجة؟ أدركت أنها لا تمانع أن تقبل بهذه المنزلة إلى جواره، ففي هذا حلٌ لإنهاء النزاع على زعامة القبيلة: اقتران الأنثى بالذكر على نحوٍ لائق.

ولكن ماذا عن پول؟ من يدري ما طبيعة قواعد الأبوة السائدة هنا؟ وماذا عن الطفلة التي لم تولد بعد التي حملتها منذ أسابيع القليلة؟ ماذا عن ابنة الدوق الميت؟ أجبرت نفسها على مواجهة دلالة تلك الطفلة التي تنمو بداخلها، لتفهم الدوافع التي جعلتها تسمح بوقوع هذا الحمل. كانت تعرف حقيقة الأمر: لقد استسلمت للدافع العميق المشترك بين جميع المخلوقات الفانية،

دافع السعي إلى الخلود عن طريق الذرِّية. لقد استحوذ عليها دافع الخصوبة الغريزي الكامن في الكائنات الحيَّة.

ألقت چيسيكا نظرة سريعة على ستيلجار، فرأت أنه كان يتأمَّلها منتظرًا. سألت نفسها: *ما مصير ابنة تُولد هنا لامرأة متزوِّجة من مثل هذا الرجل؟ هل سيحاول تقييد الطرق التي على كل بنت من بنات البِني چيسيرِت أن تسلكها؟*

تنحنح ستيلجار كاشفًا لها أنه فهم بعض الأسئلة التي تدور في عقلها: «ما يهمُّ الزعيم هو الأمور التي تجعله زعيمًا في المقام الأوَّل، أي تلبية احتياجات قومه. إذا علمتِني قواكِ، فرُبَّما يأتي اليوم الذي يضطر فيه أحدنا إلى تحدِّي الآخر. لذا أُفضِّل أن نتوصَّل إلى بديل».

سألته: «وهل تُوجد بدائل؟».

- «أن تكوني السَيِّادينا الجديدة، فأُمُّنا الموقَّرة قد بلغت من العمر عتيًا».

أمُّهم الموقَّرة!

وقبل أن تتمكَّن من الاستفسار منه عن الأمر، قال: «أنا لا أعرض نفسي عليك زوجًا. لا أقصد الإساءة لك بكلامي، فأنت جميلة وجذَّابة. لكنك لو صرتِ واحدة من نسائي، فقد يقود هذا إلى أن يعتقد بعض شُبَّان قومي أنني مهتم أكثر من اللازم بمتع الجسد، وأقل من اللازم باحتياجات القبيلة. إنهم في هذه اللحظة هم يصغون إلينا ويراقبوننا».

فكَّرت چيسيكا: *إنه رجل يوازن قراراته، ويفكِّر في توابع أفعاله.*

قـال لهـا: «بيـن قومـي شُـبَّان بلغـوا سـنّ التمـرُّد، ويجـب توجيههـم برفـق خـلال هـذه المرحلـة. يجـب ألَّا أتـرك لهـم أسـبابًا قويـة تدفعـم إلـى مُباراتـي، كـي لا أضطـر إلـى جندلـة بعضهـم أو قتلـه. ليـس هـذا المسـار الصحيـح أمـام القائـد إن كان باسـتطاعته تجنبـه بشـرف. القائـد هـو أحـد الأشـياء التـي تميِّـز الغـثَّ مـن السـمين، وتفـرّق الغوغـاء عـن الشـعب. إنـه مـن يتولَّـى مسـؤولية الحافـظ علـى عـدد المتفرّديـن فـي قومـه، الذيـن إن قلَّ عددهـم، ينتكـس الشـعب مرتـدًّا إلـى غوغـاء».

لـم يكـن يوجِّـه كلامـه إليهـا فحسـب، بـل إلـى مـن يتنصَّـتون سـرًّا أيضًـا، وقـد أجبرهـا تصرُّفـه وكلماتـه التـي تتَّسـم بوعـيٍ عميـق علـى إعـادة تقييمـه.

فكَّـرت چيسـيكا: *إنـه ذو مكانـة وحُظـوة. مـن أيـن تعلَّـم مثـل هـذا التـوازن الداخلـي؟*

قـال سـتيلجار: «إن القانـون الـذي يحكـم طريقتنـا فـي اختيـار القائـد لقانـون عـادل. لكـن هـذا لا يعنـي أن العدالـة هـي الشـيء الـذي يحتـاج النـاس إليـه دائمًـا. مـا نحتـاج إليـه الآن حقًّـا هـو وقـت للإنبـات والازدهـار، وقـت لفـرض سـطوتنا علـى المزيـد مـن الأراضـي».

تسـاءلت چيسـيكا: *مـن أسـلاف هـذا الرجـل؟ مـن أيـن أتـى هـذا النسـل؟* ثـم قالـت: «لـم أقـدِّرك حـق قـدرك يـا سـتيلجار».

قال: «هـذا مـا ظننت».

قالت: «يبدو أن كلينا لم يقدِّر الآخر حق قدره».

قـال: «أريـد لهـذا أن ينتهـي. أنـا طامـعٌ فـي صداقتـك، وفـي ثقتـك. أريـد أن ينمـو فـي صدرينـا احتـرامٌ متبـادل لا يقتضـي حميميـة العلاقـة الجسـدية».



قالت: «فهمتك».

- «أتثقين بي؟».

- «أشعر بصدقك».

قال: «في أعرافنا، قد لا تتقلد السَيِّادينا منصب قيادة رسمي، لكنها تتمتَّع بمقام شريف مقدَّس. إنها من تُلقِّن العلم، وتحافظ على إبقاء الرب قويًا هنا»، وأشار إلى صدره.

فكَّرت چيسيكا: *لا بُدَّ لي من التحقيق في لغز الأُمّ الموقَّرة هنا*، ثم قالت: «لقد تحدَّثت سابقًا عن أُمِّكم الموقَّرة، وأنا قد سبق أن سمعت كلامًا عن أسطورةٍ ما ونبوءة».

قال: «قيل إن امرأةً من البِني چيسيرِت وولدها سيحملان مفتاح مستقبلنا».

- «وهل تعتقد أنني تلك المرأة؟».

راقبت ملامح وجهه وفكَّرت: *تموت أعواد القصب الصغيرة بسهولة، فالبدايات أوقات محفوفة بمخاطرٍ عظيمة*.

قال: «لا نعلم».

أومأت مفكِّرة: *إنه رجلٌ شريف. إنه يريد أن آتيه بعلامة معيَّنة، لكنه لن يوجِّه القدر بإخباري بتلك العلامة*.

أدارت چيسيكا رأسها، وحدَّقت أسفل الحوض إلى الظلال الذهبية، إلى الظلال الأرجوانية، إلى تموُّجات الهواء المحمَّل بذرَّات الغبار عند حافَّة كهفهم. ملأ عقلها فجأة حذر شبيه بحذر القطط. كانت تعلم أساليب المُبشِّرات الحاميات في الخداع والتظاهر بالتقوى، وتعرف طرائق تطويع كلمات الأساطير والمخاوف والآمال لخدمة لاحتياجاتها الطارئة، لكنها استشعرت

حدوث تغييرات جسيمة هنا، كأن شخصًا أتى وعاش وسط هؤلاء الفرمِن واستغلَّ البصمة التي تركتها المُبشِّرات الحاميات عليهم.

تتحنح ستيلجار.

استشعرت نفاد صبره، عالمةً أن النهار يمرُّ وأن الرجال ينتظرون لإحكام غلق هذه الفتحة. هذه اللحظة تتطلَّب منها جرأة، وأدركت چيسيكا ما تحتاج إليه: شيء من علوم دار الحكمان*، مدرسة الترجمة الفكرية التي قد تمنحها الـ...

فجأة همست لنفسها: «أدب*».

شعرت چيسيكا كما لو أن عقلها انقلب في رأسها، فاستكانت للشعور مع تسارُع نبضها. لم تمنحها كل تدريبات البِني چيسيرِت التي تلقَّتها مثل هذا الشعور بالإذعان. لا شك في أن ما شعرت به هو الأدب، تلك الذكرى المُلحَّة التي تفرض نفسها على الشخص رغمًا عنه. أسلمت نفسها لها راضيةً، سامحةً للكلمات بأن تتدفَّق منها.

قالت: «بِن قِرطَيبا، أو هكذا تقول الكلمات المقدَّسة: عند حافَّة الأرض حيث ينتهي عندها الغبار...»، ثم أخرجت ذراعها من أسفل ثوبها، فرأت عيني ستيلجار تتَّسعان ذهولًا، وسمعت حفيف ثياب كثيرة في الخلفية. تابعت مرتِّلةً: «... أرى فرمِنيًا يحمل بين يديه كتاب الأمثال، ويقرأ على اللات، الشمس التي تحدَّاها وأخضعها. يقرأ على السَّادة، القضاة السماويين، قائلًا:

«أعدائي كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية
حَاوَلَت الوقوف في طريق عاصفة.
ألم تر ماذا فعل ربنا بهم؟
إذا أرسل عليهم وباءً لا يذر
جزاءً لما كانوا يتآمرون ضدَّنا.

تشتَّت شملهم كطيورٍ روَّعها الصيَّاد
وارتد مكرهم في نحورهم
وصارت مكائدهم فُتاتًا مسمومًا
تلفظه كل الأفواه».

سرت رعدة في جسدها، فخفضت ذراعها.

من عمق الكهف الظليل، أجابتها أصواتٌ هامسة كثيرة: «أولئك حُبِطت أعمالهم».

قالت: «نار الرب تطَّلع على أفئدتكم». وفكَّرت: *الآن صرنا على المسار الصحيح.*

جاء الرد: «نار الرب مُوقدة».

أومأت، ثم قالت: «أعداؤكم سيسقطون».

أجابوها: «بِلا كيف!*».

في الصَّمت المفاجئ الذي تلا ذلك، انحنى ستيلجار لها قائلًا: «أيَّتها السَيَّادينا، بمشيئة شَيْ هولود وعونها، ستنجحين في اجتياز الرحلة الداخلية وتصبحين أُمًّا موقَّرة».

فكَّرت چيسيكا: *اجتياز الرحلة الداخلية! تعبير غريب لوصف الأمر. لكن باقي كلامه يتواءم بالقدر الكافي مع ما تلوته عليهم من خداع.* ثم شعرت بمرارة ساخرة لما فعلته. *نادرًا ما تخفق مبشِّراتنا الحاميات. لقد هيَّئن لنا ملاذًا في هذا القفر. الدعاء والصلاة* شيَّدا لنا مخبأً آمنًا هنا، والآن، عليَّ ان اتقمَّص دور عُليًّا، حظيَّة الرب، وان أكون السَيَّادينا لقوم مارقين تأثَّروا بما تبثُّه البِني چيسيرِت من خرافات إلى درجة أنهم صاروا يطلقون على كبيرة كاهناتهم لقب الأُمّ الموقَّرة.*

وقف پول إلى جوار تشاني في ظلال الكهفة العميقة، لا يزال في فمه مذاق الطعام الذي أعطته له: لحم الطير والحبوب المغموسة في عسل الاسپايس المغلَّفة بورقة. بتذوُّقه، أدرك أنه لم يسبق له تناول هذا الكمِّ المركَّز من مادة الاسپايس، واعتراه خوفٌ لذلك. كان يعلم ما ستفعله به تلك المادة: يعلم التأثير الذي سيحدثه الاسپايس بعقله وكيف سيدفعه إلى حالة الوعي الاستبصاري السابقة.

همست تشاني: «بِلا كيف».

نظر إليها، ولاحظ الرهبة والخشوع اللذين تلقَّى بهما الفرمِن كلمات أُمِّه. وحده ذلك المدعو چيميس بدا كأنه يقف بمعزل عن الحفل، نائيًا بنفسه على المشاركة، عاقدًا ذراعيه على صدره.

همست تشاني: «دوي ياخا هين مينج، دوي بورنا هين مينج. لديَّ عينان، لديَّ قدمان».

وحدَّقت إلى پول بنظرة تعجُّب.

أخذ پول نفسًا عميقًا، محاولًا تهدئة العاصفة المضطربة داخله. اندمجت كلمات أُمِّه مع ما تفعله مادَّة الاسپايس داخله، وشعر بصوتها يرتفع ويهبط في روحه كظلال نارٍ مُوقدة. طوال كلامها، استشعر السخرية في صوتها، فهو يعرفها تمام المعرفة، لكن لا شيء الآن يمكن أن يوقف الشيء الذي بدأ بلقمة طعام سائغة.

الغاية الرهيبة!

استشعر پول الشيء مجدَّدًا، الوعي الجمعي للجنس البشري الذي لا يستطيع الهروب منه. أتاه الوضوح الحاد، وغمره تدفُّق البيانات، ولفَّته برودة إدراكه العاتي. جلس أرضًا، مرتكزًا بظهره

على صخرة، مستسلمًا للشعور. انساب وعيه عبر هذا الطور غير المحدود بزمانٍ أو مكان، حيث استطاع رؤية الزمن ككتابٍ مفتوح، واستثمار المسارات المتاحة، والتعرُّض لرياح المستقبل، ورياح الماضي. ومن ثمَّ اندمجت الرؤية الأحادية للماضي، والرؤية الأحادية للحاضر، والرؤية الأحادية للمستقبل، في رؤية ثلاثية أتاحت له مراقبة الزمان وهو يتحوَّل إلى مكان.

شعر بخطورة إيذاء نفسه، فاضطر إلى التشبُّث بوعيه بالحاضر، شاعرًا بانحراف التجربة عن مسارها، وباللحظة المتدفِّقة، وبالتحوُّل المستمر لما هو حاضر إلى ماضٍ تام سرمدي.

بتشبُّثه بالحاضر، شعر پول للمرَّة الأولى بأن الثبات الهائل لحركة الزمن في كل مكان يتعقَّد ويتقلقل بسبب ما يطرأ من تيَّاراتٍ متقلِّبة وأمواج وعواصف وعواصف مضادَّة، كما ترتطم الأمواج بجرفٍ صخري. أعطاه هذا الشعور فهمًا جديدًا لقدراته الاستبصارية، واستطاع أن يرى مصدر تلك المنطقة الزمنية العمياء، وموطن الخلل فيها، فاجتاحه إحساسٌ فوري بالخوف.

أدرك پول أن بصيرته أشبه بعمود إنارة كاشف تحكمه القيود والمحدِّدات نفسها التي تحكم ما ينيره: إنها مصدر الدقة ومُعامل الخطأ في الوقت نفسه، يشوبها شيءٌ يشبه مبدأ عدم اليقين لهايزنبرج: الطاقة التي تكشف له ما يراه، تغيِّر ما يراه.

وما رآه في هذا الكهف كان محورًا زمنيًا، مفترقًا تغلي فيه احتمالات كثيرة، حيث يمكن لأبسط الأفعال -كغمزة عينٍ، أو كلمة طائشة، أو حبَّة رملٍ في غير مكانها- أن تغيِّر مجريات الأحداث في الكون المعروف. رأى أن حصيلة العنف القادم

تخضع لمتغيرات كثيرة، وأن أقل حركة يمكن أن تُحدث تغييرات هائلة في نمط مجريات الأمور.

جعله هول الرؤيا يرغب في أن يثبُت في حالة جمود، ولكن هذا فعلٌ في حدٍّ ذاته، وسيكون له تبعاته.

تشعَّبت العواقب خارجة من هذا الكهف في تفرُّعات لا حصر لها، ورأى على امتداد أغلب هذه المسارات جُثَّته، يتدفَّق الدم من طعنة سكِّين نافذة فيها.

كان أبي، الإمبراطور الپاديشاه، في الثانية والسبعين من عمره، ومع ذلك يبدو كمن لا يزيد على 35 عامًا في السَّنة التي علم فيها بوفاة الدوق ليتو وأعاد أرَّاكس إلى قبضة الهراكنة. نادرًا ما ظهر أبي أمام الناس وهو يرتدي زيًّا آخر غير زيِّ السَّاردوكار وخوذة البورسيج السوداء التي يزيِّنها شعار الأسد الإمبراطوري الذهبي. كان الزيُّ تذكيرًا صريحًا بمكمن قوَّته، لكن أبي لم يكن بهذه الصراحة الفجَّة في كل الأوقات. فحين يريد، كان يشع بالسحر والإخلاص. لكنني كثيرًا ما أتساءل في الآونة الأخيرة إن كان سلوكه وقتها يظهر ما يبطن بالفعل. أعتقد الآن أنه كان رجلًا يكافح باستمرار للهروب من قضبان قفص غير مرئي. يجب أن تتذكَّر أنه كان إمبراطورًا، وأبًا رئيسًا لسلالة حاكمة تعود إلى عصور سحيقة موغلة في القدم. لكننا حرمناه من ابنٍ شرعي. أليست هذه بأنكر هزيمة يمكن إلحاقها بحاكم على الإطلاق؟ لقد أطاعت أُمِّي مشرفاتها الموقَّرات، فيما عصت الليدي چيسيكا أمرهن. تُرى أيتهما كانت الأقوى؟ التاريخ قد أجاب بالفعل.

من كتاب «في بيت أبي» للأميرة إيرولان.

استيقظت چيسيكا في ظلام الكهف، شاعرةً بحركة الفرمِن من حولها، وشمَّت الرائحة اللاذعة المنبعثة من بذلات التقطير. أخبرها شعورها بالوقت بأن الليل سيحل قريبًا في الخارج، لكن

الكهف كان لا يزال غارقًا في الظلام، ومحميًا من جفاف الصَّحراء بأغطية بلاستيكية تحبس رطوبة أجسامهم داخل هذا الحيِّز.

أدركت أنها نامت نومًا عميقًا بسبب إرهاقها الشديد، وكان في هذا دليلٌ على ثقتها اللا واعية بأمنها الشخصي واطمئنانها على نفسها وسط جماعة ستيلجار. اعتدلت في الفراش المعلَّق المصنوع من ردائها، وأنزلت قدميها على الأرضية الصخرية، ثم دسَّتهما في فردتي بيادة الصَّحراء.

وفكَّرت: *عليَّ أن أتذكَّر ربط لسان البيادة المنزلق بالطريقة التي تساعد عملية الضخ في البذلة. عليَّ ان أتذكَّر الكثير من الأمور.*

كان مذاق الوجبة الصباحية التي تناولتها ما زال في فمها: مضغة لحم الطير بالحبوب المغموسة في عسل الاسپايس المغلَّفة بورقة، فتبيَّن لها أن حال اليوم مقلوبٌ هنا: الليل معاشًا والنهار لباسًا.

الليل ستَّار، الليل آمن.

فكَّت رداءها من أوتاد الفراش المُعلَّق المدقوقة في الكوَّة الصخرية، وتحسَّست القماش في الظلام حتَّى وجدت فتحة الرأس، وارتدته.

وتساءلت: *كيف عساي أن ابعث رسالة إلى أخوات البِني چيسيرِت؟* كان لا بُدَّ من إخبارهن بوضعيهما، عن وضع الشاردين في الملاذ الأرَّاكسي.

كانت كرات الإنارة مُضاءة في أرجاء الكهف العميقة. رأت چيسيكا أشخاصًا يتحرَّكون هناك، من ضمنهم پول الذي كان قد ارتدى ثيابه بالفعل وألقى قلنسوته على ظهره كاشفًا عن ملامحه الآتريديزية النسرية.

تذكَّرت چيسيكا كيف تصرَّف بغرابة قبل إخلادهم إلى النوم كأنه انجذب. بدا كأنه شخصٌ عاد من الموت لم يدرك حقيقة عودته بعد. كانت عيناه نصف مغمضتين، فيهما نظرة واجمة كابية، جعلتها تفكِّر في تحذيراته من إدمان الطعام المُشبَّع بالاسپايس.

وتساءلت: *هل له آثارٌ جانبية؟ لقد قال إن له علاقة ما بقدراته الاستبصارية، لكنه يلتزم صمتًا مريبًا حيال ما يراه.*

خرج ستيلجار من بين الظلال إلى يمينها، متَّجهًا إلى المجموعة الواقفة تحت كرات الإنارة. لاحظت الطريقة التي يمرِّر بها أصابعه في لحيته، ونظرة القطط المتربِّصة في عينيه.

سرى خوفٌ مفاجئ في أوصال چيسيكا عندما تنبَّهت إلى التوتُّر البادي على مجموعة الأفراد المجتمِّعين حول پول: حركاتهم القلقة، ووضعيَّات وقوفهم الطقسية.

قال ستيلجار هادرًا: «إنهما تحت حمايتي!».

ميَّزت چيسيكا الرجل الذي يواجهه ستيلجار: إنه چيميس! ثم لاحظت الغضب البادي على چيميس، وتشنُّج عضلات كتفيه.

وفكَّرت: *هذا چيميس، الرجل الذي صرعه پول!*

قال چيميس: «أنت تعرف القانون يا ستيلجار».

قال ستيلجار: «ومن يعرفه أفضل منِّي؟»، وسمعت چيسيكا في صوته نبرة الاسترضاء ومحاولته لتلطيف الأجواء.

زمجر چيميس: «أختار النزال».

اندفعت چيسيكا مسرعةً عبر الكهف، وأمسكت ذراع ستيلجار، وسألته: «ما الأمر؟».

قال ستيلجار: «قانون الأمتال. يطالب چيميس بحقِّه في اختبار صحَّة الأسطورة وانطباقها عليكما».

قال چيميس: «عليها أن تختار نصيرًا يقاتل بالنيابة عنها، وإن فاز نصيرها، إذًا فهو الحق. لكن الأسطورة تقول...»، توقَّف لحظة ورمى الجمع المحتشد بنظرة، ثم أردف: «... إنها لن تحتاج إلى نصيرٍ من الفرمِن، وهذا يعني أنها ستجلب نصيرها معها».

فكَّرت چيسيكا: *إنه يتحدَّث عن نزالٍ فردي مع پول!*

ثم أفلتت ذراع ستيلجار، وتقدَّمت خطوة، وقالت: «أنا نصيرة نفسي، والمعنى بسيط بما يكفي لـ...».

قاطعها چيميس: «لن تُعلِّمينا عاداتنا! ليس قبل أن تقدِّمي دليلًا أكبر ممَّا رأيت. رُبَّما أخبرك ستيلجار صباح أمس بما يجب أن تقوليه، رُبَّما ملأ عقلك بمعسول الكلام ولقَّنك ما ردَّدتِه علينا من بعده كالببغاء، أملًا منك في اختراق صفوفنا بالباطل».

فكَّرت چيسيكا: *بإمكاني التغلُّب عليه، لكن هذا قد يتعارض مع تفسيرهم للأسطورة*. ودهشت مجدَّدًا من الطريقة التي حُرِّف بها عمل المُبشِّرات الحاميات على هذا الكوكب.

نظر ستيلجار إلى چيسيكا، وتكلَّم بصوتٍ خفيض، ولكن بنبرة قصد لها أن تصل إلى أطراف الحشد: «چيميس من النوع الذي يحمل ضغينة يا سيِّادينا، ابنك تغلَّب عليه و...».

قاطعه چيميس هادرًا: «كانت مجرَّد حادثة! كما مارست الساحرة سحرها في حوض تيونو، وسأثبت هذا الآن!».

أكمل ستيلجار: «... أنا نفسي تغلَّبت على چيميس، وهو يسعى بهذا التحدِّي* رد الضربة لي كذلك. في نفس چيميس عُنفٌ كامن يمنعه من أن يكون قائدًا جيِّدًا، إنه في غفلةٍ* من أمره. يقول بلسانه ما ليس في قلبه. لسانه يلهجُ بالقوانين، لكن في قلبه صرفة*. كلَّا، لن يكون قائدًا جيِّدًا أبدًا، ولم أبق عليه هذه

المدَّة الطويلة إلَّا لأنه مفيدٌ في قتال، ولكن حين يتملَّك منه هذا الغضب المسعور، يصبح خطرًا على مجتمعه».

هدر چيميس في غيظ: «ستيلجاررر!».

فهمت چيسيكا ما كان ستيلجار يفعله، إنه يحاول إثارة غضبة چيميس، لإبعاد التحدِّي عن پول.

وقف ستيلجار في مواجهة چيميس، ومن جديد سمعت چيسيكا نبرة التهدئة في صوته المدمدم: «چيميس، إنه صبيٌّ بعد، وهو...».

قاطعه چيميس: «لقد وصفته بالرجل، وأُمُّه تقول إنه اجتاز محنة الجوم چبار. جسده مكتنز لحمًا ومتخم بالمياه. الرجل الذي حمل حقيبتهما قال إن جرَّتيهما اللتريَّتين ما زال فيهما ماء، متخيِّل! ونحن نرتشف ما في جيوب التجميع من أوَّل قطرة».

ألقى ستيلجار نظرة إلى چيسيكا وسأل: «هل هذا صحيح؟ أفي حقيبتكما ماء؟».

- «أجل».

- «ماء كثير؟».

- «جرَّتان لتريَّتان».

- «وماذا كنتما تنتويان فعله بهذه الثروة؟».

فكَّرت چيسيكا: ثروة؟ وهزَّت رأسها، شاعرةً ببرودة صوته.

قالت: «حيث وُلِدت، تنهمر المياه من السماء وتجري فوق الأرض في أنهارٍ واسعة. في موطننا محيطات واسعة لا يرى المرء شاطئها الآخر. لم أتدرَّب على انضباط الماء مثلكم، فلم يسبق لي أن اضطُرِرت إلى التفكير في الأمر بهذه الطريقة».

صدرت شهقة جماعية من المحيطين بهما:

«ماءٌ ينهمر من السماء... ويجري على الأرض».

- «هل تعلمين أن بيننا من فقدوا بعض الماء عن طريق الخطأ من جيوب التجميع الخاصة بهم، وأن هؤلاء سيكونون في مأزق قبل أن نصل إلى تابر هذه الليلة؟».

هزَّت چيسيكا رأسها قائلة: «وكيف لي أن أعرف؟ إن كانوا في حاجةٍ إلى الماء الذي في حقيبتنا، أعطوهم منه».

- «أهذا هو مُرادك من هذه الثروة؟».

- «مُرادي إنقاذ الأرواح».

- «إذًا سنقبل بركتك يا سَيِّادينا».

قال چيميس مزمجرًا: «لن تشترينا بهذا الماء، كما لن تنجح في تحريضي ضدك ستيلجار. أرى كيف تحاول استفزازي كي أدعوك للنزال قبل أن أثبت كلامي».

واجه ستيلجار چيميس وقال: «هل أنت مصمِّم على نزال هذا الطفل يا چيميس؟». كان صوته خفيضًا، وسامًا.

- «يجب أن تختار لها نصيرًا».

- «حتَّى وهي في حمايتي؟».

قال چيميس: «أطالب بقانون الأمثال. هذا حقِّي».

أومأ ستيلجار: «حسنًا، اعلم إذًا أنه إن لم يقتلك الصبيُّ، فستواجه سكِّيني بعدها. وهذه المرَّة لن أكبح نصلي كما فعلت من قبل».

قالت چيسيكا: «لا يمكنك السماح بذلك. پول مجرَّد ...».

قال ستيلجار: «لا تتدخَّلي يا سَيِّادينا. أعرف أن بإمكانك التغلُّب عليَّ، وبالتالي، التغلُّب على أيِّ شخص بيننا، لكنك لن تتمكَّني من التغلُّب علينا جميعًا. لا مناص من هذا، إنه قانون الأمثال».

صمتت چيسيكا في عجزٍ، محدِّقةً إليه في إضاءة كرات الإنارة الخضراء، ولاحظت الصرامة الشيطانية التي سيطرت على تعابير وجهه. ثم نقلت انتباهها إلى چيميس، فرأت سيماء الحقد والبغضاء في حاجبيه، وفكَّرت:

كان عليَّ أن ألاحظ ذلك من قبل. إنه من النوع الصَّامت الذي يضمر في قلبه، ويأكل الحقد هدأة نفسه. كان يجب أن أكون مستعدَّةً.

قالت: «إذا أذيت ابني، ستواجهني بعدها. أنا أتحدَّاك للنزال الآن. سأقطِّعك إربًا حتَّى تصير...».

- «أُمَّاه»، قالها پول وتقدَّم إلى الأمام، لامسًا كُمَّ ثوبها: «رُبَّما لو شرحت لچيميس كيف...».

قال چيميس في سخرية: «شرحت!».

صمت پول محدِّقًا إلى الرجل. لم يكن يخشاه، فقد كانت حركات چيميس تبدو خرقاء، وقد صرعه بسهولة تامَّة في مواجهتهما الليلية في الصَّحراء. لكن پول كان لا يزال يشعر بمحور الاحتمالات الذي يغلي في هذا الكهف، لا يزال يتذكَّر رؤاه الاستبصارية ورؤيته نفسه متشحِّطًا في دمائه بطعنة سكِّين. في تلك الرؤيا، كانت احتمالات نجاته من هذا المصير ضئيلةً جدًّا.

قال ستيلجار: «سَيَّادينا، يجب أن تتراجعي الآن إلى...».

قال چيميس: «كُفَّ عن مناداتها بلقب سَيَّادينا! فهذا لم يُثبت بعد. لا تقل إنها تعرف آيات الصلاة، فما الأمر الجلل في ذلك؟ كل طفل بيننا يعرفها».

فكَّرت چيسيكا: *ها قد تحدَّث بما يكفي كي أملك مفتاحه. بإمكاني الآن شلّ حركته بكلمة واحدة.* ثم تردَّدت. *لكنني لن*

أستطيع إيقافهم جميعًا.

قالت چيسيكا بنبرة متهدِّجة بها بعض الأنين وتنتهي برعشة: «ستقاتلني بعدها».

حدَّق چيميس إليها واجمًا، والجزع بادٍ في ملامحه.

قالت چيسيكا بذات النبرة: «سأذيقك غلواء العذاب وألوانه، تذكَّر هذا وأنت تقاتل. ستشعر من الألم ما يجعل الجوم چَبار لهوَ أطفالٍ بالمقارنة. ستتلوَّى طوال...».

شهق چيميس: «إنها تحاول سحري بتعويذة!»، ثم وضع قبضته اليمنى إلى جوار أُذُنه، وقال: «أطالب بإلزامها الصَّمت!».

قال ستيلجار: «ليكن هذا»، ثم رمق چيسيكا بنظرةٍ محذِّرةٍ وأردف: «إذا تفوَّهتِ بشيءٍ مجدَّدًا يا سَيَّادينا، سنتيقَّن من أنك تستعملين السحر، وستكونين أنتِ الخاسرة»، وأشار إليها برأسه كي تتراجع.

شعرت چيسيكا بأيدٍ تجذبها إلى الخلف وتساعدها على التراجع، ولم تشعر فيها بقسوة. رأت الحشد ينفصل عن پول، وتشاني ذات الوجه الملائكي الأخَّاذ تهمس بشيءٍ في أُذُنه وهي تشير برأسها نحو چيميس.

تشكَّلت حلقة من أفراد الفصيلة، وجُلبت كرات إنارة أخرى، وحوَّلوا ضوءها جميعًا إلى الأصفر.

خطا چيميس إلى داخل الحلقة، وخلع عنه ثوبه وألقاه إلى أحد الأشخاص في الحشد، ووقف في بذلة تقطير رمادية ملساء مرقَّعة ملأى بالطيَّات والثنيات. حنى رأسه مُقرِّبًا فمه من كتفه، وشرب من أنبوب الماء، ثم شدَّ قامته، ونزع البذلة عن جسده، وسلَّمها بعناية إلى الحشد. وقف منتظرًا، لا يرتدي إلَّا

مئزرًا وشريطين قماشيين ملفوفين بإحكام حول قدميه، والسكِّين العاجية تلتمع في يده اليمنى.

رأت چيسيكا تشاني، الفتاة الطفلة، تساعد پول، وتدسُّ مقبض سكِّين عاجية في يده، ورأته يقلِّبها في يده، مختبرًا اتزانها ووزنها. ثم تذكَّرت أن پول تدرَّب على فنون الپرانا والبيندو، الأعصاب والأنسجة العضلية، وأنه تعلَّم القتال في مدرسةٍ ضروس على يد رجالٍ مثل دانكن آيداهو وجيرني هاليك، أساطير حيَّة خالدة الذكر. كما أن الفتى على دراية بأساليب البِني چيسيرِت الماكرة، ويبدو مرنًا وواثقًا بنفسه.

ثم فكَّرت: *لكنه لم يتمَّ الخامسة عشرة، ولا يملك درعًا. يجب أن أوقف هذا بطريقةٍ ما. لا بُدَّ من طريقة كي*... ثم رفعت عينيها، ووجدت ستيلجار يراقبها.

قال لها: «ليس بإمكانك إيقاف الأمر. إيَّاكِ والتحدُّث».

وضعت چيسيكا يدها على فمها، وفكَّرت: *لقد زرعت الخوف في عقل چيميس. رُبَّما سيبطئه هذا قليلًا. آهٍ لو كان بإمكاني الدعاء، الدعاء بحق.*

وقف پول على حدود الحلبة، في سراويل القتال القصيرة التي يرتديها تحت بذلة التقطير، حافي القدمين فوق الصخور المغطَّاة برمالٍ خشنة، ممسكًا بالسكِّين العاجية في يده اليمنى. كان آيداهو قد نصحه مرارًا: «*عندما تكون في شكٍّ من أمر السطح الذي تقف عليه، فخيارك الأفضل الحفاء*». كما راحت تعليمات تشاني ترنُّ في عقله: «*ينعطف چيميس بسكِّينه يمينًا بعد كل مراوغة، إنها عادة فيه شاهدناها جميعًا. سيستهدف عينيك بضرباتٍ خاطفة، مستغلًّا لحظة إغماضك لهما كي يجرحك. إنه*

يقاتل بكلتا يديه، فاحترس من تبديله للسكّين من يدٍ لأخرى».

أمَّا أكثر ما استحوذ على پول في تلك اللحظة كان آليات الدفاع الغريزية، والتدريب الذي غُرز فيه يومًا بعد يوم، وساعةً بعد ساعة، على أرضية حجرة التدريب.

تردَّدت كلمات جيرني هاليك في رأسه: «*المقاتل الجيِّد هو الذي يفكِّر في سنّ السكّين ونصله وواقي اليد في الوقت ذاته: فبجانب الطعن، يمكن للسنّ أن يقطع. وبجانب القطع، يمكن للنصل أن يطعن. وبجانب الصَّدّ، يمكن للواقي احتجاز نصل خصمك*».

ألقى پول نظرة إلى سكّينه العاجية. لم يكن بها واقي، بل مجرَّد حلقة دائرية رفيعة حوافها بارزة قليلًا لحماية اليد. وحتَّى مع ذلك، لم يكن پول يعرف معامل صلابة هذا النصل ضدّ الكسر، بل لا يعرف إن كان من الممكن كسره من الأساس.

بدأ چيميس يتحرَّك إلى اليمين بمحاذاة حافة الحلقة المقابلة لپول.

ربض پول، مدركًا أنه لا يرتدي درعًا، وأنه تدرَّب على القتال محاطًا بمجال طاقة الدرع خفي. تدرَّب على أن تكون حركاته الدفاعية سريعة جدًّا، وعلى أن يكون هجومه بطيئًا ومضبوط التوقيت تمامًا بحيث يخترق مجال درع الخصم. وعلى الرغم من تحذير معلّميه المستمرّ بعدم الاعتماد على صدّ الدرع التلقائي للضربات الهجومية السريعة، كان يعلم أن إحساسه بوجود الدرع لهو طبيعة ثانية له.

صاح چيميس بعبارة التحدّي الطقسية: «عسى أن تنكسر سكّينك وتتهشَّم!».

ففكَّر پول: *السكّين قابلة للكسر إذًا.*

ثم ذكّر نفسه بأن چيميس أيضًا لا يرتدي درعًا، لكن الرجل لم يتعوَّد استخدامه، وبالتالي لا تعيقه القيود التي تكبّل حركة المقاتلين المدرَّعين.

حدَّق پول إلى چيميس عبر الحلقة. كان جسده مشدودًا كحبلٍ مجدول على هيكلٍ عظميٍّ يابس، ونصل سكّينه العاجية يلتمع بلونٍ أصفر حليبي في ضوء كرات الإنارة. سرى الخوف في أوصال پول. شعر فجأة تحت الضوء الأصفر الباهت بأنه وحيدٌ وعارٍ داخل هذه الحلقة البشرية. لقد غذّته رؤاه الاستبصارية بخبرات لا حصر لها، وأعطته لمحات عن أقوى تيّارات المستقبل، وتسلسل القرارات الذي سيقود إليها. لكن ما يحدث الآن واقع، حاضر مجسَّد، والموت فيه معلّق بعددٍ لا حصر له من الأخطاء الصغيرة.

أدرك پول أن أيَّ فعلٍ هنا مهما صغر قد يغيِّر كفَّة المستقبل. سعال أحد المراقبين قد يشتِّت انتباهه. تغيُّر طفيف في إضاءة إحدى كرات الإنارة قد يلقي بظلٍّ خادع. اعترف پول لنفسه: *أنا خائف.*

حام پول بحذر في مواجهة چيميس، وهو يتلو في سرِّه تعويذة البِني چيسيرِت لدرء الخوف: «الخوف قاتل...»، ولمَّا انتهى شعر ببردٍ يغسله من الداخل، وأحسَّ بعضلاته تتحرَّر من تشنُّجها، وتصير متَّزنة ومستعدَّة.

زمجر چيميس: «سأغمس سكّيني في دمائك»، وانقضّ قبل أن ينهي كلمته الأخيرة.

رأت چيسيكا غدره، فكتمت صيحة كادت تفلت منها.

طعن الرجل الهواء الفارغ حيث وجّه ضربته، أمّا پول فراوغ وصار خلف چيميس، وسنحت أمامه فرصة لتوجيه ضربته إلى ظهره المكشوف.

صرخت چيسيكا في عقلها: *الآن يا پول! الآن!*

كانت حركة پول انسيابية ومضبوطة بدقّة متمهّلة، لكن بطأها منح چيميس فرصة ليتلوّى مراوغًا، ويتراجع في التفافةٍ نحو اليمين.

تقهقر پول وربض أرضًا قائلًا: «عليك أوّلًا أن تدرك دمائي».

لاحظت چيسيكا أسلوب ابنها القتالي الموقوت المعتمد على الدروع، وأدركت أنه سلاح ذو حدّين. كانت استجابات الصبيّ الدفاعية رشيقة، شحذها التدريب إلى ذروة لم يرها هؤلاء القوم من قبل. لكن التدريب كان قد أصقل أسلوبه الهجومي كذلك، وهيّأه وفقًا لمقتضيات اختراق مجال دروع الطاقة، التي تصدُّ الضربات السريعة، ولا تسمح إلّا بمرور الهجمة الماكرة البطيئة. لذا يتطلّب اختراق مجال درع الطاقة تحكّمًا ومهارةً ومكرًا من المهاجم.

سألت چيسيكا نفسها: *ينبغي لپول أن يعني هذا!*

هجم چيميس مرّة أخرى، وعيناه تتّقدان بلون الحبر، وجسده شبحيٌّ أصفر تحت كرات الإنارة من فرط السرعة.

انسل پول مراوغًا مجدّدًا، وعاد بهجومٍ شديد البطء.

وتكرّر الأمر مرّةً أخرى.

وأخرى.

في كل مرّة، كانت ضربة پول المضادة تأتي متأخّرةً بثانية، ولاحظت چيسيكا شيئًا تمنّت ألّا يلاحظه چيميس. كانت ردود أفعال پول الدفاعية سريعة جدًا، لكنه في كل مرّة يقصد ذات الزاوية الدقيقة التي كان سيقصدها إن كان الدرع يساعد في صدّ جزءٍ من ضربة چيميس.

سأل ستيلجار: «هل يتلاعب ابنك بهذا المسكين الأبله؟»، ثم أشار إليها أن تصمت قبل أن تتمكَّن من الرد. «معذرة، عليك أن تلتزمي الصَّمت».

الآن، راح كلٌّ منهما يحوم حول الآخر فوق الأرض الصخرية: چيميس مشهرًا سكِّينه ومميِّلًا نصلها إلى أعلى قليلًا، وپول رابضًا وسكِّينه منخفضة في يده.

وثب چيميس مجدَّدًا، وهذه المرة انحرف بجذعه إلى اليمين، صوب البقعة التي كان پول يراوغ إليها.

لكن بدلاً من أن يتظاهر بالتراجع والابتعاد، صدَّ پول يد الرجل الممسكة بالسكِّين بطرف نصله. ثم اختفى، وانحرف مراوغًا إلى اليسار، شاعرًا بالامتنان لتحذير تشاني.

تراجع چيميس إلى مركز الدائرة، وراح يمسِّد يده الممسكة بالسكِّين. سالت بعض قطرات الدم من الجرح للحظات، ثم توقَّفت. صارت عينا چيميس فجوتين سوداوين زرقاوين من اتِّساعهما، وراحت تحملقان إلى پول بحذر جديد في ضوء الكرات المضيئة الباهت.

غمغم ستيلجار: «هذا مؤلم».

ربض پول في وضع التأهُّب، وصاح كما تعلَّم أن يفعل بعد أن يجرح خصمه ويسيِّل أولى قطرات دمائه: «هل تنسحب؟».

صرخ چيميس: «هاه!».

تعالت همهمة غاضبة من الحشد.

صاح ستيلجار: «سكوت! الفتى لا يعرف القانون»، ثم وجَّه حديثه إلى پول: «لا انسحاب في نزال التحدي. إنه قتالٌ حتَّى الموت».

رأت چيسيكا پول يبتلع ريقه بصعوبة، وفكَّرت: *لم يسبق له أن قتل رجلًا بهذه الطريقة، بإراقة دمائه الحارَّة في عراكٍ بالسكِّين. أيمكنه فعلها؟*

دار پول ببطء إلى اليمين، مدفوعًا بحركة چيميس.

عادت معرفته الاستبصارية بالمتغيِّرات الزمنية التي تغلي في هذا الكهف تؤرِّقه. أخبره إدراكه الجديد أن في هذا النزال قرارات سريعة كثيرة مضغوطة، وهو الأمر الذي يصعِّب من رؤية أيِّ مسارٍ واضح أمامه.

تتراكم المتغيِّرات بعضها فوق بعض هنا، هذا هو السبب في أنه يرى هذا الكهف كمحور ضبابي في طريقه. إنه أشبه بصخرة عملاقة في طريق فيضان تخلق دوَّاماتٍ تلو الأخرى في التيَّار من حولها.

غمغم ستيلجار: «انته من الأمر يا فتى. لا تتلاعب به».

انسلَّ پول بخفَّة إلى مركز الحلبة، معتمدًا على تفوُّقه في السرعة.

تراجع چيميس بعد أن اجتاحه إدراكٌ قوي أن خصمه في حلبة التحدِّي ليس مجرَّد أجنبيٍّ رخو، أو فريسة سهلة لسكِّين الفرمن العاجية.

لاحظت چيسيكا ظلَّ اليأس يخيِّم على وجه الرجل، وفكَّرت: *الآن هو في أخطر حالته. إنه يائس ويمكنه فعل أيِّ شيء. لقد أدرك أن خصمه ليس مثل صبية قومه، بل آلة مقاتلة وُلدت وتدرَّبت على القتال منذ الصغر. الآن سيزدهر برعم الخوف الذي زرعته في نفسه.*

شعرت في نفسها بشيء من الشفقة على چيميس، لكن تلك الشفقة خفتت مع إدراكها بالخطر المباشر المحيق بابنها.

أخبرت نفسها: *بإمكان چيميس فعل أيّ شيء. أيّ شيءٍ غير متوقَّع*، وتساءلت بعدها إن كان پول قد لمح هذا المستقبل في رؤاه، إن كان يعيش تجربة اختبرها سابقًا. لكنها لاحظت الطريقة التي يتحرَّك بها ابنها، وحبَّات العرق المتفصِّدة من جبينه وكتفيه، والحذر الشديد البادي في عضلاته المتحفِّزة. وللمرة الأولى لمست عامل عدم اليقين المتجِّذر في موهبة پول التي لا تفهم كنهها بعد.

أخذ پول زمام القتال الآن، وراح يحوم حول چيميس دون أن يهاجم. كان يشمُّ رائحة الخوف المسيطر على غريمه، وفي ذهنه تردَّدت كلمات دانكن آيداهو: «*حين تجد خصمك يخشاك، اترك زمامَ الأمر في يد الخوف، وامنحه وقتًا لينمو في صدره. دع الخوف يتحوَّل إلى ذعر، فالمذعور يحارب نفسه. وفي النهاية سيهاجم في لحظة يأس. هذه أخطر لحظة، لكن المقاتل المذعور عادةً ما يرتكب خطأً قاتلًا، وأنت تُدرَّب هنا على اكتشاف تلك الأخطاء واستغلالها لصالحك*».

بدأ الحشد في الكهف يتمتم.

فكَّرت چيسيكا: *يظنون ان پول يتلاعب بچيميس، يعتقدون انه يتصرَّف بقسوة لا داعي لها*.

لكنها شعرت أيضًا بالحماسة المستترة المسيطرة على الحشد، وتمتُّعهم بالمشهد، كما رأت الخوف الضاغط المتنامي داخل چيميس، وحين أتت اللحظة التي فاق فيها الضغط احتماله، رأتها چيسيكا واضحةً، كما كانت واضحةً لچيميس ولپول.

وثب چيميس عاليًا مسددًا ضربةً بيُمناه، لكن يده كانت فارغة، إذ انتقلت السكّين العاجية إلى يُسراه في حيلة ماكرة.

شهقت چيسيكا في جزع

لكن تشاني كانت قد حذَّرت پول: «*چيميس يقاتل بكلتا يديه*»، وقد استوعب عقل پول هذه الحيلة سريعًا بفضل التدريب المتعمِّق الذي تلقّاه، فلطالما كرَّر جيرني هاليك على مسمعيه: «*ركِّز انتباهك على السكّين، لا على اليد الممسكة بها. السكّين أخطر من اليد، ويمكن أن تنتقل إلى أيٍّ من اليدين*».

كما أن پول رأى الخطأ الذي ارتكبه چيميس: لقد اختلَّ توازنه في أثناء هبوطه، ممَّا استغرقه وقتًا أطول للتعافي من قفزته التي قصد بها إرباك پول وإخفاء خدعة نقل السكّين إلى اليد الأخرى.

بخلاف الضوء الأصفر الخافت المنبعث من كرات الإنارة، وأعين الحشد القاتمة كالحبر، كان الأمر في نظر پول كأيِّ حصّة مِرانٍ أخرى في حجرة التدريب. لا تؤخذ الدروع في الحسبان حين تستطيع استغلال حركة جسم الخصم ضده. نقل پول سكّينه بحركة خاطفة إلى يده الأخرى، وانحرف جانبًا دافعًا النصل إلى أعلى، في البقعة التي هبط صدر چيميس إليها، ثم تراجع خطوة ليشاهد انهيار الرجل.

سقط چيميس أرضًا كالصخرة، وارتطم وجهه بالأرض، وشهق شهقةً، ثم أدار وجهه إلى پول، قبل أن تسقط جثّته هامدةً فوق الأرض. حدَّقت عيناه الميّتتان إلى الفراغ كخرزتين من زجاجٍ داكن.

كان آيداهو قد أخبر پول ذات مرَّة: «*القتل بسنِّ النصل يفتقر إلى الفن، لكن لا تدع ذلك يحجِّم يدك حين تسنح الفرصة لفعله*».

اندفع الحشد مالئين الحلقة، دافعين پول جانبًا. فاختفت جثَّة چيميس في احتشادهم المسعور، ثم سارعت مجموعة منهم إلى أعماق الكهف حاملين جسمًا ملفوفًا بثوب.

لم يبق للجثَّة أثر على الأرضية الصخرية.

اخترقت چيسيكا الحشد قاصدةً ابنها. شعرت بأنها تسبح في يمٍّ من الأجساد والثياب الكريهة الرائحة، وسط حشد مريب في صمته.

وفكَّرت: *حانت اللحظة العسيرة. لقد قتل رجلًا يتفوَّق عليه عقليًا وعضليًا تفوُّقًا واضحًا، وبالتالي يجب ألا يكبر لينعم بهذا النصر*.

دفعت بنفسها متخطِّيةً آخر فردٍ في الحشد، ودخلت حيِّزًا دائريًا صغيرًا لتجد فرمِنين ملتحيين يساعدان پول في ارتداء بذلة التقطير.

حدَّقت چيسيكا إلى ابنها. كانت عينا پول لامعتين ويتنفَّس بقوَّة، تاركًا نفسه للرجلين يخدمانه بدلًا من مساعدتهما.

غمغم أحد الرجال: «لقد نازل چيميس ولم يُصب بخدشٍ».

كانت تشاني واقفةً في جانبٍ وعيناها مثبَّتتان على پول. رأت چيسيكا الإثارة والإعجاب في ملامح الوجه الملائكي.

فكَّرت چيسيكا: يجب *أن يتِّم الأمر الآن* وبسرعة. ثم وضعت كل ما في جعبتها من ازدراء في نبرتها وأسلوبها وهي تقول: «حسنًا إذًا، ما شعورك الآن بعد أن صرت قاتلًا؟».

أجفل پول كمن تلقّى صفعة. التقت عيناه بنظرة أُمّه القاسية، فاحتقن وجهه بالدماء، وألقى نظرة لا إرادية إلى البقعة التي سقط فيها چيميس.

عاد ستيلجار من أعماق الكهف حيث حُمل جثمان چيميس، واخترق الحشد ليقف إلى جوار چيسيكا، ووجّه كلامه إلى پول بنبرة مريرة منضبطة: «حين تأتي اللحظة التي ستتحدّاني فيها للنزال وتخلع على نفسك بُردتي*، إيّاك أن تحسب أنك ستتلاعب بي كما تلاعبت بچيميس».

أحسّت چيسيكا بوقع كلماتها وكلمات ستيلجار على پول، والأذى الذي أحدثته في نفس الصبيّ. لقد حقّق الخطأ الذي ارتكبه هؤلاء القوم غرضًا مفيدًا الآن، وأتى ثمارًا نافعة. فتشت في وجوه من حولهما كما كان يفعل پول، ورأت ما رآه. رأت نظرة الإعجاب والخوف في معظم الأعين، وفي بعضها رأت البُغض والازدراء. ثم نظرت إلى ستيلجار، فرأت تسليمه بجبرية القدر، وأدركت الزاوية التي ينظر منها إلى هذا القتال.

نظر پول إلى أُمّه وقال: «أنت تعرفين كيف كان الأمر».

سمعت نبرة الندم وعودة التعقُّل إلى صوته، ثم ألقت نظرة عامّة إلى الحشد، وقالت: «لم يسبق لپول أن قتل رجلًا بنصلٍ عارٍ».

واجهها ستيلجار وعلى وجهه سيماء عدم التصديق.

قال پول: «لم أكن أتلاعب به»، ثم تقدّم نحو أُمّه مسوّيًا ثوبه، وألقى نظرة إلى بقعة الدماء الداكنة التي بدأت تجف على أرضية الكهف، وتابع: «لم أكن أريد قتله».

لاحظت چيسيكا التصديق يهبط ببطء على ستيلجار، والارتياح الذي بدى على وجهه وهو يعبث بلحيته بيده البارزة العروق، وسمعت غمغمات الفهم تنتشر بين الحشد.

قال ستيلجار: «لهذا عرضت عليه الانسحاب، فهمت. تقاليدنا مختلفة، لكنك سترى الحكمة فيها. لقد ظننت أننا أدخلنا عقربًا وسطنا»، وتردَّد قليلًا، ثم أضاف: «لن أدعوك بالفتى بعد الآن».

صاح صائحٌ من الحشد: «يحتاج إلى اسم يا ستيل».

أومأ ستيلجار عابثًا بلحيته، وقال: «أرى فيك صلابة، كصلابة قاعدة العمود»، ثم سكت ثانيةً، قبل أن يضيف: «ستُعرف بيننا باسم أصول*، قاعدة العمود. هذا اسمك السِّري، اسمك القَبَلي. نحن معشر سييتش تابر لنا أن نناديك به، أما الأغيار فلا يحق لهم هذا.. يا أصول».

سرت همهمات بين الحشد: «اختيارٌ جيِّد... اسم قوي... سيجلب لنا الحظ». شعرت چيسيكا بقبولهم له، وعلمت أنها مشمولة في هذا القبول مع نصيرها، وأنها صارت السَّيَّادينا بالفعل.

قال ستيلجار: «الآن، عليك أن تختار اسم الرجوله الذى سنناديك به علنًا».

نظر پول إلى أُمِّه، ثم عاد ببصره إلى ستيلجار. كانت ذاكرته الاستبصارية قد سجَّلت أجزاءً ومقاطع من هذه اللحظة، لكنها حين وقعت لمس فيها اختلافات واضحة، كأنها قوَّة تدفعه رغمًا عنه عبر باب الحاضر الضيِّق.

تذكَّر پول حركات القفز والوثب التي رأها في حوض تيونو، ثم سأل: «ماذا تطلقون على ذلك الفأر الصحراوي الصغير، الفأر النطَّاط؟»، وقلَّد الحركة بيده.

سرت ضحكات مكتومة بين الحشد.

قال ستيلجار: «نسمِّيه المؤدِّب».

شهقت چيسيكا. هذا الاسم الذي قال لها إن الفرمِن سيلقِّبونه به حين أخبرها بأن الفرمِن سيقبلونهما بينهم. شعرت چيسيكا بخوفٍ مفاجئ من ابنها، وعليه.

ابتلع پول غصَّة في حلقه، شاعرًا أنه يؤدي دورًا سبق أن لعبه في عقله مرَّات لا حصر لها، ومع ذلك، تشوبه اختلافات. رأى نفسه جالسًا على قمَّة شاهقة تُصيب العقل بالدوار، بعد أن اختبر الكثير وامتلك مخزونًا معرفيًّا عميقًا، لكن كل ما حوله هاوية مظلمة بلا قرار.

ومرَّة أخرى تذكَّر رؤيا جحافل المتعصِّبين الذين يرفعون راية آل آتريديز الخضراء والسوداء، وينهبون ويسلبون ويحرقون بامتداد الكون باسم نبيِّهم المؤدِّب. قال پول في سرِّه: *يجب ألَّا يحدث ذلك.*

سأله ستيلجار: «أهذا هو الاسم الذي تريد تُعرف به، المؤدِّب؟».

همس پول: «أنا من نسل آل آتريديز»، ثم ارتفع صوته: «ليس من الصواب أن أتخلَّى بالكامل عن الاسم الذي منحه لي أبي. هل لي أن أُعرف بينكم باسم پول المؤدِّب؟».

قال ستيلجار: «لك هذا. من الآن فصاعدًا، أنت پول المؤدِّب».

فكَّر پول: *لم يحدث ذلك في أيِّ رؤيا رأيتها. لقد فعلت شيئًا مختلفًا.*

لكنه شعر بأن الهاوية ما زالت محيطةً به من كل اتِّجاه.

التفت الرجال أحدهم إلى الآخر، وسرت الهمهمة مجدَّدًا بين الحشد: «الحكمة والقوَّة... هذا كل ما تمنَّيته... إنها النبوءة بلا

شك... لسان الغيب... لسان الغيب».

قال ستيلجار: «سأخبرك بشيءٍ عن اسمك الجديد. هذا الخيار يرضينا ويسعدنا، فالمؤدِّب حكيم وخبير بأساليب العيش في الصَّحراء. المؤدِّب يصنع مياهه بنفسه. المؤدِّب يتجنَّب الشمس ويرتحل في الليل البارد. المؤدِّب خصيب ويتكاثر في الأرض. المؤدِّب لقب يعني "مهذِّب الأطفال"، وهذه قاعدة متينة لتبني حياتك عليها يا پول المؤدِّب، يا من تعرف بيننا باسم أصول. مرحبًا بك».

مس ستيلجار جبهة پول براحة يده، ثم سحبها وعانق پول مغمغمًا: «أصول».

ولمَّا تركه، عانقه شخصٌ آخر من الحشد، مردِّدًا اسمه القَبَلي. وهكذا راح پول ينتقل من عناق إلى عناق بين أفراد الجماعة، مصغيًا إلى أصواتٍ كثيرة مختلفة النبرات تردِّد: «أصول... أصول... أصول». كان يعرف بعضهم بالاسم بالفعل. ثم أتت تشاني وضغطت وجنتها على وجنته وهي تحتضنه وتنطق باسمه.

في النهاية وجد پول نفسه واقفًا أمام ستيلجار مجدَّدًا، وقال الأخير: «أنت الآن من الإخوان البدويين*، أي أخ لنا». ثم اكتسى وجهه بالجدِّية وهو يقول بصوتٍ آمر: «والآن يا پول المؤدِّب، اُشدُد أربطة بذلة التقطير»، ثم رمى تشاني بنظرة، وقال: «تشاني! سدَّادتا أنف پول المؤدِّب لا تلائمان أنفه البتَّة! لقد أمرتك بالاعتناء به!».

قالت: «أفتقر إلى الأدوات يا ستيل. تُوجد سدَّادات جيميس بالتأكيد، لكن...».

- «يكفي من هذا الكلام!».

- «إذًا سأشاركه بواحدة من عندي، بإمكاني تدبير أمري بواحدة فقط إلى أن...».

قال ستيلجار: «كلَّا، أعلم بوجود سدَّادات احتياطية بيننا، أين هي؟ هل نحن يدٌ واحدة أم عصابة من الهمج؟».

امتدَّت أيدٍ كثيرة بقطعٍ ليفية صلبة، فانتقى ستيلجار أربعًا منها، وناولها لتشاني.

- «اضبطي هذه لتناسب أصول وسَيَّادينا».

ارتفع صوت من مؤخِّرة الحشد: «ماذا عن الماء يا ستيل؟ ماذا عن جرَّتي الماء اللتريَّتين في حقيبتهما؟».

قال ستيلجار: «أعرف حاجتك يا فاروق». ثم نظر إلى چيسيكا، فأومأت.

قال ستيلجار: «ابزل إحداهما لمن يعوزون الماء. يا أمين الماء، أين أمين الماء؟ ها أنت ذا يا شيموم، احرص على أخذ ما تحتاجون إليه فقط، ولا تزد. هذه الماء صداقٌ ممنوح للسَيَّادينا، وسيُردُّ إليها في السييتش وفقًا لسعر صرف الماء في العراء، بعد خصم أجرة حامل المياه».

سألت چيسيكا: «وما قيمة السداد المستحقَّة وفقًا لسعر الماء في العراء؟».

قال ستيلجار: «عشرة إلى واحد».

- «ولكن...».

قال ستيلجار: «إنها قيمة عادلة، سترين ذلك بنفسك».

أشار حفيف الثياب في مؤخِّرة الحشد إلى حركة الرجال الذين ذهبوا لجلب الماء.

رفع ستيلجار يده فساد الصَّمت، ثم قال: «أمَّا عن چيميس، فسنقيم له مراسم تشييع جنائزية كاملة. لقد كان چيميس رفيقًا لنا وأخًا من الإخوان البدويين. لن نرحل دون تقديم الاحترام الواجب لمن برهن على صحَّة قدرنا بالتحدِّي الذي خاضه. ستقام الشعائر عند غروب الشمس، عندما يلبسه الظلام بردته».

بسماعه هذه الكلمات، شعر پول بأنه يغوص مجدَّدًا في أعماق الهاوية، وإلى غياهب البقعة الزمنية العمياء. لم يكن هناك ماضٍ يتوافق مع ذلك المستقبل الذي يراه في ذهنه، لكنه... ما زال يستشرف راية آل آتريديز الخضراء والسوداء تخفق في مكانٍ ما أمامه، وما زال يرى سيوف الجهاد الدامية، وجحافل المتعصِّبين.

قال پول لنفسه: *ذلك المآل لن يكون. لن أسمح له بأن يكون.*



خلق الرَّبُّ أرَّاكس لتدريب المؤمنين.

من كتاب «حكمة المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

في سكون الكهف، سمعت چيسيكا أصوات احتكاك الرمال بالصخور مع حركة الناس، وصيحات طيورٍ بعيدة، قال ستيلجار إنها الإشارات المتبادلة بين خفرائه المراقبين.

كانت الأغطية البلاستيكية الكبيرة قد أُزيلت من فتحة الكهف، واستطاعت چيسيكا رؤية زحف ظلال المساء على حواف الصخور التي أمامها، وعلى الحوض الممتدّ خلفها. شعرت بضوء النهار يغادرهم. شعرت بذلك من الحرارة الجافّة، كما شعرت به من حركة الظلال. كانت چيسيكا متأكِّدةً من أن حواسَّها المدرَّبة جيِّدًا سرعان ما ستمنحها القدرة التي يتمتَّع بها هؤلاء الفرمِن: الشعور بأدنى تغيُّر في رطوبة الهواء.

انظر إليهم كيف سارعوا إلى شد أربطة بذلات التقطير التي يرتدونها عند فتح مدخل الكهف! ومن مكانٍ عميق في الكهف، بدأ أحدهم يترنَّم:

«إيما ترافا أوكولو!

آي كورنجا أوكولو!».

ترجمت چيسيكا بصمت: *هذا رماد! وهذه جذور!*

لقد بدأت مراسم تشييع چيميس.

رنت نحو شمس أرَّاكس الغاربة في الخارج، ودرجات الألوان المتراكبة في السماء. كان الليل قد بدأ يرخي سدوله على الكثبان الرملية والصخور البعيدة، ومع ذلك لم تخفت حدَّة الحرارة.

أجبرتها الحرارة على التفكير في الماء، وفي حقيقة أن هؤلاء القوم

يمكن تدريبهم على ألَّا يشعروا بالعطش إلَّا في أوقاتٍ معيَّنة فقط.

العطش.

تذكَّرت الأمواج المتكسِّرة في ضوء القمر على صخور كلادان، وما تبسط من رغوة بيضاء عليها كأنها ثياب، وتذكَّرت الرياح المحمَّلة بالرطوبة. الآن النسيم الذي يداعب ثوبها يسفع ما هو مكشوف من جلد وجنتيها وجبينها. سبَّبت لها سدَّادتا الأنف الجديدتان حكَّة، كما أزعجها ذلك الأنبوب الذي يصل بين وجهها والبذلة لاستعادة الرطوبة من أنفاسها.

والبذلة نفسها خانقة كحجرة بخار.

تذكَّرت قول ستيلجار: «*ستصبح بذلتك مريحة أكثر حين تتكيَّفين مع انخفاض محتوى الماء في جسدك*».

كانت تعرف أنه محقٌّ، لكن المعرفة لم تنجح في جعل هذه اللحظة أقل إزعاجًا. أثقل ذهنها هوسهم اللا واعي بالماء هنا. *كلَّا*، هكذا صحَّحت لنفسها: *بل هوسهم اللا واعي بالرطوبة*، وكان هذا أمرًا أنكى وأدهى.

سمعت صوت خطوات تقترب، فالتفتت لترى پول آتيًا من عمق المغارة، متبوعًا بتشاني ملائكية الوجه.

فكَّرت چيسيكا: *ثمَّة أمرٌ آخر، يجب عليَّ تحذير پول من نسائهم، فلا يليق أن تصير واحدةٌ من تلك النساء الصحراويات زوجة لدوق. حظيَّة، لا بأس، أمَّا زوجة فلا.*

ثم تعجَّبت من نفسها، وفكَّرت متسائلة: *هل أصابتني عدوى تفكير الدوق؟*، ملاحظةً إلى أيِّ مدى نجح في تطبيعها بطبعه. *ليس بإمكاني التفكير ولو مرَّة في المسائل الزوجية الملكية دون مقارنتها بوضعي الاستسراري واتِّخاذه لي حظيَّةً. لكنني... كنت*

أكثر من مجرَّد حظيَّة.

- «أُمَّاه».

وقف پول أمامها، وتشاني إلى جواره.

- «أتعلمين ماذا يفعلون في الخلف يا أُمَّاه؟».

نظرت چيسيكا إلى عينيه الداكنتين المطلَّتين من وراء قلنسوته، وقالت: «أظن ذلك».

- «تشاني أطلعتني على الأمر لأنه يُفترض بي الاطِّلاع على ما يحدث وإعطاء... موافقتي على وزن الماء».

نظرت چيسيكا إلى تشاني.

قالت تشاني بصوتٍ يغلب عليه الخَنَف بسبب سدَّادتي الأنف: «إنهم يستعيدون ماء چيميس. هذا هو العُرف. الجسد ملك صاحبه، أمَّا ماؤه فملك القبيلة. إلا في حالة النزال».

قال پول: «يقولون إن ماءه ملكي».

تعجَّبت چيسيكا من السبب الذي جعلها تتأهَّب وتتحفَّز فجأةً.

قالت تشاني: «ماء الخاسر في النزال ملكٌ للفائز، وهذا لأن النزال يُجرى في العراء دون ارتداء بذلات تقطير. من حقِّ الفائز تعويض ما خسره من ماء في أثناء القتال».

غمغم پول: «لا أريد ماءه»، وشعر كأنه صار جزءًا من صورٍ كثيرة تتحرَّك معًا بطريقة متزامنة متقطِّعة تربك عينه الداخلية. لم يكن واثقًا بما سيفعله، ولكنه كان متيقِّنًا من شيءٍ واحد فحسب: لم يكن يريد الماء المقطَّر المستعاد من جسد چيميس.

قالت تشاني: «ولكنه... ماء!».

دهشت چيسيكا من الطريقة التي لفظت بها كلمة «ماء»، وكيف

تضمَّنت لفظة واحدة بسيطة معانٍ كثيرة. تذكَّرت چيسيكا أحد أقوال البِنِي چيسيرِت المأثورة: «*البقاء هو القدرة على السباحة في مياهٍ غريبة*»، ثم فكَّرت: *علينا أن نكتشف التيَّارات والأنماط في هذه المياه الغريبة، إذا أردنا البقاء.*

قالت چيسيكا: «ستقبل الماء».

ولاحظت نبرة صوتها. لقد استخدمت نفس النبرة مرَّةً واحدةً مع ليتو، عندما أخبرت دوقها الفقيد أن يقبل مبلغًا كبيرًا معروضًا عليه مقابل أن يدعم مشروعًا مشتبهًا فيه، لأن المال كان سيحافظ على نفوذ آل آتريديز.

وعلى أرَّاكس، الماء يعني المال. إنها ترى ذلك بوضوح الآن.

ظلَّ پول صامتًا، وعلم أنه سينفِّذ أمرها، ليس لأنها أمرته، وإنما لأن نبرة صوتها أجبرته على إعادة تقييم الموقف. رفضه الماء سيُعدُّ خرقًا لعادات الفرمِن العرفية.

ثم تذكَّر پول كلمات الآية 467 من سفر الكلمة في الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي الذي أهداه إليه يُوي: «ومن الماء كل شيءٍ حي».

حدَّقت چيسيكا إليه مدهوشةً: *أين تعلَّم هذا الاقتباس؟* ثم سألت نفسها: *إنه لم يدرس علم الأسرار.*

قالت تشاني: «تقول الجوديشار مانِتِي: مكتوبٌ في الشاهنامَة أن الماء كان أوَّل المخلوقات».

ارتجفت چيسيكا فجأة دون سببٍ واضح (وهو ما أزعجها أكثر من الرجفة نفسها)، ثم أشاحت بوجهها لإخفاء ارتباكها، فلمحت آخر خيوط الشمس الغاربة. انسكب فيضٌ عنيفٌ من الألوان على السماء في أثناء ما كانت الشمس تغوص خلف الأُفُق.

- «حان الوقت!».

رنَّ صوت ستيلجار في الكهف: «أعدمنا سلاح چيميس. لقد أُستُدعِيَ چيميس، استدعته شَيِّ هولود، التي تقدِّر منازل القمرين اللذين يتضاءلان يوميًا حتَّى يصيرا في النهاية كعرجونين قديمين»، ثم خفض ستيلجار صوته وأردف: «هكذا كان أمر چيميس».

حلَّ الصَّمت كغطاءٍ ثقيل على الكهف.

رأت چيسيكا حركة ستيلجار الضبابية وهيئته الشبحية في أعماق الكهف المظلمة، ثم عادت تنظر إلى الحوض، مستشعرةً البرودة.

قال ستيلجار: «فليتقدَّم أصدقاء چيميس».

تحرك رجلان من خلف چيسيكا، وأسدلا ستارة على مدخل الكهف. أُنيرت كرة إنارة واحدة فوق الرؤوس في عمق الكهف، وفي وهجها الأصفر رأت چيسيكا لفيفًا من الرجال يتقدَّم، وسمعت حفيف ثيابهم.

ابتعدت تشاني خطوة عن پول، كما لو أن الضوء جذبها.

انحنت چيسيكا على أُذُن پول، وتحدَّثت بشيفرة العائلة السرِّية: «احذُ حذوهم، وافعل كما يفعلون، ما هذا إلَّا طقس اعتيادي لتهدئة روح چيميس».

فكَّر پول: *سيكون أكثر من ذلك*، شاعرًا بانتزاعٍ مُوجِع في وعيه كما لو كان يحاول الإمساك بشيءٍ متحرِّك وتثبيت حركته.

تراجعت تشاني إلى جوار چيسيكا، وأخذت بيدها.

- «تعالي يا سَيِّادينا. علينا الجلوس في مكانٍ منفصل».

راقبهما پول تبتعدان عبر الظلال، تاركتان إيَّاه وحده، واعتراه إحساسٌ بالهجران.

اقترب منه الرجلان اللذان أسدلا الستارة.

- «تعال يا أصول».

تركهما يقودانه إلى الأمام، ويزجّان به وسط دائرة من الأشخاص تتشكل حول ستيلجار الواقف تحت كرة الإنارة إلى جوار كتلة من الأغراض المكدّسة على الأرضية الصخرية مُغطّاة بثوبٍ تبرز منه أجسام مستديرة وأُخرى مُربّعة الشكل.

جثت المجموعة بإشارةٍ من ستيلجار، فأصدر احتكاك ثيابهم بالأرض حفيفًا. جثا پول معهم وراقب ستيلجار، ملاحظًا كيف ألقت كرة الإنارة الطافية فوق الرؤوس ظلالاً على عينيه الغائرتين وزادت من بريق المنديل القماشي الملفوف حول عُنُقه. نقل پول انتباهه إلى الكومة المغطّاة بالثوب عند قدمي ستيلجار، ولاحظ مقبض آلة باليستِ بارزًا من القماش.

قال ستيلجار مُرتّلًا: «ستغادر الروح ماء الجسد مع طلوع القمر الأوَّل، إن هذا لفي النصوص. عندما نرى القمر الأوَّل يرتفع هذه الليلة، من سيستدعي؟».

ردَّدت المجموعة: «چيميس».

دار ستيلجار على عقبيه دورة كاملة، مقلّبًا بصره في حلقة الوجوه، ثم قال: «كنت صديقًا لچيميس. عندما انقضَّت علينا الطائرة كالصقر في مخبأ فجوة الجبل، چيميس هو الذي جذبني إلى بقعةٍ آمنة».

ثم انحنى فوق الكومة التي أمامه، ورفع الثوب: «بصفتي صديقًا لچيميس سآخذ هذا الثوب، كما يُخوّل لي حقُّ القائد». وألقى بالثوب على كتفه واعتدل.

عندها تبدَّت محتويات الكومة أمام عيني پول: بذلة تقطيرٍ

رماديـة لامعـة، وجـرَّة لتربـة مهترئـة، ومنديـل مفـروض عليـه كتـاب صغيـر، ومقبـض سـكِّينٍ عاجيـة بـلا نصـل، وغمـدٌ فـارغ، وحقيبـة مطويـة، وبوصلـة پاراويـة، ومُكوِّدات، ومِطـراق، وكومة من الخطاطيف المعدنيـة بحجـمِ قبضـة اليد، ومـا بـدا كأنهـا تشـكيلة مـن الأحجـار الصغيـرة مطويَّـة فـي قطعـة قمـاش، وكتلـة مـن الريـش... وآلـة باليسـت مكشـوفة إلـى جـوار الحقيبـة المطويـة.

فكَّـر پـول: *إذًا چيميس كان يعـزف علـى الباليسـت*. ذكَّرتـه الآلـة بجيرنـي هاليـك، وبكل مـا فُقِـد. كان پول يعـرف بذاكرتـه المستقبلية عـن الماضـي أن بعـض المسـارات المحتملـة ستقوده إلـى لقـاء هاليـك، لكـن فـرص لـمِّ الشـملِ كانـت ضئيلـة وضبابيـة ومُحيِّـرة. أصابـه عامـل عـدم اليقيـن فـي رؤاه بالدهشـة. *هـل يعنـي هـذا أننـي سـأفعل شـيئًا، أو قـد أفعل شـيئًا، سـيقضي علـى جيرنـي، أو سـيعيده إلـى الحيـاة، أو...*

ابتلع پول غصَّة، وهزَّ رأسه.

عاد ستيلجار وانحنى فوق الكومة.

وقـال وهـو يأخـذ الأحجـار الصغيـرة والكتـاب ويدسُّـهما فـي طيَّات ثوبـه: «لامـرأة چيميـس وللحرس».

ردَّدت المجموعة: «حقٌّ القائد».

قـال سـتيلجار وهـو يلتقـط قرصًـا معدنيًـا مسـطَّحًا أخضـر: «إحـدى أدوات تحضيـر القهـوة الخاصَّـة بچيميـس، التـي سـتنتقل إلـى أصـول فـي احتفـالٍ لائـق عندمـا نعـود إلـى السـييتش».

ردَّدت المجموعة: «حقٌّ القائد».

وأخيرًا، أخذ مقبض السكِّين العاجية ونهض ممسكًا به.

وقال: «لأجل السهل الجنائزي».

ردَّدت المجموعة: «لأجل السهل الجنائزي».

من مكانها المقابل لپول في الدائرة، أومأت چيسيكا وقد أدركت المصدر العتيق لهذه الطقوس، وفكَّرت: *الفرق بين الجهل والمعرفة، بين الهمجية والتحضُّر، يبدأ من الكرامة التي نعامل بها موتانا*. ثم نظرت إلى پول وتساءلت: *هل سيفهم ذلك؟ هل سيعرف كيف يحسن التصرُّف؟*

قال ستيلجار: «نحن أصدقاء چيميس لا نرفع عقيرتنا بالعويل على موتانا كقطيع من ذئاب الجارڤارج».

قام رجلٌ ذو لحية رمادية كان جالسًا إلى يسار پول وقال: «كنت صديقًا لچيميس»، واتَّجه إلى الكومة، ومدَّ يده وأخذ المُكوِّدات، وقال: «عندما انفخض مستوى مياهنا عن الحدِّ الأدنى في حصار "الطائران"، شارك چيميس ماءه معنا». ثم عاد إلى مكانه في الحلقة.

تساءل پول: *أمن المفترض أن أُصرِّح بأنني كنت صديقًا لچيميس؟ أينتظرون مني أن أمُدَّ يدي وآخذ شيئًا من تلك الكومة؟* رأى الوجوه تتَّجه نحوه، ثم تشيح بعيدًا. *إنهم ينتظرون مني ذلك فعلًا!*

نهض الرجل الجالس قبالة پول، واتَّجه إلى الكومة وأخذ البوصلة الپاراوية، وقال: «كنت صديقًا لچيميس. عندما كشفت الدورية أمرنا عند عُروة الجرف وأُصبت بجرح، جعل چيميس من نفسه طُعمًا وشتَّت انتباههم، حتَّى يتسنَّى إنقاذ الجرحى». وعاد إلى مكانه في الحلقة.

اتَّجهت الأنظار مجدَّدًا إلى پول ورأى فيها الترقُّب، فخفض عينيه. لكزه كوعٌ في جنبه وهمس صوتٌ: «هل ستجلب علينا الهلاك؟».

تساءل پول: *كيف أُصرِّح بأنني كنت صديقه؟*

نهض شخصٌ آخر يجلس مقابلًا لبول في الدائرة، وعندما دخل الوجه المحتجب خلف القلنسوة إلى حيِّز الضوء، رأى أنها أُمُّه. التقطت أُمُّه المنديل من الكومة وقالت: «كنت صديقةً لچيميس. عندما رأت روح الأرواح التي تسكنه حاجة الجمع إلى التثبُّت من الحقيقة، انسحبت تلك الروح وحافظت على حياة ابني». ثم عادت إلى مكانها.

تذكر پول نبرة الازدراء في صوت أُمِّه عندما واجهته بعد النزال: «*ما شعورك الآن بعد أن صرت قاتلًا؟*».

مرةً أخرى، رأى الوجوه تتَّجه نحوه، وأحسَّ بما يعتمل من غضبٍ وخوف في نفوس المجموعة. ومض في ذهن پول مقطعًا من كتابٍ مرئي عن «ممارسات الموتى» كانت أُمُّه قد صوَّرته له، فأدرك ما ينبغي له فعله.

ببطء، نهض پول.

صدرت تنهيدة ارتياح من الدائرة.

شعر پول بتضاؤل نفسه وهو يتقدَّم إلى مركز الدائرة، كما لو أنه فقد جزءًا من ذاته وراح يبحث عنه هنا. انحنى فوق كومة المتعلِّقات، ورفع الباليسِت. لمس أحد الأغرض في الكومة وترًا فصدر عنه رنينًا ناعمًا.

همس پول: «كنت صديقًا لچيميس».

شعر بالدموع تحرق عينيه، وتجبره على رفع صوته: «چيميس علَّمني... أنك... عندما تقتل شخصًا... تدفع الثَّمن. أتمنى لو أنني عرفت جيمس بشكلٍ أفضل».

وبعينين مغمضتين، تلمَّس طريقه عائدًا إلى مكانه في الدائرة، وغاص أرضًا.

همس صوتٌ: «لقد ذرف دموعًا!».

وتناقل الأمر حول الحلقة: «أصول منح من رطوبة جسده للميّت!».

أحس بأصابع تلمس وجنتيه المبلَّلتين، وسمع همساتٍ مذهولة.

عندما سمعت چيسيكا الأصوات المبهورة، شعرت بوطئة ما يمرُّون به، وأدركت الموانع الشديدة التي لا بُدَّ أنهم يفرضونها على ذرف الدموع. ركَّزت على فحوى الكلمات: «لقد منح من رطوبة جسده للميّت!». إنهم يُعدُّون الدموع هديَّة مُقدَّمة إلى عالم الأرواح، ولا ريب أنها شيءٌ مقدَّس.

لا شيء رأته أو اختبرته على هذا الكوكب هزَّها وأشعرها بأهمِّية الماء القصوى مثل هذا الأمر. لا باعة الماء، ولا بشرة أهل الكوكب الجافَّة، ولا بذلات التقطير، ولا انضباط الماء. الماء هنا مادَّة أغلى من أيِّ مادةٍ أخرى: إنها الحياة ذاتها، لهذا تحيطها الرمزية والطقوس في كل مكان.

الماء.

همس أحدهم: «لمست وجنته، وشعرت بملمس الهدية».

في البداية، شعر پول بالخوف من الأصابع التي تتلمَّس وجهه، فقبض بقوَّة على مقبض الباليسِت، شاعرًا بالأوتار تؤلم راحة يده. ثم رأى وجوه أصحاب الأيدي المتلمِّسة، وشاهد أعينهم المتَّسعة المشدوهة.

في النهاية، انسحبت الأيدي، واستؤنفت مراسم الجنازة، ولكن بعد أن أُخليت مساحة حول پول: خُلوة منحه إيَّاها أفراد المجموعة دلَّت على توقيرهم له.

اختُتمت المراسم بترنيمٍ جماعي خفيض:

«بدرُ التمامِ يدعوك للخلود
استبشر فستراك شَيّ هولود
الليل قانئة والسماء غبراء
رثاءً لحتفك المُضرَّج بالدماء
نبتهل لقمر: الرَّب المستدير
أن يؤمنا الحظ وفي أثرنا يسير
سنعثر على ما نسعى إليه
في الأرض الصلبة التي تؤويه».

بقي كيسٌ منتفخ عند قدمي ستيلجار، فجثا أرضًا، ووضع كفَّيه فوقه. اقترب شخص منه، وجثا إلى جواره، فتعرَّف پول على وجه تشاني المحتجب وراء ظلٍّ قلنسوتها.

قالت تشاني: «كان چيميس يحمل ثلاثة وثلاثين لترًا وسبعة دراهم سائلة وثلاثة وثلاثين جزءًا من الدرهم من ماء القبيلة. أُبارك ماءه الآن بحضور السَيَّادينا. إكريا كاراي، ها هو الماء.. فيليسين فولاسي، إلى پول المؤدَّب! كيڤي آ كاڤي، لا يزيد ولا ينقص.. ناكالاس! ناكيلاس! وزنه مُقامٌ بالقسط، أوكاران! بدقَّات قلب، چان چان، صديقنا... چيميس».

ثم في صمتٍ مفاجئ وعميق، استدارت تشاني، ورمقت پول، وفي النهاية قالت: «حيثما أكون لهبًا ستكون أنت الجمر. حيثما أكون ندىً ستكون أنت الماء».

ردَّد الحشد في خشوع: «بِلا كيف».

قالت تشاني: «هذا النصيب يذهب إلى پول المؤدِّب، عسى أن يحرسه لصالح القبيلة، ويحفظه من التفريط والإفراط. عسى أن


t.me/t_pdf

يكون كريمًا به في وقت الحاجة. عسى أن يورثه من بعده، لصالح القبيلة».

ردَّد الحشد: «بِلا كيف».

فكَّر پول: يجب *أن أقبل هذا الماء*. ثم نهض ببطء، وشق طريقه نحو تشاني. تراجع ستيلجار خطوة إلى الوراء ليفسح له مكانًا، وأخذ الباليسِت برفقٍ من يده.

قالت تشاني: «اركع».

فركع پول.

أرشدت يديه إلى كيس الماء، وأمسكتهما على السطح اللين، وقالت: «على هذا الماء تأتمنك القبيلة. لقد غادره چيميس، فخذه في سلام». ثم نهضت وجذبت پول معها.

أعاد ستيلجار الباليسِت له، ومدَّ راحة يده بكومة صغيرة من الحلقات المعدنية. نظر پول إليها، ولاحظ أحجامها المختلفة، وانعكاس ضوء كرة الإنارة عليها.

التقطت تشاني الحلقة الأكبر، ورفعتها على إصبعها قائلة: «ثلاثون لترًا». ثم راحت تلتقط الحلقات الواحدة تلو الأخرى، وتعرض كلًّا منها على پول وهي تعدُّ: «لتران، لتر، سبع حلقات مائية قيمة كلٍّ منها درهم سائل واحد، حلقة واحدة قيمتها ثلاثة وثلاثون جزءًا من الدرهم. المجموع: ثلاثة وثلاثون لترًا وسبعة دراهم سائلة وثلاثة وثلاثون جزءًا من الدرهم».

رفعت تشاني عملات الماء على إصبعها ليراها پول.

سأله ستيلجار: «هل تقبلها؟».

ابتلع پول ريقه وأومأ: «أجل».

قالت تشاني: «سأريك لاحقًا كيف تعقدها في منديل كي لا يصدر عنها صليل يكشف مكانك حين تكون في حاجة إلى الصَّمت». ومدَّت يدها.

سألها پول: «هلَّا... تحتفظين بها من أجلي؟».

نظرت تشاني إلى ستيلجار نظرة تردُّد حائرة.

فابتسم وقال: «پول المؤدِّب، الذي يُعرف بيننا باسم أصول، لا يألف عاداتنا بعد يا تشاني. احتفظي بعملاته المائية دون التزام منه بوعد، حتَّى يحين الوقت الذي تعلِّمينه فيه طريقة حملها».

أومأت تشاني، ونزعت شريطًا قماشيًّا من تحت ثوبها، وربطت به الحلقات بعُقدٍ محبوكة يصعب حلُّها، وتردَّدت هنيهة، ثم دسَّتها في الوشاح المربوط أسفل ثوبها.

فكَّر پول: *في كلامه شيء لم أفهمه*، ثم استشعر المرح المازح الذي شاع حوله، فربط عقله ما حدث بذكرى استبصارية رآها: *تقديم عملات الماء إلى امرأة لهو طقس من طقوس الخطوبة*.

قال ستيلجار: «يا أمناء الماء».

نهضت المجموعة في حفيفٍ من الثياب، وتقدَّم رجلان منها وحملا كيس الماء. أنزل ستيلجار كرة الإنارة، وتقدَّم بها الطريق متَّجهًا إلى أعماق الكهف.

دُفع پول وسط الزحام خلف تشاني، ملاحظًا الوهج الغائم الشبيه بالزبد على الجدران الصخرية، ورقصة الظلال، وشعر بالروح المعنوية المرتفعة بين أفراد الجماعة التي تسودها أجواء ترقُّب.

قمعت جيسيكا -التي اجتذبتها الأيدي المتلهِّفة إلى مؤخِّرة الحشد وطوَّقتها الأجساد المتدافعة- لحظة ذعرٍ اعترتها. لقد

تعرَّفت على شذورٍ من الطقوس، وميَّزت في ما قبل شظايا كلمات من لُغتي التشاكوبسا والبوتاني چيب، وكانت على علم بالعنف الوحشي الذي يمكن أن ينفجر من مثل هذه اللحظات التي تبدو بسيطة.

فكَّرت چيسيكا: *چان چان چان، تعني هيَّا هيَّا هيَّا*.

كانت الطقوس أشبه بلعبة أطفال فقدت كل قواعدها ومحاذيرها في أيدي الكبار.

توقَّف ستيلجار عند جدارٍ صخريٍّ أصفر اللون، وضغط نتوءًا فيه فانفتح الحائط من أمامه بصمت كاشفًا عن صدع طويل غير منتظم. قادهم ستيلجر مارًّا عبر تعريشة شبكية داكنة لها فتحات كثيرة تُشبه خلايا النحل. شعر پول بنفخة هواء بارد على وجه حين اجتازها.

أدار پول نظرةً متسائلةً إلى تشاني، وجذب ذراعها قائلًا: «الهواء رطب».

همست: «صه!».

لكن رجلًا من ورائهما قال: «المصيدة اقتنصت رطوبة كثيرة الليلة. چيميس يخبرنا بأنه راضٍ».

عبرت چيسيكا من الباب السرِّي، وسمعته يُغلق من خلفها. رأت كيف يتباطأ الفرمِن وهم يمرُّون من التعريشة الشبكية الكثيرة الفتحات، وشعرت برطوبة الهواء عندما وصلت إليها.

خطر لچيسيكا: *مصيدة رياح! إنهم يُخفون مصيدة رياح في مكان ما في الأعلى على السطح لتوجيه الهواء إلى منطقة أكثر برودة كهذه وتكثيف الرطوبة منه*.

مـرُّوا عبـر بـابٍ صخـريٍّ آخـر تعلـوه تعريشـة شـبكية مماثلـة، وانغلـق البـاب خلفهـم. حمـل تيَّـار الهـواء الـذي هـبَّ علـى ظهـري چيسـيكا وپـول إحساسًـا واضحًـا بالرطوبـة.

رأى پول كـرة الإنـارة التـي فـي يدِ ستيلجار فـي مقدِّمـة المسـيرة تنخفـض إلـى مـا دون مسـتوى الـرؤوس، ثـم شـعر بدرجـاتٍ منحوتـة تحـت قدميـه تهبـط بميـل إلـى اليسـار، ثـم عـاد الضـوء وانعكـس مـن فـوق الـرؤوس المقلنسـة، ورأى پـول الحركـة الدائريـة لأشـخاصٍ يهبطـون درجًـا حلزونيًـا.

أحسَّـت چيسـيكا بتوتُّـرٍ متزايـد فـي الأشـخاص المحيطيـن بهـا. كان يلفُّهـم صمـتٌ ثقيـلٌ عاصـرٌ راح يقـرض جـذور أعصابهـا بإلحـاح.

انتهـى الـدَّرَج، ومـن بعـده اجتـازت الجماعـة بابًـا آخـر منخفضًـا أفضـى إلـى مغـارة كبيـرةٍ مفتوحـة ذات سـقفٍ مُقـوَّسٍ عـالٍ ابتلعـت ضـوء كـرة الإنـارة الوحيـدة.

شـعر پـول بيـد تشـاني علـى ذراعـه، وسـمع صـوت قطـرات مـاء خافتـة تتسـاقط فـي الهـواء البـارد، وشـعر بسـكونٍ تـام يغشـي الفرمِـن فـي هـذا الحضـور المائـي المهيـب.

وخطر له: *رأيت هذا المكان في أحلامي.*

كانـت الخاطـرة مطمئنـة ومحبطـة فـي الوقـت نفسـه، ففـي نقطـةٍ مـا مسـتقبلية علـى امتـداد هـذا المسـار، تشـقُّ جحافـل المتعصِّبيـن طريقهـا الدمـوي عبـر أرجـاء الكـون هاتفـةً باسـمه، وتصبـح رايـة آل آتريديـز الخضـراء والسـوداء رمـزًا للذعـر. سـتخوض فيالقـه المسـعورة المعـارك صـارخـةً بصرخـة الحـرب: «المـؤدِّب!».

فكَّر پول: *ذلك المآل لن يكون. لن أسمح له بأن يكون.*

لكنـه شـعر بوعـي الجنـس البشـري الجمعـي داخلـه يدفعـه دفعًـا نحـو غايتـه الرهيبـة، وكان يعلـم أن هـذا الطغيـان الآتـي لـن يصرفـه

شيءٌ هيّن. إنه يكتسب ثقلًا وزخمًا. حتَّى لو مات الآن، سيواصل الفيضان الكاسح تدفُّقه عبر أُمِّه وعبر أخته التي لم تولد بعد.

أدار پول بصره في ما حوله، فرأى أفراد الجماعة انتشروا في صفٍّ، ودفعوه أمامًا إلى حاجز منخفض منحوت من صخر المغارة. وراء الحاجز، رأى پول -في وهج كُرة ستيلجار المنيرة- مسطَّحًا مائيًا داكنًا ساكنًا يمتدُّ بعيدًا عبر ظلالٍ عميقةٍ سوداء، وينتهي عند جدارٍ بعيد يراه بالكاد، رُبَّما على بعد مئة متر.

شعرت چيسيكا بأن الجلد الجاف المشدود على خدَّيها وجبينها بدأ يرتخي في وجود الرطوبة. كانت بركة المياه عميقة؛ استطاعت أن تشعر بعمقها، وقاومت رغبتها في غمس يديها فيها.

سمعت صوت طرطشة ماء من يسارها. نظرت إلى نهاية صفِّ الفرمِن المبهم، ورأت ستيلجار وپول وإلى جوارهما أُمناء الماء يفرغون حمولتهم في البركة عبر فوَّهة مقياس تدفُّق. كان المقياس فتحةً رماديةً مستديرةً فوق حافة البركة. رأت چيسيكا مؤشِّر المقياس المضيء يتحرَّك مع تدفُّق الماء عبره، ثم توقَّف عند قياس «ثلاثة وثلاثون لترًا وسبعة دراهم سائلة وثلاثة وثلاثون جزءًا من الدرهم».

فكَّرت چيسيكا: *دقَّة متناهية في قياس الماء*. ولاحظت جفاف جدران حوض القياس بعد عبور المياه. لقد تدفَّق الماء عبر تلك الجدران دون أن يترك أثرًا، ومن خلال هذه الحقيقة البسيطة، أدركت چيسيكا سمةً جوهريةً في طبيعة تكنولوچيا الفرمِن: إنهم يسعون وراء الكمال.

شقَّت چيسيكا طريقها إلى الحاجز بسهولة بين الأجساد، إذ

أفسحوا لها الطريق بعفوية من باب الكياسة، ووقفت إلى جوار ستيلجار. لاحظت نظرة الشرود النفسي البادية في عيني پول، لكن لغز بركة الماء الكبيرة هذه كان يطغى على تفكيرها.

نظر إليها ستيلجار، وقال: «بيننا من هم في أشدِّ الحاجة إلى الماء، لكنهم عندما يأتون إلى هنا لا يلمسون هذه المياه. أتعرفين ذلك؟».

قالت: «بإمكاني تصديقه».

نظر إلى البركة: «لدينا أكثر من ثلاثمئة وثمانين مليون لتر ماء هنا، مُخبَّأة ومحفوظة، وبمعزل عن الصَّانعات الصغيرات بين هذه الجدران».

قالت: «كنزٌ دفين».

رفع ستيلجار الكرة لينظر في عينيها وقال: «إنها أعظم من أيِّ كنز. لدينا الآلاف من هذه المخابئ. قِلَّة منَّا فقط تعرف أماكنها جميعًا». ثم أمال رأسه، فألقت الكرة وهجًا ظليًّا أصفر على وجهه ولحيته وقال: «أتسمعين هذا؟».

ألقوا جميعًا السَّمع.

ملأ صوت الماء المُكثَّف المتقاطر من مصيدة الرياح المغارة بحضوره. لاحظت چيسيكا أن الجماعة برمَّتها غارقة في نشوة إنصات. وحده پول بدا شاردًا ومنفصلًا عمَّا يحدث.

في أُذُني پول، بدا الصَّوت كأنه تكتكة ساعة تتحرَّك عقاربها بسرعة. شعر بتدفُّق الزمن عبره، وبلحظات تمضي لن تستعاد أبدًا. شعر بحاجة إلى اتِّخاذ قرار، لكنه كان عاجزًا عن الحركة.

همس ستيلجار: «حسبنا كل شيء بدقَّة بالغة. نحن نعلم

بالضبط الكمَّ الذي نحتاج إليه، بهامش خطأ لا يتعدَّى عشرة ملايين لتر. وعندما نبلغ الكمَّ المطلوب، سنغيِّر سطح أرَّاكس».

تعالى من الحشد همسٌ خافت: «بِلا كيف».

قال ستيلجار وقد ازداد صوته قوَّة: «سنثبِّت حركة الكثبان الرملية بالعشب المزروع، وسنشبِّع التربة بالماء عن طريق جذور الأشجار والغطاء النباتي المنخفض».

ردَّد الحشد: «بِلا كيف».

قال ستيلجار: «كل عام الجليد القطبي ينحسر».

ترنَّم الحشد: «بِلا كيف».

- «سنجعل من أرَّاكس موطنًا صالحًا للعيش. سنستخدم العدسات لإذابة جليد القطبين، وعندها ستتكوَّن بحيرات في المناطق معتدلة الحرارة، وسنترك أعماق الصَّحراء للصانعة والاسبايس».

- «بِلا كيف».

- «لن يظمأ إنسانٌ بعدها أبدًا. سيتوافر الماء في الآبار والبرك والتُّرع، وسيجري عبر القنوات لتغذية نباتاتنا. سيكون الماء متاحًا للجميع، وفي متناول كل إنسان».

- «بِلا كيف».

أحسَّت جيسيكا في الكلمات بطابع الطقوس الدينية، ولاحظت ردَّة فعلها الغريزية المنبهرة، ففكَّرت: *إنهم واثقون بالمستقبل، وأمامهم هدف شامخ يسعون لتحقيقه. هذا حُلم عالم البيئات الكوكبية، وهؤلاء القوم البسطاء، هؤلاء البدويُّون، سكارى به.*

انتقلت بتفكيرها إلى لييت كاينز، عالم البيئات الكوكبية

الإمبراطوري، الرجل الذي اندمج في الثقافة المحلّية، وتعجّبت لأمره. هذا الحُلم قادر على امتلاك أفئدة البشر، وقد شعرت بيد عالم البيئة في إنمائه في النفوس. إنه حُلمٌ من النوع الذي يموت الرجال عن طيب خاطر في سبيل تحقيقه. كان هذا أحد المكوّنات الأساسية الأخرى التي شعرت بأن ابنها في حاجة إليها: قومٌ لديهم هدف. سيكون من السهل بثُّ الحماسة والتعصُّب في مثل هؤلاء القوم، واستخدامهم كسلاح لاستعادة عرش پول المغتصب.

قال ستيلجار: «سنرحل الآن وننتظر طلوع القمر الأوّل، وعندما نطمئن بأن چيميس بدأ رحلته بسلام، سنعود إلى الديار».

تبعه أفراد الجماعة على مضض، متهامسين بامتعاضهم من مغادرة المكان، وعادوا أدراجهم بامتداد حاجز الماء، ثم صعدوا الدَّرَج.

شعر پول -الذي كان يسير خلف تشاني- بأنه فوّت لحظة مهمّة، بأنه فوّت قرارًا جوهريًا وبات الآن حبيس أسطورته الخاصة. كان متأكّدًا من أنه رأى هذا المكان من قبل، ومرَّ بهذه الأحداث في جزءٍ من حلم استبصاري رآه على كوكب كلادان البعيد، لكن تفاصيل الأحداث التي تحدث الآن لم يسبق له رؤيتها. انتابته دهشة جديدة من محدودية موهبته. الأمر يبدو كأنه يركب موجة زمنية، أحيانًا يكون في قاعها، وأحيانًا على قمّتها، وفي كل مكانٍ من حوله ترتفع الأمواج الأخرى وتنخفض، وتخفي وتكشف ما تحمله على سطحها بالتناوب.

وخلال كل هذا التلاطم، ما زال الجهاد الوحشي يلوح في

الأُفُق، بعُنقه ومذابحه، كأنه نتوءٌ صخري يبرز فوق الأمواج.

عبرت الجماعة الباب الآخير الذي يفضي إلى الكهف الرئيس، ثم أُحكم إغلاق الباب، وأُطفئت الأنوار، ونُزعت الأغطية من فتحتي الكهف لتكشف عن الليل والنجوم التي تغطي الصَّحراء. اتَّجهت چيسيكا إلى حافَّة الكهف الجافَّة، ورفعت بصرها إلى النجوم التي بدت لها قريبةً وواضحة. ثم شعرت بحركة الأشخاص من حولها، وسمعت صوت ضبط أوتار آلة باليسِت في مكانٍ ما خلفها، وصوت پول يتنحنح مدندنًا. كان في نبرته كآبة لم تسترح لها.

جاء صوت تشاني من ظلمة الكهف العميقة: «حدِّثني عن الماء على كوكبك الأُمِّ يا پول المؤدِّب».

فردَّ پول: «في وقتٍ آخر يا تشاني. أعدك بذلك».

يا للحزن الذي يكتنف صوته.

قالت تشاني: «إنها آلة باليسِت جيِّدة».

قال پول: «جيِّدة جدًّا. أتظنِّين أن چيميس سيمانع استخدامي لها؟».

فكَّرت چيسيكا: *إنه يتكلَّم عن الميِّت بصيغة المضارع،* وأزعجتها دلالات ذلك.

قال أحد الرجال: «كان أكثر ما يُحب الموسيقى».

ناشدته تشاني: «إذًا غنِّ لي أغنية من أغنيَّاتكم».

فكَّرت چيسيكا: *صوت تلك الفتاة الطفلة يحمل من الدلال الأنثوي الكثير. يجب عليَّ تحذير پول من نسائهم... وسريعًا.*

قال پول: «هذه الأغنية لصديقٍ لي، أتوقَّع أنه ميِّت الآن. اسمه جيرني، وكان يسمِّي هذه الأغنية: صلاة المساء».

ساد الهدوء بين أفراد الجماعة، وأصغوا إلى صوت پول الذي ارتفع بنبرة فتيَّة عذبة مغنيًّا على أنغام أوتار الباليسِت الرنَّانة:

«غابت الشمس الذهبية الساطعة مع الغسق الأوَّل،

وحلَّ الليل الذي فيه تتوهَّج الجمرات.

ما لي من رفيقٍ بقي

إلَّا حواسَّ مهتاجة، وعبيرَ مسكٍ كريه».

شعرت چيسيكا بوقع الكلمات الثقيل في صدرها، بموسيقى الألفاظ الوثنية المشحونة بأصوات جعلتها تنتبه لنفسها فجأة، وتشعر بجسدها واحتياجاته. واصلت چيسيكا الاستماع في هدوءٍ عصبي.

«وفي وهج مجمرة البخور، يلقي الليل مرثية،

من أجلنا!

أيُّ أفراحٍ تجري..

لامعةً في عينيك.

أيُّ عشقٍ مطرَّز بالورود..

يجذب قلوبنا.

أيُّ عشقٍ مطرَّز بالورود..

يشبع رغباتنا».

أصغت چيسيكا إلى السكون الذي ساد الهواء بعد آخر شطر، وتساءلت متعجِّبةً: *لِمَ اختار هذه الأغنية بالذات؟ الدوافع الفطرية تكون على صواب في بعض الأحيان. لماذا يفعل هذا؟*

جلس پول صامتًا في الظلام، وفكرة واحدة تسيطر على عقله وتصرخ فيه: *أُمِّي هي عدوِّي. إنها لا تعي ذلك، لكنها عدوِّي. هي من ستجلب الجهاد. هي من ولدتني، هي من درَّبتني. إنها عدوِّي.*

يعمل مفهوم التقدُّم كآلية وقائية تحمينا من أهوال المستقبل.

من كتاب «أحاديث المؤدِّب المجمَّعة» للأميرة إيرولان.

في عيد ميلاده السَّابع عشر، قتل فيد راوثا هاركونن ضحيته رقم مئة من المصارعين العبيد في المباريات العائلية. كان الكونت فنرينج والليدي زوجته -مبعوثا البلاط الإمبراطوري- من ضمن المتفرِّجين الزائرين الذين أتوا إلى كوكب جيدي پرايم -موطن الهراكنة- لحضور الحدث، وقد دُعيا للجلوس مع أفراد الأسرة المقرَّبين في المقصورة الذهبية أعلى الحلبة المثلَّثة.

واحتفاءً بذكرى ميلاد ولي عهد البارونية، ولتذكير باقي الهراكنة والرَّعية أيضًا بأن فيد راوثا هو من وقع عليه الاختيار ليكون وارث العرش، كان اليوم عُطلة رسمية على جيدي پرايم. أصدر البارون مرسومًا بأن تكون المدَّة من ظهيرة اليوم إلى ظهيرة غدٍ راحة من العمل، وقد بُذلت جهودٌ كبيرة لخلق أجواء ابتهاج وهمية في شوارع مدينة هاركو عاصمة الحكم: تطايرت اللافتات خفَّاقةً فوق المباني، ورُشَّت الجدران على امتداد طريق المحكمة بطلاءٍ جديد.

ولكن بعيدًا عن الطريق الرئيس، لاحظ الكونت فنرينج والليدي زوجته أكوام القمامة، والجدران البنية الخشنة المنعكسة في البرك الموحلة الداكنة المتناثرة في الشوارع، وهروع الناس وهم يركضون للاختفاء عن الأنظار.

أمَّا في حصن البارون ذي الجدران الزرقاء كان كل شيءٍ مثاليٌّ بطريقةٍ موجِسة، لكن الكونت والليدي زوجته شاهدا الثمن المدفوع

نظير هذا: الحرس منتشرين في كل مكان، حاملين أسلحةً تتألَّق بذلك البريق الذي يكشف للعين المدربة أنها تُستخدم بانتظام. انتشرت نقاط التفتيش داخل الحصن لمراقبة حركة المرور من منطقةٍ إلى أخرى. أمَّا الخدم أنفسهم فكشفت طريقة سيرهم ومناكبهم العريضة وأعينهم التي تراقب الجميع وبلا كلل أنهم عسكريون.

همهم الكونت في أُذُن الليدي زوجته بلُغتهما السرِّية: «التوتُّر شديد، بدأ البارون يدرك الثَّمن الفعلي الذي دفعه للخلاص من الدوق ليتو».

قالت: «يومًا ما، ذكِّرني أن أقص عليك أسطورة العنقاء».

كانا في قاعة استقبال الحصن، في انتظار الذهاب مدرَّجات *المباريات العائلية. لم تكن القاعة كبيرة -رُبَّما أربعين مترًا طولًا ونصف ذلك عرضًا- لكنها زُيِّنت بأعمدة زائفة على الجانبين ينتهي كلٌّ منها بطرفٍ مستدق، وكان سقفها مقوَّسًا بشكل طفيف، ما أعطى إيهامًا بأنها أكبر حجمًا عمَّا هي في الواقع.*

قال الكونت: «آها، ها هو البارون قادم».

أتى البارون من نهاية القاعة متحرِّكًا بذلك السريان المتهادي الغريب الذي يفرضه توجيه وزنه الثقيل المحمول بمضادَّات الجاذبية. كان لحم خدَّيه المتهدِّل يترجرج إلى أعلى وأسفل، ومضادَّات الجاذبية تهتز وتتحرَّك تحت ردائه البرتقالي، والخواتم تومض في أصابعه، وجواهر الأوبفاير تومض على ردائه.

كان فيد راوثا يسير إلى جوار البارون، بشعرٍ داكن مصفَّف في جدائل مجعَّدة بدت خليعة بشكل يتنافر مع عينيه المتجهِّمتين، مرتديًا غلالة جلدية سوداء ضيِّقة وسراويل مريحة تنتهي بانتفاخ، ومنتعلًا في قدميه الصغيرتين خُفَّين نعليهما ناعمين.

لاحظت الليدي فنرينج مشية الشاب المتَّزنة وحركة عضلاته الواثقة أسفل الغلالة، وفكَّرت: هذا شخص لن يترك نفسه يسمن.

وقف البارون أمامهما، وأمسك ذراع فيد راوثا بقبضةٍ غيُورة، وقال: «ابن أخي، ولي العهد، فيد راوثا هاركونن»، ثم أدار وجهه الطفولي الممتلئ نحو فيد راوثا وقال: «الكونت والليدي وفنرينج اللذان حدَّثتك عنهما».

حنى فيد راوثا رأسه وفقًا لأصول المجاملة، محملقًا إلى الليدي فنرينج. كانت ذهبية الشعر ممشوقة القوام، ينساب على جسدها المثالي فستانٌ بُنِّي فاتح جدًا، لم يتطلَّب غير رشاقة جسدها زخرفًا. بادلته عيناها الخضراوان الرماديتان النظرة. كانت تتمتَّع بهدوء البِني جيسيرِت الوقور، وهو ما أشعر الشاب بانزعاج خافت.

قالٍ الكونت: «امممممم»، ممعنًا في النظر إلى فيد راوثا: «إلى هذا.. هممم.. إلى هذا الشاب تحديدًا.. آه... هممم... يا عزيزي؟»، وألقى الكونت نظرة إلى البارون: «يا باروني العزيز، قلت إنك تحدَّثت عنَّا إلى هذا الشاب تحديدًا؟ ماذا قلت له؟».

قال البارون: «حكيت لابن أخي عن الاحترام الكبير الذي يكنُّه إمبراطورنا لك يا كونت فنرينج». وفكَّر: *انتبه له جيِّدًا يا فيد! إنه ذئبٌ في ثوب حمل، قاتل بأخلاق أرنب، وهذا هو النوع الأكثر خطورة.*

قال الكونت: «بالطبع!»، وابتسم لزوجته.

شعر فيد راوثا بإهانة مستترة في أفعال وأقوال الرجل. كانت تلميحاته خفيَّة تعرف متى تتوقَّف قبل أن تبلغ حدَّ التصريح. ركَّز الشاب انتباهه على الكونت: كان رجلًا ضئيل الجسم هزيل المظهر، ذا وجهٍ مداهنٍ كحيوان ابن عرس، تحتلُّه عينان داكنتان

شديدتا الاتِّساع. كان أشيب الفودين، غريب الحركات، صعب المتابعة: يحرِّك يده أو يميل برأسه في اتِّجاه، ثم يتكلَّم في الاتِّجاه الآخر.

قال الكونت موجِّهًا كلامه إلى كتف البارون: «امممممممم، لا يقابل المرء مثل، امممممممم، هذه الدقَّة إلَّا نادرًا. أهنِّئك.. آها.. على.. هممم.. كمال الصفات الذي يتمتَّع به.. آاااه.. ولي عهدك. مقارنةً بابن أخيك الآخر الأكبر سنًّا، إن جاز لي القول».

قال البارون: «هذا لطفٌ منك»، وانحنى احترامًا، لكن فيد راوثا لاحظ في عيني عمه أنه لم يحب هذه المجاملة.

قال الكونت: «تهكُّمك.. مممم.. يشير إلى أنك.. هممممم... تفكِّر تفكيرًا عميقًا».

فكَّر فيد راوثا: *ها هو يفعلها ثانيةً. ما يقوله يبدو مهينًا، لكن دون أن تستطيع الإمساك بشيءٍ عليه.*

شعر فيد راوثا بأن رأسه يغوص في طبق عصيدة وهو يستمع إلى الرجل... *امممم، وهممممم!* فأعاد انتباهه إلى الليدي فنرينج.

قالت: «لقد أخذنا كثيرًا من وقت هذا الشاب. على حسب علمي سيشارك في قتالٍ اليوم».

فكَّر فيد راوثا: *بحق الحور* المقصورات في خيام حريم* *الإمبراطور، كم هي جميلة!* ثم قال: «سأقتل اليوم على شرفك يا سيِّدتي. سأهدي الفوز إليك في الحلبة، إن أذنتِ لي».

بادلته النظرة بهدوء، لكن صوتها بدا كلسعة سوطٍ وهي تقول: «لا أمنحك الإذن».

قال البارون: «فيد!»، وفكَّر: *يا للأزعر الأحمق! هل يريد لهذا الكونت الفتَّاك أن يتحدَّاه في نزالٍ رسمي؟*

لكن الكونت ابتسم مهمهمًا فحسب: «همممممممم».

قال البارون: «عليك الاستعداد لنزول الحلبة بالفعل يا فيد. يجب أن ترتاح وألّا تعرِّض نفسك لأيِّ مخاطرَ حمقاء».

انحنى فيد راوثا بوجهٍ مكفهرٍّ من الاستياء وقال: «كل شيء سيسير وفقًا لرغبتك يا عمِّي»، ثم أومأ إلى الكونت فنرينج قائلًا: «سيِّدي»، وإلى الليدي وقال: «سيدتي»، ثم استدار مغادرًا القاعة بخطواتٍ واسعة، دون أن يكلِّف نفسه عناء النظر إلى زمرة أفراد العائلات الصغيرة الواقفين قرب الباب المزدوج.

تنهَّد البارون: «ما زال صغيرًا».

قال الكونت: «امممم.. بلا ريب.. هممممم».

فكَّرت الليدي فنرينج: *أيعقل أن يكون هذا هو الشاب الذي قصدته الأم الموقرة؟ هل هذه هي السلالة التي يجب أن نحافظ عليها؟*

قال البارون: «أمامنا أكثر من ساعة قبل الذهاب إلى الحلبة، رُبَّما بإمكاننا تبادل حديثنا القصير الآن يا كونت فنرينج»، ثم أمال رأسه الضخم إلى اليمين وأردف: «لقد حدثت تطوُّرات كثيرة يتعيَّن علينا مناقشتها».

وفكَّر البارون: *لنرى الآن كيف سيتمكَّن ساعي الإمبراطور هذا من نقل فحوى الرسالة التي يحملها بلا أن يكون فظًّا إلى درجة التلفُّظ بها صراحةً.*

قال الكونت لزوجته: «امممممم، هممممم، هل تسمحين.. مممم.. لنا.. آااه.. يا عزيزتي؟».

قالت: «كل يوم، بل أحيانًا كل ساعة، أنت في حال. مممم». ثم ابتسمت بعذوبة للبارون قبل أن تستدير مبتعدةً. هفهفت أطراف

تثُورتها وهي تسير بخُطى ملكيةٍ وظهرٍ مستقيم نحو الباب المزدوجة في نهاية القاعة.

لاحظ البارون كيف توقّفت المحادثات الدائرة بين أفراد العائلات الصغيرة مع اقترابها منهم، وكيف تتبّعتها الأعين. *بني جيسيرت! لو تخلّصنا منهنّ جميعًا لصار الكون مكانًا أفضل!*

قال البارون: «بين عمودين من تلك الأعمدة إلى يسارنا مخروط صمت. نستطيع التحدُّث دون أن نخشى أن يسمعنا أحد». ثم تقدَّم الطريق بمشيته المتمايلة إلى المجال العازل للصوت، وشعر بأن ضوضاء الحصن صارت بعيدة وخافتة ما إن دخل حيِّزه.

صعد الكونت بجانب البارون، واستدارا مواجهًا الحائط كي تتعذَّر قراءة شفاههم.

قال الكونت: «لسنا راضين عن الطريقة التي أمرت بها السَّاردوكار بمغادرة أرَّاكس».

خطر للبارون: *كلام مُباشر وصريح!*

قال البارون: «لو بقي السَّاردوكار مدَّة أطول لخاطرنا باكتشاف البعض أمر مساعدة الإمبراطور لي».

- «لكن ابن أخيك رابان لا يبدو أنه يضغط بقوَّة كافية لحل مشكلة الفرمِن».

سأل البارون: «وماذا يرغب الإمبراطور؟ لم يبق على ظهر أرَّاكس سوى حفنة من الفرمِن. الصَّحراء الجنوبية غير صالحة للسكنى، ودورياتنا تمشِّط القطاعات الشمالية بانتظام».

- «ومن قال إن الصَّحراء الجنوبية غير صالحة للسكنى؟».

- «عالم البيئات الكوكبية التابع لكم يا عزيزي الكونت».

- «لكن الدكتور كاينز مات».

- «آه، صحيح. كم هذا مؤسف».

قال الكونت: «أتانا خبرٌ من طائرة حلقّت فوق المناطق الجنوبية بوجود أدلّة على حياة نباتية هناك».

- «هل وافقت النقابة على المراقبة من الفضاء؟».

- «أنت أدرى من الجميع بأنه لا يمكن للإمبراطور فرض مراقبة قانونية على أرّاكس أيُّها البارون».

- «وأنا لا أستطيع تحمُّل نفقاتها. من قام بهذه الرحلة الجوية؟».

- «آاا.. أحد المهرّبين».

قال البارون: «من أخبرك كذبك أيُّها الكونت. ليس بوسع المهرّبين التحليق فوق المناطق الجنوبية مثلهم مثل رجال رابان، بسبب العواصف، والاضطرابات الكهربائية الرملية، وكل الأمور التي تعرفها. تقتلع الرياح علامات الإرشاد الجوّي بسرعة تفوق قدرتنا على استبدالها».

قال الكونت: «سنناقش أنواع الاضطرابات الكهربائية في وقتٍ آخر».

آهاااا، هكذا فكّر البارون، ثم سأله: «هل وجدتم خطأً في روايتي إذاً؟».

قال الكونت: «حين تتخيّل وجود أخطاء، يتعذّر الدفاع عن النفس».

فكّر البارون: *إنه يحاول تعمُّد إثارة غضبي*. ثم أخذ نفسين عميقين لتهدئة نفسه. استطاع أن يشمَّ رائحة عرقه، وشعر فجأة بحكّة مزعجة سبّبها له نطاق مضادات الجاذبية تحت ردائه.

قال البارون: «لا يحق للإمبراطور أن يستاء من وفاة الحظيَّة والصبيِّ. لقد فرَّا إلى الصَّحراء وباغتتهما عاصفة».

وافقه الكونت: «أجل، وقعت الكثير من الحوادث الملائمة».

قال البارون: «لا تعجبني نبرتك أيُّها الكونت».

قال الكونت: «غضبك شيء، واستخدامك للعنف شيء آخر. دعني أحذِّرك من أنه في حال وقوع حادث مؤسف لي هنا، ستعلم كل العائلات النبيلة بما فعلته على أرَّاكس، فلطالما اشتبهوا في كيفية قيامك بأعمالك».

قال البارون: «العمل الوحيد الذي أتذكَّره هو نقل فيالق عدَّة من السَّاردوكار إلى أرَّاكس».

- «أتظنُّ أنه بإمكانك تهديد الإمبراطور بذلك إلى الأبد؟».

- «لم يخطر هذا التفكير ببالي على الإطلاق!».

ابتسم الكونت: «ما أسهل إيجاد بعض قادة السَّاردوكار المستعدين للاعتراف بأنهم تصرَّفوا من تلقاء أنفسهم بلا أوامر لأنهم أرادوا معركة مع حثالة الفرمن».

قال البارون: «سيشكُّ كثيرون في صحة اعترافٍ كهذا». لكن التهديد أجفله، وتساءل: *هل السَّاردوكار بهذا الولاء حقًّا؟*

قال الكونت: «يرغب الإمبراطور في مراجعة دفاترك المالية».

- «في أيِّ وقت يشاء».

- «ليس.. آه.. لديك أيّ اعتراض؟».

قال: «مطلقًا، أنا مستعد لأن تخضع إدارتي في شركة تشوم إلى أشدِّ تدقيق». وفكَّر: دعه يوجِّه *إليَّ اتّهامًا كاذبًا كي أكشفه. عندها سأقف في شموخٍ ونعرةٍ بروميثيوسيةٍ قائلًا: «اشهدوا أني قد ظُلمت». بعدها، دعه يجرِّب توجيه أيِّ اتّهامٍ آخر إليَّ، حتَّى لو*

كان صحيحًا، ولن تصدِّق العائلات النبيلة الكبرى زعمًا آخر من مُتَّهمٍ سبق أن ثبت خطأه.

غمغم الكونت: «لا شك في أن دفاترك ستخرج سليمة من أشدِّ تدقيق».

سأل البارون: «لماذا يهتم الإمبراطور بإبادة الفرمِن إلى هذا الحدِّ؟».

قال الكونت: «تريد تغيير الموضوع، أليس كذلك؟»، ثم هزَّ كتفيه وأردف: «حسنًا، السَّاردوكار هم الذين يريدون القضاء على الفرمِن لا الإمبراطور. كانوا في حاجة إلى ممارسة القتل، وهم يكرهون ترك مهمَّة دون إتمامها».

تساءل البارون: *أيظن أنه يخيفني بتذكيري أنه مدعوم من قتلة متعطِّشين للدماء؟*

قال البارون: «لطالما كان القتل بحساب ذراعًا تعضِّد الأعمال، لكن ثمَّة خط يجب ألَّا نتجاوزه، وينبغي لنا ترك البعض على قيد الحياة للعمل في استخراج الاسپايس».

فلتت من الكونت ضحكة قصيرة عاوية: «أتظن أنه بإمكانك تسخير الفرمِن؟».

قال البارون: «لم يكن عددهم يكفي لذلك في أيِّ وقت مضى، لكن أعمال القتل الممنهج بثَّت القلق في باقي السكَّان. لقد وصلت حدًّا جعلني أفكِّر في حلٍّ آخر للمعضلة الأرَّاكسية يا عزيزي فنرينج، وعليَّ أن أعترف أن الفضل يعود إلى الإمبراطور في إلهامي به».

- «آاااه؟».

- «كما ترى يا عزيزي الكونت، أخذت إلهامي من سالوسا سوكانداس، كوكب السجن الإمبراطوري».

حدَّجه الكونت بنظرة حادَّة الشراسة: «وما علاقة أرَّاكس بسالوسا سوكانداس؟».

شعر البارون بالاحتدام المتَّقد في عيني فنرينج، فقال: «لا توجد علاقة بعد».

- «بعد؟».

- «عليك الاعتراف بأن تحويل أرَّاكس إلى سجن سيكون وسيلة فعَّالة في تأسيس قوَّة عاملة لا يُستهان بها».

- «أتتوقَّع زيادة في عدد السجناء؟».

اعترف البارون: «وقعت بعض القلاقل والاضطرابات، وكان علي أن أضغط بشدَّة يا فنرينج. أنت تعلم الثمن الباهظ الذي دفعته للنقابة اللعينة لنقل قوَّتنا المشتركة إلى أرَّاكس، ولا بُدَّ من استرداد هذا المال بطريقة أو بأخرى».

- «أنصحك ألَّا تحوِّل أرَّاكس إلى سجن دون إذن الإمبراطور أيُّها بارون».

قال البارون: «قطعًا لا»، وتعجَّب من البرودة المفاجئة التي حلَّت على صوت فنرينج.

قال الكونت: «ثمَّة موضوع آخر، نما إلى علمنا أن مِنتات الدوق ليتو، ظفير حوَّاط، لم يمت، وأنه صار يعمل تحت إمرتك».

قال البارون: «لم تطاوعني نفسي على إهداره».

- «لقد كذبت على قائد السَّاردوكار عندما قلت له إن حوَّاط مات».

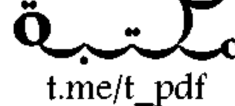
- «مجرَّد كذبة بيضاء يا عزيزي الكونت. لم أتحمَّل خوض جدال طويل مع الرجل».

- «هل كان حوَّاط الخائن الحقيقي؟».

- «بحق الجحيم، لا! الخائن هو الطبيب الفاسد»، قالها البارون ومسح عرقًا تجمَّع على رقبته ثم أردف: «عليك أن تفهمني يا فنرينج، كنت بلا مِنتات. أنت تعلم هذا. لم يسبق لي العمل دون مِنتات. كان الأمر مربكًا جدًا».

- «وكيف تمكَّنت من حمل حوَّاط على تغيير ولائه؟».

ابتسم البارون ابتسامةً مصطنعةً وقال: «لقد مات دوقه. لا داعي لخشية حوَّاط يا عزيزي الكونت، فقد حقنَّا سُمًّا كامنًا في جسد المِنتات، ونضع له الترياق في الطعام باستمرار. من دون الترياق، سيستفحل السُّمُّ وينتشر، وسيموت في غضون أيَّامٍ قليلة».



قال الكونت: «احرمه من الترياق».

- «لكنه أداة مفيدة!».

- «ويعرف أمورًا كثيرة يجب ألَّا يعرفها شخص ويظلُّ حيًا».

- «قلت إن الإمبراطور لا يخشى انكشاف أمره».

- «لا تمارس معي تلك الألاعيب أيُّها البارون!».

قال البارون: «عندما يأتيني أمر رسمي مختوم بختم الإمبراطور سأطيعه، لكنني لن أرضخ لنزواتك».

- «أتظنُّها نزوة؟».

- «وماذا تكون غير هذا؟ لا تنس أن الإمبراطور مدين لي يا فنرينج، فأنا من خلَّصه من الدوق المزعج».

- «بمساعدة بعض السَّاردوكار».

- «أيُّ عائلةٍ نبيلة أخرى كانت ستقبل بتنكُّر جنود الإمبراطور في زيِّها الرسمي لإخفاء ضلوعه في الأمر؟».

- «لقد طرح الإمبراطور السؤال ذاته على نفسه أيُّها البارون، ولكن بصيغة استفهام تقريري».

أمعن البارون في النظر إلى وجه فنرينج، ولاحظ التشنُّج في عضلات فكِّه، وتحكُّمه الدقيق في نفسه، ثم قال: «آها، حسنًا. آمل ألا يكون الإمبراطور يعتقد أنه يستطيع التحرُّك ضدِّي في الخفاء».

- «إنه يأمل ألَّا يضطر إلى ذلك».

- «كيف يصدِّق الإمبراطور أنني أهدِّده!»، قالها البارون سامحًا لنبرة الغضب والحزن بالتسلل إلى صوته، وفكَّر: *ليته يفعلها ويظلمني! سأستطيع وقتها اعتلاء العرش وأنا أضرب على صدري من فداحة الظلم الذي تعرَّضت له.*

بدت نبرة الكونت جافَّة وشاردة وهو يقول: «الإمبراطور يصدِّق ما تخبره به حواسُّه».

- «هل يجرؤ الإمبراطور على اتِّهامي بالخيانة أمام عموم مجلس اللاندسراد؟»، قالها البارون وحبس أنفاسه على أمل حدوث ذلك.

- «الإمبراطور لا يرغب في أن يجرؤ على شيء».

أدار البارون جسده بمضادات الجاذبية لإخفاء تعبير وجهه، وفكَّر: *قد يحدث ذلك في عهدي! حلم اعتلاء عرش الإمبراطور! يا ليته يظلمني! عندها، بالرُّشى وبالإكراه، سأحشد نبلاء العائلات الكبرى حولي. سيهرعون للاحتماء برايتي والانضواء تحت لوائي كما يهرع الرعاع بحثًا عن مأوى، فما من شيءٍ يخشونه أكثر من أن يفتك بهم السَّاردوكار الإمبراطوريون كلٌّ على حدةٍ، ويجتثُّونهم العائلة تلو الأخرى.*

قال الكونت: «يأمل الإمبراطور بصدق ألَّا يضطر إلى اتِّهامك بالخيانة أبدًا».

وجد البارون صعوبة في إخفاء نبرة التهكُّم في صوته وإبداء ألمه فيه فحسب، لكنه نجح في النهاية وقال: «لطالما كنت من أخلص الرعية وأشدِّهم ولاءً. هذه الكلمات تؤلم بدرجة تفوق قدرتي على التعبير».

قال الكونت: «امممممم».

ظلَّ البارون معطيًا ظهره للكونت، وراح يومئ برأسه، ثم قال: «حان وقت الذهاب إلى الحلبة».

قال الكونت: «بالتأكيد».

خرج الرجلان من مخروط الصَّمت، وسارا جنبًا إلى جنب متَّجهين صوب زمرة العائلات الصغيرة الواقفة في نهاية القاعة. من مكانٍ ما في القلعة بدأ جرسٌ يقرع ببطء، معلنًا أن عشرين دقيقة بقيت على التجمُّع في الحلبة.

قال الكونت مشيرًا برأسه إلى زمرة الأشخاص الذين يقتربان منهم: «نبلاء العائلات الصغيرة ينتظرون منك أن تقودهم».

فكَّر البارون: *معانٍ مزدوجة.. معانٍ مزدوجة*.

ثم رفع بصره نحو التميمتين الجديدتين المعلَّقتين على جانبي باب القاعة: رأس الثور الأسود واللوحة الزيتية التي تصوِّر الدوق التليد آتريديز، والد الدوق ليتو الراحل. امتلأ صدر البارون بشعور شؤم غريب منهما، ووجد نفسه يتساءل عن الأفكار التي بثَّتها تميمةً الأب الشجاع ورأس الثور الذي قتله في نفس الدوق ليتو طوال المدَّة التي كانتا معلَّقتين فيها في قاعات كلادان، ثم أرَّاكس من بعده.

- «للبشرية.. آه.. عِلم... امممم.. واحد»، هكذا قال الكونت وهما يتقدَّمان موكب الأتباع من القاعة وإلى غرفة انتظارٍ ضيِّقة ذات نوافذ عالية وأرضية يزيِّنها بلاطٌ أبيض وأرجواني.

سأل البارون: «أيُّ علم هذا؟».

قال الكونت: «امممممَم.. علم الـ.. آااه.. الاستياء».

بوجوهٍ خانعة وردود فعل الحملان، ضحك نبلاء العائلات الصغيرة من خلفهما بنبرة استحسانٍ، لكن الصَّوت تحوَّل إلى نشاز حين اختلط بصوت المحركات الصَّاخب المفاجئ الذي ترامى إلى مسامعهم عندما فتح الغلمان البوَّابة الخارجية كاشفين عن صفٍّ من السيَّارات تخفق عليها أعلامٌ مثلَّثة في الهواء.

رفع البارون صوته ليتغلَّب على الضوضاء المفاجئة: «آمل ألَّا تستاء من أداء ابن أخي اليوم في الحلقة يا كونت فنرينج».

قال الكونت: «لا.. آااه.. يملؤني.. امممم.. سوى شعور.. هممم.. بالترقُّب. على المرء أن يضع في حسبانه دومًا الجهة التي سمع منها البلاغ الشفوي».

تيبَّس جسد البارون من المفاجأة وتعثَّر في أولى درجات السُّلم الهابط من بوابة الخروج. *بلاغ شفوي! هذا يعني تقريرًا عن جريمة ارتُكبت ضد الإمبراطورية!*

لكن الكونت قهقه ليجعل ما قال يبدو كأنه مزحة، وربَّت على ذراع البارون.

طوال الطريق إلى الحلبة، جلس البارون متَّكئًا على وسائد سيَّارته المدرَّعة، يلقي نظراتٍ خفية إلى الكونت الجالس بجانبه، ويتساءل عن سبب إلقاء ساعي الإمبراطور هذه المزحة تحديدًا أمام نبلاء العائلات الصغيرة. كان من الواضح أن فنرينج نادرًا ما يفعل شيئًا كيفما اتَّفق، أو يلقي الكلام على عواهنه، أو يستخدم كلمتين حين تكون واحدة كافية لأداء الغرض، أو أن تحمل عباراته معنًى واحدًا فقط.

وعندما وصلا إلى المقصورة الذهبية المطلّة على الحلبة المثلّثة واتّخذا مقعديهما فيها -وسط صراخ الأبواق الحماسية وصخب الجمهور الذي يملأ المدرّجات من فوقهما وحولهما بأعلامه الخفّاقه- تفتّق ذهن البارون عن الإجابة.

مال الكونت إلى أُذُن البارون، وقال: «عزيزي البارون، أنت تعلم أن الإمبراطور لم يعطِ موافقةً رسميةً بعد على ولي العهد الذي اخترته، أليس كذلك؟».

شعر البارون بغتةً أن الصدمة جعلته أسير مخروط صمتٍ خاص به. حدق مبهوتًا إلى وجه فنرينج، وبالكاد رأى زوجة الكونت وهي تمرُّ عبر الحرس للانضمام إليهما في المقصورة الذهبية.

قال الكونت: «هذا هو السبب الحقيقي وراء مجيئي اليوم. يرغب الإمبراطور في أن أقدِّم إليه تقريرًا عمَّا إذا كنت قد اخترت خليفةً جديرًا، ولا شيء يكشف عن معدن الشخص الحقيقي مثل حلبة المصارعة، أليس كذلك؟».

قال البارون جازًا على أسنانه: «لقد وعدني الإمبراطور بحرِّية اختيار وارثي!».

قال فنرينج: «سنرى»، ثم التفت للترحيب بزوجته، التي جلست، وابتسمت للبارون، ثم نقلت انتباهها إلى الحلبة الرملية أسفلهم، حيث ظهر فيد راوثا في زيٍّ جلديٍّ ضيِّق، في يُمناه قفَّازٌ أسود وسكِّينٌ طويلة، وفي يُسراه قفَّازٌ أبيض وسكِّينٌ قصيرة.

قالت الليدي فنرينج: «الأبيض للسُّمِّ، والأسود للنقاء. تقليد غريب ومثير للفضول، أليس كذلك يا حبيبي؟».

همهم الكونت: «امممم».

ارتفعت هتافات التشجيع من المنصَّات العائلية، فتوقَّف فيد راوثا لتقبُّلها رافعًا بصره وماسحًا الوجوه المألوفة: الأقارب وأولاد العم وأنصاف الأشقَّاء، والحظيّات والآوتفرين والأنساب البرّانيُّون. كانت هناك أفواه كثيرة تهتف له وسط خليطٍ مضطرب من الملابس واللافتات الزاهية الألوان.

أدرك فيد راوثا وقتها أن صفوف الوجوه المحتشدة ستنظر إلى دمائه المسفوكة بذات الحماسة التي ستنظر بها إلى دماء العبد المصارع. ما من شكٍّ في نتيجة المعركة بالطبع، فما يُقدَّم على هذه الحلبة ليس سوى عرض يحمل إيهامًا صوريًا بالخطر، لا خطرًا حقيقيًا، ومع ذلك...

رفع فيد راوثا نصليه إلى قرص الشمس، مُحيِّيًا أركان الحلبة الثلاثة بالطريقة القديمة. بعدها أغمد السكّين القصيرة الممسك بها في يُمناه المتقفّزة بالأبيض (رمز السُّم)، ثم النصل الطويل التي في يُسراه المتقفّزة بالأسود: النصل النقي الذي لم يكن نقيًا الآن، سلاحه السرّي الذي سيحوّل معركة اليوم إلى انتصارٍ شخصي خالص: النصل الأسود المسموم!

لم يأخذ ضبط درعه سوى لحظات، توقَّف بعدها هنيهة شاعرًا بالدرع يشدُّ جلد جبينه، مؤكّدًا حمايته كما ينبغي.

كان لهذه اللحظات مذاقٌ مشوّقٌ حرِّيف، لذا أطالها فيد راوثا كأي رجل استعراض واثق بنفسه، وراح يومئ برأسه إلى مدرِّبيه وأعوانه من مُشتِّتي انتباه، متفقّدًا معدّاتهم بنظرة فاحصة: الأصفاد في أماكنها بأشواكها الحادّة اللامعة، وكذلك الأسياخ والخطاطيف بشرائطها الزرقاء.

أشار فيد راوثا بيده إلى العازفين.

بدأ اللحن العسكري البطيء يدوي بمهابة عريقة، وقاد فيد راوثا فرقته عبر الحلبة لتقديم فروض الاحترام والطّاعة أسفل مقصورة عمّه. ثم التقط مفتاح المراسم الاحتفالية حين أُلقي له به.

حينها توقّفت الموسيقى.

في الصّمت الذي خيّم فجأة، تراجع فيد راوثا خطوتين إلى الخلف ورفع المفتاح وصاح: «أهدي هذه الحقيقة إلى...»، ثم توقّف عالمًا أن عمّه سيفكّر: *ها هو الغلام الأحمق سيقدّم إهداءه إلى الليدي فنرينج ويفتعل مشكلة!*

لكن فيد راوثا صاح: «إلى عمّي ونصيري، البارون ڤلاديمير هاركونن».

وسُرَّ حين رأى تنهيدة عمّه.

استأنفت الفرقة العزف بإيقاع متسارع، وقاد فيد راوثا رجاله بالخطوة السريعة عبر الحلبة إلى باب الطوارئ الذي يسمح فقط بمرور من يضعون شريط هوية خاص. كان فيد راوثا يفتخر بنفسه لأنه لم يستخدم باب الطوارئ من قبل للفرار من القتال، وأنه قلّما استعان بمشتّتي الانتباه. لكن وجودهم اليوم مطمئن، فالخطط الخاصة تنطوي أحيانًا على مخاطرَ خاصة.

مرّة أخرى، خيّم الصّمت على الحلبة.

استدار فيد راوثا مواجهًا الباب الأحمر الكبير الذي سيخرج المصارع من خلاله.

المصارع الخاص.

خطر لفيد راوثا أن الخطة التي وضعها ظافر حوّاط كانت بسيطة ومباشرة على نحوٍ جدير بالإعجاب. لن يكون العبد مخدَّرًا، وهذا هو مصدر الخطر. وإنّما زُرعت كلمة في عقل الرجل اللا واعي كي تشلّ حركته عند اللزوم.

قلَّب فيد راوثا الكلمة المهلكة في ذهنه، ولفظها دون صوت «حثالة!». في نظر الجمهور، سيبدو الأمر كأن عبدًا غير مخدَّر زُجَّ به خلسةً إلى الحلبة لقتل ولي عهد البارونية، وستشير كل الأدلة -التي رُتِّبت بعناية- إلى القهرمان، القيِّم على العبيد.

أصدرت محرِّكات الباب الأحمر صريرًا منخفضًا مع تجهيزها لفتحه.

صبَّ فيد راوثا كل تركيزه على الباب. اللحظة الأولى هي الحاسمة دائمًا، فمظهر المصارع عند خروجه يخبر العين المدربة بالكثير ممَّا تحتاج إلى معرفته. من المفترض أن جميع المصارعين يتعاطون جرعة عالية من عقار الإلاكة قسرًا ليخرجوا مستعدين للقتل، لكن عليك أن تراقب الطريقة التي يحملون السكِّين بها، وإلى أيِّ اتِّجاهٍ ينتكصون في الدفاع، وإذا ما كانوا مدركين لوجود الجمهور في المدرَّجات أم لا. حتَّى الطريقة التي يميِّل بها العبد رأسه يمكن أن تعطيك دليلًا مهمًّا عن أساليبه في التصدِّي والهجوم الخادع.

انفتح الباب الأحمر بقوَّة.

ومنه خرج رجلٌ فارع القامة مفتول العضلات برأسٍ حليق وعينين داكنتين غائرتين. كان جلده بلون الجزر كما هو مُفترض نتيجةً لتعاطي عقار الإلاكة، لكن فيد راوثا كان يعلم أن اللون مجرَّد طلاء. كان العبد يرتدي زيًّا أخضر ضيِّقًا ويتمنطق بحزام أحمر لدرعٍ نصفي. كان سهم الحزام يشير إلى اليسار ليدلَّ على أن جانب العبد الأيسر هو الجانب المحمي، وكان العبد يقف وقفة المقاتلين المتمرِّسين حاملًا سكِّينه كما يُحمل السيف، بميلٍ طفيف إلى الخارج. ببطء، تقدَّم الرجل إلى مركز الحلبة، مُصدِّرًا

جانبه المحمي إلى فيد راوثا وإلى مجموعة مرافقيه الواقفة عند باب الطوارئ الإشعاعي.

قال أحد رجال فيد راوثا حاملين الأسياخ: «لا يعجبني مظهر هذا الرجل، هل أنت واثق بأنه مخدَّر يا سيِّدي؟».

قال فيد راوثا: «لونه يشير إلى ذلك».

قال معاونٌ آخر: «لكنه يقف وقفة المقاتلين».

تقدَّم فيد راوثا خطوتين فوق الرمال، متفحِّصًا هذا العبد.

سأل أحد مشتِّتي الانتباه: «ماذا فعل بذراعه؟».

انتقل انتباه فيد راوثا إلى الجرح الدامي على ذراع الرجل اليسرى، وتتبَّع الذراع ببصره نزولًا إلى يده التي كان يشير بها إلى الشعار المبلَّل المرسوم بالدم على فخذ زيِّه الأخضر الأيسر، ورأى رمز صقرٍ رُسم كيفما اتَّفق.

صقر!

رفع فيد راوثا بصره إلى العينين الداكنتين الغائرتين، ورأى أنهما تنظران إليه شزرًا وفيهما يقظة غير معتادة.

هذا ليس مصارعًا عاديًّا! هذا أحد رجال الدوق ليتو الذين أسرناهم على أرّاكس! هكذا فكَّر فيد راوثا. سرت رعدة في جسده، وتساءل إن كان حوَّاط دبَّر خطَّة أخرى لهذه الحلبة: مكرٌ محبوكٌ في مكرٍ محبوكٍ في مكرٍ، ولا أحد سيتلقَّى اللوم غير القيِّم على العبيد!

مال كبير معاوني فيد راوثا إلى أُذُنه وقال: «لا تعجبني نظرة هذا المصارع يا سيِّدي. دعني أغرز يده التي يحمل بها السكِّين بشوكة أو اثنتين لأختبره أوَّلًا».

قال فيد راوثا: «سأغرز فيه الشوكات بنفسي». ثم أخذ زوجين من القضبان الخطّافية الطويلة من المعاون، ورفعها في يده، مختبرًا توازنهما. في العادة تكون أطراف هذه الأشواك مغموسة في المخدِّر، لكنها لم تكن كذلك هذه المرَّة، ومن الممكن أن يلقى كبير المعاونين حتفه بسبب هذا، لكن الأمر برمَّته كان جزءًا من الخطَّة.

حوَّاط قال: «*ستخرج من الحلبة بطلًا مظفَّرًا. قتلت مصارعك رجلًا لرجل على الرغم من الخيانة الغادرة. سيُنفَّذ في مسؤول العبيد حكم الإعدام، وسيحلُّ رجلك محلَّه*».

تقدَّم فيد راوثا بضع خطوات أُخرى نحو مركز الحلبة، مُطيلًا اللحظة، متدبِّرًا العبد. كان يعلم أن الخبراء بين الجمهور الجالس في المدرجات فوقه أدركوا أن في الأمر خطبًا. كان لون بشرة المصارع يشير إلى أنه مُخدَّر، إلَّا أنه ثابتٌ لا يرتجف. لا بُدَّ أن الهواة يتهامسون الآن في ما بينهم: «انظروا إلى وقفته. من المفترض أن يكون مهتاجًا، أن يهاجم أو يتراجع. انظروا كيف يستجمع قوَّته، ويقف منتظرًا، ليس من المفترض أن ينتظر هكذا».

شعر فيد راوثا بجذوة الحماسة تتَّقد فيه، وفكَّر: *لا يهمُّني إن كانت الخيانة في تفكير حوَّاط، بإمكاني التعامل مع هذا العبد. السُّمُّ موضوع على نصل سكِّيني الطويلة هذه المرَّة، لا القصيرة. حتَّى حوَّاط لا يعلم ذلك.*

- «هاي! يا سليل الهراكنة. هل أنت مستعد للموت؟».

سيطر سكونٌ مميت على الساحة. *العبيد لا يبادرون بالتحدِّي!*

الآن، رأى فيد راوثا عيني المصارع بوضوح، وشاهد فيهما

شراسة اليأس الباردة. لاحظ وقفة الرجل المُستخفَّة المستعدَّة في الوقت ذاته، وعضلاته المتأهِّبة للانتصار. الكلام المتداول بين العبيد أوصل رسالة حوَّاط إلى هذا المصارع: «*ستتاح لك فرصة حقيقية لقتل ولي العهد*». هذا الجزء من الخطَّة إذًا تم كما خطَّطا له.

ارتسمت ابتسامةٌ حازمةٌ على فم فيد راوثا، ورفع الشوكتين، معاينًا نجاح خطته في الطريقة التي يقف بها المصارع.

تحدَّاه المصارع: «هاي! هاي!»، وتراجع خطوتين إلى الخلف.

فكَّر فيد راوثا: *لم يعد أحدٌ في المدرَّجات غير مدرك للأمر الآن.*

كان من المفترض أن يشُلَّ الهلع الناجم عن المخدِّر هذا العبد جزئيًا. كان من المفترض أن تفضح كل حركة صادرة عنه يقينه بأنه بلا أمل، بأنه خاسر لا محالة. كان من المفترض أن يكون رأسه مملوءًا بقصص السُّموم التي يختار ولي العهد وضعها على النصل في يده ذات القفَّاز الأبيض. ولي العهد الذي لا يسمح لخصومه بميتة سريعة، والذي يتفنَّن في استعراض سمومه النادرة، ويقف وسط الحلبة يشرح آثارها البادية على الضحية المتلوِّية ألمًا. نعم، الخوف ظاهر على هذا العبد، لكنه ليس هلعًا.

رفع فيد راوثا شوكتيه عاليًا، وأومأ في شبه تحيَّة.

وهنا انقضَّ المصارع.

كانت حركاته الهجومية وردود أفعاله الدفاعية أفضل من أيِّ شيءٍ رآه فيد راوثا، وكادت ضربة جانبية مضبوطة الميقات أن تقطع أوتار ساق ولي عهد البارونية اليسرى.

راوغ فيد راوثا مبتعدًا بخطوات راقصة، بعد أن غرز قضيبًا شائكًا في ساعد العبد الأيمن. اندفن الخُطّافان بالكامل في اللحم في موضعٍ لا يستطيع الرجل إخراجهما منه دون تمزيق أوتاره.

ارتفعت شهقة جماعية من المدرَّجات.

ملأ الصَّوت صدر فيد راوثا حُبورًا.

أدرك الآن شعور عمِّه الجالس إلى جوار الكونت فنرينج وزوجته، المراقبين من البلاط الملكي. لا يجوز التدخُّل في القتال بأيِّ حال، إذ لا بُدَّ من الالتزام بالأعراف أمام الشهود. لن يرى البارون ما يجري في الحلبة إلَّا بطريقة واحدة، بأنه تهديدٌ شخصي مباشر له.

تراجع العبد، ممسكًا السكِّين بين أسنانه، ورابطًا القضيب الشائك في ذراعه بالشريط الأزرق المتدلِّي منه، ثم صاح: «لا أشعر بإبرتك!». ثم عاد وتقدَّم إلى الأمام، شاهرًا سكِّينه، مُصدِّرًا لخصمه جانبه الأيسر، مائلًا بجسده إلى الخلف ليستفيد بأكبر قدر من حماية الدرع النصفي.

لم يغفل الجالسون في المدرَّجات عن هذا التصرُّف. اندلعت صيحات حادَّة من المقصورات العائلية، ونادى معاونو فيد راوثا سائلين إن كان في حاجة إليهم.

لكنه أشار إليهم بالتراجع إلى باب الطوارئ.

فكَّر فيد راوثا: *سأقدِّم لهم عرضًا لم يروا مثله من قبل. لن تكون قتلته سهلة يمكنهم الاسترخاء والاستمتاع بأسلوبها، بل ستكون شيئًا صادمًا ثقيل الوطء يلقي الرعب في نفوسهم.*

وعندما سأصير البارون سيتذكَّرون هذا اليوم، ولن يستطيع أحدٌ ألَّا يخشاني بسبب هذا اليوم.

تراجع فيد راوثا أمام تقدُّم المصارع الذي يشبه السلطعون في حركته. انسحقت الرمال تحت قدمي فيد راوثا، وسمع لهاث العبد، وشم رائحة عرقه ورائحة الدم الخافتة في الهواء.

واصل ولي العهد تراجعه بثبات، وانحرف إلى اليمين مشهرًا شوكته الثانية. تراقص العبد في حركة جانبية، وبدا للحظة أن فيد راوثا يتعثَّر، فدوت صرخة من المدرَّجات.

انقضَّ العبد مرَّةً أخرى.

فكر راوثا وهو يقفز مراوغًا: *بحقِّ الآلهة، يا له من مقاتل!* لم تنقذه سوى سرعة الشباب، وترك الشوكة الثانية مغروزة في عضلة كتف العبد اليمنى.

ضجَّ الجمهور بالهتاف.

فكَّر فيد راوثا: *إنهم يهتفون لي الآن.* سمع الإثارة المحتدمة في الأصوات كما توقَّع حوَّاط بالضبط. لم يسبق للجمهور أن هتف لمقاتل من العائلة بهذه الحماسة. فكَّر فيد بشيء من الأسى في أمرٍ قاله له حوَّاط: «*من الأسهل أن يخاف المرء من عدوٍّ يحترمه*».

برشاقة، تراجع فيد راوثا إلى منتصف الحلبة ليراه الجميع بوضوح. سحب نصله الطويل، وربض أرضًا منتظرًا تقدُّم العبد.

وقف الرجل برهة ليربط الشوكة الثانية بإحكام على ذراعه، وأسرع في سعيه.

فكَّر فيد راوثا: *فلتشهد العائلة ما أفعله. إنني عدوٌّ لهم، ليفكِّروا فيّ دائمًا كما يرونني الآن.*

ثم سحب نصله القصير.

قال المصارع: «أنا لا أهابك يا خنزير الهراكنة. تعذيبك لن يفلح في إيلام رجلٍ ميت بالفعل. سأطعن نفسي بنصلي قبل أن يمسَّني أحد معاونيك، لكنك ستكون مقتولًا إلى جواري قبلها».

ابتسم فيد راوثا ورفع نصله الطويل، النصل المسموم، وقال: «ذُق هذا»، وراوغ مخادعًا بالنصل القصير في يده الأخرى.

نقل العبد سكِّينه إلى يده الأخرى، وراوغ بمهارة متفاديًا حركات خصمه الدفاعية والهجومية، متصدِّيًا لنصل ولي العهد القصير، النصل القابع في اليد بيضاء القفَّاز الذي ينصُّ العرف أن يكون النصلَ المسموم.

قال المصارع لاهثًا: «ستموت يا سليل الهراكنة».

تصارع الرجلان على الرمال جنبًا في جنب، وحيث التقى درع فيد راوثا بدرع العبد النصفي تألَّق وميضٌ أزرق. امتلأ الهواء من حولهما بالأوزون بسبب مجال الطاقة.

صرَّ العبد على أسنانه قائلًا: «مُت بسُمِّك!».

وبدأ يدفع اليد ذات القفَّاز الأبيض إلى الداخل، موجِّهًا النصل الذي يظن أنه المسموم إلى صدر غريمه.

فكَّر فيد راوثا: *ليشهدوا هذا!* ونزل بالنصل الطويل على العبد، وشعر به يصطدم بالقضيب الشائك المربوط في ذراع العبد.

مرَّت لحظة شعر فيها فيد راوثا باليأس، فلم يكن يتوقَّع أن القضيبين الشائكين سيعطيان العبد أفضلية، لكنهما منحاه درعًا إضافية. ما أقوى هذا المصارع! ها هو النصل القصير يُدفع نحو صدره بلا هوادة، وهنا أدرك فيد راوثا أن المرء يمكن أن يموت بنصلٍ غير مسموم.

لفظ فيد راوثا لاهثًا: «حثالة!».

أطاعت عضلات المصارع الكلمة المنطوقة واكتنفها استرخاءٌ لحظي. كان هذا كافيًا لفيد راوثا، الذي ابتعد عنه مسافة تكفي لمدِّ النصل الطويل، وفتَح جرحٍ أحمر به على صدر العبد. كان ألم السُّمِّ فوريًا، وأجبر الرجلَ على فضِّ اشتباكه بفيد، وترنَّح متراجعًا إلى الخلف.

فكَّر فيد راوثا: *فلتشهد عائلتي العزيزة الأمر. فيتأمَّلوا هذا العبد الذي حاول أن يدير نصل السكِّين الذي ظن أنه مسموم ويستخدمه ضدي، وليتساءلوا كيف يمكن أن يأتي المصارع إلى هذه الساحة مستعدًا لمحاولة اعتداءٍ كهذي، وليعوا دائمًا أنهم لن يعرفوا أبدًا في أيِّ يدٍ أحمل السُّمَّ.*

وقف فيد راوثا في سكون يراقب حركة العبد المتباطئة. كان الرجل يتحرَّك بوعيٍ متردِّد، وعلى وجهه تعبيرٌ مقروء يسهل على كل مشاهد فهمه بوضوح. كان الموت مكتوبًا على جبينه. أدرك العبد حقيقة ما لحق به، وكيف لحق به. السُّمُّ كان على النصل الخطأ.

أنَّ الرجل: «أنت!».

تراجع فيد راوثا ليفسح للموت مجاله المستحق. لم تبدأ مادَّة السُّمِّ المسبِّبة للشلل مفعولها الكامل بعد، لكن بطء الرجل دلَّ على أنها تنتشر.

ترنَّح العبد إلى الأمام كما لو كان معلَّقًا بخيط، مجرجرًا قدميه الخطوة تلو الأخرى. وفي ذهنه المُشوَّش، بدت كل خطوة كأنها عالمٌ قائمٌ بذاته. كان لا يزال ممسكًا بسكِّينه، لكن طرفها كان يرتجف.

شهق قائلًا: «يومًا ما... سينال... منك... أحدنا».

التوى فمه في عبوسٍ حزين، وجثا في تهدُّل، ثم تصلَّب جسده وسقط متدحرجًا بعيدًا عن فيد راوثا، وانتهى بوجهه متمرِّغًا في الرمال.

تقدَّم فيد راوثا وسط الحلبة الساكنة، ودسَّ إصبع قدمه تحت المصارع وقلبه على ظهره ليرى الجمهور بوضوح اعتمال السُّمِّ في جسده، وما يُحدثه من التواءٍ وتشنُّجٍ في عضلاته. لكن حين انقلب جسد المصارع كشف عن مقبض سكِّينه البارز من صدره.

على الرغم من إحباطه، أحسَّ فيد راوثا بقدرٍ من الإعجاب بالجهد الذي بذله هذا العبد للتغلُّب على الشلل وفِعل هذا بنفسه. ومع الإعجاب انتابه شعورٌ بأن ما يراه هنا أمرٌ يبعث حتمًا على الخوف.

هذا ما يجعل الجبَّارين مرعبين. وبينما كان غارقًا في فكرته، لاحظ فيد راوثا الصخب الذي عمَّ الجمهور في المدرجات والمنصَّات من حوله. كانوا يهتفون في حماسةٍ مفرطة.

استدار فيد راوثا، ورفع بصره إليهم.

كان الجميع يهتف، باستثناء البارون الذي جلس ساندًا ذقنه على يده بملامحه تشيع فيها أمارات التفكير العميق. وكذلك الكونت وزوجته، اللذان كانا يحملقان إليه بوجهين مبتسمين.

التفت الكونت فنرينج إلى زوجته قائلًا: «اهممممم، إنه شابٌّ.. امممم.. واسع الحيلة، أليس كذلك.. مممماه.. يا عزيزتي؟».

قالت: «استجاباته العصبية.. آاه.. سريعة جدًّا».

نظر البارون إليها، وإلى الكونت، ثم عاد وركَّز انتباهه على الحلبة مفكِّرًا: كيف *استطاع أحدهم الاقتراب إلى هذا الحد من واحدٍ منَّا!* ثم حلَّ غضبٌ عارمٌ محلَّ خوفه. *سآمر بشوي القيِّم*

علـى العبيـد علـى نـارٍ هادئـة الليلـة.. وإذا كان هـذا الكونـت وزوجتـه ضالعيـن فـي الأمـر فسـوف...

مـن منظـور فيـد راوثـا، بـدا الحـوار الدائـر فـي مقصـورة البـارون كحلمٍ بعيـد تطغـى عليـه الهتافـات ودبيـب الأقـدام الـذي يأتيـه مـن كل اتّجاه.

- «الـرأس! الـرأس! الـرأس! الـرأس».

اكفهـر وجـه البـارون وهـو يـرى الطريقـة التـي التفـت بهـا فيـد راوثـا نحـوه. تحكَّـم البـارون فـي غضبـه بصعوبـة، وعلـى مضـض، ولوَّح بيـده إلـى الشـاب الواقـف فـي الحلبـة إلـى جـوار جسـد العبـد المتمـدِّد. يستحقُّ الغـلام أن ينـال رأس خصمـه بعـد أن فضـح القيِّم علـى العبيـد.

رأى فيـد راوثـا إشـارة الموافقـة، ففكَّـر: *يظنُّـون أنهـم يكرِّمونـنـي. دعهـم يـرون مـا أعتقـده أنـا!*

رأى معاونيـه يقتربـون حامليـن منشـارًا لينالـوا هـذا الشَّـرف، فأشـار لهـم بالتراجـع، وكـرَّر الحركـة حيـن رأى تردُّدهـم، وفكَّـر: *يظنُّـون أنهـم يكرِّمونـنـي بإهدائـي الـرأس!* ثـم انحنـى وعقـد يـدي المصـارع علـى مقبـض السـكِّين البـارز مـن صـدره، ثـم انتـزع السـكِّين ووضعهـا فـي اليديـن المرتخيتيـن.

فعـل ذلـك فـي لحظـة خاطفـة، ثـم نهـض وأشـار إلـى معاونيـه قائـلًا: «ادفنـوا هـذا العبـد وجسـده سـليم وسـكِّينه بيـن يديـه. لقـد اسـتحقَّ هـذا الشـرف».

فـي المقصـورة الذهبيـة، مـال الكونـت فنرينـج علـى البـارون وقـال: «لفتـة طيِّبـة تـدلُّ علـى براعـة حقيقيـة. يتمتَّـع ابـن أخيـك بالفطنـة، فضـلًا عـن الشـجاعة».

غمغم البارون: «لقد أهان الجمهور برفضه قبول الرأس».

قالت الليدي فنرينج: «كلَّا، على الإطلاق»، ثم استدارت ناظرةً إلى المدرَّجات المحيطة بهم.

لاحظ البارون جيدها الطويل المغري غضّ العضلات الشبيه بجيود الغلمان.

قالت: «لقد أعجبهم ما فعله ابن أخيك».

لاحظ البارون تأثير إشارة فيد راوثا على الجالسين في المقاعد الأبعد، وراقب نظرات الجمهور وهي تتتبّع المعاونين الذين حملوا جثّة المصارع الصريع دون المساس بها، وأدرك أنها فسَّرت رد فعلهم بشكل صحيح.

اندلعت حماسة الجمهور، وراح يلكز بعضهم بعضًا، وهم يصرخون ويضربون الأرض بأقدامهم.

قال البارون في ضجر: «سأضطر إلى إصدار أمر بإقامة مهرجان مفتوح، فلا يمكن أن يعود الناس إلى بيوتهم في هذه الحالة من دون تفريغ طاقتهم. يجب أن يروا أنني أشاركهم ابتهاجهم». أشار بيده إلى حارسه، فخفض أحد الخدم الواقفين فوقهم راية الهراكنة البرتقالية مرَّة، واثنتين، وثلاث، في إشارة إلى إقامة مهرجان.

قطع فيد راوثا الحلبة ووقف أسفل المقصورة الذهبية، نصلاه في غمدهما، وذراعاه مرتخيان على جانبيه. رفع صوته ليطغى على جنون الحشد الذي لا يهدأ صائحًا: «مهرجان يا عمّي؟».

بدأ الصخب يهدأ لمَّا سمع الناس المحادثة، ومكثوا منتظرين.

قال البارون: «على شرفك يا فيد!». ومرَّة أخرى أشار للخادم كي يخفض الراية.

أُزيلت حواجز الطوارئ الإشعاعية من حول الحلبة، وبدأ بعض الشُّبَّان يثبون إليها، مندفعين نحو فيد راوثا.

سأل الكونت: «هل أمرت بإزالة حواجز الطوارئ أيُّها البارون؟».

قال البارون: «لن يُصاب الغلام بأذًى، إنه بطل».

وصل الحشد المندفع إلى فيد راوثا، ورفعوه على أكتافهم، وبدؤوا يطوفون به في أنحاء الحلبة.

قال البارون: «بإمكانه السير بلا سلاح أو حماية عبر أفقر أحياء هاركو الليلة. سيقدِّمون له آخر ما لديهم من طعام وشراب طمعًا في مجالسته فحسب».

دفع البارون نفسه ناهضًا عن كرسيه، فاستقر وزنه على مضادَّات الجاذبية، ثم قال: «أرجو أن تعذراني، فثمَّة أمور عاجلة يجب أن أباشرها بنفسي. سيرافقكما الحرس إلى الحصن».

نهض الكونت وانحنى قائلًا: «بالتأكيد أيُّها البارون. نتطلَّع لحضور المهرجان، فلم.. همممم.. تسبق لي رؤية مهرجان هاركونني».

قال البارون: «صحيح، المهرجان». ثم استدار، وأحاطه الحرس وهو يخطو عبر مخرج المقصورة الخاص.

انحنى أحد قادة حرس الكونت فنرينج وقال: «أوامرك يا سيِّدي؟».

قال الكونت: «سننتظر.. آه.. إلى أن يهدأ الزحام قليلًا».

- «أمرك يا سيِّدي». قالها الرجل وانحنى متراجعًا ثلاث خطوات إلى الخلف.

واجه الكونت فنرينج زوجته، وهمهم إليها مجدَّدًا بلغتهما السرِّية: «بالتأكيد فهمت ما جرى؟».

همهمت بذات اللغة: «كان الفتى على علم بأن المصارع لن يكون مخدَّرًا. نعم مرَّ بلحظة خوف، لكنه لمّ يتفاجأ».

قال: «العرض برمَّته كان مدبَّرًا».

- «بلا شك».

- «أشمُّ رائحة حوَّاط في الأمر».

قالت: «قطعًا».

- «طالبت البارون قبل قليل بالتخلُّص من حوَّاط».

- «كان ذلك تصرُّفًا خاطئًا يا عزيزي».

- «أدركت ذلك الآن».

- «قد يحظى الهراكنة بارون جديد قريبًا».

- «إن كانت هذه خطَّة حوَّاط».

قالت: «يجب التحقيق في هذا الأمر».

- «الشاب سيكون أسهل انقيادًا وأكثر قابلية للسيطرة».

قالت: «سيكون طوع بناننا.. بعد الليلة».

- «ألا تتوقَّعين مواجهة صعوبة في إغوائه، أيا صغيرتي مازجة السلالات؟».

- «كلَّا يا حبيبي. لقد رأيت بنفسك كيف كان ينظر إليَّ».

- «أجل، وفهمت الآن لِمَ يجدر بنا حيازة هذه السلالة».

- «بالتأكيد، ومن الواضح أنه ينبغي لنا أن نسيطر عليه. سأزرع في أعمق أعماق نفسه عبارات البرانا بيندو اللازمة لإخضاعه».

قال: «سنغادر في أقرب وقت ممكن، بمجرد أن تطمئني من إتمام الأمر».

هزَّت كتفيها: «بلا ريب، فأنا لا أرغب في إنجاب طفل في هذا المكان الشنيع».

قال: «يا للأمور التي نفعلها من أجل البشرية».

قالت: «أنت تؤدي الدور السهل».

قال: «لا تنسي مشاعر الغيرة العتيقة التي عليَّ التغلُّب عليها، إنها غريزية كما تعلمين».

قالت وهي تداعب وجنته: «يا عزيزي المسكين. أنت تعلم أن هذه هي الطريقة الوحيدة لضمان الحفاظ على هذه السلالة».

قال بنبرة جافَّة: «أنا متفهِّمٌ تمامًا لما نفعله».

قالت: «لن نفشل».

ذكَّرها قائلًا: «الشعور بالذنب يبدأ كشعور بالفشل».

قالت: «لن يكون هناك شعورٌ بالذنب. بمجرَّد ربط عقل هذا المدعو فيد راوثا برباطٍ تنويمي، سيكون طفله في رحمي، ثم سنرحل».

قال: «وعمُّه هذا، هل رأيت مثل هذا المسخ المشوَّه من قبل؟».

قالت: «إنه شرس تمامًا. لكن ابن أخيه قد يكبر ويصبح أسوأ منه».

- «بسبب هذا العمِّ. أتعجَّب كيف كان سيكون هذا الصبيّ لو نشأ نشأة أخرى، لو ترعرع في ظلِّ أعراف آل آتريديز مثلًا».

قالت: «للأسف».

- «ليت كان بإمكاننا إنقاذ الفتى الآتريديزي وهذا الفتى. سمعت أن پول فتًى يباري الشمس، اجتمع فيه كمال الصفات وحُسن التدريب»، ثم هزَّ رأسه: «لكن يجب ألا نهدر أسفنا على سوء حظ النبلاء».

قالت: «ثمَّة مقولة للبِني جيسيرِت تقول...».

قاطعها معترضًا: «لديكن مقولات لكل شيء!».

قالت: «ستحب هذه المقولة: لا تحسبنَّ الشخص ميْتًا حتَّى ترى جثَّته، وحتَّى وقتها قد تكون مخطئًا».

يخبرنا المؤدِّب في كتاب «وقتٌ للتأمُّل» أن اصطداماته الأولى بضرورات الحياة على أرَّاكس كانت البداية الحقيقية لتعلُّمه. عندها تعلَّم كيف يقرأ الرمال للتنبُّؤ بالطقس، وتعلَّم لغة الرياح التي تلسع بشرته كوخز الإبر، وعرف كيف تطنُّ الأنف بخنفٍ حين تسبِّب لها الرمال حكَّة، وكيف يحافظ على رطوبة جسده الثمينة. وعندما اتَّخذت عيناه زُرقة أعين العباد، تعلَّم نهج تشاكوبسا.

من مقدِّمة ستيلجار لكتاب «المؤدِّب: الإنسان» للأميرة إيرولان.

في ضوء القمر الأوَّل الآخذ في الانحسار، خرجت مجموعة ستيلجار من الحوض الصحراوي في طريق عودتها إلى السييتش بصحبة الشريدين. هرول ذوو الأردية مسرعي الخُطى ورائحة الديار تملأ أنوفهم. كان خيط الفجر الأبيض خلفهم قد تبيَّن أشد ما تبيَّن عند نقطة تشير في تقويمهم الأُفُقي إلى انتصاف فصل الخريف، وبداية شهر كابروك.

تكدَّست أوراق النباتات الذابلة التي تجرفها الرياح عند سفح الجرف حيث اعتاد أطفال السييتش تجميعها، لكن لم يكن من الممكن تمييز صوت مرور الجماعة عن أصوات الليل الطبيعية (باستثناء تلك الهفوات العارضة التي كان يرتكبها پول وأُمُّه).

مسح پول عرقًا معجونًا بالغبار عن جبينه، وشعر بشخصٍ يجذبه من ذراعه، وسمع صوت تشاني يهمس: «افعل ما قلته لك: أنزل طيَّة قلنسوتك وغطِّ بها جبهتك، ولا تكشف إلَّا عينيك! أنت تهدر الرطوبة هكذا».

جاءهما أمرٌ هامس من خلفهما يطالبهما بالصّمت: «الصّحراء تسمعكما!».

زقزق طائرٌ من الصخور أعلاهم.

توقّفت الجماعة، وشعر پول بتوتّرٍ مفاجئ.

ثم جاء صوتٌ خافت من بينِ الصخور، صوتٌ لا يعلو عن صوت الفئران القافزة في الرمال.

زقزق الطائر مجدّدًا.

سرى اضطراب بين صفوف الجماعة، ومجدّدًا، جاءهم وقع الخطوات الفأريّة عبر الرمال، ثم زقزق الطائر مرّةً أخرى.

استأنفت الجماعة تسلُّقها عبر أحد الشقوق في الصخور، ولكن صمت الفرمِن المطبق وحبسهم أنفاسهم ملأ پول بالحذر. لاحظ استرقاقهم النظر إلى تشاني، التي بدت منزوية ومنطوية على نفسها.

كانوا يسيرون فوق أرضٍ صخرية الآن، يلفُّهم حفيف ثيابهم الخافت، وشعر پول بأنهم تخفّفوا من انضباطهم إلى حدٍّ ما، لكن الهدوء ظلَّ باديًا على تشاني والآخرين. كان يتبع تحرُّكات واحد منهم يسير أمامه كظلٍّ شبحيٍّ عبر درجات صاعدة، تبعتها انعطافة، ثم مزيدٍ من الدرجات، وإلى داخل نفق، مرورًا ببابين عازلين للرطوبة، حتّى وصلوا إلى ممرٍّ جدرانه ضيّقة وسقفه أصفر تضيئه كرات الإنارة.

رأى پول الفرمِن في كل مكانٍ من حوله يلقون بقلنسواتهم على ظهورهم، وينزعون سدّادات أنوفهم، ويتنفّسون بعمق. تنهّد أحدهم. نظر پول إلى تشاني، فوجد أنها غادرت جانبه. كان مطوَّقًا بلفيفٍ من الأجساد المتدثّرة، ودفعه أحدهم وهو يقول:

«معذرة يا أصول! فيا له من زحام! هكذا الأمر دائمًا».

إلى يساره، استدار الوجه ذو اللحية لصحابه المدعو فاروق نحو پول، وفي ضوء كرات الإنارة الأصفر، بدا السواد حول محجري عينيه الغائرتين أشد قتامة، وبدت زُرقة عينيه أشدّ حُلكة. قال فاروق: «اخلع قلنسوتك يا أصول، إنك في الديار». ثم ساعد پول في فكِّ رباط القلنسوة، مخليًا مساحة من حوله بكوعيه.

نزع پول سدَّادتي الأنف، وأزاح كمامة الفم جانبًا، فداهمه خليط روائح المكان: الأجساد غير النظيفة، وصُنان تقطير الإفرازات البشرية. كان المكان معبَّقًا بالروائح البشرية الكريهة، وفوق كل ذلك، أريج الاسپايس ومشتقَّاته.

سأل پول: «ماذا ننتظر يا فاروق؟».

- «الأمّ الموقَّرة على ما أظن. لقد سمعت الرسالة بنفسك، مسكينة تشاني».

مسكينة تشاني؟ هكذا سأل پول نفسه. ثم أجال بصره في أرجاء المكان، متسائلًا عن مكانها، ومكان أُمِّه وسط كل هذا الزحام.

أخذ فاروق نفسًا عميقًا، ثم قال: «روائح الوطن».

لاحظ پول أن الرجل مستمتعٌ بنتانة هواء هذا المكان بالفعل، إذ لم يكن في نبرته أثر سخرية، ثم سمع سعال أُمِّه، وجاءه صوتها عبر أجسام أفراد الجماعة المتلاصقة: «لسييتشك روائح قويَّة جدًّا يا ستيلجار، وأرى أنك تُدخل الاسپايس في صناعات كثيرة منها الورق، والبلاستيك، و... أليست هذه متفجِّرات كيميائية؟».

- «أعرفت كل هذا من خلال الشَّم؟». كان هذا صوت رجلٍ آخر.

أدرك پول أنها تتحدَّث لمصلحته، وأنها تريده أن يتجاوز سريعًا هذه الهجمة الآسنة على أنفه ويتقبَّلها.

ثم استشعر حركة في مقدِّمة الجماعة، وسمع شهقة طويلة تسري عبر جماعة الفرمِن، وسمع همسٌ خافت آتٍ من نهاية الصفِّ يقول: «الأمر صحيحٌ إذًا. لييت مات».

فكَّر پول: *لييت*، ثم فهم: *تشاني، إنها ابنة لييت!*

ربط عقل پول الخيوط بعضها ببعض. لييت هو الاسم الذي يُعرف به عالم البيئات الكوكبية بين الفرمِن.

التفت پول خلفه إلى فاروق وسأله: «هل المقصود هو لييت المعروف أيضًا باسم كينز؟».

قال فاروق: «لا يُوجد سوى لييت واحد».

عاد پول وحدَّق إلى ظهر الفرمِني الواقف أمامه، وفكَّر: *إذًا لييت كاينز مات.*

همس أحدهم: «كانت مكيدة هاركوننية. دبَّروا ميتته كي تبدو كحادثة. ضاع في الصَّحراء.. وتحطَّمت ثوبتره...».

شعر پول بنوبة من الغضب تعتريه. الرجل الذي صادقهم، الرجل الذي ساعد في إنقاذهم من صيَّادي الهراكنة، الرجل الذي أرسل جماعته من الفرمِن للبحث عنهما في الصَّحراء... ها هو قد صار ضحية أخرى من ضحايا الهراكنة.

سأل فاروق: «هل أصول متعطِّشٌ بعد إلى الانتقام؟».

قبل أن يجيب پول، صدرت صيحة نداءٍ خافتة اندفع على إثرها أفراد الجماعة إلى غرفة أوسع دافعين پول معهم. وجد نفسه في مكان واسع أمام ستيلجار وامرأة غريبة ترتدي ثوبًا فضفاضًا مسترسلًا زاهي اللونين الأخضر والبرتقالي. كانت

ذراعاها عاريتين إلى كتفيها، ورأى أنها لا ترتدي بذلة تقطير. كانت بشرتها زيتونية فاتحة، وشعرها الأسود مشدودًا إلى الخلف كاشفًا عن جبينٍ عريض، مبرزًا عظام وجنتيها الحادَّة وأنفها المعقوف ودُجنة عينتيها الدَّامسة.

استدارت نحوه، فرأى پول قرطين ذهبيين يتدلَّيان من أذنيها علِّقت فيهما حلقات مائية عدَّة.

سألت المرأة: «هذا من صرع زوجي چيميس؟».

قال ستيلجار: «صمتًا يا حارَّة*، چيميس من جنى على نفسه وطالب الاحتكام إلى تحدِّي البرهان».

قالت: «إنه مجرَّد صبي!»، وهزَّت رأسها بحدَّة من جانبٍ إلى آخر، فجلجلت الحلقات المائية: «يُتِّم طفلاي على يد طفلٍ مثلهما؟ قطعًا كانت حادثة عارضة!».

سأل ستيلجار: «أصول، ما سنُّك؟».

قال پول: «خمس عشرة سنة بالتقويم القياسي الموحَّد».

أدار ستيلجار عينيه في أفراد الجماعة، وقال: «هل من بينكم من يرغب في منازلتي؟».

أجابه الصَّمت.

نظر ستيلجار إلى المرأة وقال: «وأنا لا أجرؤ على تحدِّيه إلى أن أتعلَّم أسلوبه الخوارقي في القتال».

بادلته التحديق وقالت: «لكن...».

قاطعها سائلًا: «هل رأيت المرأة الغريبة التي ذهبت مع تشاني إلى الأُمِّ الموقَّرة؟ إنها سَيَّادينا من الآوتفرين، وهي أُمُّ هذا الصبيِّ. الأُمُّ وابنها راسخان في أساليب القتال الخوارقية».

همست المرأة: «لسان الغيب»، وحين عادت تنظر إلى پول،

بدت في عينيها رهبة وإجلال.

فكَّر پول: *ها هو أثر الأسطورة مجدَّدًا*.

قال ستيلجار: «رُبَّما، لكن ذلك لم يُختبر بعد»، ثم أعاد انتباهه إلى پول، وقال: «أصول، عاداتنا تلزمك بأن تتحمَّل مسؤولية امرأة چيميس وولديه. اليالي الذي يؤويه -أي مسكنه- صار ياليك، وكذلك أدواته لتحضير القهوة. كما صارت امرأته لك».

تأمَّل پول المرأة، وتساءل: *لِمَ ليست حزينة على زوجها؟ لِمَ لا تُبدي أيَّ كراهيةٍ لي؟* لكنه انتبه فجأةً أن الفرمِن يحدِّقون إليه، منتظرين.

همس أحد الأشخاص: «أمامنا أعمال يجب إنجازها. قل بأيِّ صفة ستقبلها».

قال ستيلجار: «أتقبل حارَّة زوجةً أم خادمةً؟».

رفعت حارَّة ذراعيها، ودارت على عقبيها ببطء: «ما زلت شابَّة يا أصول. يقولون إنني ما زلت أبدو يافعة مثلما كنت مع چيف، قبل أن يصرعه چيميس».

فكَّر پول: چيميس *قتل رجلًا آخر كي يحظى بها*.

قال پول: «أقبلها خادمة، هل لي أن أغيِّر رأيي في وقتٍ لاحق؟».

قال ستيلجار: «أمامك عامٌ لتغيير قرارك، بعده تصير امرأةً حرَّة تختار ما تريده، أو بإمكانك إعتاقها لتختار لنفسها في أيِّ وقت. لكنها في جميع الأحوال صارت مسؤوليتك لمدَّة عامٍ، وستظلُّ على الدوام تشاركها جزءًا من مسؤولية ولدي چيميس».

قال پول: «إذًا أقبلها خادمة».

ضربت حارَّة الأرض بقدمها، وهزَّت كتفيها في غضب: «لكنني شابَّة!».

رمق ستيلجار پول وقال: «الحذر صفة تُحترم فيمن كُتبت عليه القيادة».

كرّرت حارَّة: «لكنني شابَّة!».

أمرها ستيلجار: «صمتًا يا حارَّة، إن كان في الأمر خير فسيكون. اصطحبي أصول إلى مسكنه، وتأكّدي من توفير ملابس نظيفة له، ومكان ليرتاح فيه».

نفخت متذمِّرةً: «أُف!».

رأى پول ما يكفي منها لتكوين رأي أوَّلي عنها. كان يشعر بنفاد صبر أفراد الجماعة، ويعلم أن أمورًا كثيرة متعطِّلة هنا بسبب هذه المرأة. تساءل عمَّا إن كان يجوز له السؤال عن مكان والدته وتشاني، لكنه رأى من وقفة ستيلجار العصبية أن هذا سيكون خطأً.

واجه حارَّة، وضخَّ في صوته نبرة ترجيف ليزيد من خوفها ورهبتها، وقال: «أريني مسكني يا حارَّة! سنناقش مسألة شبابك في وقتٍ آخر».

تراجعت خطوتين إلى الخلف، ونظرت بخوف إلى ستيلجار، وقالت بصوتٍ مبحوح: «إنه يتكلَّم بالصَّوت الخوارقي».

قال پول: «ستيلجار، لقد ألقى والد تشاني التزامًا ثقيلًا على عاتقي، لذا إن كان بمقدوري فعل أيِّ شيء...».

قال ستيلجار: «سيتقرَّر هذا في المجلس. يمكنك التحدُّث حينها». ثم أومأ بالانصراف، واستدار مبتعدًا وتبعته المجموعة.

أمسك پول ذراع حارَّة، واستشعر مدى برودة بشرتها، وأحسَّ برجفتها، فقال: «لن آذيك يا حارَّة. هيَّا، أريني مسكننا». وأرخى نبرة صوته ليمتصَّ توتُّرها.

قالت: «ألن تطردني عندما يمرُّ العام؟ أعلم أنني لم أعد شابَّة مثلما كنت».

قال: «سيظلُّ لك مكان إلى جواري ما دُمت حيًا»، ثم ترك ذراعها وأردف: «والآن هيًا، أين مسكننا؟».

استدارت وقادته إلى عبر الممرِّ حتَّى بلغا نهايته، ثم انعطفت يمينًا إلى نفقٍ عريض تضيئه كرات إنارة صفراء طافية على مسافات متساوية. كانت الأرضية الحجرية التي يسيران فوقها ناعمة ونظيفة من الرمال.

مدَّ پول خطاه مقتربًا منها، وتأمَّل جانب وجهها الحاد الملامح، ثم سألها: «ألا تشعرين نحوي بكراهية يا حارَّة؟».

- «ولِمَ أكرهك؟».

أومأت محييةً مجموعة من الأطفال كانوا يحدِّقون إليهما من فوق حافَّة ممرٍّ جانبيٍّ مرتفعة. لمح پول خلف الأطفال هيئات أشخاص بالغين تحجبهم جزئيًا ستائر شفَّافة.

- «لأنني... صرعت چيميس».

- «قال ستيلجار إن الشعائر الجنائزية أُقيمت وأنك صديقٌ لچيميس»، ثم رمقته بنظرة جانبية وأردفت: «قال ستيلجار أيضًا إنك ذرفت من رطوبتك للميِّت، أهذا صحيح؟».

- «نعم».

- «هذا يفوق ما كنت سأفعل، يفوق ما بإمكاني فعله».

- «ألستِ حزينة عليه؟».

- «حين يأتي وقت الحزن، سأحزن عليه».

مرَّا بفُرجة مقوَّسة، فنظر پول عبرها ورأى رجالًا ونساءً يعملون أمام ماكينات مثبَّتة على حوامل في حجرة كبيرة ومضيئة. كان

في إيقاعهم ما يوحي بالاستعجال.

سألها پول: «ماذا يفعلون في تلك الحجرة؟».

ألقت نظرة سريعة إلى الوراء، إذ كانا قد تجاوزا الفُرجة المقوَّسة، وقالت: «هذه ورشة البلاستيك، إنهم يسارعون لإنهاء الحصَّة المطلوبة قبل فرارنا. نحتاج إلى الكثير من مكثِّفات الندى من أجل الاستزراع».

- «فراركم؟».

- «إلى أن يكُفَّ السفَّاحون عن ملاحقتنا أو يُجبرون على الخروج من أرضنا».

كاد پول يتعثَّر، شاعرًا بلحظة أسيرةٍ في الزمن، متذكِّرًا لمحة من صورة ذهنية استبصارية، لكنها لم تكن في مكانها الصحيح، كأنها جزء من مونتاج متلاحق. لم تكن شذرات ذكرياته الاستبصارية كما يتذكرها تمامًا.

قال: «السَّاردوكار في إثرنا».

قالت: «لن يجدوا الكثير باستثناء سييتش خالٍ أو اثنين، وسيلاقون نصيبهم من الموت في الرمال».

سألها: «هل سيعثرون على هذا المكان؟».

- «على الأرجح».

أشار برأسه نحو الفُرجة المقوَّسة التي كانت الآن بعيدة عنهما بمسافة كبيرة: «وبرغم هذا نضيِّع الوقت في تصنيع... مكثِّفات الندى؟».

- «لا بُدَّ للاستزراع أن يستمرَّ».

سألها: «وماذا تكون مكثِّفات الندى؟».

وجَّهت إليه النظرة تملؤها الدهشة.



- «ألم يعلّموكم أيَّ شيءٍ في... المكان الذي جئت منه؟».

- «بلى، لكن ليس عن مكثِّفات الندى».

قالت: «عجيب!»، وفي هذه الكلمة الواحدة انطوت محادثة كاملة.

- «حسنًا، ما هي؟».

- «كيف تظنُّ أن كل شجيرة وكل رقعة عُشبٍ تعيش في الصحراء المفتوحة حين نتركها؟ كلٌّ منها زُرعت برفق في حفرة صغيرة خاصة. هذه الحُفر مملوءة بأجسام بيضاوية ملساء من الكروموبلاستيك، يحيلها الضوء إلى اللون الأبيض. يمكنك رؤيتها تتلألأ في الفجر إذا نظرت إلى الأرض من مكان مرتفع، فاللون الأبيض يعكس الضوء. ولكن مع مغيب أُمِّنا العجوز الشمس، يعود الكروموبلاستيك إلى شفافيته في الظلام، وتنخفض حرارته سريعًا جدًا، فيُكثِّف سطحه الرطوبة من الهواء. هذه الرطوبة تتسرَّب إلى نباتاتنا وتبقيها حيَّةً».

غمغم پول: «مكثِّفات الندى»، مفتونًا ببساطة هذه الفكرة العبقرية.

قالت كأن عقلها لم يتجاوز بعد التفكير في سؤاله السَّابق: «سأحزن على چيميس حين يأتي الوقت المناسب. كان چيميس رجلًا صالحًا، لكنه سريع الغضب. كان رب أسرة مسؤولًا، ومدهش في التعامل مع الولدين. لم يكن يفرِّق بين ابن چيف، ولدي البكر، وابنه الذي من صلبه. كانا متساويين في نظره»، ثم رمقت پول بنظرة متسائلة وقالت: «هل سيكون الحال كذلك معك يا أصول؟».

- «لسنا في ذات الموقف».

- «ولكن ماذا لو...».

- «حارَّة!».

جفلت حارَّة من الصرامة الحادَّة في صوته.

مـرَّا بحجـرة أخـرى سـاطعة الإضـاءة بـدت لهمـا عبـر فُرجـة مقوَّسـة أخـرى إلـى يسـارهما. سـألها: «ومـاذا يُصنَّـع هنـا؟».

قالـت: «يصلِّحـون ماكينـات النسـيج، لكـن يجـب عليهـم تفكيكهـا الليلـة»، ثـم أشـارت إلـى نفقٍ متفرِّع إلـى يسـارهما، وقالـت: «فـي هـذا الدهليـز ومـا وراءه، توجـد أماكـن تجهيـز المـواد الغذائيـة وصيانـة بـذلات التقطيـر»، ثـم رمقـت پـول وأردفـت: «تبـدو بذلتـك جديـدة، لكـن إن كانـت بحاجـة إلـى إصـلاح، فأنـا ماهـرة فـي التعامـل مـع البـذلات، فأنـا أعمـل فـي المصنـع خـلال الموسـم».

بـدآ يمـرَّان الآن بتجمُّعـات بشـرية، وبعـدد أكبـر مـن المنافـذ والفتحـات المتفرِّعـة مـن جانبـي النفـق. مـرَّ بهمـا رهـطٌ مـن رجـالٍ ونسـاءٍ يحملـون علـى ظهورهـم حقائـب تصـدر عنهـا قرقـرة عاليـة، وتفـوح منهـم رائحـة اسـپايس قويـة.

قالـت حـارَّة: «لـن يضعـوا أيديهـم علـى مائنـا، أو علـى الاسـپايس فـي مخازننـا. لـك أن تتأكَّـد مـن هـذا».

نظـر پـول إلـى الفجـوات المفتوحـة فـي جـدران النفـق، ورأى السـجَّاد الثقيـل علـى الحـواف المرتفعـة، ولمـح غُرفًـا معلَّـق علـى حوائطهـا أقمشـة زاهيـة الألـوان وتتكـدَّس فيهـا الوسـائد. لـفَّ الصَّمـت قاطنـي تلـك الفتحـات بمرورهمـا بهـا، وراحـوا يتتبعـون پـول بنظـراتٍ فضوليـة شرسـة لا تسـتحي.

قالـت حـارَّة: «النـاس يسـتغربون تغلُّبـك علـى چيميـس، علـى الأرجـح سـيتعيَّن عليـك إثبـات جدارتـك مـرَّة أخـرى عندمـا نسـتقر فـي سـييتشٍ جديـد».

قال: «لا أحب القتل».

قالت: «هذا ما يقوله ستيلجار»، لكن صوتها كشف عن عدم تصديقها.

من مكانٍ ما أمامهما، تعالت أصوات جماعية تهتف في حماسةٍ. بلغ پول وحارَّة فتحة جانبية أوسع من كل الفتحات الأخرى التي رآها پول، فأبطأ من وتيرته محدِّقًا إلى حجرة مزدحمة بأطفالٍ جالسين القرفصاء على أرضية مغطاة بسجَّادٍ كستنائي.

أمام سبُّورة على الجدار البعيد، وقفت امرأة في ثوبٍ أصفر يلتفُّ حول جسدها ممسكةً بقلمٍ ضوئي في يدها. كانت السبُّورة ملأى بأشكال كثيرة مختلفة: دوائر، وأوتاد، ومنحنيات، ومسارات ثعبانية، ومربَّعات، وأقواس كبيرة تقسمها خطوطٌ متوازية.. وكانت المرأة تشير إلى الأشكال الواحد تلو الآخر محرِّكةً القلم بسرعة، فيهتف الأطفال في إيقاعٍ موحَّد مع حركة يدها.

أصغى پول إلى الأصوات التي راحت تتضاءل بالتدريج من خلفه وهو يتعمَّق أكثر في السييتش مع حارَّة. كان الأطفال يصيحون: «شجرة، عشب، كثيب، رياح، جبل، تلَّة، نار، برق، صخرة، صخور، غبار، رمال، حرارة، مأوى، حرارة، بدر، شتاء، برد، فراغ، تعرية، صيف، مغارة، نهار، توتُّر سطحي، قمر، ليل، كابروك، مدٌّ رملي، منحدر، استزراع، غطاء صخري، لاصق...».

سألها پول: «أتعقدون دروسًا في وقتٍ كهذا؟».

شاع الأسى في وجهها، وطغى الحزن على صوتها وهي تقول: «لا يمكننا التهاون في ما علَّمنا إيَّاه لييت لحظة. يجب ألا ننسى لييت الذي رحل. هذا هو نهج تشاكوبسا».

عبرت إلى يسار النفق، وصعدت فوق الحافَّة، وفتحت ستائر

برتقالية غامقة وتنحَّت جانبًا: «ياليك جاهزٌ لاستضافتك يا أصول».

تردَّد پول قبل أن ينضم إليها فوق الحافَّة. شعر بنفورٍ مفاجئ من فكرة الاختلاء بتلك المرأة. أدرك أنه محاط بأساليب معيشة لن يفهمها إلَّا إذا سلَّم جدلًا بمنظومة الأفكار والقيم التي بُنيت عليها. شعر بأن عالم الفرمِن يحاول اصطياده وإيقاعه في شراك عاداته. وكان يعرف ما يكمن في تلك الشراك: الجهاد الوحشي، الحرب الدينية التي يجب أن يتجنَّبها بأيِّ ثمن.

قالت حارَّة: «هذا ياليك، فلِمَ التردُّد؟».

أومأ پول، وصعد إلى جوارها على الحافَّة. رفع الستائر التي أمامها، وشعر بألياف معدنية في القماش، ثم تبعها إلى مدخلٍ قصير ومنه إلى غرفة مربَّعة أكبر عرضها نحو ستَّة أمتار، أرضيتها مفروشة بسجَّادٍ أزرق وثير، وتحجب جدرانها الصخرية أقمشة زرقاء وخضراء، وفي سقفها تطفو كرات إنارة ضُبط ضوءها على اللون الأصفر على خلفية من أقمشة صفراء كذلك تكسو السقف.

كان الجو العام يشبه جو الخيام العتيقة.

وقفت حارَّة أمامه، ويدها اليسرى في وسطها، وعيناها تتأمَّلان ملامح وجهه. «الطفلان عند إحدى الصديقات، سيقدِّمان أنفسهما إليك لاحقًا».

أخفى پول توتُّره بالنظر إلى أرجاء الغرفة. رأى عن يمينه ستائر رقيقة تخفي -بشكل جزئي- غرفة أكبر بها وسائد مكدسة حول الجدران. أحس بنسمة هواء خفيفة خارجة من أنبوب تهوية، ولاحظ أن الفتحة مخفية ببراعة خلف ستائر مزخرفة أمامه مباشرة.

سألته حارَّة: «أتريد مساعدة في خلع بذلتك؟».

- «كلَّا.. شكرًا لكِ».

- «هل أحضر لك طعامًا؟».

- «أجل».

- «تُوجد غرفة استعادة رطوبة وراء الغرفة الأخرى، تستطيع أن تستريح فيها دون بذلة تقطير».

قال بول: «قلتِ إننا سنضطر إلى مغادرة هذا السييتش، أليس من المفترض أن نحزم أمتعتنا أو ما شابه؟».

قالت: «سيتمُّ الأمر في وقته. السفَّاحون لم يتوغَّلوا بعد في منطقتنا».

ثم وقفت متردِّدةً، تحدِّق إليه.

سألها: «ما الأمر؟».

قالت: «عيناك ليستا كأعين العباد. شكلهما غريب، ومع هذا لا تخلوان من جاذبية».

قال لها: «أحضري الطعام، فأنا جائع».

ابتسمت له ابتسامة امرأة خبيرة لم يسترح لها، وقالت: «أنا خادمتك»، وأسرعت مغادرة في حركة رشيقة، وانحنت لتمرَّ عبر ستارٍ ثقيل كشف عن ممرٍّ آخر قبل أن يعود إلى مكانه.

شاعرًا بالغضب من نفسه، أزاح بول الستارة الخفيفة التي إلى يمينه واندفع إلى الغرفة الأكبر. وقف لحظة في مكانه تكتنفه الحيرة. تساءل عن مكان تشاني... تشاني التي فقدت لتوها والدها.

فكَّر بول: *إننا سواء في ذلك.*

دوت صيحة عاوية من الممرَّات الخارجية، جاءه صوتها مكتومًا

بسبب الستائر المتداخلة. تكرَّرت الصيحة من مكانٍ أبعد قليلًا. ثم مرَّةً أخرى. أدرك پول أن شخصًا يصيح معلنًا الوقت، وانتبه عقله لحقيقة أنه لم يرَ أيَّ ساعات في المكان.

بلغت أنفه رائحة خفيفة ناتجة عن حرق نبات حشيشة الشحم، وطغت على الرائحة الكريهة المنتشرة في أرجاء السييتش جميعها، فأدرك پول أنه اعتاد روائح المكان ونجح في صدِّ هجومها على حواسِّه.

وتساءل من جديد عن حال أُمِّه، وعن الكيفية التي سيضمُّها بها مونتاج المشاهد المستقبلية المتلاحق في صوره، هي والابنة التي تحملها. تراقص إدراكه الزمني المتقلِّب من حوله، فهزَّ رأسه بقوَّة، مركِّزًا انتباهه على الأدلَّة المحيطة به التي تشي بعمق واتِّساع هذه الثقافة الفرمنية التي ابتلعتهما.

بغرائبها الخفيَّة غير الملحوظة.

لقد لاحظ شيئًا في هذه الكهوف وفي هذه الغرفة، شيئًا يشير إلى وجود اختلافات كبيرة عن أيِّ شيءٍ صادفه في حياته حتَّى الآن.

لا أثر لاستخدام كشَّافات السُّموم هنا أو في أيِّ مكانٍ آخر في المغارة، ومع ذلك كان يشمُّ رائحة السُّموم -القوي منها والشائع- ضمن روائح السييتش النتنة.

سمع حفيف إزاحة الستائر، فظنَّ أن حارَّة قد عادت بالطعام، واستدار لينظر إليها. لكنه رأى خلف الستائر المُزاحة ولدين صغيرين -في سنِّي التاسعة والعاشرة على الأرجح- يحدِّقان إليه بأعينٍ طامعة شرهة، كليهما يتمنطق بحزام تتدلَّى منه سكِّينٌ عاجية صغيرة تشبه الخنچل، ويضع يده على المقبض.

وهنا تذكَّر پول القصص التي سمعها عن الفرمِن، وكيف أن أطفالهم يقاتلون بضراوة كالكبار.

يداه تتحرَّكان، وشفتاه تتحرَّكان،
والأفكار تفيض من كلماته،
وعيناه تلتهمان ما تبصرانه!
إنه بتفرُّده جزيرة.

وصف من كتاب «دليل المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

ألقت أنابيب الإضاءة الفوسفورية المعلَّقة في السقف المرتفع ضوءًا خافتًا على المغارة المزدحمة بالناس، معطيةً چيسيكا لمحة عن المساحة الفسيحة المحصورة بين الصخور التي بدت لها أكبر حجمًا من قاعة التجمُّع الكبيرة في مدرسة البِني چيسيرِت التي ارتادتها. قدَّرت چيسيكا أن ما يربو عن خمسة آلاف شخص محتشدين الآن في المغارة تحت المسطبة الصخرية التي تقف عليها مع ستيلجار.

وما زال المزيد يأتون.

كان الهواء يضجُّ بهمهمات الناس.

قال ستيلجار: «لقد أرسلنا نستدعي ابنك من راحته يا سيِّادينا، هل تريدين أن يشاركك في قرارك؟».

- «وهل في مقدوره تغيير قراري؟».

- «بالتأكيد، صحيح أن الهواء الذي تتحدَّثين به يخرج من رئتيك، لكن...».

قاطعته قائلة: «لن أغيِّر قراري».

لكن الشكَّ انتابها، وتساءلت إن كان يجدر بها التحجُّج ببول واستخدامه ذريعةً للتراجع عن هذا المسار الخطِر. عليها التفكير في ابنتها التي لم تُولد بعد، فالخطر الذي يهدِّد جسد الأُمِّ، سيهدِّد كذلك جسد الابنة.

جاء رجالٌ يحملون سجَّادًا ملفوفًا، يئنُّون من ثقله، وأثاروا الغبار في المكان عندما ألقوا حمولتهم فوق الحافَّة.

أمسك ستيلجار بذراعها، وقادها إلى تجويف صخري هلالي وراء المسطبة يستخدمونه لتضخيم الموجات الصَّوتية، وأشار إلى دكَّة صخرية داخل التجويف قائلًا: «ستجلس أُمُّنا الموقَّرة هنا، لكن بإمكانك أن ترتاحي في المكان حتَّى تأتي».

قالت: «أفضِّل الوقوف».

راقبت الرجال وهم يفرشون السجَّاد، ويغطُّون الحافَّة به، ونظرت إلى الحشد. كان على أرض المغارة الصخرية الآن ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص.

وما زال المزيد يأتون.

كانت تعلم أن الصَّحراء في الخارج كانت قد اصطبغت بحُمرة الشمس الغاربة، إيذانًا بحلول الظلام، أمَّا هنا، في المغارة، فكان الضوءُ مستمرًا كأنه شَفقٌ أبدي لا ينقطع، وامتلأت الأرض الواسعة بأُناس جاؤوا ليشاهدوها تخاطر بحياتها.

أُفسح مجالٌ بين الحشد إلى يمينها، ورأت پول يقترب بصحبة صبيين صغيرين تحيط بهما هالة من الغرور والعنجهية. كان كلاهما يضع يده على مقبض سكِّينه، وينظر بتجهُّم إلى الجدار البشري على الجانبين.

قال ستيلجار: «هذان ولدا چيميس اللذان صارا ولدي أصول الآن. إنهما يأخذان مهمَّة حراسته على محمل الجد». وابتسم إلى چيسيكا.

لاحظت چيسيكا المجهود الذي يبذله ستيلجار لتلطيف الأجواء والتخفيف من وطأة الموقف، وكانت ممتنة لذلك، لكنها لم تستطع صرف عقلها عن الخطر الذي يواجهها.

وفكّرت: *لا أملك خيارًا سوى هذا. علينا أن نطرق الحديد وهو ساخن إن أردنا تعزيز مكانتنا بين هؤلاء القوم.*

تسلّق پول المسطبة تاركًا الطفلين في الأسفل، وتوقّف أمام أُمِّه. ألقى نظرة سريعة إلى ستيلجار، قبل أن يعود ببصره إلى چيسيكا: «ماذا يحدث؟ ظننت أنني استُدعيت لحضور مجلس».

رفع ستيلجار يده مطالبًا بالصَّمت، وأشار إلى يساره حيث فُتح طريقٌ آخر بين الحشد جاءت تشاني عبره والحزن بادٍ في ملامح وجهها الملائكي. كانت قد خلعت بذلة التقطير وارتدت ثوبًا أزرق أنيقًا ملفوفًا حول جسدها يكشف عن ذراعيها الرقيقتين. وبالقرب من كتف ذراعها اليسرى، ربطت منديلًا أخضر.

فكَّر پول: *الأخضر رمز الحداد.*

كانت هذه إحدى العادات التي فهمها بشكل غير مباشر من كلام ابني چيميس، عندما أخبراه بأنهما لم يرتديا اللون الأخضر لأنهما قبلا به أبًا وصيًا لهما.

حين سألاه: «هل أنت لسان الغيب؟»، لمس پول في كلماتهما الجهاد الآتي، وتجنَّب الردَّ على سؤالهما بطرح سؤالٍ عليهما، وعرف من الرد أن كالف -أكبر الاثنين- في العاشرة من عمره، وأنه ابن چيف، أمَّا أورلوب -الأصغر- ففي الثامنة، ومن صلب چيميس.

لقد كان يومًا غريبًا، إذ وقف الاثنان يحرسانه ويُبعدان عنه الفضوليين كما طلب منهما، وأتاحا له الوقت ليرتِّب أفكاره ويتدبَّر ذكرياته الاستبصارية، ليرسم خطَّة يمنع بها وقوع الجهاد. لكنه راح يتساءل الآن وهو يقف إلى جوار أُمِّه على المسطبة ناظرًا إلى الحشد إن كان بمقدور أيِّ خطَّة أن تمنع سيل الجحافل المتعصِّبة الجارف الآتي.

اقتربت تشاني من المسطبة متبوعةً بأربع نساء يحملن امرأة أخرى على هودج.

تجاهلت چيسيكا اقتراب تشاني، وصبَّت جُلَّ اهتمامها على المرأة الجالسة في الهودج. كانت حيزبونًا، عجوزًا دَرْدَبيسًا مجعَّدةً وذابلةً تلتحفُ برداءٍ أسود قلنسوته ملقاة إلى الخلف كاشفةً عن عُنُقٍ نحيلٍ وشَعثٍ أشيب مربوط في عقدةٍ محبوكة.

أنزلت حاملات الهودج حملهن برفق على الحافَّة دون أن يصعدنها، وساعدت تشاني المرأة العجوز على الوقوف على قدميها.

فكَّرت چيسيكا: *هذه أمُّهم الموقَّرة.*

اتكأت المرأة العجوز بشدَّة على تشاني وهي تتَّجه صوب چيسيكا، وبدت كأنها مجموعة من العصي ملفوفة في رداءٍ أسود. توقَّفت أمام چيسيكا وأطالت التحديق إليها، قبل أن تتكلَّم بصوتٍ مبحوح:

- «أنتِ هي إذًا».

ثم أومأ الرأس العجوز مترنِّحًا فوق الرقبة النحيلة: «قد كانت ميبس الشادوات محقَّة في شفقتها عليك».

ردَّت چيسيكا في ازدراء: «لستُ في حاجةٍ إلى شفقة أحدٍ».

فحَّت المرأة العجوز: «سنرى هذا». ثم استدارت بسرعة مدهشة وواجهت الحشد: «أخبرهم يا ستيلجار».

فقال: «ألا بُدَّ أنا؟».

قالت العجوز بصوتٍ غليظ خشن: «نحن شعب المِصر*. منذ أن فر أسلافنا السنِّيون* من حوض نيل العروبة* اعتدنا الهروب والموت. وحتَّى اللحظة لم يحد شبابنا عن هذا الطريق كي لا يموت شعبنا».

أخذ ستيلجار نفسًا عميقًا، وتقدَّم خطوتين إلى الأمام.

شعرت چيسيكا بالصَّمت يجثم على الكهف المزدحم؛ زهاء عشرين ألف شخصٍ يقفون الآن في صمتٍ تام، بلا حراك تقريبًا. أشعرها ذلك بالضآلة فجأة، وملأها بالحذر.

قال ستيلجار: «الليلة يجب أن نغادر هذا السييتش الذي آوانا مدَّة طويلةً ونرتحل جنوبًا عبر الصَّحراء». دوى صوته عاليًا فوق الوجوه والأعناق المشرئبَّة، وردَّد التجويف المضخِّم للأصوات الواقع خلف المسطبة صداه في أرجاء المغارة.

ظلَّ الحشد على صمته.

قال ستيلجار: «أخبرتني الأُمُّ الموقَّرة أنها لن تتحمَّل هجرة* أخرى. صحيح أنه سبق لنا أن عشنا فتراتٍ دون أُمٍّ موقَّرة، لكن لن يكون في صالح الناس البحث عن موطنٍ جديد في مثل هذه الشِدَّة».

هاج الحشد واضطرب، وسرى الهمس بين أفراده.

قال ستيلجار: «ولئلَّا يحدث هذا، وافقت السَيِّادينا الجديدة، چيسيكا الداهية الخوارقية، على الخضوع للطقس في هذا الوقت. ستحاول خوض العبور الداخلي كي لا نفقد القوَّة التي نستمدُّها من أُمِّنا الموقَّرة».

فكَّرت چيسيكا: چيسيكا *الداهية الخوارقية*. رأت پول يرمقها بعينين مملوءتين بالأسئلة، لكن عجز فمه عن الكلام بسبب كل تلك الغرابة المحيطة بهما.

سألت چيسيكا نفسها: *ماذا سيكون مآله لو لقيت حتفي في أثناء المحاولة؟* ومن جديد شعرت بالشك والهواجس تملأ عقلها.

قادت چيسيكا الأُمّ الموقَّرة العجوز إلى الدكَّة الصخرية المنحوتة في عمق التجويف المضخِّم للصوت، ثم عادت لتقف إلى جوار ستيلجار.

قال ستيلجار: «ولئلَّا نخسر كل شيء إذا أخفقت چيسيكا الخوارقية في مسعاها، ستُكرَّس تشاني، ابنة لييت، لخلافتها في منصب السَيِّادينا الآن».

من عمق التجويف الصخري، خرج فحيح العجوز الخشن النَّافذ مضخَّمًا: «لقد عادت تشاني من هجرتها... لقد رأت تشاني المياه».

ردَّد الحشد في غمغمةٍ راجفة موحَّدة: «لقد رأت المياه».

فحَّت العجوز بصوتٍ مبحوح: «أُعلن تكريس ابنة لييت لمنصب السَيِّادينا».

أجاب الحشد: «إنها مقبولة».

لم يكن پول منتبهًا للمراسم، وظلَّ تركيزه منصبًّا على ما قيل بشأن والدته.

إذا أخفقت؟

ثم التفت خلفه لينظر إلى من يلقّبونها بالأُمّ الموقَّرة، وتأمَّل التجاعيد اليابسة التي تغزو وجهها الطَّاعن، وزُرقة عينيها العميقة التي لا قرار لها. كانت واهنة وتبدو كأن النسيم العابر قادر على الإطاحة بها، ولكن تحيطها في الوقت نفسه هالة تشعرك بأنها قد تقف في وجه عاصفة كوريوليسية دون أن تصاب بخدش. كانت محاطة بنفس هالة القوَّة التي تذكَّر رؤيتها تشعُّ من الأُمّ الموقَّرة جايس هيلين موهيم التي اختبرت صلابة معدنه بالألم على طريقة الجوم جَبار.

قالت العجوز: «أنا، الأُمُّ الموقَّرة رامالو، التي ينطقُ صوتها بلسان الجموع الغفيرة، أقول لكن الآتي: تشاني جديرة بمنصب السَيَّادينا».

ردَّد الحشد: «إنها جديرة».

أومأت العجوز ثم همست: «إني أهبها السماوات الفضِّية، والصَّحراء الذهبية بصخورها اللامعة، والحقول الخضراء الآتية. ولئلَّا تنسى تشاني أنها خادمة لنا جميعًا، فإني مكلِّفةً إيَّاها بأداء مهام مراسم "طقس البذر" الوضيعة. فلتكن مشيئة شَيّ هولود».

ثم رفعت ذراعها العصوية السمراء، ثم خفضتها.

شعرت چيسيكا بأن المراسم تطوِّقها، وبأن تيَّارها يجرفها إلى نقطة لا عودة لا مجال للتراجع بعدها، فألقت نظرة خاطفة على وجه پول المملوء بالأسئلة، ثم أعدَّت نفسها للمحنة القادمة.

قالت تشاني وصوتها المراهق تشوبه رعشة تهدُّجٍ طفيفة: «ليتقدَّم أمناء الماء».

شعرت چيسيكا بأنها صارت في بؤرة الخطر، واستشعرت حضوره الثقيل في ترقُّب الحشد، وفي صمتهم الجاثم.

شقت مجموعة من الرجال طريقها في أزواج عبر مسارٍ ثعبانيٍّ ملتوٍ انفتح وسط الحشد، كلُّ زوجين يحملان قربة جلدية صغيرة في ضعف حجم رأس الإنسان تقريبًا. تخضخض الماء داخل القرب بصوتٍ واضح.

أفرغ قائدا المجموعة حمولتهما على المسطبة عند قدمي تشاني وتراجعا.

نظرت چيسيكا إلى القربة، ثم إلى رتل الرجال. كانت قلنسواتهم ملقاة على ظهورهم، كاشفةً عن شعورٍ طويلة معقودة

في جدائل عند أسفل أعناقهم. كانت أعينهم السوداء الغائرة تبادلها التحديق دون أن ترمش.

فاحت من القربة رائحة قرفة قوية، ووصلت إلى أنف جيسيكا، فتساءلت متعجّبةً: *اسپايس*؟

سألت تشاني: «أفي القربة ماء؟».

أومأ أمين الماء الواقف إلى اليسار، الرجل الذي تقطع أرنبة أنفه نُدبةٌ أرجوانية اللون، وقال: «فيها ماء يا سَيَّادينا، لكننا نعجز عن شربه».

سألت تشاني: «أفيها بَذْر؟».

قال الرجل: «فيها بَذْر».

وضعت تشاني يديها على القربة المترجرجة وقالت: «مُبارك هذا الماء وبَذْره».

بدا الطقس مألوفًا. نظرت جيسيكا خلفها إلى الأُمّ المُوقَّرة رامالو. كانت عينا العجوز مغمضتين وتجلس مُنحنية إلى الأمام كما لو كانت نائمة.

قالت تشاني: «يا سَيَّادينا جيسيكا».

التفتت جيسيكا ورأت الفتاة تحدِّق إليها.

سألتها تشاني: «هل ذُقتِ الماء المُبارك من قبل؟».

وقبل أن تُجيب جيسيكا، قالت تشاني: «لا يمكن أن تكوني قد ذُقتِ الماء المبارك، فأنت أجنبية ولا تتمتَّعين بهذا الامتياز».

سرت تنهيدة عبر الحشد، وخفخفة الثياب بصوت كالهمس أثار قشعريرة جيسيكا وجعل الزغب الناعم على مؤخرة عُنُقها ينتصب.

قالت تشاني: «الحصيلة كبيرة، والصَّانعة دُمِّرت»، وبدأت تفكّ خرطومًا صغيرًا مثبَّتًا أعلى القربة المترجرجة.

بدأت چيسيكا تشعر بنواقيس الخطر تدقُّ من حولها، فنظرت إلى پول، ورأت أنه مأخوذٌ بالطقس الغامض وعيناه لا تريان سوى تشاني.

تساءلت چيسيكا: *هل أبصر هذه اللحظة من الزمن؟* ثم وضعت يدها على بطنها، وفكَّرت في الابنة التي لم تولد بعد، وسألت نفسها: *هل يحقُّ لي المخاطرة بحياتينا؟*

رفعت تشاني الخرطوم الممتدَّ من القربة إلى چيسيكا، وقالت: «هذا "ماء الحياة"، الماء الأعظم من كل ماء. ماء الكَان، الماء الذي يحرِّر الروح. إن قُدِّر لكِ أن تكوني أُمًّا موقَّرة، فسيفتح الكون أمامك. لنترك الحكم لشَيِّ هولود الآن».

شعرت چيسيكا أنها ممزَّقة بين واجبها تجاه طفلتها التي لم تُولد بعد وواجبها تجاه پول. كانت تعلم أن عليها أن تأخذ خرطوم تلك القربة وتشرب من محتوياتها من أجل پول، لكن حين انحنت مُقرِّبةً فمها من الخرطوم، أنبأتها حواسها بما تحويه من هلاك. كان الماء في القربة له رائحة مُرَّة تشبه إلى حدٍّ كبير رائحة سموم كثيرة تعرفها، ولكن تختلف عنها في الوقت نفسه.

قالت تشاني: «عليك أن تشربي الآن».

ذكَّرت چيسيكا نفسها: *لا مجال للتراجع.* لكن لم يخطر ببالها شيء ممَّا تعلَّمته في تدريبات البِني چيسيرِت يمكن أن يساعدها على اجتياز تلك اللحظة.

سألت چيسيكا نفسها: *ما هذه المادَّة؟* خمر؟ مخدِّر؟

انحنت چيسيكا وقرَّبت فمها من الخرطوم، فشمَّت روائح القرفة المنبعثة منه، وتذكَّرت حالة السُّكر التي رأت عليها دانكن آيداهو. خمر *ممزوج بالاسپايس؟* هكذا سألت نفسها، ثم التقطت

الخرطوم في فمها، وشفطت منه أصغر شفطة ممكنة. كان مذاقه غني بالاسبايس، وله لذعة خافتة على اللسان.

اعتصرت تشاني القربة الجلدية، وضخَّت جرعة كبيرة إلى فم چيسيكا فابتلعتها رغمًا عنها قبل أن يتسنَّى لها لفظها، مكافحةً للحفاظ على هدوئها وكرامتها.

قالت تشاني: «الموت البطيء لهو سبيلٌ أسوأ من الموت نفسه»، وحدَّقت إلى چيسيكا، منتظرةً.

بادلتها چيسيكا التحديق، والخرطوم في فمها. تذوَّقت محتويات القربة في أنفها، وفي سقف حلقها، وفي أشداقها، وفي عينيها. صار لها حلاوة لاذعة.

لذيذ.

اعتصرت تشاني القربة مرةً أخرى ضاخَّةً السائل في فم چيسيكا.

سائغ.

تأمَّلت چيسيكا وجه تشاني، متفرِّسةً في ملامحها الملائكية، ورأت فيها بعض ملامح لييت كاينز التي لم يثبِّتها الزمن بعد.

أخبرت چيسيكا نفسها: *لقد أسقوني عقارًا مخدِّرًا.*

لكنه لم يكن يشبه أيَّ عقارٍ آخر اختبرته من قبل، على الرغم من أن تدريب البِني چيسيرِت يتضمَّن تذوُّق عقاقير كثيرة.

كانت ملامح تشاني شديدة الوضوح، كما لو كانت مرسومةً بالضوء.

العقار!

استقرَّ صمتٌ مزلزل حول چيسيكا. تقبَّلت كل خلية في جسدها حقيقة أن شيئًا جسيمًا يطرأ عليها. شعرت بأنها ذُرَيرَة

واعيـة، هبـاءة أصغـر مـن أيّ جُسـيْم دون ذري، لكنهـا قـادرة علـى الحركة والشعور بمـا حولهـا. وفـي لحظـة تجلٍّ مفاجئـة تمزَّقت فيهـا الحُجُـب، أدركـت چيسـيكا أنهـا صـارت واعيـة بامتـداد نفس حركـي لذاتهـا لـم تعلـم بـه مـن قبـل. كانـت لا تـزال ذُرَيـرَة، لكنهـا فـي الوقـت نفسـه لـم تكـن ذُرَيـرَة.

ظلَّـت واعيـة لوجـود المغـارة، وللنـاس. كانـت تشـعر بهـم جميعًـا: پـول، وتشـانـي، وسـتيلجار، والأُمّ الموقَّـرة.

الأُمّ الموقَّرة!

كانـت تتـردَّد شـائعات فـي مدرسـتها بـأن البعـض لـم ينجيـنَّ مـن طقـس العبـور لرتبـة الأُمّ الموقَّـرة، وأن العقـار أهلكهـن.

صبَّـت چيسـيكا تركيزهـا علـى الأُمّ الموقَّـرة رامالـو، وقـد صـارت واعيـةً أن كل هـذا يحـدث فـي لحظـةٍ مُجمَّـدةٍ مـن الزمـن، لا أحـد يمـرُّ بهـا غيرهـا.

سـألت نفسـها: *لمـاذا توقَّـف الزَّمـن؟* حدقـت إلـى الوجـوة حولهـا بالتعبيـرات المُجمَّـدة عليهـا، ورأت ذرَّة غبـار ثابتـةً فـي الهـواء فـوق رأس تشـانـي.

تنتظر.

ثـم جاءهـا الجـواب كأنـه انفجـار فـي وعيهـا: *لقـد توقَّـف زمنهـا لإنقـاذ حياتهـا.*

ركَّـزت علـى امتـداد ذاتهـا النفسـي الحركـي، وفتَّشـت فـي داخلهـا، فقابلتهـا علـى الفـور نـواةٌ خلويـة، حفـرة مـن السـواد انتكصـت مرتعـدةً منهـا.

فكَّـرت چيسـيكا: *هـذا هـو المـكان الـذي نعجـز عـن رؤيتـه وسـبر أغـواره. هـذا هـو المكان الـذي تحجـم الأُمَّهـات الموقَّـرات عـن ذكـره. وحـده الكويزاتـس هاديـراك بإمكانـه النظـر إلـي هـذا المـكان.*

أعـاد لهـا هـذا الإدراك قـدرًا صغيـرًا مـن ثقتهـا بنفسـها، ومـرة أخـرى غامـرت بالتركيـز علـى امتدادهـا النفسـي الحركـي، وصـارت ذاتًـا مجهريـةً هائمـةً تفتّـش عـن الخطـر داخلهـا.

وقد عثرت على الخطر في العقار الذي ابتلعته.

كانـت ذرّات المـادّة التـي ابتلعتهـا تتراقـص فـي داخلهـا بسـرعة هائلـة لـم ينجـح معهـا الوقـت المُجمَّـد فـي إيقافهـا. ذرّات متراقصـة لا تهـدأ ولا تتوقّـف. بـدأت تتعـرّف علـى بعـض المركّبـات والروابـط الذرّيـة المألوفـة: ذرّة كربـون هنـا، جـزيء جلوكـوز حلزونـي مضطـرب هنـاك. ثـم واجهتهـا سلسـلة كاملـة مـن الجزيئات، فتعرفـت فيهـا علـى أحـد البروتينـات: مركّـب بروتيـن ميثيلـي.

آها!

كانـت هـذه تنهيـدة ذهنيـة بـلا صـوت، أطلقهـا وعيهـا حيـن فهمـت طبيعـة السُّـمّ.

بمجسّـتها النفـس حركيـة، تحرّكـت چيسـيكا إليهـا، وغيّـرت مـن موضـع ذرّة أُكسـچين، وسـمحت لـذرّة كربـون أخـرى بتكويـن رابطـة مـع الجـزئ، ثـم أعـادت ربـط رابطـة أُكسـچين.. ثـم هيدروچيـن.

انتشـر التغييـر بوتيـرة متسـارعة حيـن فتـح العامـل المحفّـز الـذي اسـتحدثته الطريقَ أمـام مزيـدٍ مـن التفاعـلات السـطحية.

أرخـى الجمـود الزمنـي قبضتـه عليهـا، وبـدأت تستشـعر حركـة. لامـس الخرطـوم الخـارج مـن القربـة فمهـا برفـق، والتقـط منـه قطـرة رطوبـة.

فكّـرت چيسـيكا: *تشـاني تأخـذ العامـل المحفّـز مـن جسـدي لتغييـر السُّـمّ فـي تلـك القربـة. لمـاذا؟*

ساعدها شخصٌ على الجلوس، ورأت أنه جيء بالأُمِّ الموقَّرة العجوز رامالو لتجلس إلى جوارها على المسطبة المغطَّاةِ بالسجَّاد. لمست رقبتها يدٌ جافَّة.

نشأت ذُرَيرَة نفس حركية أخرى في وعيها! حاولت چيسيكا نبذها، لكن الذُرَيرَة اقتربت.. واقتربت.

ثم تلامسا!

حدث توافقٌ مُطلق، كأنها صارت شخصين في وقت واحد: لم يكن تخاطرًا، بل وعيًا مشتركًا.

مع الأُمّ الموقَّرة العجوز!

لكن چيسيكا رأت أن الأُمَّ الموقَّرة لم تكن تفكِّر في نفسها على أنها عجوز، ثم تكشَّفت أمام عين الوعي المشترك صورة لفتاة صغيرة رشيقة الروح رقيقة الدعابة.

وفي داخل الوعي المشترك قالت الفتاة الصغيرة: «أجل، هذه أنا».

لم يكن في وسع چيسيكا إلَّا تقبُّل الكلام، لا الرَّد عليه.

قال الخيال الشبحي الداخلي: «ستحصلين على كل شيء قريبًا يا چيسيكا».

أخبرت چيسيكا نفسها: *أنا أهلوس*.

قال الخيال الشبحي الداخلي: «تعرفين أن هذا ليس صحيحًا. أسرعي الآن، ولا تقاوميني، فليس لدينا الكثير من الوقت. نحن...»، ثم سكتت هنيهة، قبل أن تقول: «كان عليك أن تخبرينا بأنك حامل!».

عثرت چيسيكا على صوتها في إطار الوعي المشترك، فقالت: «لماذا؟».

- «التغيير سيطول كلتيكما! بحقِّ الأُمِّ المقدَّسة، أيُّ فعلٍ شنيعٍ ارتكبنا؟».

شعرت چيسيكا بتغيُّرٍ قسري مفاجئ في الوعي المشترك، ورأت بعينها الداخلية انبثاق ذُرَيرَةٍ ثالثة من العدم. كانت الذُرَيرَة الجديدة تندفع وتدور بجنون هنا وهناك، وتشعُّ برُعبٍ هائل.

قال شبح الأُمِّ الموقَّرة العجوز الحاضر: «تحلّي بالقوَّة، وكوني ممتنَّةً لأنك تحملين أنثى. لو كان الجنين ذكرًا لتسبَّب هذا في قتله. الآن.. بحرصٍ ورفق.. المسي حضور ابنتك. كوني حضور ابنتك. امتصّي خوفها.. هدِّئيها.. استخدمي شجاعتك وقوَّتك.. برفق الآن.. برفق...».

انجرفت الذُرَيرَة الدوَّارة الأخرى مقتربةً منها، فأجبرت چيسيكا نفسها على لمسها.

شعرت بالذعر يدبُّ في أوصالها.

فقاومته بالطريقة الوحيدة التي تعرفها: «*لن أخاف، الخوف قاتل*...».

أنزلت عليها التعويذة شيئًا من السكينة. أمَّا الذُرَيرَة الأخرى فكمنت قبالتها في هدوء.

قالت چيسيكا لنفسها: *التواصل بالكلمات لن يفلح.*

ثم اختزلت نفسها إلى ردود الأفعال العاطفية الأساسية، وبثَّت فيها مشاعر الحب والطمأنينة والحضن الدافئ.

انحسر الذعر.

من جديد أكَّد حضور الأُمِّ الموقَّرة العجوز وجوده، وصار الوعي مشتركًا بين ثلاث كينونات: اثنتين نشطتين، وكينونة ثالثة ترقد في صمت تتشرَّب وتستوعب.

قالت الأُمُّ الموقَّرة العجوز داخل الوعي: «الوقت يداهمني، لدي الكثير لأمنحك إيَّاه، ولا أعرف إن كانت ابنتك ستتحمَّل تلقِّي كل هذا دون أن تفقد عقلها. لكن لا مناص. حاجة القبيلة فوق كل شيء».

- «ما...».
- «اصمتي وتلقِّي».

بدأت الخبرات تتكشَّف أمام چيسيكا. كان الأمر أشبه بشرائط المحاضرات الإيحائية المصوَّرة في مدارس البِني چيسيرِت، التي تبثُّ داخل اللا وعي رسائل مُبطَنة عن طريق مسلاط تحفيز لا شعوري.. ولكن أسرع، أسرع بكثير. ومع ذلك، كانت واضحة.

عاشت چيسيكا كل خبرة بالضبط كما حدثت: كان هناك عاشق، مكتمل الرجولة، ملتحٍ، له أعين الفرمِن. رأت چيسيكا قوَّته ورقَّته، وأحاطت علمًا بكُلِّ خصاله في لحظة خاطفة، عبر ذاكرة الأُمِّ الموقَّرة.

لم يكن الوقت يسمح بالتفكير في تأثير هذه الخبرات في الجنين الأنثى، لا وقت إلَّا للتلقِّي والتسجيل. انهمرت الخبرات على چيسيكا (ولادة، وحياة، وموت)، أمورٌ مهمَّة وأخرى غير مهمَّة. سيل منهمر من الخبرات في عرضٍ مُوحَّد.

تساءلت چيسيكا: *لِمَ قد يعلق شيء كسقوط رمالٍ عارض من قمة جرف في الذَّاكرة؟*

استوعبت چيسيكا ما يحدث، ولكن متأخِّرًا جدًّا: العجوز تحتضر، وهي في احتضارها تصبُّ خبراتها في وعي چيسيكا كما يُصبُّ الماء في الكوب. انحسرت الذُّرَيرَة الأخرى عائدة إلى حالة الوعي الجنيني الآنفة أمام ناظري چيسيكا. وفي احتضارها

الإدراكي، أودعت الأُمُّ الموقَّرة العجوز شريط حياتها في ذاكرة چيسيكا بتنهيدةٍ أخيرة لفظت معها في غير وضوح كلماتها الأخيرة.

قالت: «كنت أنتظرك منذ وقتٍ طويل، ها هي حياتي».

وبالفعل كانت قد نَفَحت حياتها كلها.. في كبسولة.

بما في ذلك لحظة موتها نفسها.

أدركت چيسيكا: *أنا الآن أُمٌّ موقَّرة.*

واستوعبت -بشكلٍ عام- أنها صارت أُمًّا موقَّرة حتَّى بمفهوم البِني چيسيرِت. لقد حوَّلها العقار السَّام. كانت تعلم أن الأمر لا يتمُّ بهذه الطريقة في مدارس البِني چيسيرِت. صحيح أن أحدًا لم يطلعها على أسرار الأمر، لكنها كانت تعلم.

المحصِّلة النهائية واحدة في الحالتين.

أحست چيسيكا بأن الذُرَيرَة الابنة ما زالت تلمس وعيها الداخلي فتفحَّصتها، لكنها لم تستجب.

زحف شعورٌ مريع بالوحدة على چيسيكا حين أدركت ما حدث لها. استشعرت أن وتيرة حياتها تتباطأ في حين ما تسارعت الحياة من حولها، ما جعل العلاقة التفاعلية الراقصة بينهما أوضح.

بدأ شعورها بأنها ذُرَيرَة واعية ينحسر بعض الشيء وخفَّت حدَّته مع استرخاء جسدها بعد زوال خطر السُّمِّ، لكنها كانت لا تزال تشعر بوجود تلك الذُرَيرَة الأخرى، فلمستها شاعرةً بالذنب من أنها سمحت لهذا بأن يحدث لها.

أنا السَّبب يا ابنتي الصغيرة العزيزة المسكينة التي لم تكتمل بعد. أنا من جلبتُك إلى هذا الكون وعرَّضتُ وعيك لطوارئه المختلفة دون تحصينك بأيِّ دفاعات.

خرجت من الذُرَيرَة الأخرى دفقة حب وراحة بالفة الضآلة، كأنها انعكاس لما صبَّته فيها چيسيكا آنفًا.

وقبل أن تتمكَّن چيسيكا من التجاوب، شعرت بحضور الأدب، الذكرى المُلحَّة التي تفرض نفسها رغمًا عن الشخص. كان هناك شيء يجب فعله. حاولت تحسُّس الشيء في الظلام، لكنها شعرت بالعقار المتغيِّر يعيق إدراكها ويشوِّش حواسَّها.

فكَّرت: *بإمكاني تغيير ذلك. بإمكاني التخلُّص من تأثير العقار وجعله غير ضار.* لكنها شعرت بأن هذا سيكون خطأً. *أنا في منتصف طقس اندماج.*

ثم أدركت ما يجب عليها فعله.

فتحت چيسيكا عينيها، وأشارت إلى قربة الماء التي كانت تشاني تحملها الآن فوق رأسها.

قالت چيسيكا: «لقد بُورك الماء. امزجوا المياه، ودعوا التغيير يصل إلى الجميع. ليتشارك الشَّعب البركة».

وفكَّرت: *دعوا العامل المحفِّز يقوم بعمله، دعوا الناس يشربون منه ويزداد وعي بعضهم ببعض لوهلة. لقد صار العقار آمنًا الآن، بعد أن حوَّلته الأُمّ الموقَّرة وغيَّرت خصائصه.*

لكن الذكرى المُلحَّة واصلت قرع عقلها بقوَّة. أدركت أن هناك شيئًا آخر يجب أن تفعله، لكن الدواء جعل التركيز صعبًا.

آها... الأُمّ الموقَّرة العجوز.

قالت چيسيكا: «التقيت الأُمَّ الموقَّرة رامالو. لقد رحلت، لكنها باقية. فلنكرِّم ذكراها في الطقس».

تعجَّبت چيسيكا: *من أين لي بهذه الكلمات؟*

وأدركت أنها أتت من ذكرى أخرى، من الحياة التي مُنحت لها وأصبحت جزءًا منها.

لكن شيئًا ما بشأن هذه المنحة بدا غير مكتمل.

تـردَّد صـدى الذكـرى الأخـرى بداخلهـا: «*دعيهـم ينغمسـون فـي عربدتهـم الجماعيـة، فمتعهـم فـي الحيـاة قليلـة. وأجل، أنـا وأنـت فـي حاجـة إلـى هـذا الوقـت القصيـر كـي تلـمَّ إحدانـا بالأخـرى قبـل أن أنسـحب وأتسـرَّب مـن ذاكرتـك. أشـعر بأننـي ارتبطـت بأجـزاء منـك بالفعـل. آهـا، إن عقلـك لمملـوء بأشـياء مثيـرة للاهتمـام.. أشـياء كثيـرة لـم أكـن أتخيَّلهـا*».

وهنـا، فتحـت ذاكـرة العقـل المُكبسَـل فيهـا نفسـها لچيسـيكا، وسـمحت لهـا بإلقـاء نظـرة علـى رواق واسـع تقـف فيـه أُمَّهـات موقَّـرات أخريـات بـدا سلسـالهن كأنـه يمتـدُّ إلـى مـا لا نهايـة.

جفلت چيسيكا وانتكصت، خائفةً من أن تضيع في محيط من الواحدية وتفقد ذاتها. لكن الممرَّ ظلَّ مفتوحًا، كاشفًا لچيسيكا أن ثقافة الفرمِن أقدم بكثير مما كانت تظن.

رأت أن الفرمِن عاشوا في رغدٍ على كوكب پوريترين، حتَّى لانوا وأصابهم رخاء كوكبهم بالوهن، وصاروا بعدها لقمة سائغة للغزاة الإمبراطوريين يحصدونهم ويزرعونهم في مستعمراتٍ بشرية على بيلا تيجيوس وسالوسا سوكانداس.

وبالمشاعر الفجع التي استشعرتها چيسيكا في ذلك الشتات!

مـن مـكانٍ بعيـد فـي نهايـة الـرواق، صـرخ خيـالٌ صوتـي: «لقـد حرمونـا الحـج*!».

علـى امتـداد هـذا الـرواق الباطنـي، رأت چيسـيكا زرائـب العبيـد علـى بىلا تىجىوس، وعمليـات الفـرز والتخلُّص مـن الضعفـاء، وتوزيـع النـاس علـى كوكبـي روسَّـاك وحارمونـثب. تفتَّحـت أمامهـا مشـاهد عنـف وحشـية كبتـلات زهـرة مريعـة، ورأت خيـط الماضـي

الذي تناقلته السَيَّادينا تلو السَيَّادينا: في البداية عن طريق التواتر الشفوي المضمر في أناشيد الرمال، ثم بشكل منقّح ومحسَّن من خلال أُمَّهاتهم الموقَّرات عندما اكتشفن العقار السَّام على روسَّاك. والآن تطوَّر الأمر على أرَّاكس إلى قدرة غامضة، بعد اكتشاف ماء الحياة.

من نهاية الرواق الباطني، صاح صوتٌ آخر: «أبدًا لن نسامح! أبدًا لن ننسى!».

لكن اهتمام چيسيكا كان منصبًا على ما تكشَّف لها بشأن حقيقة ماء الحياة، بعد أن رأت مصدره: إنه الماء الذي تتقيؤه دودة الرمال، أو الصَّانعة، عند احتضارها. وعندما رأت عملية قتلها في ذاكرتها الجديدة، كتمت شهقة كادت أن تفلت منها.

إنهم يغرقونها!

- «أُمَّاه، هل أنت بخير؟».

اقتحم صوت پول عليها خلوتها الذهنية، فجاهدت چيسيكا كي تنظر إليه عبر أستار وظلمات وعيها الداخلي، إدراكًا منها لواجبها تجاهه، ولكن باستياء وتبرُّم من وجوده.

أنا كشخصٍ خُدِّرت يداه وظلَّتا بلا إحساس منذ اللحظة الأولى التي وعى فيها، ثم جاء يومٌ استعاد فيه القدرة على الإحساس بالإكراه.

علقت الفكرة بذهنها، وحوَّطت وعيها بالكامل.

بعدها صحت: «انظروا! ليس لي يدان!»، لكن الناس من حولي قالوا: «وماذا تكون الأيدي؟».

كرَّر پول سؤاله: «هل أنت بخير؟».

- «أجل».

أشار إلى القربة التي بين يدي تشاني وقال: «ألا بأس بأن أشرب من هذا الماء؟ يريدونني أن أشرب منه».

فهمت المعنى الخفي في كلماته، وأدركت أنه تبيَّن وجود السُّمِّ في المادَّة الأصلية قبل تغيُّرها، وأنه كان قلقًا عليها. تراءى لجيسيكا حينها أن قدرات پول الاستبصارية ليست مطلقة. لقد كشف سؤاله لها الكثير.

قالت: «تستطيع الشرب منه، لقد تبدَّل».

ونظرت خلفه فرأت ستيلجار يرمقها ويتفحَّصها بعيني قاتمتين كالحبر.

ثم قال: «الآن عرفنا أنك لست دجَّالة».

استشعرت المعنى الخفي في كلماته هو أيضًا، ولكن حالة التشويش الناتجة عن العقار كانت تطغى على حواسها. كم كانت دافئة ومريحة. ما أكرم هؤلاء الفرمِن الذين ضمُّوها إلى رحاب هذه الرفقة.

لاحظ پول أن العقار يستحوذ على أُمِّه.

راح يفتِّش في ذاكرته، في الماضي الثابت، وفي الاحتمالات المستقبلية المتغيِّرة. كان الأمر أشبه بالبحث في لحظاتٍ مجمَّدةٍ في الزمن، مربكة لعدسة عينه الداخلية. كان من الصعب فهم الشظايا عند انتزاعها من سياق الزمن المتدفِّق.

بإمكانه جمع معلومات عن هذا العقار، وفهم ماذا يفعل بأُمِّه، ولكن المعلومات كانت تفتقر إلى الإيقاع الطبيعي، وتفتقر إلى النظام الذي يساعد على التدبُّر.

فجأة أدرك أن رؤية ماضي الحاضر سهلة المرام، أمَّا التحدِّي الحقيقي أمام الاستبصار فيكمن في رؤية ماضي المستقبل.

ففيه، تصرُّ الأحوال على ألَّا تبدو على حقيقتها.

قالت شاني: «اشرب»، وحرَّكت خرطوم القربة تحت أنفه.

اعتدل پول محدِّقًا إلى تشاني. شعر بإثارة كبيرة تملأ الهواء. كان يعلم ما سيحدث إذا شرب هذا العقار الممزوج بالاسپايس، بما فيه من خلاصة المادَّة التي أحدثت فيه التغيير. سيعود إلى رؤية الزمن مجرَّدًا، إلى رؤيته يتحوَّل إلى مكان، وسيجلسه الزَّمن فوق القمَّة الشاهقة إيَّاها، ويتحدَّاه أن يفهم.

من خلف تشاني، قال ستيلجار: «اشرب يا فتى، إنك تعطِّل مراسم الطقس».

أصغى پول إلى الحشد، وسمع نبرة الانجذاب في أصواتهم. كانوا يقولون: «لسان الغيب، المؤدِّب!».

نظر إلى أُمِّه فبدت له نائمةً بسلام في وضعية الجلوس، وتتنفَّس بانتظام وبعمق. جاءته عبارة من ماضي مستقبله المُوحش المنعزل وقالت: «إنها تنام في ماء الحياة».

جذبته تشاني من كُمِّه.

أخذ پول الخرطوم في فمه، مستمعًا إلى صياح الناس. اعتصرت تشاني القربة فأحسَّ بالسائل يتدفَّق في حلقه، وشعر بدوارٍ من أبخرته. أخذت تشاني الخرطوم من فمه، وناولت القربة إلى الأيدي التي امتدَّت إليها من أرضية الكهف. تركَّزت عيناه على ذراعها، وعلى شريط الحداد الأخضر المربوط حولها.

مع اعتدالها، لاحظت تشاني اتِّجاه نظرته، فقالت: «أجل، بإمكاني أن أحزن عليه حتَّى في أثناء السعادة التي تجلبها علينا المياه. هكذا تعلَّمنا منه»، ثم وضعت يدها في يده، وجذبته عبر

الحافَّة: «نحن متشابهان في شيء يا أصول، لقد فقد كلانا أباه على يد الهراكنة».

تبعها پول، شاعرًا بأن رأسه قد انفصل عن جسده وأُعيد تثبيته كيفما اتَّفق، وبساقيه بعيدتين ومطَّاطيتين.

دخلا إلى ممرٍّ جانبيٍّ ضيِّق، جدرانه مضاءة بضوءٍ خافت منبعث من كرات إنارة متباعدة. شعر پول بأن العقار بدأ يؤثِّر فيه تأثيرًا فريدًا، ويُفتِّح الزمن أمامه كما تتفتَّح الزهرة. أحسَّ بحاجة إلى الاتِّكاء على تشاني وهما ينعطفان إلى نفقٍ مظلمٍ آخر.

أثار جسدها الناعم المتماسك الذي لمسه من فوق ثوبها الدماء في عروقه. اختلط الإحساس بتأثير العقار، ما أدَّى إلى طي المستقبل والماضي في الحاضر، تاركًا له هامشًا ضئيلًا من الرؤية الثلاثية الأبعاد للزمن.

همس لها: «إنني أعرفك يا تشاني، لقد سبق أن جلسنا على حافَّة فوق الرمال بينما كنت أهدئ مخاوفك. لقد تعانقنا في ظلمة السييتش. لقد...». شعر بأنه يفقد تركيزه، فحاول هزَّ رأسه، فتعثَّر.

أسندته تشاني، وقادته عبر ستائر قماشية سميكة إلى دفء مسكنٍ خاص غارق في إضاءة صفراء، تتناثر فيه الطاولات المنخفضة، والوسائد، وحشايا نوم تغطِّيها مفارشَ برتقالية.

أدرك پول أنهما توقَّفا، وأن تشاني تقف أمامه وفي عينيها نظرة تكشف ما يعتمل في صدرها من رعب هادئ.

همست له: «يجب أن تخبرني».

قال لها: «أنت سِيهَيا، ربيع الصَّحراء».

قالت: «عندما تتشارك القبيلة ماء الحياة، ننصهر معًا، كلنا، في بوتقة واحدة. نتشاطر. إنني أشعر بالآخرين معي، لكنني... أخشى مشاطرتك».

- «لماذا؟».

حاول تركيز انتباهه عليها، لكن الماضي والمستقبل كانا يندمجان في الحاضر، ويطمسان صورتها. ورآها في طرق ومواقف وأماكن لا حصر لها.

قالت: «فيك شيءٌ يثير الخوف. عندما أخذتك بعيدًا عن الآخرين، فعلت ذلك لأنني شعرت بما يريدونه. إن حضورك... يرهق الناس. إنك تجعلنا... نرى أشياء!».

أرغم نفسه على التحدُّث بوضوح: «ماذا ترين؟».

خفضت بصرها إلى يديها، وقالت: «أرى طفلًا... بين ذراعيَّ. إنه طفلنا، أنا وأنت»، ثم وضعت يدها على فمها وأردفت: «لماذا آلف كل سمة من سماتك؟».

أخبره عقله: *إنهم يتمتَّعون بشيءٍ من الموهبة الاستبصارية، لكنهم يكتمونها لأنها ترعبهم.*

ثم في لحظةِ جلاء عابرة، رأى تشاني ترتجف.

سألها: «ما الذي تريدين قوله؟».

همست وهي لا تزال ترتجف: «أصول».

قال لها: «ليس بإمكانك التراجع إلى المستقبل».

ثم اجتاحه تعاطفٌ عميق نحوها، فجذبها نحوه، وأمسك برأسها قائلًا: «تشاني، لا تخشي شيئًا».

بكت قائلة: «ساعدني يا أصول».

وبينما كانت تتحدث، شعر بأن العقار يُكمل عمله بداخله، ممزِّقًا الحُجُب، كاشفًا له الاضطراب البعيد الكئيب الذي يحتلّ مستقبله.

قالت تشاني: «لِمَ أنت صامت؟».

حمل نفسه على الثبات في مواجهة رؤى الوعي المفزعة، ورأى الزمن يمتد في بُعده العجيب، في حالة توازن دقيقة وفي الوقت نفسه يحوم في دوَّامة، محصورًا في نطاقه الضيق لكنه منتشر كأنه شبكة تجمع عوالم وقوى لا حصر لها، حبلًا مشدودًا يجب أن يسير عليه لكنه يتأرجح ويتمايل تحت قدميه مهدِّدًا بسقوطه.

رأى في جهةٍ الإمبراطورية، وأحد الهراكنة اسمه فيد راوثا ينقضُّ عليه بنصلٍ قاتل، والسَّاردوكار يغادرون كوكبهم في سُعارٍ ناشرين المذابح على أرَّاكس، والنقابة تتواطئ وتحيك المؤامرات، والبِني جيسيرِت يواصلن برنامج التزاوج الانتقائي الذي بدأنه. كانوا جميعًا يحتشدون أمامه في الأُفُق كعاصفة رعدية، عاصفة لا يصدُّها عن سبيلها سوى الفرمِن ومؤدِّبهم: الفرمِن، ذلك المارد النائم المتأهِّب لشنِّ حربه الصليبية الوحشية عبر أرجاء الكون.

وجد پول نفسه في المركز، عند المحور الذي يدور حوله هيكل كل شيء، سائرًا على خيط السلام الرفيع، مع قدر من السعادة، وتشاني إلى جواره. ثم رأى هدنةً من كل هذا ممتدَّةً أمامه، فترة هدوءٍ نسبي في سييتشٍ خفي، لحظة سلام بين فترات العنف.

قال لها: «لا يوجد مكان آخر للسلم».

غمغمت تشاني: «أصول، إنك تبكي! أصول، يا قوَّتي، هل تذرف من رطوبتك على الموتى؟ ولكن على موتى من؟».

قال: «على أُناس لم يموتوا بعد».

قالت: «إذًا دعهم يحظون بوقتهم في الحياة».

شعر -عبر ضبابية العقار التي تغلِّف وعيه- بصحَّة كلامها، فضمَّها إليه بقوَّة غاشمة، وقال: «سِيهَيا!».

وضعت كفَّها على خدِّه، وقالت: «لم أعد خائفة يا أصول. انظر إليَّ. إني أرى ما تراه وأنا بين ذراعيك».

سألها: «وماذا ترين؟».

- «أرانا نمارس الحب في وقتٍ هادئ يتخلَّل عواصفَ عاتيةً. أرى ما قُدِّر لنا أن نفعله».

تملَّك منه العقار مجدَّدًا، ففكَّر: *كم من مرَّات منحتني فيها الراحة والنسيان!* شعر من جديد بالسطوع الباهر نافذ البصيرة، والصورة واضحة التجسيم التي يرسمها للزمن، ورأى مستقبله يصبح ذكريات. رأى الإهانات الرقيقة المسموح بها في الحب الجسدي، وانصهار الذات في الذات، واللين والعنف.

غمغم قائلًا: «أنت القويَّة فينا يا تشاني. ابقي معي».

قالت: «إلى الأبد»، وباسته من خدِّه.


الكتاب الثّالث
النَّبي

لم يكن لأبي علاقة وثيقة بأحدٍ، لا بامرأةٍ ولا برجلٍ ولا بطفلٍ. الشخص الوحيد الذي ربطته علاقة صداقة عابرة مع الإمبراطور الباديشاه كان الكونت هاسيمير فنرينج، رفيقه من أيَّام الطفولة. وقد لاح الدليل الأوَّل على إخلاص الكونت لأبي في فعلٍ إيجابي: إزالة شكوك مجلس اللاندسراد حوله بعد واقعة أرَّاكس. قالت أُمِّي إن هذا كلَّفه رُشى اسپايس تفوق قيمتها مليار سولاري، فضلًا عن هدايا أخرى كثيرة: جوارٍ، وتكريمات ملكية، ورتب شرفية. أمَّا الدليل الجوهري الثاني على إخلاص الكونت لأبي فتبدَّى في فعلٍ سلبيٍّ: لقد رفض الكونت قتل رجلٍ معيَّن على الرغم من أن ذلك كان في مقدوره، وعلى الرغم من أوامر أبي. عن تفاصيل هذا الأمر سأستفيض بعد قليل.

من كتاب «الكونت فنرينج: سيرة موجزة» للأميرة إيرولان.

قطع البارون ڤلاديمير هاركونن رواق جناحه الخاص في نوبةٍ من الغضب، منسلًا عبر بقع ضوء شمس الأصيل الساقطة من النوافذ العالية. كان جسده يتمايل ويتلوَّى بحركات عنيفة في مضادَّات الجاذبية التي تحمله.

اندفع عابرًا مطبخه الخاص، والمكتبة، وغرفة الاستقبال الصغيرة، حتَّى وصل إلى غرفة الخدم التي كان استرخاء المساء قد بدأ يحلُّ على أفرادها.

كان قائد الحرس، آيكين نيفود، جالسًا القرفصاء على ديوان عند الحائط المقابل، تبدو على وجهه المسطَّح سيماء البلادة من جراء مخدِّر السِموتا، ومن حوله يصدح نحيب موسيقى السِموتا الغريب، في حين ما جلس مُسامِره إلى جواره، رهن إشارته.

زأر البارون: «نيفود!».

تدافع الرجال متخبِّطين.

وقف نيفود، تعلو وجهه بلادة المخدِّر مع مسحة من الشحوب تفضح خوفه، وتوقَّفت موسيقى السموتا.

قال نيفود: «سيِّدي البارون». وحده المخدِّر الذي حاش الارتجاف عن صوته.

- «منذ متى وأنت قائد حرسي يا نيفود؟».

ابتلع نيفود ريقه وقال: «منذ أحداث أرَّاكس يا مولاي. عامان تقريبًا».

- «وهل حرصت على استباق المخاطر التي تهدِّد حياتي خلال هذه المدَّة؟».

- «لا يصرفني عنها شيءٌ يا سيِّدي».

زأر البارون: «أين فيد راوثا إذًا؟».

قال نيفود مرتعدًا: «سيِّدي؟».

عاد صوته ناعمًا وهو يقول: «ألا تعتبر فيد راوثا خطرًا يهدِّدني؟».

بلَّل نيفود شفتيه بطرف لسانه، وزالت عن عينيه بعض من بلادة المخدِّر وهو يقول: «فيد راوثا في مهاجع العبيد يا سيِّدي».

ارتجف البارون وهو يحاول السيطرة على غضبه: «مع النساء مجدَّدًا، أليس كذلك؟».

- «مولاي، قد يكون...».

- «صمتًا!».

خطا البارون خطوة أخرى داخل الحجرة، ولاحظ كيف تراجع الرجال مفسحين مساحة حول نيفود ليفصلوا أنفسهم عن المغضوب عليه.

سأله البارون: «ألم آمرك بأن تعرف بالتحديد مكان ولي العهد طوال الوقت؟». ثم اقترب خطوة وقال: «ألم آمرك بأن تراقب كل كلمة يقولها، وتعرف لمن يقولها؟». ثم خطا خطوة أخرى وقال: «ألم آمرك بأن تبلغني كلَّما دخل مهاجع الجواري؟».

ابتلع نيفود ريقه، وتفصَّد العرق من جبينه.

سيطر البارون على صوته وقال بنبرة فاترة تكاد تخلو من أيِّ انفعال: «ألم آمرك بهذه الأشياء؟».

أومأ نيفود.

«وألم آمرك بأن تفحص كل الغلمان العبيد الذين يُرسلون إليَّ، وأن تفعل ذلك بنفسك... شخصيًّا؟».

مرَّة أخرى، أومأ نيفود.

سأله البارون: «إذًا، رُبَّما فاتتك رؤية الشِيَة على فخذ الغلام الذي أُرسل لي هذا المساء؟ رُبَّما...».

- «عمِّي».

استدار البارون بسرعة ورأى فيد راوثا واقفًا عند عتبة الباب. حضور ابن أخيه هنا والآن، والعجلة البادية على ملامحه التي لم ينجح في إخفائها، كشفا له الكثير. لا شك أن لفيد راوثا شبكة تجسُّس خاصَّة تراقب أفعال وتحرُّكات البارون.

قال البارون: «في جناحي جُثَّة أريدكم أن تتخلَّصوا منها»، وأبقى يده على سلاح المقذوفات تحت ردائه، ممتنًا لكون درعه من أفضل الأنواع.

ألقـى فيـد راوثـا نظـرة إلـى الحارسـين الواقفيـن عنـد الحائـط الأيمـن، وأومـأ لهمـا. خـرج الاثنـان فـي سـرعة مـن البـاب، وانطلقـا عبـر الردهـة باتّجـاه جنـاح البـارون.

فكَّـر البـارون: *هـذان إذًا مـن جواسيسـه! هـذا الوحـش الصغيـر أمامـه الكثيـر ليتعلّمـه عـن المؤامـرات!*

قـال البـارون: «أفتـرض أنـك تركـت الأوضـاع هادئـة فـي مهاجـع العبيـد يـا فيـد».

– «كنت ألعب لعبة خوفو الاستراتيجية مع القيِّم على العبيد».

قالهـا فيـد راوثـا، وفكَّـر: *مـا المشـكلة يـا تُـرى؟ مـن الواضـح أن الغـلام الـذي أرسـلناه إلـى عمـي قـد قُتـل. لكنـه كان مثاليًّـا لهـذا الفـرض. حتّـى حوّاط مـا كان ليختـار أفضـل منـه. كان الغـلام مثاليًّـا!*

قـال البـارون: «تلعـب الشـطرنج الهرمـي، كـم هـذا جميـل! وهـل ربحـت؟».

– «أنـا... آه... أجـل يـا عمِّـي». قالهـا فيـد راوثـا وهـو يجاهـد لإخفـاء توتُّـره.

فرقـع البـارون بإصبعيـه وقـال: «نيفـود، هـل ترغـب فـي اسـتعادة ثقتـي بـك؟».

قال نيفود مرتعشًا: «مولاي، ماذا اقترفت؟».

قـال البـارون: «لا يهـمُّ هـذا الآن. لقـد ربـح فيـد القيِّـم علـى العبيـد فـي شـطرنج خوفـو، أسـمعت ذلـك؟».

– «أجل... يا مولاي».

قـال البـارون: «أريـدك أن تأخـذ ثلاثـة رجـال وتذهـب إلـى القيِّـم علـى العبيـد. اخنقـه وائتنـي بجثّتـه عندمـا تنتهـي لأتأكّـد مـن أنـك

نفَّذت أوامري كما طلبت. لا يمكن أن نقبل بوجود لاعب شطرنج غير ماهر ضمن موظَّفينا».

شحب وجه فيد راوثا، وتقدَّم خطوة: «لكن يا عمِّي، أنا...».

لوَّح البارون بيده وقال: «لاحقًا يا فيد، لاحقًا».

عاد الحارسان من جناح البارون، ومرَّا مترنِّحين من أمام باب الغرفة وجثَّة الغلام تتدلَّى بينهما مرتخية الذراعين. راقبهما البارون حتَّى غابا عن الأنظار.

خطا نيفود مقتربًا من البارون: «أتريدني أن أقتل القيِّم على العبيد الآن يا سيِّدي؟».

قال البارون: «أجل، الآن. وعندما تنتهي، أضف هذين اللذين مرَّا لتوِّهما على قائمتك. لا تعجبني الطريقة التي يحملان بها تلك الجثَّة. على المرء أن يؤدِّي هذه الأمور بإتقان. أريد معاينة جثَّتيهما كذلك».

قال نيفود: «سيِّدي، هل هذا بسبب شيءٍ اقترف...».

قال فيد راوثا: «افعل كما أمرك سيِّدك»، مفكِّرًا: *كل ما يمكنني تمنِّيه الآن هو النجاة بجلدي.*

فكَّر البارون: *جميل! ما زال يعرف كيف يقلِّل خسائره.* وابتسم البارون في قرارة نفسه مفكِّرًا: *كما يعرف أيضًا ما سيرضيني وما سيمنع انصباب غضبتي عليه. إنه يعلم أنني مضطر إلى الحفاظ عليه، فمن غيره سيتسلَّم مقاليد الأمور التي سيأتي يومٌ وسأغادرها؟ ليس لدي من يصلح غيره. لكن لا بُدَّ له من أن يتعلَّم! ولا بُدَّ لي من أن أحافظ على سلامتي ريثما يتعلَّم.*

أشار نيفود إلى رجاله، وقادهم عبر الباب.

سأل البارون: «هلَّا ترافقني إلى جناحي يا فيد؟».

قال فيد: «أنا طوع بنانك»، ثم انحنى مفكِّرًا: *لقد كشفني.*

قال البارون: «من بعدك»، وأشار إلى الباب.

لم يبدُ الخوف الذي يشعر به فيد راوثا إلّا في لحظة تردُّد عابرة، وسأل نفسه: *هل أخفقت تمامًا؟ هل سيطعنني في ظهري بنصلٍ مسموم ببطء، مخترقًا درعي؟ هل لديه وارث بديل؟*

أمَّا البارون فكان يفكِّر وهو يسير خلف ابن أخيه: *دعه يختبر لحظة الرعب هذه. سوف يخلفني، لكن في الوقت الذي أختاره أنا. لن أجعله يضيِّع ما بنيته هباءً!*

حاول فيد راوثا ألَّا يسرع الخطى. شعر بالقشعريرة تزحف على ظهره كأن جسده نفسه يتساءل متى ستأتي الضربة، وراحت عضلاته تتشنَّج وترتخي بالتناوب.

سأله البارون: «هل سمعت آخر الأخبار الآتية من أرّاكس؟».

- «كلَّا يا عمِّي».

أرغم فيد راوثا نفسه على ألَّا ينظر خلفه وهو ينعطف في نهاية الرواق خارجًا من جناح الخدم.

قال البارون: «يُقال إن الفرمِن لديهم نبي جديد أو زعيم ديني ما. يسمُّونه المؤدِّب. هذا مضحك جدًّا في الحقيقة. فالكلمة تعني "الفأر" في لغتهم. أمرت رابان بأن يتركهم يمارسون ديانتهم بحرِّية، فستبقيهم مشغولين».

قال فيد راوثا: «هذا أمرٌ مثير للاهتمام جدًّا يا عمي». ثم انعطف إلى الممرِّ الخاص الذي يقود إلى جناح عمِّه وهو يتساءل: *لماذا يتحدَّث عن الدين؟ أفي هذا تلميح خفي لي؟*

قال البارون: «مثير صحيح، أليس كذلك؟».

وصلا إلى جناح البارون، ومرَّا بصالون الاستقبال، ومنه إلى غرفة النوم. استقبلتهم آثارٌ خفيفة تدلُّ على حدوث صراع هنا:

كرة إنارة في غير موضعها، وسادة سرير ملقاةٌ على الأرض، بكرة مهدِّئة مفتوحة متدلِّية من عارضة السرير؟

قال البارون: «كانت خطَّة ذكية»، مبقيًا الدرع الذي يرتديه مضبوطًا على طاقته القصوى، ووقف يواجه ابن أخيه: «لكن ليس بالدرجة الكافية. قل لي يا فيد، لِمَ لم تطعنني بنفسك؟ لقد أتيحت أمامك فرصًا كثيرة».

عثر فيد راوثا على أحد المقاعد المضادة للجاذبية، وجلس عليه بلا اكتراث دون أن يؤذن له.

وفكَّر: *عليَّ أن أتحلَّى بالجرأة الآن.*

ثم قال: «علَّمتني ألَّا ألوِّث يدي».

قال البارون: «صحيح، فعليك أن تقف أمام الإمبراطور وتقول بصدق إنك لم تفعل الأمر، لأن السَّاحرة الجالسة إلى جوار الإمبراطور ستصغي جيِّدًا إلى كلماتك، وستتبيَّن الحقَّ أو الباطل فيها. أجل، حذَّرتك من ذلك».

سأله فيد راوثا: «لِمَ لم تشترِ إحدى نساء البِني جيسيرِت يا عمِّي؟ فلو كان بجوارك كاشفة حقيقة...».

قاطعه البارون بحدَّة: «أنت تعرف ذوقي!».

تفرَّس فيد راوثا في ملامح عمِّه وقال: «ولو، واحدة منهن ستكون ذات قيمة...».

زمجر البارون: «لا أثق بهن! وكفَّ عن محاولة تغيير الموضوع!».

قال فيد راوثا مهادنًا: «كما تشاء يا عمِّي».

قال البارون: «أتذكَّر إحدى مبارياتك في الحلبة منذ سنوات. في ذلك اليوم بدا أن العبد الذي تنازله كأنه أُعِدَّ لقتلك. هل كان الأمر كذلك بالفعل؟».

- «كان هذا منذ وقت طويل يا عمّي، على أيِّ حال...».

قاطعه البارون قائلًا: «لا تحاول التهرُّب من السؤال أرجوك»، وفضحت الشِّدة في نبرة صوته مقدار الغضب الذي يحاول كبحه.

نظر فيد راوثا إلى عمِّه وفكَّر: *إنه يعرف، وإلَّا ما كان سيسأل.*

- «كانت تمثيلية يا عمِّي، رتَّبتها لزعزعة ثقتك في قهرمانك».

قال البارون: «تفكيرٌ ذكي، وجريء أيضًا. هذا العبد المصارع كاد يفتك بك، أليس كذلك؟».

- «بلى».

- «لو كنت تتحلَّى ببراعةٍ ودهاء يتناسبان مع هذه الشجاعة، لأصبحت عظيم الشأن». قالها البارون وهزَّ رأسه أسفًا، وكما شعر مرَّاتٍ كثيرة منذ ذلك اليوم الرهيب على أرَّاكس، وجد نفسه نادمًا على فقدان مِنتاته پايتر. كم كان رجلًا دقيقًا وشيطاني التفكير، على الرغم من أن ذلك لم ينقذه. مجدَّدًا، هزَّ البارون رأسه. للقدر طرقه الغامضة أحيانًا.

أجال فيد راوثا بصره في حجرة النوم، متأمِّلًا آثار الصراع، متعجِّبًا كيف تغلَّب عمُّه على العبد الذي أعدُّوه بعناية شديدة.

سأل البارون: «تتساءل كيف تغلَّبت عليه، أليس كذلك؟ آهٍ يا فيد، دعني أحتفظ لنفسي ببعض الأسلحة لحمايتي في شيخوختي. من الأفضل أن نستغلَّ هذا الوقت لعقد صفقة».

حدَّق فيد راوثا إليه. *صفقة! إنه ينوي إبقائي ولي عهده بلا ريب، وإلَّا فلِمَ المساومة؟ المرء لا يساوم إلَّا مع من هم في منزلته أو يقاربونها!*

قال فيد راوثا: «أيُّ صفقة يا عمِّي؟»، وشعر بالفخر لأن صوته ظلَّ هادئًا ومتَّزنًا، لم يفضح شيئًا من الابتهاج الذي يملأ صدره.

لاحظ البارون كذلك تحكُّمه في نفسه، فأومأ قائلًا: «أنت قماشة جيِّدة يا فيد، وأنا لا أهدر القماشة الجيِّدة. ومع ذلك، فأنت مصمِّم على رفض معرفة قيمتك الحقيقية عندي. أنت عنيد، ولا تعرف أهمِّية الحفاظ على حياتي بصفتي شخصًا ذا نفع هائل لك. كانت هذه...»، ثم أشار إلى آثار الصراع في غرفة النوم: «حماقةً منك، وأنا لا أُكافئ الحماقة».

فكَّر فيد: *ادخل في صلب الموضوع أيُّها العجوز الأحمق.*

قال البارون: «أنت تراني عجوزًا أحمق، وعلي أن أثنيك عن هذا التفكير».

- «ذكرت شيئًا عن صفقة».

قال البارون: «آهٍ من عجلة الشباب! حسنًا، إليك خلاصة الموضوع: ستتوقَّف عن محاولات قتلي الحمقاء هذه، وفي المقابل سأتنحَّى عن الحكم حين تكون جاهزًا له. سأتقاعد لمنصب استشاري، وسأترك لك كرسي السُّلطة».

- «تتقاعد يا عمِّي؟».

قال البارون: «ما زلت تراني أحمق، وكلامي هذا أكَّد ظنونك، أليس كذلك؟ أتظنَّ أنني أتوسَّل إليك! اخطُ بحذر يا فيد، فهذا العجوز الأحمق اكتشف الإبرة التي زرعتها في فخذ الغلام العبد في المكان الذي سأتحسَّسه بيدي، أليس كذلك؟ ومع أقل ضغطة تشكُّ الإبرة المسمومة راحة يد العجوز الأحمق وتغوص فيها! آه يا فيد...».

هزَّ البارون رأسه مفكِّرًا: *كانت المكيدة ستحقق غرضها لو لم يحذِّرني حوَّاط. لكن لأدع الفتى يظن أنني اكتشفت المكيدة بنفسي. فبشكل أو بآخر الفضل يرجع لي بالفعل، فأنا من أنقذ*

حوَّاط من حطام أرَّاكس. لا بُدَّ لهذا الفتى من أن ينظر إليَّ بقدر أكبر من الاحترام.

ظلَّ فيد راوثا صامتًا، يصارع الأسئلة التي تتنازعه.

أهو صادق في كلامه؟ هل ينوي التقاعد حقًّا؟ ولِمَ لا؟ أنا متأكد من أنني سأخلفه يومًا ما إذا حسبت خطواتي بعناية. إنه لن يعيش إلى الأبد. رُبَّما كانت محاولة التعجيل بالأمر حماقة منِّي فعلًا.

قال فيد راوثا: «تحدَّثت عن صفقة، لكنك لم تذكر شيئًا عن ضمان الالتزام بها».

قال البارون: «تعني كيف لأحدنا أن يثق بالآخر، أليس كذلك؟ حسنًا، بالنسبة إليك يا فيد، سأعيِّن ظفير حوَّاط رقيبًا عليك، فأنا أثق بقدرات حوَّاط المِنتاتية في تلك الأمور. أمَّا بالنسبة إليَّ، فليس أمامك إلَّا أن تثق بكلامي. لكنني لن أعيش إلى الأبد يا فيد، أليس كذلك؟ لذا عليك أن تبدأ تعي أن هناك أشياء أعرفها عليك أن تتعلَّمها منِّي».

سأله فيد راوثا: «سأعطيك تعهُّدي، لكن ماذا سآخذ في المقابل؟».

قال البارون: «سأدعك تعيش».

تفرَّس فيد راوثا في ملامح عمِّه مجدَّدًا: *سيعيِّن حوَّاط مراقبًا عليَّ! ماذا سيقول لو أخبرته بأن حوَّاط هو من دبَّر تمثيلية المصارع التي كلَّفته قهرمانه؟ على الأرجح سيتَّهمني بالكذب لمحاولة تشويه سمعة حوَّاط. كلَّا، لقد توقَّع ظفير حوَّاط -ذلك المِنتات الداهية- هذه اللحظة.*

سأله البارون: «ها، ما رأيك؟».

- «وماذا بوسعي أن أقول؟ موافق طبعًا».

وفكَّر فيد راوثا: *حوَّاط! أهو يلعب على الحبلين كي يوقع بيننا العداوة ويحقِّق غرضًا في نفسه؟ هل انتقل إلى معسكر عمِّي لأنني لم أستشره بشأن مسألة الغلام العبد؟*

قال البارون: «لم تقل شيئًا بخصوص تعييني حوَّاط رقيبًا عليك».

بدا الغضب على فيد راوثا في توسُّع فتحتي منخاره. لسنوات كثيرة ظلَّ اسم حوَّاط رمزًا للخطر عند آل هاركونن. والآن اكتسب الاسم معنًى جديدًا، لكنه ما زال خطرًا.

قال فيد راوثا: «حوَّاط لعبة خطرة».

- «لعبة! لا تكن غبيًّا. أعرف ما في نفس حوَّاط وكيف أتحكَّم به. حوَّاط يملك مشاعر عميقة يا فيد. لا تخشى جانب إلَّا الرجل عديم المشاعر. أمَّا المشاعر العميقة... فآه، تلك بإمكانك ليُّها واستغلالها وفقًا لحتياجاتك».

- «لا أفهمك يا عمِّي».

- «أجل، أرى هذا».

لم يبد الاستياء على فيد راوثا إلَّا في رمشة جفنٍ عابرة.

قال البارون: «ولا تفهم حوَّاط أيضًا».

فكَّر فيد راوثا: *وكذلك أنت!*

سأله البارون: «على من يلقي حوَّاط باللائمة على ظروفه الحالية؟ أنا؟ قطعًا، لكنه كان أداة آتريديزية وتفوَّق عليَّ لسنوات طويلة حتَّى تدخَّلت يد الإمبراطور وقلبت الأوضاع. هذه هي رؤيته للأمر. كرهه لي مجرَّد أمر ثانوي الآن. إنه يعتقد أن بإمكانه

التغلُّب عليَّ في أيِّ وقتٍ يريد، وباعتقاده ذلك، فهو رجل مهزوم. لأنني أوجِّه اهتمامه إلى حيث أريد.. أي ضدّ الإمبراطورية».

رسم الفهم خطوطًا عميقة على جبين فيد راوثا، وزمَّ شفتيه قبل أن يسأل: «ضد الإمبراطور؟».

فكَّر البارون: *دع ابن أخي العزيز يتذوّق حلاوة الفكرة. دعه يقول لنفسه: «الإمبراطور فيد راوثا هاركونن!». دعه يسأل نفسه كم يساوي هذا الحلم. بالتأكيد يساوي الحفاظ على حياة العمِّ العجوز الذي بإمكانه تحقيقه له!*

ببطء، بلَّل فيد راوثا شفتيه بطرف لسانه. أيعقل أن يكون ما يقوله هذا الأحمق العجوز صحيحًا؟ في الأمر تفاصيل أخرى أكثر مما هو ظاهر للعيان.

قال فيد راوثا: «وما علاقة حوَّاط بهذا الأمر؟».

- «هو يظنُّ أنه يستخدمنا لينتقم من الإمبراطور».

- «وبعد أن يتحقَّق ذلك؟».

- «إنه لا يفكِّر أبعد من انتقامه. ما حوَّاط إلَّا رجلًا وُجِدَ ليخدم، وهو لا يعرف هذه الطبيعة عن نفسه من الأساس».

وافقه فيد راوثا: «لقد تعلَّمت الكثير من حوَّاط»، وشعر بصدق كلماته وهو ينطقها. «لكن كلَّما تعلَّمت أكثر، شعرت بأنه يجب علينا التخلُّص منه، وسريعًا».

- «ألا تسترح إلى فكرة مراقبته لك؟».

- «حوَّاط يراقب الجميع».

- «وقد ينجح في وضعك على العرش. حوَّاط ماكر، وخطر، وداهية. لكنني لن أمنع عنه الترياق بعد. السيف سلاح خطِرٌ يا فيد، لكننا نملك غمدَ هذا السيف. السُّمُّ الكامن فيه. وعندما

نحرمه الترياق، سيغمده الموت».

قال فيد راوثا: «الأمر أشبه بما يحدث في الحلبة. خداع تلو الخداع تلو الخداع. تراقب المصارع لترى إلى أيِّ جهةٍ سيميل، وكيف يتحرَّك، وكيف يحمل سكِّينه».

وأومأ لنفسه إذ رأى الرضا باديًا على عمِّه من كلماته، لكنه فكَّر: *أجل! الأمر أشبه بالحلبة! لكن مع فارق أن العقل هو النَّصل القاطع هنا!*

قال البارون: «الآن فهمت حاجتك إليَّ. ما زلت ذا نفعٍ لك يا فيد».

فكَّر فيد راوثا: *عمِّي سيفٌ يجدر استخدامه حتَّى يثلم ولا يعد في مقدوره يقطع*، ثم قال: «أجل يا عمِّي».

قال البارون: «والآن، سنذهب إلى مهاجع العبيد، أنا وأنت. وسأشاهدك وأنت تقتل كل النساء في جناح المتعة بيديك».

- «عمِّي!».

- «ستحصل على غيرهن يا فيد. لكنني نبَّهتك أن الخطأ المُرتكب في حقِّي لا يمرُّ مرور الكرام».

اسودَّ وجه فيد راوثا، وقال: «عمِّي، أنت...».

قاطعه البارون: «ستقبل بعقابك وستتعلَّم منه».

التقت عينا فيد راوثا بعيني عمِّه، ورأى نظرة الشماتة فيهما، ففكَّر: *ويجب أن أتذكَّر تلك الليلة، وبتذكُّرها، يجب أن أتذكَّر لياليَ أخرى.*

قال البارون: «لن ترفض».

سأل فيد راوثا في سرِّه: *وماذا ستفعل إذا رفضت أيُّها العجوز؟* لكنه كان يعلم أنه قد تكون هناك عقوبة أخرى -أشد وأعنف رُبَّما- لكسر شوكته.

قال البارون: «أعرفك جيّدًا يا فيد، لن ترفض».

فكّر فيد راوثا: *حسنًا، لي عندك حاجة الآن. أدركت ذلك. الصفقة تمّت. لكن سيأتي اليوم الذي لن أحتاج إليك فيه.. وعندها ...*

في أعماق اللا وعي البشري تكمن حاجة مُلحَّة إلى أن يكون الكون منطقيًا وقابلًا للفهم. لكن الكون الحقيقي أبعد ما يكون عن المنطق.

من كتاب «أقوال المؤدِّب» للأميرة إيرولان.

قال حوَّاط في سرِّه: *لقد جالست كثيرًا من نبلاء عائلات الكبيرة، لكنني لم أر قط شخصًا أخطر ولا أكثر إثارة للاشمئزاز من هذا الخنزير.*

دمدم البارون: «يمكنك التحدُّث معي صراحةً يا حوَّاط». وانحنى إلى الوراء في كرسيه المعلَّق، وعيناه الغائرتان في ثنايا جلده الممتلئة دهنًا تحملقان إلى حوَّاط.

نظر المِنتات العجوز عينيه إلى الطاولة الكائنة بينه وبين البارون فلاديمير هاركونن، ملاحظًا وفرة الحبيبات على سطحها. حتَّى هذا كان عاملًا يجب مراعاته عند تقييم البارون، مع الجدران قاعة الاجتماعات الخاصَّة الحمراء هذه، ورائحة الأعشاب الحلوة الخفيفة العالقة في الهواء، التي تخفي تحتها عبير مسكٍ أثقل.

قال البارون: «لم يكن التحذير الذي جعلتني أرسله إلى رابان نزوةً عابرةً».

ظلَّ وجه حوَّاط المُسنُّ المملوء بالتجاعيد جامدًا، ولم يكشف عن شيءٍ من الازدراء الذي يشعر به نحوه، وقال: «أشك في أمورٍ كثيرة يا سيِّدي».

- «أجل. حسنًا، أودُّ معرفة ما دخل أرَّاكس في شكوكك المتعلِّقة بسالوسا سوكانداس، ولا تكتفي بأن تقول لي إن الإمبراطور غاضب بسبب علاقةٍ ما بين أرَّاكس وكوكبه السجني

الغامض. واعلم أنني لم أسارع بإرسال ذلك التحذير إلى رابان إلَّا لأن السَّاعي كان مضطَّرًا إلى الصعود على متن سفينة الهايلاينر المغادرة، ولأنك قلت إن الرسالة لا تحتمل تأجيلًا. جميل، لا بأس، لكنني أريد تفسيرًا الآن».

فكَّر حوَّاط: *إنه ثرثار، ليس مثل ليتو الذي كان بإمكانه إخباري بشيءٍ بمجرَّد رفعة حاجب أو إشارة يد. ولا مثل الدوق القديم الذي كان يستطيع التعبير عن جُملة كاملة بكلمة واحدة. أمَّا هذا فأبله! وسيكون تدميره خدمة للبشرية.*

قال البارون: «لن تخرج من هنا حتَّى أحظى بتفسيرٍ كامل مكمَّل».

قال حوَّاط: «تتحدَّث عن سالوسا سوكانداس بلا اكتراث».

قال البارون: «إنه مجرَّد مستعمرة عقابية. أوباش المجرَّة وأحطُّ رعاعها يرسلون إلى سالوسا سوكانداس. ما الذي نحتاج إلى معرفته غير هذا؟».

قال حوَّاط: «الظروف القمعية على هذا الكوكب أقسى من أيِّ مكانٍ آخر في الكون. يُقال إن معدَّل الوفيات بين السجناء الجدد أعلى من ستين بالمئة. ويُقال إن الإمبراطور يمارس هناك أساليب الاضطهاد شتَّى. هل يسمع المرء كل هذا ولا يطرح أسئلة؟».

زمجر البارون: «الإمبراطور لا يسمح لنبلاء العائلات الكبيرة بتفتيش سجنه. لكنه في المقابل لم يطلب أن يتفقَّد زنازيني».

قال حوَّاط: «لا تنس أن الفضول بشأن سالوسا سوكانداس... آه...»، ثم وضع إصبعًا نحيلًا على شفتيه وأكمل: « ... محظور».

- «وليكن، الرجل غير فخور ببعض الأشياء التي يفعلها هناك».

ارتسمت على شفتي حوَّاط الداكنتين ابتسامةٌ خفيفةٌ تكاد لا تلحظ، وتلألأت عيناه في ضوء أنبوب الإنارة وهو يحدِّق إلى البارون: «ألم تتساءل أبدًا من أين يأتي الإمبراطور بساردوكاره؟».

زمَّ البارون شفتيه الغليظتين، فأكسب هذا وجهه ملامح طفلٍ عابس، وحمل صوته نبرة مشاكسة وهو يقول: «إنه يجنِّدهم بالطبع. أعني، عن طريق التجنيد الإلزامي الذي يفرضه، ثم ينتقي متطوِّعين من بين الجنود...».

انفجر حوَّاط مقاطعًا: «محض هُراء! القصص التي تسمعها عن مآثر السَّارداوكار ليست شائعات. إنها روايات الشهود القلائل الذين نجوا من قتالهم».

قال البارون: «السَّاردوكار مقاتلون من الطراز الأوَّل، لا شك في هذا. لكنني أظن أن قوَّاتي...».

زمجر حوَّاط: «حفنة من الهواة بالمقارنة! أتظنُّ أنني لا أعرف لماذا انقلب الإمبراطور على آل آتريديز؟».

حذَّره البارون: «هذا ليس مجالًا مفتوحًا لتكهُّناتك».

سأل حوَّاط نفسه: *هل من المعقول أنه لا يعرف دوافع الإمبراطور وراء الأمر؟*

قال حوَّاط: «كل المجالات يجب أن تكون مفتوحةً أمامي إن كنت تريدني أن أنجح في ما وظَّفتني لفعله. أنا مِنتات. لا أحد يحجب المعلومات أو البيانات الحسابية عن منتات».

مرَّت دقيقة طويلة، ظلَّ فيها البارون محدِّقًا إليه، ثم قال: «أفرغ ما في جعبتك يا مِنتات».

- «الإمبراطور الپاديشاه انقلب ضد آل آتريديز لأن قائدي الدوق العسكريَّين، جيرني هاليك ودانكن آيداهو، درَّبا قوَّةً قتاليةً -قليلة

العدد- ووصلا بها إلى مستوى يكاد يضاهي مستوى السَّاردوكار، بل إن بعضها تفوَّق عليهم. وكان الدوق في وضعٍ يسمح له بزيادة حجم قوَّته لتصبح في مثل قوَّة جنود الإمبراطور».

تدبَّر البارون هذه المعلومات الجديدة، ثم قال: «وما علاقة أرَّاكس بهذا؟».

- «إنه أرضٌ خصبة للمجندين المحتملين المتكيِّفين بالفعل على أقسى الظروف المعيشية».

هزَّ البارون رأسه في عدم تصديق: «لا تقل إنك تقصد الفرمِن؟».

- «قطعًا أقصد الفرمِن».

- «هاه! لماذا نحذِّر رابان إذًا؟ ما من شك أنه لم يتبقَّ سوى حفنة من الفرمِن بعد مذابح السَّاردوكار وبعد اضطهاد رابان».

رمقه حوَّاط في صمت.

كرَّر البارون: «أقول لك إن من تبقَّى حفنة على الأكثر! رابان قتل ستَّة آلاف منهم في العام الماضي وحده».

واصل حوَّاط: «وفي العام الذي قبله قتل تسعة آلاف. والسَّاردوكار قبل أن يغادروا قتلوا ما لا يقل عن عشرين ألفًا».

سأله حوَّاط: «وكم بلغت خسائر قوَّات رابان في العامين الماضيين؟».

حكَّ البارون لُغده المتهدِّل، وقال: «حسنًا، إنه يجنِّد أعدادًا كبيرة، ووكلاؤه يقدِّمون وعودًا باهظة كي...».

سأله حوَّاط: «هل نقول ثلاثين ألفًا مثلًا؟».

قال البارون: «هذا مبالغٌ فيه بعض الشيء».

قال حوَّاط: «على العكس. أنا قادر على قراءة ما بين سطور تقارير رابان مثلك تمامًا. ولا شك في أنك فهمت تقاريري التي تأتينا من عملائنا».

قال البارون: «أرَّاكس كوكبٌ شرس، خسائر العواصف وحدها قد...».

قاطعه حوَّاط: «كلانا يعرف رقم الخسائر الذي تتسبَّب فيه العواصف».

سأله البارون وقد احتقن وجهه بالدماء: «وماذا لو فقد ثلاثين ألفًا؟».

قال حوَّاط: «وفقًا لأرقامك، فقد قتل خمسة عشر ألفًا على مدار عامين، بينما خسر ضعف هذا الرقم. وتقول إن السَّاردوكار استأثروا بعشرين ألفًا آخرين، أو أكثر قليلًا. لقد اطَّلعت على بيانات حمولات السُّفُن الفضائية التي أعادتهم من أرَّاكس. إن كانوا قتلوا عشرين ألفًا، فقد فقدوا خمسة أضعاف هذا الرقم. لِمَ لا تواجه هذه الأرقام يا بارون وتحاول فهم ما تعنيه؟».

قال البارون بنبرةٍ موزونةٍ باردةٍ: «هذه وظيفتك يا مِنتات، ما معناها؟».

قال حوَّاط: «لقد أخبرتك بالعدد الذي أحصاه دانكن آيداهو في السييتش الذي زاره. الحقيقة واضحة كالشمس. إن كان لدى الفرِمن مئتان وخمسون مجتمعًا فقط من مجتمعات السييتشات هذه، فإن عدد سكَّانها سيبلغ نحو خمسة ملايين شخص. لكن تقديري يقول إن لديهم ما لا يقل عن ضعف عدد السييتشات هذا. إنهم ينتشرون في كل فجٍّ عميق على سطح الكوكب».

قال البارون: «عشرة ملايين؟».

وارتعش لُغده من الذهول.

- «على الأقل».

زمَّ البارون شفتيه الغليظتين، وحدَّقت عيناه الخرزيَّتان إلى حوَّاط دون أن يطرف لهما جفنٌ، وتساءل: *أهذا تخمين منِتاتي صحيح؟ كيف يمكن أن يكون كذلك ولم يشكَّ أحدٌ في الأمر؟*

قال حوَّاط: «إننا لم نخفِّض حتَّى من معدَّل نموِّهم السكَّاني. كل ما فعلناه أننا خلَّصناهم من الأفراد الضعفاء، وتركنا أقوياءهم ليزدادوا قوَّة، تمامًا كما يحدث على سالوسا سوكانداس».

زمجر البارون: «سالوسا سوكانداس! ما علاقة هذا بما يحدث على كوكب الإمبراطور السجني؟».

قال حوَّاط: «من ينجو من سالوسا سوكانداس يكون أخشن وأصلب من أغلب الرجال، وعندما تضيف إلى ذلك أفضل تدريب عسكري...».

- «كلام فارغ! فبناءً على حجَّتك، بإمكاني تكوين جيشي من الفرمِن بعد القهر الذي تعرَّضوا له من ابن أخي».

قال حوَّاط بنبرة معتدلة: «ألا تقهر أنت جنودك؟».

- «حسنًا... أنا... لكن...».

قال حوَّاط: «القهر أمرٌ نسبي. أليس حال مقاتليك أفضل من حال غيرهم؟ ألا يرون حولهم بدائل أسوأ بكثير من كونهم جنودًا عند البارون؟».

خيَّم الصَّمت على البارون، وزاغت عيناه. أيحتمل أن يكون رابان قد منح الهراكنة سلاحهم الأقوى عن غير قصدٍ؟

في النهاية قال: «وكيف تضمن ولاء مثل هؤلاء المجنَّدين؟».

قـال حـوّاط: «بوضعهـم فـي مجموعـات صغيـرة، لا يزيـد عـدد أفرادهـا علـى فصيلـة عسـكرية واحـدة. بإخراجهـم مـن ظروفهـم القمعيـة وعزلهـم مـع كـوادر تدريبيـة تفهـم خلفيّتهـم، ويفضَّـل أن يكونـوا مـن أشـخاصٍ قادميـن مـن نفس الظـروف القمعيـة. ثم زراعـة أفكارٍ مضلِّلـةٍ في عقولهـم عـن أن كوكبهـم كان فـي الحقيقـة سـاحة تدريـب سـرِّيةً الغـرض منهـا تفريـخ مقاتليـن خارقيـن مـن نوعيتهـم. وفـي هـذه الأثنـاء، سـأريهم ما يمكن أن يكسبه أمثالهـم من الخـارقين: المعيشـة الرغـدة، والنسـاء الجميـلات، والقصـور الفخمـة.. كل مـا تشـتهي أنفسـهم».

بدأ البارون يومئ: «كما يعيش السَّاردوكار في منازلهم».

- «مـع الوقـت، سـيبدأ المجنَّـدون تسـويغ وجـود مـكانٍ كسالوسـا سـوكانداس، لأنـه أنتجهـم، أنتـج النخبـة. يعيـش جنـود السَّـارداوكار الأقـل رتبـة حيـاةً تماثـل فـي بذخهـا حيـاة نبـلاء العائـلات الكبيـرة».

همس البارون: «يا لها من فكرة!».

قال حوَّاط: «بدأت تشاركني شكوكي».

سأله البارون: «كيف بدأ هذا الأمر؟».

- «آه، هـا قـد بدأنـا نسـأل الأسـئلة التـي لا إجابـة لهـا: مـا منشـأ آل كورينـو؟ تُـرى هـل كان سالوسـا سـوكانداس كوكبًـا مأهـولًا قبـل أن يرسـل الإمبراطـور أولـى دُفعـات سـجنائه إلـى هنـاك؟ حتَّـى الـدوق ليتـو، وهـو قريـب إمبراطـوري مـن جهـة الأُمِّ، لـم يعـرف قـط. مثـل هـذه الأسـئلة محظـورة».

برقـت عينـا البـارون بالتفكيـر: «أجـل، إنـه سـرٌّ مخفـي بعنايـة فائقـة. إنهـم يسـتخدمون كل وسـيلة كـي...».

قاطعـه حـوَّاط بسـؤال: «ومـا الـذي يحتـاج إلـى إخفـاء؟ أن

الإمبراطور الپاديشاه لديه كوكب سجن؟ الجميع يعلم هذا. إنه...».

صاح البارون بغتةً: «الكونت فنرينج!».

بتر حوّاط عبارته ونظر إلى البارون في عبوسٍ حائر، وسأله: «ماذا عن الكونت فنرينج؟».

قال البارون: «منذ أعوام عدَّة في عيد ميلاد ابن أخي، جاء الكونت فنرينج، هذا الطّاووس الإمبراطوري المتبجِّح، بصفته مبعوثًا رسميًا كي... آه... يتمّ اتفاقية عمل بيني وبين الإمبراطور».

- «ثم؟».

- «خلال إحدى محادثاتنا... أظن أنني قلت شيئًا عن تحويل أرّاكس إلى كوكب سجن. فنرينج وقتها...».

سأله حوّاط: «ماذا قال بالحرف؟».

- «كيف سأتذكَّر بالحرف؟ كان ذلك منذ مدَّة طويلة و...».

- «سيِّدي البارون، إن كنت ترغب في تحقيق أقصى استفادة من خدماتي، فيجب أن تمدَّني بمعلومات كافية. ألم تُسجِّل هذه المحادثة؟».

اكفهرَّ وجه البارون غضبًا، وقال: «أنت وپايتر سواء! لا تعجبني هذه الـ...».

قال حوَّاط: «لم يعد پايتر معك يا سيِّدي، وبالمناسبة، ماذا حدث لپايتر؟».

قال البارون: «رَفَعَ الكُلفة معي، وكثرت طلباته».

قال حوَّاط: «لقد أكَّدت لي أنك لا تهدر رجلًا نافعًا، فهل ستهدر طاقتي بتهديداتك ومراوغاتك؟ كنا نتحدَّث عمَّا قلته للكونت فنرينج».

ببطء، سيطر البارون على ملامحه، وفكَّر: *عندما يحين الوقت، سأتذكَّر أسلوبه معي. أجل، سأتذكَّر.*

قال البارون: «أمهلني لحظة»، وعاد بذاكرته إلى اللقاء الذي تم في القاعة الكبيرة، وساعده تخيُّل شكل مخروط الصَّمت الذي وقفا فيه على التذكُّر. قال البارون: «قلت له شيئًا كالآتي: يعرف الإمبراطور أن القتل بحساب لطالما كان ذراعًا تعضِّد الأعمال. كنت أشير إلى خسائرنا من القوى العاملة. ثم قلت شيئًا عن التفكير في حلٍّ آخر للمعضلة الأرَّاكسية، وقلت إن كوكب السجن الإمبراطوري ألهمني للاحتذاء به».

صاح حوَّاط: «بحق دماء السَّاحرات! وماذا قال فنرينج؟».

- «بدأ يستجوبني عنك».

غاص حوَّاط في مقعده، وأغلق عينيه مفكِّرًا. ثم قال: «لهذا بدؤوا يبحثون في أمر أرَّاكس. حسنًا، ما حدث قد حدث»، ثم فتح عينيه وأردف: «لا بُدَّ أن جواسيسهم في جميع أنحاء أرَّاكس الآن. لقد مضى عامان!».

- «لا يمكن أن يكون تلميحي البريء قد...».

- «لا شيء بريء في أعين الأباطرة! ماذا كانت تعليماتك لربان؟».

- «أمرته أن يعلِّم أرَّاكس أن يخشانا».

هزَّ حوَّاط رأسه: «لم يعد أمامك سوى بديلين يا بارون. بإمكانك أن تقتل كل أهل الكوكب، أن تمحهم عن بكرة أبيهم، أو...».

- «وأهدر قوَّة العمل بكاملها؟».

- «هل تفضَّل أن يأتي الإمبراطور إلى هنا، مجرجرًا خلفه العائلات النبيلة التي ما زال بإمكانه تحريكها، ويجرِّف كوكب جيدي برايم بالكامل، حتى يصبح كاليقطينة المجوَّفة؟».

تدبَّر البارون مِنتاته، ثم قال: «لن يجرؤ!».

- حقًّا؟».

ارتعشت شفتا البارون، وسأل: «وما البديل الذي تقترحه؟».

- «تخلَّ عن ابن أخيك العزيز، رابان».

- «أتخلَّ...»، ثم بتر عبارته محدِّقًا إلى حوَّاط.

- «لا ترسل إليه المزيد من القوَّات، ولا مساعدة من أيِّ نوع. لا ترد على رسائله سوى بقول إنك سمعت بالطريقة المريعة التي تعامل بها مع الأمور على أرَّاكس، وإنك تعتزم اتخاذ إجراءات تصحيحية في أقرب وقت ممكن. سأرتب لأن يعترض جواسيس الإمبراطور بعضًا من رسائلك».

- «لكن ماذا عن الاسبايس، والأرباح، و...».

- «طالبه بأرباحك البارونية، لكن كن حريصًا في طريقة طلبك. اطلب منه مبالغ مقطوعة ثابتة. بوسعنا أن...».

رفع البارون كفَّيه قائلًا: «لكن كيف أتأكَّد من أن ابن أخي الماكر لا...».

- «ما زال لنا جواسيسنا على أرَّاكس. أخبر رابان أنه إمَّا يفي بتوريد حصص الاسبايس التي حدَّدتها له وإمَّا سيُستبدل».

قال البارون: «أعرف ابن أخي جيِّدًا، سيجعله هذا يتمادى في اضطهاد السكَّان».

صاح حوَّاط: «بلا شك! ليس من مصلحتك أن يتوقَّف ذلك الآن! كل ما تريده هو إثبات نظافة يديك. دع رابان يصنع لك

سالوسا سوكانداس آخر. لا توجد حاجة حتَّى لإرسال أيِّ سجناء إليه، فلديه كل ما يلبِّي حاجته من سكَّان. إن كان رابان يسوق شعبه بالحديد والنار بغرض تلبية حصص الاسبايس التي تطلبها منه، فلن يشكَّ الإمبراطور في وجود دوافع أخرى. هذا سبب أكثر من كافٍ لوضع الكوكب على مخلعة التعذيب. أمَّا أنت يا بارون فدورك ألَّا تكشف بقول أو بفعل عن وجود أسبابٍ أخرى لما يحدث».

لم يستطع البارون إخفاء نبرة الإعجاب في صوته وهو يقول: «آهٍ يا حوَّاط، يا لك من داهية! الآن، كيف سننتقل إلى أرَّاكس للاستفادة ممَّا يُعدّه رابان؟».

- «هذا أيسر ما في الأمر يا بارون. إن رفعت الحصَّة السنوية عن العام السابق قليلًا، ستتأزَّم الأمور سريعًا. سينخفض الإنتاج، وعندها يمكنك إقالة رابان وتولِّي الحكم بنفسك، لتصحيح الفوضى».

قال البارون: «كلام معقول، لكنني سئمت من كل هذا. أنا أُعِدُّ شخصًا آخر ليتولَّى حكم أرَّاكس بدلًا مني».

تأمَّل حوَّاط الوجه السمين المستدير الجالس أمامه.

ثم ببطء بدأ الجندي الجاسوس العجوز يومئ برأسه، وقال: «فيد راوثا. هذا إذًا هو السَّبب الحقيقي وراء القمع الحالي. أنت أيضًا داهية أيُّها البارون. ربَّما يمكننا دمج الخطَّتين معًا. أجل، يمكن إرسال فيد راوثا إلى أرَّاكس بصفته منقذًا. لا شك في أنه سيكسب صفَّ الناس».

ابتسم البارون، وتساءل من خلف ابتسامته: *الآن، كيف يتناسب كل هذا مع مكائد حوَّاط الخاصة؟*

نهض حوَّاط حين رأى البارون يشير إليه بالانصراف، وغادر الغرفة حمراء الجدران. في أثناء سيره، لم يستطع إغفال المجاهيل المزعجة التي تظهر في كل عملية حسابية ذهنية متعلِّقة بأرّاكس. هذا الزعيم الديني الجديد الذي أرسل جيرني هاليك من مخبئه بين المهرِّبين ملمِّحًا إليه، هذا المدعو المؤدِّب.

قال لنفسه: *رُبَّما لم يكن ينبغي لي إخبار البارون بأن يسمح لهذا الدين بالازدهار حيثما وُجِد، حتَّى بين سكَّان الوهاد والأخاديد. لكن من المعروف أن الاضطهاد يجعل الدين يزدهر.*

ثم فكَّر في تقارير هاليك عن تكتيكات الفرمِن القتالية. التكتيكات التي تحمل بصمة هاليك نفسه.. وآيداهو.. بل وحوَّاط.

وسأل نفسه: *هل نجا آيداهو؟*

لكنه كان سؤالًا بلا طائل. لم يكن قد سأل نفسه بعد عن احتمالية نجاة پول. كان يعلم أن البارون مقتنع بأن كلَّ آل آتريديز لقوا حتفهم. كما اعترف البارون بأن ساحرة البِني چيسيرِت كانت سلاحه الضَّارب، وهذا بالتأكيد يعني أن الجميع فنوا، بمن فيهم ابن المرأة.

فكَّر حوَّاط: *أيَّ كراهيةٍ سامةٍ كانت تُضمِر لآل آتريديز؟ لا بُدَّ أنها تشبه الكراهية التي أضمرها للبارون. لكن هل ستكون ضربتي قاضية ومهلكة كضربتها؟*

في قلب كل الأشياء يكمن نمط. هذا النَّمط جزءٌ من كوننا، وهو يتَّسم بالتناسق والأناقة والجمال، تلك الصفات التي دائمًا ما تراها مجسَّدة في ما يصوغه الفنان الحقيقي. بإمكانك استشفاف هذا النَّمط في تتابع الفصول، وفي انزلاق الرمال من أعلى قمَّة جبل، وفي تكتُّلات فروع شجيرة الكريوزوت الزيتية أو في الخطوط على أوراقها. نحن نحاول محاكاة كل هذه الأنماط في حياتنا ومجتمعاتنا، بحثًا عن الإيقاعات والرقصات والقوالب التي تريحنا. ولكن قد يكون في سعينا نحو الكمال المطلق خطرٌ مهلك، إذ من الواضح أن النَّمط الأسمى المنشود مجبول على الثبات. وفي ظلِّ مثل هذا الكمال، تتحرَّك كل الأشياء نحو الموت.

من كتاب «أحاديث المؤدِّب المجمَّعة» للأميرة إيرولان.

تذكَّر بول المؤدِّب وجبةً غنيَّةً بخلاصة الاسبايس، فتشبَّث بهذه الذكرى لأنها بدت نقطة ارتكاز يستطيع من خلالها إخبار نفسه بأن التجربة التي يمرُّ بها حاليًا هي مجرَّد حلم.

قال لنفسه: *أنا مسرح العمليات، أنا فريسة لرؤية منقوصة، أنا ضحية الوعي الجمعي البشري وغايته الرهيبة.*

لكنه لم يسلم من خوفه من فكرة أنه قد سبق نفسه بطريقةٍ ما، وفقد موقعه في الزمن، واختلط عليه الماضي والمستقبل والحاضر دون تمييز. كان يمرُّ بحالة من الإرهاق البصري، وعرف أنها نابعة من حاجته المستمرة إلى احتجاز رؤاه المستقبلية في

هيئة ذكريات، التي هي في جوهرها شيء من الماضي.

أخبر نفسه: *تشاني أعدَّت لي تلك الوجبة.*

ولكن تشاني كانت في أقاصي الصَّحراء الجنوبية، في الإقليم القاحل ذي الشمس الحامية، حيث تختبئ سرًّا في أحد معاقل السييتشات الجديدة، آمنة مع ابنهما، ليتو الثَّاني.

أم أن هذا الأمر لم يحدث بعد؟

طمأن نفسه أن هذا حدث بالفعل، لأن أخته عالية، الطفلة الغريبة، ذهبت مع أُمِّه وتشاني في رحلة إلى الجنوب تبعد مسافة عشرين مِطراقًا، في هودج الأُمِّ الموقَّرة على ظهر دودة صانعة برِّية.

نفض پول عن عقله فكرة امتطاء الديدان العملاقة، وسأل نفسه: *أم أن عالية لم تُولد بعد؟*

تذكَّر پول: *كنت في غزوة* * . *خرجنا في غارة لاستعادة ماء موتانا من مدينة أراكين. وقد عثرت هناك على رفات أبي في محرقة الجثث الجنائزية، ووضعت جمجمته على قمَّة تلٍّ صخري يطلُّ على مضيق حَرق.*

أم أن هذا الأمر لم يحدث بعد؟

أخبر پول نفسه: *جراحي حقيقية، وندوبي حقيقية، وضريح جمجمة والدي حقيقي.*

تذكَّر پول -وهو ما زال في هذه الحالة الشبيهة بالحلم- أن حارَّة، زوجة جيمس، دخلت عليه عنوة ذات مرَّة لتقول له إن عراكًا نشب في رواق السييتش. كان هذا في السييتش المؤقَّت، قبل إرسال النساء والأطفال إلى أقصى الجنوب. وقفت حارَّة عند مدخل الغرفة الداخلية، وخصلات شعرها الأسود معقوصة إلى

الخلف بسلسلة من الحلقات المائية. أزاحت ستائر الغرفة بيدها وأخبرته أن تشاني قتلت لتوّها شخصًا.

أخبر پول نفسه: *أمَّا هذا فحدث بالفعل. إنه واقع حقيقي لا واقع استبصاري مستقبلي عرضةً للتغير.*

تذكَّر پول هروعه إلى الخارج ليجد تشاني واقفةً أسفل كرات الإنارة الصفراء الطافية في الممرّ، في رداءٍ أزرق لامع ملفوف حول جسدها، قلنسوته ملقاة على ظهرها، وملامحها الملائكية متورِّدة من الجهد المبذول. كانت تعيد سكِّينها العاجية إلى غمدها، فيما هرول مجموعة من الأشخاص مبتعدين عنها عبر الرواق مثقلين بحملٍ.

وتذكَّر پول ما قاله لنفسه حينذاك: *منظر الجثَّة المحمولة لا يخفى على أحد.*

التفتت إليه تشاني، فصلصلت حلقات الماء التي تعلِّقها بحبلٍ حول عُنُقها على الملأ في السييتش.

سألها: «تشاني، ماذا حدث؟».

- «أجهزت على شخصٍ جاء لتحديك في نزالٍ يا أصول».

- «أقتلته؟».

- «أجل، لكن رُبَّما كان عليَّ أن أتركه لحارَّة».

(وتذكَّر پول الإعجاب الذي بدا على وجوه الناس حولهما من جراء هذه الكلمات. حتَّى حارَّة ضحكت).

- «لكنه جاء ليتحدَّاني أنا!».

- «لقد درَّبتني على أساليب القتال الخوارقية بنفسك يا أصول».

- «صحيح! لكن هذا لا يمنحك...».

- «لقد وُلِدت في الصَّحراء يا أصول، وأعرف كيفية استخدام السكِّين العاجية».

كتم پول غضبه، وحاول مناقشتها بالمنطق.

- «هذا صحيح يا تشاني، ولكن...».

- «لم أعد طفلة تصطاد العقارب في السييتش على بصيص كرة إنارة يدوية يا أصول. ما فعلتُ هذا لاعبةً».

رمقها پول شزرًا مرتجًا عليه من الشراسة الغريبة البادية في كلامها العفوي.

قالت تشاني: «كان تافهًا لا يؤبه له، ما كنت لأقطع عليك تأمُّلاتك للمُبالاة بأمثاله»، ثم اقتربت منه، ناظرةً إليه بطرفي عينيها، خافضةً صوتها كي لا يسمعها غيره: «ويا حبيبي، عندما يُشاع بين الناس أن من سيتحدَّاك قد يواجهني أنا، وأنّ منيَّةً مخزيةً ستدركه على يد امرأة المؤدِّب، ستقلُّ أعدادهم».

قال پول لنفسه: *أجل، من المؤكَّد أن هذا قد حدث. هذا ماضٍ حقيقي. وقد انخفض بالفعل عدد المتحدِّين الذين يذوقون نصلَ المؤدِّب الجديد انخفاضًا ملحوظًا*.

من مكانٍ ما في العالم المحسوس خارج نطاق الأحلام، صدرت حركة طفيفة، وصاح طائر ليلي.

طمأن پول نفسه: *أنا أحلم. هذا بسبب الوجبة الغنية بالاسبايس*.

ومع ذلك، وقر في صدره شعورٌ بالهجران والتخلِّي. وتساءل إن كان من الممكن أن تكون روحه* قد انزلقت بطريقة ما إلى ذلك العالم الذي يعتقد الفرمن أن له وجودًا حقيقيًا: عالم المثال*، عالم المتشابهات، ذلك العالم الميتافيزيقي تُزال فيه جميع

القيود الماديّة. شعر بالخوف من فكرة وجود عالمٍ كهذا، لأن إزالة جميع القيود تعني بالتبعية إزالة جميع الأطر المرجعية. في هذا العالم الأسطوري الأبعاد وهمي التضاريس، لن يتمكّن من تحديد اتّجاهه ليقول: «أنا هنا، إذًا فأنا موجود».

لقد أخبرته أُمّه ذات يوم: «الناس مختلفون في نظرتهم إليك».

قال پول لنفسه: يجب *أن أستيقظ من هذا الحلم*، لأن هذا حدث بالفعل. هذه الكلمات الصادرة عن أُمّه، الليدي چيسيكا التي صارت أُمًّا موقَّرةً للفرمِن، عبرت من بوّابة الواقع حقًّا.

كان پول يعلم أن چيسيكا تخشى العلاقة الدينية بينه وبين الفرمِن. لم يعجبها أن سكّان السييتشات والأخاديد يشيرون إلى شخصه مستخدمين الضمير«هو» المجرَّد. لذا خرجت تستقصي بين القبائل، وأرسلت جواسيسها السيّادينات للتحقيق في الأمر، وجمعت ما توصَّلن إليه من إجابات، وأمعنت في التفكير فيها.

استشهدت له بقولٍ مأثور عند البِني چيسيرِت: «عندما يجتمع الدين والسياسة في نفس العربة، يعتقد الركّاب أنه لا يوجد شيء يمكن أن يقف في طريقهم، لذا يندفعون في نزق وطيش، أسرع فأسرع، غير آبهين للعقبات، وينسون أن حافة الهاوية لا تُظهر نفسها لمن أعماه الطيش إلّا بعد فوات الأوان».

تذكَّر پول مجلسه في جناح أُمّه، في الغرفة الداخلية المحجوبة بستائر ثقيلة تغطّي أقمشتها زخارف منسوجة مستوحاة من أساطير الفرمِن. جلس هناك، يصغي إليها، ملاحظًا الطريقة التي لا تنفك بها عن المراقبة، حتّى عندما تخفض عينيها. لقد ظهرت تجاعيد جديدة في وجهها البيضاوي، على جانبي فمها،

لكن شعرها ما زال بلون البرونز المصقول. أمَّا خضار عينيها الواسعتين فقد اختفى تحت غيمة كثيفة من زرقة الاسپايس.

قال لها: «ديانة الفرمِن بسيطة وعملية».

حذَّرته: «لا شيء في الديانات بسيط».

شعر پول -المؤرَّق برؤى المستقبل الضبابي الذي ما زال مخيِّمًا في الأُفُق- بالغضب يجتاحه، ولم يسعه إلَّا أن يقول: «الدين يوحِّد صفوفنا. إنه عُروتنا الوُثقى».

قالت محتدَّة: «أنت تحيط نفسك بهذه الهالة عن عمد، ولا تَكُفّ عن الوعظ والتَّلقين».

قال: «هذا ما علَّمتِني إيَّاه».

كانت ميَّالة إلى النزاع والجدال في ذلك اليوم. كان يوم حفل ختان ليتو الصغير، لذا تفهَّم پول بعض أسباب انزعاجها. إنها لم تقبل علاقته بتشاني قط، أو علاقة «زواج العيال» كما كانت تسمِّيها. لكن تشاني أنجبت ابنًا آتريديزيًا، ورفض قلب چيسيكا أن يطاوعها على رفض الطفل كما رفضت أُمَّه من قبله.

في النهاية خارت چيسيكا تحت تأثير نظراته، وقالت: «تراني أُمًّا غير طبيعية».

- «بالقطع لا».

- «أرى الطريقة التي تراقبني بها عندما أكون مع أختك. أنت لا تفهم طبيعة أختك».

قال: «أعلم أن عالية مختلفة. كانت لا تزال في رحمك وجزءًا منك عندما بدَّلتِ خصائص ماء الحياة».

- «أنت لا تعرف أيَّ شيء!».

فجـأةً وجـد پول نفسـه عاجـزًا عـن التعبيـر عـن المعرفـة المجتـزأة مـن سـياقها الزمنـي التـي اكتسـبها، فلـم يقـل إلَّا: «لا أراك أُمًّـا غيـر طبيعية».

لاحظت معاناته، فقالت: «هناك أمر آخر يا بُني».

- «ماذا؟».

- «أنا أحب امرأتك تشاني، وراضيةً عن علاقتكما».

هـذا حـدث بالفعل، هكـذا أخبـر پول نفسـه. مـا دار بينهمـا ليـس جـزءًا مـن رؤيـة غيـر كاملـة قـد تتغيَّـر بتقلُّبـات لحظـة ولادة الزمـن الآتـي.

منحتـه الطمأنينـة سـيطرةً جديـدةً علـى عالمـه. بـدأت شـذرات الواقـع الصلـب تنفـذ عبـر غشـاوة الحلـم لتسـتقر فـي وعيـه. أدرك فجـأة أنـه فـي حِيـرق: مخيَّـم صحـراوي مؤقَّـت. كانـت تشـاني قـد نصبـت خيمـة التقطيـر علـى الرمـل المسـحوق مسـتغلَّةً نعومـة مرقده. هـذا يعنـي أن تشـاني قريبـة. تشـاني روحـه، تشـاني سِـيهَياته، تشـاني الرقيقـة كالربيـع الصحـراوي، تشـاني الآتيـة مـن الأراضـي المزروعـة فـي أقاصـي الجنـوب.

ثـم سـرعان مـا تذكَّـر أنهـا غنَّـت لـه أنشـودة صحـراويـة حيـن جـاء وقـت النـوم:

«وأنت يا توأم روحي
لا تحلم بالجنَّة الليلة،
إذ أقسم لك بشَيّ هولود
أنك ستراها رؤى العين
إن أطعت حُبِّي».

ثـم غنَّـت لـه أغنيـة التـزُّه التـي يتشـاركها العشَّـاق علـى الرمـال، والتـي يشـبه إيقاعهـا حركـة غـوص الأقـدام فـي الكثبـان الرمليـة:

«أخبرني عن عينيك
وسأخبرك عن قلبك.
أخبرني عن قدميك
وسأخبرك عن يديك.
أخبرني عن نومك،
وسأخبرك عن سيرك.
أخبرني عن رغباتك،
وسأخبرك عن احتياجاتك».

بعدهـا، سـمع مـن خيمـةٍ مجـاورة شـخصًا يعـزف علـى الباليسِـت، فتذكَّـر جيرنـي هاليـك. جعلـه صـوت الآلـة المألـوف يفكِّـر فـي جيرنـي الـذي شـاهده وسـط إحـدى عصابـات المهرِّبيـن لكـن دون أن يـراه الأخيـر، فلـم يكـن يسـتطيع أن يسـمح لجيرنـي برؤيتـه أو أن يعـرف بوجـوده لئـلَّا يقـود الهاركونـة -عـن غيـر قصـد- إلـى ابـن الـدوق الـذي ظنُّـوا أنهـم قتلـوه.

لكـن أسـلوب عـازف الليـل هـذا، وضربـات أصابعـه المميَّـزة علـى أوتـار الباليسِـت، فرضـت حضـور صاحبهـا علـى ذهـن پـول. كان هـذا تشـات الوثَّـاب، قائـد الفدائييـن*، فرقـة المغاويـر الانتحاريـة التـي تحـرس المـؤدِّب.

تذكَّـر پـول: *إننـا فـي الصَّحـراء. فـي نطـاق العـِرق الأوسـط، بعيـدًا عـن دوريـات الهراكنـة. أنـا هنـا لأسـير علـى الرمـال، وأسـتدرج دودة صانعـة، ومـن ثـمَّ امطتيهـا بالحيلـة والدهـاء، حتَّـى يتسـنَّى لـي أن أكـون فرمنيًـا قُحًّـا.*

تحسَّس پول مسَّدس المولى المتدلِّي من حزامه، وسكِّينه العاجية، والصَّمت المحيط به.

كان محاطًا بذلك الصَّمت المميَّز الذي يسبق الصباح، بعد أن عادت الطيور الليلية إلى أعشاشها، وقبل أن تستيقظ كائنات النهار فتنتبه لها عدوَّتها، الشمس.

كان ستيلجار قد أخبره في وقتٍ سابق: «يجب أن تمتطي الرمال في ضوء النهار كي تراك شَيٌّ هولود وتعلم أنك لا تعرف الخوف. لهذا قلبنا يومنا الطبيعي رأسًا على عقب، وأعددنا أنفسنا كي ننام الليلة».

نهض پول في صمت، شاعرًا بارتخاء بذلة التقطير حول جسده وبخيمة التقطير المظلَّلة من حوله، وتحرك بهدوءٍ شديد، ومع ذلك سمعته تشاني.

قال ظلُّها عبر ظلام الخيمة: «لم يطلع النهار كاملًا بعد يا حبيبي».

قال: «سِيهَيا»، بصوتٍ يلوح فيه شبح ضحكة.

قالت: «تدعوني ربيعك الصحراوي، لكنني اليوم الشوكة التي ستنخسك. أنا السَّيَّادينا التي ستراقب وتتأكَّد من اتِّباع الطقوس».

بدأ يحكم ربط بذلة التقطير حول جسده: «لقد تلوتِ عليَّ يومًا كلماتٍ من كتاب العبر تقول: "المرأة حقلك، فاذهب إلى حقلك واحرثه"[1]».

وافقته قائلة: «أنا أمُّ ابنك البكر».

رآها عبر الظلمة الرمادية تحاكي أفعاله حركةً بحركة، وتحكم

(1) استلهام من القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 223: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ».

غلق بذلة التقطير على جسدها استعدادًا للخروج إلى الصَّحراء. قالت: «يجب أن تنال كفايتك من الراحة».

لاحظ أنها تتحدَّث بلسان حُبِّها له، فوبَّخها مداعبًا: «السَّيَّادينا المراقبة لا تحذِّر أو تنصح المرشَّح المقبل على الاختبار».

انزلقت مقتربةً منه، ولمست وجنته بكفِّها وقالت: «اليوم، أنا مراقبة المرشَّح وامرأته في الوقت نفسه».

قال لها: «كان ينبغي لكِ ترك هذا الواجب لأخرى».

قالت: «الانتظار أمرٌّ وأصعب. على الأقل سأكون بجانبك».

طبع قبلة على كفِّها، وأحكم وضع كمامة البذلة، ثم استدار وأزال غطاء الخيمة العازل. استشعرا في الهواء الذي دخل الخيمة برودةً لا تخلو من آثار نداوة الفجر الخفيفة، وحمل التيَّار معه رائحة كتلة الاسپايس الأوَّلية التي اكتشفوها في الشمال الشرقي، والتي أنبأتهم بوجود دودة صانعة في مكانٍ قريب.

زحف پول خارجًا من فتحة السُّرة العاصرة، ثم نهض واقفًا على الرمال وتمطَّى موقظًا عضلاته. انتشر في الأُفُق الشرقي وهجٌ لؤلؤيٌّ أخضر باهت، وبدت خيام قوَّاته أشبه بكثبان زائفة صغيرة متناثرة حوله في الظلام. لمح حركة إلى يساره: هؤلاء حرسه، وقد علم أنهم رأوه.

كانوا يعرفون الخطر الذي سيواجهه اليوم، الخطر الذي سبق أن واجهه كل فرمِني، لذا منحوه لحظات العُزلة الأخيرة هذه كي يتمكَّن من إعداد نفسه.

قال لنفسه: *لا بُدَّ للأمر من أن يتَّم اليوم.*

فكَّر في القوَّة التي صار يملكها للتصدِّي لحملة التقتيل والتطهير العرقي، في كبار السنِّ الذين أرسلوا أبناءهم إليه ليدرِّبهم على

طريقة القتال الخوارقية، في الشيوخ الذين يستمعون لرأيه في مجلس الشورى ويتّبعون الخطط التي يرسمها، في الرجال الذين عادوا وأطروه بأفضل إطراء يمكن أن يُقال لفرمِني: «خطّتك نجحت يا مؤدّب».

ومع ذلك فإن أضأل محاربي الفرمِن حجمًا وأقلّهم شأنًا يستطيع فعل شيءٍ لم يسبق لپول أن يفعله، وكان پول يعلم أن زعامته للقوم تتأثّر سلبًا بعلمهم باختلافه هذا عنهم.

فهو لم يمتطِ بعد دودةً صانعةً.

صحيح أنه خرج مع آخرين في غاراتٍ رحلاتٍ تدريبية، لكنه لم يقم برحلته الخاصة. وإلى أن ينجح في تحقيق ذلك، سيظلُّ عالمه مقيَّدًا بقدرات الآخرين. لا يمكن لفرمِني أصيل أن يقبل هذا الأمر على نفسه. وإلى أن يفعل هذا، ستظلُّ الأراضي الجنوبية العظيمة -التي تبعد عن نطاق العِرق عشرين مِطراقًا تقريبًا- بعيدة المنال، إلا إذا طلب الارتحال في هودج كأنه أُمٌّ موقَّرة أو أحد المرضى أو الجرحى.

عادت إليه ذكرى صراعه مع وعيه الداخلي ليلًا، ورأى تشابهًا غريبًا في الأمرين: إذا امتطى دودة صانعة وأخضعها، فسيقوى حُكمه. وإذا أخضع عينه الداخلية، فسيمنحه هذا قدرًا من السيطرة. ولكن في ما وراء الأمرين، تقع منطقة ملبَّدة بالغيوم، يقع الاضطراب العظيم الذي يعصف بالكون كلِّه.

أرّقته الاختلافات في الطرائق التي يدرك بها الكون، حيث تعادل نسبة الدقَّة نسبة عدم الدقَّة. كان يرى الحاضر الآتي بوضوح في وعيه، لكنه حين يولد ويقع تحت تأثير ضغوط الواقع،

يصبح له حياته الخاصة، وتظهر عليه اختلافات طفيفة. ما زالت الغاية الرهيبة ماثلة، وما زال الوعي الجمعي للجنس البشري قائمًا، وفوق كل شيء ما زال الجهاد مخيِّمًا، ويلوح في الأُفُق دمويًا ووحشيًا.

انضمَّت تشاني إليه خارج الخيمة، محتضنةً مرفقيها، ناظرةً إليه من طرفي عينيها كما فعلت عندما كانت تستشفُّ حالته المزاجية.

قالت: «حدِّثني ثانيةً عن الماء على كوكبك يا أصول».

أدرك أنها تحاول إلهاءه وإزالة التوتُّر من عقله قبل الاختبار المميت. كان الضوء قد بدأ ينتشر، ولاحظ أن بعض فدائييه ينقضون خيامهم بالفعل.

قال: «أُفضِّل أن تخبريني أنت عن السييتش الجديد وعن حال ابننا. أما زال ولدنا ليتو يلفُّ راحة يده حول أُمِّي؟».

قالت: «بل وحول عالية أيضًا. إنه يكبر سريعًا. سيكون رجلًا ضخمًا».

سألها: «كيف الأحوال في الجنوب؟».

قالت: «عندما تمتطي الصَّانعة ستذهب إلى هناك وسترى الحال بنفسك».

قال: «لكنني أود رؤيته أوَّلًا من خلال عينيك».

قالت: «عُزلة موحشة تامَّة».

لمس پول شال النيزوني البارز من أسفل غطاء رأس البذلة والمحيط بجبهتها: «لِمَ لا تحدِّثينني عن السييتش؟».

- «حدَّثتك عنه بالفعل. إنه مكان مُوحش من دون رجالنا. مكان كله عمل. نكدح طوال الوقت في المصانع وغرف الاستزراع. ثمَّة أسلحة يجب أن تُصنع، وأوتاد يجب أن تُغرس في الرمال كي نستطيع التنبُّؤ بالطقس، واسپايس يجب أن يُجمع لدفع الرُّشى، وكثبان يجب أن تُزرع كي تنمو الأعشاب عليها وتثبت في مكانها، وسجَّاد وأقمشة يجب غزله، وخلايا وقود يجب شحنها، وأطفال يجب تدريبهم كي نحافظ على قوَّة القبيلة من الفقد».

سألها: «ألا تُوجد في السييتش مسرَّات؟».

- «الأطفال هم مسرَّتنا. كما أننا نحافظ على أداء الطقوس، ولدينا طعامٌ كافٍ. أحيانًا تأتي إحدانا إلى الشمال لتكون مع زوجها. الحياة يجب أن تستمر».

- «ماذا عن أختي عالية؟ هل تقبَّلها الناس؟».

التفتت تشاني إليه في ضوء الفجر المتزايد، ورنت بعينيها إليه: «لنناقش هذا الأمر في وقتٍ آخر يا حبيبي».

- «كلَّا، لنناقشه الآن».

قالت: «عليك أن توفِّر طاقاتك للاختبار».

لاحظ أنه لمس وترًا حسَّاسًا، إذا سمع نبرة الاستحياء في صوتها، فقال: «المجهول يجلب معه مخاوفه الخاصة».

أومأت لحظات، وفي النهاية قالت: «ما زال هناك... سوء فهم بسبب غرابة أطوار عالية. النساء خائفات لأن طفلة مثلها تجاوزت لتوِّها سنَّ الرضاعة تتكلَّم.. وتتكلَّم عن أشياء لا يعلمها إلَّا الكبار. إنهن لا يفهمن... التحوُّل الذي أصاب عالية وهي في الرحم، التحوُّل الذي جعلها... مختلفة».

سألها: «هل حدثت مشكلات؟»، وفكَّر: *لقد شاهدتُ رؤىً عن مشكلات حدثت بسبب عالية.*

حدَّقت تشاني إلى ضوء شروق الشمس المتزايد في خطّ الأُفق، وقالت: «اتحدت بعض النسوة وناشدن الأُمَّ الموقَّرة بأن تطرد الشيطان الذي يتلبَّس جسد ابنتها، واستشهدن بآية من النصوص المقدَّسة: "لا تدع ساحرة تعيش بيننا"».

- «وبم ردَّت أُمّي عليهن؟».

- «تلت عليهن كلمات القانون، وجعلتهن يغادرن في خزي. قالت: "إن كانت عالية تثير المتاعب، فالخطأ خطأ السُّلطة التي لم تتنبَّأ بوقوع المتاعب وتمنع وقوعها". حاولت أن تشرح لهن كيف أصاب التغيير عالية في الرحم. لكن النسوة غضبن بسبب الإحراج الذي تعرَّضن له، وخرجن من عندها متأففات».

فكَّر بول: *ستحدث مشكلات بسبب عالية.*

هبَّ هواءٌ محمَّل بحبيبات رمالٍ خشنة لامست الأجزاء المكشوفة من وجهه، حاملةً معها رائحة كتلة الاسبايس الأوَّلية، فقال: «السيال*، مطر الرمال الذي يعلن قدوم الصباح»، ورفع بصره ورنا إلى تضاريس الصَّحراء السابحة في ضوءٍ رمادي، التضاريس التي لا تثير في نفسه أيَّ حنين، وإلى الرمال التي لا تأبه سوى بنفسها. انشقَّت السماء عن صاعقة برقٍ جافَّةٍ أضاءت قطاعًا مظلمًا باتِّجاه الجنوب، في إشارة إلى أن شحنة العاصفة السَّاكنة تراكمت هناك. ثم تبعها هزيم الرعد بعد مدَّة.

قالت تشاني: «الصَّوت الذي يُجمِّل الأرض».

استمرَّ خروج الرجال من خيمهم، وتوافد الحرس إليه من أطراف المخيَّم. كان كل شيء من حوله يتحرَّك بسلاسة وفقًا لروتين قديم لا يحتاج إلى إصدار أوامر.

تذكَّر ما أخبره به أبوه، ذات مرَّة، منذ زمنٍ بعيد: «اجعل أوامرك قليلة قدر الإمكان، فما إن تصدر أوامر بشأن موضوعٍ ما، ستضطرُّ دومًا إلى إصدار أوامر بشأنه».

كان الفرمِن يعرفون هذه القاعدة بالسليقة.

بدأ أمين الماء يردِّد ترنيمة الصباح، مضيفًا إليها نداء بدء طقوس انضمام راكب رمال جديد إلى القبيلة.

أنشد الرجل بصوتٍ حزين تردَّد نحيبه عبر الكثبان: «ما العالم إلَّا جيفة. من ذا الذي يقدر على صرف ملك الموت؟ ما قدَّرته شَيٌ هولود سيكون».

أصغى پول جيِّدًا، وميَّز أن هذه هي كلمات افتتاحية ترنيمة الموت الخاصة بفدائييه نفسها، الكلمات التي يردِّدها مغاوير الموت وهم يلقون بأنفسهم في خضم المعركة.

سأل پول نفسه: *هل سيُقام ضريحٌ صخريٌّ هنا اليوم لإحياء ذكرى وفاة روحٍ أخرى؟ هل سيتوقف الفرمِن هنا في المستقبل، ويضع كلٌّ منهم حجرًا آخر وهو يستحضر روح المؤدِّب الذي مات في هذا المكان؟*

كان يعلم أن هذا أحد الاحتمالات القائمة اليوم، حقيقة ضمن مسارات المستقبل المتشعِّبة من هذه النقطة الزمكانية. أرَّقته الرؤية المنقوصة. كلَّما قاوم غايته الرهيبة وبذل كل ما في وسعه كي لا يقع الجهاد الآتي، يزداد الاضطراب الذي يتخلَّل قدرته الاستبصارية. مستقبله بالكامل يبدو كنهر يندفع نحو هاوية، نحو المحور العنيف الذي كل ما وراءه ضباب وغيوم.

قالت تشاني: «ستيلجار يقترب. يجب أن أقف بعيدًا عنك الآن يا حبيبي. علي ممارسة دور السَّيَّادينا ومراقبة الطقس كي أدوِّنه

في سجلّاتنا كما حدث»، ثم رفعت بصرها إليه، وللحظة خانها تحفُّظها، لكنها سرعان ما استعادت السيطرة على نفسها، ثم قالت: «حين ينتهي الأمر، سأعدُّ لك الفطور بيدي»، واستدارت مبتعدة.

تقدَّم ستيلجار نحوه فوق الرمال الناعمة كالدقيق، مثيرًا سُحُب غبارٍ صغيرة، وظلَّت عيناه الغائرتان في محجريهما مثبَّتتين على پول ترمقانه بنظرة ضارية. برز جزء من لحيته السوداء من أسفل قناع البذلة، أمَّا الخطوط العميقة على وجنتيه، فبدت كأنها صخور طبيعية نحتتها الرياح.

كان الرجل يحمل راية پول خفَّاقة على سارية، الراية الخضراء والسوداء المرفق بساريتها أنبوب ماء التي جابت شهرتها الأسطورية الآفاق بالفعل.

فكَّر پول، بشيء من الفخر: *كل ما يصدر عنِّي من قولٍ أو فعلٍ زهيد تلهج الألسن بذكره ويتحوَّل إلى أسطورة. سيتناقلون كيف ابتعدت عن تشاني، وكيف سأُحيي ستيلجار، سيدوِّنون كل حركة أقوم بها اليوم. إن عشت أو مُت، ستبقى الأسطورة. يجب ألَّا أموت، فلو حدث ذلك لن يبقى لهم إلَّا الأسطورة، ولا شيء سيوقف الجهاد.*

غرس ستيلجار السارية في الرمال إلى جوار پول، وأنزل يديه إلى جانبيه. ظلَّت العينان الزرقاوان بالكامل تحدِّجانه بتصميم، فخطر لپول كيف بدأت عيناه هو نفسه تصطبغان بمسحة من الزرقة بفعل الاسپايس.

قال ستيلجار بوقارٍ طقسي: «قد حرمونا الحج».

فردَّ پول كما علَّمته تشاني: «ومن في مقدوره حرم فرمِنيٍّ حق السير أو الركوب حيث يشاء؟».

قال ستيلجار: «أنا نائب*، ولن أقع أسيرًا حيًّا أبدًا. أنا إحدى ركائز ثلاثي الموت الذي سيُدمِّر أعداءنا».

ثم خيَّم الصَّمت عليهما.

ألقى پول نظرة خاطفة إلى الفرمِنيين الآخرين المنتشرين على الرمال خلف ستيلجار، ولاحظ وقفتهم الثَّابتة التي لا تشوبها حركة في أثناء لحظة الصلاة الشخصية هذه، وفكَّر كيف أن الفرمِن أُناس تقوم حياتهم على القتل، شعب برمَّته عاش طوال أيَّامه في حالة من الغضب والحزن، ولم يفكِّر في أن يستبدل بهما شيئًا، باستثناء الحُلم الذي زرعه فيهم ليِيت كاينز قبل موته.

سأله ستيلجار: «أين الرب الذي قادنا عبر أرض القفار والحُفَر؟».

ردَّ الفرمِن: «هو دائمًا معنا».

شدَّ ستيلجار كتفيه، واقترب أكثر من پول وقال خافضًا صوته: «تذكَّر ما قلته لك. أنجز الأمر ببساطة ومباشرة، ولا تستعرض. نحن نمتطي الصَّانعة في سنِّ الثانية عشرة، وأنت تجاوزت تلك السِّنَّ بأكثر من ستَّة أعوام، ولم تنشأ على حياتنا، فلا داعي لمحاولة إثارة إعجاب أحدٍ بشجاعتك. كلنا نعلم شجاعتك جيِّدًا. كل ما عليك فعله هو استدعاء صانعة وامتطاؤها».

قال پول: «سأتذكَّر».

- «احرص على ذلك. لن أسمح لك بالإساءة إلى تعليمي».

أخرج پول قضيبًا بلاستيكيًّا طوله نحو المتر من أسفل ردائه. كان القضيب مدبَّبًا من أحد طرفيه، وفي طرفه الآخر مِدقَّة تعمل

بزنبرك: «أعددتُ هذا المِطراق بنفسي. إنه مِطراقٌ جيِّد. خذه».
شعر پول بنعومة البلاستيك ودفئه وهو يأخذ المطراق منه.
قال ستيلجار: «شيشاكلي معه خُطّافاك، سيسلِّمهما لك عندما تطأ قدماك رمل الكثيب هناك»، وأشار باتّجاه اليمين مستطردًا: «استدعِ صانعةً ضخمةً يا أصول. اِهدنا الطريق».
لاحظ پول نبرة صوت ستيلجار: نصفها طقسي، ونصفها صادر عن صديقٍ قَلِق.
في تلك اللحظة، بدت الشمس كأنها قفزت فوق خطِّ الأُفُق. اتَّخذت السماء زُرقة رمادية فضِّية تدلُّ على أن اليوم سيكون لافح الحرارة شديد الجفاف، حتَّى بمقاييس أرّاكس.
قال ستيلجار: «حان وقت النهار الحارق»، ثم أردف وقد اكتسى صوته بنبرة طقسية تامَّة: «اذهب يا أصول وامتطِ الصَّانعة، وطُف بالرمال كقائد للرجال».
أدَّى پول التحيَّة لرايته، ملاحظًا كيف صار العلم الأخضر والأسود مرتخيًا، بعد أن ماتت رياح الفجر. استدار وواجه الكثيب الذي حدَّده ستيلجار. كان مجرَّد منحدرٍ رمليٍّ أصفر أرمد ذي قمَّه متعرِّجة. كان معظم أفراد المجموعة قد بدؤوا التحرُّك بالفعل في الاتجاه المعاكس، متسلِّقين الكثيب الآخر الذي آوى معسكرهم.
بقي شخصٌ واحد فقط في طريق پول: شيشاكلي، قائد فرقة الفدائيين. لم يكن يظهر من وجهه من بين قناع البذلة وغطاء الرأس سوى عينيه الناعستين المتهدِّلتي الجفنين.
مع اقتراب پول منه، رفع شيشاكلي قضيبين رفيعين يشبهان السياط. كان طول الواحد منهما نحو المتر، وينتهي أحد طرفيه

بغطاء لامع من البولاذ، وقد خُشِّن طرفه الآخر ليتيح لحامله إمساكه بإحكام.

قال شيشاكلي في صوتٍ أجش: «هذان خُطَّافاي الشخصيان، لم يخذلاني أبدًا».

أومأ پول، ملتزمًا الصَّمت الضروري للطقس، وتجاوز الرجل صاعدًا منحدر الكثيب. عند القمَّة نظر خلفه ورأى أفراد المجموعة منتشرين على الرمال كأنهم سرب حشرات، وثيابهم تخفق مع الهواء. وقف وحيدًا الآن فوق الحافَّة الرملية، لا يحدُّه سوى خط الأُفُق المنبسط، الثَّابت بلا حراك. كان ستيلجار قد انتقى كثيبًا ملائمًا، أعلى ارتفاعًا من الكثبان المحيطة، ما يتيح مجال رؤية أفضل.

انحنى پول وغرس المِطراق عميقًا في وجه الكثيب المواجه للريح، حيث ضُغطت الرمال ممَّا سيجعلها ترسل طرقاته إلى أبعد مدى ممكن. ثم تردد متذكِّرًا ما تعلَّمه، وراجع ضروريَّات الحياة والموت التي تواجهه.

حين سينزع القفل، سيبدأ المِطراق استدعاءه. وعبر الرمال المفتوحة، ستسمع دودة عملاقة -صانعة- الصَّوت، وستأتي إلى مصدر الطرق ملبِّيةً النداء. كان پول يعلم أنه باستخدام الخُطَّافين الشبيهين بالسياط، بإمكانه امتطاء ظهر الصَّانعة الأسطواني الهائل. وإن حافظ على حافَّة إحدى الحلقات الأمامية المؤلِّفة لجسد الدودة مفتوحةً بخطاف، سامحًا بدخول الرمال الخشنة إلى أنسجتها الداخلية الأكثر حساسية، فلن يتراجع المخلوق غائصًا تحت رمال الصَّحراء. بل إنها ستُدَحرِج جسدها العملاق لإبعاد الجزء المفتوح عن سطح الصَّحراء قدر الإمكان.

أخبر پول نفسه: *أنا راكب رمال.*

نظر إلى الخُطّافين القابعين في يده اليسرى، مفكّرًا في أن كل ما عليه فعله هو غرس هذين الخُطّافين أسفل إحدى طيّات جانب الصّانعة الهائل لجعل المخلوقة تدحرج وتدور، ويوجّهها حيثما يشاء. لقد شاهد الأمر من قبل، بل وساعدوه على تسلّق جانب إحدى الديدان في جولة تدريبية قصيرة. يمكن ركوب الدودة الأسيرة إلى أن تُستنزف طاقتها وتُنهك وتقبع هامدةً على سطح الصّحراء. عندها يجب استدعاء صانعة جديدة.

كان پول يعلم أنه بمجرد اجتياز هذا الاختبار، سيصبح مؤهّلاً للقيام برحلة العشرين مِطراقًا إلى الجنوب، ليستريح ويستعيد قواه. سيذهب إلى الجنوب حيث أُخفيت النساء والعائلات بين جحور السييتش والأراضي المزروعة الجديدة، بعيدًا عن المذابح الدائرة.

رفع رأسه ونظر نحو الجنوب، مذكّرًا نفسه أن دودة الصّانعة المُستدعاة من صحراء العِرق الشعواء كانت إحدى مجاهيل رؤاه، وإمكانية نجاة مُستدعيها من هذا الاختبار مجهولة كذلك.

لقد شرح له ستيلجار قائلًا: «عليك أن تقدّر حجم الصّانعة المقتربة بدقّة. عليك أن تقف قريبًا بما يكفي لامتطائها وهي تمرّ، ولكن ليس أقرب من اللازم كي لا تهلكك في مرورها».

بقرارٍ مفاجئ، نزع پول قفل المِطراق، فبدأت المِدقّة عملها، وسرت طرقات الاستدعاء عبر الرمال بإيقاع منتظم: **طق... طق... طق.**

شدَّ پول جسده، ومسح الأُفُق بعينيه متذكّرًا كلمات ستيلجار: «راقب مسار الاقتراب بعناية. تذكّر أن الدودة نادرًا ما تقترب من المِطراق دون أن تُشاهد. لكن أنصِت جيّدًا، فقد تسمعها قبل أن تراها».

ومـلأت عقلـه كلمـات تشـاني المحـذِّرة، التـي همسـتها فـي أُذُنـه ليـلًا حيـن غلبهـا خوفهـا عليـه: «حيـن تتَّخـذ موضعـك فـي طريـق الصَّانعـة، كـن سـاكنًا تمامًـا. فكِّـر فـي أنـك مجـرَّد رقعـة مـن الرمـل. تخـفَّ تحـت ردائـك، وتحـوَّل أنت نفسـك إلـى كثيـب صغيـر».

ببـطء، راح يمسـح خـطَّ الأُفُـق بعينيـه، مصغيًـا ومراقبًـا ظهـور العلامـات التـي تعلَّمهـا.

مـن الجنـوب الشـرقي أتـت هسهسـةٌ بعيـدة، همسـةُ رمـال. وفـي النهايـة رأى فـي البُعـد الحـدود الخارجيـة لمسـار المخلوقـة فـي ضـوء الفجـر، وأدرك أنـه لـم يسـبق لـه رؤيـة صانعـة بهـذه الضخامـة، ولـم يسـمع عـن واحـدة بهـذا الحجـم مـن قبـل. بـدا أن طولهـا يزيـد علـى نصـف فرسـخ، وكانـت قمَّـة الموجـة الرمليـة التـي تدفعهـا أمامهـا أشـبه بجبـلٍ يقتـرب.

حـذَّر پـول نفسـه: *لـم يسـبق لـي أن رأيـت شـيئًا كهـذا فـي رؤيـا أو فـي الواقـع*، ثـم عبـر مسـرعًا مسـار الشـيء ليتَّخـذ مكانـه، غارقًـا حتَّـى الأذنيـن فـي الضـرورات المُلحَّـة التـي تقتضيهـا هـذه اللحظـة.

«تحكَّموا في المحاكم وفي سكِّ العملة، واتركوا الباقي للرعاع»، هكذا نصحكم الإمبراطور الباديشاه، ثم زاد لكم: «وإن كنت تبغون الربح، فعليكم بالحُكم». هذه الكلمات تحمل بعض الصدق، لكنني أسأل نفسي: «من الرعاع ومن الرعيَّة؟».

رسالة المؤدِّب السرِّية لمجلس اللاندسراد،
من كتاب «صحوة أرَّاكس» للأميرة إيرولان.

•

خطرت الفكرة على ذهن چيسيكا دون سابق إنذار: *سيخضع پول لاختبار ركوب الرمال في أيِّ لحظة الآن. إنهم يحاولون إخفاء هذه الحقيقة عنِّي، لكنها واضحة. ألم تخرج تشاني في مأموريةٍ غامضة ما؟*

جلست چيسيكا في استراحتها، تقتنص لحظة هدوء عزيزة بين دروس الليلة. كانت الحجرة جيِّدة، لكنها لم تكن كبيرة كتلك التي كانت تتمتَّع بها في سييتش تابر قبل هروبهن من المذابح. ومع ذلك، كانت أرضية الغرفة مفروشة بسجَّادٍ سميك، ووسائد ناعمة، وطاولة قهوة دانية في متناول اليد، وستائر ومعلَّقات زاهية الألوان على الجدران، وكرات إنارة فوق رأسها تشعُّ بضوءٍ أصفر ناعم. كانت الغرفة تفوح بالرائحة الكريهة النفَّاذة المميِّزة لسييتشات الفرمن، التي ارتبطت في ذهنها بالإحساس بالأمان.

إلَّا أنها أدركت أنها لن تتخلَّص أبدًا من الشعور بأنها في مكانٍ غريب عليها، الرَّاجع إلى شظف العيش الذي يحاول كل هذا السجَّاد والستائر إخفاءه.

اخترق صوت رنينٍ ونقر طبولٍ وتصفيقٍ خافتٍ هدوء استراحتها. أدركت چيسيكا أنه احتفالٌ بمولودٍ جديد، غالبًا

بمولود سبيَّة، فميعادها كان قد اقترب. كما علمت أنها سترى المولود بعد قليل، الملاك أزرق العينين الذي سيجلبنه إلى الأمِّ الموقَّرة لتباركه. وعلمت أيضًا أن ابنتها عالية ستحضر الاحتفال وستبلغها بما دار فيه.

لم يكن موعد صلاة الافتراق الليلية قد حان بعد. لم يكُنَّ ليبدأن احتفالًا بالولادة مع اقتراب وقت طقس الرثاء على غارات الاستعباد التي شُنَّت على كواكب بوريترين وبيلا تيجيوس وروسَّاك وحارمونثب.

تنهَّدت چيسيكا. كانت تعلم أنها تحاول صرف ذهنها عن التفكير في ابنها والمخاطر التي يواجهها: الحفر المفخَّخة بأشواكها المسمومة، وغارات الهراكنة (على الرغم من أنها قد بدأت تنحسر مع تكبيد العدو خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، باستخدام الفرمِن الأسلحة الجديدة التي درَّبهم عليها پول). هذا فضلًا عن المخاطر الطبيعية في الصَّحراء: الديدان العملاقة، والعطش، ووهدات الغبار.

فكَّرت في أن تطلب قهوة، ومع الفكرة تملَّكها ذلك الشعور الدائم بالتناقض في أسلوب حياة الفرمِن: مستوى المعيشة الجيِّد الذي يحظون به في هذه السييتشات الكهفية مقارنةً بالكادحين من سكَّان الأخاديد، وما يتكبَّدونه من عناءٍ ومشقَّةٍ في الهَجْر* عبر الصَّحراء المكشوفة يفوقان كل ما يعانيه عبيد الهراكنة.

انسلَّت يدٌ سمراء من بين الستائر المجاورة لها، ووضعت كوبًا على الطاولة وانسحبت. تصاعد من الكوب طيب رائحة القهوة بالمخلوطة بالاسبايس.

فكَّرت چيسيكا: *هِبة الاحتفال بالمولود*.

أخذت القهوة ورشفت منها، وابتسمت سائلةً نفسها: *في أيِّ مجتمع آخر في كوننا يمكن لشخص في مثل مكانتي أن يقبل مشروبًا مجهولًا ويرشف منه هنيئًا دون خوف؟ بإمكاني تغيير تركيب أيّ سُمّ الآن قبل أن يضرّني بالطبع، لكن مانحة العطية لا تدرك ذلك.*

جرعت الكوب بكامله، شاعرةً بالطاقة والحيوية التي بثّتها فيها محتوياته اللذيذة السّاخنة.

وتساءلت أيُّ مجتمع آخر سيوُلي مثل هذا الاحترام الفطري لخصوصيتها وراحتها، بحيث تتسلّل المقدِّمة إلى خلوتها بالقدر الذي يسمح فقط بوضع الهديَّة أمامها دون أن تذكر شيئًا عن المانحة؟ الحب والاحترام هما ما أرسلها هذه الهدية، مع مسحة من الخوف أيضًا.

عنصر آخر من عناصر الواقعة فرض نفسه على وعيها: لقد أتت القهوة ما إن فكَّرت فيها. كانت تعلم أنه لا شبهة تخاطر في الأمر. بل هو الطّاو، وحدانية مجتمع السييتش، الناتجة عن الطعام الغني بالاسبايس الذي يتشاركونه. بالتأكيد لا أمل لهذا العدد الغفير من الناس في بلوغ سمت التنوير الذي منحته إيَّاها بذرة الاسبايس، فهم لم يتدرَّبوا أو يتهيَّؤوا لمثل هذا الأمر. إن عقولهم تنكر ما لا يستطيعون فهمه أو استيعابه. ومع ذلك تجدهم يتصرَّفون ويتفاعلون كأنهم كيانٌ واحد، لكن دون أن تخطر ببالهم إطلاقًا فكرة حدوث ذلك مصادفةً.

سألت جيسيكا نفسها: *هل نجح پول في اجتياز اختبار الرمال؟ إنه راسخ القدم، لكن المكاره أحيانًا لا تنال إلَّا من الأرسخ قدمًا.*

ما أطول ساعات الانتظار.

فكَّرت چيسيكا: *الوحشة تنهش صدري. الإنسان لا يطيق الانتظار إلَّا مدَّة من الوقت، بعدها تفترسه وحشة الانتظار.*

وحياة هؤلاء القوم ملأى بأنواعٍ انتظار شتَّى.

فكَّرت چيسيكا: *نحن هنا منذ أكثر من عامين، وأمامنا ضعف هذا الرقم على الأقل قبل أن نفكِّر في انتزاع أرّاكس من قبضة الحاكم الهاركونني، مُدير الناحية* ، رابان الوحش.*

- «أيَّتها الأُمُّ الموقَّرة؟».

كان الصَّوت الآتي من وراء ستارة بابها هو صوت حارَّة، المرأة الأخرى ضمن آل بيت پول.

- «نعم يا حارَّة».

انزاحت الستارة وانسلَّت حارَّة عبرها بخفَّة. كانت تنتعل صندل السيتش، وتلفُّ جسدها في رداءٍ أحمر وأصفر يكشف ذراعيها حتَّى الكتفين تقريبًا. أمَّا شعرها الأسود فكان ملتصقًا برأسها ومفروقًا من المنتصف ومسحوبًا إلى الوراء كأنه جناحي حشرة، وكانت ملامحها الحادَّة البارزة ملتوية في عبوسٍ شديد.

ومن خلف حارَّة جاءت عالية: طفلة سنُّها عامين تقريبًا.

برؤية لابنتها، سرحت چيسيكا -كعادتها دائمًا- في الشبه الكبير بينها وبين وپول حين كان في هذه السِّنِّ. نفس النظرة الرزينة المطلَّة من العينين الواسعتين، ونفس الشَّعر الأسود، والفم الحازم. ولكن كان بينهما اختلافات طفيفة أيضًا. هذه الاختلافات هي التي جعلت معظم البالغين ينظرون إلى عالية بريبة وقلق. كان الطفلة -التي تجاوزت سنَّ الرضاعة بقليل- تتصرَّف بوقارٍ ورُشد يفوقان سنَّها بسنوات. صُدم الكبار عندما وجدوها تضحك على النكات اللفظية المعقَّدة والدعابات الجنسية المتوارية، أو

وهم يصغون إلى اللثغة الطفيفة في صوتها -الذي لا يزال غير واضح لخروجه من أعضاء نطق غضّة لم يكتمل نموّها بعد- ويجدون في كلماتها تلميحات ماكرة لا يمكن ردّها إلّا لتجارب لا قِبَل لطفلةٍ لم تبلغ العامين بها.

غاصت حارّة في إحدى الوسائد بتنهيدةٍ غاضبةٍ، وعبست في وجه الطفلة.

أشارت چيسيكا إلى ابنتها: «عالية».

سارت الطفلة إلى إحدى الوسائد المجاورة لأُمّها، وغاصت فيها، وأمسكت بيد أُمّها. أعاد الاتصال الجسدي لهما ذلك الوعي المتبادل الذي تشاركاه قبل ولادة عالية. لك الأمر لم يكن تشارك أفكار، على الرغم من حدوث ومضات من ذلك أحيانًا إن حدث وتلامستا في أثناء تغيير چيسيكا لتركيب سُمّ الاسپايس في أحد المراسم. بل كان شيئًا أكبر، شيئًا أشبه بإدراكٍ فوري لشرارة حيّة أخرى، شعورًا حادًّا وشجيًّا، توافقًا عصبيًّا يصهرهما ويجعلهما كيانًا شعوريًّا واحدًا.

نطقت چيسيكا بالتحيّة الرسمية التي تليق بفرد من أفراد آل بيت ابنها: «صباح الخير* يا حارّة. كيف حالك الليلة؟».

ردّت حارّة بالتحية الرسمية نفسها: «صباح النور*، أنا بخير». لكن كلماتها كانت عديمة النبرة تقريبًا. وتنهّدت مجدّدًا.

شعرت چيسيكا بأن عالية مستمتعة بالموقف.

قالت عالية بصوتها الألثغ قليلًا: «غنيمةُ* أخي حانقةٌ منّي».

ميّزت چيسيكا المصطلح الذي استخدمته عالية للإشارة إلى حارّة: غنيمة. في خفايا لغة الفرمِن، تعني الكلمة «شيئًا اكتسبه المرء في معركة»، مع التشديد على أن هذا الشيء لم

يعد يستخدم لغرضه الأصلي، بل للزينة.. كاستخدام رأس حربة كثقَّالة ستارة.

عبست حارَّة في وجه الطفلة: «لا تحاولي إهانتي أيَّتها الصغيرة، فأنا أعلم مكانتي جيِّدًا».

سألتها چيسيكا: «ماذا فعلتِ هذه المرَّة يا عالية؟».

أجابت حارَّة: «اليوم لم ترفض اللعب مع الأطفال الآخرين فحسب، بل تطفَّلت أيضًا على...».

قاطعتها عالية: «اختبأت خلف الستائر وشاهدت مولد طفل سبيَّة. إنه صبيٌّ بالمناسبة، وظلَّ يبكي ويبكي بلا انقطاع. ما أوسع رئتيه! وعندما طال بكاؤه...».

أكملت حارَّة قائلة: «خَرَجَت من مخبئها ولمسته، فتوقَّف عن البكاء. يعلم الجميع أن على الطفل الفرمِني إنهاء كل بكائه عند ولادته -إن كان في السييتش- لأنه لن يُسمح له بالبكاء ثانيةً لئلَّا لا يفضح مكاننا في أثناء الهَجْر».

قالت عالية: «لقد بكى بما يكفي. كل ما أردته هو الشعور بشرارة حياته. وعندما شعر بي لم يعد راغبًا في البكاء».

قالت حارَّة: «تسبَّبت فعلتك هذه في ازدياد كلام الناس».

سألتها چيسيكا: «هل ابن سبيَّة بصحَّة جيِّدة؟». فقد رأت أن شيئًا يزعج حارة بشدة وتعجَّبت من كنهه.

قالت حارَّة: «سليمٌ مُعافى كما تأمل أيُّ أُمٍّ. إنهن يعلمن أن عالية لم تؤذه، ولم يهتمُّوا كثيرًا بلمسها له، إذ هدأ على الفور وصار سعيدًا. أنا فقط...». بترت حارَّة عبارتها وهزَّت كتفيها.

سألتها چيسيكا: «غرابة ابنتي هي ما يزعجك، أليس كذلك؟ طريقتها في الكلام التي تفوق سنَّها بسنوات، وتفوُّهها بأشياء

يستحيل أن تعلمها طفلة في مثل سنِّها... أشياء من الماضي».

سألتها حارَّة: «كيف لها أن تعرف شكل طفل عاش منذ زمن بعيد على بيلا تيجيوس؟».

صاحت عالية: «لكنه يشبهه بالفعل! ابن سبيَّة يشبه ابن ميثا تمامًا قبل الافتراق».

قالت چيسيكا: «عالية! أنا أحذِّرك».

- «ولكن يا أُمِّي، لقد رأيت الأمر، وكان حقيقيًا و...».

هزَّت چيسيكا رأسها، إذ رأت علامات الانزعاج على وجه حارَّة، وسألت نفسها: *ماذا أنجبت؟ ابنة تعرف منذ مولدها كل ما أعرفه، بل وما هو أكثر. لقد انكشف لها كل شيء في أروقة الماضي، على يد الأُمَّهات الموقَّرات اللاتي يعشن داخلي.*

قالت حارَّة: «ليست المشكلة ما تتفوَّه به فحسب، بل ما تفعله أيضًا. جلستها وتحديقها إلى الصخور، دون أن يتحرَّك فيها شيءٌ سوى عضلة واحدة جوار أنفها، أو عضلة على ظهر إصبع من أصابعها، أو...».

قالت چيسيكا: «هذا من تدريبات البِني چيسيرِت كما تعرفين يا حارَّة. أتنكرين على ابنتي ميراثها؟».

قالت حارَّة: «تعرفين أنني لا آبه بهذه الأمور يا أُمَّنا الموقَّرة. المشكلة في الناس، وفي ما يتناقلونه من همس. أستشعر الخطر في كلامهم. يقولون إن ابنتك شيطانة، وإن الأطفال الآخرين يرفضون اللعب معها، وإنها...».

- «كل ما هنالك أن القواسم المشتركة بينها وبين الأطفال الآخرين قليلة. ليست شيطانة، إنها...».

- «قطعًا ليست شيطانة!».

دهشت چيسيكا من الحِدَّة في نبرة حارَّة، ونظرت إلى عالية. بدت الطفلة سارحة في أفكارها وتشعُّ بهالة من الـ... انتظار. أعادت چيسيكا انتباهها إلى حارَّة.

قالت چيسيكا: «أحترم كونك فردًا من آل بيت ابني»، واستشعرت انفعالًا في لمسة عالية، ثم أضافت: «يمكنك التحدُّث معي بصراحة عمَّا يزعجك».

قالت حارَّة: «لن أظل أحد أفراد آل بيت ابنك مدَّة أطول. لقد انتظرت هذا الوقت الطويل من أجل ولديَّ، والتدريب الخاص الذي يتلقَّيانه بصفتيهما ابنا أصول. هذا أقل ما يمكنني منحه لهما، بما أن الجميع يعرف أنني لا أشارك ابنك فراشه».

من جديد، خفقت عالية بالانفعال إلى جوارها. كانت نصف نائمة، ودافئة.

قالت چيسيكا: «ولو أنك كنت ستكونين رفيقةً صالحةً لابني». ولأن هذه الأفكار لازمتها طوال حياتها، أضافت إلى نفسها: رفيقة لا زوجة. انصبَّت أفكار چيسيكا بعدها مباشرةً على جوهر المشكلة، على الغصَّة المريرة التي أصابت حلقها من حديث الناس في السييتش بأن مخادنة ابنها لتشاني صارت شيئًا دائمًا، أشبه بزواج.

فكَّرت چيسيكا: *أنا أحب تشاني*، لكنها ذكَّرت نفسها أن الحب قد يضطر إلى التنحِّي وإفساح المجال أمام الضرورات التي تفرضها الحياة الملكية، فللزيجات الملكية أسباب أخرى كثيرة غير الحب.

سألتها حارَّة: «أتظنين أنني لا أعرف ما ترسمينه لابنك؟».

ردَّت چيسيكا: «ماذا تقصدين؟».

قالت حارَّة: «أنت تخططين لتوحيد القبائل تحت لوائه».

- «وهل هذا سيِّئ؟».

- «أرى في هذا خطرٌ عليه، وعالية جزء من هذا الخطر».

انكمشت عالية مقتربةً من أُمِّها، وقد فتحت عينيها الآن وراحت تراقب حارَّة.

قالت حارَّة: «لقد رأيتكما معًا، وشاهدت الطريقة التي تتلامسان بها. لطالما اعتبرت عالية واحدة من أولادي لأنها أخت شخصٍ مثل أخي. لقد سهرت على رعايتها وحراستها منذ أن كانت رضيعة، منذ يوم الغزوة حين فررنا إلى هنا، وقد رأيت من أمورها الكثير».

أومأت چيسيكا، وهي تشعر بالقلق المتنامي داخل عالية المنكمشة فيها.

قالت حارَّة: «تعلمين ما أقصد. منذ أيَّامها الأولى وهي تستوعب ما نقوله لها. أيُّ طفلٍ آخر عرف انضباط الماء في مثل هذه السِّنِّ الصغيرة جدًّا؟ أيُّ طفلٍ آخر كانت أولى كلماته لمربِّيته: "أنا أحبِّك يا حارَّة"؟».

حدَّقت حارَّة إلى عالية، ثم استطردت سائلةً: «لِمَ تظنين أنني أقبل إهاناتها؟ لأنني أعلم أنه لا تقصد بها أذًى».

رفعت عالية بصرها إلى أُمِّها.

واصلت حارَّة: «أجل أيَّتها الأُمُّ الموقَّرة، إنني أتمتَّع بقدرات استدلال منطقي قويَّة. كان من الممكن أن أكون إحدى السَّيِّادينات، بعد أن رأيت ما رأيت».

هزَّت چيسيكا كتفيها وقالت: «حارَّة، لا أعرف ماذا أقول». وتعجَّبت من نفسها، لأن هذا كان صحيحًا حرفيًّا.

اعتدلت عالية في جلستها، وشدَّت كتفيها. شعرت چيسيكا بأن انتظارها انتهى، وحلَّ محلَّه شعورٌ مركَّب من التصميم والحزن.

قالت عالية: «لقد ارتكبنا خطأً، والآن نحتاج إلى حارَّة».

قالت حارَّة: «بدأ الأمر في طقس البذر، عندما غيَّرتِ ماء الحياة يا أُمَّنا الموقَّرة، عندما كانت عالية جنينًا لم يُولد بعد».

سألت چيسيكا نفسها: *ماذا قصدت بنحتاج إلى حارَّة؟*

قالت عالية: «من غيرها بإمكانه التحدُّث إلى الناس وجعلهم يفهمون أمري؟».

سألت چيسيكا: «ماذا تريدين لها أن تفعل؟».

قالت عالية: «إنها تعرف ماذا ينبغي لها فعله».

قالت حارَّة: «سأخبرهم بالحقيقة»، وبدا وجهها فجأةً عجوزًا حزينًا، وعبست فانتشرت التجاعيد في بشرتها الزيتونية، وتلبَّست ملامحها شعوذة السَّاحرات وهي تقول: «سأخبرهم بأن عالية تتظاهر بأنها فتاة صغيرة، وأنها لم تكن فتاةً صغيرةً قط».

هزَّت عالية رأسها، وسالت الدموع على وجنتيها، وشعرت چيسيكا بموجة الحزن التي اجتاحت ابنتها كما لو كان الشعور شعورها.

همست عالية: «أعرف أنني مسخ»، وكان التلخيص الناضج الخارج من فم الطفلة بمنزلة تأكيد مرير.

صاحت حارَّة: «لستِ مسخًا! من يجرؤ على نعتك بالمسخ؟».

دهشت چيسيكا مجدَّدًا من نبرة الحماية الحادَّة في صوت حارَّة، ثم أدركت أن عالية كانت محقَّةً. إنهم في حاجة إلى حارَّة بالفعل. ستتفهَّم القبيلة حارَّة، ستتفهَّم كلماتها ومشاعرها، لأنه من الواضح أنها تحب عاليا كما لو كانت طفلتها.

كرَّرت حارَّة: «من قالها؟».

- «لا أحد».

استخدمت عالية طرف عباءة* چيسيكا لمسح الدموع عن وجهها، ثمَّ فردت الثوب حيث بلَّلته وجعَّدته.

قالت حارَّة بنبرة آمرة: «إيَّاك أن تقوليها إذًا».

- «حسنًا يا حارَّة».

قالت حارَّة: «الآن، أخبريني بتجربتك كي أنقلها للآخرين. أخبريني بم حدث لك».

ابتلعت عالية ريقها، ونظرت إلى أُمِّها.

أومأت لها چيسيكا.

قالت عالية: «وجدتني استيقظت يومًا فجأةً. كان الأمر أشبه بالاستيقاظ من النوم، إلَّا أنني لا أتذكَّر إخلادي إلى النوم. كنت في مكانٍ مظلم ودافئ، وكنت خائفة».

تذكَّرت چيسيكا ذلك اليوم في المغارة الكبيرة وهي تنصت إلى صوت ابنتها طفيف اللثغة.

قالت عالية: «عندما تملَّكني الخوف، حاولت الهرب، لكن لم يكن هناك مهرب. ثم رأيت شرارة... لكن الأمر لم يكن كالرؤية بالعين. فقط أدركت وجود الشرارة معي هناك، وشعرت بمشاعرها... هدَّأتني الشرارة، وطمأنتني، وأخبرتني بأن كل شيء سيكون على ما يُرام. تلك الشرارة كانت أُمِّي».

فركت حارَّة عينيها، وابتسمت لعالية لتطمئنها، إلَّا أن نظرةً وحشيةً كانت تتلاعب في عيني المرأة الفرمنية، نظرةً فيها من الحِدَّة بدت معها عيناها كأنهما تحاولان هما الأخريان الإنصات إلى كلمات عالية.

فكَّرت چيسيكا: *ما الذي نعرفه عن طريقة تفكير مثل هذه المرأة، بالأخذ في الاعتبار تجاربها الفريدة وتدريبها وأسلافها؟*

قالت عالية: «وما إن شعرت بالأمان والطمأنينة، انبثقت شرارةٌ أخرى من العدم وصارت معنا... وحدث كل شيءٍ في وقتٍ واحد. كانت الشرارة الأخرى هي الأُمُّ الموقَّرة العجوز السابقة، وكانت... تتبادل الخبرات والحيوات مع أُمِّي... تتبادل كل شيء... وكنت أنا معهما، ورأيت كل شيء... كل شيء. ثم انتهى الأمر، وصرت أنا هما، وكل الأخريات، وذاتي كذلك... قضيت وقتًا طويلاً لأعثر على نفسي مرةً أخرى، إذ كُنَّ كثيرات».

قالت چيسيكا: «كانت تجربةً قاسية. لا ينبغي لأيِّ كائن أن يستيقظ على وعيٍ كهذا. العجيب في الأمر هو قدرتك على تقبُّل كل ما حدث لك».

قالت عالية: «لم يكن بيدي حيلة! لم أعرف كيف أرفض أو أُخفي وعيي... أو أُطفئه... حدث كل شيء بسرعة... كل شيء...».

غمغمت حارَّة: «لم نكن نعلم. عندما أعطينا أُمَّكِ الماء لتغيِّره، لم نكن نعلم أنك بداخلها».

قالت عالية: «لا تحزني يا حارَّة. يجب ألَّا أشعر بالأسف على نفسي. فبعد كل شيء، انتهى الأمر نهايةً سعيدةً: صرت أُمًّا موقَّرة. للقبيلة أُمَّان موقَّرتان...».

ثم بترت عبارتها، وأمالت رأسها مصغيةً.

ارتج على حارَّة، وحدَّقت إلى عالية، ثم نقلت انتباهها إلى وجه چيسيكا.

سألت چيسيكا: «ألم تتوقَّعي الأمر؟».

قالت عالية: «صه».

جاءتهم أصوات ترانيم إيقاعية بعيدة عبر الستائر التي تفصلهم عن أروقة السيتش، وراحت تعلو شيئًا فشيئًا، حتى ميَّزن كلماتها: «يا يا يوم!* يا يا يوم! مو زين والله*! يا يا يوم! مو زين والله!».

مرَّ المنشدون من أمام المدخل الخارجي، وبلغت أصواتهم العالية المساكن الداخلية. ثم انحسر الصَّوت ببطء كما جاء.

عندما خفت الصَّوت بدرجة كافية، بدأت چيسيكا الطقوس، والحزن بادٍ في صوتها: «كان الشهر شهر رمضان الموافق شهر أبريل على بيلا تيجيوس».

قالت حارَّة: «كانت عائلتي جالسة في مسبح فنائها، والهواء حولهم مُشبَّع بالرطوبة من رذاذ النافورة. كانت قُطُوف شجرة البرتقال* الفاقع لونه دانية، وإلى جوارهم سلَّة فيها المشمش* والبقلاوة* وأكواب اللبَن*، وكل ما هو طيِّب من الطعام. كان السلام يعمُّ حدائقنا وقطعاننا. كان السلام يعمُّ الأراضي كلها».

قالت عالية: «كانت الحياة ملأى بالسعادة، إلى أن جاء الغزاة».

قالت چيسيكا: «جفَّت الدماء في العروق حين سُمع صراخ الأصدقاء»، وشعرت بالذكريات تغمرها وتتدفَّق عبرها، نابعةً من كل تلك الحيوات الماضية الأخرى التي تتشاطرها.

قالت حارَّة: «صاحت النساء: لا، لا، لا*».

قالت چيسيكا: «جاء الغزاة عبر المُشتمل*، مندفعين نحونا بسكاكين تقطر منها مع الدماء أرواح رجالنا».

خيَّم الصَّمت على ثلاثتهن، مثلما خيَّم على كل مسكنٍ في السيتش. الصَّمت الذي يتذكَّرن فيه ما حدث، ويجدِّدن أحزانهن.

ثم ما لبست حارَّة أن نطقت بكلمات الطقس الختامية بقسوة لم تسمعها چيسيكا تُنطق بها من قبل.

قالت حارَّة: «أبدًا لن نسامح، أبدًا لن ننسى».

في الهدوء الوقور الذي أعقب كلماتها، سمعن تمتمات الناس، وحفيف ثيابٍ كثيرة. شعرت چيسيكا بشخصٍ يقف وراء الستائر التي تحجب غرفتها.

- «يا أُمَّنا الموقَّرة؟».

كان صوت امرأة، وقد عرفت چيسيكا صاحبته: إنها ثرثارة*، إحدى زوجات ستيلجار.

- «ما الأمر يا ثرثارة؟».

- «لدينا مشكلة يا أُمَّنا الموقَّرة».

شعرت چيسيكا بانقباضٍ يعتصر قلبها، واجتاحها خوفٌ مفاجئ على پول، فشهقت: «پول...».

أزاحت ثرثارة الستائر، وخطت إلى داخل الحجرة. لمحت چيسيكا جمهرة من الناس في الغرفة الخارجية قبل أن تعود الستائر إلى مكانها. رفعت چيسيكا بصرها إلى ثرثارة. كانت امرأةً سمراء ضئيلةَ الجسد ترتدي ثوبًا أسود مملوء بنقوشٍ حمراء. تركَّزت عينا المرأة صافيتا الزرقة على چيسيكا، واتَّسعت فتحتي أنفها الصغير كاشفةً عن ندوب السَّدادة.

سألتها چيسيكا: «ماذا حدث؟».

قالت ثرثارة: «أتتنا أخبار من الرمال. أصول سيواجه الصَّانعة اليوم في الاختبار. يقول الفتية إنه محال أن يفشل، وإنه سيُمسي راكب رمال الليلة. يتأهَّب الفتية للخروج في غزوة. سيغزون شمالًا ويلتقون بأصول هناك. يقولون إنهم سيرفعون صيحة الحرب عندها، وإنهم سيرغمونه على تحدِّي ستيلجار، ومن ثم تولِّي زعامة القبائل».

فكَّرت چيسيكا: *جمع الماء، وزرع الكثبان، وتغيير عالمهم ببطء ولكن بثبات لم تعد أمورًا كافية. الغزوات الصغيرة، الغزوات مُحدَّدة الغرض لم تعد تكفيهم بعد التدريب الذي تلقُّوه على يد پول وعلى يدي. لقد شعروا بقوَّتهم، ويريدون القتال.*

نقلت ثرثارة وزنها من قدم إلى أخرى، وتنحنحت.

واصلت چيسيكا تفكيرها: *نحن نعلم ضرورة الانتظار الحَذِر، لكن الإحباط يتسرَّب إلى نخاعنا. ونعلم كذلك الضَّرر الذي يمكن أن يلحقه بنا الانتظار مددًا طويلة، فمع طول الانتظار تفتر الهمَّة، ويضيع الهدف.*

قالت ثرثارة: «يقول الفتيان إن لم يعلن أصول تحدِّيه لستيلجار، فهذا لأنه خائف».

ثم خفضت بصرها خجلًا.

تمتمت چيسيكا: «هكذا إذًا»، وفكَّرت: *توقَّعت ذلك، وكذا توقَّعه ستيلجار.*

تنحنحت ثرثارة مجدَّدًا، ثم قالت: «حتَّى أخي شواب يقول ذلك. لن يتركوا لأصول خيارًا».

فكَّرت چيسيكا: *حانت لحظة الحسم إذًا، وسيتعين على پول التعامل معها بنفسه. لا يجوز للأُمّ الموقَّرة الضلوع في مسألة الخلافة.*

حرَّرت عالية يدها من يد أُمِّها، وقالت: «سأذهب مع ثرثارة للاستماع إلى الفتيان، فلرُبَّما يُوجد مخرج من هذا المأزق».

بادلت چيسيكا ثرثارة النظر، لكنها وجَّهت كلامها إلى عالية: «اذهبي إذًا، وأبلغيني بما توصَّلت في أسرع وقت».

قالت ثرثارة: «لا نريد لهذا الأمر أن يحدث يا أُمَّنا الموقَّرة».

وافقتها چيسيكا قائلة: «أجل، لا نريده أن يحدث، فالقبيلة في حاجة إلى كامل قوَّتها»، ثم رمقت حارَّة وسألت: «هل ستذهبين معهما؟».

أجابت حارَّة على الجزء غير المعلن من السؤال: «لن تسمح ثرثارة بأن يصيب عالية مكروه. إنها تعرف أننا سنكون قريبًا ضرَّتين، أنا وهي، نتشارك نفس الرجل. لقد تكلَّمت أنا وثرثارة»، ورفعت بصرها إلى ثرثارة، ثم عادت تنظر إلى چيسيكا: «وتوصَّلنا إلى تفاهم».

مدَّت ثرثارة يدها إلى عالية، وقالت: «علينا أن نسرع، فالشبَّان سيغادرون».

انسلَّت الاثنتان عبر الستائر، يد الطفلة في يد المرأة الضئيلة الجسد، لكن بدا أن الطفلة هي من تقود الطريق.

قالت حارَّة: «إذا قتل پول ستيلجار، فلن يكون ذلك في صالح القبيلة. لطالما كانت هذه طريقة الخلافة، لكن الأحوال تغيَّرت الآن».

قالت چيسيكا: «أحوالك أنت أيضًا تغيَّرت».

قالت حارَّة: «لا يمكن أن تظنِّي أنني أشك في نتيجة المعركة، أصول فائز لا محالة».

قالت چيسيكا: «هذا ما قصدت».

قالت: «تظنِّين أن مشاعري الشخصية تؤثِّر في حكمي»، وهزَّت رأسها، فصلصلت حلقات الماء المعلَّقة عند رقبتها: «كم أنت مخطئة. رُبَّما تظنِّين كذلك أنني نادمة لأن أصول لم يخترني، وأنني أغار من تشاني؟».

قالت چيسيكا: «المرء يقبل بالخيارات المتاحة أمامه».

قالت حارَّة: «أنا أشفق على تشاني».

اعتدلت چيسيكا وقالت محتدَّةً: «ماذا تعنين؟».

قالت حارَّة: «أعرف رأيك في تشاني. أنت لا ترينها الزوجة المناسبة لابنك».

أعادت چيسيكا ظهرها إلى الوراء، واسترخت مستندةً بظهرها إلى الوسائد، وهزَّت كتفيها قائلةً: «رُبَّما».

قالت حارَّة: «قد تكونين محقَّةً. وإن كنت كذلك، فقد يفاجئك وجود حليف يوافقك الرأي: تشاني نفسها. إنها لا تريد إلَّا مصلحته، أيًّا كانت».

ابتلعت چيسيكا غصَّة مفاجئة تكوَّنت في حلقها: «تشاني عزيزة جدًّا على قلبي، لا يمكن أن تكون...».

قالت حارَّة: «سجَّادك متَّسخ جدًّا»، ومسحت بعينيها أرضية الغرفة، متحاشيةً نظرة چيسيكا: «أُناس كُثُر يطؤون المكان بأقدامهم طوال الوقت. عليك أن تجعلي خادماتك ينظِّفنه باستمرار».

لا مناص من تفاعل السياسة مع أيِّ دين تقليدي، وهذا الصراع الدائم على السُّلطة يتغلغل في شتَّى جوانب تدريب وتثقيف وتأديب المجتمعات المتديِّنة. وبسبب هذا الضغط، يواجه قادة مثل هذه المجتمعات ذاك السؤالَ المؤرِّق: هل يستسلمون بالكامل أمام النزعة الانتهازية كثمن للحفاظ على حكمهم، أم يخاطرون بالتضحية بأنفسهم في سبيل منظومة الأخلاق التقليدية؟

من كتاب «المؤدِّب: القضايا الدينية» للأميرة إيرولان.

وقف پول فوق الرمال على حافَّة مسار الدودة الصَّانعة العملاقة المقتربة، مذكِّرًا نفسه: *يجب ألَّا يكون انتظاري كانتظار المهرِّبين، عصبيًا ومضطربًا. يجب ان اكون جزءًا من سكون الصَّحراء.*

صارت الدودة على بُعد دقيقة واحدة منه، وملأت هواء الصباح بهسيس احتكاكها بالرمال. انتشرت أسنانها العظيمة المتراصة في مغارة فمها الدائرية كبتلات زهرة عملاقة، وتعبَّق الهواء برائحة الاسپايس المنبعثة منها.

لم يشعر پول ببذلة التقطير المحكمة حول جسده، ولا بسدَّادتي الأنف أو قناع التنفُّس على وجهه، فقد طغت تعاليم ستيلجار -تلك الساعات المضنية قضاها على الرمال- على كل شيءٍ آخر.

تذكَّر عندما سأله ستيلجار: «ما المسافة التي يجب أن تقف عندها على الرمال الحبيبية بعيدًا عن نصف قطر جسد الصَّانعة؟».

وقد أجاب بشكلٍ صحيح: «على بُعد نصف مترٍ لكل مترٍ من نصف قطر الصَّانعة».

- «لماذا؟».

- «لتجنُّب دوَّامة مرورها، وفي الوقت نفسه ليكون لديَّ الوقت الكافي للركض بمحاذاتها والتعلُّق بها».

قال ستيلجار: «لقد ركبت الديدان الصغيرة التي نستولدها لطقس البذر وماء الحياة، ولكن ما ستستدعيه لاختبارك ستكون دودة برِّية، شيخة من شيخات الصَّحراء. لذا عليك أن تظهر لها الاحترام الكافي».

اختلطت الآن دقَّات المِطراق العميقة مع هسيس الدودة المقتربة. أخذ پول نفسًا عميقًا، فشمَّ رائحة مرارة معدنية في الرمال، حتَّى من خلال مرشِّحاته. لاحت أمامه الصَّانعة البرِّية، شيخة الصَّحراء، تكاد تبلغه، في حين ما تقدَّمتها بمسافة موجة رملية تكاد تصل إلى ركبتيه.

فكَّر پول: *تعال، تعال أيُّها الوحش الخلَّاب. اقترب. لقد سمعت ندائي. تعال، تعال.*

رفعت الموجة قدميه، واكتسحه الغبار السطحي. ثبَّت پول نفسه، وقد طغى على مجال رؤيته هذا الجدار الأُسطواني المحاط بسحابة رملية، هذا الجرف المجزَّأ، الذي تحدِّد قطاعاته خطوط حلقية واضحة.

رفع پول خُطَّافيه، وصوبهما، ثم مال إلى الأمام شاعرًا بهما ينغرزان ويسحبانه معهما. وثب إلى أعلى، غارسًا قدميه في هذا الجدار، ومال بجسده إلى الخارج مختبرًا ثبات الخطَّافين المنغرزين. كانت هذه هي اللحظة الحاسمة في الاختبار: إن كان قد غرس خُطَّافيه بدقَّة في حافَّة أحد القطاعات الحلقية

الأمامية البارزة، فاتحًا طيَّة في ذلك القطاع، فلن تغوص الدودة في الرمال وتسحقه.

أبطأت الدودة من سرعتها، وانزلقت مجتاحةً المِطراق فأخرسته، ثم بدأت تدور ببطء إلى أعلى، رافعةً معها شوكتي الخطَّافين المزعجتين إلى أعلى مستوى ممكن بعيدًا عن الرمال التي تهدِّد بالدخول إلى طيَّات وأنسجة الحلقة الداخلية الناعمة.

وجد پول نفسه راكبًا فوق الدودة. شعر بنشوة مبهجة، كأنه إمبراطور يتفقَّد عالمه، وكبح رغبةً فجائية في أن يقفز فرحًا، وأن يحوِّل مسار الدُّودة، للتباهي بتحكُّمه في المخلوق.

ثم فهم فجأة لماذا سبق أن حذَّره ستيلجار من الشبَّان الطَّائشين الذين يرقصون ويتلاعبون بهذه الوحوش، فيقفون على أيديهم فوق ظهورها، وينزعون الخُطَّافين، ثم يعيدون غرسهما قبل أن تتمكَّن الدودة من إلقائهم.

ترك پول خُطَّافًا في مكانه، ونزع الآخر وغرسه في موضعٍ مجاور أسفل الجانب. وحين اختبر ثبات ورسوخ الخُطَّاف الثاني، نزع الأوَّل وغرسه بعده، وهكذا شق طريقه نزولًا على الجانب.

مالت الصَّانعة متدحرجةً على جانبها، وبتدحرجها انعطفت متَّجهةً نحو رقعة الرمال الناعمة حيث يقف الآخرون.

رآهم پول يتسلَّقونها مستخدمين خطاطيفهم، لكن متجنِّبين حواف الحلقات الحسَّاسة، إلى أن وصلوا إلى القمَّة. وفي النهاية، اصطفُّوا خلفه في ثلاثة صفوف، متشبِّثين بخطاطيفهم.

تقدَّم ستيلجار مخترقًا الصُّفوف، وتفحَّص ثبات خُطَّافي پول، ثم رفع بصره إلى وجه پول المبتسم.

صاح ستيلجار رافعًا صوته فوق صخب هسيس الرمال: «تظنُّ

أنك نجحت، أليس كذلك؟ أهذا ما تظنُّه؟ أنك فعلتها؟»، ثم شدَّ ثامته وقال: «حسنًا، ها أنا أخبرك أن أداءك كان أخرق تمامًا. بيننا صبية لا تتعدَّى أعمارهم اثنتي عشرة سنة يفعلونها أفضل منك. كان على يسارك رملٌ طبلي حيث وقفت تنتظر. ما كنت ستستطيع التراجع إن حدث وانحرفت الدودة في ذلك الاتِّجاه».

تلاشت الابتسامة عن وجه پول: «رأيت الرمل الطبلي بالفعل».

- «إذًا لماذا لم تُشر لواحد منا كي يتَّخذ موقعًا احتياطيًّا؟ هذا مسموحٌ به حتَّى في الاختبار».

ابتلع پول ريقه، وأدار وجهه لاتِّجاه هبوب الرياح.

قال ستيلجار: «أعرف أنك ترى قولي هذا الآن إساءةً منِّي، لكنه واجبي، فأنا أفكِّر في أهمِّيتك للقوَّات. لو كنت تعثَّرت في ذلك الرمل الطبلي، لاستدارت الصَّانعة نحوك وسحقتك».

على الرغم من غضبه المتنامي، أدرك پول أن ستيلجار مُحقٌّ، واستغرق دقيقةً طويلةً استجمع فيها كل التدريب الذي تلقَّاه من أُمِّه كي يستعيد هدوءه. قال پول: «أعتذر، لن يتكرَّر الأمر».

قال ستيلجار: «في المواقف الصَّعبة، احرص على وجود شخص احتياطيٍّ إلى جوارك ليمتطي الصَّانعة إن أخفقت. تذكَّر أننا يدٌ واحدةٌ، وفي هذا تكمن قوَّتنا. ألسنا يدًا واحدةً؟».

وافقه پول: «بلى، يدٌ واحدةٌ».

قال ستيلجار بنبرة جافَّة: «أرني مهارتك في التحكُّم في الصَّانعة. على أيِّ جانبٍ نقف الآن؟».

نظر پول إلى سطح الحلقة الحرشفي الذي يقفون عليه، ولاحظ نمط وخصائص الحراشف، وكيف تزداد حجمًا في اتِّجاه اليمين وتصغر في اتِّجاه يساره. كان يعلم أن كل دودة تتحرك بشكل مميز،

وتُفضِّل المحافظة على أحد جوانبها لأعلى أغلب الوقت. مع تقدُّمها في العمر، يبقى الجانب العلوي علويًا باستمرار، ويزداد حجم الحراشف السفلية، وتصقلها الرمال فتصير أثقل وأنعم. في الديدان الكبيرة، يمكن تمييز القشور العلوية عن السفلية من مجرَّد النظر إلى حجمها.

بنقل خُطَّافيه من موضع إلى آخر، تحرَّك پول إلى اليسار. بدأت الدودة تلتف حول نفسها، فأشار إلى مساعدي الجناح من خلفه لفتح القطاعات على امتداد هذا الجانب لإبقاء الدودة في مسارٍ مستقيم. وعندما نجح في قلبها، أشار إلى اثنين من رجال التوجيه بأن يخرجا من الصَّفّ ويتَّجهان إلى موقعيهما في المقدِّمة.

صاح بالصيحة التقليدية: «آخ حي يوه!».

ففتح رجل التوجيه على الجانب الأيسر طيَّة أحد القطاعات الحلقية من جسد الدودة. استدارت الصَّانعة في دائرة مهيبة لحماية قطاعها المفتوح. دارت دورة كاملة حول نفسها وعادت تتَّجه صوب الجنوب، عندها صاح پول: «قِراط!».

نزع الموجِّه خُطَّافه، فسارت الصَّانعة في مسارٍ مستقيم.

قال ستيلجار: «أحسنت يا مؤدِّب. مع كثيرٍ من الممارسة، قد تصبح راكب رمال بالفعل».

عبس پول مفكِّرًا: *ألم أكن أوَّل الراكبين؟*

أتاه ضحكٌ مفاجئ من خلفه، وبدأت الفرقة تهتف، رافعةً اسمه إلى عنان السماء.

- «مؤدِّب! مؤدِّب! مؤدِّب».

ثـم مـن الطـرف البعيـد لسـطح الـدودة، سـمع پـول إيقاعـات النخَّاسـين وهـم ينخسـون حلقـات الذيـل. ازدادت سـرعة الـدودة، فتطايـرت ثيابهـم مـع الريـاح، وارتفـع صـوت احتكاكهـم بالرمـال.

نظـر پـول خلفـه إلـى المجموعـة، ورأى وجـه تشـاني بينهـم، وظـلَّ ناظـرًا إليها وهـو يتحـدَّث إلـى سـتيلجار.

- «إذًا، هل أصبحت راكب رمال يا ستيل؟».

- «ها اليوم* ! صرت راكب رمال».

- «إذًا يحق لي اختيار وجهتنا؟».

- «هكذا جرت العادة».

- «صرت اليوم فرمنيًا، هنا في عِرق حبانية*. حياتي السابقة لا تعني شيئًا. كنت طفلًا حتَّى يومنا هذا».

قال ستيلجار: «لم تكن طفلًا بالضبط»، ثم أحكم قلنسوته حـول رأسـه حيـث طيَّرتهـا الريـاح.

- «لكنّ عالمي كان مغلقًا بسدَّادة، وهذه السدَّادة نُزعت».

- «لا توجد سدَّادة».

- «سأذهب إلى الجنوب يا ستيلجار، سنقطع مسافة عشرين مِطراقًا. سأرى تلك الأراضي التي نزرعها، تلك الأراضي التي لم أرها إلَّا من خلال أعين الآخرين».

وفكَّر: *وسأرى ابني وأسرتي. أحتاج إلى وقتٍ لأفكر في المستقبل الذي هو ماضٍ في ذهني. الفتنة آتية، وإن لم أكن حيث أستطيع ردعها، فستندلع جامحةً.*

رمقه ستيلجار بنظرة ثابتة متفحِّصة. أبقى پول انتباهه على تشاني، ملاحظًا التشوُّق البادي في ملامحها، وكذلك الحماسة التي أثارتها كلماته في المجموعة.

قال ستيلجار: «الرجال متلهِّفون للإغارة معك على أحواض الهراكنة، وهي على مسافة مِطراقٍ واحد».

قال پول: «لقد سبق أن شنَّ الفدائيون الغارات معي، وسيغيرون معي كرَّاتٍ أخرى حتَّى لا يبقى هاركونني واحد يتنفَّس هواء أرَّاكس».

أمعن ستيلجار في النظر إليه وهم في رحلتهم، وأدرك پول أن الرجل يرى هذه اللحظة من خلال ذكرى تولِّيه زعامة سييتش تابر، وترأُّسه مجلس القادة بعد أن مات ليت كاينز.

فكَّر پول: *لقد سمع أنباء عن اضطرابات بين شباب الفرمِن.*

سأله ستيلجار: «أتريد أن نعقد اجتماعًا للقادة؟».

اتَّقدت أعين شباب المجموعة، وراحوا يراقبون الموقف وهم يتمايلون فوق مطيتهم. لاحظ پول التزعزع في نظرة تشاني من الطريقة التي تتقل بها بصرها بين ستيلجار، عمِّها، وپول المؤدِّب، خليلها.

قال پول: «ليس بإمكانك تخمين ما أريد».

وفكَّر: *لا أستطيع التراجع. لا بُدَّ لي من الإمساك بزمام السيطرة على هؤلاء القوم.*

قال ستيلجار بنبرة رسمية باردة: «أنت مدير* ركوب الرمال اليوم، كيف ستستخدم هذه السُّلطة؟».

فكَّر پول: *نحن بحاجة إلى وقت للاسترخاء، وقت للتفكير بهدوء.*

كرَّر پول: «سنسافر جنوبًا».

شعر ستيلجار بضرورة الاحتفاظ بكرامته، فأحكم لفَّ ثوبه حول جسده قائلًا: «سنعقد الاجتماع. سأبعث الرسائل».

فكَّر پول: *يظنُّ أنني سأتحدَّاه، وهو متيقِّن من أنه لن يستطيع الصمود أمامي.*

صوَّب پول وجه نحو الجنوب، وشعر بهبوب الرياح على وجنتيه المكشوفتين، مفكّرًا في الضرورات التي تحكم قراراته.

وخطر له: *إنهم لا يعرفون ما تخبِّئه الأقدار.*

لكنه كان يعلم أنه يمكن أن يترك أيَّ اعتبارٍ أن يصرفه. عليه أن يظل ثابتًا على الخط المركزي للعاصفة الزمنية التي يراها في المستقبل، فستأتي لحظة يمكن فيها تفكيكها، لكن هذا لن يحدث إلَّا إذا كان في المكان المناسب الذي يستطيع منه حلّ العقدة المركزية.

فكَّر پول: *لن أتحدَّاه إن كان هناك مخرج، إن كانت هناك طريقة أخرى لمنع الجهاد...*

قال ستيلجار: «سنخيِّم لتناول العشاء والصلاة في كهف الطيور، عند سفوح تلال حبانية».

وثبَّت نفسه بُخطَّافٍ واحد فوق الصَّانعة المتمايلة، وأشار باليد الأخرى إلى حاجزٍ صخري منخفض بارز من الصَّحراء.

تأمَّل پول صخور الجرف العظيمة المتراكبة في طبقات كالأمواج. لا أثر لخضرة أو لازدهار نباتات تكسر حِدَّة ذلك الأفق الجامد. ومن خلف الجرف امتدَّ المسار المؤدِّي إلى الصَّحراء الجنوبية؛ الطريق الطويل الذي يستغرق عشرة أيَّام وليالٍ على الأقل، بأقصى سرعة يمكنهم حثُّ الصَّانعة عليها.

مسافة عشرين مِطراقًا.

يمتدُّ الطريق مسافةً أبعد بكثير من أقصى مدى وصلت إليه دوريَّات الهراكنة، وقد كان پول يألف معالمه جيِّدًا، إذ كشفتها

أحلامه له. في يوم ما من رحلتهم، سيحدث تغيُّر طفيف في لون الأُفُق البعيد، تغيُّرٌ طفيف جدًّا سيظن معه أنه يتخيَّله من فرط توقه، وعندها سيظهر السييتش الجديد.

سأله ستيلجار: «هل يناسب قراري المؤدِّب؟».

لم يبد في صوته إلَّا مسحة سخرية طفيفةً جدًّا، لكن آذان الفرمِن من حولهما -الآذان اليقظة الحسَّاسة لكل نغمة في صيحات الطيور وكل لحنٍ في رسائل السييلاجو- ميَّزت السخرية وراقبت پول لرؤية ماذا سيفعل.

قال پول: «لقد سمعني ستيلجار وأنا أقسم له بولائي عندما أسَّسنا فرقة الفدائيين، ومغاويرُ الموت التابعون لي يعلمون أنني أتحدَّث بشرف. هل يشكُّ ستيلجار في هذا؟».

كان هناك ألمٌ حقيقي بادٍ في صوت پول، فخفض ستيلجار عينيه حين سمع نبرته.

ثم قال: «في أصول، رفيق سييتشي، لن ينتابني شكٌّ أبدًا. لكنك أيضًا پول المؤدِّب، دوق آل آتريديز، ولسان الغيب، الصَّوت الآتي من عالم آخر، وهذان رجلان لا أعرفهما من الأساس».

استدار پول فرأى تلال حبانية تبرز من سطح الصَّحراء. كانت الصَّانعة من تحتهم ما زالت قويَّة ونشيطة، وبإمكانها أن تقطع بهم ضعف المسافة التي قطعتها أيُّ صانعة أخرى سبق أن خَبِرها الفرمِن. كان واثقًا بذلك. لا شيء بخلاف ما يُحكى من قصص للأطفال بإمكانه مضاهاة شيخة الصَّحراء هذه. أدرك پول أنها كانت مادَّة خام لأسطورة جديدة.

أمسكت يدٌ كتفه، فنظر پول إليها، وتتبَّع ببصره الذراع الممدودة حتَّى وصل إلى وجه صاحبها، فقابل عيني ستيلجار

الداكنتيـن المطلَّتيـن مـن بيـن قنـاع التنفُّس وقلنسـوة البذلـة.

قـال ستيلجار: «كان زعيـم سييتش تابـر السَّـابق صديقـي. واجهنـا الأخطـار معًا. كان مدينًـا لـي بحياتـه مـرَّات عدَّة.. وكذلك أنـا».

قال پول: «أنا صديقك يا ستيلجار».

قـال ستيلجار: «لا أحـد يشـكُّ فـي ذلـك»، ثـم أبعـد يـده، وهـزَّ كتفيـه: «إنمـا هــي الأعـراف».

رأى پـول أن ستيلجار منغمـس فـي عـادات الفرمِـن ومقيَّـدٌ بأعرافهـم إلـى درجـة لا يفكِّر معهـا فـي احتماليـة وجـود سبيلٍ آخـر. هنـا، يتسلَّم الزعيـم مقاليـد الحكم مـن بيـن يـدي سلفه الميِّـت، أو يتقاتـل مـع أقـوى أفـراد قبيلتـه إذا حـدث ولقـي الزعيـم حتفـه فـي الصَّحـراء. لقـد صـار ستيلجار نائبًـا بهـذه الطريقـة.

قال پول: «علينا أن نترك هذه الصَّانعة في رمالٍ عميقة».

وافقه ستيلجار: «أجل، يمكننا السير إلى الكهف من هنا».

قـال پـول: «لقـد امتطيناهـا مسـافة كبيـرة. ستدفن نفسـها حَـرَدًا ليـوم أو أكثـر».

قـال ستيلجار: «أنـت مديـر ركـوب الرمـال، قل متـى...»، ثـم بتـر عبارتـه، محدِّقًـا إلـى السـماء الشـرقية.

استدار پـول لينظـر إلـى حيـث نظـر. صبغـت غمامـة الاسپايس الزرقـاء علـى عينيـه السـماء بلـونٍ أدكـن، كأنهـا فلتـر لازوردي كثيـف وضـح معـه الوميـض الإيقاعـي البعيـد فـي تبايـنٍ حـاد.

أورنيثوبر!

قال ستيلجار: «إنها ثوبتر صغيرة واحدة».

قال پول: «قد تكون مركبة استطلاعية. أتظنُّ أنهم رأونا؟».

قال ستيلجار: «من هذه المسافة نحن مجرَّد دودة تسير على السطح»، ثم أشار بيده اليسرى آمرًا: «اهبطوا وانتشروا على الرمال».

بدأ أفراد المجموعة يهبطون من جانبي الدودة، واثبين على سطح الصَّحراء، ممتزجين بالرمال، مستترين تحت ثيابهم.

حدَّد پول مكان سقوط تشاني، وفي النهاية، لم يبق سواه وستيلجار.

قال پول: «أوَّل من صعد، آخر من يهبط».

أومأ ستيلجار، وهبط جانب الدودة متشبِّثًا بخطّافيه، ثم قفز إلى الرمال. انتظر پول حتَّى ابتعدت الصَّانعة عن منطقة انتشارهم بمسافة آمنة، ونزع خُطّافيه. كانت هذه لحظة خطرة مع دودة لم تُستنفد طاقتها بالكامل.

بعد تحرُّرها من مناخسها وخطاطيفها، بدأت الدودة الضخمة تغوص في الرمال. هرول پول بخفَّة خلفًا على امتداد ظهرها الفسيح، وحسب بدقَّة اللحظة المناسبة للقفز قبل أن يقفز. هبط راكضًا فوق الرمال، واندفع إلى الجانب المنزلق لأحد الكثبان كما تعلَّم، وأخفى نفسه تحت شلال الرمال المتساقط على ثوبه.

الآن، حان وقت الانتظار...

أدار پول جسده برفق، وفتح فرجة بين طيَّات ثوبه يرى منها السماء، وتوقَّع أن الآخرين المنتشرين خلفه على امتداد هذا المسار يفعلون نفس الشيء.

سمع رفرفة جناحي الثوبتر قبل أن يراها. اقترب صوت النَّفاثات البعيد، ثم رأى الثوبتر تحلِّق فوق رقعة الصَّحراء التي يختبئ فيها، قبل أن تنحرف في قوسٍ عريض نحو التلال.

لاحظ پول أن الثوبتر لا تحمل أيَّ شعار.

ثم غابت عن الأنظار وراء تلال حبانية.

شقَّت صيحة طائر الصَّحراء، وتبعتها أخرى.

حرَّر پول نفسه من الرمال، وتسلَّق قمَّة الكثيب. وقف آخرون في صفٍّ يمتدُّ بعيدًا عن التلال، تعرف بينهم على تشاني وستيلجار. كان ستيلجار يشير نحو التلال.

تجمَّعوا وبدؤوا السير على الرمال، منزلقين على السطح في إيقاع مكسور كي لا يجتذبوا أيَّ صانعة في الجوار. أسرع ستيلجار ليلحقَ بپول على امتداد قمَّة أحد الكثبان التي تذروها الرياح.

قال ستيلجار: «كانت طائرة مهرِّبين».

قال پول: «على ما يبدو. لكن هذا النطاق العميق من الصَّحراء بعيد عن عمليات المهرِّبين».

قال ستيلجار: «هم كذلك يواجهون مشكلات بسبب دوريات الهراكنة».

قال پول: «إن وصلوا إلى هذا العمق، فلرُبَّما تعمَّقوا أكثر».

- «صحيح».

- «لن يكون في صالحهم رؤية ما يوجد جنوبًا، إن جازفوا بالتعمُّق أكثر. المهرِّبون يبيعون المعلومات كذلك».

سأله ستيلجار: «ألا تظنُّ أنهم كانوا يبحثون عن الاسپايس؟».

قال پول: «لا بُدَّ أن حاملةً جوِّيةً وزحَّافةً تنتظران تلك الثوبتر في مكانٍ ما. يُوجد معنا اسپايس. لننثر بعضه كطعم على رقعة من الرمال ونوقع ببعض المهرِّبين. يجب أن يتعلَّموا أن هذه أرضنا، كما أن رجالنا بحاجة إلى التدرُّب على الأسلحة الجديدة».

قال ستيلجار: «هذا هو الكلام! أصول يفكِّر كالفرمِن».

فكَّر پول: *لكن أصول عليه أن يفسح المجال أمام قراراتٍ تفضي إلى غاية رهيبة.*

وفي الأُفُق، بدأت عاصفة تتكوَّن.

حين ينصهر القانون والواجب في بوتقةٍ واحدة، بجذوة الدين، يكفُّ المرء عن الاهتمام بذاته والوعي لها، ويرزح على الدوام في مرتبةٍ أدنى من مرتبة الفرد المستقل.

من كتاب «المؤدِّب: عجائب الكون التسعة والتسعون» للأميرة إيرولان.

كسرب حشرات يتبع ملكته، حلَّقت الحاملة الجوِّية الأُمّ بمصنع الاسبايس التابع للمهرِّبين محاطةً بحلقة من الأورنيثوبترات الآلية فوق مجموعة كثبان مرتفعة. أمام السرب، قبعت إحدى سلاسل التلال الصخرية الخفيضة التي تبرز من أرض الصَّحراء كمحاكاة هزيلة لشموخ الجدار الحامي، وقد كنست عاصفة قريبة شواطئها الرملية الجافَّة.

في فقَّاعة قيادة الزحَّافة، مال جيرني هاليك إلى الأمام، وضبط عدستي نظَّارته المعظِّمة الزيتيَّتين متفحِّصًا المشهد العام. خلف التلال، رأى رقعة رمال داكنة يحتمل أن تكون هبَّة اسبايس، فأرسل إشارة إلى إحدى الأورنيثوبترات للذهاب واستطلاع الأمر. هزَّت الثوبتر جناحيها في علامة على أنها تلقَّت الإشارة، ثم انفصلت عن السرب وأسرعت باتِّجاه رقعة الرمال الداكنة، ودارت حولها ومجسَّاتها تتدلَّى بالقرب من السَّطح.

في الحال تقريبًا، طوت الثوبتر جناحيها وغاصت، ثم دارت حول الرقعة في الإشارة المتَّفق عليها التي أخطرت مصنع الحصد المُنتظِر بالعثور على الاسبايس.

وضع جيرني منظاره في جرابه، عالمًا أن آخرين غيره رأوا الإشارة. أعجبته هذه البقعة، فسلسلة التلال الصخرية توفر بعض الحماية والأمان. كما أن هذه المنطقة في عمق الصَّحراء، وبالتالي هي مكان غير محتمل لنصب كمين. ورغم ذلك، أشار جيرني إلى الفريق للتحليق فوق التلال ومسحها، وأرسل الطائرات الاحتياطية للتمركز في نقاط محيطية حول المنطقة، ولكن على ارتفاع منخفض كي لا تكشفها رادارات الهراكنة من بعيد.

لكنه كان يشكُّ في احتمالية توغُّل دوريات الهراكنة إلى هذا العمق في الجنوب، فهذه ما زالت منطقة نفوذ الفرمِن.

تفحَّص جيرني أسلحته، لاعنًا القدر الذي جعل دروع الطاقة العديمة الفائدة هنا. يجب تجنُّب أيِّ شيءٍ يجتذب الديدان بأيِّ الثَّمن. حكَّ نُدبة الإنكفاين على طول فكِّه، متفحِّصًا المشهد، وقرَّر أنه من الأسلم أن يترأس مجموعة مشاة لتمشيط التلال. لا شيء بعد أيقن من التفتيش الميداني على الأقدام، والإفراط في الحذر أمرٌ محمود حين يكون الفرمِن والهراكنة متناحرين.

كان من يقلقه هنا هم الفرمِن. إنهم لا يمانعون المقايضة بأيِّ كمِّيات اسپايس إن كنت تملك المال، لكنهم يصيرون شياطين مستعدين للحرب إن وطأت بقدمك أرضًا منعوك من دخولها، وقد صاروا شديدي المكر في الآونة الأخيرة.

أزعجت براعة ودهاء هؤلاء السكَّان المحلِّيين في القتال جيرني، إذ أظهروا تطوُّرًا في أساليب الحرب يضاهي أيَّ شيءٍ سبقٍ أن واجهه، وهو الذي تلقَّى تدريبه على يدِ أفضل المقاتلين في الكون، ثم خاض معارك ضارية لم ينج منها إلَّا قِلَّة متفوِّقة.

أجـال جيرنـي بصـره فـي المشـهد مجـدَّدًا، متعجِّبًا مـن شـعوره بعدم الارتيـاح. رُبَّمـا كان السَّـبب تلك الـدودة التـي شـاهدوها، لكنهـا كانـت علـى الجانـب الآخـر مـن التـلال.

أطلَّ رأسٌ داخل فقَّاعـة القيـادة مـن كوَّة قريبـة مـن جيرنـي. كان هـذا قائـد المصنـع، وهـو قرصـان عجـوز أعـور كـثُّ اللحيـة، عينـه الواحـدة زرقـاء وأسـنانه حليبيـة مـن الطَّعـام المشبَّع بالاسـبايس.

قـال قائـد المصنـع: «تبـدو رقعـةً غنيـةً يـا سـيِّدي، هـل أهبـط بالزحَّافـة فوقهـا؟».

أمـره جيرنـي: «اهبـط قـرب حافَّـة تلـك التـلال كـي أترجَّـل مـع رجالـي. بإمكانكـم بـدء حـرث الاسـبايس مـن هنـاك، أمَّـا نحـن فسـنلقي نظـرة علـى تلـك الصخـور».

- «عُلِم».

قـال جيرنـي: «فـي حالـة وقـوع مشـكلات، أنقـذوا المصنـع، ونحـن سـنرحل علـى متـن الثوبتـرات».

أدَّى لـه قائـد المصنـع التحيَّـة الرسـمية قائـلًا: «أمـرك يـا سـيِّدي»، ثـم غـاب عبـر الكوَّة كمـا جـاء.

عـاد جيرنـي يمسـح الأُفُق ببصـره. كان عليـه أن يضـع في حسـبانه احتماليـة وجـود فرمِـن هنـا، وأنـه بهـذا يتعدَّى علـى أراضٍ تابعـةٍ لهـم وينتهـك حرمتهـا. كانـت صـلابـة الفرمـن وغيـاب القـدرة علـى التكهُّـن بأفعالهـم يقلقانـه. أشـياء كثيـرة متعلِّقـة بهـذا العمـل تقلقـه، لكـن المكاسـب كانـت مغريـة. ممَّـا كان يقلقـه أيضًـا هـو عجـزه عـن وضـع ثوبتـرات مراقبـة علـى ارتفاعـات عاليـة، وقـد زادت ضـرورة الالتـزام بالصَّمـت الـلَّا سـلكي وقطـع الاتِّصـالات مـن عـدم ارتياحـه.

اسـتدارت زحَّافـة المصنـع وبـدأت تنزلـق هبوطًـا برفـق فـوق

الشَّاطئ الجاف عند سفح التلال، إلى أن لمست جنازيرها الرمال.

فتح جيرني قبَّة الفقّاعة، وفكَّ حزام الأمان. في اللحظة التي استقرَّ فيها المصنع على أرض الصَّحراء، كان قد خرج بالفعل مغلقًا الفقَّاعة بقوَّة خلفه، وقفز مهرولًا من فوق واقيات الجنازير لينزلق نحو الرمال متجاوزًا شبكة الأمان. لحق به خمسة من حرسه الشخصي، خارجين من كوَّة المقدّمة، بينما حرَّر آخرون المصنع من الحاملة الجوِّية، التي حلَّقت مرتفعةً ما إن انفصلت عنه وراحت تحوم في دائرة منخفضة فوقهم.

على الفور بدأت زحَّافة الرمال الكبيرة تتحرَّك مترنِّحةً إلى الأمام، مبتعدةً عن التلال ومتَّجهةً صوب رقعة الاسپايس الدَّاكنة المنتشرة على الرمال.

غاصت ثوبتر هابطةً في الجوار، وانزلقت متوقِّفةً، ثم تبعتها ثانية وثالثة. ترجَّل من الثوبترات رجال فصيلة جيرني، ثم ارتفعت المركبات بعدها لتحوم في الهواء.

تمطَّى جيرني في بذلة التقطير، موقظًا عضلاته. أزال قناع الترشيح من على وجهه، مضحِّيًا برطوبة جسده في سبيل ضرورة أكبر، وهي أن يصل صوته قويًا إلى رجاله حين يصيح بالأوامر. بدأ يتسلَّق الصخور، متفحِّصًا التضاريس، داعسًا بقدميه الحصى والرمال الحبيبية، مُشتمًا رائحة الاسپايس.

وفكَّر: *موقع مناسب لإنشاء قاعدة طوارئ. دفن بعض الإمدادات هنا قد يكون تصرُّفًا حكيمًا.*

ألقى جيرني نظرة سريعة خلفه، مراقبًا انتشار رجاله وهم يتبعونه. كانوا رجالًا أكفاء، حتَّى الجدد منهم الذين لم يملك وقتًا كافيًا لاختبارهم. رجال أكفاء بالفعل، وليسوا من النوع الذي

يجب تكرار عليه ما يجب فعله كل مرَّة، كما لم يكن بينهم جبناء يحملون معهم دروع طاقة إلى الصَّحراء حيث تستشعر الديدان مجال الدِّرع، ومن ثم تأتي وتسلبهم الاسبايس الذي عثروا عليه.

من موقعه المرتفع بين الصخور، رأى جيرني رقعة الاسبايس على بُعد نصف كيلومترٍ تقريبًا، وشاهد وصول زحَّافة الرمال إلى حافَّتها من الجهة القريبة. رفع بصره إلى ثوبترات الغطاء الجوِّي، ملاحظًا تحليقها على ارتفاع منخفض. أومأ لنفسه، ثم استدار ليستأنف تسلُّقه منحدرات التلال.

في تلك اللحظة، اندلعت نيران من بين التلال.

شقَّ السَّماء اثنا عشر خيطًا من اللهب، متَّجهًا نحو الثوبترات والحاملة الجوِّية في هديرٍ صاخب، ودوى صوت انفجار معدني هائل من المصنع الزَّاحف، وقاءت الصخور حول جيرني مقاتلين ملثَّمين.

كان لدى جيرني وقتًا للتفكير: *بحقِّ قرني الأُمِّ العظيمة! صواريخ! واتتهم الجرأة على استخدام صواريخ!*

ثم وجد نفسه وجهًا لوجه أمام شخصٍ مقنَّع رابض أرضًا، شاهرًا سكِّينه العاجية، فيما وقف آخران على الصخور أعلاه من اليسار واليمين. لم يبد لجيرني من المقاتل الرابض أمامه سوى عينيه المطلَّتين من بين قلنسوة ولثام بُرنُس أصفر بلون الرمال، لكن وضعيته الرَّابضة وتأهُّبه أنذراه بأن هذا المقاتل حسن التدريب. كانت عيناه لهما زُرقة أعين فرمِن الصَّحراء العميقة.

حرَّك جيرني يده ببطء نحو سكِّينه، وعيناه مثبَّتتان على سكِّين الرجل. ما داموا جرؤوا على استخدام الصواريخ، فسيكون معهم أسلحة مقذوفات أخرى. تطلَّبت اللحظة حذرًا شديدًا منه، إذ

عرف من صوت القصف وحده أن جزءًا -على الأقل- من غطائه الجوّي قد تدمَّر. كما سمع نعير الرجال، وضجيج صراعات عدَّة تدور من خلفه.

تتبَّعت عينا المقاتل الرَّابض أمام جيرني حركة يده المنسلَّة نحو السكِّين، ثم عادت تحدِّق إلى عيني جيرني.

قال الرجل: «اترك سكِّينك في غمدها أيا جيرني هاليك».

تردَّد جيرني قليلًا إذ بدا الصَّوت مألوفًا له حتَّى عبر مرشِّح البذلة.

ثم قال: «أتعرف اسمي؟».

قال الرجل: «لن تحتاج إلى سكِّينك معي يا جيرني». ثم نهض معتدلًا، وأعاد سكِّينه العاجية إلى غمدها المعلَّق وراء ثوبه، وأردف: «قل لرجالك أن يكفُّوا عن مقاومتهم غير المجدية».

ألقى الرجل قلنسوته وراء ظهره، وأزاح القناع عن وجهه.

تجمَّدت عضلات جيرني من صدمة ما رأى.

في البداية ظنَّ أنه ينظر إلى صورة شبحية للدوق ليتو آتريديز، ثم ببطء بدأ يستوعب الأمر.

همس قائلًا: «پول!»، ثم بصوتٍ أعلى: «أأنت پول حقًّا؟».

سأله پول: «أتكذِّب عينيك؟».

قال جيرني بصوتٍ مبحوح: «قالوا إنك مُت»، ثم تقدَّم نصف خطوة إلى الأمام.

قال پول بنبرة آمرة: «قل لرجالك أن يستسلموا»، ولوَّح باتِّجاه القطاعات السُّفلى من التلال.

استدار جيرني، متردِّدًا في رفع عينيه عن پول. لم يرَ إلَّا صراعاتٍ فردية قليلة. بدا رجال الصَّحراء الملثَّمين في كل مكان،

وكان المصنع الزَّاحف هامدًا بلا حراك ويعلوه بعض الفرمِن، وفي السماء لم يكن يُوجد أثرٌ لطائرات محلّقة.

صاح جيرني: «أوقفوا القتال». ثم أخذ نفسًا عميقًا، وضمَّ يديه على فمه مضخِّمًا صوته: «أنا جيرني هاليك! أوقفوا القتال!».

ببطء، وبحذر، انفضَّ التلاحم، والتفتت الأعين نحوه، متسائلةً.

صاح جيرني: «إنهم أصدقاء».

ردَّ أحدهم صائحًا: «ونعم الأصدقاء! نصف رجالنا قُتلوا!».

قال جيرني: «كانت غلطة، فلا تتمادوا فيها».

ثم استدار عائدًا إلى پول، وحدَّق إلى عيني الشاب الفرمِنيَّتين الزرقاوين.

لاحت ابتسامة على فم پول، لكن كان على وجهه تعبيرٌ جامد ذكَّر جيرني بالدوق القديم، جدُّ پول. ثم رأى جيرني في قسمات پول صلابة لم يرها في آتريديزي من قبل: خشونة في البشرة، وحِدَّة في العينين، ونظرة ماكرة بدت كأنها تزن كل شيء على مرمى البصر.

كرَّر جيرني: «قالوا إنك مُت».

قال پول: «وكان في تركهم يظنُّون ذلك أفضل حماية لي».

أدرك جيرني أن هذا هو الاعتذار الوحيد الذي سيحظى به على التخلِّي عنه وتركه وحيدًا ليعتمد على موارده الخاصة ويظنّ أن الدوق الصغير -صديقه- قد مات. ثم تساءل إن كان شيءٌ قد بقي في الصبيِّ الذي عرفه ودرَّبه على أساليب قتال الرجال.

أخذ پول خطوة أقرب إلى جيرني، ووجد أن عينيه تنضحان بالألم، فقال: «جيرني...». ثم بدا الأمر كأنه حدث من تلقاء ذاته. تعانقا، وراح كلاهما يربِّت على ظهر الآخر، شاعرًا بالطمأنينة بين ذراعي صديقه القويَّتين.

ظلَّ جيرني يكرِّر: «أيُّها الشبل الصغير! أيُّها الشبل الصغير».
وبول كذلك: «جيرني يا رجل! جيرني يا رجل!».
ثم ما لبثا أن تباعدا، ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر.
أخذ جيرني نفسًا عميقًا وقال: «أنت إذًا السبب وراء تطوُّر أساليب الفرمن في تكتيكات الحرب. كان ينبغي لي أن أعرف حين لم ينفكّوا عن فعل أشياء كنت لأخطِّطها بنفسي. ليتني عرفت...»، ثم هزَّ رأسه: «إن كنت بعثت إليَّ خبرًا يا فتى، ما كان سيمنعني عنك شيءٌ. كنت سآتيك راكضًا و...».
لكن النظرة في عيني بول أوقفته. النظرة الجامدة الموزونة.
تنهَّد جيرني قائلًا: «معك حق، كان البعض سيتساءل عن سبب مغادرة جيرني هاليك في عجلةٍ من أمره، وسيفعل آخرون ما هو أكثر من الاكتفاء بالسؤال، وسيخرجون بحثًا عن أجوبة».
أومأ بول، وألقى نظرة سريعة إلى الفرمِن الواقفين حولهما، ولاحظ نظرات التقييم الفضولية على وجوه الفدائيين. نقل بصره من مغاوير الموت عائدًا إلى جيرني، شاعرًا بالسرور يملؤه لعثوره على من أسقاه فنون المبارزة بالسيف. اعتبر بول المصادفة فألًا حسنًا، وعلامةً على أنه يسير في طريق المستقبل المشرق حيث كل شيء على ما يُرام.
بجيرني *إلى جواري*...
نظر بول أسفل التلِّ متجاوزًا الفدائيين ببصره، ممعنًا في النظر إلى فريق المهرِّبين الذي جاء مع هاليك.
ثم سأله: «ما دافع رجالك يا جيرني؟».
قال جيرني: «جميعهم مهرِّبون، دافعهم الربح».
قال بول: «مسعانا ربحه قليل»، ولاحظ إشارة إصبع يد جيرني

اليمنى الخفيَّة، الإشارة القديمة الخارجة من رحم ماضيهما التي تعني أنّ بين فريق المهرِّبين رجالًا يُخشى جانبهم ولا يؤمن شرَّهم.

جذب پول شفته علامةً على الفهم، ورفع بصره إلى الرجال الواقفين في تأهُّب فوق الصخور أعلاهما، ورأى ستيلجار بينهم. برَّدت ذكرى المشكلة التي لم تُحلَّ مع ستيلجار بعضًا من فرحة پول.

قال پول: «ستيلجار، هذا جيرني هاليك الذي سمعتني أتكلَّم عنه، رئيس أركان قوَّات أبي، وواحد من أساتذة فنون المبارزة الذين تتلمذت على أيديهم، وصديق قديم. يمكن الوثوق به في أيِّ مسعى».

قال ستيلجار: «فهمت، فأنت دوقه».

رفع پول عينيه إلى وجه ستيلجار العابس، متسائلًا عن الأسباب التي دفعته لقول ذلك. دوقه. كانت هناك نغمة خفيَّة وغريبة في صوت ستيلجار، كما لو كان يريد أن يقول شيئًا آخر. لم يكن ذلك من شيم ستيلجار، قائد الفرمِن، الرجل الذي دائمًا ما يبوح بما يجول في خاطره.

فكَّر جيرني: *دوقي!* ونظر إلى پول بشكلٍ جديد. *أجل، فبوفاة ليتو، وقع اللقب على عاتقي پول.*

بدأ جيرني ينظر إلى أساليب حرب الفرمِن على أرَّاكس من منظور جديد. *دوقي!* بدأ جزءٌ بداخله كان قد مات ينبض بالحياة، ولم يركِّز على أمر پول لفريق المهرِّبين بالتخلِّي عن أسلحتهم كي يخضعوا للاستجواب إلَّا بنصف وعي.

ثم عاد ذهن جيرني إلى كامل وعيه حين سمع احتجاج بعضٍ من رجاله، فهزَّ رأسه واستدار صائحًا: «هل أنتم صُمٌّ؟ هذا دوق أرَّاكس الشرعي. اذعنوا لأمره».

أذعن المهرِّبون للأمر متذمِّرين.

اقترب پول من جيرني، وقال في صوتٍ خفيض: «لم أكن أتوقَّع منك أن تقع في هذا الشرك يا جيرني».

قال جيرني: «نلت العقاب المناسب، أراهن أن رقعة الاسپايس ليست أكثر من مجرَّد فتات سطحي، طُعم ألقيتموه لاستدراجنا».

قال پول: «هذا رهان ستفوز به»، ثم نظر إلى الرجال الذين يُجرى تجريدهم من سلاحهم أسفلهم وسأل: «هل هناك مزيد من رجال أبي ضمن فريقك؟».

- «ولا واحد. تفرَّقنا عبر الكوكب. ما زال هناك قِلَّة بين التجَّار الأحرار، ومعظمهم أنفقوا أرباحهم لمغادرة هذا المكان».

- «لكنك بقيت».

- «أجل، بقيت».

قال پول: «لأن رابان هنا».

قال جيرني: «ظننت أنه لم يبق لي إلَّا الانتقام».

جاءت صيحة مقطوعة غريبة من أعلى التلال.

رفع جيرني بصره ليرى فرمنيًا يلوِّح بمنديله.

قال پول: «صانعة تقترب». ثم تحرَّك -متبوعًا بجيرني- إلى نتوءٍ صخري مطلٍّ على الجنوب الغربي.

لاح النفق الدودي الشبيه بجبلٍ متحرِّك في منتصف المسافة. مسار متوَّج بالغبار يشق الكثبان متَّجهًا صوب التلال مباشرةً.

قال پول: «إنها ضخمة بما يكفي».

دوت قعقعة من المصنع الزَّاحف في الأسفل، ودبَّت الحياة في جنازيره كحشرةٍ عملاقة، وتحرَّك بتثاقل نحو الصخور.

قال پول: «من المؤسف أننا لم نتمكَّن من الحفاظ على الحاملة الجوِّية».

رماه جيرني بنظرة خاطفة، ثم عاد ينظر إلى بقع الحطام والدخان المبعثرة على الرمال حيث أسقط الفرمن الحاملة الجويِّة والأورنيثوبترات.

شعر بعصرة قلبٍ مفاجئةٍ على الرجال -رجاله- الذين فُقدوا هناك، وقال: «كان أبوك سيهتم أكثر بالرجال الذين لم يستطع إنقاذهم».

حدَّجه پول بنظرة قاسية، ثم خفض بصره، وفي النهاية قال: «كانوا أصدقاءك يا جيرني، أتفهَّم ذلك. لكنهم في نظرنا مجرَّد دخلاء، وقد يرون أشياء لا ينبغي لهم رؤيتها. يجب أن تفهم ذلك».

قال جيرني: «أفهم ذلك جيِّدًا، والآن أشعر بالفضول لرؤية ما لا ينبغي لي رؤيته».

رفع پول بصره فرأى الابتسامة الوحشية القديمة التي يتذكَّرها جيِّدًا تتلاعب على وجه هاليك، وتتمعَّج لها نُدبة الإنكفاين على عظام فكِّه.

أومأ جيرني مشيرًا نحو الصَّحراء. كان الفرمن يزاولون نشاطهم بأريحية في أرجاء المشهد، وأذهله أن أيًّا منهم لم يبدُ قلقًا من اقتراب الدودة.

تعالى طرقٌ رتيب من الكثبان المترامية وراء رقعة الاسپايس. قرعٌ عميق سمعوه من خلال أقدامهم. رأى جيرني الفرمن ينتشرون على الرمال في مسار الدودة المقتربة.

اندفعت الدودة خارجة من سطح الصحراء كأنها سمكة رملية هائلة، وبلغت العنان، وراحت حلقاتها تتموَّج وتتلوَّى في الهواء. بعد لحظة، شاهد جيرني -من موقعه المرتفع الذي يراقب

منـه الصَّحـراء- عمليـة اقتنـاص الـدودة، وقفـزة أوَّل ذي خُطَّافيـن، واسـتدارة المخلـوق، والطريقـة التـي تسـلَّقت بهـا جماعـة الرجـال جانـب جسـد الـدودة الأُسـطُواني الحرشـفي اللامـع.

قال پول: «هذا أحد الأشياء التي لم يكن ينبغي لك رؤيتها».

قـال جيرنـي: «لقـد سـمعت القصـص والشَّـائعات، لكنـه ليس أمـرًا يسـهل تصديقـه دون رؤيتـه»، ثـم هـزَّ رأسـه: «المخلـوق الـذي يخشـاه كل إنسـان على أرَّاكس، تعاملونـه كمطيـة للركوب!».

قـال پول: «لقـد سـمعت أبـي وهـو يتحـدَّث عـن قـوَّة الصَّحـراء يـا جيرنـي. هـذه هـي. نحـن أسـياد هـذا الكوكب، لا عاصفـة أو مخلـوق أو ظـرف قـادر على إيقافنـا».

فكَّـر جيرنـي: نحـن. *إنـه يقصـد الفرمِـن ويتحـدَّث عـن نفسـه كواحـدٍ منهم.* رمـق جيرنـي مجـدَّدًا زُرقـة الاسـپايس فـي عينـي پول. كان يعلـم أن عينيـه هـو ذاتـه بهمـا مسـحة مـن اللـون، لكـن المهرِّبيـن لا يعتمـدون بالكامـل علـى طعـام أرَّاكس، ويحصلـون علـى أغذيـة مـن خـارج الكوكـب، ولطالمـا تضمَّـن كلامهـم تنابـزًا خفيًّـا وتلميحـات طبقيـة مسـتترة عـن لـون الأعيـن. كانـوا يتحدَّثـون عـن «لمسـة فرشـاة الاسـپايس»، قاصديـن بهـا أن الرجـل صـار محليًّـا جـدًّا، ولـم يعـد أهـل ثقـة تمامًـا.

قـال پول: «فـي السَّـابق لـم نكـن نـركـب الصَّانعـة فـي وضـح النهـار فـي هـذه الربـوع، لكـن لـم يتبـقَّ لرابـان طائـرات مسـح جـوِّي كافيـة ليهدرهـا علـى البحـث عـن حفنـة مـن النقـاط الصغيـرة فـي الرمـال»، ثـم نظـر إلـى جيرنـي: «لقـد دهشـنا من وجـود طائرتـك هنـا».

صيغة الجمع... صيغة الجمع...

هـزَّ جيرنـي رأسـه لإبعـاد هـذه الأفـكار عـن رأسـه، وقـال: «لـم نُصبكـم بالصَّدمـة التـي سـبَّبتموها لنـا».

سـأله جيرنـي: «مـاذا يُقـال عـن رابـان بيـن سـكَّان الأحـواض والقـرى؟».

- «يقولـون إنهـم حصَّنـوا قُـرى الأخاديـد إلـى درجـة يسـتحيل معهـا اختراقهـا. يقولـون إن كل مـا عليهـم فعلـه الآن هـو الجلـوس خلـف دفاعاتهـم، وتـرك العـدو يرهـق نفسـه فـي هجـوم لا طائـل مـن ورائـه».

قال پول: «باختصار، صارت حركتهم مشلولة».

قال جيرني: «أمَّا أنت فحر، وبإمكانك التنقُّل أينما شئت».

قـال پـول: «إنـه تكتيـك تعلَّمتـه منـك يـا جيرنـي. لقـد فقـدوا المبـادرة، مـا يعنـي أنهـم خسـروا الحـرب».

ابتسم جيرني ببطء، وتشكَّلت ملامحه في تعبير ذي مغزى.

قـال پـول: «عدوُّنـا قابـع حيـث أريـد بالضبـط»، ثـم ألقـى نظـرة سـريعة إلـى جيرنـي: «حسـنًا يـا جيرنـي، هـل سـتنضم تحـت لوائـي لإنهـاء هـذه الحملـة؟».

حـدَّق إليـه جيرنـي فـي دهشـة: «أنضـم؟ سـيِّدي، أنـا لـم أتـرك خدمتـك قـط. أنـت الـذي تركتنـي أظـن أنـك لقيـت حتفـك. وأنـا، بكونـي ضائعًـا، بذلـت كل مـا بوسـعي، منتظـرًا اللحظـة التـي أبـذل فيهـا حياتـي فـي سـبيل مـا يسـتحق، أي مـوت رابـان».

خيَّم صمتٌ مُحرج على پول.

تسـلَّقت امـرأة الصخـور قادمـةً نحوهمـا، تتناقـل عيناهـا بيـن پـول ورفيقـه مـن خلـف قلنسـوة بذلتهـا وقنـاعٍ وجههـا. توقَّفـت المـرأة أمـام پـول، ولاحـظ جيرنـي فيهـا طبـع التملُّك مـن الطريقـة التـي التصقـت بپـول بهـا.

قال بول: «تشاني، هذا جيرني هاليك الذي سمعتِني أتحدَّث عنه».

نظرت تشاني إلى جيرني، ثم عادت تنظر إلى بول: «سمعت به».

سألها بول: «أين ذهب الرجال بالصَّانعة؟».

- «إنهم يصرفون انتباهها لمنحنا بعض الوقت لإنقاذ المعدَّات».

- «حسنًا إذًا...»، ثم بتر عبارته وتشمَّم الهواء.

قالت تشاني: «ثمَّة رياح قادمة».

صاح صوت شخص من أعلى التلال فوقهم: «يا قوم، الرياح آتية!».

الآن لمس جيرني تسارعًا في حركة الفرمِن، ورأى تعجُّلًا واندفاعًا أهوج. ما لم تشعله فيهم الدودة أشعله الخوف من الرياح. تحرَّك المصنع الزَّاحف صاعدًا الشَّاطئ الجاف، فانفتح أمامه طريق بين الصخور، قبل أن تُغلق الصخور من خلفه بدقَّة شديدة كأن شيئًا لم يكن، حاجبةً الممرَّ عن ناظريه.

سأله جيرني: «ألديكم الكثير من هذه المخابئ؟».

قال بول: «الكثير والكثير»، ونظر إلى تشاني وأردف: «اعثروا على كُربة* . أخبروه بأن جيرني حذَّرني من وجود رجال ليسوا أهل ثقة بين فريق المهرِّبين الذي تحت إمرته».

نقلت تشاني بصرها بين جيرني وبول، ثم أومأت، وهبطت الصخور متواثبةً في رشاقة الغزلان.

قال جيرني: «هذه امرأتك».

قال بول: «وأُمُّ ابني البكر. يُوجد ليتو جديد بين آل آتريديز».

استقبل جيرني الخبر بعينين مدهوشتين.

راقب پول الأحداث من حولهم بعينٍ ناقدة. هيمنت صُفرة على السماء الجنوبية، وهبَّت دفقات رياحٍ متقطعة مثيرةً الغبار حول رؤوسهم.

قال پول: «أغلق بذلتك»، ثم أحكم شدَّ قناعه وقلنسوته على وجهه.

أطاع جيرني أمره، ممتنًّا للمرشِّحات.

قال پول وقد صار صوته مكتومًا بسبب القناع: «أيٌّ من أفراد فريقك لا تثق به يا جيرني؟».

قال جيرني: «بعض المجنَّدين الجدد، إنهم غرباء من خارج الكوكب...»، ثم بتر عبارته متردِّدًا، متعجِّبًا من نفسه.

غرباء! يا للعفوية التي نطق بها لسانه الكلمة.

قال پول: «غرباء و؟».

قال جيرني: «ليسوا كالباحثين عن الثروة المعتادين الذين نصادفهم، إنهم أقوى شكيمةً».

سأله پول: «جواسيس للهراكنة؟».

- «لا أظن أنهم يرفعون تقاريرهم للهراكنة يا سيِّدي. أشتبه في أنهم رجال من الخدمة العسكرية الإمبراطورية، فلهم طابع سالوسا سوكاندس».

رماه پول بنظرة حادَّة: «ساردوكار؟».

هزَّ جيرني كتفيه: «محتمل، لكنهم متخفُّون جيِّدًا».

أومأ پول، مفكِّرًا في السهولة التي عاد بها جيرني يتصرَّف كجندي آتريديزي، لكن مع بعض التحفُّظات، والاختلافات الطفيفة. لقد غيَّره أرَّاكس هو أيضًا.

ظهر فرمِنيان مقنَّعان أسفلهما بين الصخور المتصدِّعة، وبدآ يتسلَّقان. كان أحدهما يحمل صُرَّة سوداء كبيرة على كتفه.

سأل جيرني: «أين فريقي الآن؟».

قال پول: «بأمان في الصخور التي أسفلنا. لدينا كهف هناك، اسمه كهف الطيور. سنقرِّر ماذا سنفعل بهم بعد مرور العاصفة».

صاح صوتٌ من فوقهما: «مؤدِّب!».

التفت پول إلى مصدر الصيحة، ورأى أحد الحرس الفرمِني يشير لهما بالتحرُّك نحو الكهف. أشار پول إليه أنه سمع.

تأمَّله جيرني بتعبيرٍ جديد على وجهه، وسأل: «أنت المؤدِّب؟ أنت إرادة الرمال؟».

قال پول: «إنه اسمي الفرمِني».

أشاح جيرني بوجهه شاعرًا بنذير شؤم قاهر. نصف فريقه ميِّت فوق الرمال، والآخرون أسرى. لم يكن يهتم بالمجنَّدين الجدد المشتبه فيهم، ولكنْ من بين الآخرين رجال طيِّبون، وأصدقاء، وأشخاصٌ يشعر بالمسؤولية تجاههم. *«سنقرِّر ماذا سنفعل بهم بعد مرور العاصفة»*. هذا ما قاله پول، هذا ما قاله المؤدِّب. تذكَّر جيرني القصص التي تُروى عن المؤدِّب، لسان الغيب، وكيف سلخ جلد ضابط هاركونني ليصنع منه أغشية طبوله الحربية، وكيف يحيط نفسه بمغاوير الموت، الفدائيين الذين يخوضون غمار الوغى وهتافات الموت على شفاههم.

هذا هو.

قفز الفرمِنيان متسلِّقًا الصخور برشاقة على الرَّف الصخري أمام پول، وقال ذو الوجه الأسمر: «كل شيء مؤمَّن يا مؤدِّب. من الأفضل أن نتوارى بالأسفل الآن».

- «أجل».

لاحظ جيرني نبرة صوت الرجل نصف الآمرة نصف الراجية. كان هذا من يدعونه ستيلجار، شخصية بارزة أخرى في أساطير الفرمِن الجديدة.

رمق پول الصُّرَّة التي يحملها الرجل الآخر وقال: «ما هذه الصُّرَّة يا كُربة؟».

أجاب ستيلجار: «كانت في الزحَّافة، وعليها الحرفان الأوَّليان من اسم صديقك هذا، وبها آلة باليسِت. لقد سمعتك مرَّات كثيرة تتحدَّث عن براعة جيرني هاليك في العزف على الباليسِت».

تأمَّل جيرني وجه المتحدِّث، ملاحظًا لحيته السوداء البادية من أسفل قناع بذلة التقطير، ونظرته الصَّقرية الحادَّة، وأنفه المنحوت.

قال جيرني: «لديك رفيق كيِّس يا سيِّدي. أشكرك يا ستيلجار».

أشار ستيلجار لرفيقه كي يناول الصُّرَّة إلى جيرني قائلًا: «بل اشكر مولاك الدوق، فهو من أكسبك قبولك هنا».

أخذ جيرني الصُّرَّة، متحيِّرًا من المعاني المضمرة في الكلام. كان الرجل يشعُّ بهالة من التحدِّي، وتساءل جيرني إن كان الفرمِن يشعرون بالغيرة. فها قد أتى شخصٌ يُدعى جيرني هاليك كان يعرف پول قبل مجيئه إلى أرَّاكس، رجلٌ تربطه بپول صداقة حميمية عميقة لن تتاح لستيلجار أبدًا.

قال پول: «يهمَّني أن يكون كليكما صديقًا للآخر».

قال جيرني: «ستيلجار الفرمِني اسمٌ ذائع الصيت. أيُّ قاتلٍ للهراكنة أفخر بأن يكون ضمن أصدقائي».

سأل پول: «هلَّا تصافح صديقي جيرني هاليك يا ستيلجار؟».

مدَّ ستيلجار يده ببطء، وقبض على يد جيرني هاليك الجاسئة التي تستعمل السيف، وقال: «قِلَّة من لم يسمعوا اسم جيرني هاليك»، ثم أرخى قبضته والتفت إلى پول: «العاصفة تهب بسرعة».

قال پول: «في الحال».

استدار ستيلجار، وقادهما نزولًا في مسارٍ متعرِّج وملتوٍ عبر الصخور إلى صدعٍ مظلَّل أفضى بهم إلى مدخل الكهف الواطئ، وأسرع الرجال لإحكام وضع الغطاء العازل خلفهم. أظهرت كرات الإنارة الطافية في المكان حيِّزٍ واسع مقبَّب السقف، في أحد أطرافه حافَّة صخرية مرتفعة يخرج منها ممرٌّ.

وثب پول فوق الحافَّة الصخرية وجيرني في أثره، وتقدَّم الطريق عبر الممرِّ، أمَّا الآخرون فاتَّجهوا إلى ممرٍّ آخر على الجهة المقابلة للمدخل. قاد پول الطريق إلى غرفة انتظار، ومنها إلى غرفة حوائطها مغطَّاة بستائر داكنة بلون النبيذ.

قال پول: «سنحصل على بعض الخصوصية هنا مدَّة من الوقت، سيحترم الآخرون...».

دوى إنذار صنج نحاسي من الحجرة الخارجية، تلاه صياح واشتباك بالأسلحة. استدار پول وركض عائدًا عبر غرفة الانتظار ومنها إلى حافَّة الحجرة الخارجية المرتفعة. كان جيرني في ظهره، مستلًّا سلاحه.

على أرضية الكهف أسفلهما، دارت رحى معركة عنيفة بين أجسادٍ متلاحمة. استغرق پول لحظة لتقييم المشهد، وللتفرقة بين ثياب وبراقع الفرمِن وأزياء من يقاتلونهم. التقطت حواسُّه -التي درَّبتها أُمُّه على اكتشاف أدق التفاصيل- ملمحًا مهمًّا: كان الفرمِن يتعاركون مع رجالٍ يرتدون أردية المهرِّبين، لكن المهرِّبين

كانوا رابضين في مجموعات من ثلاث، يعضِّد أحدهم الآخر، ويكوِّنون تشكيلات مثلَّثة حين يتعرَّضون للضغط من الخصم.

كان ذلك الأسلوب في القتال من كثب سمةً مميِّزةً للسرادوكار الإمبراطوريين.

لمح أحد الفدائيين في المعترك پول، فتردَّد صدى صيحته في التجويف الكهفي: «مؤدِّب! مؤدِّب! مؤدِّب».

لمحت عينٌ أخرى پول، فشقَّت سكِّينٌ سوداء الهواء مندفعةً نحوه. راوغ پول السكِّين، وسمع النصل يقعقع حين اصطدم بالصخور من خلفه، فنظر سريعًا ورأى هاليك يستحوذ عليه.

تراجعت التشكيلات المثلَّثة تحت تأثير الضغط. رفع جيرني السكِّين أمام ناظري پول، وأشار إلى السلك الإمبراطوري الرفيع الأصفر على عجرة المقبض، وشعار الأسد الذهبي، والأعين المتعدِّدة على جوانبها.

تقدَّم پول ووقف على شفة الحافَة الصخرية. لم يكن يتبقَّ إلَّا ثلاثة ساردوكار، وعلى أرضية الحجرة في توزيعٍ عشوائي استلقت أجساد السَّاردوكار والفرمِن متشحِّطةً بدمائها.

صاح پول: «توقَّفوا! الدوق پول آتريديز يأمركم بالتوقُّف!».

تذبذب القتال، وتردَّد أفراده.

صاح پول للزمرة المتبقِّية: «أنتم من السَّاردوكار! بأوامر من تهدِّدون دوقًا حاكمًا؟».

بدأ رجاله يضيِّقون الخناق على السَّاردوكار، فصاح سريعًا: «قلت توقَّفوا!».

شدَّ واحدٌ من الثلاثي المحاصر قامته، وسأل: «ومن قال إننا ساردوكار؟».

أخـذ بـول السـكّين مـن جيرنـي، ورفعهـا عاليًـا: «هـذه مـن تقـول إنكـم سـاردوكار».

سأل الرجل: «من يقول إذًا إنك دوق حاكم؟».

أشـار بـول إلـى الفدائييـن، وقـال: «هـؤلاء الرجـال يقولـون إننـي دوقٌ حاكـم. إمبراطوركـم نفســه منـح آل آتريديـز حُكـم أرّاكـس، وأنـا آل آتريديـز».

وقف ضابط السَّاردوكار في صمت عصبي.

تأمل بـول الرجـل. كان طويـلًا، جامـد الوجـه، وتقطـع خـدّه الأيسـر نُدبـة مـن المنتصـف. فضـح سـلوكه مـا يعتمـل داخلـه مـن ارتبـاك وغضـب، لكنـه ظـلّ محاطًـا بهالـة الكبريـاء التـي يبـدو السَّـاردوكار عاريًـا مـن دونهـا، والتـي يبـدو بهـا بكامـل ثيابـه ولـو كان عاريًـا.

نظـر بـول إلـى أحـد ضُبّـاط فدائييـه وقـال: «كُربـة، كيـف دخلـوا ومعهـم سـلاح؟».

قـال الضَّابط: «كانـوا يحملـون سـكاكين مُخبّـأة فـي جيـوب خفيـة داخل بـذلات التقطيـر».

أجـال بـول عينيـه فـي القتلـى والجرحـى عبـر الغرفـة، قبـل أن يعيـد انتباهـه إلـى الضَّابـط.

لم تكن هناك حاجة إلى الكلام، إذ خفض الضَّابط عينيه.

سأل بول: «أين تشاني؟»، وانتظر الإجابة كاتمًا نفسه.

- «أزاحهـا ستيلجار بشـجاعة جانبًـا»، وأشـار إلـى الممـرّ الآخـر، ثـم ألقـى نظـرة إلـى القتلـى والجرحـى وأردف: «أُعلـن مسـؤوليتي عـن هـذا الخطـأ أيُّهـا المؤدِّب».

سـأل بـول: «كـم رجـلًا مـن هـؤلاء السَّـاردوكار كان معـك يـا جيرنـي؟».

- «عشرة».

وثب پول برشاقة إلى أرضية الحجرة، وقطعها بخطوات سريعة، ووقف قاب قوسين أو أدنى من المتحدِّث باسم السَّاردوكار.

توتَّر الفدائيُّون، إذ لم يعجبهم تعريض نفسه للخطر هكذا. كان هذا ما نذروا أنفسهم كي لا يحدث، لأن الفرمِن كانوا يرغبون في الحفاظ على حكمة المؤدِّب.

تحدَّث پول إلى ضابطه دون أن يلتفت: «ما خسائرنا؟».

- «أربعة جرحى وقتيلان يا مؤدِّب».

لمح پول حركة وراء السَّاردوكار، حيث وقفت تشاني وستيلجار في الممرِّ الآخر، ثم أعاد انتباهه إلى السَّاردوكار، محدِّقًا إلى البياض الأجنبي البادي في عيني المتحدِّث.

سأله پول: «أنت، ما اسمك؟».

تصلَّب الرجل، ونظر عن يمينه وعن شماله.

قال پول: «لا تحاول. أنا متأكِّد من أنك أُمرت بالبحث عن المؤدِّب والقضاء عليه. أراهن أنكم من اقترحتم فكرة البحث عن الاسپايس في أعماق الصَّحراء».

فلتت شهقة من جيرني ارتسمت لها ابتسامةٌ خفيفةٌ على شفتي پول، واحتقن وجه السَّاردوكار بالدماء.

قال پول: «ما تراه أمامك لهو أمر أعظم شأنًا من المؤدِّب. سبعة منكم ماتوا مقابل اثنين منا، ثلاثة إلى واحد، إنها نسبة ممتازة ضد السَّاردوكار، أليس كذلك؟».

شبَّ الرجل على أطراف أصابعه ليرى، ثم غاص ثانيةً إذ ضيَّق الفدائيُّون الخناق عليه.

قال بول: «سألتك عن اسمك»، ثم أردف مستخدمًا غوامض قدرة (الصَّوت): «أخبرني باسمك!».

أجاب الرجل على الفور: «النقيب أرامشام، من قوَّات السَّاردوكار الإمبراطورية»، ثم تدلَّى فكّه، وراح يحدِّق ذاهلًا إلى بول وقد تلاشت كبرياؤه التي ينظر بها إلى هذا الكهف على أنه جحر أرانب بربري.

قال بول: «حسنًا أيُّها النقيب أرامشام، سيدفع الهراكنة ثمنًا باهظًا لمعرفة ما صرت تعرفه، وكذلك الإمبراطور، فهو قد يضحِّي بأيِّ شيء نظير معرفة أن فردًا من آل آتريديز ما زال حيًّا على الرغم مع خيانته».

اختلس الرجل النظر يمينًا ويسارًا إلى الرجلين المتبقيين معه. كان بإمكان بول قراءة ما يدور في عقل الرجل تقريبًا. السَّاردوكار لا يستسلمون، لكن على الإمبراطور أن يعلم بهذا التهديد.

قال بول وهو ما زال يستخدم (الصَّوت): «استسلم أيُّها النقيب».

قفز الرجل الواقف إلى يسار النقيب نحو بول دون سابق إنذار، ليقابله نصل سكِّين قائده في صدره. تكوَّم المهاجم أرضًا مخضَّبًا بدمائه والسكِّين لا تزال في صدره.

واجه النقيب رفيقه الوحيد المتبقِّي وقال: «أنا من يقرِّر الأفضل لمصلحة جلالته، مفهوم؟».

تراخت كتفا السَّاردوكار الآخر.

قال النقيب: «ألقِ سلاحك».

أطاعه السَّاردوكار.

أعاد النقيب اهتمامه إلى بول قائلًا: «لقد قتلت صديقًا من أجلك، تذكَّر ذلك».

قـال پـول: «أنتمـا أسـيران لـدي، وقـد استسـلمتما لـي. مسـألة حياتكم أو موتكم لا أهمية لها»، ثم أومأ إلى حارسه لأخذ جنديَّي السَّاردوكار، وأشار إلى الضابط الذي فتش السجناء بالاقتراب.

تحرَّك الحارس، ودفع السَّاردوكار أمامه.

انحنى پول نحو ضابطه.

قال الرجل: «أيُّها المؤدِّب، لقد خذلتك في...».

قاطعه پول: «أنا المُلام يا كُربة، كان عليَّ أن أوجِّهك إلام تبحث. حين تفتِّش أسرى السَّاردوكار في المستقبل، تذكَّر ما حدث. وتذكَّر أيضًا أن كلًّا منهم يضع ظفرًا صناعيًا أو ظفرين على إبهامي قدميه يمكن دمجها مع قطع أخرى مخفاة في أجسادهم لصنع جهاز إرسال فعَّال، وأنهم يركِّبون في أشداقهم ضروسًا صناعية مميتة كذلك. كما يخفون في شعورهم أسلاك شيجواير رفيعة جدًّا تكاد لا تُلاحظ، لكنها متينة بما يكفي لخنق رجلٍ وقطع رأسه في أثناء العملية. يجب فحص السَّاردوكار بالمسح الضوئي، وبالأشعة العاكسة والأشعة السينية الشديدة النفاذية، وإزالة شعر أجسامهم بالكامل. وحين تنتهي، كن متأكِّدًا من أنك لم تكتشف شيئًا».

ثم رفع عينيه إلى جيرني الذي كان قد اقترب للإنصات.

قال الضَّابط: «من الأفضل أن نقتلهما إذًا».

هزَّ پول رأسه وهو ما زال ينظر إلى جيرني: «كلَّا، أريدهما أن يهربان».

حدَّق جيرني إليه متعجِّبًا، وقال لاهثًا: «مولاي...».

- «نعم؟».

- «رجلك محقٌّ. اقتل هذين السجينين في الحال، ودمّر أيَّ دليلٍ على وجودهما. لقد ألحقت الخزي بساردوكارٍ إمبراطوريين! عندما يعلم الإمبراطور بالأمر لن يهدأ له بال إلى أن يحرقك على نارٍ هادئة».

قال پول: «من غير المحتمل أن يتمكَّن الإمبراطور من فرض سلطانه عليَّ». كان يتحدَّث ببطء وبنبرة باردة. لقد حدث شيءٌ بداخله لمَّا واجه السَّاردوكار، كأن مجموع قرارات قد تراكم في وعيه. سأل پول: «جيرني، هل رابان مُحاط بالكثير من رجال النقابة؟».

اعتدل جيرني، وضيَّق عينيه: «سؤالك ليس له...».

زمجر پول: «أجب عن السؤال!».

- «أرَّاكس يعجُّ بعملاء النقابة. إنهم يبتاعون الاسپايس كما لو كان أغلى شيء في الكون. لِمَ تظن أننا غامرنا إلى هذا العمق في...».

قاطعه پول: «إنه أغلى شيء في الكون بالفعل في نظرهم».

ثم نظر نحو ستيلجار وتشاني اللذين كانا يعبران الحجرة باتِّجاهه، وأردف: «ونحن نسيطر عليه».

احتجَّ جيرني: «الهراكنة هم من يسيطرون عليه».

قال پول: «من في استطاعته تدمير شيء، هو المسيطر عليه»، ولوَّح بيده لإسكات جيرني عن الجدال، وأومأ إلى ستيلجار الذي توقَّف أمامه وتشاني إلى جواره.

أمسك پول بسكِّين السَّاردوكار في يده اليسرى، وقدَّمها إلى ستيلجار قائلًا: «أنت تعيش من أجل مصلحة القبيلة، أبإمكانك سفك دمائي بهذه السكِّين؟».

تذمَّر ستيلجار: «إن كان ذلك في مصلحة القبيلة».

قال پول: «استخدم هذه السكّين إذًا».

سأله ستيلجار: «هل تتحدّاني إلى نزال؟».

قال پول: «إن فعلت ذلك، سأقف دون سلاح وأدعك تقتلني».

أخذ ستيلجار نفسًا سريعًا وحادًا.

صاحت تشاني: «أصول!»، ثم ألقت نظرة سريعة إلى جيرني، وعادت تنظر إلى پول.

وبينما كان ستيلجار يزن كلماته، قال پول: «أنت ستيلجار المحارب. عندما أشعل السّاردوكار جذوة العراك هنا، لم تكن في الصفوف الأمامية، وأوّل ما فكّرت فيه هو حماية تشاني».

قال ستيلجار: «إنها ابنة أختي، إن كان لديَّ أدنى شكٍّ في قدرة فدائييك على التعامل مع هؤلاء الحثالة...».

سأله پول: «لِمَ فكّرت أوّل ما فكّرت في تشاني؟».

- «غير صحيح!».

- «أحقًّا؟».

اعترف ستيلجار: «فكّرت فيك».

سأله پول: «أتظنُّ أنك قادر على رفع يدك بالأذى ضدّي؟».

بدأ ستيلجار يرتجف، وغمغم: «هكذا تقتضي الأعراف».

قال پول: «تقتضي الأعراف أيضًا قتل أيِّ أغراب يُعثر عليهم في الصَّحراء، وأخذ مائهم باعتباره هديَّةً من شَيّ هولود، ومع ذلك سمحت ذات ليلة لغريبين أن يعيشا، أنا وأُمّي».

ظلَّ ستيلجار صامتًا مرتجفًا يحدّق إليه، فقال پول: «الأعراف تتغيَّر يا ستيل، لقد غيَّرتها بنفسك».

نظر ستيلجار إلى الشعار الأصفر على السكِّين التي يحملها.

سأله پول: «حين سأحكم الدوقية من أراكين وتشاني إلى جواري، أتظن أنه سيكون لدي وقت للانشغال بكل التفاصيل المتعلقة بإدارة سييتش تابر؟ هل سأشغل نفسي بالمشكلات الداخلية لكل أسرة؟».

واصل ستيلجار تحديقه إلى السكِّين.

سأله پول: «أتظنُّ أنني أرغب في قطع ذراعي اليمنى؟».

ببطء، رفع ستيلجار عينيه إليه.

قال پول: «أنت! أتظنُّ أنني أرغب في حرمان نفسي أو القبيلة من حكمتك وقوَّتك؟».

بصوتٍ خفيض، قال ستيلجار: «الشاب الذي أعرف اسمه، والذي هو من أفراد قبيلتي، هذا الشاب بإمكاني قتله في حلبة التحدِّي، بإرادة من شَيّ هولود. أمَّا لسان الغيب، فلا أجرؤ على إيذائه. كنت تعرف هذا عندما سلَّمتني هذه السكِّين».

وافقه پول: «صحيح».

فتح ستيلجار يده، فوقعت السكِّين مقعقعةً على الأرض، وقال: «الأعراف تتغيَّر».

قال پول: «تشاني، اذهبي إلى أُمِّي واطلبي منها المجيء إلى هنا كي يتسنَّى لنا مشورتها في...».

قاطعته محتجَّةً: «لكنك قلت إنك ذاهبٌ إلى الجنوب!».

قال: «كنت مخطئًا. الهراكنة ليسوا هناك، الحرب ليست هناك».

أخذت تشاني نفسًا عميقًا، وقبلت الأمر كما تقبل المرأة

الصحراوية كل الضروريات في خِضم حياة شاقّة يتخطّفها الموت.

قال پول: «أبلغي الرسالة على مسمعي أُمّي فحسب. أخبريها أن ستيلجار يعترف بي دوقًا لأرّاكس، ولكن يجب إيجاد طريقة لإقناع شباب القبيلة بتقبُّل ذلك دون نزال».

رمقت تشاني ستيلجار.

زمجر ستيلجار: «افعلي كما يقول، كلانا يعرف أنه يستطيع التغلب علي، وأنني لن أستطيع رفع يدي بالأذى ضدّه، تقديمًا لمصلحة القبيلة».

قالت تشاني: «سأعود وأُمُّك معي».

قال پول: «بل أرسليها وامكثي أنتِ هناك. كان حدس ستيلجار صائبًا، أكون أقوى حين تكونين بأمان. ابقي في السييتش».

همَّت بالاحتجاج، لكنها أحجمت وابتلعت احتجاجها.

نطق پول باسمها الحميم الذي يناديها به: «سِيهَيا»، ثم التفت بوجهه يمينًا، فالتقت عيناه بعيني جيرني المتّقدتين.

كان الحوار الدائر بين پول والفرمِني الأكبر سنًا قد مرَّ مرور الكرام على جيرني منذ أن أتى پول على ذكر أُمّه.

قال جيرني: «تقول أُمَّك».

قال پول مشغولًا بافتراقه عن تشاني: «آيداهو أنقذنا ليلة الغارة، أمّا الآن فعلينا ...».

قاطعه جيرني سائلًا: «ماذا عن دانكن آيداهو يا سيِّدي؟».

– «لقي حتفه بعد أن منحنا فسحة من الوقت للهرب».

فكَّر جيرني: *السّاحرة ما زالت حيّة! المرأة التي أقسمت على الانتقام منها ما زالت حيَّة! ومن الواضح أن الدوق پول لا يعرف حقيقة المخلوقة الخبيثة التي أنجبته، الفاجرة التي خانت أباه*

وباعته للهراكنة!

سار پول متجاوزًا جيرني وقفز إلى الحافَّة الصخرية، ثم نظر خلفه ملاحظًا كيف أُخلي المكان من الجرحى والقتلى، مفكِّرًا بمرارة أن فصلًا آخر من أسطورة پول المؤدِّب دار هنا. *ها أنا ذا حتَّى لم أستلَّ سكيني، وعلى الرغم من ذلك سيُحكى أنني في هذا اليوم ذبحت عشرين ساردوكارًا بيدي.*

سار جيرني في أثر پول مع ستيلجار، خاطيًا فوق أرضٍ لم يشعر بها. كان الغضب يعميه عن الكهف بضوئه الأصفر المتوهِّج المنبعث من كرات الإنارة. وأخذ يفكِّر: *السَّاحرة على قيد الحياة فيما ترقد عظام من خانتهم في قبور مُوحشة. لا بُدَّ لي من تدبير الأمر كي يعرف پول حقيقتها قبل أن أذبحها.*

كثيرًا ما يثور المرء وينكر ما تخبره به نفسه حين يتملَّكه الغضب.
من كتاب «أحاديث المؤدِّب المجمَّعة» للأميرة إيرولان.

كان الحشد المُجتمع في المغارة يشعُّ بهالة القطيع التي استشعرتها چيسيكا في اليوم الذي قتل فيه پول چيميس. كانت الألسن تلهج بتمتماتٍ عصبية، وبين الثياب المحتشدة تشكَّلت مجموعات صغيرة من الأفراد.

دسَّت چيسيكا أُسطُوانة الرسالة تحت ردائها حين خرجت إلى الحافَّة الصخرية من جناح پول الخاص. كانت قد ارتاحت بعد سفرها الطويل من الجنوب، لكنها ظلَّت مستاءة لأن پول لم يسمح لهم باستخدام الأورنيثوبترات التي أسروها.

كان ما قاله: «لم نحكم سيطرتنا على الهواء بعد، كما يجب ألَّا نعتمد الوقود المجلوب من خارج الكوكب. علينا الاحتفاظ بكل الوقود والطائرات التي نجمعها استعدادًا ليوم الجهد العظيم».

وقف پول مع مجموعة من الشباب الأصغر سنًّا قرب الحافَّة. أضفى الضوء الشَّاحب المنبعث من كرات الإنارة مسحة من عدم الواقعية على المشهد. بدا المكان أشبه بلوحة مرسومة، ولكن مع بعدٍ إضافي جسَّدته روائح الاكتظاظ، وأصوات الهمس وتحريك الأقدام.

تأمَّلت چيسيكا ابنها، متسائلةً لماذا لم يحدِّثها بعد عن المفاجأة التي يخبِّئها: جيرني هاليك. كان التفكير في جيرني يؤرِّقها بذكريات ماضٍ أسهل، وأيَّام من الحب والجمال مع والد پول.

وقف ستيلجار منتظرًا بصحبة مجموعة مقرَّبة له على الطرف الآخر من الحافَّة في صمت، محاطًا بهالة من الوقار أمام قدره المحتوم.

فكَّرت چيسيكا: *يجب ألَّا نخسر هذا الرجل. لا بُدَّ لخطَّة پول من أن تنجح، فأيّ نتيجة أخرى ستكون مأساة كاملة.*

أسرعت تعبر الحافَّة الصخرية، مارةً بستيلجار دون أن تنظر إليه، وهبطت إلى الحشد. أفسح المحتشدون الطريق المؤدِّي إلى پول أمامها، ومشى الصَّمت على إثرها.

كانت تعرف معنى ذلك الصَّمت: أسئلة الشعب غير المنطوقة، وهيبة الأُمِّ الموقَّرة.

تراجع الشباب منسحبين من حول پول حين اقتربت منه، وللحظة أفزعها إذعانهم الجديد له. للبِني چيسيرِت حكمة تقول: «كل من هم أدنى منك يطمعون في منصبك»، لكنها لم ترَ طمعًا في تلك الوجوه. كانت الهالة الدينية المحيطة بزعامة پول تصدُّهم عنه. تذكَّرت مقولة أخرى من مقولات البِني چيسيرِت: «عادةً ما يموت الأنبياء ميتةً عنيفة».

نظر پول إليها.

قالت: «حان الوقت»، وناولته أُسطُوانة الرسالة.

نظر أحد رفقاء پول الأجرأ من الآخرين إلى ستيلجار وقال: «ألن تتحدَّاه إلى نزال يا مؤدِّب؟ لا ريب أن هذا هو الوقت المناسب. سيظُنُّون أنك جبان إن لم...».

صاح پول: «من يجرؤ على نعتي بالجبان؟»، وطارت يده إلى مقبض سكِّينه العاجية.

حلَّ صمتٌ على المجموعة لم يُسمع فيه نفس، وانتشر منها إلى جموع الحشد.

قال پول إذ رأى انتكاص الرجل بعيدًا عنه: «أمامنا عمل يجب إنجازه». ثم استدار مبتعدًا، وشقَّ طريقه بين الحشد بكتفيه قاصدًا الحافَّة، وقفز عليها برشاقة مواجهًا الناس.

صاح أحدهم: «افعلها!».

وتعالى الهمس والغمغمة من وراء الصيحة.

انتظر پول إلى أن يحل الصَّمت، الذي نزل ببطء مسبوقًا بسعالٍ وهمهمات متناثرةٍ. وحين ساد الصَّمت المغارة، رفع پول ذقنه، وتحدَّث بصوتٍ تردَّد صداه في أبعد الأركان.

قال پول: «أعلم أنكم سئمتم الانتظار».

ثم انتظر ثانيةً حتَّى تخمد الصيحات المجيبة.

فكَّر پول: *لقد سئموا الانتظار بالفعل،* وقلَّب أُسطُوانة الرسالة في يده، مفكِّرًا في فحواها. كانت أُمُّه قد عرضتها عليه، وشرحت له كيف استولوا عليها من ساعٍ هاركونني. كانت الرسالة واضحة: لقد تخلَّى البارون عن رابان، وتركه ليعتمد على موارده الخاصَّة! ولم يعد بوسعه طلب مساعدة أو تعزيزات!

رفع پول صوته ثانيةً وقال: «تظنون أن الوقت قد حان لتحدِّي ستيلجار وتغيير قيادة القوَّات!»، وقبل أن يتمكَّنوا من الرَّد، ألقى پول صوته عليهم بغضب: «أتظنُّون أن لسان الغيب بهذا الغباء؟».

وقف الحشد صامتًا في ذهول.

فكَّرت چيسيكا: *إنه يقبل بالعباءة الدينية! عليه ألَّا يفعل!*

صاح أحدهم: «إنها الأعراف!».

قال پول بنبرة جافَّة، محاولًا جسّ أحاسيسهم الخفية: «الأعراف تتغيَّر».

ارتفع صوتٌ غاضب من أحد الأركان: «نحن من يحدِّد ما يتغيَّر وما لا يتغيَّر!».

تعالت صيحات اتِّفاق متفرِّقة بين الحشود.

قال پول: «كما تشاؤون».

سمعت چيسيكا النغمات الدقيقة حين استخدم قدرة (الصَّوت) التي علمته إيَّاها.

قال موافقًا: «أنتم من ستحدِّدون، لكنكم ستصغون إليَّ أوَّلًا».

تحرَّك ستيلجار بامتداد الحافَّة، ووجهه الملتحي جامد بلا تعبير، ثم قال: «الأعراف تنصُّ على ذلك أيضًا، إذ يحق لأيِّ فرمِني أن يُسمع رأيه في المجلس، وپول المؤدِّب من الفرمِن».

سأله پول: «مصلحة القبيلة هي أهم شيء، أليس كذلك؟».

قال ستيلجار بنفس النبرة الوقورة الخالية من انفعال: «هكذا تُسدَّد خُطانا».

قال پول: «حسنًا إذًا، من يحكم هذا الحشد من قبيلتنا؟ ومن يحكم كل القبائل والقوَّات عن طريق مدرِّبي القتال الذين درَّبناهم على استخدام أسلوب القتال الخوارقي؟».

انتظر پول، متطلِّعًا إلى رؤوس الحشد. لكنه لم يسمع إجابة.

في النهاية قال: «هل ستيلجار من يحكم كل هذا؟ هو بنفسه ينفي الأمر. هل أحكمها أنا؟ ستيلجار نفسه ينفِّذ تعليماتي في بعض الأحيان، وشيوخ القبيلة، الذين هم أحكم حكمائها، يستمعون إليَّ ويكرِّمونني في المجالس».

خيَّم على الحشد صمتٌ مضطرب.

قال پول: «حسنًا، هل أُمِّي هي من تحكم؟»، وأشار إلى چيسيكا الواقفة بينهم في عباءتها الرسمية السوداء. «ستيلجار

وجميع قادة القوَّات الآخرين يسألونها النصيحة في كل قرارٍ مهم تقريبًا، كلكم تعرفون ذلك، لكن هل تجوب الأُمُّ الموقَّرة الرمال أو تقود الغزوات ضد الهراكنة؟».

قُطبت بعض الجباه في الصفوف الأمامية مفكِّرةً، لكن الهمهمات الغاضبة لم تنقطع.

فكَّرت چيسيكا: هذه *طريقة خطِرة لإقناعهم*، لكنها تذكَّرت أُسطُوانة الرسالة وفحواها، وفهمت نيَّة پول: إنه يغوص مباشرةً في أعماق شكوكهم، ليتخلَّص منها، والبقية ستتبع.

سأل پول: «لا اعتراف لأحدٍ بالقيادة دون تحدٍّ أو قتال، أليس كذلك؟».

صاح أحدهم: «هذه هي الأعراف».

سأل پول: «ما هدفنا؟ أليس هو خلع رابان، الوحش الهاركونني، وإعادة تشكيل عالمنا ليصبح مكانًا نستطيع فيه تربية أولادنا في سعادة، وفي ظلٍّ وفرة من المياه.. أليس هذا هدفنا؟».

صاح أحدهم: «المهام الصعبة تتطلَّب طرقًا صعبة».

سأل پول: «وهل يكسر المرء سكِّينه قبل المعركة؟ سأقول ما سأقول لأنه أمرٌ واقع، لا بقصد التفاخر أو التحدِّي: لا يُوجد رجل هنا، بما في ذلك ستيلجار، قادر على الصمود أمامي في قتالٍ فردي، وهذا باعتراف ستيلجار نفسه. إنه يعلم هذا، وكلكم تعلمونه كذلك».

مجدَّدًا، تعالت همهمةٌ غاضبة من الحشد.

قال پول: «كثيرٌ منكم شاركوني في ساحات التدريب. تعلمون أن ما سأقول ليس تفاخرًا أجوف، بل هي حقيقة معروفة للجميع وسأكون أحمق إن لم أكن أعلمها بنفسي. لقد بدأت التدرُّب على

أساليب القتال هذه في سنٍّ أصغر منكم، وكان أساتذتي أقوى من أيِّ مدرِّبين رأيتموهم، وإلا كيف تظنُّون أنني تغلَّبت على چيميس في السِّنِّ التي لا يخوض فيها أولادكم إلَّا المعارك التدريبية؟».

فكَّرت چيسيكا: *إنه يستخدم (الصَّوت) ببراعة، لكن هذا لن يكفي مع هؤلاء القوم. إنهم يتمتَّعون بمقاومة جيِّدة ضد التحكم الصَّوتي. عليه أن يستحوذ عليهم بالمنطق أيضًا.*

قال پول: «والآن، نصل إلى هذه»، ورفع أُسطوانة الرسالة، وأزال عنها الشريط: «هذه الرسالة استولينا عليها من ساعٍ هاركونني، لذا لا شكَّ في صحَّتها. إنها موجَّهةٌ إلى رابان، وتخبره بأن طلب إمداده بقوَّات جديدة قد رُفِض، وبأن حصاد الاسپايس الذي يورِّده أقل بكثير من الحصَّة المتَّفق عليها، وبأنه -بما لديه من قوَّة عمل- من المفترض أن يعتصر مزيدًا من الاسپايس من أرَّاكس».

تحرَّك ستيلجار ووقف إلى جوار پول.

سأل پول: «كم منكم يفهم ما يعنيه هذا؟ لقد فهم ستيلجار الأمر على الفور».

صاح أحدهم: «انقطعت الإمدادات عنهم!».

دسَّ پول الرسالة والأُسطوانة في الوشاح المربوط حول خصره، ثم حلَّ من حول عُنُقه حبل شيجواير مضفَّر، وحرَّر خاتمًا معلَّقًا فيه، ورفع الخاتم عاليًا.

وقال: «هذا خاتم الدوقية الذي كان لأبي، أقسمت على عدم ارتدائه مرَّةً أخرى حتَّى أصير مستعدًّا لقيادة قواتي عبر أرَّاكس والمطالبة به بصفتي الحاكم الشرعي لهذه الإقطاعية». ثم دسَّ إصبعه في الخاتم، وضمَّ يده في قبضة.

أطبق صمتٌ مزلزل على الكهف.

سأل پول: «من ذا الذي يحكم هنا؟»، ثم رفع قبضته: «أنا من يحكم! أحكم كل سنتيمترٍ مربَّع من أرَّاكس. هذه إقطاعيتي الدوقية سواء رضي الإمبراطور بذلك أم لم يرضَ! لقد منحها لأبي وأنا أرثها من بعده!».

شبَّ پول على أطراف أصابعه، ثم عاد واستقرَّ على عقبيه، فاحصًا الحشد، مستشفًا انفعالاتهم.

وفكَّر: *إنهم على وشك*.

قال پول: «بعض الحاضرين هنا سيشغلون مناصب مهمة على أرَّاكس حين أستعيد حقوقي الإمبراطورية التي هي ملكي. ستيلجار واحد من هؤلاء الرجال. ليس هذا لأنني أريد رشوته! وليس من باب الامتنان، على الرغم من أنني واحد من كثيرين هنا ممَّن سيظلُّون يدينون له بحياتهم مدى الحياة. كلَّا! ولكن لأنه حكيمٌ وقوي. لأنه يحكم هذه الوحدة العسكرية بذكائه وليس وفقًا للقوانين فحسب. أظننتم أنني غبي؟ أظننتم أنني سأقطع ذراعي اليمنى وأتركها مشحَّطةً بدمائها على أرضية هذا الكهف لمجرَّد إرضائكم؟».

ثم أجال پول نظرةً حادَّةً إلى الحشد: «من هنا ينكر أنني الحاكم الشرعي لأرَّاكس؟ هل يجب عليَّ إثبات الأمر بترك كل قبيلة من قبائل الفرمِن في نطاق العِرق بلا قائد؟».

توتَّر ستيلجار بجانب پول، ونظر نحوه بتساؤل.

سأل پول: «هل أنتقص من قوَّتنا ونحن في أمسِّ الحاجة إليها؟ أنا حاكمكم وأقول لكم إن الوقت قد حان لنتوقَّف عن قتل أفضل رجالنا، ونبدأ بقتل أعدائنا الحقيقيين.. الهراكنة!».

في حركة سريعة، استلَّ ستيلجار سكِّينه الماجية ووجَّهها فوق رؤوس الحشد صائحًا: «يحيا الدوق پول المؤدِّب!».

امتلأ الكهف بهديرٍ صاخب يصم الآذان تردَّد صداه طويلًا على الجدران، كانوا يهتفون ويردِّدون: «يحيا الشُّهدا* ! مؤدِّب! مؤدِّب! مؤدِّب! يحيا الشُّهدا!».

ترجمت چيسيكا لنفسها: «*يحيا مقاتلو المؤدِّب!*». ها قد أتى المشهد الذي طبختْه مع پول وستيلجار ثماره لم ينقص منها شيئًا.

ثم هدأ ضجيج الحماس ببطء.

حين عاد الصَّمت، واجه پول ستيلجار وقال: «اركَع يا ستيلجار».

نزل ستيلجار على ركبتيه فوق الحافَّة الصخرية.

قال پول: «أعطني سكِّينك الماجية».

أطاع ستيلجار أمره.

فكَّرت چيسيكا: *ليس هذا كما خطَّطنا له.*

قال پول: «ردِّد من بعدي يا ستيلجار»، واستحضر كلمات التصيب كما سمع والده يقولها: «أنا ستيلجار، أتناول هذه السكِّين من بين يدي دوقي».

قال ستيلجار: «أنا ستيلجار، أتناول هذه السكِّين من بين يدي دوقي»، وأخذ النصل الحليبي من پول.

قال پول: «وحيثما يأمر دوقي، سأغمد هذا النصل».

ردَّد ستيلجار الكلمات ببطءٍ ووقار.

هزَّت چيسيكا رأسها وكبحت دموعها حين تذكَّرت مصدر هذا الطقس، وفكَّرت: *أعرف العلَّة وراء ما أشعر، ويجب ألَّا أسمح لها بأن تحرِّكني.*

قال پول: «أكرِّس هذا النَّصل لنصرة دوقي ولسفك دماء أعدائه ما حيينا».

ردَّد ستيلجار من بعده.

أمره پول: «قبِّل النَّصل».

أطاعه ستيلجار، ثم -وفقًا لأعراف الفرمِن- قبَّل ذراع پول الممسكة بالنصل. وبإيماءة من پول، أغمد النصل، ونهض على قدميه.

سرت بين الحشد تنهيدة انبهار، وسمعت چيسيكا كلماتٍ هامسة: «إنها النبوءة، ستُبيِّن امرأة من البِني چيسيرِت الطريق، وستراه الأُمُّ الموقَّرة»، ثم من مكان بعيد سمعت: «إنها تهدينا الطريق عبر ابنها!».

قال پول: «ستيلجار هو زعيم هذه القبيلة. فلا يُخطئ أحدكم في هذا. إنه يأمر بصوتي، وكل ما يخبركم به، أنا قائله».

فكَّرت چيسيكا: قولٌ حكيم. *يجب ألَّا يفقد قائد القبلية ماء وجهه بين من تجب عليهم طاعته.*

خفض پول صوته وقال: «ستيلجار، أريد الليلة نشر بعض جوَّالة الرمال وإرسال رسائل سيلاجو لاستدعاء مجلس جامع لرؤساء القبائل. عندما تنتهي، أحضر تشات وكُرية وعُثيم وضابطين آخرين من اختيارك إلى جناحي لبدء التخطيط للمعركة. يجب أن نحقق انتصارًا نعرضه على مجلس القادة عند وصولهم».

ثم أشار پول برأسه إلى أُمِّه لمرافقته، وتقدَّم الطريق هابطًا من فوق الحافَّة الصخرية، واخترق الحشد متَّجهًا نحو الممرِّ المركزي وغرف المعيشة المُعدَّة هناك. وبينما كان پول يشقُّ طريقه بين الحشد، امتدَّت الأيدي لتلمسه، ونادته الأصوات.

- «سيُغمد سكِّيني حيث يأمر ستيلجار يا پول المؤدِّب! الحرب الحرب يا پول المؤدِّب! دعنا نسقي أرضنا بدماء الهراكنة!».

لمست چيسيكا مشاعر الحشد، والنزعة القتالية المتأصِّلة في هؤلاء القوم التي تجعلهم متأهِّبين دائمًا، وفكَّرت: *إننا نصعد بهم إلى الذُّرى.*

في الحجرة الداخلية، أشار پول لأُمِّه بالجلوس قائلًا: «انتظري هنا»، وانحنى مارًّا من تحت الستائر إلى الممرِّ الجانبي.

بعد مغادرة پول، عمَّ الحجرة الهدوء، هدوءٌ تام فرضته الستائر إلى درجة أن الهمهمة الخافتة الصادرة عن مضخَّات الهواء التي توزِّع الهواء في السييتش لم تصل إليها.

تعجَّبت چيسيكا من خليط المشاعر الغريب الذي ملأ صدرها. فلطالما كان جيرني وموسيقاه ضلعين في أوقات سعيدة كثيرة على كلادان قبل الانتقال إلى أرّاكس. ثم شعرت بأن حياتها على كلادان قد حدثت لشخصٍ آخر، ففي نحو السنوات الثلاث التي مرَّت منذ ذلك الحين، صارت چيسيكا شخصًا آخر. وأجبرها اضطرارها إلى مواجهة جيرني على إعادة تقييم تلك التغيُّرات.

كانت أداة تحضير القهوة التي ورثها پول عن چيميس -تلك السبيكة المعدنية المحزَّزة المصنوعة من الفِضَّة ومرو الچاسميم- موضوعة على طاولة منخفضة إلى يمينها. رمقتها چيسيكا وهي تفكِّر في عدد الأيدي التي لمست ذلك المعدن. لقد قدَّمت تشاني له القهوة منها هذا الشهر قبل مغادرتها.

سألت نفسها: *ماذا بإمكان امرأة صحراوية تقديمه لدوق عدا القهوة؟ بالتأكيد لن تزده حسبًا أو نفوذًا. پول أمامه فرصة واحدة فحسب: التحالف مع عائلة نبيلة كبيرة، بل رُبَّما مع العائلة*

الإمبراطورية نفسها، فعلى الرغم من كل شيء، بينهم أميرات مناسبات للزواج، وكلّهن مدرَّبات على نهج البِني جيسيرِت.

تخيلت جيسيكا نفسها تترك أرَّاكس، وتستبدل بحياته القاسية حياة السُّلطة والأمان التي قد تحياها بصفتها أُمَّ زوجٍ ملكي. نظرت إلى الستائر السميكة التي تحجب صخور هذه الزنزانة الكهفية، مفكّرةً في الكيفية التي وصلت بها إلى هنا: في هودجٍ على ظهر دودة بين ديدان عِدَّة تتكدَّس عليها المحفَّات ومنصَّات المتاع والإمدادات الضرورية للحملة العسكرية القادمة.

فكَّرت جيسيكا: *ما دامت تشاني حيَّة، لن يرى پول واجبه. لقد أنجبت له ولدًا، وهذا يكفي.*

اجتاحها حنين مفاجئ لرؤية حفيدها، ذلك الصغير الذي يحمل كثيرًا من ملامح جدّه. وضعت جيسيكا كفَّيها على وجنتيها، وبدأت طقوس التنفُّس التي تهدّئ المشاعر وتصفّي الذهن، ثم انحنت أمامًا من عند خصرها في التمرين التعبُّدي الذي يهيِّئ الجسد للامتثال لأوامر العقل.

كانت تعرف أن اختيار پول كهفَ الطيور مركزَ قيادته مثاليًّا ولا غبار عليه، فإلى شماله يقع «ممرُّ الرياح» الذي يفتح على قرية محصَّنة في حوضٍ محاط بجدران جرفٍ شاهق. كانت قرية مهمَّة، وموطنًا للحرفيين والفنيين، ومركز صيانة لقطاع دفاعي كامل تابع للهراكنة.

سمعت جيسيكا نحنحةً آتيةً من وراء الستائر.

فاعتدلت في جلستها، وأخذت نفسًا عميقًا، وزفرته ببطء.

ثم قالت: «ادخل».

أُزيحت الستائر جانبًا واقتحم جيرني هاليك الحجرة. لم يسعفها الوقت إلَّا بإلقاء لمحة خاطفة على تكشيرة وجهه الغريبة، قبل أن تجده فجأةً خلفها، رافعًا إيَّاها من رقبتها بذراعٍ واحدة مفتولة العضلات.

سألته: «جيرني أيُّها الأحمق، ماذا تفعل؟».

ثم شعرت بطرف السكِّين على ظهرها، وانتابتها قشعريرة إدراك من لمسته، وعرفت في تلك اللحظة أن جيرني ينوي قتلها. *ولكن لماذا؟* عجزت عن التفكير في سببٍ، فلم يكن جيرني من النوع الذي يخون. لكن ها هي ذي تيقَّنت من نيَّته، ومع تيقُّنها، راحت الأفكار تتخبَّط عقلها بعنف. هذا رجلٌ ليس من السهل قهره، وهو قاتل يقظ لاستخدام (الصَّوت)، حذر لكل حيلة قتالية، منتبه لكل خدعة مميتة وعنيفة. كان أداةً ساعدت هي نفسها في شحذها وتدريبها عن طريق تلميحات واقتراحات خفية.

زمجر جيرني: «ظننت أنك نجوت بفعلتك، أليس كذلك أيَّتها السَّاحرة؟».

وقبل أن تتمكَّن من تقليب السؤال في ذهنها أو محاولة إجابته، أُزيحت الستائر ودخل بول.

– «ها هو يا أُمّـ...»، ثم بتر عبارته، محاولًا استيعاب المشهد المتوتِّر.

قال جيرني: «مكانك يا سيِّدي ولا تتقدَّم».

هزَّ بول رأسه في عدم فهم: «ماذا...».

همَّت جيسيكا بالكلام، فشعرت بذراعه تعتصر حلقها.

قال جيرني: «لن تتحدَّثي إلَّا حين أسمح لك أيَّتها السَّاحرة. أريد لابنك أن يسمع شيئًا واحدًا فقط منك. إنني مستعد لإغماد

هذا السكّين في قلبك مع أوّل بادرة هجوم مضاد منك. سيبقى صوتك رتيبًا، ولن تحرّكي أو تقبضي عضلاتٍ معيَّنة. ستتصرّفين بأقصى درجات الحذر كي تطيلي حياتك ثوانيَ زهيدة أخرى، وها أنا أؤكّد لكِ أن هذا كل ما تبقّى لك».

خطا پول خطوة إلى الأمام: «جيرني يا رجل، ما الذي...».

صاح جيرني بحدَّة: «قف مكانك! خطوة أخرى وستسقط ميّتة!».

انسلّت يدُ پول إلى مقبض سكّينه، وتكلّم بهدوءٍ رهيب: «من الأفضل لك أن تفسّر ما تفعل يا جيرني».

قال جيرني: «لقد أقسمت يمينًا أن أذبح خائن أبيك. هل تظنّ أنني أستطيع نسيان الرجل الذي أنقذني من حُفر عبيد الهراكنة، وأعاد إليَّ حُرّيتي وحياتي وكرامتي، ومنحني صداقته التي أعتزّ بها أكثر من كل شيءٍ آخر؟ ها هي خائنته تحت نصل سكّيني، ولا يمكن لأحد أن يوقفني عن...».

قال پول: «أنت مخطئ بالكامل يا جيرني».

وفكّرت چيسيكا: *الأمر هكذا إذًا! يا للسخرية المريرة!*

سأله جيرني: «مُخطئ؟ دعنا نسمع الأمر إذًا من المرأة نفسها. ولكن عليها أن تتذكّر أنني دفعت الرُّشى وتجسّست وداهنت كثيرًا للتأكّد من هذه التهمة، بل إنني أغريت حارسًا هاركونيًا بالسموتا للحصول على جزء من القصة».

أحسّت چيسيكا بذراعه الملتفّة حول عُنُقها ترتخي قليلًا، لكن قبل أن تتكلّم، قال پول: «الخائن هو يُوي يا جيرني. سأقولها لك مرّة واحدة. الأدلّة مكتملة، ولا يمكن الطعن فيها. يُوي هو الخائن. لا يهمّني كيف وصلت إلى استنتاجاتك الواهمة هذه،

لأنها ليست إلَّا أوهامًا، ولكن إن أذيت أُمّي...»، بتر عبارته وأخرج سكِّينه من غمدها ورفع نصلها أمامه، ثم أكمل: «سأسفك دمك».

زمجر جيرني: «يُوي طبيبٌ خاضع للتهيئة العقلية ليكون مؤهَّلًا للعمل في بلاطٍ ملكي، يستحيل أن يتحوَّل إلى خائن!».

قال پول: «أعرف طريقة لإزالة هذه التهيئة».

أصرَّ جيرني: «أريد دليلًا».

قال پول: «الدليل ليس هنا. إنه في سييتش تابر، بعيدًا في الجنوب، ولكن إن...».

قال جيرني مزمجرًا: «هذه خدعة»، وضيَّقت ذراعه الخناق على حلق چيسيكا.

قال پول بصوتٍ حمل نبرة حُزنٍ رهيبة مزَّقت نياط قلب چيسيكا: «ليست خدعة يا جيرني».

قال جيرني: «رأيت الرسالة التي أُخذت من العميل الهاركونني، وقد أشارت بشكل مباشر إلى...».

قال پول: «أنا أيضًا رأيتها. أراني أبي إيَّاها في الليلة التي شرح لي فيها أنها خدعة هاركونينة تهدف إلى تشكيكه في المرأة التي يحبها».

قال جيرني: «آها! أنت لم...».

قاطعه پول: «صمتًا»، لافظًا الكلمة بنبرةٍ آمرة باردةٍ لا انفعال فيها تفوق كل ما سمعته چيسيكا في صوت آخر.

وفكَّرت: *إنه يتمتَّع بـ«السيطرة العظمى».*

ارتعشت ذراع جيرني الملتفَّة حول عُنُقها، واهتزَّ طرف السكِّين الذي في ظهرها في ارتباك.

قال پول: «ما لم تفعله أنت، هو الإنصات إلى بكاء أُمّي ليلًا على دوقها الفقيد، ولم تر الشَّرر المتطاير من عينيها حين تتحدَّث عن قتل الهراكنة».

فكَّرت چيسيكا: *لقد سمع بكائي إذًا*، وأغشت الدموع عينيها.

واصل پول: «ما لم تفعله أنت، هو تذكُّر الدروس التي تعلَّمتها في حُفر عبيد الهراكنة. تتحدَّث عن فخرك بصداقة أبي! ألم تتعلَّم الفرق بين الهراكنة وآل آتريديز لتتمكَّن من شمِّ مكر الهراكنة من العفونة التي تفوح منه؟ ألم تتعلَّم أن الإخلاص لآل آتريديز يُشترى بالحب، بينما عملة الهراكنة هي الكراهية؟ ألم تستطع رؤية طبيعة تلك الخيانة على حقيقتها؟».

غمغم جيرني: «ولكن يُوي، كيف؟».

قال پول: «الدليل الذي بحوزتنا هو رسالة من يُوي ذاته يعترف فيها بخيانته. أقسم لك على هذا بالحبِّ الذي أكنُّه لك يا جيرني، الحب الذي سأظلُّ أكنُّه لك حتَّى بعد أن أرديك قتيلًا على هذه الأرضية».

استمعت چيسيكا لابنها ودهشت لنضج وعيه، ولبصيرة ذكائه الثَّاقبة.

قال پول: «كان أبي يتمتَّع بحسٍّ سليم تجاه من يصادق. صحيح أنه كان مقتصدًا في منح حُبِّه، لكنه لم يخطئ قط. أمَّا نقطة ضعفه فكانت في سوء فهم الكراهية، إذ ظنَّ أن أيَّ شخص يكره الهراكنة يستحيل أن يخونه»، ثم نظر إلى أُمِّه: «هي تعرف هذا، لقد أعطيتها رسالة أبي التي يقول فيها إنه لم يشك فيها قط».

شعرت چيسيكا بأنها تفقد السيطرة على مشاعرها، فعضَّت شفتها السُّفلى. حين رأت أسلوبه الجامد الرسمي، أدركت ثقل

وطـأة مـا يتفـوَّه بـه مـن كلمـات عليـه. أرادت أن تركـض نحـوه، وتحتضـن رأسـه فـي صدرهـا كمـا لـم تفعـل مـن قبـل. لكـن الـذراع الملتفَّـة حـول عُنُقهـا لـم تعـد ترتعـش، وعـاد طـرف السـكِّين ينغـز ظهرهـا بثبـاتٍ وحِـدَّة.

قـال پول: «إحـدى أفظـع اللحظـات فـي حيـاة الصبـيِّ تأتـي حيـن يكتشـف أن أبـاه وأُمَّـه يتشـاركان حُبًّـا لـن يسـتطيع تـذوُّق مثلـه أبـدًا. إنهـا لحظـة خسـارة مريـرة، لحظـة إفاقـة يـدرك فيهـا حقيقـة أن العالـم دار امتحـان وبـلاء ونحـن فيـه وحدنـا، لحظـة تحمـل معهـا حقيقـة لا يمكـن التنصُّـل منهـا. لقـد سـمعت كيـف يتحـدَّث أبـي عـن أُمِّـي يـا جيرنـي. إنهـا ليسـت الخائنـة».

استطاعت چيسيكا التحدُّث، فقالـت: «جيرنـي، أطلـق سـراحي». لـم يكـن فـي كلماتهـا نبـرة آمـرة خاصـة، ولا حيلـة للعـب علـى نقـاط ضعفـه، ومـع ذلـك تراخـت ذراع جيرنـي. عبـرت چيسـيكا الحجـرة إلـى پول، ووقفـت أمامـه، دون أن تلمسـه.

قالـت: «پول، فـي هـذا الكـون لحظـات مفيقـة أخـرى. لقـد أدركـت فجـأة كيـف اسـتخدمتك وطوَّعتـك وتلاعبـت بـك لأضعـك علـى طريـق مـن اختيـاري أنـا، طريـق فُـرض علـيَّ اختيـاره -إن كان فـي ذلـك عـذر- بسـبب مـا تلقَّيـت مـن تدريـب»، ثـم ابتلعـت غصَّـة مريـرة فـي حلقهـا، ورفعـت بصرهـا إلـى ابنهـا، وقالـت: «أريـدك أن تفعـل شـيئًا مـن أجلـي يـا پول: اختـر طريـق سـعادتك. تـزوَّج بامرأتـك الصحراويـة إن كانـت هـذه رغبتـك. تحـدَّى النـاس جميعًـا وكل شـيء، لكـن اختـر طريقـك بنفسـك. أنـا ...».

ثـم بتـرت عبارتهـا حيـن سـمعت الغمغمـة الخفيضـة الآتيـة مـن خلفهـا.

جيرني!

رأت عيني پول ثابتتان على ما خلفها، فاستدارت.

كان جيرني واقفًا في مكانه وقد أغمد سكّينه وفتح ثوبه من عند صدره كاشفًا عن بذلة تقطير رمادية لامعة أسفله من النوع الذي يقايض به قاطنو السييتشات مع المهرِّبين.

غمغم جيرني: «اغرز سكّينك في صدري. اقتلني وانته من الأمر، لقد لوَّثت اسمي ولطَّخت سمعتي. لقد خنت دوقي! أُفضِّل أن...».

قاطعه پول: «اصمت!».

رمقه جيرني.

قال پول: «أغلق هذا الثَّوب وكُفَّ عن التصرُّف بحمق، لقد نلت كفايتي من الحماقة اليوم».

صاح جيرني غاضبًا: «أقول لك اقتلني!».

قال پول: «أنت خير من يعرفني. أيُّ أبله تظنُّني؟ هل يجب أن أخوض الأمر ذاته مع كل رجل أنا في حاجةٍ إليه؟».

نظر جيرني إلى چيسيكا، وقال بنبرة بائسة متوسِّلة منافية لطبعه: «أنت إذًا يا مولاتي، أرجوك... اقتليني أنت».

اقتربت چيسيكا منه، ووضعت يديها على كتفيه وقالت: «جيرني، لِمَ تصرُّ على أن يقتل آل آتريديز أحبَّاءهم؟»، ثم جذبت الثوب المفتوح من يديه برفق، وأغلقت قماشه وأحكمته على صدره.

قال جيرني مكسورًا: «ولكن... أنا ...».

قالت: «كنت تظنُّ أنك تردُّ صنيع ليتو، لهذا أنا أحترمك».

قال جيرني: «مولاتي»، ثم نكَّس رأسه حتَّى لامس ذقنه صدره، وأغلق جفنيه بقوَّة ليمنع انفجار دموعه.

قالت: «لنعدّ الأمر سوء فهم بين أصدقاءٍ قدامى»، وسمع پول ضبطها لصوتها، ونبرة التهدئة فيه: «انتهى الأمر، فلنكن شاكرين أن مثل سوء الفهم هذا لن يتكرَّر بيننا».

فتح جيرني عينيه المغرورقتين بالدموع، ونظر إليها.

قالت چيسيكا: «جيرني هاليك الذي أعرفه رجلًا بارعًا مع النصل وفي العزف، ولطالما كنت أميل أكثر إلى عازف الباليسِت. ألا يتذكر جيرني هذا مدى استمتاعي بتلك الساعة التي كان يعزف فيها من أجلي؟ أما زالت الباليسِت بحوزتك يا جيرني؟».

قال جيرني: «معي واحدة جديدة، ابتعتها من شوسوك. إنها آلة جميلة عذبة، كأنها أصلية صنعتها يد ڤاروتا، على الرغم من أنها بلا توقيع. عن نفسي أظن أن صانعها تتلمذ على يد ڤاروتا...» ثم بتر عبارته وقال: «ما هذا الذي أقوله يا مولاتي؟ ها نحن نثرثر عن...».

قال پول: «ليست ثرثرةً يا جيرني»، ثم اقترب ووقف إلى جوار أُمّه، ونظر إلى جيرني في عينيه: «ليست ثرثرةً، بل حديثًا يجلب السعادة ويؤنس الأصدقاء. سأكون ممتنًا لو عزفت لها الآن. يمكن أن ينتظر التخطيط للحرب بعض الوقت، فنحن لن نخوض المعركة حتَّى يوم غدٍ على أيِّ حال».

قال جيرني: «أنا... سأذهب وأحضر الباليسِت. إنها في الممرّ»، ثم دار حولهما ومرَّ من بين الستائر.

وضع پول يده على ذراع أُمّه، ووجد أنها ترتجف.

قال لها: «انتهى الأمر يا أُمّي».

نظرت إليه من طرفي عينيها دون أن تدير رأسها تجاهه: «انتهى؟».

- «بالتأكيد، جيرني...».

- «جيرني؟ آه... صحيح»، ثم خفضت بصرها.

أصدرت الستائر حفيفًا مع عودة جيرني حاملًا الباليست. بدأ يضبط أوتارها، متحاشيًا نظراتهما. كتمت الستائر المعلّقة على الجدران رجع الصدى، فجعلت صوت الآلة بسيطًا وحميميًا.

قاد پول أُمّه إلى وسادة، وأجلسها عليها وظهرها إلى ستائر الجدار السميكة. صُدم فجأة من علامات التقدُّم في السِّنِّ البادية عليها من خطوطٍ جافّة حفرتها الصّحراء في وجهها، وتجاعيدَ عند زوايا عينيها المُغشّاتين باللون الأزرق.

وفكّر: *إنها مُتعبة، علينا إيجاد طريقة لنخفّف عنها أعباءها.*

ضرب جيرني وترًا.

نظر پول إليه وقال: «لدي... أمور يجب أن أباشرها بنفسي. انتظرني هنا».

أومأ جيرني وقد بدا ذهنه شاردًا بعيدًا، كما لو كان يجلس في هذه اللحظة تحت سماوات كلادان الرَّحبة، ويلمح في الأُفُق سحابٍ كالصوف يعد بهطول الأمطار.

أجبر پول نفسه على الاستدارة، وانصرف عبر الستائر الثقيلة إلى الممرِّ الجانبي. من خلفه، سمع جيرني يبدأ العزف، فوقف لحظة خارج الغرفة مستمعًا إلى الموسيقى المكتومة:

«أمامي البساتين ومزارع العنب،

والحور النّاهدة،

وكأسٌ مترعة.

فلماذا أثرثر عن معارك،

وعن جبالٍ دُكّت وصارت غبارًا؟

ولماذا أشعر في فمي بمذاق الدموع؟

أبواب السَّماوات مفتوحة
تنهال منها ثرواتها؛
وما عليَّ إلَّا جمع نعمها.
فلماذا أفكِّر في دسائس؟
وفي سُمٌّ ذَّائب في كأسٍ؟
ولماذا تثقلني سنوات العمر؟

أذرع الحب الممدودة تغريني
بمسرَّاتها العارية
جنَّة عدن تعدني بالنشوة
فلماذا أتذكَّر الندوب؟
وأحلم بآثامي القديمة؟
ولماذا أنام مُعانقًا مخاوفي؟».

ظهر ساعٍ من الفدائيين من زاوية الممرِّ أمام پول. كانت قلنسوة الرجل ملقاة على ظهره، وأربطة بذلة تقطيره مرخاة حول عُنقُه، علامةً على أنه جاء لتوِّه من الصَّحراء.

أمره پول بالتوقُّف، وترك ستائر الباب، وقطع الممرَّ نحو السَّاعي الذي انحنى عاقدًا يديه أمامه بالطريقة التي يُحيي بها الأُمَّ الموقَّرة أو إحدى سيَّادينات الطقوس. قال الرجل: «يا مؤدِّب، بدأ القادة بالحضور من أجل المجلس الجامع».

- «أبهذه السرعة؟».

هـزَّ كتفيـه: «هـؤلاء مـن بعـث إليهـم سـتيلجار الرسـائل فـي وقـتٍ سـابق عندمـا كنّـا نظـن...».

- «فهمـت». قالهـا پـول واسـتدار ناظـرًا إلـى حيـث ينبعـث صـوت الباليسِـت الخافـت، مفكّـرًا فـي الأغنيـة القديمـة المفضّلـة لأمِّـه، التـي هـي مزيـج غريـب مـن لحـنٍ مـرح وكلمـاتٍ حزينـة.

- «سـرعان مـا سـيأتي سـتيلجار إلـى هنـا مـع الآخريـن. أرشـدهم إلـى حيـث تنتظـر أمّـي».

قال السّاعي: «سأنتظر هنا أيُّها المؤدّب».

- «أجل... أجل، انتظر هنا».

تجـاوز پـول الرجـل وغـاص فـي أعمـاق الكهـف، متّجهًـا إلـى المكان السـرّي الـذي يضمُّـه كل كهـفٍ مـن هـذه الكهـوف: المـكان القريـب مـن حـوض تخزيـن الميـاه. فـي هـذا المـكان تُوجـد شَـيّ هولـود صغيـرة، مخلوقـة لا يتعـدّى طولهـا تسـعة أمتـار، أوقفـوا نُموّهـا وحبسـوها بيـن خنـادق مائيـة، لأن الديـدان الصّانعـة -بعـد أن تخـرج مـن طـور اليرقـات الصغيـرة- تتحاشـى المـاء، إذ يصيـر سـامًّا لهـا. إغـراق الصّانعـة فـي المـاء هـو أعظـم أسـرار الفرمِـن، إذ إنـه العمليـة التـي تنتـج عنهـا المـادّة التـي توحّدهـم: مـاء الحيـاة، السُّـمُّ الـذي لا تقـدر علـى تغييـره سـوى أُمٍّ موقّـرة.

كان پـول قـد اتّخـذ قـراره هـذا تحـت وطـأة الضغـط الـذي تعـرَّض لـه مـن الخطـر الـذي هـدَّد حيـاة أُمّـه، فهـو لـم يكـن قـد رأى فـي أيِّ مسـار مـن مسـارات المسـتقبل التـي تكشّـفت لـه ذلـك التهديـد مـن جيرنـي هاليـك. كان المسـتقبل -المسـتقبل الضبابـي الغائـم- بمـا يحملـه مـن شـعور بـأن الكـون يتّجـه إلـى نقطـة الغليـان، معلّقًـا مـن حولـه كسـرابٍ شـبحي.

فكَّر پول: *لا بُدَّ لي من رؤية المستقبل.*

كان جسده قد اعتاد نوعًا من جرعات الاسپايس، ما جعل الرؤى الاستبصارية تقل شيئًا فشيئًا، وتبهت بالتدريج. لذا بدا الحل واضحًا له.

سأُغرق الصَّانعة. الآن سنعرف إن كنت الكويزاتس هاديراك القادر على اجتياز الاختبار الذي سبق أن اجتازته الأُمّ الموقَّرة أم لا.



وحدث في السَّنة الثالثة من حرب الصَّحراء أن رقد پول المؤدِّب وحيدًا في كهف الطيور، داخل صومعة، وتحت كسوة* مزدانة بالرسومات القديمة. كان في رقدته أشبه بالميِّت، تائهًا في رؤى وتجلِّيَّات ماء الحياة، بعد أن عبرت نفسه إلى ما وراء حدود الزمن، بنفحة السُّمِّ الذي يهب الحياة. وهكذا تحقَّقت النبوءة بأن لسان الغيب قادر على أن يكون حيًا وميِّتًا في الوقت نفسه.

من كتاب «أساطير أرَّاكس المجمَّعة» للأميرة إيرولان.

خرجت تشاني من حوض حبانية في ظلام الفجر، وسمعت رفرفة أجنحة الثوبتر التي أحضرتها من الجنوب تئزُّ عائدة إلى مخبأٍ لها في اليهماء الواسعة. من حولها، حافظ حرسها المرافق على مسافة بينهم وبينها، وانتشروا بين صخور التلال بحثًا عن أيِّ أخطارٍ محتملة، وليمنحوا لخليلة المؤدِّب وأُمِّ ابنه البكر ما طلبته: مدَّةً للسير مختليةً بنفسها.

سألت تشاني نفسها: *لِمَ استدعاني؟ لقد أخبرني سابقًا أن عليَّ البقاء في الجنوب مع ليتو الصغير وعالية.*

ضمَّت ثوبها حول جسدها ووثبت بخفَّة فوق حاجز صخري، ومنه إلى الطريق الصاعد الذي لا تستطيع إلَّا العين المدرَّبة تمييزه في الظلام. راح الحصى ينزلق من تحت قدميها، فتقافزت فوقه في وثباتٍ راقصة دون وعي منها لما يتطلَّبه الأمر من رشاقة.

كان التسلُّق منعشًا، وخفَّف من المخاوف التي تخمَّرت في نفسها بسبب صمت حرسها المرافق المريب، وحقيقة أنهم أرسلوا

ثوبترًا ثمينة لتأتي بها. شعرت بقلبها يتواثب من الفرحة لاقتراب لمّ شملها مع پول المؤدِّب، حبيبها أصول. قد يكون اسمه صيحة حرب تدوي في الآفاق «مؤدِّب! مؤدِّب! مؤدِّب!»، لكنها كانت تعرف رجلًا آخر باسم آخر، هذا الرجل عاشقٌ رقيق، وأبو ابنها.

أطلَّ خيالٌ ضخم من الصخور فوقها، وأشار لها بالإسراع، فأطاعت مسرعةً من وتيرتها. كانت طيور الفجر قد بدأت صياحها وتحليقها في السماء، وانتشر خيط ضوء خافت في الأفُقُ الشرقي.

لم يكن الشخص أعلى الصخور أحد مرافقيها، فتساءلت في نفسها: *أهو عُثيم؟* متتبِّعةً حركته وأسلوبه المألوفين. وصلت إليه، وتعرَّفت في الضوء المتزايد على ملامح الضابط الفدائي العريضة المنبسطة، ورأت أن قلنسوته مفتوحة، وأن مرشِّح الفم غير محكم كما يحدث أحيانًا حين يغامر المرء بالخروج إلى الصَّحراء لما لا يزيد على لحظات قليلة.

قال هامسًا: «أسرعي»، وقادها نزولًا عبر الصَّدع السرِّي إلى الكهف المخفي، وهمس وهو يزيح لها الغطاء العازل: «سيطلع النهار بعد قليل، الهراكنة -من يأسهم- يرسلون دورياتهم لتجوب أجزاء من المنطقة. لا يمكننا المخاطرة بانكشاف أمرنا الآن».

دخلا إلى الممرِّ الجانبي الضيِّق الذي يشكِّل المدخل المؤدِّي إلى كهف الطيور، فأُضيئت كرات الإنارة تلقائيًّا. تجاوز عُثيم تشاني قائلًا: «اتبعيني. أسرعي الآن».

قطعا الممرَّ في خُطًى مسرعة، وعبرا من بابٍ آخر مزوَّد بصمام، ثم قطعا ممرًّا آخر، ومنه دخلا -عبر ستائر- إلى ما

كان خلوة للسيَّادينات حين كان الكهف يستخدم استراحة نهارية. صارت الأرضية الآن مغطَّاة بالسجَّاد والوسائد، بينما احتجبت الجدران الصخرية خلف ستائر منسوج عليها شعار الصقر الأحمر. وعلى مكتبٍ منخفض قابع في أحد الأركان، تكسدَّت أوراق تفوح منها رائحة الاسپايس المصنوعة منه.

كانت الأُمُّ الموقَّرة جالسةً بمفردها في مواجهة المدخل تمامًا، وحين رفعت عينيها، رأت فيهما تشاني تلك النظرة الباطنية الشاردة التي تجعل العوام يرتجفون.

شابك عُثيم كفَّيه وقال: «أحضرت تشاني»، ثم انحنى وتراجع خارجًا من خلال الستائر.

فكَّرت چيسيكا: *كيف سأخبر تشاني؟*

ثم سألتها: «كيف حال حفيدي؟».

فكَّرت تشاني: *التحية التقليدية*، وعادت المخاوف تنهشها: *أين المؤدِّب؟ لماذا لم يأت لاستقبالي؟*

قالت تشاني: «إنه بصحَّة وسعادة يا أُمَّاه، تركته هو وعالية في رعاية حارَّة».

فكَّرت چيسيكا: *أُمَّاه! أجل، لديها الحق في مناداتي كذلك في التحيَّة الرسمية، فقد أنجبت لي حفيدًا.*

قالت چيسيكا: «سمعت أنهم أرسلوا إليك قماشًا هدية من سييتش كوانوا».

قال تشاني: «أجل، إنه قماش جميل».

– «هل أرسلت عالية رسالة معك».

– «كلَّا، لكن الأمور تسير بسلاسة أكبر في السييتش بعد أن بدأ الناس يتقبَّلون معجزتها».

تساءلت تشاني: *لِمَ هذا الاستطراد؟ لقد طرأ أمرٌ عاجل ومُلحٌّ جدًا حتَّى أنهم أرسلوا ثوبترًا لإحضاري، والآن نستطرد في الشكليات.*

قالت چيسيكا: «يجب أن نذَّخر بعضًا من القماش الجديد لنصنع منه ملابس لليتو الصغير».

قالت تشاني: «كما تشائين يا أُمَّاه»، ثم خفضت بصرها وسألت: «هل من أخبار عن المعارك؟»، وحاولت السيطرة على تعابير وجهها كي لا تكتشف چيسيكا أن سؤالها كان عن پول المؤدِّب.

قالت چيسيكا: «حقَّقنا انتصارات جديدة، ووصلتنا مع رُسُلٍ مبادرات حذرة من رابان بخصوص هدنة، لكننا أعدنا إليه رُسُله دون مائهم. الأمر وصل برابان أنه خفَّف أعباء الناس في بعض قرى الأحواض. لكنها كانت خطوة متأخِّرة جدًا، والناس عرفوا أنه فعل ذلك خوفًا منا».

قالت تشاني: «إذًا تسير الأمور كما قال المؤدِّب»، وراحت ترمق چيسيكا، محاولةً إبقاء مخاوفها لنفسها. *لقد لفظت اسمه، لكنها لم ترد. يعجز المرء عن استشفاف أدنى انفعال في قطعة الحجر المصقولة هذه التي تسمِّيها وجهًا... لكنها متحجِّرة أكثر من اللازم. ما سر هذا الهدوء؟ ماذا حدث لحبيبي أصول؟*

قالت چيسيكا: «أتمنَّى لو كنَّا في الجنوب. المزارع كانت جميلة جدًّا حين غادرنا. ألا تشتاقين إلى اليوم الذي تزهر فيه الأرض كلها بهذا الشكل؟».

قالت تشاني: «الأرض جميلة حقًّا، لكن يسكنها حُزنٌ كبير».

قالت چيسيكا: «الحزن ثمن النصر».

سألت تشاني نفسها: *هل تهيِّئني لتلقّي خبرٍ حزين؟* ثم قالت: «نساء كثيرات بلا رجال، وقد شعرن بالغيرة منّي عندما علمن بأمر استدعائي إلى الشمال».

قالت چيسيكا: «أنا التي استدعيتك».

شعرت بقلبها يغوص، وأرادت أن تغطّي أذنيها بيديها خوفًا ممَّا قد تسمعه. ومع ذلك، حافظت على هدوء صوتها: «كانت الرسالة مذيَّلة بتوقيع المؤدِّب».

قالت چيسيكا: «أنا التي وقَّعتها، بحضور ضُبَّاطه. كانت حيلة اضطررنا إلى اللجوء إليها»، وفكَّرت: *كم هي شجاعة امرأة ابني پول. إنها تتمسَّك بأدقِّ التفاصيل حتَّى والخوف يتكالب عليها.*

تسلَّل شيء من التسليم بالقدر إلى صوت تشاني وهي تقول: «الآن بإمكانك قول ما يجب أن يُقال».

قالت چيسيكا: «أنا في حاجةٍ إليك لمساعدتي في إنعاش پول». *هاك! قد قلتها بالطريقة الصحيحة تمامًا. إنعاش. هكذا ستعلم أن پول حيٌّ وستعلم أنه في خطر في الوقت نفسه، كل هذا بكلمة واحدة.*

استغرقت تشاني لحظات لتهدئة نفسها، ثم قالت: «ماذا بوسعي أن أفعل؟»، هي تودُّ لو أن تقفز على چيسيكا، وتهزُّها صارخةً: «خذيني إليه!». لكنها انتظرت الإجابة في صمت.

قالت چيسيكا: «أشكُّ أن الهراكنة تمكَّنوا من زرع جاسوس بيننا لتسميم پول. إنه التفسير الوحيد الذي يبدو منطقيًا. لكنه سُمٌّ غير معتاد، فقد فحصت دمه بأساليب دقيقة شتَّى ولم أجد أثرًا له».

دفعت تشاني نفسها إلى الأمام على رُكبتيها وقالت: «سُمٌّ؟ هل يتألَّم؟ هل أستطيع أن...».

قالت چيسيكا: «إنه فاقد الوعي، ووظائفه الحيوية ضعيفة إلى درجة لا يمكن معها قياسها إلَّا باستخدام أدقِّ التقنيات. أرتعد كلَّما فكَّرت في ما كان سيحدث له لو لم أكن أنا من اكتشفه. إنه يبدو ميِّتًا للعين غير الخبيرة».

قالت تشاني: «تملكين أسبابًا أخرى غير الواجب دفعتك لاستدعائي. أنا أعرفك جيِّدًا يا أُمَّنا الموقَّرة. ماذا تظنِّين أنني أستطيع فعله وتعجزين أنت عنه؟».

فكَّرت چيسيكا: *إنها شجاعة، وفاتنة، وشديدة الذكاء كذلك. كان يمكن أن تصير بِني چيسيرِت رائعة.*

قالت چيسيكا: «تشاني، قد تجدين صعوبة في تصديق ما سأقول، لكنني لا أعرف بالتحديد لماذا استدعيتك. كان تصرُّفًا غريزيًّا، شيئًا أشبه بحدسٍ فطري. انبثقت في ذهني خاطرة تقول: "استدعي تشاني"».

للمرَّة الأولى، رأت تشاني الحزن في ملامح چيسيكا، الألم الظَّاهر الذي بدَّل شرود نظرتها الباطنية.

قالت چيسيكا: «لقد جرَّبت كل ما تسمح معارفي بتجربته، وأنا معارفي تتخطَّى المألوف من المعارف إلى درجة يصعب على العوام تخيُّلها، وعلى الرغم من ذلك... فشلت».

سألت تشاني: «رفيقه القديم، هذا المدعو هاليك. هل من المحتمل أن يكون خائنًا؟».

قالت چيسيكا: «ليس جيرني».

حملت هاتان الكلمتان الزهيدتان معاني حوارٍ كامل، ورأت تشاني فيهما البحث المضني والاختبارات، وذكريات إخفاقات قديمة تسلَّلت إلى هذا النفي القاطع.

ارتكزت تشاني على قدميها، ونهضت وهي تسوِّي ثوبها الذي بقَّعته الصَّحراء، وقالت: «خذيني إليه».

نهضت چيسيكا، واستدارت خارجةً عبر ستارة الجدار الأيسر.

تبعتها تشاني، لتجد نفسها في غرفة كانت مخزنًا في السابق، والآن احتجبت جدرانها الصخرية وراء ستائر ومعلَّقات ثقيلة. كان پول مستلقيًا على حشية ميدانية عند الجدار البعيد، وفوقه كرة إنارة وحيدة تضيء وجهه. كان يغطِّيه رداءٌ أسود حتَّى صدره، تاركًا ذراعيه عاريتين وممدَّتين إلى جانبيه. بدا عاريًا تحت الرداء، وبدت أجزاء جلده المكشوفة شمعية ومتصلِّبة، ولم يبدُ عليه أدنى أثر لحركة.

منعت تشاني نفسها عن الاندفاع نحوه، وإلقاء جسدها عليها. وجدت أن أفكارها تتَّجه نحو ابنها ليتو، وأدركت في تلك اللحظة أن چيسيكا واجهت موقفًا كهذا: رجلها يهدِّده الموت، بينما عقلها مجبر على التفكير في ما يمكن عمله لإنقاذ ابنها الصغير. شكَّل هذا الإدراك رابطة شعورية فجائية مع المرأة التي تكبرها سنًّا، فمدَّت تشاني يدها وأمسكت يد چيسيكا، التي استجابت لها بقبضة مؤلمة من قوَّتها.

قالت چيسيكا: «إنه حيٌّ، أؤكِّد لكِ أنه حيٌّ. لكن الخيط الممسك بحياته رفيع إلى درجة يمكن معها إغفاله بسهولة. بعض القادة يتهامسون قائلين إن هذا كلام الأمومة لا كلام الأُمِّ الموقَّرة، وأن ابني مات بالفعل وأنني لا أرغب في إعطاء مائه إلى القبيلة».

سـألتها تشـاني: «منـذ متـى وهـو فـي هـذه الحالـة؟»، وحـرَّرت يدهـا مـن قبضـة چيسـيكا، وتقدَّمـت خطـوات فـي الحجـرة.

قالـت چيسـيكا: «ثلاثـة أسـابيع. قضيـت مـا يقـرب مـن أسـبوع أحـاول إنعاشـه. عقدنـا اجتماعـات، وخضنـا مجـادلات، وتحقيقـات، ثـم أرسـلت إليـك. الفدائيـون يطيعـون أوامـري، وإلَّا لمـا اسـتطعت تأخيـر الـ...»، ثم بتـرت عبارتهـا وبلَّلت شفتيها بلسـانها وهـي تراقب اقتـراب تشـاني مـن پول.

وقفـت تشـاني فوقـه الآن، متأمِّلـةً لحيـة الشـباب الناعمـة التـي تحـدِّد وجهـه، متتبعـةً بعينيهـا خـط جبينـه المرتفـع، وأنفـه الحـاد، وعينيـه المغلقتيـن. كـم كانـت ملامحـه مسـالمة فـي سـكونه الجامـد هـذا.

سـألت تشاني: «كيف يتغذَّى؟».

قالـت چيسـيكا: «احتياجـات جسـده ضئيلـة إلـى درجـة لا يحتـاج معهـا إلـى طعـام بعـد».

سـألت تشاني: «كم من الناس وصلهم خبر ما حدث؟».

- «فقـط أقـرب مستشـاريه، وبعـض القـادة، والفدائيـون، وبالتأكيد مـن دسَّ لـه السُّـمَّ».

- «لم تصلوا بعد إلى دليل يشير إلى من سمَّمه؟».

قالت چيسيكا: «مع أننا لم نفرِّط في التحقيق من شيء».

سـألتها تشـاني: «ما رأي الفدائيين؟».

- «يعتقـدون أن پول فـي غشـية جليلـة، يجمـع فيهـا قـواه المقدسـة قبـل المعركـة الأخيـرة. هـذه فكـرة زرعتها بنفسـي».

ركعـت تشـاني علـى رُكبتيهـا جـوار الحشـية، وانحنـت مقتربـةً مـن وجـه پول. شـعرت علـى الفـور باختـلاف فـي رائحـة الهـواء المحيط

بوجهه. لكنه لم يكن إلّا عبق الاسپايس، الاسپايس الذي تتخلّل رائحته كل شيء في حياة الفرمن. ومع ذلك...

قالت تشاني: «أنت لم تنشئي على الاسپايس مثلنا. هل حقّقتِ في احتمالية أن تكون هذه ردّة فعل جسدية لتناول كمّية كبيرة من الاسپايس في طعامه؟».

قالت چيسيكا: «فحوصات ردود الفعل التحسُّسية كلها سلبية».

أغلقت تشاني عينيها لطمس هذا المشهد لشعورها المفاجئ بمدى إرهاقها، وسألت نفسها: *منذ متى وأنا بلا نوم؟ مُدّة أطول من اللازم.*

قالت تشاني: «حين تُغيِّر الأُمُّ الموقّرة ماء الحياة، تفعل ذلك داخلها، عن طريق وعيها الداخلي. هل استخدمت وعيك هذا لفحص دمه؟».

قالت چيسيكا: «دمه كدم أيّ فرمني، متكيِّف تمامًا مع الغذاء والحياة هنا».

جلست تشاني على عقبيها، مغرقةً مخاوفها بأفكارها وهي تتأمّل ملامح پول. كانت هذه حيلة تعلّمتها من مراقبة الأُمَّهات الموقّرات، إذ يمكن إخضاع الوقت لخدمة العقل، إن ركّز المرء جُلّ انتباهه.

في النهاية قالت تشاني: «أتوجد صانعة هنا؟».

قالت چيسيكا وقد تسلّل الضجر إليها: «تُوجد صانعات كثيرة، نكاد لا نخلو منها هذه الأيّام، فكل نصر يتطلّب مباركة خاصة، وكل طقس قبل الإغارة يـ...».

قاطعتها تشاني قائلة: «لكن پول اعتزل تلك المراسم ونأى بنفسه عنها».

أومأت چيسيكا لنفسها، متذكّرةً مشاعر ابنها المتضاربة تجاه عقار الاسپايس وما يكثّفه من إدراك استبصاري.

سألت چيسيكا: «كيف عرفت هذا؟».

- «الكلام يتناثر».

قالت چيسيكا بمرارة: «كثر اللغط».

قالت تشاني: «اجلبي لي ماء صانعة خام».

تصلّبت چيسيكا للنبرة الآمرة في صوت تشاني، ثم لاحظت التركيز الشديد البادي على الشابة، فقالت: «في الحال»، وخرجت عبر الستائر لإرسال أحد رجال المياه.

جلست تشاني تحدّق إلى پول وتفكّر: *إن كان قد حاول تجربة الأمر، وهذا من الأمور التي قد تغريه تجربتها، فـ...*

ركعت چيسيكا إلى جوار تشاني، حاملةً إبريقًا عاديًا من أباريق المعسكر، ولكن هجمة رائحة السُّمّ المنبعثة منه على منخري تشاني كانت حادَّة. غمست تشاني إصبعها في السَّائل، وقرّبتها من أنف پول.

تجعَّد جلد أنفه قليلًا. ثم ببطء، اتَّسعت فتحتا منخاره.

فلتت شهقة من چيسيكا.

مسَّت تشاني بإصبعها المبلَّلة شفة پول العُليا.

فسحب شهيقًا عميقًا كالنشيج.

سألت چيسيكا: «ماذا يحدث؟».

قالت تشاني: «ابقي هادئة، عليك أن تحوّلي كمّية صغيرة من الماء المقدَّس. أسرعي!».

دون أن تسأل، ولأنها ميَّزت نبرة الوعي في صوت تشاني، رفعت چيسيكا الإبريق إلى فمها، ورشفت رشفة صغيرة.

فُتحت عينا پول على اتّساعهما، وحدّق بهما إلى تشاني.

وقال: «ليس من الضروري أن تغيِّري الماء». كان صوته واهنًا، لكنه ثابت.

شعرت چيسيكا -ورشفة السائل على لسانها- بجسدها ينشط، ويحوِّل السُّم تلقائيًا تقريبًا. وفي حالة الانتشاء الخفيفة التي يُدخلها فيها الطقس دائمًا، شعرت بوهج الحياة ينبعث من پول كإشعاع ينطبع على حواسها.

وفي تلك اللحظة فهمت ما حدث.

قالت بغير تفكير: «لقد شربت من الماء المقدَّس!».

قال پول: «قطرة واحدة منه. مجرَّد قطرة ضئيلة جدًا».

سألته: «وكيف ترتكب حماقةً كهذي؟».

قالت تشاني: «إنه ابنك».

نظرت إليها چيسيكا شزرًا.

ارتسمت ابتسامةٌ نادرةٌ دافئةٌ ملأى بالتفهُّم على شفتي پول، وقال: «أصغي إلى حبيبتي، أصغي إليها يا أُمّي، فهي تعرفني جيِّدًا».

قالت تشاني: «لا بُدَّ له من تجريب ما باستطاعة الآخرين فعله».

قال: «حين أخذت القطرة في فمي، حين ذقت مذاقها وشممت رائحتها، حين عرفت ما تُحدِثه بي، حينها أدركت أنني قادرٌ على فعل الشيء الذي فعلتِه أنت. تتحدَّث مشرفات البني چيسيرِت العُلى عن الكويزاتس هاديراك، لكنهن يعجزن عن توقُّع الأماكن الكثيرة التي كنت فيها. في تلك الدقائق القليلة...»، ثم بتر عبارته، ونظر إلى تشاني بتقطيبة حائرة: «تشاني؟ كيف جئت إلى هنا. من المفترض أن تكوني... لِمَ أنت هنا؟».

حاول رفع نفسه مرتكزًا على كوعيه ليعتدل، لكن تشاني دفعته برفق إلى الخلف.

قالت: «استرح يا حبيبي أصول، أرجوك».

قال: «أشعر بوهن شديد»، ثم مشَّط الحجرة ببصره، وسأل: «منذ متى وأنا هنا؟».

قالت چيسيكا: «أنت في غيبوبة عميقة منذ ثلاثة أسابيع، بدوت فيها كأن جذوة حياتك انطفأت».

- «لكنني كنت... لقد أخذت القطرة منذ لحظات و...».

قالت چيسيكا: «لحظات بالنسبة إليك، وثلاثة أسابيع خوف بالنسبة إليَّ».

قال پول: «كانت مجرَّد قطرة، لكنني غيَّرتها، غيَّرت ماء الحياة»، وقبل أن تتمكَّن تشاني أو چيسيكا من إيقافه، غمس يده في الإبريق الذي وضعاه بجواره على الأرض، ووضع اليد التي تقطر في فمه، وابتلع ما في راحة يده من سائل.

صرخت چيسيكا: «پول!».

أمسك بيدها، مواجهًا إيَّاها بابتسامةٍ مريعة، واقتحم ذهنها بوعيه.

لم تكن الصلة التي انعقدت رقيقةً أو تتَّسم بالمشاركة والاحتواء كما كان الأمر مع عالية ومع الأُمِّ الموقَّرة في الكهف، بيد أنها كانت صلةً حقيقيةً: شعورًا باقتسام الكيان نفسه. زلزلتها التجربة، وأضعفها، فانكمشت متكوِّرةً داخل ذهنها خوفًا منه.

قال بصوتٍ عالٍ: «تتحدثين عن مكانٍ تعجزن عن دخوله؟ مكان لا تقوى الأُمُّ الموقَّرة على مواجهته، أريه لي».

هزَّت رأسها نافية، مرتعدةً من مجرَّد الفكرة.

صاح آمرًا: «أريه لي!».

- «لا!».

غير أنها لم تستطع التملُّص منه. قهرتها قوّته الرهيبة، فأغمضت عينيها وركّزت داخليًا، إلى الاتّجاه المظلم.

تدفّق وعي پول من حولها ثم عبرها، ومنه إلى داخل الديجور. رأت چيسيكا لمحةً خاطفةً للمكان قبل أن ينغلق عقلها على نفسه من الهلع. ودون أن تعرف السبب، راح كيانها كله يرتجف من هول ما رأته. كان حقلًا تعصف به رياح ويتّقد فيه شرر، وتتمدّد فيه حلقات من الضوء وتتقلّص، مكان تتدفّق فيه صفوف من أشكالٍ بيضاء منتفخة فوق وتحت الأضواء وحولها، يدفعها ظلام ورياح آتيان من العدم.

في النهاية، فتحت عينيها، ورأت پول يحدّق إليها. كان ما زال ممسكًا بيدها، لكن الصِّلة الرهيبة بينهما كانت قد انتهت. هدأت من روعها، ثم ترك پول يدها، فشعرت كأن عكّازًا تتّكئ عليه قد انتُزع منها. ترنّحت بقوّة وكادت تسقط لولا أن هبّت تشاني لإسنادها.

قالت تشاني: «أُمّنا! ما بك؟».

همست چيسيكا: «أنا متعبة.. متعبة جدًا».

قالت تشاني: «تعالي»، وساعدتها على الجلوس على وسادة قرب الجدار.

اطمأنّت چيسيكا لذراعي تشاني الفتيّتين القويّتين، فتشبّثت بها.

سألتها تشاني: «هل رأى ماء الحياة حقًا؟»، وحرّرت نفسها من قبضة چيسيكا.

همست چيسيكا: «أجل رآه»، وعقلها لا يزال يحوم ويموج من دوار الاتِّصال. كان الأمر أشبه بالخطو على أرض صلبة بعد أسابيع من الإبحار في يمٍّ هائج. شعرت بأن الأُمَّ الموقَّرة العجوز -وكل الأخريات- يستيقظن داخلها ويسألن: «ما هذا؟ ما حدث؟ ما ذلك المكان؟».

وفي خضم ذلك كله، أدركت أن ابنها بالفعل هو الكويزاتس هاديراك، الشخص القادر على أن يكون في أماكن عِدَّة في الوقت نفسه. إنه الحقيقة الخارجه من رحم أحلام البِني چيسيرِت، وهذه الحقيقة لم تُرحها.

سألتها تشاني: «ماذا حدث؟».

هزَّت چيسيكا رأسها.

قال پول: «داخل كلٍّ منا قوَّة قديمة تأخذ وقوَّة قديمة تمنح. لا يجد الرجل صعوبة تُذكر في مواجهة المكان الذي بداخله الذي تسكنه القوَّة الآخذة، لكن يكاد يكون من المستحيل له رؤية القوَّة المانحة دون أن يتحوَّل إلى شيء آخر ولا يعود رجلًا. بالنسبة إلى النساء، الوضع معكوس».

رفعت چيسيكا بصرها، فوجدت تشاني تحدِّق إليها وهي تصغي إلى پول.

سأل پول: «أتفهمينني يا أُمَّاه؟».

لم تقو إلَّا على الإيماء.

قال پول: «هذه الأشياء بدائية وبالغة القِدم داخلنا إلى درجة أنها راسخة في كل خلية من خلايا أجسادنا. هذه القوى تشكِّلنا. يمكنك أن تقولي لنفسك: "أجل، يسهل عليَّ فهم كيف يمكن لشيءٍ كهذا أن يكون"، بيد أنك حين تنظرين داخل ذاتك، وتواجهين

قوى حياتك الخام دون حجاب يحميك منها، ستفهمين خطورتها عليك، وسترين أن تلك القوى قادرة على سحقك، فأكبر خطر على الجبلة المانحة هي القوَّة التي تأخذ، وأكبر خطر على الجبلة الآخذة هي القوَّة التي تهب. يسهل الانهزام أمام العطاء مثلما يسهل الانهزام أمام الأخذ».

سألت چيسيكا: «وأنت يا بني، هل أنت من المانحين أم الآخذين؟».

قال: «أنا نقطة الارتكاز، لا يمكنني المنح دون أخذ، ولا يمكنني الأخذ دون...»، ثم بتر عبارته ونظر إلى الجدار الذي عن يمينه.

شعرت تشاني بنسمة هواء على وجنتيها، فالتفتت ورأت الستائر تُغلق.

قال پول: «إنه عُثيم، كان ينصت».

بتقبُّلها كلماته، مسَّ تشاني شيئًا من الإدراك الاستبصاري الذي يؤرِّق پول، فأدركت ما سيحدث كما لو كان قد حدث بالفعل. سيحكي عُثيم عمَّا رآه وسمعه، وسيتناقل الآخرون القصَّة حتى تنتشر كالنار في الهشيم. سيقولون إن پول المؤدِّب ليس كباقي الرجال، وستنتفي الشكوك. إنه رجلٌ، لكنه قادر على الرؤية عبر ماء الحياة كما ترى الأُمُّ الموقَّرة. إنه حقًّا لسان الغيب.

قالت چيسيكا: «لقد رأيت المستقبل يا پول، هل ستخبرنا بِمَ رأيت؟».

قال پول: «لم أر المستقبل، بل الحاضر»، ثم جاهد ليعتدل جالسًا، وأشار إلى تشاني كي لا تتحرَّك من مكانها حين همَّت لمساعدته: «سفن النقابة تملأ الفضاء المحيط بأرَّاكس».

ارتعدت چيسيكا من اليقين الذي يتحدَّث به.

قال بول: «الإمبراطور الپاديشاه بنفسه على متن إحداها»، ونظر إلى سقف صومعته الصخري وأردف: «بصحبة عرَّافة الحقيقة الأثيرة إلى قلبه، وخمسة فيالق ساردوكار. البارون العجوز ڤلاديمير هاركونن بالأعلى كذلك، وإلى جواره ظفير حوَّاط، وسبع سفن مكتظَّة عن آخرها بكل جندي استطاع حشده. كل عائلة من العائلات النبيلة لديها سفنٌ مقاتلة فوق رؤوسنا الآن... تنتظر».

هزَّت تشاني رأسها، عاجزةً عن إبعاد نظرتها عن بول، وقد امتلأت رهبةً من غرابته ونبرة صوته الخافتة والطريقة التي ينظر إليها بها.

ابتلعت چيسيكا ريقها بصعوبة بسبب جفاف حلقها، وقالت: «ماذا ينتظرون؟».

نظر بول إليها: «ينتظرون أن تأذن لهم النقابة بالهبوط، فالسفينة التي تهبط على أرَّاكس دون إذن النقابة لا تغادر سطحه إلى الأبد».

سألته چيسيكا: «إذًا النقابة تحمينا؟».

- «تحمينا! النقابة هي من تسبَّب في تلك الحملة بنشرها حكايات عمَّا نقوم به هنا، وبتخفيض أجرة نقل الجنود إلى أقلِّ سعرٍ، ما سمح حتَّى لأفقر العائلات بالجلوس فوق رؤوسنا الآن في انتظار نهبنا».

لاحظت چيسيكا غياب المرارة عن صوته، وتعجَّبت لهذا. لم يكن ينتابها شكٌّ في صحَّة كلامه، فقد كان فيه نفس الحدَّة التي كانت فيه في الليلة التي كشف لها فيها عن المسار المستقبلي الذي قادهما إلى الفرمن.

أخذ بول نفسًا عميقًا وقال: «أُمِّي، عليك أن تُغيِّري لنا بعض الماء، فسنحتاج إلى العامل المحفِّز. تشاني، أرسلي قوَّةً

استكشافية للعثور على كتلة اسپايس أوَّلية. أتعلمين ماذا سيحدث إذا وضعنا كمِّية من ماء الحياة على كتلة اسپايس أوَّلية؟».

تدبَّرت چيسيكا كلماته، ثم فهمت معناها فجأةً، فشهقت قائلة: «پول!».

قال پول: «سينتج ماء الموت! وسيكون كالتفاعل المتسلسل»، ثم أشار إلى الأرضية وأردف: «سينشر الموت بين الصَّانعات الصغيرة، قاضيًا على طور دورة الحياة التي تشمل الاسپايس والديدان الصَّانعة. سيصبح أرَّاكس خرابًا حقيقيًا، بلا اسپايس أو ديدان».

غطَّت تشاني فمها بإحدى يديها مصدومةً من هذا التجديف المتدفِّق من بين شفتي پول.

قال پول: «من في استطاعته تدمير شيء، يكون هو المتحكِّم الحقيقي به، ونحن قادرون على تدمير الاسپايس».

همست چيسيكا: «وما الذي يكفُّ يدَ النقابة؟».

قال پول: «إنهم يبحثون عني. فكِّري في ذلك! أفضل ملَّاحي النقابة، أولئك الرجال القادرين على سبر أغوار الزمن للعثور على أأمن المسارات الفضائية كي تسلكها سفن الهايلاينر السريعة، كلهم يبحثون عني لكنهم عاجزون عن إيجادي، فأيُّ خوفٍ يرجف قلوبهم! إنهم يعرفون إن سرُّهم في حوزتي!»، ورفع پول يده المضمومة وأردف: «من دون الاسپايس هم عميان!».

استطاعت تشاني التحدُّث: «قلت إنك ترى الحاضر!».

استلقى پول إلى الوراء، باحثًا في الحاضر المنتشر الذي تمتدُّ حدوده لتلمس المستقبل والماضي، محاولًا -بصعوبة- الحفاظ على بريق وعيه الاستبصاري مع خفوت وانسحاب إشراقة

الاسـبايس.

قـال لهـا : «اذهبـي وافعلـي كمـا أمـرتـك، فالمسـتقبل يـزداد ضـبابيـةً أمامـي وأمـام النقابـة. مجـالات الرؤيـة تضيـق، وكل شـيء يتركّـز هنـا حيث يوجـد الاسـبايس، حيـث لـم يجـرؤوا علـى التدخّـل مـن قبـل، لأن تدخُّلهـم يعنـي خسـارتهم لمـا يجـب أن يحصلـوا عليـه. لكنهـم الآن مسـتميتون ويائسـون، فكلّ الطـرق نهايتهـا ظـلام دامـس».

ثـم بـزغ فجـر اليـوم الـذي صـار فيـه أرَّاكـس محـور عجلـة الكـون، واسـتعدَّت العجلـة للـدوران.

من كتاب «صحوة أرَّاكس» للأميرة إيرولان.

همس ستيلجار: «انظر إلى حجم هذا الشيء!».

كان پـول مستلقيًا إلـى جـواره داخـل شـقٍّ صخـري طولـي مرتفـع علـى حافَّـة الجـدار الحامـي، وعينـه ثابتـة علـى عدسـة تلسـكوبٍ فرِمنـي. كانت العدسـة الزيتيـة مركَّـزةً على مركبـة فضائيـة خفيفـة مكشـوفةً فـي ضـوء الفجـر فـي الحـوض أسـفلهم. كان جانـب السـفينة المواجـه للشـرق يتـلألأ فـي ضـوء الشَّـمس الباهـت، أمَّـا الجانـب المواجـه للظلِّ فبـدت فيـه فتحـات صفـراء تظهـر منهـا كـرات الإنـارة الليليـة. خلـف المركبـة، قبعـت مدينـة أراكيـن بـاردة ومتلألئـة فـي ضـوء الشـمس الشـمالية.

علـم پول أن مـا أثـار انبهـار ستيلجار لـم يكن المركبـة الخفيفة، بل المنشـأة العسـكرية، التـي لـم تكـن المركبـة سـوى قطعتهـا المركزيـة. المعسـكر المعدنـي الكبيـر، الـذي يرتفـع طوابـق عِـدَّة، ويمتـدُّ فـي دائـرة طولهـا ألـف متـر مـن قاعـدة المركبـة. الخيمـة المكوَّنـة مـن صفائـح معدنيـة متشـابكة، التـي تشـكِّل مقـرَّ الإقامـة المؤقـت لخمسـة جحافـل سـاردوكار ولجلالتـه، الإمبراطـور الپاديشـاه شـادام الرَّابـع.

مـن موقعـه إلـى يسـار پـول، قـال جيرنـي هاليـك: «عـددت تسـعة طوابـق، لا بُـدَّ أن المعسـكر يـأوي عـددًا كبيـرًا مـن السَّـاردوكار».

قال پول: «خمسـة فيالق».

همس ستيلجار: «نـور الصبـح آخـذ فـي الازديـاد. لا نحـب كشـفك لموقعـك هكـذا يـا مـؤدِّب. لنتـوارَ الآن بيـن الصخـور».

قال بول: «أنا بأمانٍ تام هنا».

قال جيرني: «هذه السفينة مسلَّحة بأسلحة مقذوفات».

قال بول: «يظنُّون أننا نرتدي دروع الطاقة. لن يهدروا رصاصة واحدة على ثلاثي مجهول حتَّى لو رأونا».

حرَّك بول التلسكوب ليمسح جدار الحوض البعيد، فرأى الجروف الصخرية المنخربة، والانهيارات التي تحوي خلفها قبور كثير من جنود أبيه، وانتابه إحساسٌ مؤقَّت باكتمال الدائرة، وبأن أرواح أولئك الرجال تنظر إليهم في هذه اللحظة. لقد وقعت كل حصون وبلدات الهراكنة في قبضة الفرمِن، أو حُوصرت وحُرمت من الإمدادات، فصارت كسيقان نباتٍ قطعت وتُركت لتذبل. لم يبق للعدو إلَّا هذا الحوض ومدينته.

قال ستيلجار: «قد يقدمون على طلعة جوِّية بإحدى الثوبترات إن رأونا».

قال بول: «دعهم يفعلون ذلك، لقد ادَّخرنا ثوبترات كثيرة لهذا اليوم... كما نعلم أن هناك عاصفة تقترب».

ثم أدار التلسكوب إلى طرف مهبط ميناء أراكين البعيد، إلى فرقاطات الهراكنة المصطفَّة هناك، التي ترفرف أسفلها رايات شركة تشوم من سارياتها المغروسة في الأرض. وفكَّر في مدى اليأس الذي وصلت إليه النقابة الذي أجبرها على السماح لهاتين المجموعتين بالهبوط، والحفاظ على باقي القوَّات في الفضاء. كانت النقابة أشبه برجلٍ يختبر الرمال بإصبع قدمه ليجسَّ حرارتها قبل أن ينصب خيمته.

سأل جيرني: «هل من جديد يمكن رؤيته من هنا؟ علينا الاحتماء، فالعاصفة تقترب».

أعـاد پـول اهتمامـه إلـى المنشـأة العسـكرية العملاقـة، وقـال: «لقـد أحضـروا نسـاءهم معهـم، وخدمهـم وحشـمهم. آهٍ يـا عزيـزي الإمبراطـور، يـا لثقتـك بنفسـك!».

قـال سـتيلجار: «أحدهـم قـادم عبـر الطريـق السّـري، رُبّمـا عـاد غُنيـم وكُريـة».

قال پول: «حسنًا يا ستيل، سنعود».

لكنـه ألقـى نظـرة أخيـرة عبـر التلسـكوب، فاحصًـا البطحـاء التـي تريـض فيهـا سـفن حربيـة طويلـة، والمعسـكر المعدنـي المتلألـئ، والمدينـة الصامتـة، وفرقاطـات مرتزقـة الهراكنـة. ثـم انزلـق إلـى الخلـف هابطًـا عبـر منحـدر صخـري، وأخـذ مكانـه علـى التلسـكوب أحـد الفدائييـن.

بلـغ پـول وهـدةً ضحلـةً علـى سـطح الجـدار الحامـي، منخفضًـا أرضيًـا يبلـغ قطـره نحـو ثلاثيـن متـرًا، وعمقـه نحـو ثلاثـة أمتـار، تكوينًـا صخريًـا طبيعيًـا أخفـاه الفرمـن بغطـاء مموَّه شـبه شـفاف. تجمَّعـت معـدات الاتصـالات حـول حفـرة فـي الجـدار ناحيـة اليميـن. كان الحـرس الفدائيـون منتشـرين فـي أرجـاء المنخفـض ينتظـرون أمـر المـؤدِّب بالهجـوم.

خـرج رجـلان مـن الحفـرة بالقـرب مـن أجهـزة الاتصـالات وتحدَّثـا إلـى الحـرس الواقفيـن هنـاك.

نظـر پـول إلـى سـتيلجار، وأومـأ برأسـه فـي اتِّجـاه الرجليـن وقـال: «تلقَّـى تقريرهمـا يـا سـتيل».

تحرَّك سـتيلجار لتنفيذ أمره.

ربـض پـول وظهـره إلـى الصخـرة، وشـدَّ عضلاتـه، ثـم اعتـدل. شـاهد سـتيلجار يرسـل الرجليـن مجدَّدًا عبـر الحفـرة المظلمـة فـي

الصخرة، وفكّر في الهبوط الطويل عبر ذلك النفق الضيق المؤدّي إلى قاع الحوض الذي حفروه.

اقترب ستيلجار من پول.

سأله پول: «ما الأمر البالغ الأهمية الذي فضّلا عدم إرساله في رسالة سيبلاجو؟».

قال ستيلجار: «إنهما يدخّران طيورهما للمعركة»، ثم ألقى نظرة إلى معدّات الاتصالات، وعاد إلى پول. «حتّى لو كانت موجات تلك الأجهزة مكثّفة يا مؤدّب، فمن الخطر استخدامها. يمكنهم العثور على مكانك عن طريق تحديد اتّجاه موجاتها».

قال پول: «قريبًا سينشغلون تمامًا عن البحث عني. بِمَ أفاد الجنديين؟».

- «أطلقنا سراح جنديي السَّاردوكار اللذين نحتجزهما على الحافة المنخفضة قرب الفلق القديم، وهما في طريقهما الآن إلى سيّدهما. قاذفات الصواريخ وأسلحة المقذوفات الأخرى في أماكنها، والجنود انتشروا كما أمرت. مجرّد تقرير روتيني».

نظر پول في أرجاء التجويف الضحل، وتأمّل رجاله في الضوء الخافت المتسرِّب عبر غطاء التمويه. شعر بدبيب الوقت يزحف كحشرة تشقُّ طريقها عبر صخرة مكشوفة.

قال پول: «سيستغرق جنديا السَّاردوكار اللذين أطلقنا سراحهما بعض الوقت مشيًا على الأقدام قبل أن يتمكّنا من التلويح لإحدى حاملات الجنود. هل هما مراقبان؟».

قال ستيلجار: «إنهما تحت المراقبة».

من مكانه جوار پول، تنحنح جيرني هاليك قائلًا: «أليس من الأفضل أن نلجأ إلى مكانٍ آمن؟».

قال بول: «لا مكان آمن. هل تقرير الطقس ما زال مبشِّرًا؟».

قال ستيلجار: «عاصفة هائلة تقترب. ألا تشعر بها يا مؤدِّب؟».

قال بول: «الهواء يُنبِّئ بها بالفعل، لكنني أحب اليقين المستمد من قراءة أوتاد الرياح».

قال ستيلجار: «ستضرب العاصفة في غضون ساعة»، وأومأ نحو الفجوة المطلَّة على معسكر الإمبراطور وفرقاطات الهراكنة وأضاف: «هم أيضًا يعلمون ذلك. فلا أثر لثوبتر في السماء، وكل شيء على الأرض محزوم ومربوط. لقد تلقَّوا تقريرًا عن الطقس من أصدقائهم الرَّابضين في الفضاء».

سأله بول: «هل رصدتم أي طلعات استطلاعية أخرى؟».

قال ستيلجار: «لا شيء منذ هبوطهم الليلة الماضية. إنهم يعلمون بوجودنا هنا، وأظن أنهم ينتظرون الآن اختيار اللحظة المواتية للهجوم».

قال بول: «نحن من سيختار اللحظة المواتية».

رفع جيرني بصره نحو السماء، وقال متذمِّرًا: «إن أعطونا الفرصة».

قال بول: «سيبقى الأسطول في الفضاء».

هزَّ جيرني رأسه.

قال بول: «ليس لديهم خيار. بإمكاننا تدمير الاسپايس. لن تجرؤ النقابة على المخاطرة بذلك».

قال جيرني: «اليائسون هم أخطر الناس».

سأله ستيلجار: «أولسنا يائسين؟».

عبس جيرني في وجهه.

نبَّهه پول: «أنت لم تعش حلم الفرمِن. ستيل يفكِّر في كل الماء الذي أنفقناه على الرُّشى، في سنوات الانتظار الإضافية التي زادت جراء ذلك قبل ازدهارة لأرَّاكس. إنه لا ...».

زمجر جيرني عابسًا.

سأل ستيلجار: «لِمَ هو مغتمٌ هكذا؟».

قال پول: «دائمًا ما يغتم جيرني قبل المعارك. إنه الحسُّ الفكاهي الوحيد الذي يسمح به لنفسه».

شاعت ابتسامة وحشية في وجه جيرني بدا منها بياض أسنانه: «ما يغمُّني هو التفكير في أرواح أولئك الهراكنة المساكين التي سنزهقها قبل أن تتوب».

قهقه ستيلجار: «إنه يتكلَّم كالفدائيين».

قال پول: «وُلِد جيرني مغوارًا»، وفكَّر: *أجل، فليشغلا ذهنيهما بخفيف الكلام قبل أن نختبر صلابة معدننا أمام تلك القوَّة القابعة في البطحاء*، ثم ألقى نظر عبر الفجوة في الجدار الصخري وعاد إلى جيرني، ووجد أن المحارب التروبادور قد استأنف عبوسه.

غمغم پول: «القلق يستنزف القوَّة، أنت من أخبرني بهذا يومًا يا جيرني».

قال جيرني: «ما يقلقني يا مولاي الدوق هي فكرة لجوئنا إلى الأسلحة الذرِّية. إن استخدمت الأسلحة الذرية لفتح ثغرة في الجدار الحامي فـ...».

قاطعه پول قائلًا: «لن يجرؤوا على استخدام أسلحتهم الذريَّة ضدَّنا، لنفس السبب الذي يجعلهم غير قادرين على المخاطرة بتدميرنا مصدر الاسپايس».

- «ولكن أمر المنع...».

صاح پول: «أمر المنع! ما يمنع العائلات النبيلة من قصف بعضها بعضًا بالأسلحة الذرِّية هو الخوف لا أمر المنع. نصُّ المعاهدة الكبرى واضح تمامًا: "عقوبة استخدام الأسلحة الذرِّية ضد أهدافٍ بشرية هي محو الكوكب". ونحن سنستخدمها لتفجير الجدار الحامي لا البشر».

قال جيرني: «الشعرة الفاصلة بينهما رفيعة جدًّا».

قال پول: «المُدقِّقون المُوَسوسون أعلانا سيرحِّبون بأيِّ شعرة»، وأشاح بوجهه بعيدًا متمنِّيًا لو أنه ىشعر بهذه الثِّقة فعلًا، ثم قال بعد هنيهة صمت: «ماذا عن سكَّان المدينة. هل اتَّخذوا مواقعهم بعد؟».

غمغم ستيلجار: «أجل».

نظر پول إليه: «ما الذي يؤرِّقك؟».

قال ستيلجار: «لست مع الثقة التَّامة في سكَّان المدن».

قال پول: «أنا نفسي كنت من سكَّان المدن يومًا».

- «تعرف أنني لم أقصد يا مؤدِّب...».

- «أعرف ما قصدته يا ستيل. لكن الاختبار الحقيقي لمعدن الإنسان لا يكمن في ما تظن أنه سيفعل، بل في ما يفعل بالفعل. في عروق سكَّان المدينة هؤلاء تجري دماء الفرمِن، كل ما في الأمر أنهم لم يتعلَّموا بعد كيفية التحرُّر من قيودهم. لكننا سنعلِّمهم».

أومأ ستيلجار وقال بنبرة حزينة: «إنها عادات اكتسبها المرء طوال حياته، فعلى السهل الجنائزي تعلَّمنا أن نحتقر سكَّان الحضر».

ألقى پول نظرة إلى جيرني، فوجده يدقِّق في ستيلجار.

- «أخبرنا يا جيرني، لماذا طرد السَّاردوكار سكَّان المدينة من منازلهم؟».

- «إنها حيلة قديمة يا مولاي. ظنُّوا أنهم بهذا يثقلون كاهلنا باللاجئين».

قال بول: «لقد مرَّ زمنٌ طويل منذ أن كانت حروب العصابات مؤثِّرةً، حتَّى أن الجبابرة نسوا طرائق قتالها. لقد ارتكب السَّاردوكار أمورًا كثيرةً أضرَّت بهم وصبَّت في مصلحتنا. أسروا بعضًا من نساء المدن للترفيه عن أنفسهم، وزيَّنوا راياتهم الحربية برؤوس الرجال الذين عارضوهم، وأذكوا الكراهية في نفوس أُناس كانوا بغير هذا سينظرون إلى المعركة القادمة على أنها مجرَّد مصدر إزعاج لهم، وظرف عابر يحتمل معه أن تحلَّ مجموعة من السَّادة محل أخرى. السَّاردوكار ساعدونا في تجنيد الناس يا جيرني».

قال ستيلجار: «سكان المدينة يبدون متلهِّفين للمعركة بالفعل».

قال بول: «الكراهية فيهم طازجة وواضحة، لهذا السبب نستخدمهم كقوات طليعة».

قال جيرني: «المذبحة التي سيتعرَّضون لها ستكون مفجعة»، فأومأ ستيلجار موافقًا.

قال بول: «لقد أخبرناهم بالعواقب، وهم يعرفون أن كل ساردوكار سيقتلونه سيخفِّف عنا الضغط. لقد صار لهم هدف يموتون من أجله يا سادة. لقد اكتشفوا أنهم شعب، وبدؤوا صحوتهم».

صدرت غمغمة تعجُّب من المراقب عند التلسكوب، فتحرَّك بول إلى الشقِّ الصخري وسأل: «ماذا ترى؟».

همس المراقب: «ضجَّة كبيرة عند الخيمة المعدنية العملاقة يا مؤدِّب. جاءت مركبة أرضية مسرعة من ناحية حافَّة الجدار

الغربيـة، فسـاد الهـرج والمـرج كأن صقـرًا انقـض علـى عُـشٍّ طيـور حجـل».

قال پول: «ها قد وصل أسيرينا».

قـال المراقـب: «لقـد أحاطـوا المهبـط برمَّتـه الآن بـدرع طاقـة. أرى الهـواء يتراقـص حتَّـى نهايـة سـاحة التخزيـن حيـث يحتفظـون بالاسـپايس».

قـال جيرنـي: «الآن يعرفـون حقيقـة مـن يقاتلـون. دع وحـوش الهراكنـة يرتجفـون، دع الرعـب ينهـش صدورهـم حيـن يكتشـفون أن سـلالة آل آتريديـز لـم تمـت بعـد!».

قـال پـول للفدائـي القائـم علـى التلسـكوب: «راقـب سـارية العلـم أعلـى سـفينة الإمبراطـور، إن رُفعـت رايتـي عليهـا...».

قال جيرني: «هذا لن يحدث».

لاحـظ پـول العبـوس الحائـر علـى وجـه سـتيلجار فقـال: «إذا اعتـرف الإمبراطـور بحقِّـي فـي الكوكـب، فسيشـير إلـى ذلـك بإعـادة رفـع الرايـة الآتريديزيـة علـى أرَّاكـس. إن فعـل هـذا سـننفِّذ الخطَّـة الثانيـة، وسـنهاجم الهراكنـة فحسـب. لـن يتدخَّـل السَّـاردوكار، وسـيتركوننا نصفِّـي المسـألة فـي مـا بيننـا».

قـال سـتيلجار: «لا خبـرة لـي فـي هـذه السياسـات الأجنبيـة. لقـد سـمعت بهـا، لكـن يبـدو مـن غيـر المرجَّـح أن...».

قال جيرني: «لا تحتاج إلى خبرة لتعرف ما سيفعلونه».

قـال المراقـب: «إنهـم يرفعـون علمًـا جديـدًا علـى السـفينة الكبيـرة. العلم لونـه أصفـر... وفـي مركـزه دائـرة سوداء وحمراء».

قال پول: «تفكيرٌ ذكيٌّ. علم شركة تشوم».

قـال الحـارس الفدائـي: «إنـه نفـس العلـم الـذي ترفعـه السـفن الأخـرى».

قال ستيلجار: «لا أفهم».

قـال جيرنـي: «تفكيـرٌ ذكـيٌّ بالفعـل، فلـو كان قـد رفـع الرايـة الآتريديزيـة، لأُرغِم علـى قبـول مـا يعنيـه هـذا مـع كثـرة الشـهود. مـن ناحيـةٍ أخـرى كان بإمكانـه رفـع رايـة الهراكنـة، وهـو مـا كان سـيُعدُّ إعـلانَ حـرب صريـح. ولكـن لا، لقـد رفـع رايـة شـركة تشـوم، وهـو بهـذا يخبـر مـن بالأعلـى...»، وأشـار جيرنـي إلـى الفضـاء: «أنـه فـي صـفِّ الريـح. إنـه يعلـن صراحـة بأنـه لا يهتـم إن كان الموجـود هنـا آتريديـزي أم لا».

سأل پول: «كم تبقَّى قبل أن تضرب العاصفة الجدار الحامي؟».

اسـتدار سـتيلجار مبتعـدًا، وتشـاور مـع أحـد الفدائييـن فـي التجويـف، ثـم عـاد يقـول: «قريبًـا جـدًّا يـا مـؤدِّب، أقـرب ممَّـا ظننَّـا. إنهـا عاصفـةٌ عاتيـةٌ، رُبَّمـا أعتـى ممَّـا كنـت تريـد».

قـال پـول: «إنهـا عاصفتـي»، ولاحـظ الصَّمـت المنبهـر علـى وجـوه الفدائييـن الذيـن سـمعوه: «حتَّـى لـو هـزَّت الكوكـب بأسـره، فلـن تكـون أعتـى ممَّـا كنـت أريـد. هـل سـتضرب الجـدار الحامـي مباشـرةً؟».

قال ستيلجار: «ستكون قريبةً جدًّا بما لا يشكِّل فارقًا».

جـاء سـاعٍ برسـالة مـن الحفـرة التـي تقـود إلـى الحـوض: «دوريـات السَّـاردوكار والهراكنـة تتراجـع يـا مـؤدِّب».

قـال سـتيلجار: «إنهـم يتوقَّعـون أن تسـكب العاصفـة رمـالًا كثيـرة إلـى الحـوض سـتتعذَّر معهـا الرؤيـة، ويظنُّـون أننـا سـنقع فـي الورطـة نفسـها».

قـال پـول: «أخبـر رجـال مدفعيتنـا أن يضعـوا نصـب أعينهـم علـى

أهدافهم قبل أن تتعذَّر الرؤية. عليهم أن يصيبوا مقدِّمة كل واحدة من تلك السفن ما إن تدمِّر العاصفة دروع الطاقة». ثم تحرَّك إلى جدار التجويف الصخري، وأزاح طيَّة من غطاء التمويه ونظر إلى السماء. رأى هبَّات الرمال الملتوية كذيول الخيل على خلفية السماء القاتمة. أعاد پول الغطاء إلى مكانه وقال: «ابدأ إرسال رجالنا إلى أسفل يا ستيل».

سأله ستيلجار: «ألن تأتي معنا؟».

قال پول: «سأنتظر هنا قليلًا مع الفدائيين».

هزَّ ستيلجار كتفيه إلى جيرني في تفهُّم، وتحرَّك إلى الحفرة في الجدار الصخري، وغاب في ظلامها.

قال پول: «سأترك لك الزناد الذي سيفجِّر جانبًا من الجدار الحامي. هل ستفعلها؟».

– «سأفعلها».

أشار پول إلى أحد ضُبَّاط الفدائيين: «عُثيم، ابدأ تحريك دوريات التفتيش بعيدًا عن منطقة الانفجار، عليهم الخروج من هناك قبل أن تضرب العاصفة».

انحنى الرجل وتبع ستيلجار.

مال جيرني على الشق الصخري، وتكلَّم إلى القائم على التلسكوب: «ركِّز انتباهك على الجدار الجنوبي. سيظلُّ بلا دفاعات حتَّى نفجِّره».

أمر پول: «أرسل سييلاجو بإشارة التوقيت».

قال المراقب: «بعض المركبات الأرضية تتحرَّك نحو الجدار الجنوبي، وبعضها يجرِّب استخدم أسلحة مقذوفات. رجالنا يستخدمون الدروع الجسدية كما أمرت. المركبات الأرضية

توقَّفت».

في الصَّمت المفاجئ الذي تلى ذلك، سمع پول شياطين الرياح تحوم فوق الرؤوس: إنها إرهاصات العاصفة. بدأت الرمال تنجرف إلى تجويفهم عبر الفتحات الموجودة في الغطاء، ثم هبَّت ريح مفاجئة انتزعت الغطاء بعيدًا.

أشار پول لفدائييه بالاحتماء، واتَّجه إلى الرجال الجالسين أمام أجهزة الاتِّصالات قرب فوَّهة النفق، وظلَّ جيرني ملازمًا له. ربض پول إلى جوار رجال الإشارات اللا سلكية.

قال أحدهم: «ما أعتاها من عاصفة يا مؤدِّب!».

رفع پول بصره إلى السماء المعتمة وقال: «جيرني، أعط أمرًا لمراقبي الجدار الجنوبي بالانسحاب». واضطر إلى تكرار أمره، رافعًا صوته فوق ضجيج العاصفة المتزايد.

استدار جيرني لتنفيذ الأمر.

أحكم پول وضع قناع الوجه، وشدَّ أربطة قلنسوة البذلة.

عاد جيرني.

لمس پول كتفه، وأشار إلى المفجِّر الموضوع عند فتحة النفق خلف رجال الإشارة. دخل جيرني النفق، ووقف هناك واضعًا يده على الزناد، مثبِّتًا بصره على پول.

قال رجل الإشارة القريب من پول: «لا نتلقَّى أيَّ رسائل. التشويش الاستاتيكي كبير».

أومأ پول، وأبقى عينه على عدَّاد التوقيت القياسي أمام رجل الإشارة. بعد هنيهة، نظر پول إلى جيرني ورفع يده، وأعاد انتباهه إلى العدَّاد الزمني الذي كان يدور دورته الأخيرة.

صاح پول: «الآن»، وأنزل يده.

ضغط جيرني زناد المفجِّر.

بدا أن ثانية كاملة مرَّت قبل أن يشعروا بزلزلة الأرض واهتزازها أسفل أقدامهم، ودوى هديرٌ آخر أُضيف إلى زئير العاصفة.

ظهر المراقب الفدائي إلى جوار پول حاملًا التلسكوب تحت ذراعه، وصاح: «اختُرق الجدار الحامي يا مؤدِّب! العاصفة تجتاحهم، ورجال مدفعيَّتنا بدؤوا القصف بالفعل».

تخيَّل پول العاصفة وهي تجتاح الحوض، وتخيَّل الشحنة الاستاتيكية التي يحملها جدار الرمال مدمِّرًا كل دروع الطاقة في معسكر الخصم.

صاح أحدهم: «العاصفة! علينا الاحتماء يا مؤدِّب!».

عاد پول إلى صوابه، شاعرًا بإبر الرمال تلدغ وجنتيه المكشوفتين، وفكَّر: نحن *ملتزمون بما بدأناه*، ثم وضع ذراعه حول كتف رجل الإشارة وقال: «اتركوا المعدَّات! المزيد منها في النفق»، ثم شعر بأنه يُجر إلى الخلف، وبالفدائيين يحيطون به ليحمونه، ثم انحشروا في فوَّهة النفق، مستشعرين الصَّمت النسبي داخله، ثم أخذوا منعطفًا ودخلوا إلى حجرة صغيرة تطفو فيها كرات إنارة، وفي نهايتها فتحة نفقٍ آخر.

جلس رجل إشارة آخر في النفق أمام معدَّاته.

قال الرجل: «التشويش الاستاتيكي كبير».

ملأت دوَّامة رملية الهواء من حولهم.

صاح پول: «اعزلوا هذا النفق!». ساد صمتٌ مفاجئ بعد صيحته فعلم أنهم تحرَّكوا لتنفيذ أمره.

سأل پول: «أما زال الطريق الهابط إلى الحوض مفتوحًا؟».

ذهب فدائي للتقصّي، وعاد يقول: «تسبَّب الانفجار في سقوط بعض الصخور، لكن المهندسين يقولون إنه ما زال مفتوحًا. إنهم يكسحون الانهيار بأشعة الليزر».

زمجر پول: «قل لهم أن يستخدموا أيديهم! ثمَّة دروع طاقة نشطة بالأسفل!».

قال الرجل: «إنهم حريصون يا مؤدِّب»، لكنه أسرع لإطاعة الأمر.

مرَّ بهم رجال إشارة كانوا في الخارج حاملين معدَّاتهم.

قال پول: «قلت لأولئك الرجال أن يتركوا معدَّاتهم!».

قال أحد فدائييه معاتبًا: «الفرمِن لا يحبُّون التخلِّي عن معدَّاتهم يا مؤدِّب».

قال پول: «الرجال أهم من المعدَّات الآن. قريبًا إمَّا سيكون لدينا معدَّات تفوق احتياجنا وإمَّا لن نحتاج إلى معدَّات على الإطلاق».

اقترب منه جيرني هاليك وقال: «سمعتهم يقولون إن طريق الهبوط مفتوح. نحن قريبون من السَّطح أكثر من اللازم يا سيِّدي في حال أن حاول الهراكنة ردَّ الضربة».

قال پول: «موقفهم لا يسمح لهم بردِّ الضربة. لقد اكتشفوا لتوِّهم أنهم تجرَّدوا من دروعهم، وأنهم عاجزين عن مغادرة أرَّاكس».

قال جيرني: «على أيِّ حال، كل شيءٍ جاهز في مركز القيادة الجديد سيِّدي».

قال پول: «إنهم لا يحتاجون إليَّ في مركز القيادة بعد، الخطَّة ستسير من دوني. علينا انتظار الـ...».

قـال رجـل الإشـارة الجالـس أمـام أجهـزة الاتّصـالات: «أتلقّـى رسـالة يـا مـؤدِّب». ثـم هـزّ رأسـه، ضـاغطًـا سـمّاعة جهـاز الاسـتقبال علـى أذُنـه، وقـال: «التشـويش الاسـتاتيكي كبيـر!». وبـدأ يخـطّ كلمـات علـى لـوحٍ أمامـه وهـو يهـزّ رأسـه، ثـم ينتظـر، ثـم يعـود فيكتـب... ثـم ينتظـر.

اقتـرب پـول مـن رجـل الإشـارة، فتراجـع الفدائيـون مفسـحين لـه المجـال، ونظـر إلـى مـا كتبـه الرجـل وقـرأ:

- «غـارة... علـى سـييتش تابـر... أسـرى... عاليـة ( )... عائـلات الـ( ) موتـى... لقـد ( ) ابـن المـؤدِّب...».

هزّ رجل الإشارة رأسـه مجدّدًا.

رفع پول بصـره فوجد جيرني يحدّق إليه.

قـال جيرنـي: «الرسـالة مشـوَّهة بسـبب التشـويش. لا يمكنـك التأكّـد مـن أن...».

قـال پـول: «ابنـي مـات»، وتأكّـد وهـو يلفظهـا مـن أنهـا الحقيقـة. «ابنـي مـات... وعاليـة أُخـذت... رهينـة». شـعر بفـراغٍ هائـل يملـؤه، كأنـه صـار هيـكلًا أجـوف بـلا عواطـف. كل شـيء يلمسـه يصيبـه المـوت والأسـى. إنـه كمـرض قـد ينتشـر فـي أرجـاء الكـون كلـه.

شـعر بحكمـة الشـيوخ تثقلـه، وبتراكـم خبـرات مـن حيـواتٍ أخـرى محتملـة لا حصـر لهـا. وبـدأ شـيءٌ بداخلـه يضحـك ويفـرك يديـه اسـتعدادًا.

وفكّـر پـول: *مـا أضـأل مـا يعرفـه الكـون عـن طبيعـة القسـوة الحقيقيـة.*

ووقف المؤدِّب أمامهم وقال: «على الرغم من أننا نحتسب الأسيرَ ميِّتًا، فهي ما زالت حيَّة، إذ إن بذرتها بذرتي، وصوتها صوتي، وبصرها ينفذ إلى أبعد حدود الممكنات. أجل، إنها تبصر حتَّى الوادي المجهول، لأنها منِّي».

من كتاب «صحوة أرَّاكس» للأميرة إيرولان.

وقف البارون ڤلاديمير هاركونن منكَّس الرأس في قاعة الاستقبال الإمبراطورية، ذلك السلاملك البيضاوي داخل خيمة معسكر الإمبراطور. بنظرات مختلسة، راح البارون يتفحَّص الغرفة ذات الجدران المعدنية وشاغليها: الضُّبَّاط النَّواكر، والغلمان الخدم، والحرس، وجنود السَّاردوكار المصطفِّين على امتداد الجدران عاقدين أيديهم وراء ظهورهم أسفل رايات المعارك الدموية الممزَّقة التي أسروها، والتي كانت مظهر الزينة الوحيد في القاعة.

تعالت أصوات من يمين القاعة، وتردَّد صداها من جنبات ممرٍّ مرتفع: «افسحوا الطريق! افسحوا الطريق لجلالته».

خرج الإمبراطور الپاديشاه شادام الرَّابع من الممر إلى قاعة الاستقبال متبوعًا بحاشيته، ووقف ينتظر إحضار عرشه متجاهلاً البارون وكل من في القاعة. أمَّا البارون فعجز عن تجاهل جلالته، وراح يتطلَّع إلى الإمبراطور بحثًا عن إشارة، عن علامة تدلُّه على الغرض من هذه الاستدعاء. وقف الإمبراطور ينتظر مشدود القامة، تبدو هيئته النحيلة أنيقة في زيِّ السَّاردوكار الرمادي المزخرف بالفضِّي والذَّهبي. ذكَّر وجهه النحيف وعيناه الباردة

البـارون بالـدوق ليتـو الراحـل منـذ زمـن طويـل. كان يتمتَّـع بـذات الملامـح الصقريـة الحـادَّة، لكـن شـعر الإمبراطـور كان أحمـر، لا أسـود، وقـد احتجـب معظمـه أسـفل خـوزة بورسـيج بلـون الأبنـوس يزيِّـن قمَّتهـا شـعار الإمبراطـور الذهبـي.

أحضـر الخـدم الغلمـان العـرش. كان كرسـيًا عملاقًـا منحوتًـا مـن قطعـة واحـدة مـن حجـر كوارتـز حجـال، لونـه أزرق مخضـر نصـف شـفَّاف، تتخلَّلـه عـروق صفـراء ناريـة. وُضِـع العـرش علـى المنصَّـة، فاعتلاهـا الإمبراطـور وجلـس عليـه.

انفصلـت عـن حاشـية الإمبراطـور امـرأةٌ عجـوزٌ ترتـدي عبـاءة سـوداء وتسـدل قلنسـوتها علـى جبهتهـا، واتَّخـذت مكانًـا لهـا خلـف العـرش، سـاندةً يدهـا علـى ظهـره المصنـوع مـن المـرو. كان وجههـا المطـلُّ مـن أسـفل قلنسـوتها أشـبه بصـورة كاريكاتوريـة لسـاحرة: وجنتـان غائرتـان، وأنـفٌ بالـغ الطـول، وبشـرة مبقَّعـة بـارزة العـروق.

هـدأ البـارون مـن روعـه حيـن رآهـا. إن حضـور الأُمِّ الموقَّرة جايس هيليـن موهيـم، عرَّافـة الحقيقـة الإمبراطوريـة، كشـف لـه أهمِّيـة هـذا اللقـاء. أشـاح البـارون ببصـره عنهـا، وراح يتأمَّل باقـي الحاشـية بحثًـا عـن دليـل يُفهِمـه. كان فـي القاعـة اثنـان مـن عمـلاء النقابـة، أحدهمـا طويـل وبديـن، والآخـر قصيـر وبديـن، عينـا كليهمـا رماديتـان عليلتـان. ووسـط الأتبـاع، وقفـت إحـدى بنـات الإمبراطـور، الأميـرة إيـرولان، المـرأة التـي يُقـال إنهـا تتلقَّـى أعمـق تدريبـات البِنـي چيسيرِت طرًّا، وإن مـن المقـدَّر لهـا أن تصبـح أُمًّـا موقَّـرة. كانـت طويلـةً وشـقراء، ذات وجـهٍ جميـل منحـوت الملامـح، وفـي عينيهـا الخضـراوين نظـرة شـاردة اخترقتـه دون أن تـراه.

- «باروني العزيز».

تكرَّم الإمبراطور أخيرًا ولاحظ وجوده. كان صوته جهوريًا منضبط النبرة، نجح في تجاهله وهو يرحِّب به.

انحنى البارون، وتقدَّم إلى الموقع المتعارف عليه، على بُعد عشر خطوات من المنصَّة: «جئت بناءً على استدعاء جلالتك».

قوقأت السَّاحرة العجوز: «استدعاء!».

عاتبها الإمبراطور قائلًا: «على رسلك أيَّتها الأُمُّ الموقَّرة»، لكنه ابتسم لارتباك البارون، ثم أردف: «أريدك أن تخبرني أوَّلًا أين أرسلت تابعك ظفير حوَّاط».

تلفَّت البارون عن يمينه وعن شماله، لاعنًا نفسه على مجيئه إلى هنا دون حرسه الشخصي، ليس لأنهم سيكونون نافعين أمام السَّاردوكار، وإنَّما...

قال الإمبراطور: «ها؟».

- «لقد اختفى هذه الأيَّام الخمسة يا صاحب السمو. كان من المفترض أن يهبط في قاعدة للمهرِّبين ويحاول التسلُّل إلى هذا الفرمني المتطرِّف الذي يُدعى المؤدِّب».

قال الإمبراطور: «غير معقول!».

نقرت السَّاحرة على كتف الإمبراطور بيدها المخلبية، ومالت عليه، هامسةً في أُذُنه.

أومأ الإمبراطور، وقال: «خمسة أيَّام أيُّها البارون. أخبرني، لِمَ لا أراك قلقًا لغيابه؟».

- «أنا قلقٌ بالفعل يا صاحب الجلالة!».

واصل الإمبراطور تحديقه إليه، منتظرًا. أطلقت الأُمُّ الموقَّرة ضحكة مقوقئة.

قال البارون: «ما قصدته يا صاحب الجلالة أن حوَّاط سيلقى

حتفه خلال ساعات على أيِّ حال»، وأخبره عن السُّمِّ الكامن في جسده، وعن حاجته إلى الترياق باستمرار.

قال البارون: «يا لك من داهية أيُّها البارون! وأين ابنا أخيك، رابان والشاب فيد راوثا؟».

- «العاصفة تقترب يا صاحب السمو. أرسلتهما لتفقُّد محيطنا خشية هجوم الفرمن تحت غطاء الرمال».

قال البارون: «محيطنا»، خرجت الكلمة من فمه كأنها ممضوغة: «العاصفة لن تضرب بقوَّة هنا في الحوض، والفرمن الرعاع لن يهاجموا وأنا هنا بصحبة خمسة فيالق ساردوكار».

قال البارون: «قطعًا لا يا صاحب السمو. لكن لا ضير من الاحتياط، ولا تثريب عليه».

قال الإمبراطور: «آها، تثريب. عليَّ إذًا ألَّا أتحدث عمَّا يستهلكه هذا الهراء الأرَّاكسي من وقتي، أليس كذلك؟ ولا عن أرباح شركة تشوم التي نضيِّعها على حفرة الفئران هذه؟ ولا عن مهام البلاط وشؤون الدولة التي اضطررت إلى تأجيلها -بل وإلغائها- بسبب هذا الشأن الغبي؟».

خفض البارون بصره خوفًا من غضبة الإمبراطور، وأقلقته حساسية موقفه: وحيدًا، لا يعتمد إلَّا على المعاهدة الكبرى وقانون حصانة النبلاء. سأل البارون نفسه: *هل ينوي قتلي؟ لن يجرؤ! ليس والعائلات النبيلة الأخرى رابضة في الأعلى وتبحث عن أيِّ عذر للاستفادة من هذا الاضطراب الدَّائر على أرَّاكس.*

سأله الإمبراطور: «هل أخذت رهائن؟».

قال البارون: «لا فائدة من هذا يا صاحب الجلالة، فهؤلاء

الفرمِن المجانين يقيمون مراسم دفن لكل أسير، ويتصرَّفون كأنه قد مات بالفعل».

قال الإمبراطور: «لذلك؟».

تأنَّى البارون قبل أن يرد، ناظرًا عن يمينه وعن شماله إلى جدران السلاملِك المعدنية، مفكِّرًا في الخيمة العملاقة المصنوعة من المعدن المطواع المحيطة به، وما تمثِّله من ثروة لا محدودة أبهرته هو نفسه. فكَّر البارون: *إنه يجرُّ وراءه خدمًا، وعددًا كبيرًا من أتباعه، ونساءه ووصيفاتهن: مصفِّفات الشعر، ومصمِّمات الأزياء، وغيرهن... كل طفيليَّات البلاط الإمبراطوري الهامشية. الجميع هنا، وكما هو الحال دائمًا، يتملَّقون، ويتآمرون، ويكيدون، و«يشاركون المشقَّة» مع الإمبراطور. لقد أتى بهم كي يشاهدوه وهو ينهي هذه المسألة، وكي يخلِّدوا المعارك في قصائد، ويمجِّدوا الجرحى، ويكونوا شهودًا على التاريخ.*

قال البارون: «ربَّما لم تسع إلى أسر النوع المناسب من الرهائن».

فكَّر البارون: *إنه يعرف شيئًا*. استقرَّ الخوف في بطنه كالحجر، ولم يحتمل معه التفكير في الأكل. ومع ذلك، كان شعوره أشبه بجوع، وراح على إثره يؤرجح وزنه متململًا على مضادَّات الجاذبية موشكًا على إعطاء أمر بإحضار الطعام، لكن لم يكن يُوجد أحدٌ هنا لتلبية أمره.

سأله الإمبراطور: «ألديك فكرة عن هوية هذا المؤدِّب؟».

قال البارون: «واحد من الأُمَّة* بالتأكيد. فرمِني متعصِّب، متطرِّفٌ ديني. أمثاله يظهرون بانتظام على تخوم الحضارة المدنية. جلالتك تعرف ذلك».

نظر الإمبراطور إلى عرّافته كاشفة الحقيقة، وعاد ليعبس في وجه البارون: «وليس لديك معلومات أخرى عن هذا المؤدِّب؟».

قال البارون: «إنه مجرَّد مجنون، ولكن كل الفرمِن مجانين إلى حدٍّ ما».

- «مجنون؟».

- «يصرخ رجاله باسمه وهم يندفعون إلى المعارك، وتلقي النساء بأطفالهن علينا ويقذفن بأنفسهن على سكاكيننا ليفتحن ثغرة أمام رجالهن ليهجموا علينا منها. إنهم يفتقرون... إلى أي... حياء!».

غمغم الإمبراطور: «أهم بهذا السوء؟»، ولم تخف على البارون نبرة السخرية في صوته: «أخبرني يا عزيزي البارون، هل استقصيت مناطق أرّاكس القطبية الجنوبية؟».

رفع البارون ناظريه محدِّقًا إلى الإمبراطور، وقد ارتجَّ عليه من تغيير الموضوع: «ولكنك... آه، تعلم يا صاحب السمو أن المنطقة برمَّتها غير صالحة للسكنى، تعصف الرياح بها وتجوب الديدان فيها. اسپايس حتَّى غير موجود على خطوط العرض تلك».

- «ألم تردك تقارير من مركبات نقل الاسپايس أن رقعًا نباتيةً خضراء تظهر هناك؟».

- «لطالما تلقَّينا هذه التقارير، وتحقَّقنا من صحَّة بعضها، منذ زمن طويل. شُوهد عدد قليل من النباتات، وفقدنا ثوبترات كثيرة. الأمر مكلِّف جدًّا يا جلالة الإمبراطور. إنها أرضٌ معادية لا يظلُّ الرجال أحياء فيها مدَّة طويلة».

قال الإمبراطور: «حقًّا!». ثم فرقع بإصبعيه فانفتح بابٌ خلف العرش إلى يساره، وخرج من الباب ضابطا ساردوكار يسوقان

أمامهما فتاةً صغيرة بدا أنها تبلغ من العمر نحو أربع سنوات. كانت ترتدي عباءة سوداء قلنسوتها ملقاة على ظهرها، كاشفةً عن أربطة بذلة تقطير متدلِّيةً حول عُنُقها. كانت عيناها في زُرقة أعين الفرمِن، وتطلَّان من وجهٍ دائري ناعم. بدت الطفلة مطمئنة تمامًا ولا يبدو عليها أدنى خوف، ورأى البارون في نظرتها شيئًا أقلقه دون أن يعرف سببًا لذلك.

حتَّى العجوز البِني چيسيرِتية عرَّافة الحقيقة أجفلت عند مرور الطفلة بها، وأشارت بيدها مستعيذةً منها. بدا واضحًا أن حضور الطفلة هزَّ السَّاحرة العجوز.

تنحنح البارون وهمَّ بالكلام، لكن الطفلة تكلَّمت أوَّلًا بصوتٍ رفيع فيه أثار لثغة من رخاوة حنكها الطفل، لكنه كان واضحًا. قالت: «ها هو إذًا. لا يبدو مهيبًا، أليس كذلك؟ مجرَّد رجل بدين مسن أضعف من أن يحمل وزنه من دون الاستعانة بمضادَّات الجاذبية».

كان كلامًا لا يُتوقَّع صدوره من فم طفلة، حتَّى أن البارون حدَّق إليها عاجزًا عن النطق على الرغم من غضبه، وسأل نفسه: *أهي قزمة؟*

قال الإمبراطور: «عزيزي البارون، أقدِّم إليك أخت المؤدِّب».

– «أخت الـ...»، ثم أدار البارون انتباهه إلى الإمبراطور وقال: «لا أفهم».

قال الإمبراطور: «أنا أيضًا أميل إلى الاحتياط. لقد وصلتني تقارير أن مناطقك القطبية الجنوبية غير المأهولة تظهر أدلة على وجود نشاط بشري».

احتجَّ البارون قائلًا: «ولكن هذا مستحيل! الديدان... الرمال مترامية الأطراف حتَّى...».

قال الإمبراطور: «يبدو أن هؤلاء القوم قادرون على تجنُّب الديدان».

جلست الطفلة على المنصَّة إلى جوار العرش، ودلدلت قدميها من فوق حافَّتها وراحت تأرجحهما. بدت شديدة الثقة بنفسها وهي تتفقَّد محيطها. حملق البارون إلى قدميها المتأرجحتين وكيف يحرِّكان عباءتها السوداء، وفي بروز خُفَّيها من تحت القماش.

قال الإمبراطور: «لسوء الحظ لم أرسل إلَّا خمس حاملات جنود على متنها قوَّة خفيفة لأسر بعض الأفراد بغرض الاستجواب. بالكاد أفلتنا مع ثلاثة سجناء وحاملة جنود واحدة. تخيَّل يا بارون، كاد ساردوكاري أن يهزموا على يد قوَّة مؤلَّفة في الغالب من النساء والأطفال وكبار السنِّ. هذه الطفلة كانت تقود إحدى الجماعات المهاجمة».

قال البارون: «أرأيت يا صاحب الجلالة! أرأيت طباعهم!».

قالت الطفلة: «قصدت أن أقع في الأسر، فلم أرغب في مواجهة أخي وإخباره بأن ابنه قُتل».

قال الإمبراطور: «حفنة من الرجال فحسب تمكَّنت من الهرب. أقول الهرب! أسمعت ذلك؟».

قالت الطفلة: «كنا سننال من أولئك أيضًا، لولا اللهب».

قال الإمبراطور: «استخدم ساردوكاري نفَّاثات التوجيه في حاملاتهم الجوية كقاذفات لهب في مناورة يائسة، لكنها كانت الشيء الوحيد الذي مكَّنهم من الفرار بأسراهم الثلاثة. ركِّز في ما أقول يا عزيزي البارون: قوَّة من السَّاردوكار أُجبرت على التراجع في ارتباك أمام مجموعة من النسوة والأطفال وكبار السن!».

قال البارون بنبرةٍ مهاجة: «يجب أنا نهجم عليهم بقوّة ضارية، يجب أن نستأصل شأفتهم...».

زأر الإمبراطور: «اخرس!»، مائلًا إلى الأمام على عرشه: «إيّاك أن تهين ذكائي بعد الآن. كيف تجرؤ على الوقوف هنا تدّعي البراءة الحمقاء و...».

قالت عرّافة الحقيقة العجوز: «جلالتك».

أشار لها بالصّمت، وواصل: «تقول إنك لا تعلم بأمر النشاط الذي رصدناه، ولا بطبيعة هؤلاء القوم القتالية!»، ثم قام نصف قيام من على العرش وصاح: «ماذا تحسبني يا بارون؟».

تراجع البارون خطوتين إلى الخلف مفكّرًا: *رابان السّبب. هو من فعل هذا بي. رابان قـ...*

غمغم الإمبراطور وهو يغوص في عرشه: «وتلك الخصومة المصطنعة مع الدوق ليتو، ما أبرع تدبيرك لها!».

قال البارون متوسّلًا: «يا صاحب الجلالة، ما الذ...».

- «اخرس!».

وضعت البِني چيسيرت العجوز يدها على كتف الإمبراطور، ومالت عليه هامسةً في أذنه.

توقّفت الطفلة الجالسة على المنصّة عن أرجحة قدميها وقالت: «أخفه أكثر يا شادام. لا يُفترض بي أن أستمتع بهذا، لكنني لا أستطيع منع نفسي من التلذّذ بما يحدث».

قال الإمبراطور: «اصمتي أيّتها الصغيرة»، وانحنى إلى الأمام، واضعًا يده على رأسها، محدّقًا إلى البارون: «هل هذا معقول أيُّها البارون؟ هل أنت بهذه السذاجة التي تقترحها كاهنتي؟ ألم تتعرّف بعد إلى هذه الطفلة، ابنة حليفك، الدوق ليتو؟».

قالت الطفلة: «أبي لم يحالف هذا الرجل قط. أبي ميِّت، وهذا الوحش الهراكونني المسنُّ لم تسبق له رؤيتي».

ألجم الذهول البارون وظلَّ يُحدِّق في بلاهة، وعندما استطاع الكلام، لم يزد عن: «من؟».

قالت الطفلة: «أنا عالية، ابنة الدوق ليتو والليدي جيسيكا، وأخت الدوق پول المؤدِّب»، ثم دفعت بنفسها من على المنصَّة، وقفزت على أرضية قاعة الاستقبال مردفةً: «لقد تعهَّد أخي بوضع رأسك أعلى سارية رايته الحربية، وأظنُّ أنه سيفعل».

قال الإمبراطور: «صه يا فتاة»، وغاص في عرشه، عابثًا بذقنه، متأمِّلًا البارون.

قالت عالية: «أنا لا آخذ أوامر الإمبراطور»، ثم استدارت، ورفعت بصرها إلى الأُمِّ الموقَّرة وقالت: «وهي تعرف ذلك».

نظر الإمبراطور إلى عرَّافته وقال: «ماذا تقصد؟».

قالت العجوز: «هذه الطفلة شُنعة! وأُمُّها تستحق عقابًا لم يُعاقب به أحدٌ على مرِّ التاريخ. الموت راحة يجب ألَّا تنالها هذه الطفلة ولا من أنجبتها!»، ثم أشارت العجوز بإصبعها إلى عالية وصاحت: «اخرجي من رأسي!».

همس الإمبراطور: «أهذا تخاطر؟»، ثم أعاد انتباهه سريعًا إلى عالية: «بحقِّ الأُمِّ العظيمة!».

قالت العجوز: «أنت لا تفهم يا صاحب الجلالة. ليس هذا تخاطرًا، إنها داخل عقلي. إنها كالنساء الأخريات اللاتي سبقنني، النساء اللاتي منحنني ذكرياتهن. إنها تقف في عقلي! لا أعرف كيف، لكنها موجودة!».

سألها الإمبراطور: «أيُّ أخريات؟ ما هذا الهُراء؟».

شـدَّت العجـوز قامتهـا، وخفضـت يدهـا التـي تشـير بهـا: «لقـد تفوَّهـت بأكثـر ممَّـا ينبغـي لـي، لكـن الحقيقـة لـم تتغيَّـر. يجـب القضـاء علـى هـذه الطفلـة التـي هـي ليسـت بطفلـة. لقـد حُذِّرنـا منـذ زمـنٍ طويـل مـن مثـل هـذه الشُـنعة، وقيـل لنـا كيـف نمنـع ميلادهـا، لكـن واحـدة منـا خانتنـا».

قالـت عاليـة: «أنـت تهذريـن أيَّتهـا العجـوز، ولا تعرفيـن كيـف كان الأمـر، ومـع هـذا تثرثريـن بـلا توقُّـف كالأحمـق بليـد الذهـن»، ثـم أغمضـت عينيهـا، وأخـذت نفسًـا عميقًـا، وكتمتـه.

تأوَّهت الأُمُّ الموقَّرة وترنَّحت.

فتحـت عاليـة عينيهـا وقالـت: «هكـذا كان الأمـر. حادثـة كونيـة، وقـد لعبـت دورك فيهـا».

رفعـت الأُمُّ الموقَّـرة كلتـا يديهـا، وراحـت تدفـع الهـواء فـي اتِّجـاه عاليـة.

قـال الإمبراطـور: «مـا الـذي يحـدث هنـا؟ أنـتِ أيَّتهـا الصغيـرة، أحقًّـا بإمكانـك إسـقاط أفـكارك علـى عقـول الآخريـن؟».

قالـت عاليـة: «الأمـر ليـس كذلـك علـى الإطـلاق. لا يسـعني التفكيـر مثلـك إلَّا إذا وُلِـدت مثلـك».

غمغمـت العجـوز: «اقتلهـا!»، وتشـبَّثت بظهـر العـرش لإسـناد نفسـها، ثـم كـرَّرت: «اقتلهـا!»، وعيناهـا الغائرتـان تحدِّقـان إلـى عاليـة.

قـال الإمبراطـور: «صمتًـا!»، وتأمَّـل عاليـة: «يـا فتـاة، أبإمكانـك التواصـل مـع أخيـك؟».

قالت عالية: «أخي يعرف أنني هنا».

- «أبإمكانك إخباره بأن يستسلم مقابل الإبقاء على حياتك؟».

ابتسمت إليه عالية في براءة تامَّة وقالت: «لن أفعل ذلك».

تعثَّر البارون وهو يتقدَّم ليقف إلى جوار عالية، وقال متوسِّلًا: «يا صاحب الجلالة، لم أكن أعلم شيئًا عن...».

قال الإمبراطور: «قاطعني مرَّةً أخرى يا بارون وستفقد القدرة على المقاطعة.. إلى الأبد»، وأبقى اهتمامه منصبًّا على عالية، وراح يتأمَّلها مضيِّقًا عينيه: «لن تفعلي، ها؟ أبإمكانك قراءة أفكاري لمعرفة ما سأفعله بك إن عصيتِ أمري؟».

قالت: «سبق أن أخبرتك بأنني لا أقرأ الأفكار، لكن المرء لا يحتاج إلى التخاطر ليطَّلع على نيَّتك».

عبس الإمبراطور قائلًا: «قضيَّتك ميؤوسٌ منها يا فتاة. ما عليَّ إلَّا حشد قوَّاتي وتحويل هذا الكوكب إلى...».

قاطعته عالية: «ليس الأمر بهذه السهولة»، ثم نظرت إلى رجلي النقابة وأردفت: «حتَّى اسألهما».

قال الإمبراطور: «ليس من الحكمة معارضة رغباتي. يجب ألَّا تحرميني ولو أدنى الأشياء».

قالت عالية: «أخي سيأتي الآن، وحتَّى الإمبراطور ذاته سيرتجف أمام المؤدِّب، لأنه مؤيَّد بقوَّة الحق، والسماء راضيةٌ عنه».

اندفع الإمبراطور واقفًا وصاح: «هذه المسرحية طالت أكثر من اللازم. سأطحن أخيك وهذا الكوكب حتَّى...».

دمدمت القاعة واهتزَّت من حولهما، ثم اندفع شلال رمال مفاجئ من خلف العرش حيث تتَّصل خيمة المعسكر بسفينة الإمبراطور. شعر الجميع بجلد بشرتهم يشتدُّ وينضغط، في دليلٍ على تفعيل مجال طاقة درعي واسع النطاق.

قالت عالية: «أخبرتك أن أخي سيأتي».

وقف البارون أمام عرشه، ضاغطًا بيده اليمنى أُذُنه اليمنى، مصغيًا عبر سمَّاعة السِرفوك التي يضعها إلى التقارير الواردة عن الوضع. تراجع البارون خطوتين خلف عالية، في حين ما وثب السَّاردوكار إلى مواقعهم عند البوَّابة.

قال الإمبراطور: «سنصعد إلى الفضاء ونعيد تنظيم صفوفنا. أعتذر لك أيُّها البارون، هؤلاء المجانين يهاجمون بالفعل تحت غطاء العاصفة. سنريهم كم هي عاتية غضبة الإمبراطور»، ثم أشار إلى عالية: «ألقوا بها إلى العاصفة».

وفيما كان يتحدَّث، تراجعت عالية متظاهرةً بالرعب وهي تصرخ: «فلتحصل العاصفة على ما يمكنها أخذه!»، واستمرَّت في التراجع حتَّى وقعت بين ذراعي البارون.

صاح البارون: «أمسكت بها يا صاحب الجلالة! هل ألقي بها الآ... آآآآآآآآآآآآآآآه!»، ثم دفعها أرضًا، وأمسك بذراعه اليسرى.

قالت عالية: «آسفة يا جدِّي، لقد مسَّتك الجوم جَبار الأتريديزية!»، وقامت واقفة مفلتةً إبرةً داكنةً من يدها.

سقط البارون على ظهره، جاحظ العينين، يحملق إلى جرح أحمر على كفِّه اليسرى، وقال: «أنتِ... أنتِ...»، وتدحرج جانبًا مدعومًا بمضادَّات الجاذبية، وصار كتلة لحم مرتخيةً مرفوعةً بوصاتٍ قليلة عن الأرض، رأسها متهدِّلٌ وفمها مَفغورٌ على اتِّساعه.

زمجر الإمبراطور: «يا لجنون هؤلاء القوم! أسرعوا! إلى السفينة. سنطهِّر هذا الكوكب من كل...».

ومض شيءٌ إلى يساره، وارتدت كُرة برقٍ من الحائط البعيد في ذلك الاتِّجاه، وفرقعت حين لامست الأرضية المعدنية. انتشرت في السلاملِك رائحة العوازل المحترقة.

صاح أحد ضُبَّاط السَّاردوكار: «درع الطَّاقة!».

- «الدرع الخارجي سقط! إنهم...»

ذابت كلماته وسط زئيرٍ معدني، وراح جدار السفينة خلف الإمبراطور يرتجُّ ويهتزُّ.

قال أحدهم: «أصابوا مقدِّمة سفينتنا!».

ثار الغبار في القاعة، فقفزت عالية تحت ستاره، وفرَّت نحو البوَّابة الخارجية.

استدار الإمبراطور، ووجَّه حاشيته نحو باب طوارئ انفتح على مصراعيه من جانب السفينة خلف العرش، ثم أعطى إشارة إلى أحد ضُبَّاط السَّارودكار عبر غيمة الغبار، وقال آمرًا: «سنصمد هنا ونحارب!».

هز اصطدامٌ آخر جنبات المعسكر، فانفتحت الأبواب المزدوجة في طرف القاعة البعيد بقوَّة على إثره، سامحةً لدخول الرياح المحمَّلة بالرمال وأصوات الصياح. شاهدوا للحظة خيالًا صغيرًا في عباءة سوداء على خلفية الضوء، كانت هذه عالية النجيبة التي انطلقت كالسهم باحثةً عن سكِّين لقتل جرحى الهراكنة والسَّاردوكار كما درَّبها الفرمن. اندفع السَّاردوكار وسط غيامٍ أصفر مخضر نحو الفتحة، شاهرين أسلحتهم في تشكيلٍ قوسي لتأمين الإمبراطور المتراجع.

صاح ضابط ساردوكار: «أنقذ نفسك يا مولاي! ادخل إلى السفينة!».

لكن الإمبراطور ظلَّ واقفًا بمفرده فوق منصَّته يشير إلى الأبواب، حيث فتح الانفجار فجوة عرضها أربعون مترًا في

الجدار، وحيث أبواب السلاملك المفتوحة على الرمال المنجرفة، كانت سحابة الغبار التي تهبُّ من مسافة بعيدة عالقةً في الجو، حاجبةً ما يدور في الخارج، تتخلَّلها فرقعة شحنات برقٍ استاتيكية، وشرارات وامضة من دروع الطاقة التي تحترق دوائرها من جراء العاصفة المشحونة بالكهرباء. ماج الحوض بالمتقاتلين، ساردوكار ورجال مسعورين يخرجون قافزين صارخين من رحم العاصفة.

كان هذا هو إطار المشهد الذي أشارت يد الإمبراطور إلى هدفٍ في مركزه.

بدت وسط غيمة الرمال كتلة منظمة من الأشكال الوامضة: أقواس ضخمة صاعدة، تحدُّها سنون وامضة، اتَّضح بالتدريج أنها ديدان رمال فاغرةً أفواهها، حشدٌ كبيرٌ منها شكَّل جدارًا هائلًا. وكان على ظهر كل دودة فرقة من الفرمن المهاجمين، اقتحموا الحوض في هسيسٍ صاخب وثيابهم تخفق مع الريح، قاطعين أرض المعركة.

تقدَّمت الديدان صوب معسكر الإمبراطور، فوقف السَّارداوكار مشدوهين لأوَّل مرَّة في تاريخهم من هجمة صعب على عقولهم استيعابها.

لكنّ أولئك القافزين من فوق ظهور الديدان كانوا رجالًا، والنصال اللامعة في ذلك الضوء الأصفر المشؤوم كانت شيئًا تدرَّب سارداوكار على مواجهته، لذا ألقوا بأنفسهم في خضم المعركة. دارت رُحى القتال بينهم رجلًا لرجل في سهل أراكين، فيما دفعت نخبة منتقاه من الحرس السَّاردوكاري الإمبراطور إلى سفينته، وأغلقت الباب عليه، ووقفت مستعدةً للموت عند الباب كجزء من درعه.

في صدمة الصَّمت النسبي داخل السفينة، حدَّق الإمبراطور إلى وجوه حاشيته وأعينهم المتَّسعة عن آخرها، ورأى حُمرة الإجهاد تشيع في وجنتي ابنته الكُبرى، وأن عرَّافة الحقيقة العجوز تقف كظلٍّ أسود وغطاء رأسها مسدل على وجهها، ثم رأى أخيرًا الوجهين الذين يبحث عنهما: رجلي النقابة. كانا يرتديان زيَّ النقابة الرمادي غير المزيَّن، الذي بدا أنه يتناسب مع الهدوء الذي احتفظا به على الرغم من اضطراب المشاعر المحيط بهما.

كان الرجل الأطول يضع يده على عينه اليسرى. وفيما كان الإمبراطور يراقبه، اصطدم أحدهم بذراع الرجل، فتحرَّكت يده كاشفةً عن عينه. كان الرجل قد فقد إحدى عدستيه اللاصقتين، فبدت عينه المحدِّقة من غيرها زرقاء قاتمةً، تكاد تكون سوداء كلُجَّة حبر.

أفسح الرجل القصير لنفسه المجال بين الأجساد مستخدمًا كوعه، واقترب من الإمبراطور وقال: «نعجز عن استبصار كيف سينتهي الأمر»، ثم أضاف رفيقه الأطول بصوتٍ بارد، بعد أن أعاد وضع يده على عينه: «حتَّى هذا المؤدِّب لا يعرف كذلك».

صدمت الكلمات الإمبراطور فأيقظته من ذهوله. وبذل جهدًا واضحًا ليصون لسانه عن السخرية، فلم يكن المرء في حاجة إلى بصيرة ملَّاحي النقابة المركَّزة ليرى النتيجة الوشيكة لتلك المعركة الدائرة في السهل، وتساءل عن تمادي اعتماد هذين على ملكتيهما إلى حدٍّ جعلهما يفقدان القدرة على استخدام أعينهما وعقولهما.

قال: «أيَّتها الأُمُّ الموقَّرة، علينا أن نضع خطَّة».

رفعت عرَّافة الحقيقة القلنسوة عن وجهها، وبادلته التحديق دون أن يطرف لها جفن. حملت النظرة المتبادلة بينهما تفاهمًا

كاملًا. لم يبقَّ لهما غير سلاح واحد، وكلاهما يعرفه: الغدر.

قالت الأُمُّ الموقَّرة: «استدع الكونت فنرينج من جناحه».

أومأ الإمبراطور الباديشاه، وأشار إلى أحد مساعديه لتنفيذ الأمر.



كان محاربًا وصوفيًا، غولًا وقدّيسًا، ثعلبًا وحَمَلًا، نبيلًا وعديم الرحمة، أدنى من الآلهة وأسمى من البشر. يتعذَّر قياس دوافع المؤدِّب بالمعايير المألوفة. ففي لحظة انتصاره، كان قد رأى ما يُحاك له من موت، ومع ذلك رَضِي بالغدر. أيمكن قول إنه فعل ذلك بدافع تحقيق العدالة؟ عدالة من إذًا؟ تذكَّر أننا الآن نتحدَّث عن ذاك المؤدِّب الذي أمر بصنع طبول الحرب من جلود أعدائه، المؤدِّب الذي تنكَّر للتقاليد التي يمليها عليه ماضيه الدوقي المشرِّف بكل برود مكتفيًا بقول: «أنا الكويزاتس هاديراك، وهذا سببٌ كافٍ».

من كتاب «صحوة أرَّاكس» للأميرة إيرولان.

مساء انتصاره، انتقل المؤدِّب مع مرافقيه وحرسه إلى قصر حاكم أراكين، مقر الإقامة القديم الذي شَغِلَه آل آتريديز عند مجيئهم إلى كثيب أوَّل الأمر. كان المبنى على الحالة التي استلمه بها رابان، لم يمسُّه القتال تقريبًا على الرَّغم من تعرُّضه للنهب على يد سكَّان المدينة، فقط بعض الأثاث في القاعة الرئيسة كان مقلوبًا أو محطَّمًا.

أسرع پول الخطى عبر المدخل الرئيس، يتبعه بخطوة جيرني هاليك وستيلجار. انتشر الحرس المرافق في أرجاء القاعة الكبرى، وراحوا يرتِّبون المكان ويخلون مساحة للمؤدِّب، وبدأت إحدى الفرق عملية تفتيش للتأكُّد من عدم وجود شراك خبيثة في المكان.

قال جيرني: «أتذكَّر اليوم الذي جئنا فيه إلى هنا مع أبيك»، ونظر حوله إلى العوارض والنوافذ العالية الضّيقة: «وقتها لم يعجبني هذا المكان، والآن قلّ إعجابي به. أيٌّ كهفٍ من كهوفنا آمن منه».

قال ستيلجار: «تتحدَّث كفرمِني حقيقي»، ولاحظ الابتسامة الباردة التي رسمتها كلماته على شفتي المؤدِّب، فقال: «هلّا تعيد النظر يا مؤدِّب؟».

قال پول: «هذا المكان رمز. رابان حكم من هنا، وباحتلال هذا المكان أؤكد انتصاري للجميع. أرسل الرجال في أنحاء المبنى، لكن لا تلمسوا شيئًا. فقط تأكَّدوا من عدم بقاء أيٍّ من أتباع هراكنة أو شراكهم».

قال ستيلجار: «كما تأمر»، وقد بدا الإحجام في صوته هو يستدير لإطاعة الأمر.

سارع رجال الاتِّصالات إلى القاعة مع معدَّاتهم، وشرعوا في وضعها وتجهيزها بالقرب من المدفأة الضخمة. اتَّخذ الحرس الفرمِني الذي عزَّز أعداد الفدائيين الناجين أماكنهم في أنحاء القاعة جميعها. كانوا يتبادلون الغمغمات، وينظرون حولهم في شكٍّ. لقد مكث العدو في هذا المكان وقتًا طويلًا، لذا لم يكن سهلًا عليهم استساغة فكرة وجودهم فيه.

قال پول: «جيرني، أرسل قوَّة لتأتي بأُمِّي وتشاني. هل علمت تشاني بما حدث لابننا؟».

– «أرسلنا الرسالة يا مولاي».

– «هل بدأتم إخراج الديدان من الحوض؟».

– «أجل يا مولاي. أوشكت العاصفة على الانتهاء».

سأل پول: «ما حجم الأضرار الناجمة التي خلَّفتها؟».

- «الأضرار جسيمة في مسارها المباشر عبر أرض المهبط وساحات تخزين الاسبايس المفتوحة، لكن الخسائر ناجمة عن المعركة بقدر ما هي ناجمة عن العاصفة».

قال پول: «كلها أشياء لا يعجز المال عن إصلاحها على ما أظن».

قال جيرني: «باستثناء خسائر الأرواح يا سيِّدي»، وقد حمل صوته نبرة عتاب كأنه يقول: *«ومتى كان آل آتريديز يهتمُّون بالممتلكات حين تكون أرواح الناس على المحك؟»*.

لكن پول كان يصب اهتمامه على عينه الداخلية، وعلى الفجوات التي يراها في الجدار الزمني الذي لا يزال قابعًا في طريقه. ففي كل فجوة كان الجهاد يشتعل على امتداد أروقة المستقبل.

تنهَّد پول، وقطع القاعة، ورأى كرسيًا يستند إلى الجدار. كان هذا الكرسي مكانه قاعة الطعام في السَّابق، ورُبَّما جلس عليه أبوه ذاته. لكنه في الوقت الحالي لم يكن سوى جماد يريح عليها تعبه ويخفيه عن الرجال. جلس پول، وشدَّ ثوبه حول ساقيه، وأرخى أربطة عُنُق بذلة التقطير.

قال جيرني: «ما زال الإمبراطور محتجزًا في حطام سفينته».

قال پول: «واصلوا تحفُّظكم عليه هناك في الوقت الحالي. هل عثروا على الهراكنة بعد؟».

- «ما زالوا يفحصون القتلى».

- «ما الرَّد الذي تلقَّيناه من السفن الرَّابضة في الأعلى؟».

- «لم يأتنا ردٌّ بعد يا سيِّدي».

تنهَّد پول في تعب، وأراح ظهره إلى الوراء. ثم قال بعد هنيهة: «أحضر لي أحد أسرى السَّاردوكار. يجب أن نبعث رسالة إلى إمبراطورنا. حان وقت مناقشة الشروط».

- «أمرك يا سيِّدي».

قالها جيرني والتفت معطيًا إشارة إلى أحد الفدائيين ليتَّخذ موقع حراسة قريب من پول.

همس پول: «جيرني، منذ أن اجتمع شملنا، لم أسمعك تتفوَّه بالاقتباس المناسب للحدث»، ثم التفت، فرأى جيرني يبتلع ريقه، ولاحظ التصلُّب المفاجئ في فكِّ الرجل.

قال جيرني: «كما تريد يا مولاي»، ثم تنحنح وقال بصوتٍ غليظ: «"فانقلب فرح النصر في ذلك اليوم مناحةً عند كل الشعب، لأن الشعب سمع أن الملك حزين على ابنه"[1]».

أغلق پول عينيه، مجبرًا الحزن على الخروج من ذهنه، تاركًا إيَّاه ينتظر كما سبق أن انتظر لرثاء أبيه. ثم نقل تفكيره إلى الاكتشافات التي تراكمت هذا اليوم: مسارات المستقبل المختلطة، وحضور عالية الغامض داخل وعيه.

من بين كل استخدامات الرؤى الزمنية، كان هذا هو الأغرب. لقد أخبرته عالية: «لقد غامرت بالتوغُّل في المستقبل لأزرع كلماتي في مكانٍ لا يتسنَّى لغيرك سماعها فيه. حتَّى أنت تعجز عن فعل ذلك يا أخي. إنها لعبة مثيرة للاهتمام. وآه بالمناسبة، لقد قتلت جدَّنا، البارون المُسنَّ الخرف. لم يتألَّم كثيرًا».

ثم ساد الصَّمت، واستشعرت حاسَّته الزمنية انسحاب عالية من وعيه.

(1) سفر صموئيل الثَّاني، الإصحاح التَّاسع عشر، آية 2 (بتصرُّف).

- «يا مؤدِّب».

فتح پول عينيه فرأى سحنة ستيلجار الملتحية فوقه، وفي عينيه القاتمتين بريق نور المعركة.

قال پول: «لقد عثرت على جثَّة البارون العجوز».

حل وجومٌ صامت على ستيلجار، ثم همس: «كيف عرفت؟ لقد عثرنا على الجثَّة لتوِّنا وسط حطام الكومة المعدنية الهائلة التي شيَّدها الإمبراطوار».

تجاهل پول السؤال، إذ رأى عودة جيرني بصحبة فرمِنيين يدفعان أمامهما أسيرًا من السَّاردوكار.

قال جيرني: «ها هو واحدٌ منهم يا سيِّدي»، وأشار إلى الحارس كي يقف ممسكًا بالأسير على بُعد خمس خطوات من پول.

لاحظ پول النظرة المصدومة الذَّاهلة في عيني السَّاردوكار. كانت على وجهه كدمة زرقاء تنتشر من أنفه إلى زاوية فمه، وكان أشقر الشَّعر منحوت الوجه، وهي الملامح التي تميِّز أصحاب الرُّتب العالية بين السَّاردوكار، ومع ذلك لم يحمل زيُّه الممزَّق أيَّ علامة مميَّزة باستثناء الأزرار الذهبية ذات الشعار الإمبراطوري، وسَمَل شريط سراويله المجدول.

قال جيرني: «أظن أنه ضابط يا سيِّدي».

أومأ پول وقال: «أنا الدوق پول آتريديز، أتعي هذا يا رجل؟».

حدَّق السَّاردوكار إليه دون أن يتحرَّك.

قال پول: «تحدَّث وإلَّا مات إمبراطورك».

طرفت عينا الرجل، وابتلع ريقه.

سأله پول: «من أنا؟».

قال الرجل بصوتٍ مبحوح: «أنت الدوق پول آتريديز».

لاحظ پول أن الرَّجل قانت أكثر من اللازم. لم يكن السَّاردوكار قد أُعدُّوا لمواجهة وقائع كالتي حدثت هذا اليوم، فهم لم يذوقوا قبل ذلك سوى طعم النصر، وهو الأمر الذي أدرك پول أنه قد يصبح ضعفًا في حد ذاته. نحَّى پول الفكرة جانبًا للتفكير لاحقًا في إلحاقها ببرنامجه التدريبي.

قال پول: «لديَّ رسالة أريدك أن تبلِّغها إلى الإمبراطور»، ثم صاغ كلماته بالصيغة القديمة: «بصفتي دوقًا من عائلة نبيلة، وممَّن تربطهم قرابة دم بالإمبراطور، أتعهَّد بموجب المعاهدة الكبرى أنه إذا تخلَّى الإمبراطور ورجاله عن أسلحتهم، وجاؤوا إليَّ هنا صاغرين، سأحمي حياتهم بحياتي»، ثم رفع ختم الدوقية في يده اليسرى كي يراه السَّاردوكار وقال: «وأقسم على كلامي بهذا».

بلَّل الرجل شفتيه بطرف لسانه، ونظر إلى جيرني.

قال پول: «أجل، لا أحد يحوز ولاء جيرني غير فرد من آل آتريديز».

قال السَّاردوكار: «سأبلغ الرسالة».

قال پول: «خذه إلى مركز قيادتنا على الجبهة وأرسله».

قال جيرني: «أمرك يا مولاي»، وأشار إلى الحارس لتنفيذ الأمر، وتقدَّمهما إلى الخارج.

أعاد پول اهتمامه إلى ستيلجار.

قال ستيلجار: «لقد وصلت تشاني وأُمُّك، لكن تشاني طلبت بعض الوقت لتختلي بحزنها، أمَّا الأُمُّ الموقَّرة فأرادت المكوث قليلًا في غرفة العجائب، ولا أعلم السَّبب».

قال پول: «أُمّي يسقمها الشّوق إلى كوكب قد لا تراه أبدًا، كوكب ينهمر الماء فيه من السماء، وتنمو فيه النباتات بكثافة إلى درجة تعيقك عن السير بينها».

همس ستيلجار في انبهار: «ماء من السماء».

في تلك اللحظة، رأى پول كيف تحوَّل ستيلجار من نائب فرمني إلى مخلوق تابع للسان الغيب، إلى وعاء للرهبة والطاعة. كان في الأمر انتقاص من شأن الرجل، وقد شعر پول فيه بطيف رياح الجهاد.

وفكَّر: *لقد شهدتُ تحوُّل صديق إلى عابد.*

غمر پول شعورٌ بالوحدة، فراح ينقل بصره في أرجاء القاعة، ملاحظًا كيف يصير رجاله منضبطين ومنتبهين في حضوره، واستشعر بروح تنافس خفيَّة فخورة في ما بينهم، كلٌّ منهم يأمل في أن يمنَّ المؤدِّب عليه بنظرة.

وفكَّر: *المؤدِّب الذي هو مصدر كل النِّعم*، وكانت هذه أقبح فكرة مرَّت به في حياته. *إنهم يشعرون بضرورة تولِّي العرش، لكنهم لا يعرفون أنني أفعل ذلك لمنع الجهاد.*

تنحنح ستيلجار، ثم قال: «رابان مات كذلك»، فأومأ پول.

تنحَّى الحرس الواقفون إلى اليمين جانبًا فجأة، ووقفوا في وضع انتباه مفسحين الطريق لچيسيكا. كانت ترتدي عباءتها السوداء وتسير بخطًى سريعة كما اعتادت أن تقطع الرمال، لكن پول لاحظ كيف أعاد لها المنزل شيئًا من هويَّتها السَّابقة: خليلة الدوق الحاكم. حمل حضورها بعضًا من حزمها القديم.

توقَّفت چيسيكا أمام پول ونظرت إليه، ورأت الإرهاق الذي يحاول إخفاءه، لكنها لم تشعر بشفقةٍ نحوه، كأنها صارت عاجزةً عن أن تحدوها أيّ عاطفة تجاه ابنها.

دخلت چيسيكا القاعة الكبرى متسائلةً لماذا يأبى المكان أن يتطابق مع ذكرياتها عنه. ظلَّت القاعة غريبة عليها، كأنها لم تمش فيها من قبل، ولم تتجوَّل فيها مع حبيبها ليتو، ولم تواجه فيها دانكن أيداهو المخمور... ولم، ولم، ولم...

وفكَّرت: *كان ينبغي أن تُوجد لفظة مضادة لكلمة أدب التي تصف الذكرى المُلحَّة التي تفرض نفسها. كان ينبغي أن تُوجد لفظة تصف الذكريات التي تنكر نفسها.*

ثم سألت: «أين عالية؟».

قال پول: «في الخارج تفعل ما يجب على كل طفلٍ فرمِني صالح أن يفعله الآن. تقتل جرحى العدو وتعلِّم أجسادهم لتتعرَّف عليهم فرق استعادة الماء».

- «پول!».

قال: «عليك أن تفهمي أنها تفعل ذلك بدافع الرحمة. أليس غريبًا كيف نسيء فهم التضافر الخفي بين الرحمة والقسوة؟».

حدَّقت چيسيكا شزرًا إلى ابنها، مصدومةً من التغيير الجوهري الذي أصابه، وتساءلت: *هل موت ابنه هو السبب؟* ثم قالت: «يروي الرجال قصصًا غريبة عنك يا پول. يقولون إنك تتمتَّع بكل القدرات التي وردت في الأسطورة، يقولون إن شيئًا لا يُخفى عليك، يقولون إنك تبصر ما يعجز الآخرون عن إبصاره».

سألها: «وهل يليق بامرأة من البِني چيسيرِت أن تلقي بالًا إلى الأساطير؟».

اعترفت قائلة: «كان لي يد في كل ما وصلت إليه، لكن لا تتوقَّع مني أن...».

سألها پول: «ماذا لو عِشت مليارات من الحيوات؟ ألن تُنسج

من حولك الأساطير! فكِّري في كل تلك الخبرات، وفي ما تجلبه من حكمة. لكن الحكمة تكسر حدَّة الحب، وتُلبس الكراهية ثوبًا جديدًا، أليس كذلك؟ كيف يتسنَّى لك تمييز القسوة إن لم تسبري أغوار القسوة والرحمة معًا؟ عليك أن تخشيني يا أُمِّي، إنني الكويزاتس هاديراك».

حاولت چيسيكا ابتلاع ريقها فمنعها جفاف حلقها، ثم قالت في النهاية: «لقد أنكرت يومًا في حضوري أنك الكويزاتس هاديراك».

هزَّ پول رأسه وقال: «لن أنكر شيئًا بعد الآن»، ثم رفع عينيه لها وأردف: «سيأتي الإمبراطور وحاشيته الآن. سيُعلن عن قدومهم في أيِّ لحظة. قفي بجانبي، أريد رؤيتهم بوضوح، فعروسي المستقبلية ستكون بينهم».

صاحت چيسيكا: «پول! لا ترتكب الغلطة التي ارتكبها أبوك!».

قال پول: «إنها أميرة، وهي مفتاح جلوسي على العرش فحسب. تقولين غلطة؟ أتظنين لأنك صنعتِني على هذا النحو فلن أشعر بالحاجة إلى الانتقام؟».

سألته: «الانتقام حتَّى من الأبرياء؟»، وفكَّرت: *يجب ألَّا يكرر أخطائي*.

قال پول: «لم يعد هناك أبرياء».

قالت چيسيكا: «قل ذلك لتشاني»، وأشارت باتِّجاه الممرِّ المؤدِّي إلى الجزء الخلفي من دار الإقامة.

أتت تشاني إلى القاعة الكبرى من هناك، تسير بين حارسين فرمنيين كأنها غير مدركة لوجودهما. كانت قلنسوتها وغطاء بذلتها ملقيان إلى الخلف، وقناع وجهها متدلٍّ جانبًا. قطعت القاعة بهشاشة وارتباك، ووقفت إلى جوار چيسيكا.

رأى پول آثار الدموع على خدَّيها، *لقد ذرفت من مائها على الميِّت*. شعر بحزنٍ مؤلم يعتصر روحه، وبدا كأنه غير قادر على الشعور بهذا إلَّا في حضور تشاني.

قالت تشاني: «لقد مات يا حبيبي. ابننا مات».

نهض پول كابحًا مشاعره، ومدَّ يده ولمس خدَّ تشاني، وشعر ببلل دموعها. «وهو لن يُعوَّض أبدًا، لكن سيكون لنا أبناء آخرون. هذا وعد أصول». ثم أزاحها جانبًا برفق، وأشار إلى ستيلجار.

قال ستيلجار: «أمر المؤدِّب».

قال پول: «الإمبراطور وحاشيته قادمون من سفينتهم. سأقف أنا هنا. اجمع الأسرى في مساحة واسعة في منتصف القاعة وأبقهم على مسافة عشرة أمتار مني ما لم آمر بغير ذلك».

- «كما تأمر يا مؤدِّب»

انصرف ستيلجار لإطاعة الأمر، وسمع پول تمتمات الانبهار من الحرس الفرمِني: «أرأيت؟ إنه يعلم! لم يحطه أحدٌ علمًا، لكنه يعلم!».

ترامى إلى مسامعهم اقتراب مسيرة حاشية الإمبراطور، فقد كان السَّاردوكار يدندنون إحدى ألحانهم العسكرية لرفع روحهم المعنوية. ثم تعالت جلبة من الأصوات عند المدخل ومرَّ جيرني هاليك عبر الحرس وقطع القاعة ليتشاور مع ستيلجار، ثم تحرَّك ليقف إلى جوار پول وفي عينيه نظرة غريبة.

تساءل پول: *هل سأخسر جيرني أيضًا كما خسرت ستيلجار من قبله؟ أفقد صديقًا لكسب مخلوق تابع؟*

قال جيرني: «ليست معهم أسلحة يمكن قذفها، تأكَّدت من الأمر بنفسي»، ثم أجال بصره في أرجاء القاعة، ورأى استعدادات

بول: «فيد راوثا معهم. هل أستبعده من بين المجموعة؟».

- «اتركه».

- «بينهم رجلا نقابة أيضًا، ويطالبان بمعاملةٍ خاصَّة ويهدِّدان بفرض حظر على أرَّاكس. أخبرتهما أنني سأوصل رسالتهما إليك».

- «دعهما يهدِّدان».

همست چيسيكا من خلفه: «بول! إنه يتحدَّث عن النقابة!».

قال بول: «سأقتلع أنيابهم عمَّا قريب».

وفكَّر في أمر النقابة، في تلك القوَّة التي مع الوقت زاد تخصُّصها أكثر فأكثر حتَّى صارت طفيلية، عاجزةً عن البقاء بشكل مستقل عمَّا تتغذَّى عليه. لم يجرؤوا قط على استلال السَّيف، والآن لم يعد في مقدورهم استلاله. كان بإمكانهم الاستيلاء على أرَّاكس حين أدركوا غلطة اعتمادهم بالكامل على المِزاج، مخدِّر طيف الوعي الذي يتعاطاه ملَّاحيهم. كان بإمكانهم فعل ذلك، وأن يعيشوا أيَّام مجدهم ثم يموتون. ولكن بدلًا من ذلك، ظلُّوا يعيشون حياتهم لحظةً بلحظة، على أمل أن تنتج البحار التي يسبحون فيها عائلًا جديدًا لهم حين يموت العائل القديم.

لقد اتخذ ملاحو النقابة -المتمتِّعون بقدرة استبصارية محدودة- قرارًا مهلكًا: اختاروا المسار الآمن الواضح الذي يؤدِّي في النهاية إلى الركود.

فكَّر بول: *دعهم ينظرون من كثب إلى عائلهم الجديد.*

قال جيرني: «بينهم أيضًا أُمٌّ موقَّرة من البِني چيسيرِت تقول إنها صديقة أُمِّك».

- «ليس لأُمِّي صديقات من البِني چيسيرِت».

عاد جيرني وأجال بصره في أرجاء القاعة الكبرى، ثم انحنى على أُذُن پول وهمس: «ظفير حوَّاط بينهم يا سيِّدي. لم تتح لي الحديث معه على انفراد، لكنه استخدم إشاراتنا اليدوية القديمة ليخبرني بأنه كان يعمل مع الهراكنة بعد أن ظنَّ أنك ميت، وقال إنه يستحق أن يُترك وسطهم».

- «تركت ظفير حوَّاط وسط أولئك الـ...».

- «كانت رغبته... ورأيت أن هذا أفضل. إذا وقع خطبٌ ما، سيكون حيث نستطيع تحريكه. وإن لم يقع، سيكون لدينا جاسوس على الجانب الآخر».

عندها جاءت لپول لمحاتٍ استبصارية من الاحتمالات المختلفة لهذه اللحظة، ورأى في أحدها ظفير يحمل إبرةً مسمومةً أمره الإمبراطور باستخدامها ضد «هذا الدوق المغرور».

تنحَّى حرس المدخل مشكِّلين ممرًّا قصيرًا برماحهم. سُمع حفيف ملابس كثيرة في القاعة، واحتكاك الأقدام بالرمال التي انجرفت إلى دار الإقامة.

تقدَّم الإمبراطور الباديشاه شادام الرَّابع حاشيته إلى القاعة. كان قد فقد خوزة البورسيج، فبرز شعره الأحمر مبعثرًا في حالة من الفوضى. كان كُمُّ سترة زيِّه الأيسر ممزَّقًا بامتداد دروز الخياطة الداخلية، وكان بلا حزام أو أسلحة، لكن حضوره الطَّاغي ظلَّ يسير معه كفقَّاعة درع طاقة تفسح المجال من حوله.

سدَّ عليه رمحٌ فرمِني الطريق، موقفًا إيَّاه حيث أمر پول. احتشد الآخرون خلفه في خليطٍ من الألوان والوجوه المحدِّقة.

أدار پول بصره في المجموعة، ورأى النساء يخفينَّ آثار البكاء، والأتباع الذين أتوا للاستمتاع بمشاهدة انتصار السَّاردوكار من

مدرَّجات الصَّفوة يقفون الآن صاغرين مختنقين بصمت الهزيمة. رأى پول عيني الأمِّ الموقَّرة -عيني الطير الكاسر- تتَّقدان بالغضب وراء غمائها الأسود، وإلى جوارها عينا فيد راوثا هاركونن الضيِّقتان الماكرتان.

فكَّر پول: *ها هو الوجه الذي كشفه الزَّمن لي*، ثم نظر إلى ما خلف فيد راوثا وقد جذبت حركة انتباهه، فرأى هناك وجهًا نحيلًا ماكرًا لم يسبق له رؤيته من قبل، لا عبر الزمن ولا في الحقيقة. شعر بأنه وجه يُفترض به أن يعرفه، وحمل الشعور مسحة من الخوف.

وتساءل: *ما الذي يجعلني أخشى ذلك الرجل؟*

ثم مال على أُذُن أُمِّه وهمس: «ذلك الرجل شيطاني الملامح الواقف إلى يسار الأمِّ الموقَّرة، من هو؟».

نظرت چيسيكا إليه، وتعرَّفت على وجهه الذي رأته في ملفَّات الدوق: «الكونت فنرينج، من كان يسكن هذه الدار قبلنا مباشرة. قاتل وُلِدَ خَصِيًّا نتيجة خللٍ چيني».

فكَّر پول: *هذا ساعي الإمبراطور*. صدمت الفكرة وعيه، إذ كان قد رأى الإمبراطور بين ظهري أصحابه وحاشيته مرَّات لا حصر لها عبر احتمالات المستقبل، لكن الكونت فنرينج لم يظهر ولو مرَّة في تلك الرؤى.

أدرك پول حينئذٍ أنه رأى جثَّته في قطاعات لا حصر لها من شبكة الزمن، لكنه لم ير لحظة موته مرَّة واحدة، فتساءل: *هل حُرمت من رؤية أيِّ لمحة عن هذا الرجل لأنه من سيقتلني؟*

دقَّت الفكرة نواقيس الخطر في نفسه وملأته بالتشاؤم، فأجبر نفسه على تحويل انتباهه عن فنرينج، وراح يتأمَّل بقايا

ضُبَّاط ورجال السَّاردوكار، وما يبدو على وجوههم من مرارةٍ ويأس. لفتت بعض الوجوه بينهم انتباه پول للحظات. كان بعضهم يفحصون القاعة وما بها من الاستعدادات، ويخطِّطون لطريقة يمكن بها قلب هزيمتهم إلى نصر.

استرعى انتباه پول أخيرًا امرأة شقراء طويلة، خضراء العينين، تتمتَّع بجمالٍ أرستقراطي، وشموخ كلاسي المظهر: لم تمسَّها الدموع، ولا يبدو عليها انكسار. تعرَّفها پول دون أن يخبره أحد بهويَّتها. إنها الأميرة الملكية، المتدرِّبة على نهج البِني جيسيرِت، الوجه الذي شاهده مرارًا في أماكن كثيرة من رؤاه الزمنية: إيرولان.

وفكَّر: *ها هو مفتاحي للعرش.*

ثم لاحظ حركة وسط الحشد، وظهر من بينهم وجه ظفير حوَّاط، بملامحه المُسنَّة المشقَّقة، وشفتيه المبقَّعتين، وكتفيه المحنيَّتين، وهشاشة الشيخوخة البادية عليه.

قال پول: «ها هو ظفير حوَّاط. دعه يتقدَّم بحرِّية يا جيرني».

قال جيرني: «سيِّدي».

كرَّر پول: «دعه يتقدَّم بحرِّية يا جيرني».

أومأ جيرني.

تقدَّم حوَّاط بخطًى متثاقلة، فارتفع رُمحٌ فرمِني من أمامه وعاد إلى مكانه من خلفه. رمقت العينان الغائمتان پول، مقيِّمتين، باحثتين.

تقدَّم پول خطوة إلى الأمام، مستشعرًا الحركة المتوتِّرة المرتقبة بين الإمبراطور وجماعته.

نفذ بصر حوَّاط إلى ما خلف پول، وقال الشيخ الهرم: «الليدي

چيسيكا، لم أعلم إلَّا اليوم إلى أيِّ مدى ظلمتك بظنوني. أنتِ في حلٍّ من مسامحتي».

تريَّث پول لحظة، لكن أُمَّه ظلَّت صامتة.

قال پول: «ظفير، يا صديقي القديم. كما ترى، لا أقف وظهري إلى أيِّ الباب».

قال حوَّاط: «الكون مملوء بالأبواب».

سأله پول: «هل صرت أشبه أبي؟».

قال حوَّاط بصوتٍ أجش: «بل تشابه جدَّك أكثر. سلوكه بادٍ فيك، ونظرته تطلُّ من عينيك».

قال پول: «ومع ذلك أنا ابن أبي. ها أنا أقول لك يا ظفير، بإمكانك الآن أن تطلب مني أيَّ شيءٍ تتمنَّاه نظير السنوات الطويلة التي خدمت فيها عائلتي، أيَّ شيءٍ على الإطلاق. لو طلبت حياتي الآن يا ظفير، فهي لك»، وتقدَّم خطوة أخرى، بيدين متدلِّيتين إلى جانبيه، ولاحظ نظرة الفهم التي تنمو في عيني حوَّاط.

قال پول: *إنه يدرك أنني على علمٍ بالغدر.*

قال پول بصوتٍ شبه هامس لئلَّا يبلغ إلَّا مسمعي حوَّاط: «أنا أعني ما أقول يا حوَّاط. إن كنت ستقتلني، فافعلها الآن».

قال حوَّاط: «كل ما أردته أن أقف أمامك مرَّة أخرى يا دوقي»، وعندها أدرك پول للمرَّة الأولى الجهد الذي يبذله الرجل العجوز كي لا يقع أرضًا. مدَّ پول يده، وأمسك بحوَّاط من كتفيه، شاعرًا برجفة عضلاته تحت يديه.

سأله پول: «هل تشعر بألمٍ يا صديقي القديم؟».

أجابه حوَّاط: «أجل أشعر بألم يا دوقي، لكن فرحتي أكبر». ثم استدار نصف استدارة بين ذراعي پول، ورفع يده اليسرى،

موجِّهًا راحة يده نحو الإمبراطور كاشفًا عن الإبرة الصغيرة بين أصابعه، وصاح: «أترى يا ذا الجلالة؟ أترى إبرة خائنك؟ هل كنت تظنُّ أن حوَّاط، من نذر حياته لخدمة آل آتريديز، سيضنُّ بها الآن؟».

ترنَّح پول مع تراخي جسد العجوز بين ذراعيه، وشعر بحضور الموت، وبهموده الأخير. برفق، أراح پول حوَّاط على الأرض، واعتدل واقفًا وأشار إلى الحرس كي يحملوا الجثَّة بعيدًا.

لفَّ الصَّمت القاعة في أثناء ما كان الحرس ينفِّذون الأمر.

بدا على الإمبراطور الآن نظرة انتظار ملتاعة. العينان اللتان لم تعترفان من قبل بالخوف، اعترفت به أخيرًا.

قال پول: «يا صاحب الجلالة»، ولاحظ رعشة الانتباه في الأميرة الملكية الطويلة. كان قد لفظ الكلمات بنبرة بِني چيسيرِتية مضبوطة، وحمَّلها بكل ما في مقدوره تحميلها به من ازدراء وتحقير.

فكَّر پول: *إنها متدرِّبة على نهج البِني چيسيرِت بحق.*

تنحنح الإمبراطور وقال: «رُبَّما يظنُّ قريبي المحترم أن كل الأمور تسير في صالحه، وهذا في الحقيقة بعيد كل البعد عن الصحَّة. لقد اخترقت بنود المعاهدة، واستخدمت الأسلحة الذرِّية ضد...».

قاطعه پول: «لقد استخدمت الأسلحة الذرِّية ضد أحد تضاريس الصَّحراء الطبيعية كان يعترض طريقي. كنت متعجِّلًا للوصول إلى جلالتك، لأطلب منك تفسيرًا لبعض أنشطتك الغريبة».

قال الإمبراطور: «هناك أسطول حاشد من العائلات النبيلة الكبرى في الفضاء فوق أرَّاكس في هذه اللحظة، وبكلمة مني

سـوف...».

قـال پـول: «آه، صحيـح. كـدت أنسـى أمرهـم»، وبحـث بعينيـه بيـن حاشـية الإمبراطـور حتَّـى رأى وجهـي رجلـي النقابـة، ثـم تكلَّـم بشكل جانبـي مع جيرنـي: «أهـذان عميلا النقابة يا جيرنـي؟ هـذان الرجـلان البدينـان فـي الـزيِّ الرمـادي؟».

- «أجل يا سيِّدي».

قـال پول مشـيرًا لهمـا: «أنتمـا، اخرجـا مـن مكانكمـا فـورًا وابعثـا رسـالة إلى هـذا الأسـطول قولا فيهـا إننـي آمـره بالعـودة إلـى دياره. بعـد ذلـك، سـتطلبان إذنـيّ قبـل أن...».

صـاح أطـول الرجليـن: «النقابـة لا تمتثـل لأوامـركا»، ثـم مـرَّ هـو ورفيقـه عبـر حاجـز الرمـاح التـي رُفِعـت بإيمـاءة مـن پـول. تقـدَّم الرجـلان مقتربيـن مـن پول، ورفـع أطولهمـا ذراعـه فـي وجهـه قائـلًا: «قـد تكـون الآن تحـت طائلـة الحظـر بسـبب...».

قـال پـول: «إن سـمعت منكمـا مزيـدًا مـن هـذا الهُـراء، سـآمر بتدميـر كل إنتـاج الاسـپايس علـى أرَّاكـس... إلـى الأبـد».

قـال رجـل النقابـة الطويـل: «هـل جننـت؟»، وتراجـع خطـوة إلـى الخلـف.

سـأله پول: «إذًا تقرُّ بأنني أملك القوَّة لفعل الأمر؟».

بدا رجل النقابـة كمـن يحـدِّق إلـى الفـراغ للحظـة، ثـم قـال: «أجـل، بإمكانـك فعـل ذلـك، ولكـن عليـك ألَّا تفعله».

أومـأ پـول وقـال: «آهـا، كلاكمـا مـن ملَّاحـي النقابـة، أليـس كذلـك؟».

- «أجلا».

قـال أقصـر الرجليـن: «بصيرتـك أنـت أيضًـا سـتُعمى إن فعلتهـا،

وستحكم علينا جميعًا بالموت البطيء. ألديك فكرة عمَّا يحدث للمرء حين يحرم من خمر الاسپايس بعد إدمانه عليه؟».

قال پول: «ستُغلَق العين التي تُبصر المسارات الفضائية الآمنة إلى الأبد، وستصبح النقابة عاجزة، وسيعيش البشر في مجموعات صغيرة معزولة على كواكبها. أتعرف، قد أفعلها لمجرَّد النكاية... أو بدافع الملل».

قال رجل النقابة الطويل: «دعنا نتحدَّث في ذلك على انفراد. أنا واثق بأننا سنصل إلى حل وسط ير...».

قال پول: «ابعث الرسالة إلى جماعتك الرَّابضة فوق أرَّاكس. لقد سئمت من هذا الجدال. إن لم يغادر الأسطول الذي فوقنا قريبًا، فلن تكون لنا حاجة إلى التحدُّث». ثم أومأ إلى رجال الاتِّصالات الجالسين في طرف القاعة: «بإمكانكما استخدام أجهزتهم».

قال الرجل النقابة الطويل: «علينا أن نناقش الأمر أوَّلًا، لا يمكننا أن...».

صاح پول: «نفِّذ الأمر! القدرة على تدمير الشَّيء هي السيطرة المطلقة عليه، وأنت سلَّمت بأنني أملك تلك القدرة. لسنا هنا للمناقشة أو للتفاوض أو لتقديم تنازلات. إمَّا أن تطيع أمري وإمَّا تعاني العواقب الفورية!».

قال رجل النقابة القصير: «إنه يعني ما يقول»، ورأى پول الخوف يسيطر عليهما.

قطع الاثنان القاعة ببطء متَّجهين إلى معدَّات الاتِّصالات الفرمِنية.

سأله جيرني: «هل سيطيعان الأمر؟».

قـال پـول: «بصيرتهمـا الزمنيـة محـدودة وقاصـرة. ليـس فـي مقدورهمـا رؤيـة عواقـب العصيـان، إذ يُوجـد حائـط هائـل يحجـب رؤيتهمـا. كل مـلَّاح نقابـة علـى كل سـفينة فوقنـا سـيرى الجـدار ذاتـه إذا حـاول سـبر المسـتقبل. سـيطيمان».

ثـم عـاد پـول والتفـت إلـى الإمبراطـور قائـلًا: «عندمـا سـمحت النقابـة لـك بالجلوس علـى عـرش أبيـك مـن بعـده، كان ذلـك مشـروطًا بضمـان تدفُّـق الاسـپايس. لقـد خذلتهـم يـا صاحـب الجلالـة. هـل تعـرف العواقـب؟».

- «لم يسمح أحدٌ لي بـ...».

صـاح پـول: «كفـاك ادِّعـاء حماقـة. مثـل النقابـة كمثـل قريـة علـى ضفـاف النهـر. إنهـم يحتاجـون إلـى المـاء، لكـن ليـس بوسـعهم سـوى غـرف احتياجهـم منـه، فهـم غيـر قادريـن علـى بنـاء سـدٍّ للتحكُّـم فـي النهـر، لأن ذلـك يركِّـز الانتبـاه علـى مـا يأخذونـه، ويـؤدِّي إلـى تدميـره فـي نهايـة المطـاف. تدفُّـق الاسـپايس هـو نهرهـم، وأنـا بنيـت سـدًّا. لكنهـم لـن يسـتطيعوا تدميـر سـدِّي دون تدميـر النهـر ذاتـه».

مـرَّر الإمبراطـور يـده بيـن خصـلات شـعره الأحمـر، وألقـى نظـرة إلـى ظهـري رجلـي النقابـة.

قـال پـول: «حتَّـى عرَّافتـك البِنـي چيسـيرِت ترتجـف خوفًـا. ثمَّـة سـمومٌ أخـرى يمكـن للأُمَّهـات الموقَّـرات اسـتخدامها فـي حيلهـن، لكنهـن بعـد أن يسـتخدمن خمـر الاسـپايس، تفقـد الأنـواع الأخـرى تأثيرهـا فيهـن».

لفَّـت المـرأة العجـوز ثوبهـا الأسـود الفضفـاض حولهـا، وتقدَّمـت خارجـة مـن بيـن الحشـد ووقفـت عنـد حاجـز الرمـاح.

قال بول: «الأُمُّ الموقَّرة جايس هيلين موهيم، قد مرَّ وقتٌ طويل منذ لقائنا على كلادان».

تجاهلته المرأة ونظرت إلى أُمِّه وقالت: «حسنًا يا جيسيكا، أرى الآن أن ابنك هو المنتظر بالفعل، ولهذا بإمكاننا مسامحتك على كل شيء، حتَّى على إنجابك ابنتك الشُّنعة».

كتم بول غضبه الحاد، وقال: «لا حقَّ لكِ مسامحة والدتي على أيِّ شيء!».

حدَّقت العجوز إلى عينيه بثبات.

قال بول: «جرِّبي حيلك معي أيَّتها السَّاحرة العجوز. أين الجوم جَبار؟ جرِّبي النظر إلى المكان الذي لا تجرُئين على النظر إليه! ستجدينني هناك أحدِّق إليك!».

خفضت العجوز نظرتها.

سألها بول: «أليس لديكِ ما تقولينه؟».

تمتمت: «لقد رحَّبت بك بين صفوف البشر، لا تلوِّث ذلك».

رفع بول صوته: «انظروا إليها يا رفاق! هذه أُمٌّ بني جيسيرتية موقَّرة، امرأةٌ صبور تخدم قضيَّة طويلة الأناة. لقد انتظرت هي وأخواتها تسعين جيلًا كي تثمر توليفة الجينات والبيئة المناسبة الشخص الذي يتطلَّبه مخطَّطهن. انظروا إليها! لقد عرفت الآن أن الأجيال التسعين نجحت في إنتاج هذا الشخص، فها أنا ذا أقف أمامكم... لكنني... لن... أُحقِّق... لها... مآربها... أبدًا!».

صرخت العجوز: «جيسيكا! أسكِتيه!».

قالت جيسيكا: «أسكِتيه بنفسك».

حدَّق بول إلى العجوز وقال: «بإمكاني أن آمر بخنقك جزاءً لك على الدور الذي لعبتِه في كل هذا، وبهذا سأسعد»، ثم لمَّا

أخذتها العزَّة بالإثم صاح فيها: «ولن تستطيعي منعي! لكنني أرى أن أفضل عقاب لك هو أن تعيشي سنوات عمرك الباقية عاجزةً عن المساس بي أو استخدامي لتنفيذ ولو رغبة واحدة من رغبات مخطَّطاتك».

قالت العجوز: «چيسيكا، ماذا فعلتِ؟».

قال پول: «سأشهد لَكُنَّ بشيءٍ واحد يا معشر البِني چيسيرِت. لقد فهمتن جزءًا ممَّا يحتاج إليه العرق البشري، لكن فهمكن له كان قاصرًا جدًّا. ظننتن أن بإمكانكن التحكُّم بالتناسل البشري، وتهجين قِلَّة مختارة وفقًا لخطَّتكن الكبرى! ما أشدّ جهلكن بطبيعة الـ...».

فحَّت العجوز: «لا يجوز أن تتكلَّم عن هذه الأشياء!».

زأر پول: «**صمتًا!**». بدت الكلمة كأنها تجسَّدت في الهواء من فرط قوَّتها وتحكُّم پول بها.

ترنَّحت العجوز متراجعة فسقطت بين أذرع الواقفين خلفها، وقد شحب وجهها من أثر القوَّة الصادمة التي استحوذ بها على روحها. ثم همست: «چيسيكا».

قال پول: «كما أتذكَّر جوم چَبارك، تذكَّري جوم چَباري. بإمكاني إزهاق روحك بكلمة منِّي».

تبادل الفرمِن المنتشرون في القاعة نظراتٍ فهم. ألم تقل الأسطورة: «*وسوف تذبح كلمته من يقفون ضد طريق الحق*».

حول پول انتباهه إلى الأميرة الملكية الطويلة الواقفة بجانب أبيها الإمبراطور، وقال وعيناه مثبَّتتان عليها: «يا جلالة الإمبراطور، كلانا يعلم المخرج الوحيد من هذا المأزق».

نظر الإمبراطور إلى ابنته، وعاد إلى پول: «كيف تجرؤ؟ أنت! أيُّها المغامر بلا عائلة، أيُّها النكرة بلا...».

قال پول: «لقد اعترفت بهويَّتي منذ قليل وناديتني بالقريب الملكي. فلنكفَّ عن هذا الهُراء».

قال الإمبراطور: «أنا إمبراطورك».

نظر پول إلى رجلي النقابة الواقفين عند أجهزة الاتِّصالات يحدِّقان إليه. ثم أومأ أحدهما له.

قال پول: «بإمكاني إرغامك».

صاح الإمبراطور: «لن تجرؤ!».

واصل پول تحديقه اللا مُبالي إليه.

وضعت الأميرة الملكية يدها على ذراع والدها وقالت: «أبي»، بصوتٍ ناعم كالحرير ومهدِّئٍ للأعصاب.

قال الإمبراطور: «لا تمارسي حيلك معي»، ثم نظر إليها: «لست مجبرة على فعل ذلك يا بُنيَّتي. لدينا وسائل أخرى يمكننا...».

قالت: «ولكن هذا رجلٌ يليق بأن يكون ابنك».

شقَّت الأُمُّ الموقَّرة العجوز طريقها -بعد أن استعادت رباطة جأشها- ووقفت إلى جوار الإمبراطور، ومالت على أُذُنه وهمست.

قالت چيسيكا: «إنها تحثُّه على الموافقة».

لم يُنزل پول عينيه عن الأميرة ذات الشعر الذهبي، ثم سأل أُمَّه على حِدَة: «أليست هذه إيرولان، كبرى أخواتها؟».

- «بلى».

اقتربت تشاني ووقفت إلى جوار پول وقالت: «أتريدني أن أغادر يا مؤدِّب؟».

نظر إليها قائلًا: «تغادرين! لن تفارقي جانبي مرَّةً أخرى».

قالت تشاني: «ليس بيننا رباطٌ ملزم».

نظر إليها پول صامتًا لبرهة، ثم قال: «لا تكذبي عليَّ يا سِيهَياتي»، وعندما همَّت بالرَّد، وضع إصبعه على شفتيها ليسكتها وقال: «الرباط الذي بيننا لا فكاك منه. الآن، أريدك أن تراقبي ما يدور جيِّدًا، لأنني سأرغب لاحقًا في رؤية ما دار في هذه القاعة من خلال منظورك الحكيم».

كان الإمبراطور وعرَّافته يخوضان جدالًا محتدمًا بصوت خفيض.

قال پول إلى أُمِّه: «إنها تذكِّره بأن جزءًا من الاتِّفاق المبرم بينهم يلزمه بوضع امرأة من البِني چيسيرِت على العرش، وإيرولان هي التي أعدُّوها لهذا الأمر».

سألت چيسيكا: «هل كانت هذه خطتهم من البداية؟».

سألها پول: «أليس هذا واضحًا؟».

احتدَّت چيسيكا قائلة: «أعرف هذا! قصدت بسؤالي تذكيرك بأنه لا ينبغي لك تعليمي الأمور التي علَّمتك إيَّاها».

نظر پول إليها، ورأى ابتسامة باردة تتلاعب على شفتيها.

مال جيرني متدخِّلًا بينهما وقال: «أذكِّرك يا سيِّدي بوجود أحد الهراكنة بين أفراد هذه المجموعة»، وأومأ برأسه إلى فيد راوثا ذي الشعر الداكن المتَّكئ على حاجز الرماح إلى اليسار: «صاحب العينين الضيِّقتين هذا الواقف إلى اليسار. إن الشَّر البادي في ملامحه لم تسبق لي رؤية مثله. لقد وعدتني ذات مرَّة أن...».

قال پول: «شكرًا لك يا جيرني».

قال جيرني: «إنه ولي عهد البارونية، وهو البارون رسميًا الآن بعد موت العجوز. سيصلح لما أعددت له من...».

- «هل بإمكانك التغلُّب عليه يا جيرني؟».

- «سيِّدي يمزح بالتأكيد!».

- «لقد طال الجدال بين الإمبراطور وساحرته بما يكفي، ألا تظنِّين ذلك يا أُمِّي؟».

أومأت قائلة: «بلى».

رفع پول صوته وصاح بالإمبراطور: «يا جلالة الإمبراطور، هل يُوجد بينكم أحد الهراكنة؟».

كشف الازدراء الملكي عن نفسه في الطريقة التي استدار بها الإمبراطور لينظر إلى پول: «ظننت أن حاشيتي تحت حماية وعدك الدوقي».

قال پول: «سؤالي كان للعلم فقط. أرغب في معرفة إن كان أحد الهراكنة جزءًا من حاشيتك بشكل رسمي، أم هو يختبئ بدافع جبنه وراء الشكليات».

كانت ابتسامة الإمبراطور ماكرة ومحسوبة وهو يقول: «أيُّ شخصٍ قبلت وجوده تحت لوائي الإمبراطورية هو جزء من حاشيتي».

قال پول: «أعطيتك كلمة الدوق، أمَّا المؤدِّب فقد يكون له رأيٌ آخر، وقد لا يعتدُّ بتعرفيك لكلمة حاشية. صديقي جيرني هاليك يتمنَّى أن يقتل أحد الهراكنة، ولو...».

صاح فيد راوثا: «أطالب بالكانلي!»، ثم مال على حاجز الرماح وأردف: «أبوك هو من دعا إلى هذا الثَّأر يا آتريديز. أتنعتني أنا بالجبن وأنت تختبئ بين نسائك، وترغب في إرسال خادمك لمواجهتي؟!».

همست عرَّافة الحقيقة العجوز شيئًا بحدَّة في أُذُن الإمبراطور،

لكنه دفعها جانبًا وقال: «الكانلي إذًا؟ للكانلي قواعد صارمة».

قالت چيسيكا: «پول، ضع حدًا لهذا الأمر!».

قال جيرني: «سيِّدي، لقد وعدتني باليوم الذي سأثأر فيه من الهراكنة».

قال پول: «لقد حظيت بيومك معهم»، وشعر بمرحٍ لعوب يطغى على مشاعره. ثم خلع ثوبه وأنزل قلنسوته من فوق كتفيه وسلَّمهما لأمه مع حزامه وسكِّينه العاجية، وبدأ يفك أربطة بذلة التقطير شاعرًا بأن الكون برمَّته يركِّز على هذه اللحظة.

قالت چيسيكا: «لست مضطرًا إلى ذلك يا پول، فثمَّة طرائق أسهل».

خلع پول بذلة التقطير، واستلَّ السكِّين العاجية من غمدها الذي في يد أُمِّه، وقال: «أعرف هذا. القتل بالسُّمِّ، أو تعيين مغتال... كل الطرائق المألوفة».

همس جيرني: «وعدتني بأن أقتل هاركوننيًا!»، ولاحظ پول الغضب البادي على وجهه، والطريقة التي برزت بها نُدبة سوط الإنكفاين، داكنةً وممتلئةً. «أنت مدين لي بهذا يا سيِّدي!».

سأله پول: «هل عانيت منهم أكثر مني؟».

قال جيرني بصوت مبحوح: «أختي، وسنوات العذاب في حُفر العبيد...».

قال پول: «وأبي، وصديقاي ورفيقاي الطيِّبان، ظفير حوَّاط ودانكن آيداهو، والسنوات التي قضيتها هاربًا بلا رتبة ولا راحة. وضف إلى كل هذا شيئًا آخر: لقد احتكم إلى الكانلي، وأنت أعلم بالقوانين التي يجب التزامها».

تراخت كتفا جيرني وقال: «سيِّدي، لو قام هذا الخنزير... إنه ليس إلَّا بهيمة تركلها بقدمك ثم تتخلَّص من حذائك بعد أن لوَّثته. استدع جلَّادًا إن لزم الأمر، أو دعني أنا أفعلها، لكن لا تعرِّض نفسك...».

قالت تشاني: «المؤدِّب لا يحتاج إلى فعل هذا».

نظر پول إليها، ورأى في عينيها خوفها عليه.

فقال: «لكن الدوق پول يجب أن يفعلها».

قال جيرني بصوت مبحوح: «إنه مجرَّد حيوان هاركونني!».

تردَّد پول وكاد يكشف عن أصوله الهاركونية، لكن النظرة الحادَّة من أُمِّه أوقفته، فلم يُزد عن: «لكن هذا الكائن له هيئة بشرية يا جيرني، ويستحقُّ القليل من الشكِّ في صالحه».

قال جيرني: «لو حدث أن مسَّ...».

قاطعه پول: «تنح جانبًا من فضلك»، واختبر السكِّين العاجية في يده، وأزاح جيرني جانبًا برفق.

قالت چيسيكا: «جيرني!»، ولمست ذراعه: «إنه يشبه جدَّه في هذه الحالة المزاجية. لا تشتِّته، هذا كل ما بإمكانك فعله الآن»، وفكَّرت: *بحقِّ الأُم العظيمة! يا لها من مفارقة!*

تأمَّل الإمبراطور فيد راوثا، متفحِّصًا منكبيه العريضين، وعضلاته القويَّة. ثم التفت ونظر إلى پول، فرأى شابًا نحيلًا كحبلٍ مجدول، ليس عاجفًا كالسكَّان المحليين، لكن ضلوعه بارزة ويمكن عدُّها، وغائرة في خواصره بحيث يستطيع المرء تتبُّع حركة العضلات تحت الجلد.

مالت چيسيكا مقتربةً من پول، وقالت بصوتٍ خفيض كي لا يسمعه غيره: «سأخبرك بنصيحة واحدة يا بُني. في بعض

الأحيان تُهيِّئ أخوات البِني چيسيرِت الأشخاص الخطرين عن طريق زرع كلمة في أعماق وعيهم، باستخدام أساليب المتعة والإيلام القديمة. الكلمة المستخدمة عادةً تكون أُروشنور. إن كان هذا الفتى قد خضع للتهيئة -كما أظنُّ بشدَّة- فنطق الكلمة في أُذُنه سيجعل عضلاته ترتخي و...».

قاطعها پول: «لا أحتاج إلى أفضلية على هذا الشخص. تراجعي وابتعدي عن طريقي».

تحدَّث جيرني إليها: «ماذا يفعل؟ أيفكِّر في تعريض نفسه للقتل ليصير شهيدًا. أهذا الهراء الديني الفرمِني هو ما يملأ عقله ويؤثِّر في حكمه؟».

أخفت چيسيكا وجهها في يديها، مدركةً أنها لا تعرف السَّبب وراء اتِّخاذ پول هذا المسار. شعرت بالموت يخلع بردته على القاعة، وعرفت أن تفكير پول بعد تبدُّله قد يكون منصبًّا بالفعل على ما ذكره جيرني. صرخت فيها كل مواهبها كي تنقذ ابنها، ولكن لم يكن بيدها شيء.

عاد جيرني يسأل بإصرار: «أهذا بسبب الهراء الديني؟».

همست چيسيكا: «اصمت، وادْعُ له».

ارتسمت على وجه الإمبراطور ابتسامةٌ مفاجئةٌ، وقال: «إن كانت هذه رغبة فيد راوثا هاركونن، الذي هو من حاشيتي، فأنا أعفيه من كل القيود وأمنحه حرِّية اختيار طريقه بنفسه»، ثم أشار الإمبراطور بيده إلى أحد الفدائيين وقال: «واحد من رعاعك أخذ حزامي ونصلي القصير. إن رغب فيد راوثا في ذلك، فبإمكانه مواجهتك ونصلي في يده».

قال فيد راوثا: «أجل، أرغب في ذلك»، ورأى پول الابتهاج بالنفس يملأ وجه الرجل.

فكَّر پول: *إنه مفرط الثقة بنفسه، وفي هذا أفضلية طبيعية لا يضيرني قبولها.*

قال پول: «هات نصل الإمبراطور»، وراقب الحارس وهو يطيع أمره، ثم قال: «ضعه هنا»، وحدَّد المكان بقدمه، وواصل: «أبعد رعاع الإمبراطور وأوقفهم قبالة الحائط، ودع الهاركونني واقفًا مكانه».

صاحب تنفيذ أمر پول أصوات حفيف الملابس، واحتكاك الأقدام بالأرض، وأوامر واحتجاجات خفيضة الصَّوت. ظلَّ رجلا النقابة واقفين بالقرب من معدَّات الاتصالات، ينظران إلى پول في عبوسٍ حائر واضح.

فكَّر پول: *لقد اعتادا استشراف المستقبل، لكنهما في هذا الزمان والمكان ضريران... مثلي تمامًا.* جرَّب پول تذوُّق رياح الزمن، فشعر فيها بالاضطراب، وبمحور العاصفة المرتكز الآن على هذه اللحظة الزمكانية. حتَّى الفجوات الصغيرة صارت مغلقةً الآن. كان يعلم أن جنين الجهاد الذي لم يُولد بعد حاضر هنا، أن الوعي الجمعي للجنس البشري الذي عرفه من قبل باسم الغاية الرهيبة حاضر هنا، أن سببًا كافيًا لوجود الكويزاتس هاديراك أو لسان الغيب أو حتَّى مخطَّطات البِني چيسيرِت المبتسرة حاضر هنا. لقد شعر الجنس البشري بخموله، شعر بأنه صار آسنًا، ولم يعد يعرف الآن إلَّا الحاجة إلى الدخول في فوضى تختلط فيها الچينات تنجو بعدها الأخلاط الجديدة لتورِّث صفاتها. كل البشر كانوا حاضرين في تلك اللحظة، ككائن حي واحد غير واعٍ، يمرُّون

بنوع من الإثارة الجنسية القادرة على التغلُّب على أيِّ حاجز.

أدرك پول كم كانت الجهود التي بذلها لتغيير ولو جزء صغير من الأمر غير مجدية. كان يظنُّ أنه سيقاوم الجهاد بداخله، لكن الجهاد قادم لا محالة. ستنطلق جحافله خارجة من أرّاكس في حماسة جنونية مسعورة، فكل ما كان ينقصهم هي الأسطورة التي صارها. لقد أهداهم الطريق، بل وأعطاهم السلطة حتَّى على النقابة التي يعتمد وجودها على الاسپايس.

اجتاحه شعورٌ بالفشل، ورأى عبره فيد راوثا هاركونن يخلع عنه زيَّه الممزَّق، ويتجرَّد من كل شيء إلَّا حزام القتال العريض المدعَّم بصفائح معدنية.

فكَّر پول: *ها قد بلغنا الذروة. من هنا، ستتفتَّح آفاق المستقبل، وستنقشع الغيوم كاشفةً عن مجدٍ بطريقةٍ أو بأخرى. إذا مُت، سيقولون إنني ضحيت بنفسي في سبيل أن تقودهم روحي. وإذا عشت، سيقولون إن لا شيء قادر على اعتراض طريق المؤدِّب.*

صاح فيد راوثا: «هل الآتريديزي جاهز؟»، مستخدمًا كلمات طقس الكانلي القديمة.

اختار پول أن يجيبه على الطريقة الفرمِنية: «عسى أن تنكسر سكِّينك وتتهشَّم!»، وأشار إلى نصل الإمبراطور الموضوع على الأرض، معلنًا أن على فيد راوثا التقدُّم وأخذه.

مبقيًا انتباهه على پول، التقط فيد راوثا السكِّين، وقلَّبه في يده للحظة مختبرًا وزنه. اشتعلت الإثارة فيه، إذ كان هذا هو القتال الذي كان يحلم به: رجلٌ لرجل، مهارة ضد مهارة، بلا دروع. رأى بعين الخيال طريق السُّلطة ينفتح أمامه، لأن الإمبراطور بلا شك سيكافئ من سيقتل هذا الدوق المزعج، وقد تتضمَّن

المكافأة تلك الابنة المعتدّة بنفسها، ونصيبًا في العرش. وهذا الدوق الجلف، هذا المغامر القادم من عالم بدائي، يستحيل أن يكون ندًا لهراكونني تدرَّب على استخدام كلّ أداة وكل حيلة غدر عبر ألف قتال في الحلبة. كما أن هذا الجلف لا يعلم أنه يواجه هنا أسلحةً أكثر من مجرَّد سكّين.

فكَّر فيد راوثا: *لنرى إن كنت منيعًا ضد السُّمّ!* ثم حيَّا پول بنصل الإمبراطور قائلًا: «قابل حتفك أيُّها الأحمق».

سأله پول: «هلَّا تقاتلنا يا ابن العم؟»، وتقدّم إلى الأمام في حذر القطط، عيناه على النصل المتأهّب، وجسده رابض أرضًا، مشهرًا سكّينه العاجية التي في بياض الحليب كأنها امتداد لذراعه.

دار أحدهما حول الآخر، واحتكَّت أقدامهما العارية بالأرض، وراقب كلّ منهما غريمه بعينين متأجّجتين متأهّبتين لاقتناص أقل فرصة.

قال فيد راوثا: «ما أجمل رقصك».

فكَّر پول: *إنه ثرثار، وهذه نقطة ضعف أخرى. الصَّمت يوتِّره.*

سأله فيد راوثا: «هل اعترفت بذنوبك ونلت المغفرة؟».

واصل پول دورانه في صمت.

ارتجفت الأُمُّ الموقَّرة العجوز وهي تراقب القتال من مكانها وسط حاشية الإمبراطور. لقد نادى الفتى الآتريديزي الشاب الهاركونني بابن العم، وهذا يعني أنه يعلم الأصل الذي يتشاركانه، وهو أمر يسهل فهمه لكونه الكويزاتس هاديراك. لكن الكلمات أجبرتها على التركيز على الأمر الوحيد الذي يهمها هنا.

قد تكون هذه طامةً كبرى على برنامج تناسل البِني چيسيرِت.

لقد رأت شيئًا ممَّا رآه پول هنا، أن فيد راوثا قد يتمكَّن من قتله، لكنه لن يخرج منتصرًا. لكن فكرة أخرى باغتتها واستحوذت عليها. المنتجان النهائيان لهذا البرنامج الطويل والمكلف يواجه أحدهما الآخر في قتال حتَّى الموت قد يقضي على كليهما. إن مات الاثنان هنا، فلن يتبقَّى غير ابنة فيد راوثا النَّغلة التي لم تزل طفلة، والتي تُعدُّ بالتالي عنصرًا مجهولًا لم يقاسِ بعد.. وعالية الشُّنعة.

قال فيد راوثا: «رُبَّما لم تجد هنا إلَّا طقوسًا وثنية. أتريد أن تجهِّز كاهنة الإمبراطور روحك لرحلتها؟».

ابتسم پول، وهو يدور إلى اليمين، يقظًا، قامعًا أفكاره السوداء تلبيةً لاحتياجات اللحظة.

قفز فيد راوثا مراوغًا بيده اليمنى، ونقل السكِّين بسرعة خاطفة إلى يده اليسرى.

تفادى پول هجمته بسهولة، ملاحظًا التردُّد البادي في اندفاعة فيد راوثا الناتج عن ارتباط عقله الشرطي بوجود الدرع. ومع ذلك، لم يكن هذا أكثر اعتماد على الدِّرع الذي رآه پول، وشعر بأن فيد راوثا سبق له أن قاتل خصومًا غير مدرَّعين.

سأله فيد راوثا: «هل يفرُّ الآتريديزي أم يبقى ويقاتل؟».

واصل پول دورانه في صمت، وتذكَّر كلمات آيداهو التي سمعها في مران قديم في حجرة التدريب على كلادان: «*استغل اللحظات الأولى في دراسة الخصم. قد تضيِّع بهذا فرصة تحقيق نصرٍ سريع، لكن لحظات الدراسة تلك ستضمن لك النجاح. خذ وقتك وكن متيقِّنًا*».

قال فيد راوثا: «رُبَّما تظنُّ أن هذا الرقص سيطيل حياتك لحظاتٍ إضافية، حسنًا إذًا»، ثم توقَّف عن الدوران، واستقام.

كان پول قد رأى ما يكفي منه للتوصُّل إلى تقدير مبدئي بشأنه. تقدَّم فيد راوثا بجانبه الأيسر، مقدِّمًا ساقه اليمنى كما لو أن حزام القتال المعدني قادر على حماية جانبه بالكامل. كانت هذه هجمة رجل تدرَّب على استخدام الدروع واستعمال السكِّين بكلتا يديه.

أو... ثم تردَّد پول... *قد لا يكون الحزام مجرَّد حزام!*

بدا الهاركونني واثقًا بنفسه أكثر من اللازم أمام الرجل الذي قاد قوَّاته اليوم للانتصار على خمسة فيالق من السَّاردوكار.

لاحظ فيد راوثا تردُّده فقال: «لماذا نؤجِّل المحتوم؟ أنت تؤخِّرني عن ممارسة حقوقي على كرة التراب هذه».

فكَّر پول: *لو كان به قاذفة سهام، فهي مخفاة ببراعة. لا يظهر على الحزام أيُّ آثار عبث.*

صاح فيد راوثا: «لِمَ لا تتكلَّم؟».

استأنف پول دورانه المتفحِّص، سامحًا لنفسه بالرد بابتسامة باردة على نبرة القلق البادية في صوت فيد راوثا التي تدلُّ على أن صمته يضغط على أعصابه.

قال فيد راوثا: «أتبتسم؟»، ووثب عليه قبل أن يكمل سؤاله.

ولأنه كان يتوقَّع التردُّد البسيط السابق، كاد پول يخفق في مراوغة النصل الذي هوى عليه، وشعر بطرفه يجرح ذراعه اليسرى. كتم الألم الذي يشعر به، وغمر عقله إدراك أن التردُّد السابق كان خدعة، خدعة مزدوجة. يبدو أن خصمه أدهى وأبرع ممَّا توقَّع. سينطوي القتال على مكر محبوكٍ في مكر محبوكٍ في مكر، حيلٌ بعضها فوق بعض.

قـال فيـد راوثـا: «علَّمنـي مِنتاتـك ظفيـر حـوَّاط بعـض الحيـل، وبفضلـه كنت أوَّل مـن يسـفك الـدم. لسـوء الحـظِّ أن الأحمـق العجـوز لـم يعـش ليـرى الأمـر بنفسـه».

تذكَّـر پـول شيئًا قالـه آيداهـو ذات مـرَّة: «*لا تشـغل بالـك بغيـر القتـال، بهـذه الطريقـة لـن تتفاجـأ أبـدًا*».

ومن جديد استأنف الاثنان الدوران، رابضين، حذرين.

لاحـظ پـول الابتهـاج بالنفس يعـود إلـى خصمـه، وتعجَّـب لـه. كيـف ينتشـي إلـى هـذه الدرجـة مـن مجـرَّد خـدش؟ إلَّا لـو كان النصـل مسـمومًا! ولكـن كيـف؟ رجالـه أنفسـهم هـم مـن جلبـوا السـلاح، وقـد تأكَّـدوا مـن خُلـوِّه مـن السُّـموم قبـل تركـه علـى الأرض. إنهـم حسـنو التدريـب ولـن يفوتهـم شـيءٌ كهـذا.

سـأل فيـد راوثـا: «تلـك المـرأة التـي كنـت تتكلَّـم معهـا هنـاك؟ الضئيلـة الجسـد. هـل لهـا مكانـة خاصَّـة عنـدك؟ رُبَّمـا هـي حيوانـك المدلَّـل؟ هـل تسـتحق اهتمامًـا خاصًّـا منـي؟».

ظلَّ پـول صامتًـا، يفحـص نفسـه بحواسـه الداخليـة، ويختبـر دم الجـرح، حتَّـى عثـر علـى أثـر مخـدِّر مـن نصـل الإمبراطـور. أعـاد ضبـط عمليـات أيضـه لتتناسـب مـع هـذا التهديـد ولتغيِّـر جزيئـات المخـدِّر، لكـن الشـكوك انتابتـه. لقـد جـاؤوا مسـتعدين بمخـدِّر علـى النصـل، والمخـدِّر -عكـس السُّـمِّ- مـادَّة لـن يكتشـفها كشَّـاف السُّـموم، لكنـه قـوي بمـا يكفـي لإبطـاء عمـل عضلاتـه. لقـد جـاء أعـداؤه وفـي جعبتهـم الخطَّـة تلـو الخطَّـة، مسـتعدين بطبقـات مـن الغـدر.

قفز فيد راوثا طاعنًا مرَّةً أخرى.

بابتسـامةٍ جامـدةٍ علـى وجهـه، تفـادى پـول الطعنـة ببطءٍ كمـا لـو أن المخـدِّر يعوقـه، وفـي اللحظـة الأخيـرة راوغ ليقابـل الـذراع الهاويـة

عليه بطرف سكّينه العاجية.

تملَّص فيد راوثا جانبًا وتراجع، وانتقل نصله إلى يده اليسرى، دون أن يفضح الألم الحارق الذي شعر به من جرح پول له سوى شحوب طفيف اعتلى وجهه.

فكَّر پول: *دعه يحظى بشكوكه الخاصة، دعه يرتاب في أن النصل مسموم.*

صاح فيد راوثا: «خيانة! لقد سمَّمني! أشعر بالسُّمّ يسري في ذراعي!».

خلع پول عنه فروة الصَّمت، وقال: «ليس سُمًّا، بل القليل من الحمض المضاد للمخدِّر الذي على نصل الإمبراطور».

انتحل فيد راوثا ابتسامة پول الباردة، ورفع النصل في يده اليسرى بتحيَّة هازئة، واشتعلت عيناه بالغضب وراء السكّين.

نقل پول سكّينه العاجية إلى يده اليسرى، حاذيًا حذو خصمه، ومن جديد راحا يدوران في حذر الضواري.

بدأ فيد راوثا يضيِّق المسافة الفاصلة بينهما، متسلِّلًا بخفَّة، مشهرًا سكّينه عاليًا، والغضب بادٍ في ضيق عينيه وصرامة فكّه. راوغ بحركة خادعة سفلية في اتِّجاه اليمين، ثم التحم الرجلان وأمسك كلٌّ منهما بيد الآخر الممسكة بالسكّين، وانخرطا في صراع.

أجبر پول كليهما على الانعطاف يمينًا، لخوفه من فخذ فيد راوثا اليمنى حيث يشتبه في وجود قاذفة سهام مسمومة، وكاد يفشل في رؤية سنِّ الإبرة المتأهِّب للانطلاق من تحت الحزام، ولم يحذِّره منه إلَّا تغيُّرٌ وتراخٍ طرأ على حركة فيد راوثا. أخطأت سنُّ الإبرة الرفيعة جسد پولٍ بقيد أُنمُلة.

على الفخذ اليسرى!

ذكَّر پول نفسه: غدر محبوك في غدر محبوك في غدر. ثم استخدم عضلاته التي تدرَّبت على أساليب البِني چيسيرِت، وأرخى جسده ليلتقط ردَّة فعلٍ من فيد راوثا، لكن اضطراره إلى تجنُّب السِّنِّ الصغيرة البارزة من فخذ خصمه جعله يترنَّح وتُزلُّ قدمه، فسقط بقوة على الأرض، وفيد راوثا فوقه.

همس فيد راوثا: «أترى ما على فخذي؟ إنه موتك أيُّها الأحمق».

وبدأ يثني جسده، مقرِّبًا الإبرة المسمومة أكثر فأكثر: «ستصاب عضلاتك بالشلل، وسيجهز عليك سكِّيني. ولن يبقى في جسدك أثرٌ لسُمٍّ يمكن اكتشافه!».

شدَّ پول جسده، منصتًا إلى الصرخات الصامتة في عقله. كان أسلافه المحفورون في خلاياه يطالبونه باستخدام كلمة السر لإبطاء فيد راوثا، وإنقاذ نفسه.

قال لهاثًا: «لن أقولها!».

حدَّق إليه فيد راوثا فاغرًا فمه، واعترته لحظة تردُّد خاطفة، لكنها كانت كافية كي يعثر پول على نقطة ضعفٍ في توازن إحدى عضلات ساق غريمه، ويستغلَّها لصالحه ويقلب وضعيهما. استلقى فيد راوثا جزئيًّا إلى الأرض رافعًا فخذه اليمنى عاجزًا عن الاستدارة بسبب سنِّ الإبرة الدقيقة العالقة في الأرض أسفله.

لوى پول يده اليسرى وحرَّرها بمساعدة لزوجة الدم النازف من ذراعه، ودفع نصله بقوَّة تحت فك فيد راوثا، فانزلق النصل مخترقًا العظام واستقرَّ في المخ. انتفض جسد فيد راوثا وتراخى

على الأرض، وهو لا يزال مرفوعًا جزئيًا بسبب الإبرة المغروسة في الأرض.

دفع پول نفسه بعيدًا عنه وهو يتنفَّس بعمق لاستعادة هدوئه. ثم نهض، ووقف فوق الجسد، والسكِّين في يده، ورفع عينيه ببطءٍ متعمَّد ناظرًا عبر الغرفة إلى الإمبراطور.

قال پول: «يا جلالة الإمبراطور، نقصت قوَّاتك واحدًا. هلَّا نتوقَّف الآن عن الزيف والتظاهر؟ هلَّا نناقش ما يجب أن يكون؟ ستكون ابنتك زوجةً لي، وبها سيتمهَّد الطريق أمام فرد آتريديزي للجلوس على العرش».

التفت الإمبراطور ونظر إلى الكونت فنرينج، فبادله الكونت النظرة. واجهت العينان الرماديتان نظيرتيهما الخضراوين، وسرى بين الرجلين فهمٌ متبادل، إذ مكَّنتهما صداقتهما الطويلة وماضيهما المشترك من التفاهم بمجرَّد نظرة.

كانت نظرة الإمبراطور تقول: *اقتل حديث النعمة المغرور هذا من أجلي. صحيح أن الآتريديزي شاب وواسع الحيلة، لكنه أيضًا منهك من الصراع الطويل، ولن يكون ندًّا لك على أيِّ حال. ادعوه للنزال الآن... أنت تعلم الطريقة. اقتله.*

تحرَّك رأس فنرينج ببطء في التفاتة مطوَّلة حتَّى واجه پول.

همس الإمبراطور: «افعلها!».

صبَّ الكونت تركيزه على پول، ناظرًا إليه بعينين درَّبتهما الليدي مارجو زوجته على نهج البِني چيسيرِت، مدركًا الغموض والعظمة الخفية في هذا الشاب الآتريديزي.

فكَّر فنرينج: *بإمكاني قتله*، وهو متيقِّن من ذلك.

لكن شيئًا نابعًا من أعماق الكونت منعه، وقد لمح -بشكل

خاطف وقاصر- الأفضلية التي يمتاز بها على پول: خفاؤه عن الشَّاب، وشبحية شخصيته ودوافعه التي تعجز أيٌّ عينٍ عن اختراقها.

أمَّا پول، الذي أدرك بعضًا من هذا من الطريقة التي كان المحور الزمني يغلي بها، فهم أخيرًا لماذا لم يرَ الكونت فنرينج في أيٍّ من رؤاه المستقبليه على امتداد شباك الاستبصار. كان فنرينج واحدًا من المرشَّحين المحتملين لأن يكونوا الكويزاتس هاديراك، لكن خللًا چينيًا أصابه في طور التكوين وجعله خَصِيًا، فتركَّزت موهبته على الدهاء والعزلة الداخلية. شعر پول بتعاطف عميق مع الكونت، وكان هذا أوَّل شعور أُخوَّة لمسه على الإطلاق.

قال فنرينج وقد قرأ ما يجيش صدر في پول: «أنا مضطر إلى الرفض يا جلالة الإمبراطور».

سيطر الغضب على شادام الرَّابع، فتقدَّم خطوتين عبر حاشيته، وصفع فنرينج بقوَّة على وجهه.

احتقن الدم في وجه الكونت وسوَّده، فنظر بحدَّة إلى عيني الإمبراطور، وقال ضاغطًا على مقاطع كلماته: «نحن صديقان منذ زمن صاحب السمو، ما أفعله الآن أفعله بدافع الصداقة. سأنسى أنك صفعتني».

تنحنح پول وقال: «كنا نتحدَّث عن العرش يا صاحب الجلالة».

استدار الإمبراطور، وحدَّق إلى پول وصاح: «أنا من يجلس على العرش!».

قال پول: «سيكون لك عرش على سالوسا سوكانداس».

صاح الإمبراطور: «ألقيت بسلاحي وجئت إلى هنا بناءً على كلمة شرف منك! كيف تجرؤ على تهديد...».

قـال پـول: «أنـت آمـن فـي حضـوري، لقـد وعـدك الآتريديـزي بذلـك. أمَّـا المـؤدِّب، فيحكـم عليـك بالنفـي علـى كوكبـك السـجني. لكـن لا تخـش شـيئًا يـا جلالـة الإمبراطـور. سـألطِّف مـن قسـوة المـكان بـكل الإمكانـات المتاحـة لـي. سـيصبح كوكبًـا غنَّـاءً، مملـوءًا بالأشـياء اللطيفـة».

مـع اتِّضاح دلالات كلمـات پـول فـي ذهـن الإمبراطـور، حـدَّق إليـه عبـر القاعـة، وقـال سـاخرًا: «الآن نـرى دوافعـك الحقيقيـة».

قال پول: «بالفعل».

سـأله الإمبراطـور: «ومـاذا عـن أرَّاكس؟ هـل سـيصبح هـو الآخـر كوكبًـا غنَّـاءً مملـوءًا بالأشـياء اللطيفـة؟».

قـال پـول: «لقـد أعطـى المـؤدِّب كلمتـه للفرمِـن. سـيتدفَّق المـاء فـي مسطَّحـات مائيـة لا يبلـغ البصـر مداهـا، وسـتزدهر واحـات خضـراء غنيـة بالنعـم. لكـن علينـا التفكيـر فـي الاسـپايس أيضًـا. وبالتالـي، سـتكون هنـاك صحـارٍ دائمـة علـى أرَّاكس، وريـاح عنيفـة، ومصاعـب كـي يعتـاد الرجـال خشـونة العيـش. نحـن معشـر الفرمِـن لدينـا حكمـة تقـول: "خلـق الـرَّبُّ أرَّاكس لتدريـب المؤمنيـن"، ولا يمكـن لأحـد أن يخالـف كلمـة الـرَّب».

كان لعرَّافـة الحقيقـة العجـوز -الأُمُّ جايـس هيليـن موهيـم- وجهـة نظرهـا الخاصـة للمعنـى الخفـي فـي كلمـات پـول، إذ لمحـت فيـه الجهـاد، فقالـت: «لا يمكنـك إطـلاق أولئـك النـاس علـى الكـون!».

صاح پول: «ستحنِّين وقتها إلى أساليب السَّاردوكار الرقيقة!».

همست قائلة: «لا يمكنك».

قـال پـول: «أنـت كاشـفة حقيقـة، أعيـدي النظـر فـي كلامـك»، ثـم ألقـى نظـرة إلـى الأميـرة الملكيـة، وعـاد إلـى الإمبراطـور وقـال: «مـن الأفضـل أن ينتهـي الأمـر سـريعًا يـا صاحـب الجلالـة».

نظر الإمبراطور إلى ابنته نظرةً ملتاعةً، فلمست ذراعه وقالت بنبرةٍ مهدِّئة: «هذا ما تدرَّبت من أجله يا أبي».

أخذ الإمبراطور نفسًا عميقًا.

تمتمت الأُمُّ العجوز: «لن تتمكَّني من تهدئة هذا الشيء».

شدَّ الإمبراطور قامته، ووقف في شموخ متذكِّرًا هيبته ومقامه الرفيع: «من سيتفاوض باسمك يا نسيبي؟».

استدار پول، ورأى أُمَّه تقف بجفنين مسدلين إلى جوار تشاني وسط مجموعة من الحرس الفدائيين. اقترب منهم، ووقف ينظر إلى تشاني.

همست تشاني: «أتفهَّم الأسباب. افعل ما تراه صوابًا يا أصول».

أحسَّ پول في صوتها بما تكتمه من دموع، فلمس وجنتها وهمس: «لا تخشي شيئًا يا سِيهَياتي، أبدًا»، ثم أنزل ذراعه، وواجه أُمَّه قائلًا: «ستتفاوضين باسمي يا أُمَّاه، وتشاني إلى جوارك. إنها حكيمة ونافذة البصيرة. صدق من قال إن لا أحد يساوم أفضل من الفرمِني. ستنظر إلى الأمر بعين حبها لي، وستفكِّر في مصلحة أبنائها المستقبليين. أصغي إليها يا أُمِّي».

أحسَّت چيسيكا بما يدور في عقل ابنها من حساباتٍ غليظة، فكتمت رجفة اعترتها، وسألته: «ما تعليماتك؟».

قال: «ستكون حصَّة الإمبراطور الكاملة في شركة تشوم مهري».

– «كاملة؟». صدمها الأمر حتَّى كاد يعجزها عن النطق.

– «سيُجرَّد من كل شيء. أيضًا أريد لجيرني هاليك أن يُمنح رتبة نبيل وأن يكون له مقعدًا في مجلس إدارة تشوم، وأن يُمنح

حكم إقطاعية كلادان. ستمنح ألقاب وصلاحيات لكل ناجٍ من أتباع آل آتريديز دون استثناء، حتَّى أقل الجنود رتبةً».

سألته چيسيكا: «ماذا عن الفرمِن؟».

قال پول: «الفرمِن أتباعي، وما سيحصلون عليه سيوزِّعه عليهم المؤدِّب. سيبدأ الأمر بتعيين ستيلجار حاكمًا على أرَّاكس، لكن يمكن لهذه الأمور أن تنتظر».



سألته چيسيكا: «وماذا عني؟».

- «أترغبين في شيءٍ معيَّن؟».

قالت: «كلادان رُبَّما»، وهي تنظر إلى جيرني: «لست متأكِّدةً. لقد صرت فرمِنية إلى حدٍّ كبير، وأمّهم الموقَّرة كذلك. أحتاج إلى مدَّة من السلام والسكون أفكِّر فيها».

قال پول: «لك هذا، وأيّ شيءٍ آخر نستطيع أنا وجيرني توفيره لك».

أومأت چيسيكا، وقد شعرت فجأة بأنها عجوز منهكة، ثم نظرت إلى تشاني: «وماذا عن الخليلة الملكية؟».

قالت تشاني: «لا أريد ألقابًا ولا أيَّ شيءٍ. أتوسَّل إليك».

نظر پول في عينيها، وتذكَّر مظهرها حين وقفت ذات يوم محتضنةً ليتو الصغير بين ذراعيها، ابنهما الذي قضى نحبه في هذه الشِّدة، فهمس لها: «وها أنا أقسم لك الآن أنك لن تكوني في حاجةٍ إلى لقب. تلك المرأة الواقفة هناك ستصير زوجتي، وستبقين أنت مجرَّد خليلة، لأن هذا شأن سياسي فحسب، ولأن علينا فرض السلام بدايةً من هذه اللحظة كي نكسب عائلات مجلس اللاندسراد الكبرى في صفِّنا. لا بُدَّ لنا من اتِّباع القوانين.

أمَّا تلك الأميرة فلن تحصل مني سوى على اسمي. لا ابن، ولا لمسة، ولا نظرة حانية، ولا لحظة اشتهاء».

قالت تشاني: «هذا ما تقوله الآن»، ورنت عبر الفرفة إلى الأميرة الطويلة.

همست لها جيسيكا: «ألم تعرفي طبع ابني بعد؟ انظري إلى تلك الأميرة الواقفة هناك في شموخٍ واعتداد بالنفس. يقولون إن لها طموحات أدبية. لنأمل أن تجدَ العزاء والسلوى في هذه الأمور، إذ لن يكون لديها شيء آخر»، وفلتت ضحكة مريرة من جيسيكا، قبل أن تردف: «فكِّري في الأمر يا تشاني، تلك الأميرة ستحمل اسمه، لكنها ستعيش حياتها أقل شأنًا من حظيَّة، ولن تذوق لحظة حنان واحدة من الرجل الذي ارتبطت به. أمَّا نحن يا تشاني، من نُنعت بالخليلات، سيسمِّينا التاريخ زوجات».

ملحقات

الملحق الأوَّل:

بيئة كثيب

في المساحات المحدودة، تتزايد الأعداد حتَّى تبلغ نقطة حرجة تتضاءل بعدها الحرِّية. ينطبق هذا على البشر الذين يعيشون في مساحة محدودة داخل نظام بيئي كوكبي، كما ينطبق على جزيئات الغاز في قارورة محكمة الغلق. لكن في حالة الوضع البشري، لا يتعلق السؤال بعدد الأشخاص القادرين على البقاء أحياء داخل النظام، بل بنوعية الحياة التي سيعيشها أولئك الناجون.

پاردو كاينز
عالم البيئات الكوكبية الأوَّل على أرَّاكس.

عادةً ما يترك أرَّاكس انطباعًا على عقل الوافد الجديد بأنه أرضٌ قاحلة. قد يظنُّ الغريب أن لا شيء يمكن أن يعيش أو ينمو في هذا العراء، وأن الكوكب مقفر بحق، وأنه لم يكن خصبًا من قبل ولن يكون أبدًا.

أمَّا في نظر پاردو كاينز، لم يكن الكوكب سوى شكل من أشكال الطاقة، آلة تحرِّكها شمسها، وما كان ينقصه هو إعادة تشكيله ليلائم احتياجات الإنسان. لذا اتَّجه تفكيره على الفور إلى الكتلة السكَّانية التي تتنقَّل بحرِّية على سطحه: الفرمِن. يا لهم من أداةٍ ويا له من تحدٍّ. الفرمِن: إنهم قوَّة بيئية وجيولوجية ذات إمكانات غير محدودة تقريبًا.

كان پاردو كاينـز رجـلًا عمليّـا وبسـيطًا، وسـأل نفسـه إلام يحتـاج المـرء لبـدء خطَّتـه؟ تجنُّـب القيـود التـي يفرضهـا الهراكنـة؟ ممتـاز. إذًا فليتـزوَّج بامـرأة فرمِنيـة. وحيـن تنجـب لـه ابنًـا فرمِنيًـا يبـدأ بـه، يبـدأ بليیت كاينـز وبالأطفـال الآخريـن، فيثقِّفهـم بيئيًـا، وينشـئ لغـةً جديـدةً برمـوز تسـلِّح العقـل وتعلِّمـه كيفيـة التلاعـب ببيئـة كوكبيـة كاملـة: بمناخهـا، وبحدودهـا الموسـمية. وفـي النهايـة تؤهِّلـه لتجـاوز كل أفـكار السُّـلطة والوصـول إلـى الوعـي الباهـر بمفهـوم النظـام.

قـال كاينـز: «أيُّ كوكـب ملائـم لحيـاة البشـر يتمتَّـع بجمـال داخلـي يبـدو للمـرء فـي حركتـه وفـي توازنـه. فـي هـذا الجمـال تـرى اسـتقرارًا ديناميًـا ضروريًـا لجميـع أشـكال الحيـاة وذا هـدف بسـيط: الحفـاظ علـى إنتـاج أنمـاطٍ إحيائيـة متضافـرة شـديدة التنـوُّع. فالحيـاة هـي التـي تمـدُّ النظـام المغلـق بأسـباب الحيـاة. الحيـاة -كل أشـكال الحيـاة- تعمـل علـى خدمـة بعضهـا بعضًـا. العناصـر الغذائيـة الضروريـة تصنعهـا الحيـاة مـن أجـل الحيـاة، وتـزداد تنوُّعًـا مـع ازديـاد تنـوُّع أشـكال الحيـاة. وفـي النهايـة تنبـض البيئـة كلهـا بالحيـاة، وتمتلـئ بالعلاقـات، وبالعلاقـات ضمـن العلاقـات».

قـال پـاردو كاينـز هـذا الـكلام فـي محاضـرة ألقاهـا علـى فصـل فـي أحـد السيیتشـات.

لكـن قبـل المحاضـرات، كان عليـه أن يقنـع الفرمـن. ولتفهـم كيـف حـدث هـذا، عليـك أوَّلًا أن تفهـم عقليتـه المتفـرِّدة الجبَّـارة، والبـراءة التـي يتعامـل بهـا مـع أيِّ مشـكلة. لـم يكـن پـاردو كاينـز سـاذجًا، ولـم يسـمح لأيِّ شـيءٍ بـأن يشـتِّت تفكيـره.

فـي ظهـر يـومٍ حـار، كان كاينـز يسـتكشـف بيئـة أرَّاكـس فـي مركبـة أرضيـة فرديـة، حيـن شـاهد مصادفـةً مشـهدًا مؤسـفًا معتـاد الحـدوث.

ستَّة قتلة من الهراكنة -مدرَّعون ومسلَّحون بالكامل- يحاصرون ثلاثة شبَّان من الفرمِن في العراء خلف الجدار الحامي بالقرب من قرية ويندساك. في نظر كاينز، كانت معركةً بلهاء، هزليةً أكثر منها واقعيةً، حتَّى أدرك أن الهراكنة ينوون قتل الفرمِن. حينها، كان أحد الشبَّان قد سقط مقطوع الشرايين، وأسقط معه اثنان من القتلة، وتبقَّى أربعة رجال مسلَّحين ضد شابين أعزلين.

لم يكن كاينز رجلًا شجاعًا، ولم يكن في جعبته سوى رجاحة العقل والحذر. لكن الهراكنة كانوا يقتلون الفرمِن، ويدمِّرون الأداة التي ينوي استخدامها في إعادة تشكيل الكوكب! لذا فعَّل كاينز درع الطاقة الذي يرتديه، وخاض المعركة، وقتل اثنين من الهراكنة بنصلٍ مُنسلٍّ قبل أن يشعروا بوجود شخصٍ خلفهم. ثم راوغ طعنة سيفٍ آخر، ونحره بضربه أنيقة، وترك القاتل الأخير للشابَّين الفرمِنيين، محوِّلًا انتباهه إلى إنقاذ الفتى المستلقي على الأرض. وبالفعل نجح في إنقاذه، فيما كان الهاركونني السَّادس يلقى جزاؤه.

الآن، صار الجميع في موقفٍ محرج! لم يعلم ثلاثي الفرمِن ماذا يفعلون بكاينز. كانوا يعرفونه بالطبع، فلا أحد يطأ بقدمه أرَّاكس دون أن يصل للفرمِن ملفٌّ كامل عنه. وما كانوا يعرفونه عنه أنه موظَّف إمبراطوري.

لكنه قتل الهراكنة!

لو كان رهط الفرمِن هذا من البالغين، لرُبَّما هزُّوا أكتافهم أسفًا وهم يرسلون روحه لتنضم إلى أرواح الرجال الستَّة الصرعى على الأرض. لكن هؤلاء كانوا شبابًا يافعين، غير ذوي خبرة، وكل ما شعروا به أنهم مدينون بحياتهم إلى هذا الموظَّف الإمبراطوري.

بعد يومين، انتهى الأمر بكاينز في أحد السييتشات المطلّة على «ممرّ الرياح». بالنسبة إليه، كان كل شيء طبيعيًا جدًا. راح يكلّم الفرمن عن الماء، وعن كثبانٍ رملية يغطيها العشب ويثبّتها في مكانها، وعن مزارع خضراء زاخرة بنخيل التّمر، وعن قنوات مائية ممتدّة تتدفّق عبر الصّحراء. راح يتكلّم ويتكلّم ويتكلّم بلا انقطاع.

ومن حول كاينز، احتدم نقاشٌ لم يلتفت إليه. ماذا نفعل مع هذا المجنون؟ لقد صار يعرف مكان سييتش رئيس. ماذا نفعل؟ ماذا عمّا يقول، هذا الحديث المجنون عن جنّة على أرّاكس؟ مجرّد كلام. إنه يعرف أكثر ممّا ينبغي. لكنه قتل هراكنة! ماذا عن عبء الماء؟ منذ متى ونحن ندين للإمبراطورية بأيّ شيء؟ لكنه قتل هراكنة. أيٌّ شخص بإمكانه قتل الهراكنة. لقد فعلتها بنفسي.

لكن ماذا عن هذا الكلام الذي يقوله عن ازدهار أرّاكس؟

الجواب سهل: أين الماء الكافي لكل هذا؟

يقول إن الماء موجود! ولا تنس أنه أنقذ ثلاثة منا.

أنقذ ثلاثة حمقى أوقعوا نفسهم في قبضة الهراكنة! كما أنه رأى سكاكين عاجية!

كان القرار الذي توصّلوا إليه معروفًا قبل ساعات من نطقه، فرابطة الطاو التي تجمع بين أفراد السييتش توحي لهم بما يجب عليهم فعله، مهما كانت الضرورة مريرة. أرسلوا مقاتلًا متمرّسًا بسكينٍ مكرّسة لتنفيذ المهمّة، وتبعه اثنان من رجال الماء للحصول على ماء الرجل. كانت ضرورة مريرة.

على الأرجح، لم يعلم كاينز من الأساس بأمر هذا القادم

لقتله. كان يتحدَّث إلى مجموعة منتشرة حوله على مسافة حذرة، وكان يسير في دائرة قصيرة وهو يتكلم، معبِّرًا بيديه. كان يتحدَّث عن مسطَّحات مائية شاسعة، وعن المشي في العراء دون بذلة تقطير، وعن برك يمكن اغتراف الماء منها! وعن ثمار البرتقال!

كان ذلك حين واجهه حامل السكِّين.

قال كاينز له ببساطة: «انصرف»، وواصل كلامه عن مصايد رياح سرِّية. تجاوز كاينز الرجل، ووقف بظهرٍ مكشوف أمام الطعنة الطقسية.

لا أحد يعرف ما دار وقتها في ذهن هذا الجلَّاد المكلَّف بتنفيذ بالمهمَّة. هل أنصت إلى كاينز وصدَّق كلامه؟ من يعرف؟ أمَّا ما فعله فمعروف وموثَّق. كان اسمه أولييت، أي لييت الأكبر. مشى أولييت ثلاث خطوات وهوى بجسده عامدًا على نصل سكِّينه، وبهذا يكون قد «صرف نفسه» بالفعل. أيُعدُّ هذا انتحارًا؟ يقول البعض إن شَيَّ هولود هي من ألهمته لفعل هذا.

يا له من نذير!

منذ تلك اللحظة، لم يكن على كاينز إلَّا أن يشير قائلًا: «اذهبوا إلى هناك»، فتتحرَّك قبائل كاملة من الفرمن. يموت الرجال وتموت النساء ويموت الأطفال، لكنهم يذهبون.

عاد كاينز إلى عمله الإمبراطوري، مديرًا لمحطات التجارب البيولوچية. وبدأ الفرمن يظهرون ضمن موظفي المحطة. نظر الفرمن بعضهم إلى بعض في عدم تصديق. كانوا الآن يخترقون «النظام»، وهو أمر لم يخطر على أذهانهم من قبل. بدأت أدوات المحطَّة تجد طريقها إلى السييتشات، خاصَّةً قواطع الليزر التي كانت تستخدم لحفر أحواض التجميع الجوفية ومصايد الرياح الخفية.

بدأ الماء يتجمَّع في الأحواض. أصبح واضحًا للفرمِن أن كاينز لم يكن مجنونًا تمامًا، بل مجنونًا بما يكفي ليكون مقدَّسًا. كان يرونه من الأُمَّة، تابعي الأنبياء. كانت روح أولييت قد ارتقت إلى مصاف السَّادة، القضاة السماويين.

كان كاينز -العملي الشديد العزم- يدرك أن الأبحاث التي على درجة عالية من التنظيم لا تنتج شيئًا جديدًا. لذا أنشأ وحدات تجارب صغيرة تتبادل البيانات بصورة منتظمة لتحقيق ما يُدعى بتأثير تانسلي، وترك كل مجموعة تصل إلى نتائجها الخاصة. كان عليهم أن يراكموا ملايين الحقائق الصغيرة. نظَّم كاينز اختبارات تشغيل أوَّلية معزولة، لوضع الصعوبات التي يواجهونها في منظورها الصحيح.

أخذوا عيِّنات جوفية من جميع أنحاء البيداء، ورسموا خرائط لتقلُّبات الطقس الطويلة الأمد، أي المناخ. وجد كاينز أن في الحزام العريض المحصور بين خطَّي الـ70 درجة شمالًا وجنوبًا، لم تتجاوز درجات الحرارة لآلاف السنين نطاق الـ254 إلى 332 درجة مطلقة، وأن لهذا الحزام مواسم إنبات طويلة تتراوح درجات الحرارة فيها ما بين 284 إلى 302 درجة مطلقة. هذا هو «المدى الذهبي» لازدهار الحياة، ما إن يجدوا حلًّا لمشكلة المياه.

سأل فرمِني: ومتى سنجد حلًّا؟ متى سنرى أرَّاكس جنَّة؟

وبطريقة المعلمين في إجابة طفلٍ يسأل عن حاصل جمع 2 و2، قال لهم كاينز: «من ثلاثمئة إلى خمسمئة سنة».

لو أن قومًا أقل جلدًا سمعوا هذا لناحوا جزعًا وإحباطًا. لكن الفرمِن كانوا قد تعلَّموا الصبر من كثرة السِّياط المسلَّطة على ظهورهم. صحيح أن المدَّة الزمنية كانت أطول ممَّا يتوقَّعون،

لكنهم جميعًا كانوا متيقّنين من أن اليوم المبارك آتٍ لا ريب فيه. لذا شدُّوا زنانيرهم وعادوا إلى العمل. بطريقةٍ ما، جعلت خيبة الأمل وعد الجنة المرتقبة أوقع في نظرهم.

لم تكن مشكلة أرّاكس الرئيسة في الماء، بل في الرطوبة، إذ كانت الحيوانات الأليفة شبه منعدمة، والماشية نادرة. كان بعض المهربين يستخدمون حميرًا صحراوية مستأنسة تُدعى كولون، لكن ثمن الماء الذي ينفقونه نظير ذلك ظلّ مرتفعًا، حتّى بعد تزويد الحمير ببذلات تقطيرٍ معدّلة.

فكر كاينز في إنشاء وحدات استخلاص لاستعادة الماء من الهيدروچين والأكسچين المحبوسين في الصخور الطبيعية، لكن عامل كلفة الطاقة كان باهظًا جدًّا. أمّا الغطاءان الجليديّان القطبيان (بغض النظر عن الإحساس الزائف بالأمان المائي الذي يمنحانه لكادحي الكوكب) فكانا يحتفظان بكمّية مياه قليلة جدًّا لا تكفي لمشروعه، فضلًا عن أن كاينز كان قد بدأ يشتبه في المكان الفعلي لوجود الماء. كانوا يرصدون معدّل زيادة مطّرد في الرطوبة على الارتفاعات المتوسطة، وفي ظلِّ هبوب رياح معيّنة. كان الدليل الأساسي واضحًا في نسب الغازات في الغلاف الجوي الذي يتكوّن من: 23% أكسچين، 75.4% نيتروچين و0.23% ثاني أكسيد الكربون، مع كمّية قليلة من الغازات الأخرى.

كانت تُوجد نبتة جذرية محلية نادرة تنمو في المنطقة الشمالية المعتدلة على ارتفاع 2500 متر، درنة طولها مترين، وتنتج نصف لتر من الماء. وبالإضافة إليها، تُوجد نباتات إعادة تشكيل سطح الصّحراء، التي أظهرت الأنواع القويّة التحمُّل منها بوادر إزهار عند زراعتها في المنخفضات وتبطينها بمكثّفات الندى.

ثم رأى كاينز الغور الملحي.

كانت ثوبتره تحلق بين المحطات في عمق البيداء، حين انحرفت عن مسارها بفعل عاصفة. بعد مرور العاصفة، رأى الفور: منخفض بيضاوي عملاق عرضه ثلاثمئة كيلومتر تقريبًا، مفاجأة بيضاء تتلألأ في الصَّحراء المفتوحة. هبط كاينز بثوبتره، وتذوَّق سطح الغور الذي كنسته العاصفة

هذا ملح.

الآن تيقَّن.

في الماضي، كان على أرَّاكس مسطَّح مائي. بدأ يعيد النظر في الأدلة البادية على الآبار الجافة، التي ظهرت بها نضائض ماء، ثم ما لبثت أن اختفت ولم تعاود الظهور قط.

أرسل كاينز خبراء المسطَّحات المائية الفرمنيين الجدد إلى العمل: خيطهم الأساسي هو البقايا الجلدية الملمس التي يُعثر عليها أحيانًا مع كتلة الاسپايس الأوَّلية بعد خروجها من باطن الأرض في هبَّة. كانت هذه البقايا تُنسب إلى «سمكة الرمال» الخيالية في قصص الفرمِن الشعبية. لكن مع تحوُّل الحقائق إلى أدلَّة، برز مخلوق ليشرح هذه البقايا الجلدية: سبَّاحة رملية تحجز الماء في جيوبٍ خصبة بين الطبقات المساميَّة السفلية في درجة حرارة أسفل 280 درجة مطلقة.

كانت «سارقات المياه» هذه تموت بالملايين مع كل هبَّة اسپايس من جوف الأرض، فأيّ تغيُّر طفيف في الحرارة بمقدار خمس درجات قد يقضي عليها. أمَّا القلَّة الناجية فتدخل في حالة سُباتٍ كيسي شبه خامل، وتخرج منه في غضون ستّ سنوات وقد تحوَّلت إلى ديدان رملية صغيرة (طولها نحو ثلاثة

أمتار). من بين هذه، قلّة قليلة تنجح في تحاشي أخواتها الأكبر حجمًا وجيوب الاسپايس الأوّلي المائية، لتصل إلى مرحلة البلوغ، وتصبح شَيّ هولود عملاقة (يعلم الفرمِن منذ زمنٍ طويل أن الماء مادّة سامّة لشَيّ هولود، ولطالما استخدموا هذه المعلومة في إغراق «الديدان المتقزّمة» النادرة التي تعيش في نطاق العِرق الأصغر لإنتاج مخدر طيف الوعي الذي يسمّونه «ماء الحياة». «الدودة القزمة» هي نوع بدائي من شَيّ هولود لا يزيد طوله على تسعة أمتار).

الآن صاروا يدركون العلاقة الدائرية: تصنع يرقات الصّانعة الصغيرة كتلة الاسپايس الأوّلية، ثم تتحوّل الصّانعات الصغيرة إلى شَيّ هولود. تبعثر شَيّ هولود الاسپايس الذي تتغذّى عليه كائنات مجهرية تُسمّى العوالق الرملية، وتتغذّى شَيّ هولود على العوالق الرملية، والأخيرة تتّخذ لها جحورًا في الرمال، حيث تنمو وتتحوّل إلى يرقات الصّانعة الصغيرة.

حوّل كاينز ورجاله اهتمامهم من هذه العلاقات المعقّدة، وركّزوه على النظام البيئي الدقيق، مبتدئين بالمناخ: كثيرًا ما تتراوح درجة حرارة سطح الرمال بين 344 إلى 350 درجة مطلقة. مسافة قدم واحد تحت السطح تكون حرارته أقل بمقدار 55 درجة، ومسافة قدم واحد فوق سطح الأرض السطح تكون حرارته أقل بمقدار 25 درجة، ويمكن أن توفّر أوراق النباتات والمناطق الظليلة درجة حرارة أقل بـ18 درجة إضافية. ثانيًا، تأتي المغذّيات: أغلب رمال أرّاكس ناتجة عن هضم الديدان، أمّا الغبار (وهو المشكلة الحقيقية الأكبر المنتشرة في كل مكان) فينتج عن عمليات الزحف السطحي المستمرّة، أو ظاهرة «القفز

الرملي» التي تسببها حركة الرمال المستمرّة. تتراكم حبيبات الرمال الخشنة على جوانب الكثبان المعاكسة لاتّجاه الريح، أمّا الجوانب المواجهة للريح فتتكوّن من حبيبات ناعمة وخشنة. عادةً ما تكون الكثبان القديمة صفراء (مؤكسدة)، في حين ما تكون الكثبان الحديثة بلون صخورها الأُمّ، غالبًا رمادية.

شكّلت جوانب الكثبان القديمة المعاكسة لاتّجاه الريح أولى المناطق الزراعية. استهدف الفرمِن في البداية إنشاء دورة حياة نوع من العشب ينمو بسهولة في الترب الجافّة والمقفرة له أهداب شعرية شبيهة بالخث، كي يتشابك بعضه ببعضٍ ويغطّي الكثبان، ومن ثمَّ يثبّتها في مكانها بحرمان الريح من أهم أسلحتها: حبيبات الرمال القابلة للتحريك.

بعدها خُصّصت مناطق واسعة قابلة للتكييف في أقصى الجنوب، بعيدًا عن أعين بصّاصي الهراكنة، وزُرعت بأعشاب التربة الجافة المتطفّرة أوّلًا على طول جوانب كثبان مختارة معاكسة لاتّجاه الريح تعترض مسار الرياح الغربية السائدة. بعد تثبيت الجوانب المعاكسة للريح يزداد ارتفاع الجوانب المواجهة للريح أكثر فأكثر، فينتقل العشب إليه لمواكبة هذا الارتفاع. بهذه الطريقة، نجحوا في إنتاج أسياف حاجزة عملاقة (كثبان مرتفعة ذات قمم متعرجة) يزيد ارتفاعها على 1500 متر.

عندماً وصلت الكثبان الحاجزة إلى ارتفاعات كافية، زُرعت الجوانب المواجهة للريح بأعشاب أمتن ذات أوراقٍ حادّة، وثُبّت كل هيكل من هذه الهياكل العملاقة على قاعدة سمكها ستّة أضعاف ارتفاعها.

ثم جاؤوا بفسائل ذات جذورٍ أعمق: بدؤوا بالنباتات المؤقّتة (كرِجل الأوز، والزربيح، والقطيفة). ثم أدخلوا نبات الوزّال،

والترمس المنخفض، والطرفاء، والصنوبر الملتوي، وعارشة الأوكالبتوس (من النوع المتكيِّف للعيش في قطاعات كلادان الشمالية). ثم وصلوا إلى النباتات الصحراوية الفعلية: الفربيون الشمعي، والساجوار، وصبَّار بيسناجا، وصبَّار البرميل. وحيثما كانت تنمو، زرعوا مريمية الجمل، وعشب البصل، وعشب جوبي الريشي، والبرسيم البري، وشجيرة الجحور، وزهرة غندور الرمال، وزهرة الربيع المسائية، وشجيرة البخور، والشجرة الدخانية، وشجيرة الكريوزوت.

انتقلوا بعد ذلك إلى الحياة الحيوانية الضرورية. الكائنات التي تحفر جحورًا في الأرض، لفتح التربة وتهويتها: الثعلب القزم، وفأر الكنغر، وأرنب الصَّحراء، وسلاحف الرمال. وكذلك المفترسات اللازمة للحفاظ على التوازن البيئي: صقر الصَّحراء، والبومة القزمة، وعقاب الصَّحراء، وبومة الصَّحراء. ثم الحشرات التي ستملأ المنافذ التي تعجز هذه المفترسات عن الوصول إليها: العقارب، والحريشة، والعناكب الجحرية، والزنبور اللادغ، وذبابة الدودة الحلزونية. وخفَّاش الصَّحراء ليعمل على حفظ أعداد هذه.

ثم جاء موعد الاختبار الحاسم: نخيل التمر، والقطن، والشمَّام، والقهوة، والنباتات الطبِّية: أكثر من 200 نوع من النباتات الغذائية المختارة التي يجب اختبارها وتكييفها.

قال كاينز: «الشيء الذي لا يدركه الجاهل بيئيًا بشأن النظام البيئي، أنه نظام. نظام! والأنظمة تحتفظ باستقرار هش قد يُدمَّر بزلَّة واحدة في موقع واحد. يتمتَّع النظام بترتيب معيَّن، ويتدفَّق من نقطة إلى أخرى. لو أعاق شيءٌ هذا التدفُّق، ينهار الترتيب.

قد لا يلتفت غير المتمرِّسين إلى هذا الانهيار حتَّى يفوت الأوان، لهذا فإن أهم وظائف علم البيئة هو فهم التبعات والعواقب».

هل نجحوا في تخليق نظام؟

راقب كاينز ورجاله، وانتظروا. فهم الفرمِن الآن ما كان يقصده كاينز حين مدَّ توقُّعه إلى خمسمئة عام.

ثم جاء تقرير من مزراع النخيل:

عند الحافة الصحراوية للأراضي المزروعة، تتسمَّم العوالق الرملية عند تفاعلها مع أشكال الحياة الجديدة. السبب: عدم توافق البروتين. تتكوَّن مياه سامة عند الحافَّة تأبى الحياة الأرَّاكسية أن تمسَّها، وأحاطت المزارع منطقة جدباء حتَّى شَيْ هولود لا تدخلها.

ذهب كاينز إلى المزارع ليرى بنفسه، قاطعًا مسافة عشرين مطراقًا (في هودج على ظهر دودة كأنه رجل جريح أو أُمٌّ موقَّرة، لأنه أخفق في تعلُّم أن يكون راكب رمال). اختبر كاينز المنطقة الجدباء (التي تتصاعد منها رائحة زنخة تزكم الأنوف) وخرج منها بمكافأة: هدية من أرَّاكس.

أدت إضافة الكبريت والنيتروچين الثابت إلى تحويل المنطقة الجدباء إلى تربة زراعية خصبة صالحة للحياة المستوطنة، وصار بإمكانهم توسيع الرقعة الزراعية متى شاؤوا!

سأل الفرمِن: «هل سيختصر هذا المدَّة الزمنية؟».

راجع كاينز معادلاته الكوكبية. في ذلك الوقت كانت أعداد مصايد الرياح آمنة إلى حدٍ كبير. كان سخيًا في مخصَّصاته، مدركًا أنه لا يستطيع رسم خطوط دقيقة وواضحة حول المسائل البيئية، لذا كان لا بُدَّ من تجنيب قدرٍ معيَّنٍ من الغطاء النباتي

لتثبيت الكثبان الرملية، وقدر معيَّن لاستخدامها مواد غذائية (للبشر والحيوانات)، وقدر معيَّن لحبس الرطوبة في الجذور ولإمداد المناطق الجافة المحيطة بالمياه. بحلول ذلك الوقت، كانوا قد رسموا خرائط للقطاعات الباردة المتنقِّلة في البيداء، إذ كان لا بُدَّ من إدراجها في المعادلات. حتى شَيّ هولود كان لها مكان في معادلاتهم، فهذه يجب ألَّا تُدمَّر أبدًا، وإلا ستنفد ثروة الاسپايس. لكن «مصنع» الديدان الهضمي الداخلي، بتركيزاته الهائلة من المواد العضوية والأحماض، كان مصدرًا هائلًا للأكسچين. الدودة متوسطة الحجم (التي يصل طولها إلى 200 متر تقريبًا) تطلق في الغلاف الجوي قدرًا من الأكسچين يوازي ما تطلقه عشرة كيلومترات مربعة من المساحات الخضراء التي تؤدِّي عملية التمثيل الضوئي.

كان عليه التفكير في أمر النقابة أيضًا، فرُشى الاسپايس التي تُدفع إلى النقابة نظير أن تمنع أقمار الطقس الصناعية ووسائل المراقبة الأخرى من الدوران حول أرَّاكس كانت قد وصلت إلى أرقام فلكية بالفعل.

ولا يمكن تجاهل الفرمِن كذلك. بالذَّات الفرمِن، بمصايد الرياح التي تحت أيديهم، وحيازتهم العشوائية الأراضي المحيطة بالموارد المائية. الفرمِن بثقافتهم البيئية الجديدة، وحلمهم بتغطية مناطق شاسعة من أرَّاكس بالغابات، عبر المرور بمرحلة انتقالية من المراعي الصناعية.

وأخيرًا، وصلت حساباته إلى رقم محدَّد، أبلغهم كاينز به: ثلاثة بالمئة. إذا تمكَّنوا من جعل ثلاثة بالمئة من الحياة النباتية على أرَّاكس تبدأ تكوين مركبات الكربون، ستنشأ دورة مكتفية ذاتيًا.

سأله الفرمِن: «ولكن متى؟».

- «أوه، بعد نحو ثلاثمئة وخمسين عامًا».

إذًا كان ما قاله هذا الأُمَّة منذ البداية صحيحًا: لن يتحقَّق الأمر في حياة أيِّ شخص ممَّن على قيد الحياة الآن، ولا في حياة ثمانية أجيال من الأحفاد، لكنه سيتحقَّق في النهاية.

وهكذا، استمرَّ العمل بلا انقطاع: بناء، زراعة، حفر، تدريب أطفال.

ثم مات كاينز الأُمَّة في انهيارٍ صخري في حوض الجصّ.

في وقت وفاته، كان ابنه، لييت كاينز، في التاسعة عشرة من عمره، فرمِنيًّا كاملًا، وراكب رمال قتل أكثر من مئة هاركونني. بطبيعة الحال، كان طلب التعيين الإمبراطوري الذي تقدَّم به كاينز الأب باسم ابنه قد قوبل بالموافقة. في هذه الحالة بالتحديد، حقق نظام فارفلوشس الطبقي الصَّارم غرضه المطلوب على النحو الأمثل، فقد كان الابن مدرَّبًا على اتِّباع خُطى أبيه.

بحلول هذا الوقت، كان المسار قد حُدِّد، وواصل خبراء البيئة الفرمِنيين سعيهم فيه، وما كان على لييت كاينز إلَّا أن يراقب الهراكنة ويتجسَّس عليهم ويقضَّ مضاجعهم. إلى أن جاء اليوم الذي ابتُلِي فيه كوكبه بمجيء بطل.

الملحق الثَّاني:

ديانة كثيب

قبل مجيء المؤدِّب، كان فرمِن أرَّاكس يعتنقون ديانة تبدو جذورها المستمدَّة من العقيدة الماومثية السارية واضحة لعين أيِّ باحث، وكثيرون تتبَّعوا افتراضها المفرط من ديانات أخرى. المثال الأكثر شيوعًا هو «ترنيمة الماء»، التي هي اقتباس مباشر من دليل الطقوس الكاثوليكي البرتقالي ودعاء يطالب بسُحُب المطر التي لم يشهد أرَّاكس مثلها قط. لكن تُوجد نقاط اتفاق أعمق وأوضح بين كتاب العبر الفرمِني، وتعاليم الإنجيل والعلم والفقه.

يجب أن تبدأ أيُّ مقارنة بين المعتقدات الدينية التي سادت الإمبراطورية حتَّى وقت ظهور المؤدِّب بالقوى الرئيسة التي شكَّلت تلك المعتقدات:

1- أتباع الحكماء الأربعة عشر، أصحاب كتاب الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي، الذين عُبِّر عن آرائهم في التعليقات والأدبيات الأخرى الصادرة عن لجنة المترجمين المسكونيِّين، أو ما سُمِّيت اختصارًا (سي إي تي).

2- طائفة البِني جيسيرِت، التي تنكر أنها منظَّمة دينية، لكنها تمارس أعمالها وراء ستار مبهم من الطقوس الصوفية، والتي يصطبغ تدريبها ورموزها وتنظيمها وطرائق تدريسها الداخلية بصبغة دينية شبه تامَّة.

3- الطبقة الحاكمة اللا أدرية (بما فيها النقابة)، التي تنظر إلى الدين على أنه نوعٌ من عروض الدُمى، الغرض منه تسلية الشعوب وإبقاؤها طيعة، والتي تؤمن -بشكل أساسي- بأن كل الظواهر -بما فيها الظواهر الدينية- يمكن تفسيرها بطرائق مادِّية.

4- ما يُسمَّى «التعاليم القديمة»، بما فيها تلك التعاليم التي حافظ عليها الجوَّالة الزِنسُنِّيون من الحركات الإسلامية الأولى والثانية والثالثة، والمسيحية النافاوية من كوكب شوسوك، والتنوُّعات الإسلامبوذية السَّائدة على كوكبي لانكفيل وسايكون، ومزيج كُتُب الماهايانا لانكفاراتا، والزن هيكِجانشو على كوكب دلتا بافونيس الثالث، والتوراة والزبور التلمودي الناجيان على كوكب سالوسا سوكانداس، وطقوس عُبيَّة المنتشرة، وقرآن مُعاذ التي بقيت تعاليم علمه وفقهه سليمةً لم تُحرَّف بين مزارعي الأُرز البُندي على كوكب كلادان، والبقايا الهندوسية المتفرِّقة في أرجاء الكون وسط أقلِّيات كادحة، وأخيرًا، الجهاد البطلري.

هناك قوَّة خامسة شكلت العقائد الدينية، لكن تأثيرها الشامل والعميق يجعلها جديرة بأن تُفرد لها مساحة خاصَّة.

هذه القوَّة -بلا شك- هي السفر عبر الفضاء، التي تستحقُّ، في أيِّ استعراضٍ للدين، أن تُكتب هكذا، بحروفٍ بارزة:

السفر عبر الفضاء!

ترك تنقُّل البشر عبر الفضاء الشاسع بصمة فريدة على الدين خلال مئة وعشرة القرون التي سبقت الجهاد البطلري. في بدايته، كان السفر عبر الفضاء -على الرغم من انتشاره- غير منظَّم إلى حدٍّ كبير، وبطيئًا، ومحفوفًا بالمخاطر. وقبل احتكار النقابة، كان يتم بخليط غير متجانس من أساليب مختلفة. كانت خبرات الفضاء الأولى -التي كثيرًا ما يُساء فهمها وتتعرَّض لتحريف كبير- معينًا لا ينضب للتأمُّلات الصوفية.

علـى الفـور، أعطـى الفضـاء نكهـةً ومفهومًـا مختلفًـا لأفـكار الخلق. هـذا الاختـلاف ظهـر حتَّـى فـي أكبـر الإنجـازات الدينيـة لتلك المرحلـة. وعبـر كل الديانـات، أثَّـرت فوضـى ظـلام الفضـاء الخارجـي فـي الشـعور بقدسـية الإلـه.

بـدا كأن زُوس –وكل صـوره اللاحقـة– قـد تراجـع إلـى رحـم الظـلام الأمومـي، وطغـت عليـه ذاتٌ أنثويـة مـلأى بالغمـوض، يحمـل وجههـا المرعـب أهـوالًا شـتَّى.

تداخلـت الصيـغ القديمـة، وانعقـد بعضهـا ببعـض، ووُفِّـق وجُمِـع بينهـا لتلبيـة احتياجـات الفتوحـات الجديـدة والرمـوز الدينيـة الجديـدة. كان عصـر صـراع بيـن الصلـوات والأدعيـة القديمـة مـن جهـة أخـرى، وشـياطينٍ وحشـيةٍ مـن جهـة.

ولم ينته الصراع بقرارٍ حاسم.

خـلال تلـك المرحلـة، قيـل إن سـفر التكويـن أُعيـد تفسـيره بحيـث تكـون كلمـات الـرَّب:

«أثمـروا واكثـروا واملـؤوا الكـون، وأخضعـوه، وتسـلَّطوا علـى كل أنـواع الـدَّواب الغريبـة، وعلـى كل الكائنـات المحلَّقـة فـي سـماواتٍ لا حصـر لهـا، وعلـى كل مـا يـدبُّ تحتهـا علـى أراضٍ لا حصـر لهـا[1]».

كان عصـر سـاحراتٍ قوَّتهـن حقيقيـة، وتبـدَّت فـي حقيقـة أنهـن لـم يتفاخـرن قـط بطريقـة قبضهـن علـى الجمـرة.

ثـم جـاء الجهـاد البطلـري: جيـلان كامـلان مـن الفوضـى سـقط بعدهمـا منطـق الآلـة فـي أعيـن النـاس، وبـزغ مفهـوم جديـد:

(1) مـن سـفر التكويـن، الإصحـاح الأوَّل، آيـة 28: «أَثْمِـرُوا وَاكْثُـرُوا وَامْلـؤوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَـا، وَتَسَـلَّطوا عَلَـى سَمَكِ الْبَحْـرِ وَعَلَـى طَيْـرِ السَّـمَاءِ وَعَلَـى كُلِّ حَيَـوَانٍ يَـدِبُّ عَلَـى الأَرْضِ».

«لا يجوز استبدال الإنسان».

كان هـذان الجيـلان مـن العنـف بمنزلـة وقفـة تأمُّليـة للبشـرية جمعـاء. نظـر البشـر إلـى آلهتهـم وإلـى طقوسـهم فـرأوا أنهـا مـلأى بأشـنع المعـادلات: سـيطرة الخـوف علـى الطمـوح.

بشـيء مـن التـردُّد، بـدأ زعمـاء الأديـان التـي سـفك أتباعهـا دمـاء المليـارات يلتقـون لتبـادل وجهـات النظـر. كانـت هـذه خطـوة شجَّعتها نقابـة الفضـاء، التـي كانـت قـد بـدأت تأسـيس احتكارهـا الرحـلات جميعهـا بيـن النجميـة، وشـجَّعتها كذلـك طائفـة البِنـي جيسـيرِت، التـي كانـت تجمـع كل السَّـاحرات تحـت مظلَّـة واحـدة.

ومـن رحـم تلـك الاجتماعـات المسـكونية الأولـى، خـرج تطـوُّران رئيسـان:

الأوَّل: إدراك أن كل الأديـان تشـترك فـي وصيَّـة واحـدة علـى الأقـل: «لا تشـوِّهوا الـروح».

الثَّاني: لجنة المترجمين المسكونيين (سي إي تي).

عقـدت اللجنـة المسـكونية اجتماعاتهـا علـى جزيـرة محايـدة علـى كوكـب الأرض القديـم، مهـد الأديـان. التقـى أعضـاء اللجنـة متَّفقيـن علـى أنّ «للكون جوهـرًا إلهيًـا». حضـر ممثِّـل مـن كل ديانـة يفـوق عـدد أتباعهـا المليـون، ووصلـوا فـي سـرعة مدهشـة إلـى اتفـاق فـوري حـول بيـان هدفهـم المشـترك:

«جئنـا إلـى هنـا لنـزع سـلاح أساسـي مـن أيـدي الأديـان المتنازعـة. هـذا السـلاح هـو ادِّعـاء امتـلاك الوحـي الحقيقـي الوحيـد».

لكـن الابتهـاج بالتوصُّـل إلـى هـذه «العلامـة علـى توافـق عميـق» أثبـت أنـه سـابقٌ لأوانـه. فلأكثـر مـن عـام قياسـي، كان هـذا البيـان هـو الإعـلان الوحيـد الصَّـادر عن اللجنة المسكونية. بـدأ الناس يتحدَّثون

بمرارة عن التسويف، وألّف التروبادور -الشعراء المطربون- أغانٍ لوذعية ساخرة عن «الشيوخ المتعنّتين» المئة وواحد وعشرين، وهو اللقب الذي اشتهر به أعضاء اللجنة المسكونية (اشتُقّ اللقب من نكتةٍ بذيئةٍ لعبت على أحرف الاختصار الأولى، «سي إي تي»، تصف الأعضاء بأنهم «خرّاطون متعنّتون لُعناء[1]»). ما زالت إحدى تلك الأغاني مشهورة إلى اليوم، ويُعاد إحياؤها بشكل دوري. الأغنية بعنوان «استجمام بين أذرع سمراء»، وتقول كلماتها:

«فكّر في أكاليل الزّهور،
والاستجمام بين أذرعٍ سمراء
ومأساة كل هؤلاء
المتعنّتين!
كل هؤلاء المتعنّتين!
الكسالى الخاملين، الكسالى الخاملين.
طوال الوقت نائمين.
لقد أزف وقت
سيّدي إيرل ساندوتش!»[2]

من حينٍ إلى آخر، تسرّبت شائعات من جلسات اللجنة. قيل إنهم يقارنون النصوص، ثم -بتهوّر- ذُكرت أسماء تلك النصوص. أثارت مثل هذه الشائعات أعمال شغب مناهضة للجنة المسكونية، وبلا شك، كانت مصدر إلهام لنكاتٍ جديدة.

ومضى عامان... وازدادا عامًا.

---

(1) ترجمة بتصرُّف.

(2) يبدو من كلمات الأغنية أنها تلمِّح إلى أن أعضاء اللجنة يجتمعون على «جزر هاواي» الأرضية.

توقَّف المفوَّضون -الذين مات تسعة منهم- عن العمل مؤقَّتًا ليشهدوا مراسم تنصيب الأعضاء البدلاء، وأعلنوا أنهم يعملون جاهدين لإنتاج كتاب واحد يتجنَّبون فيه كل «أعراض الماضي الديني المرضية».

قالوا: «نحن ننتج آلة حُبٍّ يمكن عزفها بطرائق شتَّى».

يستغرب الكثيرون كيف تسبَّب هذا البيان في اندلاع أسوأ موجة عنف ضد اللجنة المسكونية. استعدت عشرون طائفة مندوبيها، وانتحر أحدهم بسرقة فرقاطة فضائية والاتِّجاه بها نحو الشمس.

يقدِّر المؤرخون أن أعمال الشغب أودت بحياة ثمانين مليون شخص، أي بمتوسِّط ستة آلاف شخص تقريبًا من كل كوكب مقيَّد في رابطة اللاندسراد وقتها. بالنظر إلى الفتن التي سادت ذلك العصر، قد لا يكون هذا التقدير مفرطًا، بيد أن أيَّ ادِّعاء بأن الرقم دقيق هو مجرَّد ادِّعاء، فالتواصل بين الكواكب في ذلك الوقت كان في أدنى مستوياته.

وبطبيعة الحال، كانت الفتن منجم ذهب للشعراء التروبادور. في إحدى المسرحيات الموسيقية الكوميدية الشهيرة في تلك المرحلة، يظهر واحد من أعضاء اللجنة جالسًا على شاطئ رملي أبيض، مستظلًّا بشجرة نخيل، ويغنِّي:

«في سبيل الرَّب والنساء وروعة الحب
إنَّا ها هنا قاعدون، بلا مخاوف أو هموم.
أيا التروبادور! أيا التروبادور! دندن لي أغنيةً أخرى،
عن الرَّب والنساء وروعة الحب!»

وما الفتن والكوميديا إلَّا شهودٌ على عصرها، تكشف تفاصيلها العميقة، وتفضح ما سادها من مناخ نفسي وشكوك عميقة ومساعٍ حثيثة لما هو أفضل، بالإضافة إلى الخوف العميق من ألَّا يتمخَّضَ شيء من كل هذا.

كانت السدود الكبرى التي تقف في طريق الفوضى في ذلك العصر هي النقابة الوليدة، وطائفة البِني چيسيرِت، ومجلس اللاندسراد، التي واصلت ثلاثتها عقد اجتماعاتها على مدار 2000 سنة على الرغم من العقبات الهائلة. بدا دور النقابة واضحًا، فقد وفَّرت انتقالات مجَّانية لكل أنشطة وأعمال اللاندسراد واللجنة المسكونية. أمَّا دور طائفة البِني چيسيرِت فكان أشدَّ غموضًا. كانت هذه هي المرحلة التي أحكمن فيها قبضتهن على السَّاحرات، واستكشفن تأثير عقاقير الوعي، وطوَّرن أساليب البرانا بيندو، وأسَّسن فرقة المِسيونيرا بروتاكتيڤا، المبشِّرات الحاميات، ذِّراعهن السوداء لنشر الخرافات. لكنها كانت كذلك المرحلة التي شهدت صياغة تعويذة درء الخوف وتجميع كتاب الأزهر، تلك الأعجوبة البيبلىوجرافىة التي تحفظ الأسرار العظمى لأقدم المعتقدات.

رُبَّما يكون تعليق المؤرِّخ إنجسلي هو أفضل تعليق ممكن:

«كانت عصورًا تعجُّ بتناقضات عميقة».

وهكذا، واصلت اللجنة المسكونية جهودها لما يقرب من سبع سنوات، ومع اقتراب الذكرى السنوية السابعة لتأسيسها، أعدَّ أعضاؤها الكون لترقُّب إعلان تاريخي، وفي يوم الاحتفال، كشفوا النقاب عن «الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي».

قالوا: «هذا كتاب شريف عميق الجوهر. إنه وسيلة لجعل البشرية تدرك أنها خليقة من صنع الرَّب».

شُبِّه رجال اللجنة المسكونية بعلماء آثار ينقِّبون عن الأفكار، ألهمهم الرَّب عظمة إعادة الاكتشاف. قيل إنهم أخرجوا إلى النور «حيوية المُثُل العظيمة التي طمرتها رواسب القرون»، وإنهم «أعادوا شحذ التعاليم الأخلاقية الأساسية النابعة من الضمير الديني».

مع الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي، طرحت اللجنة المسكونية كتاب «دليل الشعائر، والتفاسير»، الذي كان عملًا أهم ليس فقط بسبب إيجازه (إذ كان أقل من نصف حجم الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي)، بل لصراحته، ولمزجه بين رثاء الذات وتزكية النفس.

كانت مقدِّمة الكتاب مناشدة واضحة للحكَّام اللا أدريين:

«حين لم يجد البشر أجوبة عن السُّنن* (عشرة الآلاف سؤال ديني التي تتطرحها الشريعة*)، بدؤوا يطبِّقون منطقهم الخاص. كل البشر يسعون إلى الاستنارة، والدين هو أقدم وأشرف طريقة جاهد الإنسان من خلالها إلى فهم كون الرَّب. يسعى العلماء التجريبيُّون إلى اكتشاف القوانين التي تحكم الظواهر، أمَّا مهمَّة الدين فهي مواءمة الإنسان مع هذه القوانين».

لكن في خاتمة «التفاسير»، بدت نبرة المخاطبة قاسية، وتنبَّأت بمصيرهم على الأرجح:

«كثيرٌ مما سُمِّي ديانات كان يحمل موقفًا عدائيًا غير واعٍ تجاه الحياة. على الدِّين الحق تعليم الناس أن الحياة ملأى بالمتع التي ترضي عين الرَّب، وأن المعرفة دون العمل غير مجدية. يجب أن يدرك جيمع البشر أن تعليم الدين بالقواعد والاستظهار ما هو

إلَّا خُدعة. المذهب الصحيح يُدرك بسهولة، وتستطيع تمييزه دون خوف من الفشل لأنه يُوقظ فيك إحساسًا بأنك كنت تعلمه منذ البداية».

ساد شعور غريب بالأمان حين دارت المطابع وآلات النسخ على الشيجواير، وانتشر الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي في أنحاء الكون المعمور جميعها. فسَّر البعض الأمر على أنه علامة من الرَّب، وتفاؤل بالاتِّحاد.

لكن حتَّى أعضاء اللجنة المسكونية صرَّحوا بأن هذا الأمان خادع حين عاد كلٌّ منهم إلى طائفته. أُعدم ثمانية عشر منهم دون محاكمة في غضون شهرين، وأقر ثلاثة وخمسون منهم بخطئهم وتابوا عنه في غضون سنة.

اتُّهِم الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي بأنه كتاب نتج عن «غرور العقل»، وقيل إن صفحاته ملأى باهتمام مُغوٍ بالمنطق، وبدأت تظهر نسخٌ معدَّلةٌ منه موجَّهة إلى الفئات الشعبيّة المتعصّبة دينيًا. اعتمدت هذه النسخ على الرموز الدينية المتعارف عليها (الصليب، والهلال، والشخشيخة الريشية، والحواريين الاثني عشر، وبوذا النحيل، وغيرها) وسرعان ما صار واضحًا أن الحركة المسكونية الجديدة لم تنجح في امتصاص الخرافات والمعتقدات القديمة.

تلقَّف مليارات من المتحمّسين وَصْف هالوَّاي لجهد السنوات السبع الذي بذلته اللجنة المسكونية بأنه «حتمية مجرِّية»، وفسَّروا حرفيه الأوَّلين على أنهما اختصار لعبارة «لعنة الرَّب[1]».

---

(1) في الإنجليزية، الحرفان الأوَّلان من مصطلح Galactophasic Determinism هما ذاتهما الحرفان الأوَّلان لعبارة God-Damned. الترجمة الأكمل لمصطلح Galactophasic Determinism هي «حتمية مرحلية مجرِّية».

رئيس اللجنة المسكونية توري بوموكوه، أحد عُلماء* الزِّنسُنِّيين، وواحد من الأعضاء الأربعة عشر الذين لم يتراجعوا قط (المعروفين بـ«الحكماء الأربعة عشر» في التاريخ الدَّارج)، بدا كأنه يعترف أخيرًا بأن اللجنة المسكونية أخطأت.

فقد قال: «ما كان ينبغي لنا أن نحاول خلق رموزٍ جديدة. كان علينا أن ندرك أنه لم يكن يفترض بنا بثّ الشكوك في المعتقدات السَّائدة، ولا أن نثير الفضول حول الرَّب. إننا نُواجه يوميًا بعدم استقرار مرعب في الشؤون البشرية شتَّى، ومع ذلك نسمح لأدياننا بأن تصبح أكثر تشدُّدًا وتحكُّمًا، وأكثر تقييدًا وقمعًا. ما هذا الظل المخيِّم على درب الأوامر الإلهية؟ إنه تحذير ينبِّئنا بأن المؤلَّفات تدوم، وبأن الرموز تدوم بعد أن تفقد معناها، وبأنه لا توجد خُلاصة لكل المعرفة المتاحة».

لم يغفل منتقدو بوموكو عن نبرة هذا «الاعتراف» المريرة مزدوجة المعنى، وقد أُجبر بعدها بوقت قصير على الفرار إلى المنفى، واعتمدت حياته على تعهُّد النقابة بسرِّية مكانه. يقال إنه مات على كوكب تيوبايل، عزيزًا مكرَّمًا، وإن كلماته الأخيرة كانت: «يجب أن يظل الدين متنفَّسًا للأشخاص الذين يقولون لأنفسهم: "لست الشخص الذي أريد أن أكونه"، ويجب ألَّا يتغلغل أبدًا في مجتمع الرَّاضين عن أنفسهم».

من الممتع الاعتقاد أن بوموكو كان مدركًا للنبوءة التي تحملها كلماته: «المؤلَّفات تدوم»، فبعد تسعين جيلًا، كان الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي وكتاب التفاسير قد تغلغلا في كل الأديان عبر الكون.

حين وقف پول المؤدِّب واضعًا يده اليمنى على الضريح الصخري الذي يضمُّ جمجمة أبيه (اليد اليمنى التي يستخدمها

المباركون، لا اليسرى التي يستخدمها الملعونون)، اقتبس كلمةً بكلمة من كتاب «تراث بوموكو» قائلًا: «أنتم يا من هزمتونا تقولون لأنفسكم إن بابل سقطت وحُبِطت أعمالها. ها أنا أقول لكم إن البشر ما زالوا قيد المحاكمة، كل إنسان في قفص اتّهامه، كل رجل يخوض حربه الصَّغيرة».

يقول الفرمِن عن المؤدِّب إنه أشبه بأبي زيد، الذي تحدَّت فرقاطته قوانين النقابة وسافرت يومًا إلى «هناك» وعادت. في هذا السياق الخاص بأساطير الفرمِن، تعني كلمة «هناك» أرض الروح، عالم المِثال الذي تُزال فيه جميع القيود المادية.

تسهل رؤية التشابه بين هذه الواقعة ومفهوم الكويزاتس هاديراك. فاسم الكويزاتس هاديراك الذي سعت طائفة البِني جيسيرِت لاستيلاده عبر برنامجها الاصطفائي يعني «اختصار الطريق» أو «القادر على الوجود في مكانين في الآن ذاته».

ولكن من الممكن إثبات أن كلا التفسيرين ينبعان مباشرة من كتاب التفاسير: «حين يصبح القانون والواجب الديني شيئًا واحدًا فيك، تشتمل ذاتك على الكون». قال المؤدِّب عن نفسه: «أنا شبكة في بحار الزمن، حُرٌّ في حصد المستقبل والماضي. أنا غشاء متحرك لا يفلت منه أدنى احتمال».

كل هذه الأفكار واحدة ومتماثلة، وتعود إلى الآية 22 من سفر الكلمة في الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي: «سواء نُطِقت الأفكار أم لم تُنطق، فهي شيء حقيقي ولها سلطة على الواقع».

وعندما ندقّق في تعليقات المؤدِّب الواردة في كتاب «أعمدة الكون»، تلك التي فسَّرها كهنته المفوَّضون بالكزارة، نرى حقيقة ما يدين به للجنة المترجمين المسكونيين والفرمِن الزِنسُنِّيين.

قال المؤدِّب: «القانون والواجب شيء واحد، حسنًا لا بأس. ولكن تذكَّر أنك هكذا لن تصبح واعيًا لذاتك أبدًا، أنك هكذا ستظلّ مستغرقًا في شيوعية الطاو، أنك هكذا ستظلُّ دائمًا أدنى مرتبةً من كونك فردًا».

صياغة مطابقة لنصّ الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي (سفر الرؤيا، آية 61).

قال المؤدِّب: «كثيرًا ما يُساهم الدين في ترسيخ أسطورة التقدُّم الذي يحمينا من أهوال المستقبل المجهول».

صياغة مطابقة لنصّ تفاسير لجنة المترجمين المسكونيين (يعزو كتاب الأزهر هذه المقولة إلى الكاتب الديني نيشو، الذي عاش في القرن الأول، ولكن بصياغة مختلفة).

قال المؤدِّب: «إذا حرَّض طفل، أو شخص عديم الخبرة، أو جاهل، أو مجنون، على المتاعب، فهذا خطأ من السُّلطة لعدم توقُّعها ومنعها التلك المتاعب».

يقول الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي: «يمكن أن تُعزى أيُّ خطيئة -بشكل جزئي على الأقل- إلى نزعة السوء الطبيعية الخارجة عن الإرادة المقبولة عند الرّب». (يعزو كتاب الأزهر هذا النصَّ إلى التوراه السامية القديمة).

المؤدِّب: «مد يدك وكُل ممَّا رزقك الرَّب، وحين تمتلئ سبِّح بحمده».

صياغة أخرى لنصِّ الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي

بالمعنى ذاته. (يُرجع كتاب الأزهر أصل هذا النصّ -بصياغة مختلفة قليلًا- إلى الحركة الإسلامية الأولى).

المؤدِّب: «الإحسان هو بداية القسوة».

يقول كتاب العِبر الفرمِني: «إن سلطان الرَّب العطوف لشيء مخيف. ألم يهبنا الرَّب الشَّمس الحارقة (اللَّات)؟ ألم يمنحنا الرَّب أُمَّهات الرطوبة (الأُمَّهات الموقَّرات)؟ ألم يبتلِنا الرَّب بالشيطان (إبليس*، بعلزيول)؟ وألم نتعلَّم العجلة من الشيطان ويطُلنا أذاها؟

(هذا هو مصدر مقولة الفرمِن: «العجلة من الشيطان». تذكَّر أنه مقابل كل سعر 100 يحرقها الجسم في أثناء الحركة [العجلة]، يتبخَّر نحو 170 جرامًا من العرق. كلمة الفرمِن التي تصف العرق هي بُكاء أو دموع، ويمكن ترجمتها وفقًا لإحدى اللهجات إلى: «جوهر الحياة الذي يعتصره الشيطان من روحك»).

وصف كونيويل مجيء المؤدِّب بأنه «موقوت دينيًا»، لكن لم يكن للتوقيت علاقة كبيرة بالأمر. فكما قال المؤدِّب نفسه: «أنا هنا، إذًا ...».

ومع ذلك، من الضروري لفهم التأثير الديني للمؤدِّب ألا تغيب عن الأذهان حقيقة واحدة: أن الفرمِن كانوا قوم صحراء، تأقلم أسلافهم على العيش في البيئات المعادية، والجنوح نحو الصُّوفية

ليس بالأمر الصَّعب حين تقضي كل لحظة من حياتك محاولًا النجاة من العدائية المحيطة بك من كل جانب. «أنت هناك، إذًا...».

في ظلِّ هذه التقاليد المتوارثة، تُقبل المعاناة، رُبَّما كعقاب غير واعٍ، لكنه مقبول. ومن الجدير بالذكر أن طقوس الفرمِن تعفي المرء بالكامل تقريبًا من الشعور بالذنب. لا يرجع هذا بالضرورة إلى التطابق بين قانونهم وديانتهم، ما يجعل العصيان خطيئة، بل رُبَّما الأقرب إلى صواب أن نقول إنهم طهَّروا أنفسهم من الشعور بالذنب بسهولة لأن وجودهم اليومي تطلَّب منهم اتِّخاذ قرارات قاسية (كثيرًا ما تكون مهلكة)، قرارات لو اتُّخذت في عالم أرغد لأثقلت كاهل البشر بشعورٍ لا يطاق بالذنب.

وهذا على الأرجح هو أحد جذور تركيز الفرمِن على الخرافات (بغض النَّظر عمَّا زرعته المبشِّرات الحاميات في أرضهم منها). ما المهم في صفير الرمال كي يؤخذ على أنه نذير شؤم؟ وما معنى أن تضمَّ راحة يدك في قبضة حين ترى القمر الأوَّل للمرَّة الأولى؟ جسد الإنسان ملكه، أمَّا ماؤه فملكٌ للقبيلة. ولغز الحياة ليس سؤالًا يحتاج إلى إجابة، بل حقيقة تُعاش. التطيُّر يساعدك على تذكُّر هذه الأمور. و«لأنك هنا»، ولأنك صاحب الدين الحق، فالنصر لن يفلت منك في النهاية.

أو كما كانت طائفة البِني جيسيرِت تقول في تعاليمها لقرونٍ طويلةٍ، قبل اصطدامها بالفرمِن:

«حين يركب الدين والسياسة العربة نفسها، وحين يكون قائد هذه العربة وليًّا تقيًّا (بركة*)، لا شيء يستطيع أن يقف في طريقهما».

الملحق الثَّالث:

تقرير عن دوافع وأهداف البِني جيسيرِت

في ما يلي مقتطف من الخلاصة التي أعدَّها عملاء الليدي جيسيكا -بناءً على طلبها- بعد أحداث أرَّاكس مباشرةً. صراحة هذا التقرير تجعل قيمته التاريخية لا تُقدَّر بثمن.

نظرًا إلى أن طائفة البِني جيسيرِت عملت لقرونٍ عِدَّة خلف ستار مدرسة شبه صوفية في أثناء تنفيذ برنامجها التناسلي الانتقائي بين البشر، فإننا نميل إلى منحها مكانة تفوق ما يبدو أنها تستحقُّها. إن تحليل «تقييم الوقائع» الذي أعَّدته الطائفة بشأن أحداث أرَّاكس ينمُّ عن جهل المدرسة العميق بدورها. يمكن القول إنه لم يكن بوسع البِني جيسيرِت سوى فحص الحقائق المتاحة لهم، وإنه لم يكن لديهن وسيلة تمكِّنهن من سبر شخصية النَّبي پول المؤدِّب. لكن المدرسة سبق لها أن واجهت عقبات أكبر وتغلَّبت عليها، لذا فخطؤها هنا أعمق.

كان الهدف من برنامج البِني جيسيرِت هو العثور على الشخص الذي يطلقن عليه اسم «الكويزاتس هاديراك»، وهو مصطلح يشير إلى «القادر على أن يُوجد في أماكن عِدَّة في الوقت نفسه». بعبارة أيسر، ما كُنَّ يسعين خلفه هو إنسان يتمتَّع بقدرات عقلية تسمح له بفهم واستخدام أبعاد زمكانية أعلى.

كُنَّ يحاولن استيلاد مِنتاتٍ خارقٍ، حاسوبٍ بشريٍّ يتمتَّع ببعض القدرات الاستبصارية التي يتمتَّع بها ملَّاحو النقابة.

الآن، اقرأ الحقائق الآتية بعناية:

كان المـؤدِّب، المولـود باسـم پـول آتريـدس، وابـن الـدوق ليتـو، رجـلًا رُوقبـت سـلالته بعنايـة لأكثـر مـن ألـف عـام. أُمُّ النَّبـي، الليـدي چيسـيكا، كانـت ابنـة بيولوچيـة للبـارون ڤلاديميـر هاركونـن، وتحمـل صفـات چينيـة عُرفـت أهمِّيتهـا القصـوى لبرنامـج التـزاوج الاصطفائـي منـذ مـا يقـرب مـن ألفـي عـام. كانـت بِنـي چيسـيرِتية النشـأة والتدريـب، لـذا *كان مـن المفتـرض أن تكـون أداةً ليِّنـةً فـي يـد المشـروع*.

أُمِـرت الليـدي چيسـيكا بإنجـاب ابنـة آتريديزيـة، وكان مـن المخطَّـط تزويـج هـذه الابنـة بفيـد راوثـا هاركونـن، ابـن أخ البـارون ڤلاديميـر، فـي ظلِّ احتمـال كبيـر أن ينتـج عـن هـذا الـزواج كويزاتـس هاديـراك. ولكـن بـدلًا مِـن ذلـك، ولأسـبابٍ اعترفـت هـي نفسـها بأنهـا لـم تكـن واضحـة تمامًـا لهـا، عصـت الليـدي چيسـيكا الحظيَّـة الأوامـر الصَّـادرة لهـا وأنجبـت ولـدًا.

هـذا وحـده كان يجـب أن ينبِّـه البِنـي چيسـيرِت إلـى احتماليـة تسـلُّل متغيِّـر شـاذ إلـى مخطَّطهـن، ولكـن كانـت هنـاك مؤشِّـرات أخـرى أهـم شـأنًا بكثيـر كُـن قـد تجاهلنهـا تمامًـا:

1- منـذ صغـره، أظهـر پـول آتريديـز القـدرة علـى التنبُّـؤ بالمسـتقبل، وكان مـن المعـروف أن رؤًى استبصـاريةً دقيقـةً وثاقبـةً تأتيـه فـي المنـام، رؤًى لا يمكـن تفسـيرها بالزمـكان الرُّباعـي الأبعـاد.

2- الأُمُّ الموقَّـرة جايـس هيليـن موهيـم، إحـدى مشـرفات البِنـي چيسـيرِت العُلـى التـي اختبـرت بشـرية پـول وهـو فـي الخامسـة عشـرة، شـهدت بأنـه تحمَّـل ألمًـا يفـوق مـا تحمَّلـه أيُّ شـخصٍ آخـر خـاض الاختبـار. ومـع ذلـك، لـم تُـورِد ملاحظـة خاصَّـة تشـير إلـى ذلـك فـي تقريرهـا!

3- عندما انتقل آل آتريديز إلى كوكب أرَّاكس، هلَّل السُّكان الفرمِن للشَّاب پول واستقبلوه باعتباره نبيًا، أو «الصَّوت الآتي من عالم آخر». كان البِني چيسيرِت يعلمن جيِّدًا أن الظروف القاسية على كوكب مثل أرَّاكس، بأرضه الصحراوية، وبافتقاره الشديد للمسطَّحات المائية، وبتركيزه الشديد على ضرورات البقاء الأكثر بدائيةً، تنتج حتمًا نسبة مرتفعة من الحساسية تجاه الروحانيات. وعلى الرغم من ذلك، أغفلت مراقبات البِني چيسيرِت ردَّة الفعل الفرمِنية هذه، وأغفلن كذلك العنصر الواضح الخاص بتشبُّع الطعام الأرَّاكسي بالاسپايس.

4- عندما أعاد الهراكنة وجنود الإمبراطور الپاديشاه المتعصِّبون احتلال أرَّاكس، وقتلوا والد پول ومعظم القوَّات الآتريديزية، اختفى پول وأُمُّه. ثم -على الفور تقريبًا- وردت تقارير عن ظهور زعيم ديني جديد بين الفرمِن، رجلٌ يُدعى المؤدِّب، نُودي هو الآخر بـ«الصَّوت الآتي من عالم آخر». وذكرت التقارير بوضوح أنه مصحوب بأُمٍّ موقَّرةٍ جديدة من السَّيادينات، وأنها «المرأة التي أنجبته». ذكرت السجلَّات المتاحة للبِني چيسيرِت بصريح العبارة أن أساطير الفرمِن عن النَّبي تحتوي على هذه الكلمات: «وستنجبه ساحرة من البِني چيسيرِت».

(قد يُقال هنا أن البِني چيسيرِت أرسلن المبشِّرات الحاميات إلى أرَّاكس منذ قرونٍ خلت لبذر مثل هذه الأسطورة كإجراء وقائي في حالة احتجاز أيٍّ من أعضاء المدرسة على الكوكب واحتياجها إلى ملاذ، وأن أسطورة «الصَّوت الآتي من عالم آخر» كان من البديهي تجاهلها كذلك لأنها تبدو للرائي كالأحابيل البِني چيسيرِتية المعتادة. لكن هذا لن يكون صحيحًا إلَّا إذا سلَّمنا بأن

البِني چيسيرِت لم يُخطئن في تجاهلهن الأدلّة الأخرى التي تشير إلى پول المؤدِّب).

5- حين بدأت الأحداث تغلي على أرَّاكس، بدأت النقابة بالكلام مع البِني چيسيرِت، ولمَّحت إلى أن ملّاحيها -الذي يستخدمون عقار الاسپايس المستخرج من أرَّاكس لإنتاج قدرتهم الاستبصارية المحدودة اللازمة لإرشاد السُّفن عبر الفضاء- كانوا «قلقين من المستقبل»، وأنهم رأوا «اضطرابات تلوح في الأُفُق». لا يمكن أن يعني هذا غير أنهم رأوا محورًا، نقطة التقاء تحتشد فيها قرارات حسَّاسة لا حصر لها، تعجز العين المستبصر عن رؤية الطريق بعدها. كان هذا مؤشِّرًا واضحًا على أن قوَّةً ما كانت تتدخَّل في الأبعاد الزمكانية الأعلى!

(قلَّة من البِني چيسيرِت كن يعلمن منذ وقتٍ طويل أنه ليس بإمكان النقابة التدخُّل بشكل مباشر في مصدر الاسپايس الحيوي، لأن ملَّاحي النقابة كانوا يتعاملون بالفعل -بطريقتهم الخاصة غير الكفؤة- مع أبعادٍ زمكانية أعلى جعلتهم يدركون أن أقل زلَّة قدم لهم على أرَّاكس قد يكون لها تبعات كارثية. كان من المعروف أن ملَّاحي النقابة غير قادرين على التنبُّؤ بطريقة يمكنهم بها السيطرة على الاسپايس دون إنتاج محور كهذا. لذا فإن الاستنتاج المنطقي هو أن شخصًا يتمتَّع بقدراتٍ أعلى كان يفرض سطوته على مصدر الاسپايس، لكن البِني چيسيرِت أغفلن هذه النقطة تمامًا!).

في مواجهة هذه الحقائق، يصل المرء إلى استنتاج لا مفرَّ منه، وهو أن سلوك البِني چيسيرِت -الذي لم يتَّسم بالكفاءة في هذه الأحداث- كان نتاج خطَّةٍ أعلى غفلن عنها بالكامل!

الملحق الرَّابع:

تاريخ الأشراف

(مختارات من سير العائلات النبيلة)

شادام الرَّابع (10134 - 10202)

الإمبراطور الپاديشاه، الحادي والثمانون من سلالة عائلته (آل كورينو) الذي اعتلى عرش الأسد الذهبي. تولَّى شادام الحكم منذ عام 10156 (تاريخ موت أبيه، إلرود التَّاسع، مسمومًا بسُمٍّ شاومركي) إلى أن حلَّت محلَّه ابنته الكبرى إيرولان وصيَّةً على العرش عام 10196. يشتهر عهده بشكل أساسي بثورة أرَّاكس، التي أعزاها كثيرٌ من المؤرِّخين إلى تهاون شادام الرَّابع في مهام البلاط وانشغاله بأُبَّهة المنصب. تضاعفت أعداد رتب البورسيج في الستَّة عشر عامًا الأولى من حُكمه، وتناقصات مخصَّصات تدريب السَّاردوكار بمعدَّلٍ ثابت في الثلاثين سنة الأخيرة قبل ثورة أرَّاكس. كان لديه خمس بنات (إيرولان، وتشاليس، ووِنسيشيا، وچوزفيا، وروجي) ولم يحظ بذكور شرعيين. أربع من بناته رافقنه في تقاعده. تُوفِّيت زوجته أنيرول -التي كانت بني چيسيرِتية مجهولة الرتبة- عام 19176.

ليتو آتريديز (10140 - 10191)

أحد أقرباء آل كورينو من طرف الأُمِّ، وكثيرًا ما يُشار إليه بالدوق الأحمر. حكم آل آتريديز إقطاعية كلادان لعشرين جيلًا، إلى أن أُرغموا على الانتقال إلى أرَّاكس. يشتهر ليتو بشكل أساسي بأنه أبو الدوق پول المؤدِّب، الأُمَّة وصي الدوقية. رفَات

الـدوق ليتـو موجـودة فـي «مقبـرة الجمجمـة» علـى أرَّاكـس. تُعـزى وفاتـه إلـى خيانـة طبيـب مـن مدرسـة سـوك، وهـي مكيـدة تُنسـب إلـى البـارون السـيريدار، فلاديميـر هاركونـن.

الليدي چيسيكا (حاملة لقب آتريديز شرفيًا) (10154 - 10256)

الابنـة البيولوجيـة للبـارون السـيريدار فلاديميـر هاركونـن (وفقًـا لسـجلَّات البِنـي چيسيرِت)، وأُمُّ الـدوق بـول المـؤدِّب. تخرَّجـت فـي إحـدى مـدارس البِنـي چيسـيرِت علـى كوكـب والاك 9.

الليدي عالية آتريديز (10191 -)

الابنـة الشـرعية للـدوق ليتـو آتريديـز وحظيَّتـه العُرفيـة الليـدي چيسـيكا. وُلِـدت الليـدي عاليـة علـى أرَّاكيس بعد نحـو ثمانيـة أشـهر مـن وفـاة الـدوق ليتـو. تعرُّضهـا وهـي جنيـن لمخـدِّر طيـف الوعـي هـو السَّـبب الـذي يُذكـر بشـكل عـام عنـد تفسـير وصـف البِنـي چيسـيرِت لهـا بأنهـا «ملعونـة». اشـتهرت فـي التاريـخ الـدَّارج بلقـب القديسـة عاليـة، أو عاليـة حاملـة السـكِّين (للحصـول علـى تاريـخ مفصَّـل، راجـع كتـاب «القديسـة عاليـة، صائـدة مليـار عالـم»، تأليـف بانـدر أولسـون).

فلاديمير هاركونن (10110 - 10193)

يُشـار إليـه عـادةً باسـم البـارون هاركونـن. لقبـه الرَّسـمي: بـارون سـيريدار (أي حاكـم كوكبـي). فلاديميـر هاركونـن هـو السـليل الذكـر المباشـر للباشـار أبولـورد هاركونـن، الـذي نُفـي بتهمـة الجبـن بعـد معركـة كوريـن. تُعـزى عـودة آل هاركونـن إلـى السُّـلطة بشـكل عـام لتلاعبهـم الماكـر بتجـارة فـراء الحيتـان، ثـم إدمـاج هـذا لاحقًـا بثـروة

المِـزاج مـن أرَّاكـس. لقـي البـارون السـيريدار حتفـه علـى أرَّاكـس خـلال الثـورة، وانتقـل اللقـب لمـدَّة وجيـزة إلـى ولـي عهـده، فيـد راوثـا هـاركونـن.

الكونت هاسيمير فنرينج (10133 - 10225)

أحـد أقربـاء آل كورينـو مـن طـرف الأُمِّ، ورفيـق الطفولـة لشـادام الرَّابـع. (يـروي كتـاب «تاريـخ قراصنـة آل كورينـو» -الـذي كثيـرًا مـا يُطعـن فـي مصداقيتـه- حكايـة غريبـة تقـول إن فنرينـج هـو مـن دسَّ سُـمَّ الشـاومركي الـذي قضـى علـى إلـرود التَّاسـع). تتَّفـق جميـع الروايات علـى أن فنرينـج كان أقـرب صديق حظـي بـه شـادام الرَّابـع. مـن ضمـن المهـام الإمبراطوريـة التـي أدَّاهـا الكونـت فنرينـج هـي اضطلاعـه بمنصـب الوكيـل الإمبراطـوري علـى أرَّاكـس خـلال مـدَّة حكـم الهراكنـة، ثـم توليـه لاحقًـا منصـب سيريدار غيابـي علـى كلادان. انضـمَّ فنرينـج إلـى شـادام الرَّابـع فـي تقاعـده علـى سالوسـا سـوكانداس.

الكونت جلوسو رابان (10132 - 10193)

جلوســو رابــان، كونــت لانكفيــل، هــو ابــن الأخ الأكبــر للبــارون ڤلاديميـر هـاركونـن. كان جلوسـو رابـان وفيـد راوثـا رابـان (الـذي أخـذ لقـب هـاركونـن حيـن أُختيـر ليكـون ضمـن آل بيـت البـارون السـيريدار) الابنيـن الشـرعيين لأبولـورد، الأخ نصـف الشـقيق للبـارون السـيريدار. تخلـى أبولـورد عـن لقـب هـاركونـن وجميـع حقوقـه فيـه حيـن مُنـح حُكـم المقاطعـة الفرعيـة «رابـان لانكفيـل». رابـان هـو لقـب عائلـة أُمِّ الكونـت جلوسـو.

مسرد المصطلحات المستخدمة في الإمبراطورية

عنـد دراسـة الإمبراطوريـة الفضائيـة، وكوكـب أرّاكـس، وعمـوم الثقافـة التـي سـاهمت فـي تشـكيل شـخصية المؤدِّب، يصـادف المـرء الكثيـر مـن المصطلحـات غيـر المألوفـة. ولأن تحسـين الفهـم هـدفٌ نبيـل، ارتأينـا تفصيـل التعريفـات والتفسـيرات الـواردة أدنـاه[1].

(أ)

آخ/ إلى اليسار (ACH)

صيحة يقولها قائد الدودة للمساعدين الذين يوجِّهون مسارها.

اختبار مشهود (TEST-MASHAD)

أيُّ امتحـان يكـون فيـه الشَّـرف -الـذي يُعـرَّف بأنـه موقـف الشـخص الروحـي- علـى المحـك.

أدب (ADAB)

الذكرى المُلحَّة التي تفرض نفسها على الشخص رغمًا عنه.

أكارسو (AKARSO)

نبـات موطنـه الأصلـي كوكـب سـايكون، أحـد كواكـب النجـم 70 أوفيوتشـي إيـه، يتميَّـز بـأوراق مسـتطيلة الشـكل تقريبًـا. تشـير

(1) فـي حـال أن تكـون قـد تخطَّيـت التوطئـة، أودُّ التأكيـد مـرَّةً أخـرى أن بيـان أصـول الألفـاظ المشـتقَّة مـن كلمـات عربيـة التـي سـتجدها فـي هـذا المسـرد بيـن القوسـين المعكوفيـن [..] هـو إضافـة مـن المترجـم، ولـم يـورده فرانـك هربـرت فـي النـص الأصلـي. ارتأيـت إيـراد هـذا الشـرح لخصوصيـة ترجمـة النـص إلـى العربيـة، ولكثـرة اقتباسـه مـن المـوروث الثقافـي العربـي وألفاظـه ومعانيـه. (المترجـم).

الخطوط الخضراء والبيضاء على أوراق الأكارسو إلى المناطق المتوازية التي يتبادل فيها الكلوروفيل حالتي النشاط والخمول.

أميوليروس (AMPOLIROS)

المعادل الفضائي لسفينة «الهولندي الطائر» الأسطورية.

الأمتال أو **قانون الأمتال (AMTAL or AMTAL RULE)**

[محرَّفة عن العربية: أمثال.]

قانون شائع على الكواكب البدائية. في ظلِّه، يُوضع الشيء تحت الاختبار لمعرفة حدوده أو عيوبه. عمومًا هو: اختبار حتَّى التدمير.

أراكين (ARRAKEEN)

المستعمرة الأولى التي شُيِّدت على كوكب أرَّاكس، وظلَّت وقتًا طويلًا عاصمة الحكومة الكوكبية.

أرَّاكس (ARRAKIS) [محرَّفة عن العربية: الرَّاقص، وهو اسم نجم في السماء.]

الكوكب المعروف كذلك باسم «كثيب»، ثالث كواكب النجم كانوبوس (سهيل).

أنبوب الماء (WATERTUBE)

أحد أنابيب بذلة التقطير أو خيمة التقطير التي تحمل الماء المستعاد إلى جراب التجميع، أو تنقله من جراب التجميع إلى مرتدي البذلة.

أوماس (AUMAS) [محرَّفة -على الأرجح- عن اللفظة العربية: عَماس، بمعنى الشَّديد.]
سُمٌّ يُوضع في الطعام (على وجه التحديد: في الأطعمة الصلبة). يُنطق في بعض اللهجات: شوماس.

آيات (AYAT)
علامات الحياة (راجع: البرهان).

أقارب (COUSINES)
صلة الدم الأبعد من أبناء العمومة.

أنصاف الأشقّاء (DEMIBROTHERS)
أبناء حظيّات مختلفات من أبٍ واحد.

اجتماع (GATHERING)
دعوة رسمية لقادة الفرمِن ليشهدوا نزالًا يُحدِّد زعامة إحدى القبائل. يختلف «الاجتماع» عن «المجلس الجامع»، فالأخير اجتماع للتوصُّل إلى قرارات تشمل جميع القبائل.

آل جِناز (HOUSE OF GINAZ)
حلفاء الدوق ليتو آتريديز في السابق. هُزِموا في حرب اغتيالات ضد كوكب جرومان.

الإخوان البدويين (ICHWAN BEDWINE)
الأخوية التي تضم جميع قبائل الفرمِن على أرّاكس.

استصلاح (ISTISLAH)

قانون للصالح العام، عادةً ما يكون تمهيدًا لوقوع ضرورة مريرة.

أخدود (GRABEN)

صـدع چيولوچـي طويـل ينشـأ حيـن تهبـط الأرض بسـبب حركـة طبقـات القشـرة الأرضيـة تحتهـا.

انضباط الماء (WATER DISCIPLINE)

التدريـب القاسـي الـذي يؤهِّـل قاطنـي كوكـب أرَّاكس للمعيشـة عليـه دون إهـدار الرطوبـة.

آل/ عائلة نبيلة (HOUSE)

المصطلـح الشـائع الـذي يصـف العشـيرة الحاكمـة لأحـد الكواكـب أو الأنظمـة الكوكبيـة.

إعجاز (IJAZ)

النبوءة التي لا سبيل إلى إنكارها؛ النبوءة الرَّاسخة.

«إخوتي!» (IKHUT-EIGH!)

النـداء الـذي يرفعـه باعـة المـاء علـى أرَّاكـس (أصـل الكلمـة غيـر مؤكـد). (راجـع: سـو... سـو... سـوق!)

إنكڤاين (INKVINE)

جنـس مـن النباتـات، موطنـه الأصلـي كوكـب جيـدي پرايـم. كثيـرًا

ما تستخدم جذور الإنكفاين سياطًا في حظائر العبيد، وتترك على أجساد الضحايا علامات بلون البنجر يستمرُّ ألمها لسنواتٍ طويلة.

اسپايس (SPICE)

(راجع: المِزَاج)



أورنيثوبتر (ORNITHOPTER)

(اختصارًا: ثوبتر): أيُّ طائرة تحلّق بجناحين أو أكثر على غرار الطيور.

إيكس (IX) [نشأ الاسم في الأصل من إساءة قراءة الرقم الروماني ix (9)].

كوكب. (راجع: ريشيس).

أعين العباد (EYES OF IBAD)

التأثير المُميِّز للأطعمة الغنية بالمِزَاج التي تحوّل بياض الأعين وبؤبؤها إلى اللون الأزرق الغامق (تُعد أعين العباد مؤشّرًا على درجة عالية من إدمان المِزَاج).

ألياف كريمسكل أو **حبال كريمسكل (KRIMSKELL FIBER or KRIMSKELL ROPE)**

أو «الألياف المخلبية»: حبال تُنسج من عروق نبات الهفوف الذي ينمو على كوكب عِكاظ. تضيق عُقد الكريمسكل وتتعقد أكثر

-إلى نسب مُحدَّدة مسبقًا- كُلَّما شُدَّت (للاطِّلاع على دراسة أكثر تفصيلًا، راجع كتاب هولچانس فونبروك «كرمة عِكاظ الخانقة»).

أوبفاير (OPAFIRE)

حجر كريم من الأوبال، واحد من جواهر كوكب حجال النادرة.

أوتاد الرمال (POLING THE SAND)

حرفة دقّ أوتادٍ بلاستيكية ونسيجية في قفار أرّاكس الشّاسعة وقراءة الأنماط التي تحفرها العواصف الرملية عليها للتنبُّؤ بالطقس.

الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي (ORANGE CATHOLIC BIBLE)

أو «الكتاب التراكمي»: النص الديني الذي أنتجته لجنة المترجمين المسكونيين، والذي يحتوي على عناصر من معظم الديانات القديمة بما في ذلك الماومثية السارية، والمسيحية الماهايانية، والكاثوليكية الزنسُنّية، والتقاليد البوذية الإسلامية. وصية الإنجيل الكاثوليكي الكبرى هي: «لا تشوِّهوا الروح».

أوتفرين/ برّاني (OUT-FREYN)

لفظة جلاكية بمعنى «أجنبي»، أي: مَن ليس مِن دائرتك المقرَّبة، أو مَن ليس ممَّن انتقيتهم لصحبتك.

أرز بُندي (PUNDI RICE)

أرز متطفِّر وراثيًا غني بالسكر الطبيعي يصل طول حبّاته إلى 4

سنتيمترات. من صادرات كوكب كلادان الأساسية.

أنابيب القسطرة (RECATHS)

الأنابيب المتَّصلة بالجسم التي تربط فتحات الإخراج البشرية بمرشِّحات إعادة التدوير في بذلة التقطير.

أُمٌ موقَّرة (REVEREND MOTHER)

في الأصل، هو لقب مشرفات البِني چيسيرِت العُلى اللاتي نجحن في تحويل «السُمّ المنير» داخل أجسادهن، وارتقين بأنفسهن إلى حالة أعلى من الوعي. تبنَّى الفرمِن اللقب ومنحوه لزعيماتهم الدينيات اللاتي وصلن إلى حالة «نورانية» مماثلة. (راجع أيضًا: البِني چيسيرِت، وماء الحياة).

الأُمُّ العظيمة (GREAT MOTHER)

الإلهة ذات القرنين، الجوهر الأنثوي للفضاء (في الاستخدام الشائع: الفضاء الأُمُّ): الوجه المؤنَّث لثالوث الذكورة والإنوثة والخنوثة المقدَّس الذي تعتبره أديانٌ عديدة في الإمبراطورية الوجود الأعلى.

أمواج الرمال (SANDTIDE)

مصطلح آخر لظاهرة المدّ الغُباري: التفاوت في المستوى داخل بعض الأحواض الملأى بالغبار على كوكب أرّاكس النّاتج عن تأثير جاذبية شمس الكوكب وقمريه.

أُمَّة (UMMA)

واحد من تابعي الأنبياء (مصطلح ازدرائي في الإمبراطورية،

يُوصف به الشخص «المُهوَّس» الذي سلَّم عقله للنبوءات المتطرِّفة).

أُروشنور (UROSHNOR)

واحد من أصوات عِدَّة بلا معنى تزرعها البِني جيسيرِت في عقول ضحايا مختارين لأغراض السيطرة. يتجمَّد الشخص المُسيطر عليه عند سماع الصَّوت.

أصول (USUL)

في لغة الفرمِن: «قاعدة العمود».

(ب)

بكَّاء (BAKKA)

في أساطير الفرمِن: الباكي الذي ينوح على البشرية جمعاء.

بقلاوة (BAKLAWA)

مُعجَّنات ثقيلة تُحلَّى بشراب التمر.

باليسِت (BALISET)

آلة موسيقية تساعية الأوتار انحدرت مباشرةً من آلة الزيثير، مضبوطة على سُلَّم كوكب شوسوك الموسيقي. تُعزَف الباليسِت بالنقر على أوتارها، وهي الآلة المفضَّلة للشعراء المطربين في الإمبراطورية.

بركة (BARAKA)
الولي الذي يتمتَّع بكرامات وقدرات خاصة.

باشار (BASHAR) [من الاسم العربي: بَشَّار.]
حاكم مقاطعة (في الغالب يُسمَّى: عقيد باشار): رتبة في قوَّات السَّاردوكار تعلو رتبة العقيد في التصنيف العسكري الموحَّد. أُنشئت تلك الرتبة للحكَّام العسكريين على مقاطعة كوكبية فرعية (أما مصطلح «باشار القوَّات» فيقتصر على الاستخدام العسكري).

بِن قرطَيبا (IBN QIRTAIBA) [من اللقب العربي قرطبي، نسبةً إلى مدينة قرطبة الأندلسية.]
أو «هكذا تقول الكلمات المقدَّسة...»: مفتتح ابتهالات الفرِمن الدينية الرسمية (مستمدٌّ من «نبوءات پانوپليا»).

بيلا تيجيوس (BELA TEGEUSE)
الكوكب الخامس في نظام كوانتينج النجمي: ثالث محطَّة توقَّف فيها الفرِمن الزنسُنِّيون في أثناء هجرتهم القسرية.

بِني چيسيرت (BENE GESSERIT)
[المقطع الأوَّل -على الأرجح- هو تحريف لنطق كلمة «بَني» أو «بنو» بمعنى قوم، أمَّا المقطع الثَّاني فرُبَّما يكون محرَّفًا عن كلمة «چيزويت»، أي «يسوعي»]
مدرسة قديمة للتدريب العقلي والبدني أُنشِئت بشكل أساسي للإناث بعد أن دمَّر «الجهاد البطلري» ما يُسمَّى بـ«الآلات المفكِّرة» والروبوتات.

بوتاني جيب (BHOTANI JIB)

لغة قديمة (راجع: تشاكوبسا).

بِلا كيف (BI-LA KAIFA) [تركيبٌ لُغويٌّ مأخوذ من قول السلف في أسماء وصفات الله: «أمروها كما جاءت بلا كيف ولا معنى».]

بمعنى: آمين (حرفيًا تعني: «أمر لا فائدة من شرح معناه أو الخوض في كيفيته»).

بيندو (BINDU)

حالة خاصة بتدريب أعصاب الجهاز العصبي البشري، غالبًا ما يُعبَّر عنها بالتركيب المزجي «بيندوعصبية».

(راجع: پرانا).

بيداء (BLED) [على الأرجح محرَّفة عن بِيد، جمع بيداء، أو بلاد، جمع بلد]

الصَّحراء الواسعة المترامية التي لا ماء فيها.

برقع (BOURKA)

غطاء عازل يرتديه الفرمِن في الصَّحراء المفتوحة.

برهان (BURHAN)

بيِّنات الحياة (عادةً: آيات وبراهين الحياة). (راجع: آيات).

بدويون (BEDWINE)

(راجع: الإخوان البدويون)

بورسِج (BURSEG)

قائد عام: رتبة عسكرية في قوّات السَّاردوكار.

بارجة فضائية (MONITOR)

سفينة فضاء مدرَّعة يحميها درع طاقة. تتكوَّن البارجة من عشرة أقسام قابلة للانفصال، وذلك للإقلاع بها بعد إنزالها على أيٍّ من الكواكب.

پولاذ (PLASTEEL)

فولاذ شديد الصلابة مدعَّم بألياف استرافيديم تنمو في هيكله البلَّوري.

بندقية ليزر (LASGUN)

سلاح يُطلِق أشعة ليزر متتابعة صار استخدامه محدودًا بعد انتشار دروع الطاقة، بسبب الانفجار الناري الذي يحدث عند اصطدام شعاع الليز بمجال طاقة أحد الدروع (الذي هو في حقيقته اندماج دون ذرِّي).

پلنيسنتا (PLENISCENTA)

زهرة خضراء غريبة تنمو على كوكب عِكاظ تشتهر برائحتها الحلوة.

بوصلة پاراوية (PARACOMPASS)

بوصلة تحدِّد الاتِّجاه عن طريق الشذوذ المغناطيسي، تستخدم عند توافر المخطَّطات المناسبة، وحين يكون المجال المغناطيسي الكلي للكوكب غير مستقر أو محتجب بسبب عواصف مغناطيسية شديدة.

پرانا (جهاز پرانا العضلي الهيكلي) (PRANA)

عضلات الجسم عند التعامل معها كوحدات منفصلة يجب أن تخضع إلى أقصى أنواع التدريب. (راجع: بيندو).

باب الطوارئ أو حاجز الطوارئ (PRUDENCE DOOR or PRUDENCE BARRIER)

درع طاقة خماسي لا يُمرِّر غير أشخاص محدَّدين مسبقًا، ويُستخدم للهرب في حالات المطاردة (راجع: درع خماسي).

بذلة التقطير (STILLSUIT)

لباس يغلِّف الجسم ابتُكر على أرّاكس. نسيجه مكوَّن من طبقات رقيقة تؤدي وظائف تبديد الحرارة وتنقية الإفرازات الجسدية. الماء المُستعاد عن طريق بذلة التقطير يكون متاحًا للشرب عبر أنبوب متَّصل بجراب التجميع.

پوريترين (PORITRIN)

ثالث كواكب النجم إبسيلون آلانج. يُعدُّه كثيرٌ من الرحَّالة الزنسُنِّيين كوكبهم الأصلي، على الرغم من أن الدلائل في لغتهم

وأسـاطيرهم تظهـر جـذورًا كوكبيـة أقـدم بكثيـر.

برتقال (PORTYGULS)

فاكهة.

بلاغ شفوي (PROCES VERBAL)

بـلاغ شبـه رسـمي يتَّهـم شـخصًا بارتـكابِ جريمـة ضـد الإمبراطوريـة. مـن الناحيـة القانونيـة: هـو إجـراء يحتـلُّ منطقـة وُسـطى بيـن الادِّعـاء الشـفوي المُسـترسـل وتوجيـه تهمـة رسـمية.

(ت)

تأثير هولتزمان (HOLTZMAN EFFECT)

تأثير التنافر السلبي الذي ينتج عن مُولِّدات دروع الطاقة.

تشوم (CHOAM)

الأحـرف الأولـى مـن عبـارة «الائتـلاف المجـرِّي لأقطـاب التجـارة الأشـراف[1]»: المؤسَّسـة التنمويـة المجرِّيـة التـي يسـيطر عليهـا الإمبراطـور والعائـلات النبيلـة، تسـاهم فيهـا نقابـة الفضـاء والبِنـي جيسـيرِت كشـريكين صامتيـن.

التجَّار الأحرار (FREE TRADERS)

لقب آخر للمهرِّبين.

---

(1) فـي النـصّ الأصلـي: **Combine Honnete Ober Advancer Mercantiles**.

تحدِّي البرهان (TAHADDI AL-BURHAN)

اختبار نهائي لا استئناف فيه (لأنه يجلب الموت أو التدمير عادةً).

التحدِّي (TAHADDI CHALLENGE)

أحد التقاليد الفرمِنية: قتال حتّى الموت، يُلجأ إليه عادةً للبتّ في مسألةٍ هامة.

تقوى (TAQWA)

حرفيًا: «ثمن الحرية»: شيء له أهمية كبيرة. ما يطلبه الإله من الفاني (والخشية التي يثيرها الطلب في قلبه).

تعاليم الظلام (DARK THINGS)

مصطلح يصف الخرافات التي تنشرها المبشِّرات الحاميات (المِسيونيرا بروتاكتيفا) بين الحضارات البدائية التي يُرى فيها استعدادًا للتأثُّر بها.

تِليلاكس (TLEILAX)

كوكب النجم ثاليم الوحيد، يشتهر بأنه مركز تدريب منشق للمِنتات، وهو مصدر المِنتات «المنحرفين».

تشاكوبسا (CHAKOBSA)

تُسمَّى أيضًا بـ«اللغة المغناطيسية»، وهي لغة مشتقَّة جزئيًا من اللغة البوتانية القديمة: البوتاني جيب (حيث جيب تعني لهجة).

تتكوَّن التشاكوبسا من مجموعة من اللهجات القديمة التي عُدِّلت وطُوِّرت بغرض الاستخدام السرِّي، لكنها في المقام الأوَّل لغة الصيد التي يستخدمها البوتانيين، المقتالين المأجورين الذين شاركوا في «حروب الاغتيالات» الأولى.

تدريب (TRAINING)

يُفترض أن يكون لهذا المصطلح الشائع معنًى خاصًا حين يطبَّق على طائفة البِني چيسيرِت، إذ يشير إلى تهيئة وتدريب الأعصاب والعضلات إلى أقصى حد تسمح بها وظائفها الطبيعية. (راجع: البيندو والپرانا)

تيوبايل (TUPILE)

أو «الملاذ الآمن»: ملجأ العائلات المهزومة في الإمبراطورية (في الغالب هو كواكب عِدَّة). لا يعلم موقع الكوكب (الكواكب) إلا النقابة، التي تحافظ على عدم انتهاك حرمته بموجب «السلام النقابي».

التهيئة العقلية الإمبراطورية (IMPERIAL CONDITIONING)

تقنية رفيعة طوَّرتها كلِّيات سوك الطبية، تمثِّل أعلى تجهيز يخضع له الأطبَّاء الإمبراطوريون لسلبهم القدرة على قتل أيِّ شخص. الخاضعون للتهيئة يحملون وشمًا على هيئة ألماسة على الجبهة، ويُسمح لهم بإطالة شعورهم وعقصه بطوق سوك الفضي.

(ث)

ثلاثي الموت (DEATH TRIPOD)

في الأصل، هي منصَّة إعدام ثلاثية القوائم يُعلِّق فيها جلَّادو الصَّحراء ضحاياهم. عُرفًا يشير المصطلح إلى الأشخاص الثلاثة الذين يكوِّنون «أخوية الكراهية» ويقسمون على الأخذ بثأرٍ معيِّن.

الثورة الكبرى (GREAT REVOLT)

المصطلح الشائع للجهاد البطلري. (راجع: الجهاد البطلري).

(ج/ چ)

جمود البيندو (BINDU SUSPENSION)

حالة خاصة من التخشُّب الجسدي المستحثّ ذاتيًا.

الجهاد البطلري (BUTLERIAN JIHAD)

الحملة الكبرى ضد الحاسبات والآلات المفكِّرة والروبوتات الواعية التي بدأت عام (201 ق ن) وانتهت عام (108 ق ن)، والتي حُرِّم بعدها على البشرية صنع أيِّ آلة ذكيَّة. الوصية الأساسية لتلك الحرب التاريخية، «لا تصنعوا آلاتٍ تُحاكي العقل البشري»، ما زالت في الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي. (راجع أيضًا: الثورة الكبرى).

جيب التجميع (CATCHPOCKET)

الجراب المسؤول عن تجميع وتخزين الماء المُقطَّر في بذلات التقطير.

جامعو الندى (DEW GATHERERS)

العمَّال الذين يحصدون الندى على أرَّاكس باستخدام حصَّادة ندى شبيهة بالمنجل.

الجلاكية (GALACH)

لغة الإمبراطورية الرسمية. خليط من اللغات الأنجلوسلافية، بها آثار قوية من مصطلحات ثقافية متخصِّصة تُبُنِّيَت خلال سلسلة طويلة من الهجرات البشرية.

جامونت (GAMONT)

الكوكب الثَّالث من النجم نيوشيه. يشتهر بثقافته الحسِّية وبالممارسات الجنسية الغريبة.

جيدي پرايم (GIEDI PRIME)

أحد كواكب النجم 36 أوفيوتشي بي وموطن آل هاركونن. كوكب متوسِّط القابلية لإيواء الحياة، ومستوى التمثيل الضوئي عليه ضعيف.

الجدار الحامي (SHIELD WALL)

سلسلة جبلية تقع في ربوع أرَّاكس الشمالية وتحمي منطقة صغيرة من قوَّة عواصف كوريوليس الكوكبية.

الجوم جَبار (GOM JABBAR) [كلمة JABBAR مشتقَّة -على الأرجح- من جبَّار]

أو العدو المتسلِّط: الإبرة المسمومة بالسيانيد التي تستخدمها ناظرات البِني چيسيرِت في اختبارهن المميت لشوكة الوعي البشري.

جوّال الرمال (SANDWALKER)

أيُّ فرمِني تدرَّب على أساليب البقاء في الصَّحراء المفتوحة.

جرومان (GRUMMAN)

ثاني كواكب النجم نيوشيه، يشتهر بشكل رئيس بسبب العداء القديم بين عائلة موريتاني التي تحكمه وآل جِناز.

جهاد (JIHAD)

حملة (حرب) دينية متعصِّبة.

جُبَّة (JUBBA CLOAK)

رداء متعدِّد الاستخدامات (يمكن ضبطه ليعكس الحرارة أو لامتصاصها، وتحويله إلى مظلَّة أو فراش معلَّق للقيلولة) عادةً ما يُلبس فوق بذلة التقطير على كوكب أرَّاكس.

جرَّة لترية (LITERJON)

حاوية من البلاستيك المقوَّى المقاوم للكسر لها غطاء محكم وسعتها لتر واحد، تُستخدم لنقل الماء على أرَّاكس.

الجوديشار (GIUDICHAR)

الحقيقة المقدَّسة. (عادةً ما يظهر اللفظ ضمن مصطلح

الجوديشـار مانِتـي: الحقيقـة الأصليـة الدَّامغـة).

(ح)

حاملة جوِّية (CARRYALL)

وتعـرف أيضًـا بالجنـاح الطائـر (أو «الجنـاح»): العمـود الفقـري للمركبـات الجوِّيـة علـى أرَّاكـس. تُسـتخدم الحامـلات الجوِّيـة لنقـل المعـدَّات الضخمـة التـي تتطلَّبها عمليـات التنقيـب عـن الاسـپايس واسـتخراجه وتكريـره.

حاويات التفريغ (DUMP BOXES)

المصطلـح العـام لأيِّ حاويـة بضائـعٍ ذات شـكل غيـر منتظـم ومجهَّـزة بـدرع حـراري ومنظومـة كوابـح معلَّقـة. تُسـتخدم لإنـزال المـواد مـن الفضـاء علـى سـطح أحـد الكواكـب.

حجال (HAGAL)

الكوكـب الشـهير بـ«كوكـب الجواهـر» (وهـو الكوكـب الثانـي فـي نظـام ثيتـا شـاوي النجمـي الثنائـي). اسـتُنفدت مـوارد الكوكـب فـي عهـد الإمبراطـور شـادام الأوَّل.

«حي يوه!» (HAIIII-YOH!)

صيحـة يقولهـا قائـد الـدودة للمسـاعدين الذيـن يوجِّهـون مسـارها، بمعنـى: هيَّـا.

حج (HAJJ)

رحلة مقدَّسـة.

حارمونثب (HARMONTHEP)

يقول المؤرِّخ إنجسلي إن كوكب حارمونثب هو ثالث محطَّة كوكبية في هجرة الرحَّالة الزنسُنِّيين. يُفترض أن الكوكب كان تابعًا للنجم دلتا باڤونيس، لكنه لم يعد موجودًا الآن.

حصَّادة عملاقة أو مصنع حصد (HARVESTER or HARVESTER FACTORY)

آلة حصاد ضخمة (طولها 120 مترًا وعرضها 40 مترًا) تُستخدم في استخراج الاسپايس، وتعالج عادةً رواسب الاسپايس الغنية غير الملوَّثة (توصف عادةً بـ«الزحَّافة» لهيكلها الشبيه بالحشرة الذي يقف على أقدام مستقلَّة).

حِيرق (HIEREG)

مخيم صحراوي مؤقت ينصبه الفرمِن على الرمال المفتوحة.

حافَّة الجدار (RIMWALL)

المنحدرات الوعرة التي تكوِّن الحافة العُليا الثانية في بدن الجدار الحامي على أرَّاكس. (راجع: الجدار الحامي).

حوض (SINK)

منطقة منخفضة صالحة للسكن على أرَّاكس، مُحاطة بأراضٍ مرتفعة تحميها من العواصف السائدة.

حوض المدّ والجذر الغباري (TIDAL DUST BASIN)

أيٌّ من المنخفضات الواسعة التي امتلأت بالغبار على مر القرون على سطح أرَّاكس، والتي رُصدت فيها ظاهرة المدّ والجذر الغباري على أرض الواقع. (راجع: أمواج الرمال).

حقيبة لوازم (REPKIT)

عُدَّة تصليح بذلة التقطير التي تضم قطع الغيار الأساسية.

حوَّامة المراقبة المركزية (SPOTTER CONTROL)

طائرة الأورنيثوبتر الخفيفة المكلَّفة بالمراقبة والرصد والحماية التي تصاحب مجموعات التنقيب عن الاسپايس.

حاملة الجنود (TROOP CARRIER)

أيٌّ من سفن النقابة المصمَّمة خصيصًا لنقل الجنود بين الكواكب.

حرب اغتيالات (WAR OF ASSASSINS)

شكل الحرب المحدود المسموح به بموجب المعاهدة الكبرى والسلام النقابي، الذي يهدف إلى الحدّ من تورُّط الأبرياء غير المعنيين بالصراع. تنصُّ القواعد على إعلان نيَّات رسمي من الأطراف الضالعة، والتقيُّد بالأسلحة المسموح بها.

(خ)

خلاء (KHALA)

دعاء تقليدي لطرد الأرواح الغاضبة من المكان الذي يسمِّيه المرء في الدعاء.

خنچل (KINDJAL) [خنجر]

سلاحٌ طاعنٌ قصير ذو حدَّين طوله نحو 20 سنتيمترًا، ونصله مُقوَّس قليلًا.

خارطة تضاريس (SINKCHART)

خريطة لسطح أرَّاكس عليها إشارات أكثر مسارات البوصلة الپاراوية موثوقية. تُستخدم للتنقُّل بين أماكن الإيواء. (راجع: بوصلة پاراوية).

خوارقي/ عجائب (WEIRDING)

مصطلح يصف كل ما يتعلَّق بالروحانية أو السحر.

خُطَّافا الصَّانعة (MAKER HOOKS)

الخُطَّافان اللذان يُستخدمان للتعلُّق بدودة أرَّاكس الرملية، ومن ثم امتطائها وتوجيهها.

خيمة التقطير (STILLTENT)

خيمة صغيرة محكمة الغلق مصنوعة من طبقات رقيقة مُصمَّمة لاستعادة الرطوبة من أنفاس شاغليها وتحويلها إلى ماء صالح للشرب.

(د)

دليل المغتالين (ASSASSINS' HANDBOOK)

كُتيِّب يضم معلومات عن مجموعة سموم تعود إلى القرن الثالث شاع استخدامها في حروب الاغتيالات. لاحقًا توسَّع الكتاب

ليشمل الوسائل المميتة المسموح باستخدامها بموجب «السلام النقابي» و«المعاهدة الكبرى».

درع خماسي (PENTASHIELD)

درع طاقة يولِّد مجالًا من خمس طبقات، مناسب للاستخدام في المساحات الضيِّقة كالمداخل أو الممرات (دروع التعزيز الكبيرة تصبح غير مستقرة بشكل متزايد مع كل طبقة تالية)، لا يستطيع عبوره أيُّ شخصٍ لا يرتدي جهازًا ضُبط وفقًا لرموز الدرع (راجع: باب الطوارئ).

دار الحكمان (DAR AL-HIKMAN)

مدرسة معنية بالترجمة والتفسير الديني.

دِير/ إلى اليمين (DERCH)

صيحة يقولها قائد الدودة للمساعدين الذين يوجِّهون مسارها.

دودة الرمال (SANDWORM)

(راجع: شَيّ هولود).

درع دفاعي (DEFENSIVE SHIELD)

مجال الطاقة الواقي الذي ينتجه مُولِّد هولتزمان عن طريق تسخير «الحالة الأوَّلى» لتأثير إبطال مضادات الجاذبية الذي ينشأ عنه قوى تنافرية. لا شيء يستطيع اختراق الدرع الدفاعي غير الأجسام المتحرِّكة بسرعة بطيئة (تتراوح هذه السرعة من

ستَّة إلى تسعة سنتيمترات في الثانية وفقًا لإعدادات الدرع)، ولا يمكن تعطيله إلا بتعريضه لكمٍّ هائل من الطاقة الكهربائية يعادل متوسِّط استهلاك مقاطعة برمَّتها.

(ذ)

ذو الخُطَّافين (HOOKMAN)

الفرمِني المُسلَّح بخطَّافين بغرض امتطاء إحدى ديدان الرمال العملاقة.

(ر)

رباط الكراهية (CHEREM)

أو أخوية الكراهية (رهط من الفرمِن يتَّحدون عادةً من أجل الثأر).

الرمل الطبلي (DRUM SAND)

انضغاط الرمل بطريقة تجعل أيَّ ضربة مفاجئة على سطحه تُنتج صوت قرع طبلٍ مُميَّز.

روح (RUH-SPIRIT)

في معتقدات الفرمن، هي ذلك الجزء من كينونة الإنسان المتجذِّر دومًا في العالم الغيبي (والذي يستطيع المرء استشعاره). (راجع: عالم المِثال).

رجال الكثبان (DUNE MEN)

الوصف الشائع للعاملين في الصحراء المفتوحة، والمنقّبين عن الاسپايس، وغيرهم. يُعرفون أيضًا بعمّال الرمال وعمّال الاسپايس.

راشاج (RACHAG)

مادّةٌ منبّهة شبيهة بالكافيين، تُستخرج من التوت الأصفر الذي ينمو على كوكب أكارسو. (راجع: أكارسو).

رمضان (RAMADHAN)

مدّة دينية قديمة تشتهر بالصيام والصلاة. تاريخيًا، هو الشهر التاسع من التقويم الشمسي القمري. يحتفل الفرمِن بقدومه حين يبلغ القمر الأوّل خط الزوال في دورته التاسعة.

ريشيس (RICHESE)

رابع كواكب النجم إيريداني إيه، ويصنَّف مع كوكب إيكس على أنهما الأهم في ثقافة الآلة، ويشتهر بتكنولوچيا تصغير الأجهزة. (للاطّلاع على دراسة مستفيضة عن كيفية نجاة كوكبي ريشيس وإيكس من آثار الجهاد البطلري الوخيمة، راجع كتاب «الجهاد الأخير» لمؤلّفيه سومر وكواتمان).

راكب الرمال (SANDRIDER)

اللقب الذي يطلقه الفرمِن على من يستطيع قنص دودة الرمال وامتطائها.

(ز)

الزِنسُنّيون (ZENSUNNI)

أتباع فرقة منشقّة انفصلت عن تعاليم ماومث (المعروف أيضًا بـ«مُحمَّد الثّالث») نحو عام (1381 ق ن). تشتهر الديانة الزِنسُنّية

في المقام الأوَّل بتركيزها على الباطنية الروحانية، والعودة إلى «طرق الآباء». يقول أغلب الباحثين إن علي بن أوهاشي كان زعيم الانشقاق الأصلي، لكن بعض الأدلة تشير إلى أن أوهاشي رُبَّما كان مُجرَّد الذكر المتحدِّث باسم زوجته الثانية، نيساي.

زحَّافة الرمال (SANDCRAWLER)
مصطلح عام يضم تحته كل الآلات المصمَّمة للعمل في التنقيب عن المِزَاج وجمعه من صحراء أرَّاكس.

زجاج متحوِّل (METAGLASS)
زجاج يُصنع عن طريق نفخ غاز عالي الحرارة في صفائح من مرو الجاسميم. يتميَّز بتحمُّله الشديد للضغط (نحو 450 كيلوجرامًا لكل سنتيمتر مربع بسماكة سنتيمترين) وبفاعليته للعمل كمرشح انتقائي للإشعاع.

(س)

سائق الاسپايس (SPICE DRIVER)
من يقود المركبات الأرضية في صحراء أرَّاكس.

سو... سو... سوق! (SOO-SOO SOOK!) [في اللغة التركية، Su تعني ماءً]
نداء باعة الماء على أرَّاكس. (راجع: إخوتي!)

سولاري (SOLARI)
العملة الرسمية المستخدمة في الإمبراطورية. تُحدَّد قوَّة السولاري

الشـرائية فـي مفاوضـات تقـام كل أربـع سـنوات بيـن النقابـة ومجلس اللاندسـراد والإمبـراطور.

سلك شيجواير (SHIGAWIRE)

إفـراز معدنـي يخـرج مـن كرمـة أرضيـة (اسـمها العلمـي: نارفـي نارفيـام) تنمـو علـى كوكبـي سالوسـا سـوكانداس ودلتـا كايسـينج الثالـث. يتميَّـز الشـيجواير بقـوَّة مقاومـة شـد عاليـة.

سييتش (SIETCH)

فـي لغـة الفرمِـن هـو «مـأوى للتجمُّـع فـي أوقـات الخطـر». لكـن لأن الفرمِـن عاشـوا مـددًا طويلـة فـي خطـر، صـار المصطلـح يُسـتخدم للإشـارة إلـى أيِّ مغـارة يتَّخذهـا أحـد مجتمعاتهـم القبليـة مقـرًا.

سِيهَيا (SIHAYA)

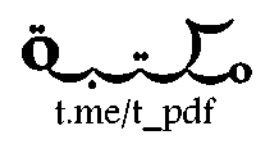
فـي لغـة الفرمِـن: الربيـع الصحـراوي المحمَّـل بـدلالات دينيـة تشـير إلـى وقـت الإثمـار و«الجنـة الآتيـة».

السراط (SIRAT)

فقـرة فـي الإنجيـل البرتقالـي تصـف حيـاة الإنسـان كرحلـة على جسـرٍ ضيِّـق (السـراط): «الجنـة عـن يمينـي، والجحيـم عـن يسـاري، وملـك المـوت مـن خلفـي».

السلامِلك (SELAMLIK)

البـلاط الإمبراطوي.



سِموتا (SEMUTA)

ثاني العقاقير المشتقَّة من بقايا خشب الإلاكا المحترق (يُشتق عن طريق الاستخلاص البلَّوري). بعض الذبذات الموسيقية اللا نمطية تضاعف من تأثير المخدِّر (الذي يُوصف بأنه نشوه لا تُنسى ولا تقدَّر بثمن). يُشار إلى تلك الذبذبات بموسيقى سِموتا.

سِرفوك (SERVOK)

آلية مضبوطة لأداء مهام بسيطة؛ إحدى الأجهزة الأوتوماتية المحدودة المسموح باستخدامها بعد الجهاد البطلري.

سَيَّادينا (SAYYADINA) [مُحرَّفة عن سيِّدنا]

مساعدة الكاهنة في منظومة الفرمِن الدينية.

سدَّادة المرشِّح (FILT-PLUG)

وحدة التصفية الأنفية التي تُلبس مع بذلة التقطير لالتقاط الرطوبة من الزفير.

السافو (SAPHO)

سائل غني بالطاقة مستخرج من جذور أحد نباتات عِكاظ، يشيع استخدامه بين المِنتات ويُقال إنه يُعزِّز القدرات العقلية. تظهر على أفواه وشفاه المتعاطين بقعٌ حمراء داكنة.

السَّاردوكار (SARDAUKAR)

جنود الإمبراطور الپاديشاه المتعصِّبون. رجال قادمون من خلفية

بيئية شديدة الضراوة لدرجة أنها تقتل نصفهم تقريبًا (6 أفراد من كل 13 فردًا) قبل سن الحادية عشرة. ينصبُّ تدريبهم العسكري على القسوة وتجاهل السلامة الشخصية بشكل شبه انتحاري. تعلَّموا منذ الطفولة استخدام القسوة سلاحًا أساسيًا، وإضعاف خصومهم بالرعب. في ذروة هيمنتهم على الشؤون الكونية، قيل إن مهاراتهم في فنون المبارزة واستعمال السيف تضاهي المستوى العاشر لآل جِناز، وقيل إن قدراتهم الماكرة في القتال قريب المدى تقترب من مهارات مقاتلات البِني جيسيرِت. تساوي قوَّة الواحد منهم قوَّة عشرة من مُجنَّدي اللاندسراد العسكريين العاديين. بحلول عهد شادام الرابع، فيما كانوا لا يزالون مهيبي الجانب، بدأت قوَّتهم توهن بالتدريج من فرط ثقتهم بالنفس، وكذا خفت وهج هالة الغموض المحيطة بشريعتهم القتالية من جراء ما نالوه من تهكُّم.

السَّادة (SADUS)

أو القضاة. اللقب الذي يُطلقه الفرمِن على القضاة المقدَّسين، من يعادلون القدِّيسين.

سالوسا سوكانداس (SALUSA SECUNDUS)

ثالث كواكب النجم جاما الحوت. تحوَّل الكوكب إلى مقرٍّ للسجون الإمبراطورية بعد نقل البلاط الإمبراطوري إلى كوكب كايتين. سالوسا سوكانداس هو موطن آل كورينو الأصلي، ومحطَّة التوقُّف الثانية في هجرات الرحَّالة الزنسُنِّيين.

السُّمُّ الكامن (RESIDUAL POISON)

ابتكار يُنسب إلى المِنتات پايتر دي ڤريس، عن طريقه يُحقن الجسم بمادَّة سامَّة لا شفاء منها، ويُسيطر عليها بإعطاء الشخص الترياق بشكل مستمر. إذا حُرم الجسم من الترياق في أيِّ وقتٍ تحدث الوفاة.

سجلُّ النِكاح (MATING INDEX)

سجلٌّ مشروع البِني جيسيرِت الأساسي لتهجين السلالات البشرية الذي يهدف إلى استيلاد الكويزاتس هاديراك عن طريق الاصطفاء الچيني.

السيال (EL-SAYAL)

«مطر الرمال»: ظاهرة سقوط الرمال التي حملتها إحدى العواصف الكوريوليسية إلى ارتفاع متوسِّط (نحو 2000 مترٍ). كثيرًا ما يجلب السيال الرطوبة إلى سطح الأرض.

السَّاحقات (CRUSHERS)

سفن فضاء عسكرية تتكوَّن من سفن صغيرة عِدَّة معقودة معًا ومصمَّمة للإسقاط على موقع العدو وسحقه.

السكِّين العاجية (CRYSKNIFE) [بالنقحرة: كريسنايف، الترجمة الحرفية: السكِّين الكريستالية أو البلَّورية]

سكِّين الفرمِن المقدَّسة. تُصنع من أسنان ديدان الرمال النافقة بحالتين: مستقرَّة وغير مستقرَّة. يجب أن تبقى السكِّين غير

المستقرَّة بالقرب من مجال الجسد البشري الكهربائي كي لا تتحلَّل، أما السكاكين المستقرة فتُعالج بطريقة معيَّنة بغرض التخزين. يبلغ طول السكِّين العاجية نحو 20 سنتيمترًا.

سريلاجو (CIELAGO)

أيٌّ من ثدييات أرَّاكس الخُفَّاشيَّة المعدَّلة التي تكيَّفت لحمل الرسائل المكوَّدة.

سونداجي (SONDAGI)

زهرة التوليب السرخسية من كوكب توبالي.

(ش)

شوماس (CHAUMAS) (أوماس في بعض اللهجات)

نوع من السُّموم يُوضع في الأطعمة الصلبة، ويختلف عن السُّموم الأُخرى التي تُستخدم بطرائق مختلفة.

شاوِمركي (CHAUMURKY)

(مِسكي أو مِركي في بعض اللهجات): سُمٌّ يُوضَع في الشراب.

شيوبس (CHEOPS) [اسم الملك خوفو في اليونان القديمة]

شطرنج هرمي مكوَّن من تسعة مستويات. ربح المباراة يكون عن طريق تحقيق هدفٍ مزدوج: وضع الوزير على قمَّة الهرم، ومحاصرة ملك الخصم.

شوسوك (CHUSUK)
الكوكب الرَّابع من النجم ثيتا شاليس. يشتهر الكوكب بجودة آلاته الموسيقية، ويُعرف بـ«كوكب الموسيقى» (راجع: فاروتا).

شال النيزوني (NEZHONI SCARF)
الوشاح الذي ترتديه نساء الفرمِن المتزوِّجات أو «المرتبطات» تحت قلنسوة بذلة التقطير بعد إنجاب الابن الأوَّل.

شادوات (SHADOUT) [أغلب الظن مُحرَّفة عن شواديف: جمع شادوف]
الغارفة من البئر. لقب شرفي عند الفرمِن.

شَيْ هولود (SHAI-HULUD) [من العربية: الشيء الخالد، شيخ الخلود]
ديدان الرمال العملاقة التي تعيش على أرَّاكس («عجوز الصَّحراء»، «شيخة الخلود»، «جدَّة الصَّحراء»). من الجدير ذكر أن الاسم -عند ذكره بنبرة معينة أو كتابته بأحرف كبيرة- يشير بشكل أساسي إلى إلهة الأرض في معتقدات الفرمِن الخرافية. تنمو ديدان الرمال إلى أحجام عملاقة (شُوهدت في أعماق الصَّحراء عيِّنات يصل طولها إلى أكثر من 400 متر)، وتعيش الواحدة منها آمادًا طويله ما لم تقتلها دودة أخرى أو تغرق في الماء. معظم رمال أرَّاكس تكوَّنت بفعل نشاط الديدان الرملية. (راجع: الصَّانعات الصغيرة).

شيطان (SHAITAN)

الشريعة (SHARI-A)

ذلك الجزء من «نبوءات بانوبليا» الذي يستعرض الطقوس الخرافية. (راجع: المبشِّرات الحاميات).

الشاهنامَة (SHAH-NAMA)

الكتاب الأوَّل شبه الأسطوري للرحَّالة الزنسُنِّيين.

شلاح (SCHLAG)

حيوان موطنه الأصلي توبايل، تعرَّض قديمًا للصيد الجائر بسبب جلده الرقيق المتين حتَّى أوشك على الانقراض.

(ص)

الصَّاعق (STUNNER)

قاذفة بطيئة تُطلق سهامًا مسمومة أو مخدِّرة. فعالية الصَّاعق محدودة وتتحدَّد بناءً على اختلاف إعدادات درع الهدف، والحركة النسبية بين الهدف والقذيفة.

«صباح الخير» (SUBAKH UL KUHAR)

تحية فرِمنية بمعنى: «كيف حالك؟».

«صباح النور» (SUBAKH UN NAR)

الرد المعتاد على التحيَّة أعلاه؛ بمعنى: «بخير، وأنت؟».

الصرفة (SARFA)

الابتعاد عن الرب.

الصَّانعة (MAKER)

(راجع: شَيْ هولود)

الصَّوت (VOICE)

قدرة خاصة تكتسبها أخوات البِني جيسيرِت عن طريق تدريب ذهني عضلي مشترك، وتسمح لمن يبرع فيها بالتحكُّم في الآخرين باستخدام طبقات صوت محدَّدة.

الصَّانعة الصغيرة (LITTLE MAKER)

الطور الأوَّل من دورة حياة ديدان أرَّاكس الرملية. متعضِّية حية نصف نباتية نصف حيوانية. تعيش يرقات الصَّانعة الصغيرة في الرمال العميقة، وفضلاتها هي التي تكوِّن كتل الاسپايس الأوَّلية.

صيَّادة متعقِّبة (HUNTER-SEEKER)

جهاز اغتيال شائع: شظية فتَّاكة تسبح في الهواء، وتُوجَّه عن طريق وحدة تحكُّم قريبة.

صورة الذات المُجسَّدة (EGO-LIKENESS)

صورة تصدر عن مسلاط شيجواير قادرة على إعادة إنتاج تفاصيل دقيقة يُقال إنها تعبِّر عن جوهر الذات التي تجسِّدها.

(ض)

الضمير المتَّقد (PYRETIC CONSCIENCE)

ويعرف أيضًا بـ«الضمير الناري»: مستوى الوجدان الذي تُؤثّر فيه التهيئة العقلية الإمبراطورية (راجع: التهيئة العقلية الإمبراطورية).

(ط)

الطَّاو (THE TAU)

في مصطلحات الفرمِن، هو الترابط بين أفراد مجتمع السييتش الذي تعزِّزه الأطعمة غنية بالاسپايس، وبالأخص نشوة الطَّاو الجماعية الناتجة عن شرب ماء الحياة التي تصهر أفراد المجتمع في بوتقة واحدة.

(ع)

عباءة (ABA)

رداء فضفاض ترتديه نساء الفرمِن، عادةً يكون أسود اللون.

عالم المِثال (ALAM AL-MITHAL)

عالم المتشابهات الروحاني الذي تُزال فيه جميع القيود المادية.

عرَّافة الحقيقة (TRUTHSAYER)

الأُمُّ الموقَّرة المؤهَّلة للدخول في غشية الحقيقة، وكشف النفاق والباطل.

عقل (AQL)

اختبار الحكمة، وهو يتكوَّن في الأصل من «سبعة أسئلة صوفية»، تبدأ بالتالي: «من المفكِّر الأوَّل؟».

عُليًا (AULIYA)

في ديانة الرحَّالة الزنسُنِّيين، هي الأنثى الجالسة على يسار الرَّب، أو: حظيَّة الرَّب.

عاصفة كوريوليسية (CORIOLIS STORM)

أيّ عاصفة رملية كبرى على أرَّاكس يساهم دوران الكوكب حول نفسه في زيادة سرعة هبوب رياحها عبر الصحاري المنبسطة، حتَّى تبلغ سرعتها 700 كيلومترٍ في الساعة.

عِكاظ (ECAZ)

الكوكب الرَّابع من النجم ألفا سنتوري بي. يُلقَّب الكوكب بـ«جنَّة النحَّاتين» لكونه موطن أشجار الضباب، وهو جنس من النباتات يُمكن نحته وتشكيله في مكانه بقوَّة التفكير البشري وحدها.

عِرق (ERG)

منطقة كثبان شاسعة، بحر من الرمال.

عمود النار (PILLAR OF FIRE)

صاروخ ناري بسيط يُستخدم للإشارة عبر الصَّحراء المفتوحة.

عُدَّة الفرمِن (FREMKIT)

عُدَّة النجاة في الصَّحراء التي يصنعها الفرمِن.

العائلات الكبيرة (HOUSES MAJOR)

حُكّام الإقطاعيات الكوكبية، رجال أعمال بين الكواكب. (راجع: آل/ عائلة نبيلة).

العائلات الصغيرة (HOUSES MINOR)

طبقة المتعهِّدين وأصحاب المشاريع المقصورين على أحد الكواكب.

العدسة الزيتية (OIL LENS)

زيت نبات الهفوف المحتجز في حالة توتُّرٍ ساكنة عن طريق حقل قوة مُغلق داخل أنبوب شفّاف ليعمل كجزء من مكوِّنات عدسة مكبِّرة أو أي جهاز آخر للتلاعب بالضوء. نظرًا لإمكانية تعديل كل عنصر من عناصر العدسة على حدة بمقدار ميكرون واحد في المرَّة، تتمتَّع العدسة الزيتية بدقَّة قصوى في التلاعب بالضوء المرئي.

علم (ILM)

علم أصول الدين، أو علم التقاليد الدينية: أحد الأصول شبه الأسطورية لعقيدة الرحَّالة الزنسُنِّيين.

عُلماء (ULEMA)

رجال الدين الزنسُنِّين.

عبء الماء (WATER BURDEN)

مصطلح فرمني: التزام مُهلك.

عملات الماء (WATERCOUNTERS)

حلقات معدنية مختلفة الأحجام، تحدِّد كلٌّ منها كمًّا معيَّنًا من الماء يمكن سحبه من أرصدة الماء في مخازن الفرمِن. لحلقات الماء دلالات عميقة (أبعد بكثير من فكرة المال المعتادة)، خصوصًا في مسائل الولادة والموت وطقوس التودُّد.

عرَّاف الطقس (WEATHER SCANNER)

شخص تدرَّب على أساليب التنبُّؤ بالطقس على أرَّاكس، ولديه القدرة على قراءة الرمال وأنماط الرياح.

(غ)

غطاء عازل (DOORSEAL)

غطاء بلاستيكي متنقِّل يُستخدم لضمان عدم خروج الرطوبة من معسكرات المبيت اليومية التي ينصبها الفرمِن في الكهوف.

غفلة (GHAFLA)

تسليم النفس للإلهاءات، ما يجعل الشخص غافلًا لا يمكن الوثوق به.

غنيمة (GHANIMA)

ما يُكتسب في معركة أو قتال. الغنيمة عادةً تذكار من القتال يحتفظ المرء به لتنشيط الذاكرة.

غور (PAN)

على أرّاكس، هو أيٌّ منخفض ناتج عن انهيار أرضي. أمّا على الكواكب التي تحوي ماءً، فيشير الغور إلى منطقة كانت مغطّاة سابقًا بمسطّح مائي قبل أن تجفّ. يُظنُّ أن أرّاكس يضمُّ غورًا واحدًا على الأقل من هذا النوع، لكن هذا الأمر ما زال محل جدل.

غزوة (RAZZIA)

غارة مسلّحة من بعض أهدافها الرجوع بالمغانم.

غشية الحقيقة (TRUTHTRANCE)

حالة من الغشية تشبه التنويم الإيحائي، يستحثُّها أحد عقاقير «طيف الوعي» الكثيرة، وفيها يستطيع المراقب الذي تعتريه الغشية أن يستشعر خلجات الكاذب المتعمّد ويكشف كذبه. (لاحظ أن عقاقير «طيف الوعي» كثيرًا ما تكون قاتلة إلا على من تحصّنوا تدريجيًا منها وصاروا قادرين على تغيير تركيب السُّمّ داخل أجسامهم).

فارفلوشس (FAUFRELUCHES)

نظام التمييز الطبقي الصَّارم الذي تفرضه الإمبراطورية والذي يتلخَّص في شعار: «يُوجد لكلّ رجلٍ مكان، وعلى كلّ رجل أن يلزم مكانه».

الفرمِن (FREMEN)

القبائل الحرة التي تقطن كوكب أرَّاكس، سكَّان الصَّحراء، ما تبقَّى من نسل الرحَّالة الزنسُنِّيين (ينعتهم القاموس الإمبراطوري بـ«قراصنة الرمال»).

الفدائيون/ الفدائيين (FEDAYKIN)

كتائب المغاوير من الفرمِن. تاريخيًا: هي مجموعة تكوَّنت وتعهدت بالتضحية بحياتها لتصحيح كل خطأ.

الفرقاطة (FRIGATE)

أكبر سفينة فضاء تستطيع الهبوط على سطح أحد الكواكب والإقلاع منه بسلامة.

فيلم ميكروني (MINIMIC FILM)

سلك شيجواير قُطره ميكرون واحد، يُستخدم في الغالب لنقل معلومات التجسُّس والتجسُّس المضاد.

فقه (FIQH)

المعرفة أو الشريعة الدينية: أحد الأصول شبه الأسطورية لديانة الرحَّالة الزنسُنِّيين.

فيء (FAI)

ضريبة المياه: ضريبة أساسية على أرَّاكس.

فيلق إمبراطوري (IMPERIAL LEGION)

عشرة ألوية عسكرية (30 ألف رجل).

ڤاروتا (VAROTA)

صانع آلات الباليسِت الموسيقية الذائع الصيت، من سكَّان تشوسوك الأصليين.

ڤِرايت (VERITE)

إحدى عقاقير عِكاظ السالبة للإرادة. يجعل الشخص غير قادر على الكذب.

(ق)

قائد (CAID)

رتبة ضمن قوَّات السَّاردوكار تُمنح للمسؤولين العسكريين الذين تتطلَّب مهامهم في الغالب التعامل مع المدنيين، وتمنح كذلك للحكَّام العسكريين على قطاعٍ كوكبيٍّ كامل. القائد رُتبة أعلى من الباشار، وأدنى من البورسِج.

قاطع ليزري (CUTTERAY)

نسخة معدَّلة قصيرة المدى من بندقية الليزر، تُستخدم غالبًا أداةَ قطع أو مبضعَ جرَّاح.

قانون الحصانة (DICTUM FAMILIA)

القانون الوارد في «المعاهدة الكبرى» الذي يحظر قتل شخص من العائلة المالكة أو أحد أفراد العائلات النبيلة عن طريق خيانة غير مشروعة. يحدِّد القانون الخطوط العريضة للقتل المسموح به، ويحدُّ من عمليات الاغتيال.

القمر الأوَّل (FIRST MOON)

أكبر الجُرمين التابعين لكوكب أرَّاكس، وأوَّلهما طلوعًا في الليل. يتميَّز بأن التضاريس على سطحه تأخذ شكل قبضة يدٍ بشرية.

قور (GARE)

تلٌّ منعزل شديد التحدُّر.

قِراط/ إلى الأمام (GEYRAT)

صيحة يقولها قائد الدودة للمساعدين الذين يوجِّهون مسارها.

قاضي الفترة الانتقالية (JUDGE OF THE CHANGE)

مسؤولٌ يُعيِّنه مجلس اللاندسراد الأعلى والإمبراطور لمراقبة فترة انتقال ملكية إحدى الإقطاعيات من عائلة إلى أخرى، أو للتحكيم بين الأطراف المتنازعة في مفاوضات الكانلي، أو في معركة رسمية

فـي إحـدى حـروب الاغتيـالات. لا يجـوز الطعـن فـي سـلطة القاضـي التحكيميـة إلا أمـام المجلـس الأعلـى، وبحضـور الإمبراطـور.

قفل راحة اليد (PALM LOCK)

أيُّ قفلٍ يُفتح بملامسة راحة يد الشخص الذي اقترن به.

قناة (QANAT)

ترعـة مفتوحـة لنقـل ميـاه الـري بطريقـة عبـر الصَّحـراء فـي ظـل ظـروف محكومـة بضوابـط.

قِرطَيبا (QIRTAIBA)

(راجع: **بِن قِرطَيبا**).

القمر الثاني (SECOND MOON)

أصغـر الجُرميـن التابعيـن لكوكـب أرَّاكس، يشـتهر بتضاريـس سطحه التـي تأخـذ شـكل فـأر الكنغـر.

(ك)

كلادان (CALADAN)

ثالث كواكب النجم دلتا باڤونيس، ومسقط رأس المؤدِّب.

كانتو ورسپوندو (CANTO and RESPONDU)

طقـوس ابتهـال، وجـزء مـن «نبـوءات پانوپليـا» التـي تبذرهـا المبشِّـرات

الحاميات (المِسيونيرا بروتاكتيفا): ذراع الخرافة السوداء لطائفة البِني چيسيرِت. (راجع: المبشِّرات الحاميات).

كرة إنارة (GLOWGLOBE)
مصباح إنارة مكتفٍ ذاتيًا يطفو في الهواء (تعمل كرات الإنارة عادةً بالبطَّاريات العضوية).

الكانلي (KANLY)
حقُّ النزاع أو الثأر الرسمي الذي تضبطه قيود صارمة بموجب قوانين «المعاهدة الكبرى» (راجع: قاضي الفترة الانتقالية). سُنَّت القوانين في الأصل لحماية الأبرياء غير المعنيين بالنزاع.

الكارما (KARAMA)
معجزة؛ تدخُّل من العالم الروحي.

كِسوة (KISWA)
قماش مزدان برسومات مستوحاة من أساطير الفرمِن.

كتاب العبر (KITAB AL-IBAR) [الاسم مُستوحى من كتاب ابن خلدون]
كتاب طوَّره الفرمِن على أرَّاكس يجمع بين دليل نجاة في الصَّحراء وكُتيِّب إرشاد ديني.

«كل واحد!» (KULL WAHAD!) [تُرجم المصطلح في

النص إلى: وا عجباه!]
أسلوب تعجُّب شائع في الإمبراطورية بمعنى «أنا متأثِّر بشدَّة!»، ويختلف تفسيره الدقيق حسب السياق (يُقال إن المؤدِّب رأى ذات يوم فرخ صقر صحراوي يخرج من بيضته فهمس مشدوهًا: «كل واحد!»).

كتاب مرئي (FILMBOOK)

أيٌّ من الكُتب التي توضع في مسلاط الشيجواير وتحمل نبضات ذاكرة، وتستخدم في التدريب.

كشَّاف سموم (POISON SNOOPER)

جهاز تحليل إشعاعي يعمل ضمن طيف حاسة الشم ويُستخدم للكشف عن المواد السَّامة.

كولون (KULON)

نوع من الحمير الوحشية كان يعيش في سهوب أسيا على كوكب تيرا (الأرض) وتكيَّف للعيش في بيئة أرَّاكس.

كويزاتس هاديراك[1] (KWISATZ HADERACH)

«مُختصِر الطريق». اللقب الذي أطلقته أخوية البِني چيسيرِت

---

(1) كويزاتس هاديراك Kwisatz Haderach: مصطلح مُحرَّف عن المصطلح العبري «كفيتزات هادريك Kefitzat Haderech» الذي يعني حرفيًا «تقليص الدَّرب»، وهو مفهوم أقرب إلى «طيِّ الأرض» في الموروث الثقافي العربي، إحدى كرامات «أهل الخطوة»، الذين يزعمون امتلاك قدرة خارقة على قطع مسافة طويلة جدًا في لمح البصر. المعنى قريب جدًا من الوصف القرآني لآصف بن برخيا الذي عرض إحضار عرش بلقيس ملكة سبأ أمام النبي سليمان: «قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ». مفهوم فرانك هربرت عن الكويزاتس هاديراك يُشبه ويرتبط بقوة بمفهوم الكفيتزات هادريك، أو «صاحب الخطوة».

على «المجهول» الذي يسعين لاستيلاده عن طريق برنامج التهجين والاصطفاء الجيني: إنه ذكر من البِني جيسيرِت سيتمكّن بقدراته العقلية العضوية القفز في المكان والزمان.

كتلة الاسپايس الأوّلية (PRE-SPICE MASS)

المادّة الناتجة عن امتزاج إفرازات الصّانعات الصغيرات (الديدان الصغيرة) بالماء. في هذه المرحلة، تنمو كتلة الاسپايس نموًّا مفرطًا كنموّ الفطريات في باطن الأرض، ثم تنفجر تحت تأثير الضغط انفجارًا غازيًا مُميَّزا، وتحل المواد الخارجة من جوف الأرض محل المادة الموجودة على سطحها. هذه المادة -بعد تعرُّضها للشمس والهواء- تُصبح المِزَاج. (راجع أيضًا: المِزَاج وماء الحياة).

الكادحون (PYONS)

القرويُّون أو العُمَّال القاصرون على كوكبٍ ما. إحدى الطبقات الدنيا في نظام فارفلوشس الطبقي. بموجب القانون، هم في كفالة الحكومة الكوكبية.

كاهن الماء (WATERMAN)

الشخص المكلّف بأداء الشعائر المتعلّقة بالماء العادي وبـ«ماء الحياة».

(ل)

اللات (AL-LAT)

شمس البشر الأصلية. شاع استخدام الاسم للإشارة إلى الشمس الأساسية لأيّ كوكب.

لغة المعارك (BATTLE LANGUAGE)

أي لغة خاصة بمصطلحات محدَّدة طوِّرت للتواصل بشكل واضح لا لبس فيه في أوقات الحرب.

«لا، لا، لا» (LA, LA, LA)

صيحة حزن فرمِنية.

لبَن (LIBAN)

اللبَن في لغة الفرمِن هو ماء ممزوج بالاسپايس مع دقيق اليوكا. في الأصل هو مشروب اللّبَن الرائب.

لسان الغيب (LISAN AL-GAIB)

أو «الصَّوت الآتي من عالم آخر». في أساطير الفرمِن المسيانية، هو نبي أتٍ من كوكب آخر. أحيانًا ما يُترجم اللقب إلى «مانح الماء». (راجع: المهدي).

(م)

مصيدة الرياح (WINDTRAP)

جهاز يُوضع في مسار الريح الشديدة قادر على تكثيف الرطوبة من الهواء الذي يدخله، عادةً عن طريق انخفاض حاد وواضح في درجة الحرارة داخل المصيدة.

ماء الحياة (WATER OF LIFE)

«سمٌّ مُنير» (راجع: الأمُّ الموقَّرة): السائل الذي تفرزه دودة الرمال لحظة موتها غرقًا (راجع: شَيْ هولود)، والذي تشربه إحدى

الأُمَّهات الموقَّرات ويُحوِّله جسدها إلى عقار يُستخدم في طقس نشوة الطَّاو. أحد عقاقير «طيف الوعي».

مصنع الاسپايس (SPICE FACTORY)

(راجع: زحَّافة الرمال)

المجلس الأعلى (HIGH COUNCIL)

دائرة اللاندسراد الداخلية المفوَّضة بالعمل كمحكمة عُليا للفصل في النزاعات التي تنشب بين العائلات النبيلة.

مطراق (THUMPER)

قَضيب قصير مُزوَّد بمِدقَّة تعمل بزنبرك، يُغرز في الرمال لإرسال نبضات تستدعي شَيَّ هولود. (راجع: خطاطيف الصَّانعة).

مضادات الجاذبية (SUSPENSOR)

الاستخدام الثانوي (البطيء في استهلاك الطاقة) لمولِّدات هولتزمان. تلغي المضادات عمل الجاذبية ضمن حدود معينة تحدِّدها كتلة الجسم النسبية ومقدار استهلاك الطاقة.

مجسَّم سوليدو (SOLIDO)

الصورة الثلاثية الأبعاد التي يعرضها مسلاط سوليدو باستخدام إشارات مرجعية (أو صور مأخوذة بتقنية 360 درجة) مطبوعة على بكرة شيجواير. تُعدُّ مسالط السوليدو المصنوعة على كوكب إيكس هي الأفضل.

منشاق الرمال (SANDSNORK)

جهاز يضخ الهواء إلى داخل خيمة تقطير غطّتها الرمال.

المفوَّضون بالكزارة (QUIZARA TAFWID)

كهنة الفرمِن (بعد المؤدِّب).

مشرفة عُليا (PROCTOR SUPERIOR)

واحدة من أُمَّهات البِني چيسيرِت الموقَّرات التي تتقلَّد أيضًا منصب ناظرة إقليمية لإحدى مدارس البِني چيسيرِت. (عادةً ما تُوصف بـ«بِني چيسيرِت ذات بصيرة»).

المهدي (MAHDI)

في أساطير الفرمِن المسيانية، هو «من سيقودنا إلى الجنَّة».

مانتين (MANTENE)

الحكمة الأساسية، الحُجَّة الداعمة، المبدأ الأول. (راجع: چيوديتشار).

مَولَى (MAULA)

عبد.

مسدَّس المَولَى (MAULA PISTOL)

سلاح مقذوفات مُزوَّد بزُنبرك يطلق سهامًا سامة، مداه نحو أربعين مترًا.

المِزَاج (MELANGE)

صفوة الاسبايس: المادَّة النفيسة التي يتفرَّد بها كوكب أرَّاكس.

يسبِّب الاسپايس -الذي يشتهر قبل كل شيء بتأثيره المضادة للشيخوخة- إدمانًا بسيطًا عند استهلاكه بكمِّيات صغيرة، وإدمانًا شديدًا عند تناوله بكمِّيات تزيد عن جرامين يوميًا لكل سبعين كيلوجرامًا من وزن الجسم. ادَّعى المؤدِّب أن الاسپايس كان مفتاح قدراته التنبُّؤية، كما ادَّعى ملَّاحو النقابة أمورًا مماثلة. أحيانًا يصل سعر الاسپايس في السوق الإمبراطوري إلى 620 ألف سولاري لكل ديكاجرام[1]. (راجع: أعين العباد، ماء الحياة، مادة الاسپايس الأوَّلية).

منتات (MENTAT)

فئة المواطنين الإمبراطوريين الذين تدرَّبوا لبلوغ أعلى درجات التفكير المنطقي. «حاسبات بشرية».

محنة (MIHNA)

موسم اختبار شباب الفرمِن الراغبين في أن تقبلهم القبيلة بصفتهم رجالًا.

مشمش (MISH-MISH)

فاكهة.

مشرف الرمال (SANDMASTER)

المشرف العام على عمليات استخراج المِزَاج.

---

(1) الديكاجرام الواحد يساوي 10 جرام. (المترجم).

المِصر/ مِصر (MISR)

المصطلح الزِنسُنِّي التاريخي الذي يطلقه الفرمِن على أنفسهم، بمعنى: «الشَّعب».

المبشِّرات الحاميات (مسيونيرا بروتاكتيڤا) (MISSIONARIA PROTECTIVA)

ذراع البِني چيسيرِت السوداء المنوطة بنثر بذور الخرافات المُعدية على الكواكب البدائية، ومن ثمَّ تمهيد الطريق أمام البِني چيسيرِت لاستغلال تلك الكواكب. (راجع: نبوءات پانوپليا).

المؤدِّب (MUAD'DIB) [في النطق الغربي: موادِّيب]

فأر الكنغر المتكيِّف مع بيئة كوكب أرَّاكس، المرتبط في ميثولوچيا الفرمِن الروحية أرضية المنشأ بقمر الكوكب الثَّاني بسبب تضاريس سطحه التي تأخذ هيئته. تنظر قبائل الفرمِن إلى المخلوق بتقدير لتمكُّنه من مهارات البقاء في الصَّحراء المفتوحة.

مدير الناحية (MUDIR NAHYA)

اللقب الذي أطلقه الفرمن على رابان الوحش (الكونت رابان من كوكب لانكڤيل)، ابن أخ البارون هاركونن الذي ظلَّ الحاكم الكوكبي على أرَّاكس سنوات كثيرة. عادةً ما يُترجم الاسم إلى «الحاكم الشيطاني».

مُشتمل (MUSHTAMAL)

حديقة صغيرة أو فناء حديقة.

مسكي (MUSKY)

سُمٌّ يوضع في الماء. (راجع شاومِركي).

«مو زين والله!» (MU ZEIN WALLAH!)

بمعنى «هذا ليس بالشيء الجيِّد». مفتتح لعنة فِرمِنية متوارثة ضد الأعداء.

المعاهدة الكبرى (GREAT CONVENTION)

الهدنة الكونية التي تستمد قوَّتها واستمراريتها من توازن القوى بين النقابة والعائلات النبيلة وسُلطة الإمبراطور. يحظر بند المعاهدة الرئيس استخدام الأسلحة الذرِّية ضد أهدافٍ بشرية، ويبدأ كل بند من بنودها بعبارة: «لا بُدَّ من إطاعة الأعراف...».

شبكة تسخين (GRIDEX PLANE)

آلة فصل مواد تستخدم فارق الجهد (التفريغ الكهربائي) لفصل الرمال عن كُتَل مِزَاج الاسباىس في المرحلة الثانىة في عملية تكرىر الاسباىس.

المعدن المطواع (FANMETAL)

معدن يتكوَّن من نمو بلورات الجاسميم في وسط من الديورالومين، ويتميَّز بصلابته الشديدة مقارنةً بوزنه. الاسم مشتق من استخدامه الشائع في الهياكل القابلة للطي التي تُفتح بفرد طيَّاتها.

مُخـدِّر الإلاكـة (ELACCA DRUG) [أغلـب الظـن، النطـق الغربـي للكلمـة العربيـة: عِلاقـة]

عقـار يُسـتخلص عـن طريـق حـرق خشـب الإلاكـة الحُبيبـي الأحمـر الموجـود علـى كوكـب عِـكاظ. يعمـل المخـدِّر علـى سـلب الشـخص إرادة الحفـاظ علـى حياتـه، يُسـتخدم عـادةً لإعـداد المصارعيـن العبيـد قبل دخولهـم إلـى الحلبـة. يتحوَّل لـون جلـد الشـخص المُخـدَّر إلـى لـون الجـزر.

مُستخلِصات النـدى أو مُكثِّفـات النـدى (DEW COLLECTORS or DEW PRECIPITATORS)

لا ينبغـي الخلـط بينهـا وبيـن «جامعـو النـدى». المسـتخلصات أو المكثِّفـات هـي أجهـزة علـى أشـكال بيـوض قطرهـا نحـو أربعـة سـنتيمترات، مصنوعـة مـن بلاسـتيدات خضـراء يسـتحيل لونهـا إلـى الأبيـض العاكـس عنـد تعريضهـا للضـوء، وتعـود إلـى شـفافيتها فـي الظـلام. للمسـتخلصات أسـطح شـديد البـرودة يتكثَّـف عليهـا النـدى فجـرًا، ويسـتخدمها الفرمِـن لتبطيـن المنخفضـات الزراعيـة المقعَّـرة، حيـث توفِّـر مصـدرَ ميـاه زهيـد ولكـن مسـتدامًا.

المُكوِّدات (DISTRANS)

جهـاز يضـع بصمـة عصبيـة مؤقَّتـة علـى الجهـاز العصبـي للثدييَّـات الخُفَّاشـية أو الطيـور. عنـد اسـتخدامه، تحمـل صيحـة الحيـوان الطبيعيـة بصمـة الرسـالة التـي يمكـن فصلهـا عـن الموجـة الحاملـة باسـتخدام مُكـوِّد أخـرى.

معركة كورين (BATTLE OF CORRIN)

معركة الفضاء التي استمدَّت منها عائلة كورينو الإمبراطورية اسمها. دارت رُحى المعركة بالقرب من النجم الصافي (سيجما دراكونيس) في عام 88 ق ن، ووطًّدت لهيمنة العائلة الحاكمة القادمة من كوكب سالوسا سوكانداس.

مخروط الصَّمت (CONE OF SILENCE)

مجال جهاز التشويش الذي يحد من انتشار الصَّوت أو أيِّ اهتزاز آخر عن طريق تثبيط الاهتزازات بتردُّدٍ معاكس 180 درجة.

مسدَّس باراداي (BARADYE PISTOL)

مسدَّس هواء ذو شحنة ثابتة طُوِّر على كوكب أرَّاكس، يُستخدم لنثر بقعة واسعة من الصبغة على الرمال.

(ن)

النقابة (GUILD)

أو «نقابة الفضاء»: إحدى الركائز السياسية الثلاث التي تحافظ على المعاهدة الكبرى. النقابة هي ثاني مدرسة للتدريب النفسي والبدني أُنشئت بعد الجهاد البطلري (راجع: البِني جيسيرت). يُعدُّ احتكار النقابة للسفر والنقل عبر الفضاء، وكذلك الخدمات المصرفية المجرِّية، نقطة بداية التقويم الإمبراطوري.

النَّواكر (NOUKKERS)

ضبَّاط الحرس الإمبراطوري الذين تربطهم صلة دم بالإمبراطور.

رُتبة تقليدية تُعطى لأبناء الحظيّات الإمبراطوريات.

نبوءات پانوپليا (PANOPLIA PROPHETICUS)

المصطلح الذي يشمل الخُرافات التي تستخدمها أخوية البِني چيسيرِت لاستغلال الكواكب البدائية. (راجع: المبشّرات الحاميات).

النصل المُنسل (SLIP-TIP)

أيُّ نصلٍ رفيع قصير (عادةً ما يكون مسموم الطرف) يُمسك باليد اليسرى ويستخدم في قتال الدروع.

نقابة الفضاء (SPACING GUILD)

(راجع: النقابة)

نهج البِني چيسيرِت (BENE GESSERIT WAY)

القدرة على ملاحظة أدق التفاصيل.

نائب (NAIB)

الشخص الذي أقسم ألَّا يأسره العدو حيًا على الإطلاق؛ قسم مُتوَارث يحلفه قادة الفرمِن.

(ه)

«ها اليوم!» (HAL YAWM)

بمعنى: «الآن! أخيرًا». إحدى صيحات الفرمِن.

هايلاينر (HEIGHLINER)

اسـم حاملـة البضائـع الأساسـية فـي أسـطول النقـل التابـع لنقابـة الفضـاء.

هَجْر (HARJ)

رحلة صحراوية.

هجرة (HAJRA)

رحلة بحث.

(و)

والاك 9 (WALLACH IX)

الكوكب التاسـع التابـع للنجـم لوچيـن، وموقـع مدرسـة البِني چيسيرِت الأصلية.

ولي (WALI)

شاب فرمِني لم يُختبر بعد.

ولي العهد (-NA)

الـوارث الـذي سـيتقلّد الحكـم بعـد وفـاة الحاكـم الحالـي أو إقصائـه عـن الحكـم.

وهدات الغبار (DUST CHASM)

أيُّ صدع أو مُنخَفض عميق في صحراء أرّاكس امتلأ بالغبار ولا تبدو هيئته مختلف عن السطح المحيط. وهدات الغبار أفخاخٌ مميتة تبتلع البشر والحيوانات. (راجع: حوض المدِّ والجذر الغباري).

(ي)

يالي (YALI)

المأوى الشخصي داخل السييتش.

«يا يا يوم!» (YA! YA! YAWM!)

ترنيمة فرمِنية تُردَّد في أثناء طقوس شديدة الأهمِّية، عادةً ما تُترجم إلى «اسمعوا وعوا!».

«يحيى الشُهدا» (YA HYA CHOUHADA)

صيحة الفدائيين الحربية. كلمة شُهدا تعني «المقاتلين ضد الظلم»، ولها دلالة معيَّنة تشير إلى أن هؤلاء المقاتلين لا يجاهدون في سبيل أيِّ شيءٍ، بل في سبيل شيءٍ معيَّنٍ فحسب.

تعليقات على الخريطة

مقياس تحديد الارتفاع: سطح البيداء الكبرى.
خط الطول المرجعي: خطُّ الزوال المار عبر جبل المرصد.
مستوى الغطاء القطبي الجليدي: 500 متر تحت مستوى سطح البيداء.
مدينة قرطاج: تبعد نحو 200 كم شمال شرق مدينة أراكين.
كهف الطيور: يقع في تلال حبانية.
السهل الجنائزي: عِرق مفتوح (كثبان رملية مترامية).
البيداء الكبرى: صحراء شاسعة مستوية، على عكس منطقة العِرق/الكثبان. تمتدُّ الصَّحراء المفتوحة من خط عرض 60 درجة شمالًا إلى خط عرض 70 درجة جنوبًا. أغلب البيداء الكبرى رمال وصخور، تتخلَّلها بعض التكوينات الناتئة المكوِّنة لشبكة السراديب الجوفية.
الفلاة الكبرى: منخفض صخري مترامي الأطراف يندمج في صحراء العِرق، ويرتفع عن مستوى سطح البيداء بـ100 متر. في مكانٍ ما من الفلاة، يُوجد الغور الملحي الذي اكتشفه باردو كاينز (والد ليت كاينز). تُوجد أيضًا نتوءات صخرية يصل ارتفاعها إلى 200 متر تمتدُّ من سييتش تابر جنوبًا إلى مجتمعات السييتشات المبيَّنة.
مضيق حَرق: يطلُّ ضريح جمجمة ليتو على هذا المضيق.
الأراضي المزروعة في الجنوب: لا تظهر على هذه الخريطة. تقع على خطِّ عرض 40 درجة جنوبًا تقريبًا.

الفلق القديم: صدع في جدار أراكين الحامي يبلغ طوله 2240 مترًا؛ الفلق فجَّره پول المؤدِّب.

الهُوَّة الحمراء: هاوية يبلغ عمقها 1582 مترًا تحت مستوى سطح البيداء.

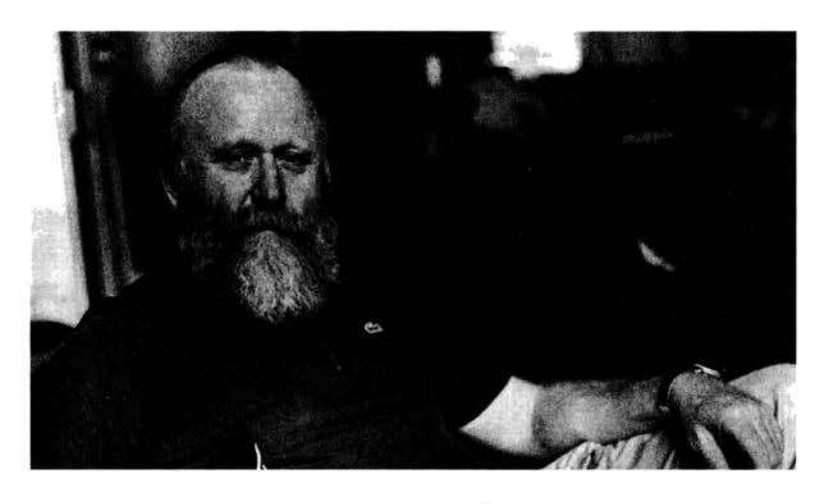
حافَة الجدار الغربية: منحدر شاهق (ارتفاعه 4600 متر) يبرز من جدار أراكين الحامي.

ممرُّ الرياح: مجرى تحدُّه التلال من الجانبين يفضي إلى قُرى الأحواض.

حدود الديدان: خطٌّ دائري يحدِّد أبعد مسافة سُجِّل وصول الديدان إليها شمالًا (ازدياد الرطوبة -وليس البرودة- هو العامل المقيِّد للديدان الذي يرسم حدود تلك الدَّائرة).



السَّهل الجنائزي
الفلاة الكبرى
جبل المرصد
(8110 م)
حوض الجين
كهف التلال
حوض تيونو
سيتش تابر
غُروة الجرف
الجدار الحامي
جبل آيداهو
(7400 م)
الأرض الوعرة
(4600 م)
الفلق القديم
أراكين
حافة الجدار الغربي
(6240 م)
قرطاج
حوض حبّا
(300 م)
الحوض الإمبراطوري
الجدار الحامي
(4500 م)
سيهيا
(234 م)
تلال
جارا كولون
الهوّة الحمراء
ممرّ الرياح
نطاق العرق الأصفر
باستي مسا
مجمعات المهرّبين
سيتش تبوك
صخرة الذقن
الجدار الجنوبي الواطئ
حدود الديدان
الحوض القطبي
القطب الشمالي
منخفض السيبلاجو (-200 م)
خط طول °180
خط عرض °60
مسافة 20 مطراقًا
إلى الأراضي المزروعة والجنوب
عرق حبانية
الجدار الغربي الواطئ
(1200 م)
تلال حبانية
كهف الطيور
قُرى الكادحين
مجمعات السييتشات
محطّات تجارب نباتية



وُلِد فرانك هربرت، مؤلِّف سداسية «كثيب» التي حقَّقت أعلى المبيعات، في مدينة تاكوما في ولاية واشنطن، وتخرَّج في جامعة واشنطن في سياتل. خلال حياته، عمل هربرت في مجموعة مختلفة من الوظائف، من بينها مصوِّر تلفزيوني، ومعلِّق إذاعي، وسائق شحن، ومدرِّب مهارات بقاء، ومحلِّل نفسي غير متخصِّص، ومدرِّس كتابة إبداعية، ومحرِّر صحفي في مجموعة من صحف السَّاحل الغربي، قبل أن يصبح كاتبًا متفرِّغًا.

في عام 1952، نشر فرانك هربرت أولى قصصه في الخيال العلمي بعنوان «البحث عن شيء» في مجلَّة قصص مذهلة Statling Stories. لكن شهرته الحقيقية لم تبدأ حتَّى عام 1965، حين نشر رواية «كثيب»، التي تبعها بعد ذلك بخمسة أجزاء هي: «مسيح كثيب»، و«ذرِّية كثيب»، و«الإمبراطور الإله»، و«هراطقة كثيب»، و«كثيب: مقرُّ الأخويَّة». ألَّف هربرت نحو عشرين رواية أخرى، من ضمنها «الطَّاعون الأبيض» و«تجربة دوسادي» و«الوجهة: الفراغ»، وتُوفِّي عام 1986.

F R A N K H E R B E R T

«معلم من معالم أدب الخيال العلمي الحديث».
- شيكاجو تريبيون

«كثيب الآن قد تكون أهمَّ بكثيرٍ ممَّا كانت حين نُشِرت أوَّل مرَّة».
- ذا نيويوركر

رائعة فرانك هربرت الكلاسيكية: انتصارٌ للخيال، وواحدة من أكثر روايات الخيال العلمي مبيعًا في التَّاريخ.

تدور أحداث رواية «كثيب» في المستقبل البعيد بعد أكثر من 20 ألف سنة، على كوكب أرَّاكس الصحراوي، وتسرد قصَّة الصبيِّ بول آتريديز -الذي صار يُعرف باسم المؤدِّب- في مزيج مذهل من الخيال العلمي والمغامرة والصوفية والقضايا البيئية والسياسية.
فازت «كثيب» بأوَّل جائزة نيبولا عام 1966، وتشاركت جائزة هيوجو مناصفةً في العام نفسه، وشكَّلت حجر الأساس لواحدة من أعظم الملاحم في تاريخ أدب الخيال العلمي.

«متفرِّدة في عمق شخصياتها الروائية وفي تفاصيل العالم الاستثنائي الذي خلقته. لا أعرف عملًا يمكن مقارنته بها غير سيِّد الخواتم».
- آرثر كلارك

«قويَّة، ومقنعة، وعبقرية تمامًا».
- روبرت هاينلاين

«ظاهرة مذهلة في أدب الخيال العلمي».
- واشنطن بوست


9 789921 730746





